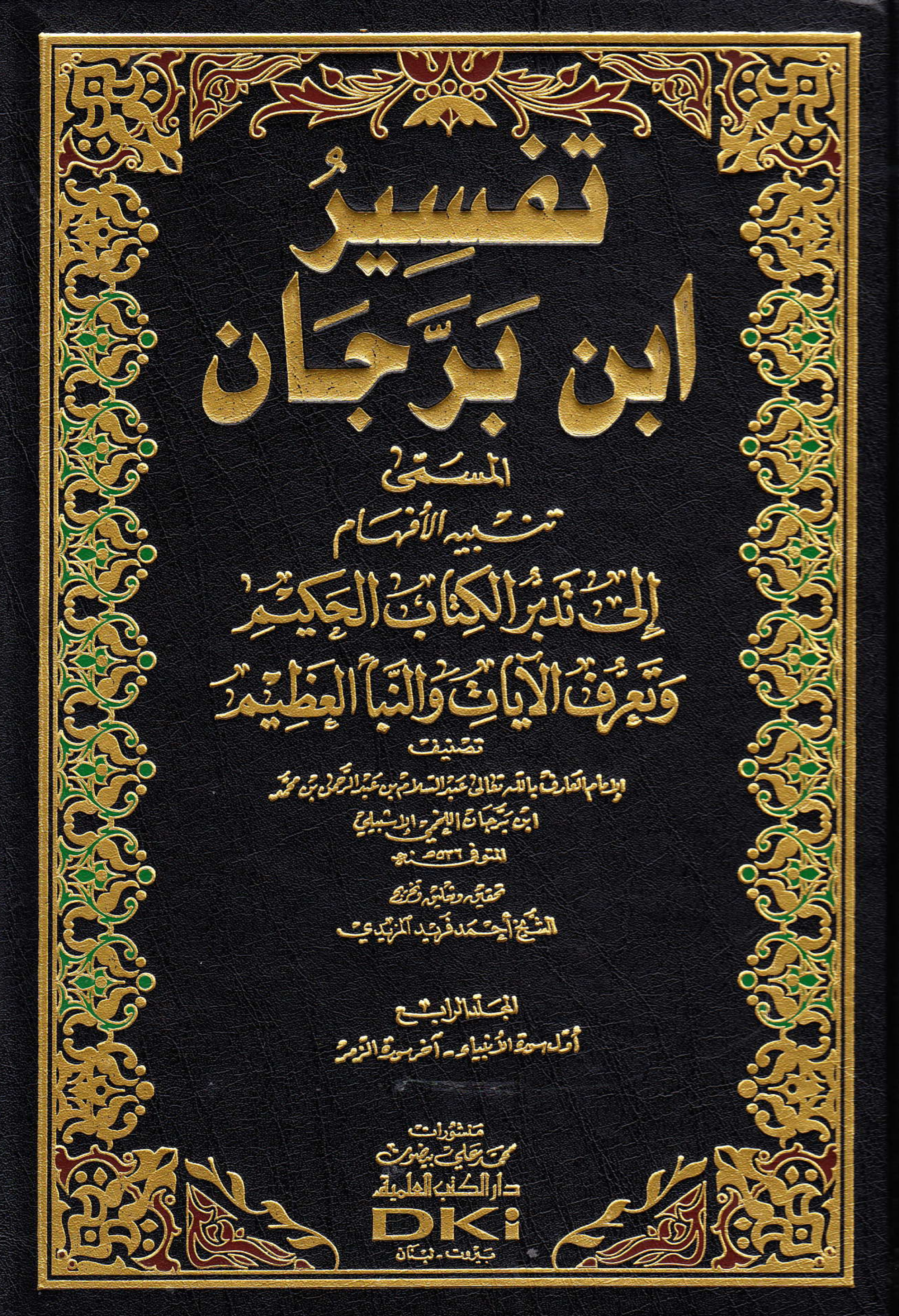

تفسير
ابن برَّجان
المسمى
تنبيه الأفهام
إلى تدبر الكتاب الحكيم
وتعرف الآيات والنبأ العظيم
تصنيف
الإمام العارف بالله تعالى عبد السلام بن عبد الرحمن بن محمد
ابن برجان اللخمي الإشبيلي
المتوفى ٥٣٦ هـ
تحقيق وتعليق وتخريج
الشيخ أحمد فريد المزيدي
المجلد الرابع
أول سورة الأنبياء - آخر سورة الزمر
منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
DKi
بيروت - لبنان

تفسير ابن برّجان

تنبيه الأفهام إلى تدبّر الكتاب الحكيم وتعرّف الآيات والنبأ العظيم

تصنيف

الإمام العارف بالله تعالى عبد السلام بن عبد الرحمن بن محمد
ابن برّجان اللخمي الإشبيلي
المتوفى ٥٣٦ هـ

تحقيق وتعليق وتخريج
الشيخ أحمد فريد المزيدي

الجزء الرابع

أول سورة الأنبياء - آخر سورة الزمر



أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

http://www.al-ilmiyah.com info@al-ilmiyah.com sales@al-ilmiyah sales@al-ilmiyah.com baydoun@al-ilmiyah.com

Title : TAFSĪR IBN BARRAJĀN
AL-MUSAMMĀ
TANBĪH AL-AFHĀM ILĀ TADABBUR
AL-KITĀB AL-ḤAKĪM WA TA'ARRUF
AL-ĀYĀT WAN-NABA' AL-'AẒĪM

THE EXEGESIS OF IBN BARRAJAN
OF THE HOLY QUR'AN

الكتاب : تفسير ابن برَّجان
المسمى: تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم
وتعرف الآيات والنبأ العظيم

التصنيف : تفسير قرآن

Classification: Exegesis of The Holy Qur'an

المؤلف: الإمام عبد السلام بن عبد الرحمن ابن برَّجان (ت 536 هـ)

Author : Al-Imam Abd As-Salam ben Abd Ar-Rahman ibn Barrajan (D. 536 H.)

المحقق : الشيخ أحمد فريد المزيدي

Editor : Ash-sheikh Ahmad Farid Al-Mazidi

الناشر : دار الكتـــب العلميـــة - بيـــروت

Publisher: Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah - Beirut

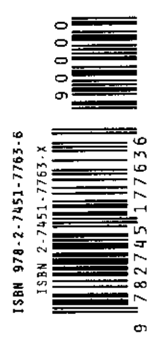
Pages (5 Volumes)	2880	**عدد الصفحات** (5 مجلدات)
Size	17* 24 cm	**قياس الصفحات**
Year	2013 A.D. -1434 H.	**سنة الطباعة**
Printed in : Lebanon		**بلد الطباعة** : لبنـــان
Edition : 1st (2 colors)		**الطبعة** : الأولى (لونان)

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Est. by Mohamad Ali Baydoun
1971 Beirut - Lebanon

Aramoun, al-Quebbah,
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel : +961 5 804 810/11/12
Fax: +961 5 804813
P.o.Box: 11-9424 Beirut-Lebanon,
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢ ٥ ٩٦١+
فاكس: ٨٠٤٨١٣ ٥ ٩٦١+
ص.ب: ١١-٩٤٢٤ بيروت-لبنان
رياض الصلح-بيروت ١١٠٧٢٢٩٠

ISBN 978-2-7451-7763-6
ISBN 2-7451-7763-X



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة الأنبياء[1]

(١) مكية بلا خلاف، وعن عبد الله: الكهف، ومريم، وطه، والأنبياء من العتاق الأول، وهن من تلادي أي من قديم ما حفظت وكسبت من القرآن كالمال التلاد، ومناسبة هذه السورة لما قبلها أنه لما ذكر ﴿قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا﴾ قال مشركو قريش: محمد يهددنا بالمعاد والجزاء على الأعمال وليس بصحيح، وإن صح ففيه بعد فأنزل الله تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ و﴿اقْتَرَبَ﴾ افتعل بمعنى الفعل المجرد وهو قرب كما تقول: ارتقب ورقب، وقيل: هو أبلغ من قرب للزيادة التي في البناء، والناس مشركو مكة، وقيل: عام في منكري البعث، واقتراب الحساب اقتراب وقته والحساب في اللغة إخراج الكمية من مبلغ العدد، وقد يطلق على المحسوب وجعل ذلك اقترابًا؛ لأن كل ما هو آت وإن طال وقت انتظاره قريب، وإنما البعيد هو الذي انقرض أو هو مقترب عند الله كقوله ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ أو باعتبار ما بقي من الدنيا فإنه أقصر وأقل مما مضى، وفي الحديث: «بعثت أنا والساعة كهاتين»، و﴿لِلنَّاسِ﴾ متعلق باقترب، وقال الزمخشري: هذه اللام لا تخلو من أن تكون صلة لاقترب، أو تأكيدًا لإضافة الحساب إليهم كما تقول أزف للحي رحيلهم، الأصل أزف رحيل الحي ثم أزف للحي رحيلهم ونحوه ما أورده سيبويه في باب ما يثنى فيه المستقر توكيدًا عليك زيد حريص عليك، وفيك زيد راغب فيك ومنه قولهم: لا أبا لك لأن اللام مؤكدة لمعنى الإضافة، وهذا الوجه أغرب من الأول، يعني بقوله صلة أنها تتعلق باقترب، وأما جعله اللام تأكيدًا لإضافة الحساب إليهم مع تقدم اللام ودخولها على الاسم الظاهر فلا نعلم أحدًا يقول ذلك، وأيضًا فيحتاج إلى ما يتعلق به ولا يمكن تعلقها بحسابهم؛ لأنه مصدر موصول ولا يتقدم معموله عليه، وأيضًا فالتوكيد يكون متأخرًا عن المؤكد وأيضًا فلو أخر في هذا التركيب لم يصح، وأما تشبيهه بما أورد سيبويه فالفرق واضح لأن عليك معمول لحريص، وعليك الثانية متأخرة توكيدًا وكذلك فيك زيد راغب فيك يتعلق فيك براغب، وفيك الثانية توكيد، وإنما غره في ذلك صحة تركيب حساب الناس، وكذلك أزف رحيل الحي فاعتقد إذا تقدّم الظاهر مجرورًا باللام وأضيف المصدر لضميره أنه من باب فيك زيد راغب فيك وليس مثله، وأمّا لا أبا لك فهي مسألة مشكلة وفيها خلاف، ويمكن أن يقال فيها ذلك لأن اللام جاورت الإضافة ولا يقاس على مثلها غيرها لشذوذها وخروجها عن الأقيسة، وقد أمعنّا الكلام عليها في شرح التسهيل والواو في
=

صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن
رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟
هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ
ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٤ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ
بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝٥ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ
أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ۝٦ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ
ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟
خَٰلِدِينَ ۝٨ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٩ لَقَدْ
أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٠ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً
وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝١١ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ۝١٢ لَا
تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ۝١٣ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا
ظَٰلِمِينَ ۝١٤ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ۝١٥﴾ [الأنبياء:
١ - ١٥].

قوله - جلَّ من قائل: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء:١] ذكر اقتراب الحساب عبارة عن اقتراب [الأجل][1] من موت أو عقاب على سوء عمل أو اقتراب الساعة.

قال الله - عزَّ من قائل: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ

=

﴿وَهُمْ﴾ واو الحال. [تفسير البحر المحيط (١٣٨/٨)].

(١) في النسخة (خ): «الآجال».

أَشْرَاطُهَا﴾ [محمد:١٨] وظهور نبي الله ﷺ من أشراطها.

وقال - عز من قائل: ﴿**اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ**﴾ [القمر:١] وما هو آتٍ فكأن قد يقول الله ﷻ: ﴿**إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيبًا**﴾ [المعارج:٦ - ٧].

وقال تعالى: ﴿**وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ**﴾ [الحج:٤٧] تقدير الكلام: «وإن ألف سنة مما تعدون عند ربكم كيوم من أيامكم» والغفلة عن ذلك والإعراض عنه إنما يكون عن قلة التفكر، وعدم المبالاة بما مضى من العمر.

ومن المعهود المقطوع عليه أن الموت لم يثبت له موعد علمناه يأتي فيه، مصيفًا دون شتاء، ولا شتاء دون مصيف، ولا يوم من الأيام معلومًا، ولا نهارًا دون ليل، ولا ليلاً دون نهار، ولا ساعة دون ساعة، إنما هو عدَّ الأنفاس والأعمال، ثم يأتي على غير موعد تقدم لنا به علم، وهو الموت بغتة، وبعد هذا الخطر العظيم، والهول الجلل ندم لا ينصرم، وشقاء لا يبيد؛ لعثرة الأثقال، وأمنية لا تنال، هذا لو كان أمد العمر ينقضي على هيبته، فكيف بعوارض الأسباب المهلكة لآجال دون ذلك لآماد عند الله [مؤقتة](١) في أمِّ الكتاب؟ يحدث على الأغلب على الإقامة على ما لا يرضي الله - جل ذكره - ويكون هذا من الجزاء العاجل.

فصل

[اجتملت](٢) هذه السورة على معاني جمة ترجع إلى ما هي أصول لها منها: أمر بتذكر، وحض على ذكر وتوبة، وتحذير من غفلة وإعراض، وإعلام بعواقب ذلك وجزائه [احتملت](٣) كلها إلى قوله: ﴿**لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ**﴾ [الأنبياء:٣].

قوله ﷻ: ﴿**مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ**﴾ [الأنبياء:٢ - ٣] الذكر هنا هو القرآن لنا، والكتب قبله لمن كان قبلنا.

وقرأ ابن أبي عبلة: «**محدثًا**» و«**محدثٌ**» على الثلاثة الأوجه، ومعنى ذِكر

---

(١) في النسخة (خ): «موفية».

(٢) في النسخة (خ): «احتملت».

(٣) ما بين [ ] غير واضح من النسخة (غ).

[الحدث][1] هنا: حدوث تنزيله، وإنزاله من عند الله ﷻ، وأمَّا من حيث هو كلام لرب العالمين فهو قديم لم يزل.

وقوله: ﴿اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لاهِيَةً﴾ [الأنبياء:٢ - ٣] قاربت هذه الصفة صفاتنا، بل حققت وصف ما نحن عليه، أن الله - جل ذكره - قد وصفهم بالاستماع، ولم يصف الكافرين بذلك، بل قال فيهم: «إنَّهم كانوا لا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ» وقال: ﴿وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ [نوح:٧] وما أرى [والله أعلم][2] إلا أن الله أنذر بما أصابنا، وأكثر أهل زماننا، وإنما يستمع الصوت بالتلاوة لا المعنى المراد [منه][3]؛ لتخير الأصوات [وننتقد المتغمين][4].

وذلك يلهي القلوب عن فهم الخطاب والتفطن ليس المراد، فإذا لهت القلوب لم تتخلص إليها أرواح المعاني، لا سيما الكلام المعبر عن كلام رب العالمين الذي هو الحق والوحي؛ لعزة المعنى وعظمة كلام رب العالمين، وتعاليه عن [التنزيل][5] إلى قلوب الغافلين والمعرضين.

يقول الله - جلَّ من قائل: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ [الأنبياء:٤٥] وإذا انشحنت الصدور لهوًا، وغلب على القلوب الهوى، فالتغني زائد في دأبها، وتحسين الأصوات أقوى لشقائها؛ لأن التغني وتحسين الأصوات يثير ما هو [كائن][6] في النفوس، ومن صفاتها: الإصغاء للهوى وإن قادها إلى الردى، ولذلك ما كره الغناء لها، ولا وأكثر القلوب اليوم مشحونة بالباطل مملوءة لهوًا وهوى.

وأمَّا الترتيل فهو يثير الفهم، وبالفهم يكون مزيد اليقين، وحقائق العلوم وعن

---

(١) في النسخة (خ): «الحدوث».
(٢) ما بين [ ] زيادة من النسخة (غ).
(٣) في النسخة (خ): «به».
(٤) ما بين [ ] غير واضح من النسخة (غ).
(٥) في النسخة (خ): «التنزل».
(٦) في النسخة (خ): «كامن».

مزيد الإيمان يكون الوقار والحلم [وحسن][1] السمت؛ لأن الإيمان من الله، والله هو الحق، ولاتصاله بنور الفطرة [أثار][2] كامنها، وكشف عن مكنونها، فانجلت عن بصيرة القلوب غياهب غفلتها، وانزاح عنها ما تعلق بها من لهوها؛ لحلول النوم ساحة القلوب، واستواء الحق المغروز في جبلته على كرسي الصدر، فهذا هو المتوجه إليه قول رسول الله ﷺ: [«**زينوا القرآن بأصواتكم**»[3].

وعن [...][4] كان وصف رسول الله][5]: «**ما أذن الله لشيء كإذنه لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن**»[6].

وقوله ﷺ: «**ليس منا من لم يتغن بالقرآن**»[7].

فليس القرآن بقرآن في حق من لها عنه، وليس من النبيين في شيء من حيث الإنباء والنبوة من لم يتفهم القرآن، ولا رفع بما جاء به رأسًا، ولا يتسمع الله لهذا، فإنه الحق ولا يقبل إلا على الحق - عز جلاله وتعالى علاؤه وشأنه - وفي حق هؤلاء يكون التغني بالأشعار الحكمية حسنًا، فإن ذلك يؤيد حزب الحق في دولتهم، ويثير كامنه في ساحات صدورهم، ولهذه العلة مالت النفوس من هؤلاء وهؤلاء إلى إظهار ما فيها، والتعريف بما غلب عليها؛ لأنه كالشكوى، والمعهود من راحته.

---

(١) في النسخة (خ): «فأحسن».

(٢) في النسخة (خ): «آثار».

(٣) أخرجه النسائي (١٠١٥)، والطيالسي (٧٣٨)، وأحمد (١٨٥١٧)، وعبد الرزاق (٤١٧٥)، وابن أبي شيبة (٨٧٣٧)، والدارمي (٣٥٠٠)، وأبو داود (١٤٦٨)، وابن ماجة (١٣٤٢)، وأبو يعلى (١٦٨٦)، وابن خزيمة (١٥٥٦)، وابن حبان (٧٤٩)، والروياني (٣٥٣)، والحاكم (٢٠٩٨)، والبيهقي (٢٢٥٤)، والبغوي في الجعديات (٢٠٧٧).

(٤) غير واضح في (خ).

(٥) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٦) أخرجه البخاري (٧٠٤٤)، ومسلم (٧٩٢)، وأبو داود (١٤٧٣)، والنسائي (١٠١٧)، وابن حبان (٧٥٢)، وعبد الرزاق (٤١٦٧)، وأحمد (٩٨٠٤).

(٧) أخرجه البخاري (٧٠٨٩) والبيهقي (٢٠٨٣٥) وعبد الرزاق (٤١٧٠) وابن أبي شيبة (٢٩٩٤٢) والطيالسي (٢٠١) وأحمد (١٥٤٩) والدارمي (١٤٩٠) وأبو داود (١٤٦٩) وابن حبان (١٢٠) والحاكم (٢٠٩١) والضياء (٩٧١) وأبو داود (١٤٧١) وابن قانع (٩٧/١) والطبراني (٤٥١٤) والبزار (٢١٩٢)، والخطيب (٣٩٥/١).

وعلى هذا فالتدبر للأشعار التي هي [الحكم][١] تولد العلم، وتزيد في معرفة ما المراد بها، ثم الغناء وتحسين [الصوت][٢] يثير الكامن فيها كما تقدم، ومن أجل ذلك ربما هامت النفوس وتواجدت؛ لأنها مغلوبة، ولما كان العقل والإيمان موضع العلم واليقين كان العلم يجل العلم ويبجله والإيمان إلى الوقار، وحسن الصمت أقرب، وحزب الله الغالب.

ولهذا وأمثاله جاء ما جاء من التحريم، والنهي عن الغناء والترخيص فيه، والحض عليه والترغيب، وكان [الإتقان][٣] على فضل الترتيل وطلب الفهم، ثم إذا حصل الفهم فلا بأس بالغناء؛ لإثارة كمين الفهم وما لم يتحصل الفهم ولا موجود الخوف و[النهي][٤] فالغناء مكروه، [ومنه][٥] محرم لما تقدم ذكره، فافهم.

إن [الحي][٦] هو الذي تنزل عليه أرواح المعاني وتلج فيه، فتهش لها أخواتها وتفرح بها ما هو فيه منها ﴿**إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ**﴾ [الأنبياء:٤٥].

قوله ﷻ: ﴿**وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا**﴾ [الأنبياء:٣] ليس هذا مما قاله أكثر النحويين: «إن الفعل إذا تقدم الاسم وحد، وإذا تأخر ثني وجمع للضمير الذي يكون فيه» بل هو تخصيص من عموم قوله: «الناس»[٧] إذ من الناس الكافر ومنهم

---

(١) في النسخة (خ): «للحكم».

(٢) في النسخة (خ): «الأصوات».

(٣) في النسخة (خ): «الاتفاق».

(٤) في النسخة (خ): «التقى».

(٥) في النسخة (خ): «منهي عنه».

(٦) في النسخة (خ): «الحق».

(٧) **مسألة في اشتقاق لفظ ﴿الناس﴾؟** اختلف العلماء في اشتقاق الناس ما أصله؟ إلى مذهبين:
الأول - وهو مذهب سيبويه والفراء وابن الشجري وابن جني وأبي علي وابن يعيش - : أن الناس أصله أناس على وزن فعال، وناس منقوص منه فوزنه "عال" ويكثر استعمال كل منهما ما دام منكرًا والتزموا الحذف فيما إذا دخلت فيه الألف واللام ولا يكادون يقولون "الأناس" إلا في الشعر، واحتج هذا المذهب بوقوع الأنس على الناس وأن بعضهم يأنس ببعض.
والثاني - وهو مذهب الكسائي وسلمة بن عاصم: أن الناس لفظ مستقل وأن كلا من "ناس" و"أناس" يكون أصلاً بنفسه، والناس مأخوذ من النوس مصدر ناس ينوس نوسًا إذا تحرك، =

المؤمن، فبعض الناس هم الذين ظلموا.

وقوله: ﴿وَأَسَرُّوا﴾ وقد تقدم اسم الضمير الذي فيه في الناس، فكان تقدير الكلام: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء:١] إلى قوله: «وأسروا الذين ظلموا من الناس النجوى».

يقولون: ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾[1] [الأنبياء: ٣]

=

وهو اسم تام وألفه منقلبة عن واو، واحتج هذا المذهب بقول العرب فى تحقيره "نويس" كبويب فى تحقير باب.

وهناك مذهب ثالث - هو أن "ناس" أصله نسي قلبت اللام إلى موضع العين فصار نيسًا ثم قلبت الياء ألفًا فصار "ناس"، سموا بذلك لنسيانهم. ويبدو على غالب ظن الباحث أن الأول هو الأقرب إلى الرجحان وذلك أولاً لكثرة العلماء القائلين به وثانيًا يشهد لأصله إنسان وأناس وأناسي وإنس وثالثًا قال أبو علي: أن تحقير "ناس" بـ "نويس" كانت الألف لما صارت ثانية زائدة أشبهت ألف "ضارب" فقيل "نويس" كما قيل "ضويرب" ورابعًا أن الأنس أى مع البعض - الذي يكون الناس مشتقًا منه - هو من طبيعة البشر الأصيلة لايكاد أي إنسان يرضى لنفسه أن يعيش متخليا عن بني جنسه، فإن أبا البشر آدم عليه السلام لما خلقت له أمنا حواء يأنس بها، وذلك بخلاف الحركة - التي هي معنى النوس - فإنها عامة فى جميع الكائنات ذوات الأرواح، وخامسًا أن مادة " أ ن س" ليس معناها المؤانسة والطمأنينة فقط بل له معنيان آخران - ذكرهما ابن يعيش - يناسبان أيضًا هيئة الإنسان وطبيعته وهما الرؤية والعلم مما يؤكد أن هذه المادة بما لها من معان عديدة تطابق طبيعة الإنسان جديرة بأن تكون أصلا للفظ " الناس. والله أعلم.

(١) الهمزة في قوله: ﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ﴾ للإنكار، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام، وقوله سبحانه: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ حال من فاعل «تأتون» مقررة للإنكار مؤكدة للاستبعاد، وأرادوا كما قيل: ما هذا إلا بشر مثلكم؛ أي: من جنسكم، وما أتى به سحر تعلمون ذلك فتأتونه وتحضرونه على وجه الإذعان والقبول وأنتم تعاينون أنه سحر، قالوه بناء على ما ارتكز في اعتقادهم الزائغ أن الرسول لا يكون إلا ملكًا، وأن كل ما يظهر على يد البشر من الخوارق من قبيل السحر، وعنوا بالسحر ها هنا: القرآن، ففي ذلك إنكار لحقيته على أبلغ وجه، قاتلهم الله تعالى أنى يؤفكون. وإنما أسروا ذلك؛ لأنه كان على طريق توثيق العهد، وترتيب مبادي الشر والفساد، وتمهيد مقدمات المكر والكيد في هدم أمر النبوة وإطفاء نور الدين، والله تعالى يأبى إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون. وقيل: أسروه ليقولوا للرسول ﷺ والمؤمنين: إن كان ما تدعونه حقًّا فأخبرونا بما أسررناه؟ ورده في الكشف بأنه لا يساعده النظم ولا يناسب المبالغة في قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ ولا في قوله

=

وقرأ الضحاك: «أفتأتون الساحر وأنتم تبصرون» وأمَّا الذين آمنوا فزادهم إيمانًا وهم يستبشرون.

يقول - جلَّ من قائل - ردًّا عليهم فيما جاءوا به وتناجوا به: قل يا محمد: ﴿رَبِّي يَعْلَمُ القَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لقولكم ﴿العَلِيمُ﴾ [الأنبياء:٤] بما في قلوبكم، سواء منكم من أسر القول ومن جهر به.

أتبع ذلك - جل ذكره - بما هو في معناه من تطلبهم، قولهم: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء:٥] عصوا القرآن، وكل من ردَّ العلم بما يشبه به إنه من العلم، فهو المزين له سوء عمله ورجوعه إلى الحق عسير جدًّا، لذلك قال - عز من قائل: ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء:٦].

نظم بذلك - جل ذكره: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ [الأنبياء:٧] وهم الذين أرسل إليهم الرسل من [قبلك][١] وما جعلناهم [جسدًا][٢] لا يأكلون الطعام؛ أي: لم يرسل الرسل إلى الناس إلا منهم لا من الملائكة، إنما كانوا رجالاً منهم يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، يعيشون في أرزاقهم ويموتون بآجالهم، لهم الأزواج والذرية، والله يمن على من يشاء من عباده.

قوله - عزَّ من قائل: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾[٣] [الأنبياء:١٠] يعني: فيه شرفكم وذكركم في الآخرين وحظكم في الدنيا والآخرة، يخاطب قريشًا ثم العرب، كذلك قال: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف:٤٤].

قوله ﷻ: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ [الأنبياء:١١] المعنى هذا

﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ﴾. الألوسي (١٢/٣٢٥).

(١) في النسخة (خ): «قبل».

(٢) في النسخة (خ): «حسدًا».

(٣) أي: طوال الدهر بالخير إن أطعتم، والشر إن عصيتم، وبه شرفكم على سائر الأمم بشرف ما فيه من مكارم الأخلاق التي كنتم تتفاخرون بها وبشرف نبيكم الذي تقولون عليه الأباطيل، وتكثرون فيه القال والقيل. [نظم الدرر للبقاعي (٥/٢٩٠)].

منتظم بالناس الظالمين الذين أسروا النجوى، وقالوا ما تقدم ذكره، فبشرهم لو قبلوا البشرى بقوله: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء:١٠].

ثم هددهم بما كان حكمه فيمن كان قبلهم من القرون الخالية والأمم الماضية، يقول: ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا﴾ يعني: من القرى ﴿يَرْكُضُونَ﴾ [الأنبياء:١٢] يهربون يفرون، ثم حذف كلامًا معناه: يقال لهم: ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء:١٣] أي: عما أصابكم في غير أرضكم وحال اغترابكم عن أوطانكم، حذف العبارة عن رجوعهم إلى قراهم المهلكة بهم، و[عزمة](١) العذاب النازل عليهم.

وتجاوز ذلك إلى قوله: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء:١٤] أقروا بالذنوب واعترفوا بظلمهم، حين لا ينفعهم ذلك، ومن قبل كانوا يكفرون بالله ويكذبون رسله، ويردون عليه كتبه.

يقول، عزَّ من قائل: ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ [الأنبياء:١٥] ولو أنهم تضرعوا حين أخذهم في الهرب عن مواطنهم إلى غيرها وتابوا إلى ربهم لكشف الله عنهم عذابه، يقول الله - جلَّ من قائل: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ [الأنعام:٤٣].

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ١٦ - ٢٣].

قوله - تبارك وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا

---

(١) في النسخة (خ): «عرفه».

لاعِبِينَ﴾ [الأنبياء:١٦] سبحانه وتعالى علوًّا كبيرًا.

يقول - جلَّ من قائل: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا﴾ [الأنبياء:١٧] لو [اتخذ جل ذكره][1] من لدنه لم يكن إلا الحق ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾ [الأنبياء:١٨] والحق هنا على بعض الوجوه هو قوله والعدم بطل يقول للمعدوم المراد كن فيبطل بالكون العدم فيدمغه بذلك، يقول: ﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء:١٨].

قال الله - عزَّ من قائل: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص:٢٧].

فصل

اللهو هو: ما ألهى عما سواه، فإذا ألهى عما هو أولى [أنه][2] كان مذمومًا، وبأنه يلهي عما هو أولى [منه][3] سمي: لهوًا، يقول الله - عزَّ من قائل: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا﴾ [الأنبياء:١٧] فلو أنه اتخذه من لدنه لكان الحق، ولو كان ذلك كذلك لكان ذلك يلهي عما سوى الله، فكان يكون ذكرًا كله، وإلى هذه الحقيقة يؤل معنى اسمه الله ﷻ من أفاض عليه ببركته لاهٍ به عن كل ما سواه.

وإنما خلق السماوات والأرض وما بينهما بالحق، والحق مسالك معاني أسمائه وصفاته في العالم، وما دلَّ على موجود الآخرة وأكوانها، وما أوجب الشهادة به من إتيان الساعة بالآجال المؤجلة والمواقيت المؤقتة، وأن الجزاء واقع لا بد ولا محالة، وصفات الجزاء ومعرفة منبعث الخزائن ومعرفة منبعث الشرائع، وما أثبتت عليه دعائم الإسلام وتمييز الحلال في ذلك من الحرام.

يقول الله - عزَّ من قائل: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء:١٩] أي: لا تقطعهم العبادة.

يقول - عزَّ من قائل: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا﴾ يعني: السماء والأرض ﴿آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ

---

(١) في النسخة (خ): «اتخذه».

(٢) في النسخة (خ): «منه».

(٣) في النسخة (خ): «به».

لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢] لا تقم الجملة ولا وجدت على ما هي عليه إلا بالوحدانية، لولاها لوقع التمانع، سبحانه عما يقول المبطلون وتعالى علوًّا كبيرًا.

﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء:٢٣] لا مالك فوقه ولا آمر يأمره، ولا أوجد ملكًا لسواه [دونه][(١)] فيتصور منه فيه الظلم، لا إله إلا هو العلي الكبير، هو الملك الحق، له الملك وله الحمد، يفعل ما يشاء، لا راد لأمره، ولا معقب لحكمه.

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى الظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوٓا أَنَّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى الْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ ۖ أَفَإِي۟ن مِّتَّ فَهُمُ الْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنبياء: ٢٤ - ٣٤].

قوله ﷻ: ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء:٣٠] الرتق: الإلحام والإلآم، لأمت الشيء: رتقته، والفتق ضد ذلك، وقد يقال: فتقت العجين: جعلت له فتاقًا، وهي الخميرة، والفتاق أيضًا أخلاط طيب يفتق بدهن؛ أي: يخلط به، ويقال: نصل فتق الشفرتين، إذا كانت له شعبتان، فكأن إحداهما فتقت من الأخرى، وقد أوعينا

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

الكلام في معنى الفتق والرتق في رسمه من كتاب: «**الأسماء**»(١).

---

(١) قال الشيخ المصنف: «اسمه تعالى الفاتق، واسمه: الراتق سبحانه وله الحمد. يقال من ذلك: رتقت الشيء أرتقه رتقًا فهو مرتوق، ورتقت الفتق ألحمته ولأمته فارتتق، وجارية رتقاء إذا لم يكن لها خرق في المبال، والفتق الفتح الذي هو ضد السر، يقال من ذلك: فتقت الشيء فانفتق، وفتقت العجين جعلت له فتاقًا وهي الخميرة، والفتاق أخلاط تفتق بدهن، أي: تخلط به، ونصل فتيق الشفرتين إذا كانت له شعبتان، فكان أحدهما فتقت من الأخرى، والفتيق: الصبح نفسه. اعتباره: قال الله جل قوله وتعالى علاؤه وجده: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ....﴾ [الأنبياء:٣٠] إلى آخر المعنى، فذكر السماوات هنا بلفظ الجمع تذكيرًا لأهل الإيمان، وذكر الأرض بالإفراد تقديرًا للمكذبين على تركهم النظر والاعتبار، ووصفهم رب العالمين بفعل العبث واللعب واللهو إخبارهم عنه بما ليس به رجوعًا منه بالخطاب إلى ما كان عنه جوابًا قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء:١٦ - ١٧] أي: لو كنا فاعلين من لدنا لم يكن إلا الحق هو الحق، وقوله الحق، وفعله الحق، وللحق فعل ما فعل وأوجد ما أوجد. وذكر السماء والأرض هنا بلفظ الإفراد توجيهًا بذكر السماء إلى العلو وبذكر الأرض إلى السفل، فسرد ما سرد من قول حق وحجج بالغة وبراهين نيرة ونور مبين، ثم صرف وجه الخطاب إلى ذلك المعنى، وجمع ذكر السماوات وأفرد ذكر الأرض، وثنى الضمير في قوله: ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ إعلامًا بأنه أراد الجنسين، وأنه أراد بخطاب هذا المؤمنين وأهل العلم، يذكرهم بالرتق الأول وفتقه على ما سوف يأتي إن شاء الله. وذكر إفراد الكفار مع إفراد ذكر الأرض؛ توجيهًا بالخطاب إلى تفريعهم، إذ الكفار لا يرون إلا رؤية الأبصار، يذكرهم بالرتق والفتق الآخرين المعتادين، قال الله ﷻ: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود:٧] فكان ما دون العرش الكريم رتقًا بالماء، إلى أن أمر ﷻ المياه لتحول بعضها من بعض فكان ذلك، وأخلف الماء هواء فكان ذلك من فعله فتقًا لذلك الرتق، ثم خلق السماوات والأرضين في ذلك الفتق على بحورهن، وملأ ما بين ذلك هواء، فهي الآن على ما أوجدهن عليه من فتق بعد ذلك الرتق، وهذا الرتق والفتق مرئي ببصر البصيرة لأهل العلم والإيمان، ثم لا يزال ﷻ يفتق السماء بالماء بعد رتقها بالإمساك عن المطر، ويفتق الأرض بالنبات بعد رتقها بالجدب والهمود، وهذا تراه أبصار الرؤى وهي رؤية قليلة الغناء، ما لم تكن مدركة بالبصائر متصلة بالعبرة من شاهد إلى غائب، ثم قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء:٣٠] إن هذا هو الحق ليس بالباطل ولا اللعب، وأن العود سيكر على هذا البدء لتجزى كل نفس بما كسبت. والمعلوم من بداية العقول أن الحكيم لا يفعل إلا بحكمة ولحكمة، ولو أن حكيمًا فعل فعلاً لا منفعة له ولا لمفعوله؛ لم يكن حكيمًا في فعله ذلك، وخلق الله - سبحانه وله الحمد -

=

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء:٣٠] يقول - عزَّ من قائل: ألا ترون أن الماء واحد ينزله من السماء فيخلق عنه مخلوقات كثيرة، كذلكم الله ربكم واحدًا أحد خلق كل شيء، وهذا النوع من البرهان [يدفع][1] به باطل من قال من الثنوية والمخمسة كيف يكون الواحد يوجد [الكثرة][2].

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ أفلا ترون أنا نخلق من الماء كل شيء حي نباتًا وحيوانًا وأناسي رجالاً ونساءً وولدانًا وجنات وزروع و[فواكه][3] كثيرة ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء:٣٠] أنها من فتح الله برحمته من جنات له، قد أعدها لمن أطاعه، فهذه الجنات آيات على تلك، وجعل هذه متاعًا [في][4] هذه الدار عم بها المؤمن والكافر، وخص بتلك من أطاعه وابتغى رضوانه.

قوله ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء:٣١] هذه من دلائل النبوة في الوجود، أفلا يؤمنون بالإنباء والنبوة والنبيين.

﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء:٣٢] وقرأ ابن أبي عبلة: «**وجعلنا السماء سُقفًا محفوظًا**» بالجمع وزيادة هاء، وقرأ: «هم الخالدون» بغير فاء، وقرأ:

=

جميع الخليقة؛ ليجود عليهم بأفضاله، ويعود عليهم بالعامة أولاً، ثم ليعرفهم بنفسه وبأسمائه وصفاته، ثم ليأمرهم بحق الربوبية والعبودية وينهاهم، ولو انقطع الأمر هاهنا ووقف الفعل على هذا لما تم المقصود، وما تحققت الحكمة من الحكيم في فعله ذلك تعالى الله عما يظن به الجاهلون، بل كأن يكون فعله باطلاً بحتًا وعبثًا ولعبًا، إنما تمت الحكمة في الإعادة، وبها صحت في البداية، وبها اتصل الآخر بالأول، والأول بالآخر، فانقسم المآل بالأمر إلى خزائن ثواب وعقاب، هنالك أظهر من وجوده وأفضاله وإنعامه وإحسانه ما لا تدركه العقول ولا تتصوره الأوهام، للمنصفين له العالمين به العاملين له بطاعته، فوصل لهم جوده بجوده وحنانه بحنانه، وبالضد لمن جهله وجهل عليه، ووصفه بما لا يليق وسماه بغير أسمائه، وجحده وكذب آياته وما جاء من عنده» [شرح الأسماء الحسنى ٢/٢١٣].

(١) في النسخة (خ): «يدمغ».
(٢) في النسخة (خ): «الكثير».
(٣) في النسخة (خ): «نبات».
(٤) في النسخة (خ): «الساكني».

«وجعلناها وابنها آيتين».

كون السماء محفوظة من دلائل النبوة وحمايته إياها عن أباطيل الشياطين، وكونها مرفوعة دون عمد من دلائل الوحدانية والقدرة والقيومية والعلم المحيط والمشيئة العالية.

يقول الله - جلَّ من قائل: ﴿وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء:٣٢] [أخبر الله الجليل الحق][1] ﷻ في أول السورة بتلهيهم عن الوحي وإعراضهم عن الذكر، ويخبر في هذا الخطاب كله بإعراضهم عن آياته في السماوات والأرض، لو تنبهوا لها ونظروا بقلوب واعية لرأوا الأعاجيب.

نظم بذلك قوله الحق: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء:٣٣] قد تقدم الكلام في بعض آيات الليل والنهار والشمس والقمر وكونها جارية في أفلاك دلالة على إرجاعه حكمه أوائله على أواخره، وذلك دلالة على تناهي الآجال وتمام الأوقات، وفي ذلك العلم بانقراض الدنيا ومجيء اليوم الآخر بما فيه.

ثم قال - عز من قائل: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء:٣٣] دليل على أن الكثرة راجعة إلى الوحدة كما انبعثت منها تعود إليها كما قال، جل ثناؤه: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:١٢٣] فإذا حققت النظر وجدت الموجودات كلها على اختلافها يجمعها واحد منها.

قال الله ﷻ: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام:٣٨].

﴿أَلَا إلى الله تَصِيرُ الأُمُورُ﴾ [الشورى:٥٣].

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء:٣٤] أرجع هذا الخطاب إلى معنى ما تقدم في صدر السورة، قولهم: ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الأنبياء:٣] وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم﴾ [يوسف:١٠٩] إلى قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

خَالِدِينَ﴾ [الأنبياء:٨].

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا
رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ
وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَـٰتِى فَلَا
تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ
﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ
ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾﴾
[الأنبياء: ٣٥ - ٤١].

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ﴾ [الأنبياء:٣٥] إعلام منه بمشيئته في الإماتة تفرقة بين عزته وذلتهم - عز جلاله وتعالى علاؤه وشأنه - وهو الحي الدائم الذي لا يموت، ولما عطف عليه قوله الحق: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥] زاد إلى ما تقدم وعظًا وإعلامًا منه بأن ذلك منه فتنة وابتلاء، فالفتنة بالخير طريق والفتنة بالشر طريق، والمراد منه مع مشيئته أن يطاع، فيجزي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

ففتنة الخير: حب المال والأولاد والأزواج وحب التكاثر والتفاخر والزينة والعلق والرئاسة وحب الجاه والمحمدة عند الناس، ويتعلق بذلك الرياء والسمعة، وإقامة الجاه عند أبناء الدنيا والكبر والعجب والحسد، وأصل ذلك كله حب المال والشرف، كذلك قال - عز من قائل: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن:١٥].

وأمَّا فتنة الشر: فالظلم والإثم والعدوان، ومعاونة الظالمين، والركون إلى أهل المنكر، وصحبة الفجار والفساق، والتعاون على الإثم والعدوان والعداوة والبغضاء لمن أمر بمعروف أو نهى عن منكر أو أظهر الحق لله تعالى، ودعا العباد إليه، وكل ما ذكر من عمل السوء يتشعب من فتنة الشر، وكل ذلك أصله النفاق، وتظهر هذه

الخصال من منافقي هذه الأمة، وربما كان ذلك أصله من فتنة الخير، قال رسول الله ﷺ: «**أكثر منافقي هذه الأمة قراؤها**»[١] وربما كان من جهالها أهل العداوة للإسلام، المظهرون خبائث أعمالهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ حذف: «يقولون أهذا» ثم قال ﷻ: ﴿وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [الأنبياء:٣٦] هذا من فصل الجدل الموجود في القرآن العزيز يقول: وهم يكفرون بالرحمن ويعظم عندهم ذكر آلهتهم.

نظم بذلك قوله ﷻ: ﴿خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الأنبياء:٣٧] العَجَل: من أسماء الطين، ومن الطين خلق آدم، وهو اللازب منه، والذي يطابق من ذلك معنى هذه الآية - والله أعلم بما ينزل - والذي من أجله [اجتلب][٢] هو: أن الذين كفروا متى قالت لهم رسلهم: إن لله - جل ذكره - عذابًا كذا وكذا لمن كفر به وكذب رسله استعجلوا ذلك ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأنبياء:٣٨].

وخلق الله آدم من الطين اللازب المتسلل من الطين، وهو الذي خفَّ ورقَّ عن ثخانة الطين وشدته، فالطين [بما][٣] هو طين لازم موضعه وسلالته منه متسللة عنه، فذلك المسمى: العجل؛ لسبقه الطين، فوصف الإنسان بما كان عنه لشبهه [به][٤] في استعجال ما هو كائن وإن كان عليه، وهو أيضًا الصلصال، وهو من بعض أسمائه، واتصل معنى قوله هذا بوعيد قوله الذي قبله: ﴿وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [الأنبياء:٣٦] الذي أظهره في سورة الفرقان.

﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم

---

(١) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٢٥٧/١) وأحمد (٦٦٣٧) وابن المبارك (٤٥١) والبيهقي (٦٩٥٩) والطبراني (٤٧١) قال الهيثمي: رجاله ثقات، وكذلك رجال أحد إسنادي أحمد ثقات. «قراؤها»: أي: الذين يتأولونه على غير وجهه، ويضعونه في غير مواضعه.

(٢) في النسخة (خ): «أجملت».

(٣) ما بين [ ] غير واضح من النسخة (غ).

(٤) في النسخة (غ): «ربه».

مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا
هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا
يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَا
أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ
مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ
الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا
حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ
يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ
لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنبياء: ٤٢ - ٥٠].

قوله: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ العَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الفرقان:٤٢] يقول ﷻ: سأريكم آياتي على وعيدي الذي أنذرتكموه فلا تستعجلون؛ لذلك قالوا: ﴿مَتَى هَذَا الوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأنبياء:٣٨].

يقول عزَّ من قائل: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ﴾(١) [الأنبياء:٣٩].

نظم بذلك قوله الحق: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾

---

(١) ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ استئناف مسوق لبيان شدة هول ما يستعجلونه، وفظاعة ما فيه من العذاب، وأنهم إنما يستعجلونه لجهلهم بشأنه، وإيثار صيغة المضارع في الشرط، وإن كان المعنى على المضي لإفادة استمرار عدم العلم بحسب المقام، وإلا فكثيرًا ما يفيد المضارع المنفي انتفاء الاستمرار، ووضع الموصول موضع الضمير للتنبيه بما في حيّز الصِّلة على علة استعجالهم.

وقوله تعالى: ﴿حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النار وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ﴾ مفعول ﴿يَعْلَمْ﴾ على ما اختاره الزمخشري، وهو عبارة عن الوقت الموعود الذي كانوا يستعجلونه، وإضافته إلى الجملة الجارية مجرى الصفة التي حقها أن تكون معلومة الانتساب إلى الموصوف عند المخاطب أيضًا مع إنكار الكفرة ذلك؛ للإيذان بأنه من الظهور بحيث لا حاجة إلى الإخبار به، وإنما حقه الانتظام في سلك المسلمات المفروغ عنها. تفسير الألوسي (١٢/٣٩٠).

[الأنبياء:٤٢] أي: من يحفظكم بالليل والنهار، حفظ الرحمن - عزَّ جلاله - إلى مخلوقاته سارٍ منه كسريان الماء المصبوب إلى مفيضه، وهذا كقوله ﷻ: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ [الحج:١٥] المعنى إلى آخره، وسيأتي ذكره في موضعه إن شاء الله.

وقد كان ينبغي بواجب الحق أن يستصحب شكره [وذكره][١] وحمده على نحو استصحابه به حفظه وموالاته علينا شكرًا له وحمدًا واستسلامًا وإيمانًا وخوفًا ورجاءً و[حبًّا][٢] وودًّا؛ لهذا وما يشبهه قال: ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء:٤٢].

قوله ﷻ: ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ بل آلهتهم الضعفاء ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُمْ﴾ يعني: المألوهين المتعبدين لتلك الآلهة ﴿مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ [الأنبياء:٤٣] إنما الصحبة لأهل التقوى والإيمان والعمل بطاعة الله، كما قال - عز من قائل: ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل:١٢٨].

يقول الله - جلَّ من قائل: «**إني لأطلع على قلب عبدي فأجد الغالب عليه ذكري إلا كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها...**»[٣].

ويقول تعالى: «**أنا مع عبدي ما ذكرني، وحيث ما طلبني وجدني**»[٤] فهذا معنى الصحبة.

يقول - عزَّ من قائل: ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ [الأنبياء:٤٣] فيوفقون لذلك لأعمال يستوجبون بها الحفظ والعافية، فشأن المؤمن كله عجيب.

قوله ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٢) في النسخة (خ): «حياءً».

(٣) أخرجه بنحوه البخاري (٦١٣٧) وابن حبان (٣٤٧) والبيهقي (٢٠٧٦٩) وأبو نعيم في الحلية (٤/١).

(٤) أخرجه البخاري (٤٣) وأحمد (١٠٩٨٩) وابن ماجة (٣٧٩٢) والبيهقي (٥٠٩) والطبراني في الأوسط (٦٨١٠) وابن حبان (٨١٥) والحاكم (١٨٢٤).

[الأنبياء:٤٥] الوحي هو القرآن وحديث رسول الله ﷺ الوحي العجل، فالوحي قد يكون الإشارة إلى الشيء والإعلام به، وعلى قدر منزلة الموحى إليه ومرتبته على [قدر][(١)] المشيئة العالية من الله - جل ذكره - والموحى إليه مهيئًا لقبوله على النحو المراد به منه، فيتحصل له المعنى بذلك تامًا كاملاً - إن شاء الله - ثم يبلغه النبي إلى من أمر بتبليغه إليه على النحو الذي يسر له من التبيين أو الإشكال، ثم يتلقاه المبلغ إليه على النحو الذي قسم له من الفهم عنه، وعلى قدر طلبه، وبذل مجهوده، واستفراغ وسعه وتقواه، وصحة عقله وإيمانه، وعمله بطاعة ربه.

والوحي المبلغ إلى المبلغين على ضروب، فمنه:

- النص الجلي والخطاب الخفي المراد منه.
- والظاهر والمجمل والمفصل.
- والمتشابه والمشتبه.

هذا فيما طريقه الأمر والنهي على سبيل التكليف.

وأمَّا المعالم العلية:

فمنها: المعلمة بالعلامات المنصوب عليها الدلالات.

ومنها: ما يكون الإعلام بها إيماءات وإشارة.

ومنها: ما يكون كهيئة المكنون.

ولا بد أن يبقى على [العبادة][(٢)] من معنى الإيماءات ما يحتاج معه لطيف التدبر، ويزداد التذكر والتفكر، وما يكون كهيئة المكنون، فمدار التبليغ إليه على الإلهام، فما هو إلا الله لا إله إلا هو العليم الحكيم، ومدار الشأن في ذلك كله [اللجوء][(٣)] إلى عالم الغيب والشهادة، هذا على قدر وجود صفة الإيمان، والحرص على القبول، وسلوك سبيل الطلب من الله وحده بصحة [الاستسلام][(٤)] مع إلقاء السمع حال الشهادة، وعن التوفيق يكون الفهم، فإذا كان الأمر هكذا فكيف بمن

---

(١) في النسخة (خ): «نحو».
(٢) في النسخة (خ): «العبارة».
(٣) ما بين [ ] غير واضح من النسخة (غ).
(٤) في النسخة (خ): «استسلام».

كفر وكذب، فلم يحله روح الإيمان ولا شرح الله صدره بالإسلام والوحي عزيز، أولئك هم الصم البكم [العمي][1] الذين لا يعقلون، ولا عن ضلالتهم يرجعون ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل:٢١].

قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأنبياء:٤٧] نصب **القسط** على البدل من الموازين، **والقسط** هو الميزان الأعظم، وهو ما يعطيه الموازين من العدل، ولكل ميزان عدل، ولكل عمل ميزان؛ ولذلك جمعها وهو أعلم[2].

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٢) قال المصنف: آية الوزن الآجل ومثاله في هذه العاجلة كثير جدًّا، قد بينه الله ﷻ تبيانًا يقطع شبهة المعاندين، وينبه ألباب المعتبرين منها العدد، واحدة وزان واحدة، وعشرته وزان عشرته، وكل عدد منه وزان لمثله، كذلك أوزان المعاني كل معنى وزان لمثله، فدونك سبل الاستقراء معنىً معنىً، وذلك موجود في المعلومات كلها على اتساع مقتضى العلم؛ فما من حادثة إلا لها ميزان قال الله جل قوله: ﴿كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩] وأظهر تبارك وتعالى في هذه الدار العاجلة من الموازيين مثالات ظاهرة عبارة عما هناك، قال الله ﷻ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد:٢٥] فجعل الله ﷻ بينهم حكمًا عدلاً وقاضيًا فصلاً، وفوض كل إليه، ولم تجد في صدره حرجًا من الحكمة له أو عليه، وكذلك في الآخرة يظهر للعيون والأبصار ميزانًا، كما وصفه عنه الصادق المصدوق ﷺ كفتان كل كفة منها طباق السماوات والأرض، وآية صدقه ظاهرة في جملة العالم، وهي أن العقول ما وجدت في السماوات ولا في الأرض ذرة فما دونها ولا فوقها إلا موزونة بميزانها، تعالى الله سبحانه عن الإهمال والمجازفة؛ إنما يجازف القاصر للعلم والحكمة والقدرة، وأما هو ﷻ فكل مزموم بزمامه موزون بقسطه، فاعلم ذلك يقينًا، فإنه ﴿مَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:٣ - ٤] ثم يرجع بنا الكلام إلى نسقه، قال رسول الله ﷺ: «**فتوضع الحسنات في أحدهما والسيئات في أخرى**» وقد جاء أن كفة **الحسنات** من نور، **والأخرى** من ظلام، فإن كان قال رسول الله ﷺ فهو الحق، ويجب المصير إليه؛ فالنظر بعضده والوجود يحققه، وهو القادر - جل وعز - على أن يجعل في أنفس الموزون لهم وعليهم من تعديل ذلك الميزان، والرجوع إليه أضعاف ما جعل في القلوب في العاجلة من الرضا بهذا الميزان والتعديل له، وكذلك الكيل الموضوع هاهنا في العاجلة هو من الوزن، فأعلمه ما عسر معرفته بالوزن وضع عليه الكيل، وقنعت به العقول، ورضيت به وعدلته كالموازين سواء. وكما في الدنيا موزونات تتفاضل فلا تسمح النفوس بأن تأخذ منها وزنًا بوزن مفضولة، كالذهب مثلاً مع الفضة والنحاس، وغير ذلك من الجواهر المعدنية، وكذلك اللؤلؤ والياقوت في التفاضل أيضًا، كذلك الحسنات مع =

=

السيئات، منها كبائر ومنها صغائر، لا تبلغ آحادها الإيجاب، لكنها مع اجتماعها تبلغ؛ فاعتبر ذلك بصرف الذهب بالفضة، والذهب والفضة مع النحاس والحديد وغير ذلك من الجواهر، ثم اقض بمثل ذلك في نقاص الحسنات بالحسنات، والسيئات بالسيئات، والحسنات أيضًا بالسيئات هكذا العرف فيها. ثم اعتبر الحسنات والسيئات أيضًا بالضر والنفع في قبيل الإيمان وظلم العباد وفساد الألفة، وعلى الضد مع ذلك فقد يسد الحديد مسدًا لا يسده الذهب ولا اللؤلؤ والياقوت النفيس، فهكذا فاعتبر الوزن والموازنة الحسنات بعضها ببعض، والسيئات بها موافقة حكمة ربك ﷻ، ويحتاج صاحب هذا النظر إلى تبحر في العلم والفقه، وعقل صحيح غالب على هواه. وبالجملة فالموازنات فيها هنالك إنما هي إلى الله ﷻ يزن لمن يشاء، ويجعل في العقول تعديل ذلك الحكم والرضا به، كما فعل في الدنيا في موازينها ومكايلها، وذلك بأن يخلق للحسنات والسيئات ظاهرًا عدلاً ترضى به العقول، فتزكيه وتحتكم إليه وتقنع به وبما يكون منه لها، وعليها حكم حق ووزن قسط؛ ولذلك لما خلق الله تبارك وتعالى الميزان قالت الملائكة: ربنا، ما هذا؟ قال: هو الميزان، قالت: ربنا، لمن تزن به؟ قال: لمن شئت، قالت الملائكة: سبحانك ربنا وبحمدك، ما عبدناك حق عبادتك. وإذا كانت الدنيا ليس إلا ظاهر وباطن والموازين منها ظاهر ومنها باطن؛ فالظاهر منها يوزن بميزان ظاهر يعدله ميزان باطن، هو الميز من صفات العقل، والباطن تزنه العقول باطنًا، وتعبر عنه الألسن بعبارات متوازنة المخارج والمعاني، فليس إذًا في الدنيا غير الوزن وتوابعه ومعانيه .. ليت شعري كذب المكذب بما هو لا يخلو عنه ظاهرًا ولا باطنًا، وإنما صفات العالم صفات حق أوجدها الحق ﷻ بالحق؛ لتحقق بذلك الحق ويبطل الباطل، قال الله جل قوله وتعالى علاؤه وشأنه: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية:٢٢] وقال وقوله الحق: ﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان:٣٩] فأخبرك نصًا أنه خلق ما خلق وللحق قد أحاط بالعالم كله ظاهرًا وباطنًا جملة وتفصيلاً، وجعل هذه الصفات الحق آيات مبينات عن صفات حق أجله، جعل هذه الأعلام العاجلة تنتهي إلى تلك الآجلة، ثم أكد صنعه الحق تحقيقًا بأن أخبر عنها بقوله الحق؛ ليبتلي العقول بذلك ويختبرها هل تصدقه في قيله الحق، أو تكذبه؟ فينزل كلا بحكمه الحق حيث أنزل نفسه، كيف لا وإنما هو عالم واحد أوجده موجود واحد ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، فشاكل بذلك بين أوصافه وشأنه به، من أجل ذلك بين أطرافه بأن أجرى حكمته ذلك بين خلاله، وأثناء جريان الروح والنفس في أجسامه، وإعراضه شهادة غيب بغيب وظاهر بباطن، أقام البواطن للعقول أعلامًا، ثم أنزل إليها بذلك الكتب، وخاطبها بها على ألسنة رسله إعلامًا، بعدما أظهر مما أبطنه وأشهد مما غيبه تبيانًا، فالكافر من كفر بهذا الحق وجادل بباطنه في آياته، وكذب بتلك العلامات، وكابر عقله إلى جحد البينات، لم يصدق الصادق الحق ﷻ في قيله الحق، وعَنِدَ عن الاتباع، وشرد عن الاقتداء، وبدل نعمة الله كفرًا فأحل

=

وقوله: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾ [الأنبياء:٤٧] من وصف العدل في الحكم وإعطاء القسط.

قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء:٤٨] كل كتاب جاء من عند الله فهو فرقان من حيث فرق بين الحق والباطل، وهو ضياء ونور وذكر للمتقين ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء:٤٩] هؤلاء هم الذين ضمن الله - جل ذكره - لهم، فهم الكتاب و[موافقته][(١)] بالقول والعمل.

وقرأ ابن عباس: «**الفرقان ضياء وذكرًا للمتقين**» بإسقاط الواو[(٢)] وقال: خذوا

=

نفسه دار البوار - اللهم غفرًا - بل الكافر محمول إلى ما أعد له، والعامل مسوق إلى ما وعد به ميسر لما يسر له، والله ﷻ القاهر فوق عباده، وهو الحكيم الخبير، والله يصير الأمر. وكذلك كل ما أنبتته الأرض أو حملته في بطنها، من مختلف أو متفق في روائحه أو طعومه ولمسه، ونفعه وضره، وخيره وشره، بأوزان مقسطة وحظوظ معدلة، قال الله ﷻ: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ﴾ [الحجر:١٩] فدونك ما سطره الطبائعيون في أوزانهم، واستقروه في موجودهم، ثم أثبتوه في أوضاعهم؛ حيث قالوا: كذا حار في الدرجة الأولى، يائس في الدرجة الثانية أو الثالثة أو الرابعة، وكذا في البرودة والرطوبة قسموها على أربع درجات، جعلوا معيارها جسم الإنسان، وأعلاها وأدناه الأصول الأربعة، واستمروا على ذلك موجودهم في استقراء الموجودات، واستمرت الأجسام؛ تصديقًا لذلك تلك الأوزان والموزونات، فيها وعندها وفى امتزاجها وانفرادها، قبلتها على تلك الصفات الباطنة أيضًا بأوزانها؛ إذ كل شيء عند المقسط الحق بمقدار. كذلك في الجزاء، كذلك في الأعمال له، كذلك في الحق، كذلك في الأمر، كذلك في التدبير، كذلك في إنزاله الماء والنشء، وتقسيم الغذاء على جميع العالم ظاهرًا وباطنًا، كل شيء له قسطه ووزنه ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ﴾ [الحجر:٢١] كذلك في سماع الكلام ترضي الكلمة، وتسخط الأخرى فيتزن موجوداتهما، وتحل الكلمة وتعقد الأخرى، فيتزن المعنى بين ذلك، هكذا كل شيء عنده بمقدار، هذا الوزن في العاجلة فكيف به في الآجلة على عظم تلك الدار وكبر خطرها، وقد قاله الصادق الحق ﷻ وتوعد عليه، ووعد إنه إذًا لكائن في الآجلة، وهي أكبر درجات أكبر تفصيلاً، إن هذا لهو الحق المبين: ﴿فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [الطور:١١] [شرح الأسماء ٧٢/٢].

(١) في النسخة (خ): «موافقة».

(٢) انظر: معاني القرآن للفراء (١٥٨/٣)، زاد المسير (٣٥٥/٥).

هذه الواو واجعلوها في قوله: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ العَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ [غافر:٧] وفي أخرى عنه: انزعوا هذه الواو [من هذا][1] واجعلوها في قوله: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ [آل عمران:١٧٣] فعلى قراءة ابن عباس يكون تقدير الكلام: ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان ضياء وذكرًا للمتقين، وهي قراءة عالية حسنة، وعلى قراءة الجماعة: الواو عاطفة على محذوف تقديره: ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان هدى وضياء، أو ما يكون في معنى هذا.

فصل

لما تقدم ذكر ما أنزله من الكتاب على محمد ﷺ وإعراض الأكثر عنه واستماعهم له بقلوب لاهية وأسماع منهم غير واعية، وذكر مع ذلك أن من كان قبلهم كانوا على ذلك في كل ذكر، يأتيهم من الله - جل ذكره - ثم استمر على ذكر هذا الكتاب ومخاطبة رسول الله ﷺ إلى قوله: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ العُمُرُ﴾ [الأنبياء:٤٤] ذكر الكتاب الذي أنزله على موسى وهارون، وسرد ذكر الأنبياء وكرامتهم عنده، والمراد بذلك ما صرح به في سورة الأنعام بعد ذكر الأنبياء وآبائهم وإخوانهم وذرياتهم ومن اجتباه وهداه منهم، ثم قال: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:٩٠].

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا
هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ
أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ
رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ
لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ
يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى
يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء: ٥١ - ٦٩].

أتبع ذلك قوله - تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء:٥١] وقرأ عيسى بن عمر: «رَشَده» بفتح الراء والشين، إلى قوله: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلايَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله﴾ [الأنبياء:٦٦ - ٦٧] إلى قوله: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٨ - ٦٩].

هذه دلالة من الله - جل ذكره - أن الأشياء ليست لها استطاعة ولا عمل من [عند][(١)] أنفسها، وإنما فعلها المنسوب إليها هو من الله وحده لا شريك له، وإن كان قد أجرى سنته في النار بالإحراق وفي السيف بالقطع، فذلك كله بأمر الله وبإذنه، كما يحيي الموتى على يدي عيسى ابن مريم وغير ذلك.

وهذا يجري في ثبوت الدلالة مجرى إمساك الله السماوات والأرض أن تزولا وكل شيء وما عبر عنه بقوله: ﴿وَهُوَ الخَلَّاقُ العَلِيمُ﴾ [يس:٨١] أي: هو الخلاق أبدًا على الدوام يخلف الخلقة الخلقة، ألا ترى أن القادر منا الحي ذا الزعامة ليس له من الأمر على تحقيق المعتقد شيء، بل هو على ما عبر عنه بقوله الحق: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾ [الأنفال:١٧] والجماد والموات وما لا حياة به أحرى ألا يوصف بذلك وأبعد.

﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذۡ نَادَىٰ مِن قَبۡلُ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنبياء: ٧٠ - ٧٩].

قوله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ القَوْمِ﴾ [الأنبياء:٧٨] نفشت: رعت ليلاً، وحرث القوم: زرعهم، وقيل: كانت كرومًا.

قال الله - عزَّ من قائل: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ [الأنبياء:٧٩] روي عن نبينا ﷺ «**أنه قضى فيما أفسدت المواشي بالليل على أرباب المواشي بالضمان، وما أفسدت بالنهار فعلى أصحاب الحوائط**»[1] وذكر أن سليمان قضى بذلك، غير أن سليمان عليه السلام قضى بدفع الغنم إلى رب الكرم، ينتفعون بغلتها إلى أن يقوم أصحابها بصلاح الكرم؛ حتى يعود إلى ما كان عليه يوم أفسد.

وهذا إن صح الحكم فيه عن رسول الله ﷺ بسند يقطع العذر فهو الحجة، وإنما الحديث المروي في ذلك عن النبي ﷺ غير ثابت، ولو كان ذلك كذلك فقد

---

(١) أخرجه بنحوه مالك في الموطأ (١٤٤٠)، وأحمد (٢٣٧٤١).

نسخه بقوله: «**من استهلك شيئًا فعليه قيمته**»[١] فهذا هو الحكم الحق، وهو الذي صحبه العمل، وهو الذي ألهمه سليمان - على جميعهم السلام - والله أعلم؛ ولذلك مدحه ربه بإصابة الصواب.

قال الله - جلَّ من قائل: ﴿**وَكُلاً آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا**﴾ [الأنبياء:٧٩] ومن الحكمة أن الله ﷻ جعل الليل سكنًا والنهار نشورًا، فمتى نفشت المواشي ليلاً فقد خالف باعثها على ذلك سنن الحكمة، ولما كان النهار ينتشر فيه ويضطلع أهل الزرع بحراسة زرعهم جعل المصيبة فيما هلك منهم، وهذا وإن كان قد امتزج بمعنى من الحكمة فإن عدوان المعتدين يتطرق معه، وعدم البينات معهود حينئذٍ؛ لسكون الناس في ليلهم، ولا يتخلص مع هذا حرث، ويكون انبساط هؤلاء وحماية هؤلاء سببًا للفساد في الأرض وسفك الدماء وبسط الأيدي، وتوليد العداوة والبغضاء، وفي ذلك الفتنة في الأرض والفساد الكبير، وفتوى رسول الله ﷺ هو الفصل: «**من استهلك شيئًا فعليه قيمته**»[٢] وهو الذي فهمه الله سليمان - على جميعهم صلوات الله وسلامه - والله أعلم.

ولما في القصتين من الحكمة والعدل قال: ﴿**وَكُلاً آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا**﴾ [الأنبياء:٧٩].

قال رسول الله ﷺ: «**إذا اجتهد الحاكم فأخطأ فله أجر، وإن اجتهد فأصاب فله أجران**»[٣].

﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾
وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾
وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ (١٧).

(٢) انظر السابق.

(٣) أخرجه البخاري (٦٩١٩)، ومسلم (١٧١٦)، وأبو داود (٣٥٧٤)، والترمذي (١٣٢٦) والنسائي (٥٣٨١) وابن ماجة (٢٣١٤)، وابن حبان (٥٠٦٠)، وأحمد (١٧٨٠٩) والشافعي (٢٤٤/١).

حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء: ٨٠ - ٨٤].

قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[(١)] [الأنبياء:٨٣] إلى قوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾ [الأنبياء:٨٤] ذكر أن أيوب عليه السلام حال ما ابتلاه الله عز وجل فَقْد أهله فصبر واحتسب إلى غير ذلك من أنواع ما أصيب [به][(٢)] فقيل: إنهم ماتوا، وقيل: إنهم غُيِّبوا عنه، فلما كشف الله ضره عنه أتاه أهله ومثلهم معهم، كذلك قصَّ الله علينا [من][(٣)] فعله به في كتابه الحكيم، وإن كانوا غيبوا عنه فأحضروا له، فمعهود مثله على ما فيه من عجب، وإن كان قد أماتهم فأحياهم الله وهو الأظهر، فممكن وجوده في المقدور الغائب، وكل [ذلك][(٤)] على الله يسير.

وتلك رحمة من الله للصابرين من عباده، وذكرًا للعابدين، وذكرًا لأولي الألباب، وهم الذين يبصرون ببصائر قلوبهم مرائي العواقب وغيابات الكائنات، والعابدون في هذا الموضع هم الغرباء الذين يكونون في آخر الزمان، فكان فعله ذلك بأيوب رحمة وذكرى للعابدين، ينتظرون بذلك الفرج مما هم فيه جزاءً لصبرهم، وليس إحياؤه إياهم له بأعجب من قوله: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ [ص:٤٢]

---

(١) كان عليه السلام بلاؤه في بدنه في غاية الشدة؛ فقد أخرج ابن جرير عن وهب بن منبه قال: «كان يخرج في بنده مثل ثدي النساء ثم يتفقأ». وأخرج أحمد في «الزهد» عن الحسن أنه قال: «ما كان بقى من أيوب عليه السلام إلا عيناه وقلبه ولسانه، فكانت الدواب تختلف في جسده». وأخرج أبو نعيم وابن عساكر عنه: «إن الدودة لتقع من جسد أيوب عليه السلام فيعيدها إلى مكانها ويقول: كلي من رزق الله تعالى». وما أصاب منه إبليس في مرضه كما أخرج البيهقي في «الشعب» إلا الأنين، وسبب ابتلائه على ما أخرج ابن عساكر من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس: إنه استعان به مسكين على درء ظلم عنه فلم يعنه. تفسير الألوسي (٤٤٧/١٢).

(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٣) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٤) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

فانفجرت له عين، وقيل: عينان:

أحدهما: لاغتساله.

والأخرى: لشرابه.

فأذهب الله بذلك عنه داءه ظاهرًا وباطنًا، وهذا من جنس ما يفعله يوم القيامة بأوليائه، يدخلهم الجنة فيغتسلون ويشربون فيذهب عنهم خلقتهم و[خلقهم](1) الدنيوية، ويطهرهم بذلك تطهيرًا ظاهرًا وباطنًا، وعرفان ذلك اليوم إحياؤه الموتى وبعثهم، قد أحيا الله نبيًا من الأنبياء بعدما أماته مائة عام، وأحيا قتيل موسى عليه السلام بعضو بقرة ضرب به وأخبر بمن قتله، وأمسك فتية الكهف ثلاثمائة سنينًا وتسعًا رقودًا، ثم بعثهم من نومهم إلى غير ذلك من إحياء عيسى عليه السلام من شاء الله [إحياءه](2) على يديه، وإحياء الله الرجل الصالح الذي يقتله الدجال - لعنه الله - وخفف على المؤمنين وطأته، يحييه الله على يديه فتنة لمن شاء الله به الفتنة، وإحياء قومًا من بني إسرائيل بعد موتهم، وكان قد أماتهم بالصاعقة، وأحيا آخرين ﴿**خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ المَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ**﴾ [البقرة:٢٤٣].

لذلك - وهو أعلم - قال: ﴿**وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ**﴾ [الأنبياء:٨٤] أي: يتذكرون بذلك ما يكون من ذلك يوم النشور، ويتذكرون ما يكون من ذلك في يوم يحيي عيسى ابن مريم العابدين الذين عبدوا الله وحده، وصبروا لمحنة الدجال، وصبروا على كل الأحوال.

﴿**وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذْ**

(١) في النسخة (خ): «حلتهم».

(٢) في النسخة (خ): «أحياهم».

نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٨٥ - ٩٠].

قوله ﷻ: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء:٨٧] يعني، وهو أعلم: أن لن نضيق عليه عبر هذا من التأويل في حق يونس ﵇ محال مكظوم شديد الحزن [حتى][(١)] سجنه في بطن الحوت، أعلم الله الرحيم [الحق][(٢)] ذوي الألباب أنه يرحم الـمُلِيم مع استغفاره ويتداركه على ذلك، كما يرحم المحسن مع إحسانه؛ إذ التوبة من الذنب إحسان، وقال: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح:٦] وكان قد ذهب على وجهه مغاضبًا قومه، ولا أقول ما قال البعض: إنه كان مغاضبًا ربه.

وأمّا تسميته إياه: آبقًا، فإنه كان عبدًا لله استعمله وكلفه التبليغ إلى قومه، ولما [غلبته][(٣)] نفسه بالغضب فرَّ على وجهه، وذهب إلى الفلك المشحون، فسمى ذلك منه ربه: إباقًا؛ إذ ترك عمله وذهب عنه.

فصل

قال رسول الله ﷺ: «لا ينبغي لأحد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى»[(٤)] وما تأول عليه أكثر من تقدم في المعهود أنه يقدر على خير منه الأكثر من أهل الإيمان والعاملين له بطاعته، إنما كان غضبه في ذات الله، وربما كان ذلك على نفسه ومغاضبًا قومه، وعلى ظاهر سياق ما [حكى][(٥)] الله عنه غير ما ذكروه، بل إنما كان

(١) في النسخة (خ): «حين».
(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).
(٣) في النسخة (خ): «غلبت».
(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (٤٥٨/٧)، والنسائي في الكبرى (١١١٦٧)، والحاكم (٤٠٨٧)، والطبراني (١٠٩٥٩)، والبيهقي (١٤٦٦) وفي الدلائل (٢٢٤٩)، وأبو عوانة (٢٩٢)، وأبو يعلى (٥١٥٥)، وابن حبان (٦٣٤٤)، وأبو نعيم (٣٥٨٣)، والطيالسي (٢٦٤٥).
(٥) في النسخة (خ): «حكاه».

إرساله إلى القرية بعد محنته في السجن في بطن الحوت.

قال الله - عزَّ من قائل: ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ * وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ * وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات:١٤٥-١٤٧] والظاهر الأخذ بالخطاب على مساقه في تقديمه ما قدم وتأخير ما أخَّر.

قال رسول الله ﷺ في قول الله - جل ثناؤه: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللهِ﴾ [البقرة:١٥٨]: «**يبدأ بما بدأ الله به**»[(١)] بدأ بالصفا، ووافق ذلك اليوم [قوله][(٢)]: «**خذوا عني مناسككم**»[(٣)] وربما كان الذي أتاه مما لام عليه نفسه بعض التأويلات كذنب رسول الله عليه السلام نوح في شفاعته في ابنه، وكذلك ذنوب أمثاله كإبراهيم وموسى وغيرهم - صلوات الله وسلامه على جميعهم.

وقد جاء عن رسول الله ﷺ - والله أعلم - أنه قال فيه: «**أنه كان يرتفع له إلى الله كل يوم من عمله مثل عمل أهل الأرض**»[(٤)] وما يدريك لعل معنى قوله ﷺ فيه: ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الصافات:١٤٢] أنه أتى بما يلام عليه من حمله على نفسه؛ لإلقائه نفسه على أصعب الأمر وأشده في مساهمته على من هو الذي يجعل في البحر أو نحو هذا - والله أعلم بخصوص عباده وأرأف.

قوله تعالى: ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧] هذا من المقدور الغائب كيف يكون منه النداء المعهود وهو في بطن الحوت وغمرات المياه، وهي ظلمات كثيرة، وإنما نبهنا على هذا؛ لئلا يعتمد معتمد في وجود الكلام والتسبيح والتحميد وغيره على الصوت الموجود عن هواء خارج، بل الكلام على هذه الشروط أحد أنواع الكلام والنداء والإسماع والإفهام، فافهم.

---

(١) أخرجه مسلم (١٢١٨)، وابن أبي شيبة (١٤٧٠٥)، وابن حبان (٣٩٤٤)، وعبد بن حميد (١١٣٥)، والدارمي (١٩٠٣)، والدارقطني (٢٦١٠).

(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٣) أخرجه النسائي (٣٠٦٢)، والبيهقي (١٢٥/٥) والطبراني (١٥٣٢) وفي الأوسط (٢٠٠٢) وأبو نعيم في المعرفة (٣٨٩٤).

(٤) لم أقف عليه.

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغَمِّ﴾ [الأنبياء:٨٨] والغم يكون على متوقع منتظر، والحزن على ما كان وفات، وعلى التحقيق فالغم ترادف الحزن وتراكم الوجد وسد المذاهب، حتى لا يجد لما أهمه مخرجًا، والحزن سكون تلك الحال مع وجد موجود.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُنجِي المُؤْمِنِينَ﴾[1] [الأنبياء:٨٨] وعد من الله صادق لمن تاب وأناب إلى ربه واعترف كما فعل هو، عبر عن موجود حاله قوله: ﴿لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧] مع أنه قد قدم صالحًا يذكر به فيما هنالك ويشفع له، قال الله سبحانه: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ المُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات:١٤٣ - ١٤٤] فإذا كان المؤمن فيما أغمه على حال هذا المجتبى - صلوات الله وسلامه عليه - من التوحيد والتوبة والإقلاع والندم المهم الذي يبلغ به حالة الغم، وقد قدم صالح عمل أو في نفسه أنه [يعمله ناله][2] وعد الله - جل ذكره - أنه لا يخلف الميعاد.

قوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الوَارِثِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ [الأنبياء:٨٩ - ٩٠] جعلها ولودًا بعد أن كانت عاقرًا، يقول الله سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠] هذا أصل في استحقاق [الاستجابة][3].

---

(١) قرأ عاصم في رواية أبي بكر وابن عامر في إحدى الروايتين: «نُجّي» بنون واحدة وتشديد الجيم، وقال الزجاج: هو لحن؛ لأن فعل ما لم يسم فاعله لا يكون بغير فاعل، وإنما كتب في المصحف بنون واحدة؛ لأن الثانية تخفى مع الجيم. وقال أبو عبيدة: والذي عندنا أنه ليس بلحن، وله مخرجان في العربية: **أحدهما**: أنه يريد «ثُمَّ نُنَجّي» مشددة، كقوله: ونجيناه من الغم، ثم يدغم النون الثانية في الجيم.

والآخر: معناه: نجّي نجاة المؤمنين. قال: هذه القراءة أحب إلي؛ لأن المصاحف كلها كتبت بنون واحدة، وهكذا رأيت في مصحف الإمام عثمان ﷺ. وقرأ الباقون: «**نُنجِي المؤمنين**» بنونين. بحر العلوم للسمرقندي (١٣٩/٣).

(٢) ما بين [ ] غير واضح من النسخة (غ).

(٣) في النسخة (خ): «الإجابة».

قال رسول الله : ﷺ «من أحب أن يستجاب له في الشدة فليكثر التضرع في الرخاء»[١].

﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ (٩١) إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (٩٢) وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ (٩٣) فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ (٩٤) وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (٩٥) حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ (٩٦) وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ (٩٧) إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨)﴾ [الأنبياء: ٩١ - ٩٨].

قوله تعالى: ﴿الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء:٩١] قد فسر هذا المعنى قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم:١٧] و[جعلناها][٢] وابنها آية على أنه يخلق من غير [أنثى][٣] ولا ذكر كما يخلق من ذلك، هو الذي يبين سنته، وأجرى العوائد على معهود منها، وهو يخرق العوائد ويجري ما شاء من أحكامه على كلماته، وهو على كل شيء قدير، قال هنا: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ وفي آدم: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [ص:٧٢] فتبين [البون][٤] لمن لقن الخطاب.

---

(١) لم أقف عليه هكذا، وإنما أخرجه الطبراني (١١٢٤٣)، وأحمد (٢٨٠٤)، والضياء (١٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٧٤)، وهناد في الزهد (٥٣٦)، وأبو نعيم في الحلية (٣١٤/١)، بلفظ: «**تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة**».

(٢) في النسخة (خ): «وجعلها».

(٣) في النسخة (خ): «ماء».

(٤) في النسخة (خ): «النون».

فصل

نصب أسماء الأنبياء - عليهم السلام - في قوله: ﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء:٧٤] ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ﴾ [الأنبياء:٧٦] ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ [الأنبياء:٧٨] ﴿وَأَيُّوبَ﴾ [الأنبياء:٨٣] ﴿وَذَا النُّونِ﴾ [الأنبياء:٨٧] عطفًا على ما تقدم من قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً﴾ [الأنبياء:٤٨] ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ﴾ [الأنبياء:٥١].

واستاق ذكرهم بأسمائهم وقصصهم؛ إثباتًا للخصوصية، وإعلامًا بالمن القديم الذي منَّ به على من يشاء من عباده، وذكرًا لهما وتذكيرًا لنا بهم، وإحياء لشرفهم؛ ليكون ذلك ذكرًا لعباده للمؤمنين، وموسمًا يبتغون به الأرباح عنده ويتقربون إليه بمحبتهم والتصديق لهم والإيمان بهم، وللتعزية لرسوله بما كان يصيبهم به في ذاته، فيصبرون له حتى يأتيهم الفرج من عنده، وإظهار لصدقه وعده رسله وإن أبطأ ذلك عليهم، فلتكمل أعمالهم وتتوفر ذنوب المجرمين، ولينالوا نصيبهم من الكتاب، يقول الله ﷻ: ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود:١٢٠].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٩٢] أعلم ﷻ عباده ببعض المراد بسياقه ذكرهم فقال: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [أي: أئمتكم أئمة واحدة][(١)] أي: كإمام واحد يدعون إلى دين واحد هو الإسلام لله والإيمان [به والعمل][(٢)] بطاعته ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ﴾ رب واحد ﴿فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٩٢] على ذلك، يقال: أم يؤم فهو أمة وإمام.

ثم قال - عز من قائل: ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾[(٣)] فمنهم من فرق التوحيد،

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٣) أخبر تعالى أنهم بعد ذلك اختلفوا ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ﴾ وقرأ الجمهور ﴿أُمَّتُكُمْ﴾ بالرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ و﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ بالنصب على الحال، وقيل بدل من ﴿هَذِهِ﴾ وقرأ الحسن ﴿أُمَّتَكُمْ﴾ بالنصب بدل من ﴿هَذِهِ﴾. وقرأ أيضًا هو وابن إسحاق والأشهب العقيلي وأبو حيوة وابن أبي عبلة والجعفي وهارون عن أبي عمرو والزعفراني ﴿أُمَّتُكُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ﴾ برفع الثلاثة على أن =

ومنهم من فرق بين النبيين، فكذب بعضًا وصدق بعضًا، ففارقوا بذلك دينهم الحق، ثم قال: ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ [الأنبياء:٩٣] وعيد منه شديد.

ثم أعلم بما يكون في المرجع إليه بقوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ لا يضره ضلال الضالين ولا تكذيب المكذبين ﴿وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ [الأنبياء:٩٤] إعلام بأن أعمالهم لا يخافون فيها ظلمًا ولا منها هضمًا، أحصى كل شيء كتابًا ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩] مع ما عند الله لعباده المؤمنين من الوعد بالمغفرة والتجاوز عن السيئات وتكفيرها بصالح الأعمال وحسن [الحسنات](١)، والزيادة التي وعد بها هو يعلمها لا يعلم كنهها سواه، ونصب «أمة» على القطع، ومن قال: إنه نصبها على المدح فهو مصيب، وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق: «إن هذه أمتكم» بنصب التاء «أمة واحدة» برفع الهاء.

قوله ﷻ: ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء:٩٥] المعنى، والله أعلم بما ينزل: إنه حرام على قرية سبق لها منه القول بإهلاكه أن ترجع عما هي عليه من كفرانها، ثم حرام عليها إذا رأت العذاب ألا ترجع، فلا ينفعها حينئذٍ إيمانها ﴿سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ﴾ [الفتح:٢٣] وقرئت: «وحرم على قرية» بكسر الحاء وفتح وجزم الراء، والمعنى سواء، وقرأ ابن عباس وابن جبير: «وحرم» بفتح الحاء وكسر الراء وفتح الميم(٢)، قال: إنه بمعنى وجب؛ أي: وجب ذلك عليها

=

﴿أُمَّتُكُمْ﴾ و﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾ أو ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ بدل من ﴿أُمَّتُكُمْ﴾ بدل نكرة من معرفة، أو خبر مبتدأ محذوف أي هي ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ والضمير في ﴿وَتَقَطَّعُوا﴾ عائد على ضمير الخطاب على سبيل الالتفات أي وتقطعتم، ولما كان هذا الفعل من أقبح المرتكبات عدل عن الخطاب إلى لفظ الغيبة كأن هذا الفعل ما صدر من المخاطب؛ لأن في الإخبار عنهم بذلك نعيًا عليهم ما أفسدوه، وكأنه يخبر غيرهم ما صدر من قبيح فعلهم ويقول ألا ترى إلى ما ارتكب هؤلاء في دين الله جعلوا أمر دينهم قطعًا كما يتوزع الجماعة الشيء لهذا نصيب ولهذا نصيب، تمثيلاً لاختلافهم ثم توعدهم برجوع هذه الفرقة المختلفة إلى جزائه.

(١) في النسخة (خ): «الحساب».

(٢) قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر: «وحرم» بكسر الحاء بلا ألف، وقرأ الباقون بالألف «حرام»

=

بأمر الكون، فوجب عليها ألا ترجع حين دعائه الرسل، ووجب عليها أن ترجع حين رؤية الهلاك.

قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ [الأنبياء:٩٦] يريد - وهو أعلم - موتهم كموت نفس واحدة [فَرْسَى][1] وهو الفتح على الحقيقة؛ ولذلك قرأ أبو العالية: «**حتى إذا فتحت**[2] **أجوج ومأجوج**» أي: فتحتها أنا، يقول ﷻ على هذه القراءة: «أجوج» بغير ياء، كذلك قراءة رؤبة بن العجاج[3].

ثم وصف كثرتهم بقوله: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ [الحدب: النشز والمرتفع من الأرض][4] ينسلون: ضرب من المشي هو دون الجري وفوق المعهود، وصفته: أن يرفع رجله ثم يضعها فلا يجرها على الأرض، ويرفع القدم الأخرى ثم يضعها وضعًا كذلك، وفي الحديث: إن رسول الله ﷺ في بعض أسفاره شكا إليه بعض أصحابه الحفىّ [فقال][5]: «**فأمرهم أن ينسلوا فهو أقرب إلى السلامة من الحفىّ**»[6] ومن قرأ: «**فَتَحتْ**» فهو عبارة عن هدم السد الذي بنى عليه ذو القرنين عليه السلام لما فرغ منه قال: هذا رحمة من ربي ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف:٩٨].

ثم قال وقوله الحق: ﴿وَاقْتَرَبَ الوَعْدُ الحَقُّ﴾ [الأنبياء:٩٧] عطف بالواو لما

=

وهما لغتان مثل حل وحلال. [تفسير البغوي (٣٥٤/٥)].

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٢) قرأ حمزة، والكسائي، وعاصم: «فُتِحَتْ» بتخفيف التاء والباقون: بالتشديد. فمن قرأ بالتشديد، فلتكثير الفعل. ومن قرأ بالتخفيف، فعلى فعل الواحد. [بحر العلوم للسمرقندي (٤٦/٤)].

(٣) قرأ العجاج ورؤبة ابنه: آجوج بهمزة بدل الياء. وآجوج ومأجوج هما من ولد يافث. وقيل: يأجوج من الترك ومأجوج من الجيل والديلم. [البحر المحيط (٤٩٣/٧)، الكشاف (٧٢٢/١)].

(٤) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٥) ما بين [ ] زيادة من النسخة (خ).

(٦) لم أقف عليه.

تجاوز ذكر أيام عيسى ابن مريم ﷺ فعطف على المحذوف من ذلك كقوله في أهل الجنة: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر:٧] أي: وظهروا وهربوا، ثم عطف بالواو على هذا الكلام المحذوف، كذلك عطف أيضًا بالواو في قوله: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ تقدير الكلام: ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ ووصف كيف فتح فيهم أصبحوا [موتى][1] كموت نفس واحدة ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ أي: وهم على هذا من الكثرة ماتوا كموت نفس واحدة، ثم نظم به قوله: ﴿وَاقْتَرَبَ الوَعْدُ الحَقُّ﴾ [الأنبياء:٩٧].

وقد يمكن أن يكون المعني بالوعد الحق هنا: نزول عيسى ابن مريم ﷺ وما يفتح الله به على يديه ويؤتيه من النصر، ويخرج له من بركات الأرض والسماء، فإنه يجيء بخير لم يكن [دولاً][2] في البدء، ويمكن أن يكون الوعد الحق هو قيام الساعة، ويدل على هذا التوجيه قوله: ﴿وَاقْتَرَبَ الوَعْدُ الحَقُّ﴾ وإنما يكون قتل الله - جل ذكره - يأجوج ومأجوج في أيام عيسى وهو والمسلمون محصورون في جبال الطور، وعلى الحقيقة فيومئذٍ تشخص الأبصار وتحضر الأذكار وإن لم تنفع، وحذف «يقولون» ثم قال حكاية عنهم: ﴿يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء:٩٧].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء:٩٨] أرجع الكلام إلى العرب وكفار الأمم، وقرأ علي وعائشة وابن الزبير وأُبي: «حطب جهنم أنتم لها واردون» يعني: الكفار، وهو أعلم.

﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾

---

(١) في النسخة (خ): «فَرْسَى».

(٢) في النسخة (خ): «ولا».

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (١٠٤)﴾ [الأنبياء: ٩٩ - ١٠٤].

ثم قال وقوله الحق مبيِّنًا للمراد: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠١].

فصل

يمكن أن يكون المراد بقوله هنا: ﴿أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ الكفار فحسب، ويمكن أن يكون المراد جميع العباد من بر وفاجر، وقد حقق ذلك الأكثر من السلف، وخرج على ذلك معنى قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم:٧١].

والورود يكون الوصول إلى الماء أو الشيء شاهده، ولما ورد ماء مدين وصل إليه، ويكون الدخول شاهده يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار، روي عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال: «**الورود الدخول لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها، فتكون على المؤمنين بردًا وسلامًا كما كانت على إبراهيم** ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم:٧٢]»(١).

وروي نحو ذلك عن ابن عباس وروي عن ابن مسعود أنه قال: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم:٧١] يعني: الصراط، وروي أنه قال: يردونها ويصدرون عنها بأعمالهم، وقال قتادة: ورودها الممر عليها.

وأمَّا ما روي عن جابر عن النبي ﷺ وأنه لو ثبت لكان الحجة البالغة وطريق هذا هو العلم، ولا يصح العلم ولا يتحصل بطريق الآحاد، كيف وقد ضُعِّفت نَقَلَة هذا الحديث بأنهم مجهولون، والقائلين بمقتضى هذا الحديث من ظاهر العموم.

قوله ﷻ: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا

---

(١) أخرجه أحمد (١٤٥٦٠)، وقال الهيثمي (٧/٥٥): رجاله ثقات، والبيهقي (٣٧٠) وقال: إسناد حسن، وعبد بن حميد (١١٠٦)، والحاكم (٨٧٤٤) وقال: صحيح الإسناد، والحارث كما فى بغية الباحث (١١٢٧).

مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:١١٨ - ١١٩] ونظيرتها في [سورة][1] ﴿الم﴾ السجدة قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ المُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة:١٢] إلى قوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ القَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة:١٣] فعمَّ بالذكر الجِنَّة والناس.

وأمَّا القائلون بأن الورود هنا هو بمعنى الممر والجواز فلهم حجة التخصيص، قال الله عزَّ من قائل لإبليس - لعنه الله - لما قال له: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِين * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ المُخْلَصِينَ * قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ * لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص:٨٢-٨٥] فهذا نص على إبليس ومن تبعه من ذريته ومن الناس وقال في موضع آخر: ﴿اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا﴾ هذا إلى أن ضمير العموم راجع إلى القسم المغضوب عليهم قوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود:١١٨] أي: في التوحيد والنبوة، فمنهم من كذب بها، ومنهم من صدق بعضًا وكذب بعضًا ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود:١١٩] ولذلك خلقهم؛ أي: للمرحمة والتوحيد والتصديق.

ثم أخذ في الإخبار عن المختلفين بقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:١١٩] يريد - وهو أعلم - كلمته لإبليس: «اذهب، فمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين، أخرج منها مذمومًا مدحورًا لمن تبعك منهم لأملأن [جهنم][2] منكم أجمعين، فهذا نص على ملئها منهم، نعوذ بالله من سوء ما سبقت به المقادير.

هذا إلى قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم:٧١] إنما جاء بعد قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا * ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا * ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا﴾ [مريم:٦٨-٧٠] ثم قال: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).
(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

حَتْمًا مَقْضِيًا﴾ [مريم:٧١] فكان هذا الكلام راجعًا على الذين هم أولى بها صليًا، وقد خلقهم الله ﷻ ملئها: «**تحاكمت الجنة والنار إلى ربهما، فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين وقالت الجنة: ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم، قال الله** - جل ذكره - **للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء، وقال للنار: أنت عذابي أعذب بك من أشاء، ولكل واحدة منكما ملئها**»(١) فهذا حديث صحيح، وقد أراح بما نصه من الحقيقة [وأغنى بتبيانه عن الإكثار.

وفي قول الله الشفاء الشافي، حيث يقول - عزَّ من قائل: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا**﴾ [الأنبياء:١٠١ - ١٠٢] فكيف يخبر الله ﷻ عنهم أنهم عنها مبعدون، ويجوز القول بأنهم داخلوها، ويقولون بأنهم لا يسمعون حسيسها.

فيتردد في خلاف مقتضى قوله يقول الله ﷻ: ﴿**وَتَتَلَقَّاهُمُ المَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ**﴾ [الأنبياء:١٠٣] يبشرهم ويذكرهم يقولون: ﴿**أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ**﴾ [فصلت:٣٠] لستم المرادين بما ترون نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ونحو هذا من قولهم - صلوات الله وسلامه على جميعهم - وقول الله ﷻ هو الحق.

قال رسول الله ﷺ: «**إن النار اشتكت إلى ربها قالت: يا رب أكل بعضي بعضًا، فأذن لي أن أتنفس، فأذن لها بنفسين، نفس في الشتاء ونفس في الصيف، فأشد ما تجدون من البرد فمن الزمهرير، وأشد ما تجدون من الحر** - أو: «**من الحرور**»(٢) - **فمن جهنم**»(٣).

فأخبر الله - جل ذكره - عن هذا الحق الكائن والوجود المصاحب، يقول: ﴿**وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا**﴾ [مريم:٧١] الآن فلِمَ تكفرون؟ أو كيف تكذبون بهما وأنتم

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٦٩) ومسلم (٢٨٤٦) والنسائي في الكبرى (٧٧٤٠) وابن حبان (٧٤٤٧)، وأحمد (٨١٤٩).

(٢) لم أقف على هذه الرواية.

(٣) أخرجه البخاري (٣٠٨٧) ومسلم (٦١٧) وابن ماجة (٤٣١٩) وأحمد (١٠٥٤٥) ومالك (٢٨) والشافعي (١/٢٧)، وابن حبان (٧٤٦٦).

تردون زمهريرها أو حرورها كل يوم وحين؟ والوقوف على معرفة فيح جهنم وفيح رحمة الله من الجنة يبلغ إلى اليقين بالدار الآخرة.

وأمَّا قوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي﴾ أي: يوم القيامة ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم:٧٢] فإخبار عما يكون من حكمه في الآخرة؛ إذ قد قدم إخباره عن حكمه في دار الدنيا؛ ولهذا التبيان أتبع قوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ ولا أبين من مشيش صرود بردها وسموم حرها ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم:٧٣] أخبر عن موتهم وغفلتهم لا يسمعون الوحي ولا يعقلون الخطاب.

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ
(١٠٥) إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ (١٠٦) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (١٠٧) قُلْ
إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ
آذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ (١٠٩) إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ
مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠) وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (١١١)
قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١١٢)﴾ [الأنبياء: ١٠٥ - ١١٢].

قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٥] يمكن أن يكون المعنى بالزبور الكتب كلها، ويمكن أن يكون المنزل على داود - صلوات الله وسلامه عليه - وهو الأظهر من بعد الذكر الكتاب الأول يرثها عبادي الصالحون، يمكن أن يكون المراد: أمة محمد ﷺ، وقيل: إن الأرض ها هنا هي أرض بيت المقدس، وقيل: هي أرض الجنة، فالوارثون لها هم الصالحون.

لكن - والله أعلم بما ينزل - ليست أرض الجنة الغرض بهذا الخطاب؛ إذ المعلوم المعهود أن الجنة لا يدخلها إلا الصالحون، وليست معدة لسواهم، والأوجه من هذه الوجوه أنها هي هذه الأرض.

وقد جاء من حديث يصح: «إن الله يجعل هذه الأرض يوم القيامة خبزة كالنقي

قال: **يَتَكَفَّؤُهَا الجبار كما يتكفأ أحدكم خبزته في السفر نزلاً لأهل الجنة**»[(١)].

وقد جاء: «**إن المؤمن في أرض المحشر يشرب من الحوض ويأكل من بين رجليه**»[(٢)] وعلى هذا انبنى الوجود.

ألا ترى أن الله - جل ذكره - يخلق منها الخير وما هو غذاء الأجسام والأرواح ولكن بآجال مؤجلة إلى آماد منتظرة ﴿**وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [النحل:٧٧] أتبع ذلك ما هو في معناه قوله ﷻ: ﴿**إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ**﴾[(٣)] [الأنبياء:١٠٦] أي: إن في إشارات الوجود إلى ما هنالك وآيات عليه وفي إنباء هذا القرآن الحكيم لبلاغًا لقوم عابدين، فليصبروا قليلاً، فإن العاقبة لهم.

ووجه آخر أنه لما ذكر يأجوج ومأجوج والوعد بالفتح فيهم أتبع ذلك قوله: ﴿**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ**﴾ [الأنبياء:١٠٥] وهم عيسى ابن مريم وأنصاره ومن تبعه من المسلمين ومن يجيء معه، إن في هذا لبلاغًا لقوم عابدين لله في أيام الدجال.

ووجه آخر زائد إلى ما تقدم أن تكون الأرض المخبر عنها هي الأرض المقدسة، وهي مكان ملك داود وسليمان، وموضع أنزل فيه الزبور وكتب في الذكر الأول، ثم بعد في الزبور: «إن أرض بيت المقدس المعهودة يرثها عبادي الصالحون» والكتب الأولى بشارة لكونها لبني إسرائيل إلى أن فسدوا واختلفوا، فأدال الله فيها من شاء، ثم الكتب في الزبور بشارة بوراثة هذه الأمة إياها.

ومفهوم الوراثة يعطي أنهم - أعني: الصالحين - يرثونها من غير الصالحين،

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٥٥)، ومسلم (٢٧٩٢)، وعبد بن حميد (٩٦٢).

(٢) لم أقف عليه.

(٣) أخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن أبي هريرة: ﴿**إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ**﴾ قال: الصلوات الخمس. وأخرج ابن مردويه وأبو نعيم والديلمي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ في قول الله: ﴿**إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ**﴾ قال: «**في الصلوات الخمس شغلاً للعبادة**». وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس: أن النبيّ ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿**لَبَلاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ**﴾ قال: «**هي الصلوات الخمس في المسجد الحرام جماعة**». فتح القدير (٥/٩٠).

فورثها صدر هذه الأمة، وهم الصحابة والتابعون ومن بعدهم من المسلمين عن الروم، ثم عمرها المسلمون بذلك خلف عن سلف إلى أن فسدت الأعمال منهم، وظهرت فيهم البدع، وجريت القلوب خلفهم فيها الروم من لدن عام تسعة وثمانين وأربعمائة إلى هلم جرًّا، ثم إذا صلح آخر هذه الأمة - إن شاء الله - فتحها الله عليهم وأورثهم إياها، ثم كذلك ما صلحوا إلى وفاة عيسى ابن مريم - صلوات الله وسلامه عليه وعلى من تبعه بإحسان - وبوفاته تكون وفاة المؤمنين معه، ثم تخلف المؤمنين فيها وفي غيرها غيرهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، ففي هذا التقليب وتحقيق هذه الوراثة للصالحين واستخلافه الغير منهم عليهم بلاغ لقوم عابدين، وإعلام لهم بإثرتهم عنده ومكانتهم لديه، وإعلام منه لعباده أن القرآن أنزله بعلمه الغيب لا إله إلا هو.

قوله ﷻ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ﴾ أي: أعلمتكم وأسمعتكم ﴿عَلَى سَوَاءٍ﴾ [الأنبياء:١٠٩] أي: إسماعًا عامًا كما قال: ﴿وَاللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس:٢٥] وانتظم هذا الخطاب بأول السورة قوله: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنبياء:١ - ٢] المعنى إلى آخره، وهذا المعنى الذي هو الذكر مستصحب إلى آخر السورة.

أتبع ذلك ما هو منتظم به وموصل له قوله: ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ﴾ يعني: الذكر ﴿فِتْنَةٌ لَّكُمْ﴾ ومن كان له فتنة فهو كفر، وقوله: ﴿وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [الأنبياء:١١١] اشترك فيه المخلصون والمسلمون، المستسلمون العاملون، هؤلاء يمتعون به عبادة ولذاذة وتقريبًا من الله - جل ذكره - وهؤلاء يمتعون به رزقًا وعيشًا إلى حين؛ يعني: الموت لكل نفس وإلى حين وفاة عيسى ابن مريم ﷺ لحمله الأمة بعده، يسري على القرآن ليلاً فيرفع، نعوذ بالله من درك الشفاء وسوء البلاء ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت:٤٤].

﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة:٦٨].

﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء:٨٢] هؤلاء هو لهم فتنة والمتاع

ينقسم إلى ما تقدم ذكره، نسأل الله العفو والعافية.

قوله، جل ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾ [الأنبياء:١١٢] يمكن أنه أمره في هذا الخطاب أن يدعوه في الفرج، والأمر الذي يكون به النصر والفتح؛ لقوله: اصبروا حتى يأتي الله بأمره، والله لا يحكم إلا بالحق، لكن يتوجه هذا إلى أنه أمره أن يجعل حكمه بينهم بالكلمة، وهو الحق في المعهود كما قال: ﴿فَإِن يَشَأِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللهُ البَاطِلَ وَيُحِقُّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ [الشورى:٢٤].

والحق هو الكائن الواجب الوجود إمَّا بالمشاهدة كونًا وإمَّا بالوعد الصادق، وكان قد وعده بالنصر وأمره بالصبر إلى انقضاء المدة، فأمره هنا أن يسأله إنجاز ما وعده به من ذلك، ثم هذا سائر مستمر متى دارت دوائر الفترات، وعند استيلاء عمه الغفلة وتراكم الظلم والضلالات؛ فالواجب على من بقي من المنكرين لذلك ولو بقلوبهم أن يسألوا الله - جل ذكره - الصبر وتعجيل النصر والحكم بالحق، وأن يدحض كيد الظالمين، ويزهق أباطيل الكافرين، وأن يهاجروا إلى ذلك بأعمالهم وأنفسهم، والله سميع قريب.

تفسير سورة الحج

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾ [الحج: ١ - ٤].

قوله - عزَّ من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾[1] [الحج:١] هذا منتظم بالتذكير في أول سورة الأنبياء - عليهم السلام - قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء:١] إلى سائر الذكر.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي الله بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الحج:٣] أي: في قدرته ومشيئته وعلمه وصدق قوله، ولأن هذا المجادل بغير علم كذب بإحياء الله الموتى والإعادة بعد البداية وبإتيان الساعة وبالبعث والنشور والدار الآخرة، وكذب بما لله من صفاته العلا وأسمائه الحسنى، وهذا سنن الشيطان وطريقه الذي تضمنه من الإضلال والإغواء قوله: ﴿وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ﴾ [النساء:١١٩]

---

(١) قال الشيخ الألوسي (٤٩٥/١٢): تعليل لموجب الأمر بذكر أمر هائل فإن ملاحظة عظم ذلك وهوله وفظاعة ما هو من مباديه ومقدماته من الأحوال والأهوال التي لا ملجأ منها سوى التدرع بلباس التقوى مما يوجب مزيد الاعتناء بملابسته وملازمته لا محالة. والزلزلة التحريك الشديد والازعاج العنيف بطريق التكرير بحيث يزيل الأشياء من مقارها ويخرجها عن مراكزها، وإضافتها إلى الساعة إما من إضافة المصدر إلى فاعله لكن على سبيل المجاز في النسبة، كما قيل في قوله تعالى: ﴿بَلْ مَكْرُ اليل والنهار﴾ [سبأ:٣٣] لأن المحرك حقيقة هو الله تعالى والمفعول الأرض أو الناس أو من إضافته إلى المفعول لكن على أجرائه مجرى المفعول به اتساعاً.

المعنى إلى آخره، حيث وقع كقول الله - جل ذكره - ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٦٩].

يقول الله - جلَّ من قائل: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [الحج:٤] قوله ﷻ: ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف:١٨].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾ ﴾ [الحج: ٥ - ٧].

قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ﴾ [الحج:٥] إلى قوله: ﴿وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج:٧] يقول ﷻ: إن كنتم في شك من البعث فانظروا إلى ما بحضرتكم وما أنتم منه مخلوقون ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج:٥] يريد آدم ﵇ هو المخلوق من التراب، وخلق ذريته من نطف بعضهم من بعض، وتلك النطف مخلوقة من الأغذية، والأغذية من التراب، فشملنا جميعًا في أنا مخلوقون من التراب، وإذا أراد التميز بحكم الخصوص فكقوله: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة:٧ - ٨].

يقول - عزَّ من قائل: ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ أي: من دم ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾ المضغة: اللحم ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ المخلق منها هو المصور، فمن النطف من يصور في رأس الأربعين ليلة وهو الذكر، وأمَّا الأنثى فإن خلقها يصور عند انقضاء أجل المضغة، قوله: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [الحج:٥] أي: الذكر من الأنثى في الخلقة، وقد يمكن أن يكون معنى ذلك يقول: هذا لنبين لكم القدرة على الخلقة ونقلها في

درجاتها، وعلمنا بها وقدرتنا عليها وتدبيرنا إياها، كيف نشأ في مضيق مسكنها وعمايات مستقرها، وهي ظلمات ثلاث، حيث نبين التوجد منا بتدبيرها في درجاتها وتنقيلها إلى محالها منها وبجميع مواد الخلقة بعضها إلى بعض، وسوق الرزق إليها بحيث لا تبلغ صنع الأبوين ولا حفاية الأولياء.

ثم قال: ﴿وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي: من لدن نفخ الروح في ذلك المخلوق إلى وضعه ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ لتمام الآجال وانقراض آمادها، ثم قال: ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ فتستوي الخلقة وتستجمع الصفات والقوى الظاهرة والباطنة ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى﴾ من قبل ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ [الحج:٥] هذا تنبيه على إرجاع آخر الأمر على أوله، وفيه تنبيه على معرفة المرء نفسه ومن لا يعرف نفسه لا يعرف ربه، هذا فضل معرفة النفس.

ثم قال وقوله الحق: ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً﴾ [الحج:٥] أرانا دلالة أخرى وطريقًا ثانيًا من النظر على ما أراد إثباته كما قال: ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات:٢٠ - ٢١].

يقول - عزَّ من قائل: ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ لما رويت بالماء توجه إليها الكون ودخلها روح الخلقة، فربت له وخامرها أمر الله، فتشققت تهيؤًا للمراد منها وبها، ثم أظهر الله عنها نباتها فهبت عليها الرياح فاهتزت، وأضاف ذلك الفعل إلى الأرض؛ لأنه عنها، وتلك رحمة رُحمنا بها؛ لأن الحركة والفعل دليل على الحياة، يقول الله - جلَّ من قائل: ﴿وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج:٥] أي: مبهج فعيل بمعنى مُفْعِل.

ثم أخذ ﷻ يعلم بمواقع الدلائل من المدلولات بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: هذا الوجود يوجب الإيمان ﴿بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ أي: أن وجود هذا يدل دون مرية على وجوده العلي، كما يدل وجود الفعل على فاعله، وهذا فعل ففاعله إذًا حق وجوده لا محالة ﴿وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحج:٦] أي: أنه كما اقتدر على هذا إنزال الماء من السماء، وإخراج كل الثمرات به بواسطة ما سخره من الأرض والسماء والشمس والقمر والنجوم والرياح، وما يكون مع ذلك من فيح وفتح، وهذه هي الدنيا، فهو على إيجاد الآخرة وكل شيء علوًا وسفلاً قدير،

وإحيائه الموتى حال موتهم كما اقتدر على إحياء الأرض في حال موتها وإحياء النبات حال الموت منه وعلى إماتة الأحياء حال حياتهم، وأنه يبعث من في القبور كما اقتدر على إخراج النبات بعد أن لم يكن ثم نبات، وقد كان هشيمًا وحطامًا وآل بعضه إلى بزر يابس لا حركة نبات به ولا فعل يضاف إليه.

وقوله: ﴿وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى﴾ في حال موتهم كما تقدم، كما يحيي الجنين في بطن أمه وينشؤه في الرحم خلقًا آخر غير ذلك من درجاته الأُول، كذلك يحيي الموتى في دار البرزخ، وأن مدة مستقره في الرحم برزخ بين موتته الأولى حياته هذه، فهي له دار وسطًا كدار البرزخ التي يستقبلها بعد حياته هذه وقبل حياته المستقبلة، وقد تقدم من هذا ما يغني اللقن عن الإسهاب، ثم قال: ﴿وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحج:٦] فعم الوصف بإحاطة القدرة كل مقدور يبلغه العلم أو لا يبلغه كما قال: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٨].

ثم قال: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ كما تنقاد الآماد بحل الآجال فيما تقدم ذكره من تنقيل الخلقة إلى سواها، كذلك ببلوغ أجل الدنيا وتمام أمدها تجيء الساعة ويحل وقت الانقراض لا ريب في ذلك، كما إذا تم أمد النهار رحل الليل كذلك النهار يجيء لتمام الليل كذلك الآجال كلها ﴿وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج:٧] قد مضى الكلام في هذا كله.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ
لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا
قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ
خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ
ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ
ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾
إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ

﴿يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ⑭﴾ [الحج: ٨ - ١٤].

قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [الحج:٨] انْبَنَت هذه الآية على ذكر الجدال والمجادلين في آيات الله، لكن الآية الأولى في المجادل المتبع للضالين والمضلين من كل شيطان مريد من الجن والإنس، وهذه في المجادل في آيات الله الداعي إلى نفسه الضال المضل، وكل من كان على هذا فهو دجال لا هداية معه من الله ولا نور كتاب.

ثم قال: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ﴾ [الحج:٩] كما يقال: نأى بجانبه ولوى وأعرض، وذكر العطف هنا إشارة إلى الكبر والتعاظم.

ثم أتبع ذكر هذين الصنفين ذكر صنف ثالث، وهو: الضعيف الإيمان الشاك المرتاب، قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ حرف كل شيء أحد جانبيه، وكان أحدهم يدخل في الإسلام فإن ولدت امرأته غلامًا ونتجت فرسه وأصاب ما يحبه قال: «هذا دين صالح» وإن أصابه ضد ذلك قال: «هذا دين سوء» وتطير به فراجع كفره، عبر عن ذلك منه قوله - عز جلاله: ﴿انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ﴾ أي: إنه لم يصب في دنياه خيرًا؛ ولذلك انتقل عن عبادة ربه؛ ولرجوعه إلى ضلاله امتنع خير الآخرة ﴿ذَلِكَ﴾ المشار إليه هو خسران الدنيا والآخرة، فخسرانه هناك ﴿هُوَ الخُسْرَانُ المُبِينُ﴾ [الحج:١١] أي: بيِّن عن نفسه.

ووجه آخر: وهو أن المعهود هو التوسعة على الكافر استدراجًا له بالعوافي ومتاع الدنيا، يقول الله عزَّ من قائل: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي البِلادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ [آل عمران:١٩٦ - ١٩٧] ويقول: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ﴾ [الحجر:٣] ونحو هذا وهو كثير، فكيف يتصور القول بأنه خسر الدنيا وإن كان قد خسر الآخرة.

اعلم - أرانا الله وإياك رشدنا - أن الله، جل ذكره، وضع الدنيا ناقصة وإنما جعل تمامها في الآخرة، فإذا نال في الدنيا مهنأه فلم يشكر نعم الله بل كفرها، وأصابته مصابها فلم يصبر لله - جل ذكره - بل سخط وضج وفرَّ إلى سواه منها، فإذا صار إليه انقطع عنه ذلك، وأخذه بنعمه وقلة صبره، وضاعف له العذاب مع

البقاء في ذلك وطول الأمد.

فصل

واختلف السلف هل لله - جل ذكره - على الكافر نعمة دنيوية أم لا؟ بعد اتفاقهم على أن أول نعم الله على العبد أن خلقه سالم الحواس والجوارح ممتعًا بالقوى، وما جعله به مستويًا، وبعد اتفاقهم أيضًا على أن أفضل نعمة على العبد أن هداه إلى الإيمان ويسره للإسلام.

وقال فريق: ليست لله - جل ذكره - على الكافر نعمة؛ إذ قد أفاته نعمة الإيمان وإنما كل ما هو معطيه إياه من أهل ومال وولد وصحة وسلامة وعافية وتوسعه في ذلك فتنة له واستدراج إلى منال أشد العذاب، وأوجع الآلام وأبعد البعد من رحمة الله.

وقال فريق: بل نعم الله سابغة شائعة على الكافر في الدنيا إلا ما شاء من ذلك وله على المؤمن نعم الدنيا والآخرة، ولو شاء الله لضرب الكافر بضروب البلايا وأنواع العذاب في الدنيا من الجذام والبرص وتقطيع الأعضاء إلى غير ذلك من أصناف الغير، ممن أصاره بعد الموت إلى جهنم وبئس المصير، لكان له ذلك؛ فإذ قد أتاه في الدنيا السلامة ومتَّعه بشرف العيش وسعة الحال وكثرة الأهل والولد، وهي نعم من الله عليه.

وأجاب على ذلك الفريق الأول بأن قالوا: ليس ما ذكرتموه على الكافر نعمة عليه؛ إذ العلم قد استقر أن جميع ما يرزقه ويجبوه مما يظن بهما أنها قبله، نعم يعذبه عليها في الآخرة عذابًا فوق العذاب بكفره؛ لإفساده وصده وتضييع شكره، قالوا: فهو كمن أعطاه ذبيحة مسمومة، كان فيها هلاكه، فعادت نعمة الله على غيره الكافر نقمة على التحقيق، فهو قول الله - جل قوله: ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ﴾ [الحج:١١] لم يشكر نعم دنياه ولا صبر لبلائها، بل كفر ونخر، فكان كما قال الله - جل ذكره: ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ العَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل:٨٨].

وفي كتاب الله - جل ذكره - من تبيين هذا المذهب قوله ﷻ: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي

الآخِرَةِ﴾ [آل عمران:١٧٦] وقوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران:١٧٨] وقوله: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة:٥٥] وإنما هو الله سبحانه سبق إلى عباده أنعمه كما سبق إليهم هداية الفطرة، فمن آمن وأصلح كانت عليه نعمًا، ومن كفر عادت عليه نقمًا.

قال الله - عزَّ من قائل: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ يريد من نعمة قبلهم ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١] من هدايتهم ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا﴾ أي: من الإضلال ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم﴾ إذا ضلوا عن هدايتهم ﴿مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ [الرعد:١١].

رجع الكلام إلى أوله: ﴿يَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ [الحج:١٢] كل من عبد من دون الله لا يملك على التحقيق ضرًّا ولا نفعًا، وبخاصة الأوثان والأصنام، ثم قال: ﴿يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ﴾ [الحج:١٣] كان الدعاء في القسم الأول من العابد المعبود، ومن حيث هو تابع كما وصفه الله ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ [الحج:٣].

والدعاء هنا في الآية الثانية من المعبود العابد من حيث هو يدعو إلى نفسه؛ لكبره وعظم نفسه عنده، يقول الله - جل ذكره - ﴿يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ﴾ إن كان هذا الداعي إلى نفسه يلتذ بالتبعية والغاشية، فحمَّله أوزار من تبعه وأضله إلى أوزاره أقرب من ذلك النفع وأشد بأسًا، ثم قال وقوله الحق: ﴿لَبِئْسَ الْمَوْلَى﴾ تولاه يعني: الصنم والوثن والمعبود ما كان ﴿وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ [الحج:١٣] هؤلاء الأتباع والغاشية بئس ما عاشروا داعيتهم أصاروه حاملاً لأثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ هذا قول من له دعوة الحق ﴿إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [الحج:١٤] هو يملك النفع والضر، ويرزق من السماوات والأرض، لا إله إلا هو العلي الكبير، لما ذكر المجادل في الله الداعي إلى نفسه والتابعين له ومبلغ قدرهم، وموالاة المتبوعين

ومعاشرة التابعين لهم، وأنهم لأعبائهم ولا نفع ولا دفع ذكر نفسه العلي الأعلى لما هو عليه من نفع ودفع وعظيم غنى، وأنه يجعل مآل من آمن به وعمل الصالحات خير مآل.

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾ [الحج: ١٥ - ٢٢].

أتبع ذلك ما هو في معناه قوله: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إلى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾(١) [الحج:١٥] هذا منتظم بما تقدم من معنى من عند من له دعوة الحق

---

(١) الأمر في قوله: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إلى السَّمَاءِ﴾ للتعجيز، فيعلم أن تعليق الجواب على حصول شرطٍ لا يقع، كقوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا﴾ [الرحمن:٣٣] وأما استخراج معنى الآية من نظمها: فإنها نُسجت على إيجاز بديع، شُبهت حالة استبطان هذا الفريق الكفر وإظهارهم الإسلام على حنَق، أو حالةُ تردّدهم بين البقاء في المسلمين وبين الرجوع إلى الكفار بحالة المغتاظ مما صنع، فقيل لهم: عليكم أن تفعلوا ما يفعله أمثالكم ممن ملأهم الغيظ وضاقت عليهم سُبل الانفراج، فامدُدوا حبلاً بأقصى ما يُمَدّ إليه حبلٌ، وتعلّقوا به في أعلى مكان، ثم قطعوه =

وخلو ما يدعون من دونه، ذكر بعض العلماء أن هذه الهاء في النصرة عائدة على النبي ﷺ، وأن نصره إياه إتمام أمره فيه وإعلاؤه على أعدائه، وهذا وإن كان حقًّا إن الله ناصره ومتمم كلمته فيه وبه فلم يجر للرسول ﷺ قبل هذا ذكر ظاهر، وإن كان هو المخاطب بالكلام فمن أجل ذلك أيضًا كان يكون الكلام إليه بالمواجهة، هذا إلى أن ذكر نصره إياه.

وإتمام أمره ليس بمتصل المعنى بما بعده من قوله: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ [الحج:١٥] والذي أراه - والله أعلم - أنه لما ذكر قدرته على إحيائه الموتى، وبعثه أهل القبور، وتخليق النطف في الأرحام، ونقلها في درجات التكوين، ثم إنشاءه إياها خلقًا آخر في طبقات الإنشاء، ثم إلى آخر العمر ونحو ذلك، وجعل ذلك كله دليلاً ومدلولاً عليه، ووصف نفسه بأنه على كل شيء قدير، وبأن له الوجود الحق العلي.

وذكر المجادلين فيه بغير علم من داع ومدعو ضرب مثلاً فقال: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ﴾ [الحج:١٥] أي: من كان يشك في نصر الله؛ أي: في حفظه إياه حفظ الخلقة وغير ذلك؛ كقوله: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ [الأنبياء:٤٢] وارتاب في إحاطة قدرته وشمول حفظه في إيجاد الموجودات ظاهرًا وباطنًا، **فليمدد** بسبب حبل أو غيره إلى السماء سماء بيته أو إلى ما علاه، فليستمسك به صعدًا فوق الأرض في الهواء، ثم **ليقطع** ذلك السبب، **فلينظر** هل يثبت مكانه على حاله أو يقع بالأرض فيصيبه ما يغيظه من كسرٍ أو رضٍّ أو هلاك،

=

تخرّوا إلى الأرض، وذلك تهكم بهم في أنهم لا يجدون غنى في شيء من أفعالهم، وإنذار باستمرار فتنتهم في الدنيا مع الخسران في الآخرة.

ويحتمل أن تكون الآية مشيرة إلى فريق آخر أسلموا في مدة ضعف الإسلام واستبطأوا النصر فضاقت صدورهم، فخطرت لهم خواطر شيطانية أن يتركوا الإسلام ويرجعوا إلى الكفر، فزجرهم الله وهددهم بأنهم إن كانوا آيسين من النصر في الدنيا ومُرتابين في نَيل ثواب الآخرة فإن ارتدادهم عن الإسلام لا يضرّ الله ولا رسوله ولا يكيد الدينَ، وإن شاءوا فليختنقوا فينظروا هل يزيل الاختناق غيظهم، ولعلّ هؤلاء من المنافقين. التحرير والتنوير (٢٤٨/٩).

كذلك المخلوقات كلها يتسرب إليها الفناء والعدم ويسبق إليها كاستباق الثقيل إلى الهوي، لولا يتسرب إيجاد الله وإتقانه وحفظه إليها أسرع من ذلك ما شاء أبقاها ﴿وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ [يوسف:٢١].

فيمسك وجود الموجودات على ما هي عليه إمساكًا وحفظًا وكلاءة، ودفاعًا على المقدر الذي شاءه فيها من الوجود، حتى لو توهم متوهم إزالة إمساكه هذا عن وجود أي موجود كان لعارضه توهم وجوب ضد الإمساك، ولو تخلى عنه أدنى طرفة عين لتدمدم ما تخلى عنه هذا في إمساك الخلقة، وأمَّا في إمساك الديانة والهداية والتوحيد للمؤمنين هو السبب الموصل لهم إلى الله - جل ذكره - فلو توهم متوهم أيضًا إزالة التوحيد عن الموحد لعارضه أيضًا وجوب ضد التوحيد وهو الشرك.

ولو كان لتدمدم وتدكدك دينه وتل عرشه، وإلى هذا الغرض أشار بقوله الحق: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِالله فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أو تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج:٣١] سماؤه هو توحيد في التأويل، وتخطف الطير له تضليل الشياطين له واستهواؤهم إياه، وتأويل الريح التي تهوي به: الأمر المبعد عن ربه - عزَّ جلاله - والمكان السحيق: هو جهنم، أعاذنا الله برحمته منها.

يقول: يموت فيصير إلى جهنم، والسحق البعد، ولا أبعد ممن هو في النار الهاوية الحامية لمعهود هذه الدلالة وظهور شأنها، قال - وهو أعلم: وكذلك كبيان هذا أنزلناه آيات بينات، ثم فتح «أن» تقدير الكلام فيها: أنزلناه آيات بينات، وفيه أن الله يهدي من يريد لا يهتدي أحد من ذات نفسه، كما أنه ليس أحد يحفظ نفسه إلا كسًبا للحفظ، الله يحفظه ويحفظ حفظه هو نفسه ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦].

قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الحج:١٧] هذا الكلام راجع معناه إلى تطوير الناس في تحملهم في صدر السورة ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ﴾ [الحج:٣] ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ [الحج:١١].

ثم عم قوله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ﴾ [الحج:١٨] إلى قوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ [الحج:١٨] انتظم هذا بمعنى ما تقدم

ذكره من ذكر إمساكه وحفظه وتعهده جميع المخلوقات بسريان الإيجاد والإعداد والهداية والإضلال والإعدام على نحو ما تقدم ذكره في أثناء الكتاب؛ كجري الماء إلى صببه فيما هي قائمة؛ لإقامة العالم ومنافع العباد هي مسخرة وبما هي مسخرة لمن سخرت له، هي قانتة عابدة لمسخرها، وبما هي قائمة من الإيجاد والإعدام والحفظ والترك، لكن الإيجاد والحفظ ظاهران وضدهما باطنًا، وهي مسبحة وحامدة لموضع الإيجاد والإمساك مسبحة عن معنى الإعدام والافتقار.

ثم قال: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ [الحج:١٨] أي ساجد له عابد قانت ظاهره ذلك فيه كونًا وشرعًا، أمَّا ظهور ذلك فيها كونًا، فلأجل التيسير لما يسرت له وأوجدت إليه، وأمَّا ظهور ذلك فيها شرعًا فيما سخرت له من إقامة الأمر ومنافع العباد ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ [الحج:١٨] لتركه العبادة الشرعية وتارك التسخير فاسق.

واعلم أن للموجودات تسبيحًا وعبادة بينها وبين بارئها بصعدات إلى تسبيح أمر الشرع وعبادته، وقد يطلع الله على ذلك من شاء من عباده، من أراده بذلك كداود وسليمان والأنبياء، ومن شاء من الأولياء، والله على كل شيء قدير، ذو فضل عظيم يؤتيه من يشاء.

قوله تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ [الحج:١٩] الخصمان هم أهل الضلالة والهداية، لما ذكر المجادلين في الله ذكر فريق الهدى والضلال، وما يؤول إليه هذا وهذا من ثواب جزيل وعقاب أليم، هذا على القول بالعموم وظاهر سرد القرآن، وهو الذي جرى ذكره من أول السورة إلى هذا الموضع.

وذكر عن علي ﷺ أنه قال: «أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن للخصومة» وذلك أنه لما كان يوم بدر كان المشركون من قريش، وقد برز إليهم قوم من الأنصار أكفاء كرام، لكن أخرجوا إلينا بني أبينا، فبرز أربعة من المسلمين إلى أربعة من كفار قريش، منهم علي بن أبي طالب وحمزة وعبيدة إلى الوليد بن عقبة وعتبة وربيعة، فقتل عتبة وعقبة وربيعة، وأمَّا عبيدة - رحمه الله - فرجع عليه ذباب سيفه فمات منه، وإنما قال ذلك - رحمة الله عليه - لما ثبت أن هذه الأمة تحاسب أولاً من الأمم، وأن أول ما يكون الحساب في الدماء، وذلك أول دم أريق في الإسلام في سبيل الله، وقال: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ﴾ على التشبيه؛ وذلك لأنهم فريقان ثم قال:

﴿اخْتَصَمُوا﴾ [الحج:١٩] على ضمير الجمع؛ لأنهم كذلك.

قوله تعالى: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الحَمِيمُ﴾ [الحج:١٩] يمطرون من فوق رءوسهم حميمًا وفيما هنالك بخار الحميم، وكما يخلق الله الماء في جو السماء كذلك يخلق في أجواء ما هنالك الحميم، قيل: الحميم هو النحاس المذاب، وقيل: كل ما تناهى حره فهو حميم، وأيًا ما كان فإن حر ذلك يزيد على النحاس المذاب هنا، والماء الذي يتناهى حره بتسعة وستين جزءًا، والصهر: الحرق يصهر به ما في بطونهم، والجلود تحرق منهم ذلك، وقيل: هو الشي؛ أي: يشوي أمعاءهم وجلودهم، نعوذ بالله من جميع عذابه ما قل منه وما كثر.

قال الله - عزَّ من قائل: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد:١٥] والصهر أيضًا إذابة الشحم، وهو قريب بعضه من بعض، ثم أعقب ذلك بذكر الخصم الثاني، وهم الذين آمنوا وأعد لهم عنده من حسن المآب وكريم النزل.

أتبع ذلك من ذكر حالهم: ﴿وَهُدُوا إلى الطَّيِّبِ مِنَ القَوْلِ﴾ هدوا في الدنيا إلى قول: «لا إله إلا الله» وإلى ذكر الله، وفي الآخرة يلهمهم التسبيح كما يلهمهم النفس، ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [يونس:١٠].

﴿وَهُدُوا﴾ فيما ها هنا ﴿إِلَى صِرَاطِ الحَمِيدِ﴾ [الحج:٢٤] صراط الإسلام صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحج: ٢٣ - ٢٥].

قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله وَالْمَسْجِدِ الحَرَامِ﴾ المعنى إلى آخره، المعني بهذا القول: قريش، وذكره للبيت أنه حرام تعظيم لقدره وإعلام بأنه لم يحرمه الناس وإنما حرمه الله ﷻ فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ليست فيه

مفاضلة بين العاكف فيه والبادي، يريد المتقرب إليه ومن أراد غير ذلك إلحادًا منه عن هذا الحق إلى الباطل، يقول الله - جل قوله: ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج:٢٥].

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الحج: ٢٦ - ٣١].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾(١) [الحج:٢٦] حدث رسول الله هذا الحديث

---

(١) قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ قال مقاتل: يعني: دللنا لإبراهيم موضع البيت، فبناه مع إسماعيل - عليهما السلام - ولم يكن له أثر ولا أساس البيت؛ لأن البيت كان أيام الطوفان مرفوعًا، قد رفعه الله إلى السماء وهو البيت المعمور. وقال الكلبي: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا﴾ أي: جعلنا لإبراهيم مكان البيت يتكلم، فيقول: بموضع البيت. جعله الله منزلاً لإبراهيم، بعث الله تعالى سحابة على قدر البيت فيها رأس يتكلم، فيقول: يا إبراهيم، ابن على قدري وحيالي، فأسس عليها البيت، وذهبت السحابة. ثم بناه حتى فرغ منه، فأوحى الله تعالى إليه: ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ وقال أبو قلابة: بناه من خمسة أجبل: حراء، وثبير، وطور سيناء، ولبنان، وجبل أحد. وقال الزجاج: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا﴾ أي: جعلنا مكان البيت مبوأ لإبراهيم، والمبوأ: المنزل؛ يعني: إن الله تعالى علم إبراهيم ﷺ مكان البيت، فبناه على أسه القديم، وكان البيت قد رفع إلى السماء. قال: ويروى أن البيت الأول كان من ياقوتة حمراء. وروي عن ابن عباس أنه قال: رفع السماء إلى السادسة يطوف به كل يوم سبعون ألف ملك،
=

فقال: «جاء إبراهيم إلى إسماعيل وهو يومئذ بمكة فوجده يعدل نبلاً، قال: وكان صاحب قنص، فقال له: إن الله أمرني أن أبتني له بيتًا في هذه الرابية، قال له إسماعيل، صلوات الله وسلامه عليهما: امضِ لما أمرك به ربك، فأخذا في بنيانه ينقلان الحجارة ويقولان: ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة:١٢٧ - ١٢٨]»(١) المعنى إلى آخره، فبشره الله - جل ذكره - إبراهيم بهذه الأمة، ووصفهم قبل أن يوجدهم بأنهم الطائفون ببيته الحرام، العاكفين، الركع السجود.

ثم قال له: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج:٢٧] يريد الإبل قد نهكها طول السير من كل طريق بعيد والفجاج الطرق، وقد يكون معنى ذلك من كل قطر بعيد ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ [الحج:٢٨] في دينهم إقامة مناسكهم، وفي أمر دنياهم التجارة، دون أن يشغلهم ذلك من ذكر الله وعن الصلاة، أباح الله - جل ذكره - التجارة فيها؛ لأن ذلك من الجلب إليها الذي انبنى عليها معنى قوله: ﴿وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم:٣٧] وقوله ﴿يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص:٥٧].

ثم قال: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ الله فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ﴾ حين أهداها والتفدي بها ونحرها؛ لذلك قال - عز من قائل: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا البَائِسَ الفَقِيرَ﴾ [الحج:٢٨].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ العَتِيقِ﴾(٢)

= وهو بحيال الكعبة. ثم قال: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ يعني: أوحى الله تعالى إلى إبراهيم أن طهر بيتي من النجاسات ومن عبادة الأوثان ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ يعني: لأجل الطائفين بالبيت من غير أهل مكة ﴿وَالْقَائِمِينَ﴾ يعني: المقيمين من أهل مكة ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ يعني: أهل الصلاة بالأوقات من كل وجه. بحر العلوم للسمرقندي (١٥٧/٣).

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٤٢)، وعبد الرزاق (١١٠/٥)، والنسائي في الكبرى (١٠٢/٥)، والحاكم (٣٩٨٤).

(٢) أفاد سيدنا البيطار في هذه الآية المباركة بقوله: وارد: البيت العتيق لكل مؤمن وصدّيق.
بسم الله الرحمن الرحيم قال الله تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج:٢٩]. اعلم - =

[الحج:٢٩] من قرأ بكسر اللام من قوله: «ليقضوا»[1] فهو عطف على قوله: «ليشهدوا منافع لهم» ومن قرأ بجزمها فعلى معنى الأمر، والتفث: الحلاق أو التقصير وقص الأظفار والشارب ورمي الجمار والسعي بين الصفا والمروة ونحو هذا من المناسك، وعطف على ذلك قوله: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا﴾ العتيق القديم، قال الله - جلَّ من قائل: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ [آل عمران:٩٦] ويقال: عتيق أيضًا؛ لأنه عتق من مُلك الجبابرة فلم يملكه جبار قط.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ذلك أوجبنا عليهم أو نحو هذا، وإيجابه ذلك عليهم لأمر غيب عنده مذكورلهم حيرة، فعرض بذكره ولم يصرح؛ إذ هو من قبيل ما هو ما لا عين رأت، ولحكمه بالمعبر له في ذلك عرض ولم يصرح، ثم عطف عليه

=

رحمك الله - أن بيت الله عين ساكن؛ لأن الله هو وجود كل شيء أحد لا يتجزأ، وحقيقة مطلقة يندرج بها كل صورة في الوجود، فليس لله محل يسكنه؛ إذ ليس مع وجوده شيء آخر يحل فيه أو يتحد فيه أو يمتزج فيه، بل هو الله الواحد الأحد من جميع الوجوه كما قال: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد:٣] فأين البيت وأين الساكن؟ بل البيت عين الساكن والساكن عين البيت، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:١١٥] غاية الأمر أن الوجوه الإلهية منها العالي ومنها الأعلى، ومنها الكريم ومنها الأكرم، ومنها الرحيم ومنها الأرحم، ومنها القريب ومنها الأقرب، ومنها العظيم ومنها الأعظم، ولما كان هذا البيت أول بيت لله تعالى، أي: أول صورة إلهية شهادية تجلى الله بها من حضرة ذاته الغيبية المطلقة سمي عتيقًا، أي: قديمًا، لا يعلم له أولية فهو مجلي اسم الله القديم، ولهذا كانت تربة الجسم المحمدي ﷺ من هذا البيت، الذي هو وجه الله القديم، وقد طافت به الأمم السابقة على أبينا آدم الأقرب إلينا بأربعين ألف عام أو أكثر، وطافت به الملائكة قبل الجنس الإنساني، فحاز رتبة الأولية في مظاهر الحق بالنسبة لبيوته.

(١) قَرَأَ أَبُو عَمْرٍو، وَنَافِعٌ، وَابْنُ عَامِرٍ، وَيَعْقُوبُ: «ثُمَّ لِيَقْطَعْ» «ثُمَّ لِيَقْضُوا» بِكَسْرِ اللَّامِ، وَالْبَاقُونَ بِجَزْمِهَا؛ لِأَنَّ الْكُلَّ لَامُ الْأَمْرِ، زَادَ ابْنُ عَامِرٍ «وَلِيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلِيَطَّوَّفُوا» بِكَسْرِ اللَّامِ فِيهِمَا، وَمَنْ كَسَرَ فِي: «ثُمَّ لِيَقْطَعْ» وَفِي «ثُمَّ لِيَقْضُوا» فَرَّقَ بِأَنَّ ثُمَّ مَفْصُولٌ مِنَ الْكَلَامِ، وَالْوَاوُ كَأَنَّهَا مِنْ نَفْسِ الْكَلِمَةِ كَالْفَاءِ فِي قَوْلِهِ: «فَلْيَنْظُرْ». [تفسير البغوي ٣٧١/٥].

قوله: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ هذا من التعريض بذلك الموعود وحرمات الله المناسك والعمل بطاعته واجتناب مناهيه ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ تلا علينا ذلك في سورة المائدة وسورة الأنعام، ثم قال: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ﴾ [الحج:٣٠] الرجس كل ما عصى الله به، وهو من عمل الشيطان، وأكبره الأوثان والزور والكذب كله، وأكبره الشرك والكفر والقول على الله بغير علم ﴿حُنَفَاءَ للهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ [الحج:٣١].

فصل

الحنف: عوج في الرجل، وهو أن يميل إلى الجانب الأنسي، فإن كان ميلها إلى خارج وهو الجانب الوحشي فهو الفدع، فميلها إلى الجانب الوحشي هو بمثابة الإشراك بالله؛ لأنه إلحاد في قوام الخلقة وقوامها على سواء الخلقة هو بمثابة الإقامة على دين الإسلام، وهو أن يسلم وجهه ونفسه لله ﷻ وميلها إلى داخل، وهو الجانب الأنسي هو بمثابة ميله عن نفسه وذاته وماله وأهله إلى الله وحده، فهذا المعروف بالحنيفية، وهو الحنيف، وهذا في الممكن أن يبالغ في الحب والإيثار، ويمكن أن يلحق بالخلة - والله أعلم - فكون إبراهيم عليه السلام حنيفًا لله هو وصف زائد على الإسلام والإيمان إغراقًا فيهما وتغلغلاً في خصالهما.

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الحج: ٣٢ - ٣٦].

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ [الحج:٣٢] أي: مجانبة الإشراك الذي تقدم ذكره في

قوله: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ﴾ [الحج:٣١] ثم عطف عليه قوله: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ الله فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى القُلُوبِ﴾ [الحج:٣٢].

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ [الحج:٣٢] أي: من لم يشرك بالله وآمن به وأسلم له فليعظم شعائر الله، وشعائره ها هنا هي: البدن، فإن معظم المعظم يعظم ما أوى إليه أو كان منه بسبب؛ لذلك كان تعظيمها من تقوى القلوب؛ أي: إن تعظيمها وصيانتها من خصال الإيمان، وهي من تقوى القلوب.

﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إلى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ ركوبها وتسخيرها وحلبها والصدقة بها، وحمل على ظهورها، وجمال بها وزينة إلى أجل مسمى؛ يعني: العمر في الدنيا أو ما شاء من ذلك ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا﴾ هديًا ﴿إِلَى البَيْتِ العَتِيقِ﴾ [الحج:٣٣].

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ الله عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ﴾ [الحج:٣٤] اليهود والنصارى وأتباع الرسل جعل لهم مواضع لمناسكهم، وللعرب أيضًا إرثًا عن إبراهيم ﷺ البيت الحرام، ولهذه الأمة زائد إلى الوراثة كتاب ربها وسنة نبيها ﷺ.

قوله تعالى: ﴿فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ [الحج:٣٤] هذا منتظم المعنى بقوله: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِالله...﴾ [الحج:٣١] المخبتون: هم الخاشعون المتواضعون.

﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا
لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ
عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ
وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٖ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ
فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ
إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ
ٱلْمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٖ وَعَادٞ

وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ [الحج: ٣٧ - ٤٢].

قوله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ﴾ [الحج:٣٧] لن ينال لمن يصل وصول رضا وقبول، ومعنى قوله: ﴿يَنَالُهُ التَّقْوَى﴾ أي: تصل إليه حسن توجيهه بالعمل والعلم والإخلاص فيتقبله لذلك.

ثم قال - عز من قائل: ﴿كَذَلِكَ﴾ [الحج:٣٧] المشار إليه - والله أعلم - الخير المذكور لكم فيها خير، والمشبه به - وهو أعلم بما ينزل - تسخيرها لنا في هذه والجمال والزينة التي جعل فيها، يقول: ﴿كَذَلِكَ﴾ سخرناها فيما هنالك لعلكم تشكرون في دار الدنيا نعمتنا بها عليكم فتنالون الموعود بذلك منا، فالمشار إليه هو الموعود. وأشار إليه إشارة بُعد بالنسبة إلينا وعلى غيبة عن مشاهدتنا وبعد علمه، وهذا من المطلع في القرآن الحكيم عظيم علمه بعيد غوره، وهو مطلع يشرف على موجودات دار المتقين على سعتها وطول أمدها.

ذكر في ثابت ما جاء عن بعض ذلك: أنهم بينما هم في نعيمهم وحبورهم في الجنة إذ تستأذن عليهم الملائكة - عليهم السلام - بنجائب مخلوقة من ياقوت ولؤلؤ دخالها الأرجوان يقرؤنهم سلام ربهم ﷻ إليهم، وأنه يستزيرهم فيركبونها وينهضون إلى الموضع الذي أكرمه الله بذلك منه وفيها لهم على الصراط مراكب وفي الحشر ونحوها.

فصل

يشير إلى تشابه الوجود في الدارين، وتشابه الثواب بالأعمال مع تحصيل عقد التفصيل][(١)] بين الدارين والوجودين؛ إذ حقيقة الدنيا أنها سجن مقتطع من تلك، وعلى ذلك فلم يحل لنا أن نخلي أنفسنا من هذا السجن، ولا أن [نفقه][(٢)] فنفر عنه دون أن تخرجنا عنه بضرورة الموت بنفاد العمر أو عارض يعرض من موت أو قتل بسبب ضروري قد سبق به القدر فيكون بشهادة، وإنما جعل هذا الحبس ليثاب فيه

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٢) في النسخة (خ): «نفتقه».

إلى الله جاعله - عزَّ جلاله - فإذا تاب العبد وصحت توبته بحكم العلم فليتشوق إلى الخروج منه إلى ربه، وليجتنب الذنوب جهده، فهي التي أدخلته هذا الحبس، وليحرص على الموت ويحبه وينتظر وقته وليتدرس ذلك، وليشعر نفسه أنه يصير بعده على حال الطهارة إلى لقاء الله الرءوف الرحيم، واجتماع مع [كل][1] كريم سلف ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ الله أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩] إلى آخر المعنى حيث جاء، [فالمشار إليه هو الموعود][2].

قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الله يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج:٣٨] المعنى إلى آخره، لما ذكر البدن والحج والحرمات والشعائر استأنف ذكر [الانتصار ممن][3] صدَّ عن سبيل الله والمسجد الحرام، وممن جادل في الله وفي آياته، وضمن النصر لمن نصره، ثم بشر المؤمنين بأنه ممكنهم في الأرض، وأنهم مع ذلك هداة مهديون، يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

ثم أخبر عن عاقبة ذلك كله بقوله الحق: ﴿وَإِلَى الله عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ [لقمان:٢٢] فتجاوز بالذكر كره الباطل على هذا الحق القائم بدولة الصحابة المذكورين بهذا الوصف المتقدم إلى التعريض بذكر آخر الأمة، مبشرًا بإدالة الحق على الباطل [المقلوب][4] بالعاقبة التي أضافها إلى نفسه - عزَّ جلاله - عرض في ذلك بما يكون في آخر الزمان بذكر العاقبة، وأن تلك العاقبة آية له على كون العاقبة الحق في اليوم الآخر.

﴿ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).
(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).
(٣) في النسخة (خ): «انتصار من».
(٤) في النسخة (خ): «المغلوب».

فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾ [الحج: ٤٣ - ٥٣].

ثم أرجع الخطاب موجهًا إلى معنى ما تقدم من الإخبار عمن كذب بآيات الله ورد على رسله وسنته الماضية في ذلك إلى قوله: ﴿**ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نكِيرِ**﴾(١) [الحج:٤٤] كالمعزي لرسوله بما جرى لسواه من الرسل قبله مع من كان قبلهم، ومنبهًا على سنته في المكذبين، وتهديدًا لهؤلاء وإبعادًا.

ثم نبه على سبيل الاتعاظ وأخبر عن طلب علم الاعتبار بقوله: ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا**﴾ والذين لم يتمكن لهم التسيار فيها ألم يكن لهم ﴿**آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا**﴾ ممن سار فيها، ثم رد المعنى كله من هذه الجهة إلى الباطن وأنه إذا بطل من العبد أو سفل ذلك منه كان الظاهر بحسب ذلك بقوله ﴿**فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾ [الحج:٤٦].

عرف القلوب المعنية بأنها في الصدور، ومعهود القلوب أنها في الصدور موجودة، وإنما المراد المعرف به هنا هو المعنى الذي له سمي القلب قلبًا، ليست

---

(١) ﴿**فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ**﴾ هذا الاستفهام للتقرير؛ أي: فانظر كيف كان إنكاري عليهم وتغيير ما كانوا فيه من النعم وإهلاكهم، والنكير: اسم من الإنكار. قال الزجاج: أي: ثم أخذتهم فأنكرت أبلغ إنكار. قال الجوهري: النكير والإنكار: تغيير المنكر. فتح القدير (١٢٤/٥).

المضغة فقط، فإن البهائم لها من ذلك أوفر الحظ، لكن المعنى الذي هو صلاح لتلك المضغة المعني بقول رسول الله ﷺ: «**ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح سائر الجسد وإذا فسدت فسد سائر الجسد**» ثم قال ﷺ: «**ألا وهي القلب**»[(١)] فسماها مضغة حين الوضع، والتعريض بها إلى الصلاح أو الفساد، فلما صلحت سماها قلبًا، وهو المعرف بقوله: ﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الحديد:٦].

فذلك المعنى الذي به صلح القلب هو ذات [الصدور][(٢)] فما فهم، وهو المسمى القلب، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق:٣٧] ومتى عمي فليس بقلب ولا يسمى به إلا على المعهود من تسمية الشيء باسم الشيء إذا جاوزه أو كان منه بسبب.

قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ ولما عزم عن أمر هذه الصفات قال فيهم: ﴿أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف:١٧٩].

قوله ﷻ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج:٤٧] كانوا يقولون لرسوله ﷺ: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ [النمل:٧١] متى هذا الفتح؟ أتينا بما تعدنا، كما كان من قبلهم يقولون لمن قبله، فأنزل الله ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ [الحج:٤٧] فأجابهم على هذا في موضع غير هذا ﴿قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [النمل:٧٢] يريد - وهو أعلم - القتل والسبي، وقال في موضع آخر: ﴿وَلَوْلا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ [العنكبوت:٥٣] فهذا - وهو أعلم - قيام الساعة وما فيها.

وقال في هذا الموضع: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج:٤٧] كأنه - وهو أعلم بما ينزل - أشار إلى أن عذاب الآخرة منهم في هذه الألف، والله أعلم متى تكون فيه الساعة، وهو أعلم بأي وقت كان فيه نزول هذا

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩)، وأبو داود (٣٣٣٠)، والترمذي (١٢٠٥) والنسائي (٤٤٥٣)، وأحمد (١٨٣٩٨)، وابن ماجة (٣٩٨٤)، والدارمي (٢٥٣١)، والبيهقي (١٠١٨٠).

(٢) في النسخة (خ): «الصدر».

القرآن من ذلك اليوم، ثم ما بين قيام الساعة وبين البعث إلى وقوع العذاب بهم بدخول النار هذا هو العذاب الأكبر، وقبله عذاب القتل والسبي والجلاء والموت وما بعد الموت ﴿والله يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

ثم أتبع ذلك بما هو في معنى الإمهال دون إهمال، وكان ذلك آية على ما تقدم، وقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ المَصِيرُ﴾ [الحج:٤٨] معنى قوله: «وكأين» معنى [قوله][1]: ولكم من قرية، ويقال: وكأين من قرية، وهي معربة عن العدد الكثير والجم الغفير.

قال الشاعر:

وَكأين تَرى مِن صامِتٍ لَك مُعجب زِيادَتــه أَو نَقــصُهُ فــي الــتَّكَلُّمِ
لِـسانُ الفَتـى نِـصفٌ وَنِـصفٌ فُـؤادهُ فَلَــم تَـبقَ إِلّا صــورَةُ اللَّحــمِ وَالــدَّمِ

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ [الحج:٥٥] يعني: القرآن، وهو راجع بالمعنى إلى ما في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى﴾ [الحج:٥٢] المعنى إلى آخره، وربما كان المعنى الوعد بالعذاب، وقد تقدم الكلام في قوله ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى﴾ [الحج:٥٢] المعنى إلى آخره في سورة البقرة، والله نسأله بفضله ورحمته المزيد من فضله، إنه على كل شيء قدير ﴿فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَو يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ [الحج:٥٥] هو ما أوعدهم به في يوم كألف سنة، الله أعلم في أي وقت يكون ذلك اليوم، أفي آخره أو فيما قبل ذلك؟.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى﴾ [الحج:٥٢] المعنى وإن كان قد تقدم الكلام فيه على معناه، فإن انتظامه هنا بالمحاورة أنه جواب للمجادل][2] في آيات الله، الطاعنين على الأنبياء، وبخاصة نبوة محمد ﷺ فإنهم وإن كان الشيطان قد يدرك من أحدهم مقدار الإلقاء حين التمني، وقد تقدم ما هو التمني وأنه ليس بالتلاوة، فإن الله يعصمهم ويتدارك منهم

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٢) في النسخة (خ): «للمجادلين».

ما رامه الشيطان منهم، فإن الحالة الأولى هي لكونهم من البشر، والثانية هي لكونهم أنبياء ومصطفين، وأمَّا قول من قال أن التمني هنا هو بمعنى التلاوة وذكر فيها رواية من حكى من أجل ذلك حكاية، فذلك مما تتلوه الشياطين على نبوة الأنبياء، وهو مضاد لقول الله، جل ذكره ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩].

وكما للسماء رجوم للشياطين كذلك للنبوة حرس وحفظة، فمتى ألقى الشيطان في أمنية أحدهم تدارك الله ﷻ ذلك بالحفظ والعصمة والنسخ له من القلب المقدس قبل أن يخرج إلى لسانه [الصدوق][1] المحفوظ، وأمر الله عظيم ورسله وأنبياؤه من أمره ﷻ، والرواية معللة مع أنها من الآحاد فلا توجب العلم، و[قيل][2] هذا هو من الجدال في آيات الله بغير سلطان أتى، فتثبتوا رحمكم الله وعصمنا وإياكم، فإن هذا ونحوه من الامتراء الذي أنذر الله به بعد ذكره هذا، والكفر يرق ويدق حتى يكون «أخفى من دبيب النمل...»[3].

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ

---

(١) في النسخة (خ): «الطروق».

(٢) في النسخة (خ): «مثل».

(٣) هو إشارة إلى حديث: «اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دَبِيب النمل، قيل: كيف نتقيه؟ قال: قولوا: اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئًا نعلمه ونستغفرك لما لا نعلمه» أخرجه أحمد (١٩٦٢٢) والطبراني في الأوسط (٣٤٧٩)، وقال الهيثمي (٢٢٣/١٠): رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط، ورجال أحمد رجال الصحيح، غير أبي علي ووثقه ابن حبان.

حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾﴾ [الحج: ٥٤ - ٦١].

ثم قال: ﴿المُلْكُ يَوْمَئِذٍ لله يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الحج:٥٦] إلى قوله: ﴿مُّهِينٌ﴾ [الحج:٥٧] إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ الله ثُمَّ قُتِلُوا أو مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ [الحج:٥٨] انتظم هذا المعنى بما تقدم من [ذكر الأنتصار][1]، وهم الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق.

أتبع ذلك قوله: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [الحج:٥٩] عليم بما أصابهم، حليم عن أخذه الظالمين بحقه فيهم، إن شاء ذلك.

أتبع ذلك قوله: ﴿ذَلِكَ﴾ المشار إليه هو ما ذكره من تمكينه الناصرين له ونصره لهم وإدخاله إياهم مدخلاً يرضونه في جنات النعيم - أي: ذلك لهم - ثم عطف عليه بحرف الواو، وقوله: ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ﴾ [الحج:٦٠] يريد ممن بعدهم كان أولئك قد بُغي عليهم وظُلموا وأُخرجوا من ديارهم وأوذوا في الله، فأذن لهم في القتال والانتصار، ووعدهم بما قد أنجز لهم، ثم أخبر عمَّن بعدهم الذين عاقبوا أعداءهم وأعداء آبائهم وأسلافهم [في الله بمثل][2] ما عوقبوا به في الله، ثم بُغي عليهم كما بغي على أسلافهم لينصرنهم الله، إن الله لعفو عن الذنوب التي أوجبت إدالة أهل الباطل عليهم، غفور لمن استغفره.

أتبع ذلك قوله الحق: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: ذلك من إدالة الباطل على الحق، والحق على الباطل ﴿بِأَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [الحج:٦١] أي: من وجود قدرة وحكمة أن الله يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل، والنهار بمثابة الهدى والحق، والليل بمثابة الضلال والباطل.

---

(١) في النسخة (خ): «ذكره الأنصار».

(٢) ما بين [ ] غير واضح من النسخة (غ).

فصل

من حكمته ﷻ هو الحق الواحد الأحد، فما أوجده من مقتضى ذلك فهو واحد لا [مغاير][١] له سوى ما هو به ومنه، فأوجد الأضداد لحكمة لطيفة ورحمة بعباده في تدبيره الحق، فلو كان النهار واحدًا أبدًا والهدى كذلك والخير والغنى والمحبوب كله لكان ذلك آية واحدة، فكان على ذلك في الأغلب [هدم][٢] الذكر ونسيان التذكار، ولما كان النهار عقيب الليل كان أبين للفهم وأقرب للتذكرة، وكذلك النور عقيب الظلام، والخير عقيب الشر، والصحة عقيب السقم، والغنى عقيب الفقر، والمحبوب كله عقيب المكروه كله، قال الله ﷻ: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان:٦٢].

وكثير ما صرف هذا من تعاقب الأضداد وتناوب الأغيار للتذكرة وتجديد الذكر والثبات على المعرفة، ألا ترى أن الله - ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه - هو القريب [الحق][٣] لا أقرب منه، والشهيد الحق الذي هو أقرب إلى العبيد من حبل الوريد، بل هو أقرب إلى المخلوق من نفسه وأحق به من ذاته، ولما كان هذا القرب دون أفول في حقه ولا عدم من جهته أوجب ذلك البلدة وقلة التذكرة، وأعقب ذلك الجهل [به][٤] والنسيان له، فكان من لطفه في حسن تدبيره أن أوجد الأضداد في الوجود [بتعاقب][٥]، وقدر بالأغيار في ذواتها [بتناوب][٦]، وجعل ذلك على مقادير مقدرة وأوزان من الحكمة مقسمة؛ ليجدد لعباده بذلك التذكار، ويبعثهم على تعرف العلم به والاعتبار، وإن الله ﴿سَمِيعٌ﴾ لدعاء [الذين][٧] بُغي عليهم بغير حق، إلا أن يقولوا: ربنا الله ﴿بَصِيرٌ﴾ [الحج:٦١] بأعمال الباغين ثم العاملين بطاعته هذا على

---

(١) في النسخة (خ): «مقام».
(٢) في النسخة (خ): «عدم».
(٣) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).
(٤) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٥) في النسخة (خ): «تتعاقب».
(٦) في النسخة (خ): «تتناوب».
(٧) في النسخة (خ): «الذي».

انتظامه بالأقرب.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾ [الحج: ٦٢ - ٦٧].

وأمَّا بالقول بحكم العموم، فإنه منتظم أيضًا بما تقدم ذكره من سجود الموجودات، ألا ترى كيف أعقب ذلك قول الحق: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: من إيلاجه الليل في النهار والنهار في الليل، وإدالة هذا على هذا وهذا على هذا، فإن ﴿اللهَ هُوَ الحَقُّ﴾ واحد أحد كما تقدم، له الليل والنهار، والنور والظلمات، والخير والشر، والمحبوب والمكروه، والأضداد والأغيار، وأن ما تدعون من دونه هو الباطل، وأن كل ما يعبدونه من إله باطل، و﴿اللهَ هُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ﴾ [الحج:٦٢].

ألا تسمعه كيف أعقب ذلك قوله الحق: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ﴾ [الحج:٦٤] من له ما في السماوات وما في الأرض فهو الغني الحميد على التحقيق، وبهذا المعنى هو راجع إلى ما تقدم من قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ...﴾ [الحج:١٨].

فصل

وجوده العلي مكانته من وجود الموجودات الرحمانية والربوبية والعظمة

والكبرياء والجبروت والجلال، هكذا إلى انتهاء مقتضى الأسماء كما [منزلته][١] من وجود الموجودات من وجوده العلي العبودية في حق المخلوقين له، والخشوع والخضوع والخنوع والتعبد والإجلال والإعظام والإكبار؛ فلذلك لم ينبغِ لوجود موجود فاجأه بالتجلي [وبالتذكرة][٢] أو بالأمر [إلا سجد][٣]، ولا ابتغاء لموجود علا أو سفل إلا أن يكون له قانتًا عابدًا خاضعًا مسبحًا بحمده كونًا أو شرعًا وكونًا، فهو الذي ما خلق قط خلقًا إلا سجد له، ولا أمره أمر كون إلا أطاعه، ولا سراه ولا قصده بنظر أو بمعنى [تمييزه][٤] به من غيره إلا خر ساجدًا له، ذلك قوله: ﴿**ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ البَاطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ**﴾ [لقمان:٣٠].

أتبع ذلك قوله الحق: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً**﴾[٥] [الحج:٦٣] ولما أنزل الماء واحدًا طاهرًا مطهرًا من السماء فأحيا به الأرض بعد موتها؛ ذلك لأنه الحق واسم الماء المنزل [الحي][٦] فأصبحت الأرض مخضرة، فتميزت صفة الحياة في الأرض بعد الموت الذي كان بها، كذلك يبين

---

(١) في النسخة (خ): «سبق له».

(٢) في النسخة (خ): «أو بالتذكير».

(٣) في النسخة (خ): «ألا يسجد».

(٤) في النسخة (خ): «بمنزه».

(٥) قال بعض المتأخرين: يجوز أن يعتبر تسبب الفعل عن النفي، ثم يعتبر دخول الاستفهام التقريري، فيكون المعنى حصل منك رؤية إنزال الله تعالى الماء، فإصباح الأرض مخضرة؛ لأن الاستفهام المذكور الداخل على النفي يكون في معنى نفي النفي وهو إثبات، فإن قلت: الرؤية لا تكون سببًا لا نفيًا ولا إثباتًا للإخضرار. قلت: الرؤية مقحمة، والمقصود هو الإنزال، أو هي كناية عنه؛ لأنها تلزمه مع أنه يكفي التشبيه بالسبب كما نص عليه الرضى في ما تأتينا فتحدثنا في أحد اعتباريه، واختار هذا في الاستدلال على عدم جواز النصب أن النصب مخلص المضارع للاستقبال اللائق بالجزائية على ما قرر في علم النحو، ولا يمكن ذلك في الآية الكريمة كما ترى. **وبالجملة**: إن الذي عليه المحققون أن من جوز النصب هنا لم يصب، وأن المعنى المراد عليه ينقلب. وقرىء «مَخْضَرَةً» بفتح الميم وتخفيف الضاد، مثل: مبقلة ومجزرة؛ أي: ذات خضرة. [الألوسي (١٣/١٢٣)].

(٦) في النسخة (خ): «حيًا».

النور عقيب الظلام، ويبين الحق عقيب الباطل، ويبين الإيمان بإقرانه بالكفر في غير محل حامله، ويبين الصدق بمقابلة الكذب لو كان الإيمان أبدًا والصدق أبدًا والنهار والنور والضياء أبدًا.

والحق وجوده ظاهر موجود لم يقابله فيما ها هنا ما يتميز به عنه، و[يذكره][(١)] بتحديده، ويتعرف بتناوبه وإقباله وإدباره مع وجود العقول القاصرة والجهل والنسيان [معاقبان][(٢)] للعلم والذكر، لكان النسيان والغفلة وغير ذلك من الآفات التي قامت في وجوهنا دون مشاهدة الحق المبين كما [تقدم][(٣)]، والضد يظهر حسنه الضد، وبضدها تتبين الأشياء في هذه الدار؛ لذلك قال - وهو أعلم: ﴿**إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ**﴾ [لقمان:١٦] أي: إنه **لطيف** بنا في تعريفنا به لضعف صفاتنا التي هي العلم والفهم والذكر منا وغير ذلك، فإذا أعادنا خلقًا آخر في الدار الآخرة فليس ثم ليل ولا نهار ولا ظلام ولا مكروه ولا ضد لما من صفات الحق، وعلى وجوده أوجدنا يومئذٍ على صفات خلقه لا يضل عن هدايتنا، ولا ينسى معها من هو أقرب إلينا منا، فافهم، نسأل الله إتمام النعمة وإكمال المنة.

أتبع ذلك قوله: ﴿**أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ**﴾ [لقمان:٢٠] صرف وجه بعض الخطاب إلى معنى قوله: ﴿**وَلله يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ...**﴾ [النحل:٤٩] الآية إلى قوله: ﴿**لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ**﴾ [الحج:٦٤].

ثم قال وقوله الحق: ﴿**وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي البَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ**﴾ [الحج:٦٥] فهو **يمسك** السماء أن تقع، [كإمساكه الجملة][(٤)] أن تزول، وكما يسَّر للمعتمدين معتمدًا هي الأرض أو ما يقوم مقامها كذلك يسَّر لكل ما خلقه ما من شأنه [حرق][(٥)] الهواء سفلاً، والهوي فيه من قدرته

---

(١) في النسخة (خ): «يذكر».
(٢) في النسخة (خ): «معًا بيان».
(٣) في النسخة (خ): «قدم».
(٤) في النسخة (خ): «كما يمسك الحملة».
(٥) في النسخة (خ): «حرف».

ما يقوم له في الاعتماد عليه مقام الأرض لنا في اعتمادنا عليها، قال الله ﷻ: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [لقمان:١٠].

ألا ترى [إلى][1] الأرض لما دحاها جعلت تميد ميد السفينة فوق الماء، فجعل الجبال عليها رواسي كالسابور للسفينة فاستقرت، فانظر إلى تصرف قدرته عمد [الجملة][2] بقدرته والسماوات بقدرته، وجعل الميد للأرض، فجعل الجبال رواسي عليها فاستقرت بأمره، فبقدرته عمدها، وبقدرته أقرها تحت الجبال، وبقدرته أرساها عليها، وبقدرته ومشيئته صرف أمره فيها، ولو كان على معهود العقول لأوجب ذلك هويها سفلاً، لكن جعل لنا السفينة وميدها على [البحر][3] واستقرارها بالسابور آية على ذلك.

يقول - جلَّ من قائل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ﴾ [الحج:٦٥] يقول: فأي شريك لي بعد هذا، أو أي إله في ملكي يخاصمني فيه، وأي حجة تقوم لمجادل فيَّ، هذا خلق الله ﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [لقمان:١١] لذلك وصف نفسه بالعلا والكبرياء والغنى.

فصل

كل له قانت وإليه خاضع، فما كان [من][4] فعل المخلوقين كله فيه [منفعة][5] للعباد وإقامة للعالم، فهو تسخير من الله سخرها لعباده، وذلك في حق الله - جل ذكره - عبادة منه لله تسبيح أو تحميد أو تكبير أو سجود أو توحيد، وجماع ذلك كله صلاة أو زكاة أو حج أو صوم أو شهادة بالحق، وعلى ما كان الفعل ومنازله من بداية الخضوع ونهايته ومخالفة الهوى في المكلفين، وفي الجماد والنبات لمخالفة

---

(١) ما بين [ ] زيادة من النسخة (غ).
(٢) في النسخة (خ): «الحملة».
(٣) في النسخة (خ): «الماء».
(٤) ما بين [ ] زيادة من النسخة (خ).
(٥) في النسخة (خ): «فنفعه».

ما عليه جُبِل كما تقدم في إمساك السماوات والأرض أن تقع أو تزول.

هذا هو الأصل في عبادة المخلوقات كلها فطرة وشرعًا، إلا ما كان من الملائكة - عليهم السلام - فهم الذين ليست لهم إرادة تخالف [رضا](١) الله ورضاه بهم وفيهم ولا طبع، بل هم المجبولون على ما يحبه منهم ويرضاه، وهذا هو الفرق بين عبادة المكلفين وعبادة الملائكة، فالسماوات والأرض لا تجد ألمًا لإمساكها عما جبلت عليه، لكنها لو تركت إلى أنفسها لذهبت إلى ما جبلت عليه - بإذن الله - والمكلف واجد صعوبة ذلك عليه وعسره، إلا أن يمن الله - جل ذكره - على من يشاء منهم، فيزيل ذلك عنه أو بعضه، وعيش الملائكة ورضاهم ومحبوبهم في طاعة الله وذكره و[ما قد](٢) خلقوا له.

ثم قد يرفع الله بعض عباده إلى أن يجعل محبته ورضاه في محبة ربه ورضاه، فيكون عيشه وحياته في ذلك، وكدره ونكد عيشه [وحياته](٣) فيما خالف ذلك، فذلك الذي أحياه الله حياة طيبة، وذلك المجتبى المصطفى الموالي، جعلنا الله منهم وألحقنا بهم، إنه ذو مَنٍّ كريم ورحمة واسعة.

قوله ﷻ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ [الحج:٣٤] قد تقدم قوله ﷻ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ﴾ [الحج:٣٤] كما قال: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨] فوجب أن يكون المعني هنا بقوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ [الحج:٣٤] كقوله الحق: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام:٣٨].

يقول - وهو أعلم بما ينزل: ما الذي أنكر هؤلاء مما جئتهم به، ولكل أمة من جماد أو نبات أو حيوان على اختلاف ذلك جعلنا لهم منسكًا هم ناسكوه؛ أي: سنة وشرعة يستنها ويشرع إلى وجوده عليها، وما جئتهم به هي شرعتهم إلينا.

---

(١) في النسخة (خ): «إرادة».

(٢) في النسخة (خ): «فيما».

(٣) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

ثم قال: ﴿فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ﴾[(١)] يريد - وهو أعلم - المجادلين في الله وفي آياته ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾ أي: حببه إلى عباده وخوفهم من خلافه ﴿إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحج:٦٧] أي: على السبيل الحق المفطور عليه السماوات والأرض وما بين ذلك، وهذا المعنى منتظم بذكره سجود المخلوقات وقنوتها له.

يقول: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الجن والإنس والطير والحيوان والنبات والجمادات وجميع الموجودات في الأرضين والسماوات وما بين ذلك ﴿جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ [الحج:٦٧] فاستقم على ما أنت كما أمرت، ومن تاب معك، وادع إلى ربك إنك على الدين القيم، فهذا الترتيب يوجب الإيمان، فإنما تحت المكلفين من العوالم أيضًا [أمم][(٢)] يؤم بعضها بعضًا في مناسكها، شاء ذلك في العابدين لله - جل ذكره - من سفل إلى علو.

﴿ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ

---

(١) الفاء في قوله: ﴿فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ﴾ لترتيب النهي على ما قبله، والضمير راجع إلى الأمم الباقية آثارهم؛ أي: قد عيَّنا لكل أمة شريعة، ومن جملة الأمم هذه الأمة المحمدية، وذلك موجب لعدم منازعة من بقي منهم لرسول الله ﷺ ومستلزم لطاعتهم إياه في أمر الدين، والنهي إما على حقيقته، أو كناية عن نهيه عن الالتفات إلى نزاعهم له. قال الزجاج: إنه نهي له ﷺ عن منازعتهم؛ أي: لا تنازعهم أنت، كما تقول: «لا يخاصمك فلان» أي: لا تخاصمه، وكما تقول: «لا يضاربنك فلان» أي: لا تضاربه، وذلك أن المفاعلة تقتضي العكس ضمنًا، ولا يجوز «لا يضربنك فلان» وأنت تريد: لا تضربه. وحكي عن الزجاج أنه قال في معنى الآية: ﴿فَلَا يُنَازِعُنَّكَ﴾ أي: فلا يجادلنك. قال: ودلّ على هذا ﴿وَإِنْ جَادَلُوكَ﴾ وقرأ أبو مجلز: «فلا ينزعنك في الأمر» أي: لا يستخفنك ولا يغلبنك على دينك. وقرأ الباقون: «ينازعنك» من المنازعة. فتح القدير (١٣٦/٥).

(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ
ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ
ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ
وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصْطَفِى
مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ
أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟
وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُوا۟ فِى
ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ
سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى
ٱلنَّاسِ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ
﴿٧٨﴾﴾ [الحج: ٦٨ - ٧٨].

يقول ﷻ: ﴿وَإِن جَادَلُوكَ﴾ في ذلك ونازعوك أمرك فلا تطعهم وقل [لهم][(١)]: ﴿اللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحج:٦٨] ثم أعلمهم أنه - جل ذكره - ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [البقرة:١١٣].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج:٧٠] لما أمره بالإعراض عنهم وبأن يكل ذلك منهم إلى الله حقق ذلك عنده بما [جعل][(٢)] في قلبه من العلم بذلك، وإن علم كل شيء جملة وتفصيلاً على الله يسير، كيف لا يكون كذلك وهو - جل ذكره - خلق كل شيء وقدره تقديرًا، كيف يخلقه وهو لا يعلمه.

وإلى هذا فإن الله - جل ذكره - أوجد العرش العظيم محيطًا بجميع الخلائق

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٢) في النسخة (خ): «جعله».

علوًّا وسفلاً، وحيثما كان العرش فهو العلو من حيث هو عرش، فلما خلق السماوات والأرض وما بينهما واستوى على العرش وهو الرحمن الحي القيوم؛ فلأنه الحي الحق [حييت الجملة](١) به؛ ولأنه القيوم قام كل شيء بأمره وإقامته له وإمساكه إياه؛ ولأنه الرحمن تواشجت الأرحام وتعلقت وتواصلت بعضها ببعض، [فتماشج](٢) لذلك الموجود كله ولزم كل ذي وجود وجوده، فليس شيء يعزب عنه علمه في الأرض، ولا في السماء مثقال ذرة ولا أصغر من ذلك ولا أكبر.

ثم إلى هذا فإن اللوح المحفوظ خلقه خالقه لؤلؤة أثبت فيه علم كل شيء، فلا قاعد ولا قائم ولا نائم ولا متحرك ولا ساكن إلا وقد انطبعت حالته في اللوح المحفوظ، فلو لم يكن ما تقدم ذكره لقام هذا كل مقام وحال مشاهدة وعلمًا وغير ذلك.

ثم إلى هذا فإنه كتب في اللوح المحفوظ كل شيء شاء إيجاده، والمعهود أن الكتاب عندنا يعطي الإعلام قارئه إخبارًا عن ذلك، [فتوهم فضل](٣) ما بين من يحسن الكتابة والقراءة، وبين من لم يعلمه الله ذلك، وكما شاء علم من [هو](٤) يقرأ كتاب ربه بما أخبر عنه من أمره وشأنه على علم من لا يحسن قراءته، فاقض إذًا بصحيح عقلك وصحة إيمانك تعلم من إليه المنتهى بكتاب اللوح المحفوظ، وأنه يعلم منه المشاهدة الفائقة لا ريب في ذلك.

لذلك يقول - عزَّ من قائل - عند ذكر ما هذا سبيله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ﴾ ولأنه علم كل شيء من ذاته، فهو كما يعلم نفسه - ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه - بذلك يعلم ما خلقه وما هو خالقه وما هو لا يخلقه أبدًا؛ لشمول وجوده العلي كل شيء؛ لهذا وما هو به أعلم قال وقوله الحق: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج:٧٠] وكما يعلم أحدنا نفسه ويتحصل له العلم بوجودها بغير معاناة ولا وجود مدة، فالله لا إله إلا هو أعلم وأجل قدرًا، له المثل الأعلى في السماوات والأرض، إن ذلك

(١) في النسخة (خ): «حيت الحملة».
(٢) ما بين [ ] غير واضح من النسخة (غ).
(٣) في النسخة (خ): «فيوهم فصل».
(٤) ما بين [ ] زيادة من النسخة (خ).

على الله يسير، كل في كتاب مبين ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢] ومن وقي العناد هدي إلى الرشاد.

قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ [الحج:٧٣] إلى آخر المثل، هذا كله خطاب في معنى الرد على المجادلين في الله الذين أجرى ذكرهم في صدر السورة، أعلمهم في هذا المثل بضعف آلهتهم، وأنهم لا يملكون من دون الله ضرًّا ولا نفعًا [ولا دفعًا][1]، ولا يملكون رزقًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، قد عُبد المسيح وقوم من الملائكة - عليهم السلام - والشمس والقمر والنجوم والنار، فلو اجتمع هؤلاء وكل معبود من دون الله على خلق ذباب لم يأذن الله بخلقه، أو أن ينفخوا فيه الروح فيحيونه ولو تضافر على ذلك جميع من في السماوات والأرض لم يقدروا على ذلك، إلا أن يأذن الله فيه، فهو إذًا الخالق له وحده، لا شريك له ولا ظهير.

ومعنى خلقه: أن يوجدوا أجزاءه عن عدم إلى وجود، وينفخوا فيه الروح من غير وصف الاتصال بالروح العليّ والمشيئة والقدرة [المحيطة][2]، ثم وصفهم بقلة الانتصار وبخاصة من المعبودات الأصنام والأوثان وما لا يعقل، فهم لا ينتصرون من ذباب، فكيف بأن ينتصرون من عذاب الله أو ينصرون سواهم.

ثم وصف نفسه ﷻ بقوله: ﴿إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج:٧٤] لما وصف أولئك بالوهن والذلة والضعف اتصف هو بما هو أهله من صفتي القوة والعزة، لا يطلب شيئًا فيفوته، ولا [يعازه][3] أحد ولا يمانعه إلا غلبه.

ثم قال - عز من قائل: ﴿اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج:٧٥] و﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ مما عملوه فبإذنه وأمره ومعونته ﴿وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [الحج:٧٦] هو الأول في كل شيء والآخر، هذان الطرفان لا يملك المخلوقون منهما قليلاً ولا كثيرًا، وهو الظاهر فيما

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٢) في النسخة (خ): «المحضة».

(٣) في النسخة (خ): «يعان».

ابتدعه أو فطره وفيما هو كسب لهم؛ لأن ذلك بقدرته وبإذنه، وهو الباطن فيه قطعًا، فوجب اليقين، فإنه الأول في كل شيء والظاهر والباطن، وهو بكل شيء عليم، والحمد لله رب العالمين، فقف على هذا - رحمنا الله وإياك ووفقنا لما يحبه ويرضاه - فهو أصل في التوحيد جليل [قدره][١]، وقد جمعت ذلك كله كلمة واحدة قولك: لا حول ولا قوة إلا بالله.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج:٧٧] أمرهم - جل ذكره - بأن يمتثلوا عبادة الموجودات [لربها][٢] ركوعًا وسجودًا وقيامًا وقعودًا وشهادة وذكرًا وتلاوة واتفاقًا ودلالة [وعونًا][٣]، هذه كلها عبادات المخلوقات، وقد تقدمت إلى ذلك إشارات، وأمرهم مع ذلك بجهاد من خالف السبيل ورام تعويجها.

يقول - عز جلاله: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ من بين الأمم ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ﴾ القيم ﴿مِنْ حَرَجٍ﴾ بل هي الحنيفية السمحة ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ نصبها على الإغراء بها ويصح أن يكون نصبها على القطع وعلى المدح، وكل [هذه][٤] الوجوه تتوجه في ذلك ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج:٧٨] الضمير الذي في قوله: «هو» يجوز أن يكون عائدًا على إبراهيم عليه السلام بوجه؛ لأنه أقرب مذكور إلى الضمير، ويجوز [أن يكون][٥] عائدًا على اسم الله - جل ذكره - الشاهد على عوده على إبراهيم قوله هو وإسماعيل - عليهما السلام: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾ [البقرة:١٢٨ - ١٢٩] المعنى إلى آخره.

وأمَّا مرجوع الضمير على الله - جل ثناؤه - فقوله: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ أي: في الأزل، وفي كتب الكتاب وإخراج القبضتين ﴿وَفِي هَذَا﴾ [الحج:٧٨]

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).
(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٣) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٤) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).
(٥) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

الكتاب القرآن، وهو قوله: «وفي هذا» ودخول الواو العاطفة على قوله: «وفي هذا» أنه عطف على اسم الله - جل ذكره - وفيه محذوف مقدر تقديره - والله أعلم بما ينزل: وأنا الله سميتكم مسلمين في البدء الأول.

ثم عطف بقوله: ﴿وَفِي هَذَا﴾ أي: في هذا الكتاب ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ﴾ الذي أرسلت به إليكم ﴿شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا﴾ أنتم ﴿شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ بما أعلمتكم فيه بالكتب والرسل وبمن أمره ومن خالف ثم عاد إلى التوصية بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والاعتصام بالله، جل ذكره ﴿هُوَ مَوْلاكُمْ﴾ أي: ناصركم ووليكم المانّ عليكم المنعم ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج:٧٨].

كما قال - عز من قائل: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨].

﴿أَنْتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٢٨٦].

تنبيه:

أعطى الله هذه الأمة ثلاث خصال لم يعطهن إلا للأنبياء، جعلها شهيدة على سائر الأمم، والأنبياء شهداء على أممهم، ويقال للنبي: اذهب فلا حرج عليك، وقال لهذه الأمة: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨] ﴿مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة:٦].

[ويقال لكل][(١)] نبي: سل تعطه، وقال لهذه الأمة: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠] ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُم يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة:١٨٦].

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

تفسير سورة المؤمنين

[مكيَّة](1)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ① الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ② وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ
مُعْرِضُونَ ③ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ④ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ⑤
إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ⑥ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ
فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ⑦ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ⑧ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ
صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ⑨ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ⑩ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ ⑪﴾ [المؤمنون:١ - ١١].

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾(2) [المؤمنون: ١] أي: فازوا وظفروا بالنجاة

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٢) فيها مسائل: المسألة الأولى: في سبب نزولها، روى الترمذي أن: «رسول الله ﷺ كان إذا نزل عليه الوحي يسمع عند وجهه كدوي النحل، فنزل عليه يومًا، فمكثنا ساعة فسري عنه، فاستقبل القبلة، ورفع يديه، وقال: اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وأرضنا وارض عنا، ثم قال: «أنزل عليّ عشر آيات من أقامهن دخل الجنة»، ثم قرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ العشر آيات. المسألة الثانية: الخشوع: هو الخضوع والاستكانة. وقد كان ﷺ يقول في دعائه: «خضع لك سوادي وآمن بك فؤادي». وحقيقته السكون، فقد كان ﷺ لا يلتفت في صلاته خاشعًا خاضعًا، وقد كان ابن الزبير، إذا قام يصلي تأتيه حجارة المنجنيق عن يمينه ويساره، فلا يلتفت، قال الشافعي والمتصوفة: يضع المصلي بصره في موضع سجوده، فإنه أحضر لقلبه، وأجمع لفكره. وقال مالك: ينظر أمامه، فإنه إن حنى رأسه ذهب بعض قيامه، ولا يرفع المصلي بصره إلى السماء في الصلاة، أو لتخطفن أبصارهم، وقد كان ﷺ يلمح في الصلاة ولا يلتفت. المسألة الثالثة: قال مالك في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ قال: الإقبال عليها، وقال مقاتل: الخشوع ألا يعرف من على يمينه، ولا من على يساره. واعلم أن قولك: الله أكبر، =

من العذاب وبقاء الأبد في جنات النعيم في جوار الأحد، ذكرهم بذلك في البدء الأول: «**هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون**»(١) والخشوع انكسار القلب وكآبة موجودة في النفس كما الخضوع موجود في الجسم ﴿**إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ**﴾(٢) [الشعراء:٤] ورأى رسول الله ﷺ رجلاً يصلي

= يحرم عليه الأفعال بالجوارح والكلام باللسان، وأن نية الصلاة تحرم عليه الخواطر بالقلب، والأخذ بالفكر [الأحكام الصغرى ص ٤٤٧].

(١) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٩٧/٨)، وأبو داود (٤٧٠٣)، والترمذي (٣٠٧٥) وقال: حسن، والنسائي في الكبرى (١١١٩٠)، ومالك (١٥٩٣)، وأحمد (٣١١)، وابن حبان (٦١٦٦)، والآجري (ص:١٧٠)، والبيهقي في الأسماء والصفات (ص:٣٢٥) وقال: في هذا إرسال مسلم بن يسار لم يدرك عمر بن الخطاب، والحاكم (٧٤) وقال: صحيح على شرطهما، والضياء (٢٨٩) وقال: إسناده منقطع، وابن جرير في تفسيره (١١٣/٩)، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير (٢٦٣/٢) وقال ابن كثير: مسلم بن يسار لم يسمع عمر كذا قاله أبو حاتم وأبو زرعة، زاد أبو حاتم وبينهما نعيم بن ربيعة.

(٢) أي منقادين وهو خبر عن الأعناق وقد اكتسبت التذكير وصفة العقلاء من المضاف إليه فأخبر عنها لذلك بجمع من يعقل كما نقله أبو حيان عن بعض أجلة علماء العربية. واختصاص جواز مثل ذلك الشعر كما حكاه السيرافي عن النحويين مما لم يرتضه المحققون ومنهم أبو العباس وهو ممن خرج الآية على ذلك، وجوزأن يكون ذلك لما أنها وصفت بفعل لا يكون إلا مقصوداً للعاقل وهو الخضوع كما في قوله تعالى: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِى سَاجِدِينَ﴾ [يوسف:٤] وأن يكون الكلام على حذف مضاف وقد روعي بعد حذفه أي أصحاب أعناقهم ، ولا يخفى أن هذا التقدير ركيك مع الإضافة إلى ضميرهم ، وقال الزمخشري: أصل الكلام فظلوا لها خاضعين فأقحمت الأعناق لبيان موضع الخضوع لأنه يتراءى قبل التأمل لظهور الخضوع في العنق بنحو الانحناء أنه هو الخاضع دون صاحبه وترك الجمع بعد الأقحام على ما كان عليه قبل . وقال الكسائي: إن خاضعين حال للضمير المجرور لا للأعناق. وتعقبه أبو البقاء فقال: هو بعيد في التحقيق لأن (خاضعين) يكون جارياً على غير فاعل (ظَلَّتَ) فيفتقر إلى إبراز ضمير الفاعل فكان يجب أن يكون خاضعين هم فافهم، وقال ابن عباس. ومجاهد. وابن زيد. والأخفش: الأعناق الجماعات يقال: جاءني عنق من الناس أي جماعة ، والمعنى ظلت جماعاتهم أي جملتهم. وقيل : المراد بها الرؤساء والمقدمون مجازاً كما يقال لهم : رؤس وصدور فيثبت الحكم لغيرهم بالطريق الأولى، وظاهر كلامهم أن إطلاق العنق على الجماعة مطلقاً رؤساء أم لا حقيقة وذكر =

وهو يعبث في الصلاة بيديه فقال: «**لو خشع قلب هذا خشعت جوارحه**»[١].

فصل

قال الله - جلَّ من قائل: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ [الحج:٧٧] واستاق لفظ الترجي وقال في هذه: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ المُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ... * وَالَّذِينَ**﴾ [المؤمنون:١-٣] فجاء بخطاب معهوده القطع، أرى [ذلك][٢] - والله أعلم - أن الآية الأولى أتت بالأمر بالإيمان والعبادة والركوع والسجود وفعل الخير، فجاء الترجي على صدق الامتثال منَّا [للأوامر][٣] أو تركه؛ إذ الهداية والاستعمال وإن كان ذلك مضافًا إلينا ونحن الموصوفون به، فإن ذلك لا يكون عن حول منا ولا قوة، فجاء معنى الترجي لأجل ذلك، وأمَّا المؤمنون العاملون العابدون على ما يرضي الله - جل ذكره - فليس في منال الثواب على ذلك ريب؛ لأنه من فعل الله - جل ذكره - وقد وعد بذلك وأخبر، وهو أوفى

=

الطيبي عن الأساس أن من المجاز أتاني عنق من الناس للجماعة المتقدمة وجاؤا رسلاً رسلاً وعنقاً عنقاً والكلام يأخذ بعضه بأعناق بعض، فيكون المعنى فظلوا خاضعين مجتمعين على الخضوع متفقين عليه لا يخرج أحد منهم عنه. وقرأ عيسى وابن أبي عبلة (خاضعة) وهي ظاهرة على جميع الأقوال في الأعناق بيد أنه إذا أريد بها ما هو جمع العنق بمعنى الجارحة كان الإسناد إليها مجازياً و(مَا لَهَا) في القراءتين صلة ظلت أو الوصف والتقديم للفاصلة أو نحو ذلك لا للحصر، وظلت عطف على ننزل ولا بد من تأويل أحد الفعلين بما هو من نوع الآخر لأنه وإن صح عطف الماضي على المضارع إلا أنه هنا غير مناسب فإنه لا يترتب الماضي على المستقبل بالفاء التعقيبية أو السببية ولا يعقل ذلك والمعقول عكسه، وبتأويل أحد الفعلين يدفع ذلك لكن اختار بعضهم تأويل ظلت بتظل وكأن العدول عنه إليه ليؤذن الماضي بسرعة الانفعال وأن نزول الآية لقوة سلطانه وسرعة ترتب ما ذكر عليه كأنه كان واقعاً قبله ، وبعضهم تأويل ننزل بأنزلنا ، ولعل وضعه موضعه لاستحضار صورة إنزال تلك الآية العظيمة الملجئة إلى الايمان وحصول خضوع رقابهم عند ذلك في ذهن السامع ليتعجب منه فتأمل!! [الألوسي (١٤/١٦١)].

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٢/١٩٠) وعبد الرزاق (٣٣٠٩) وأبو نعيم (١٠/٢٣٠).

(٢) ما بين [ ] زيادة من النسخة (خ).

(٣) في النسخة (خ): «للأمر».

[عهدًا][1] وأصدق قيلاً وأقدر بلا نهاية تتوهم.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون:١٠ - ١١] الفردوس: أعلى الجنة، ومنها تتفجر أنهارها، كرم مفردس؛ أي: مرفوع معرش، والوراثة: الخلف، الوارث: الخالف [للماضي][2] في الشيء، الموروث داخل الجنة يرث فيها داخل النار.

قال رسول الله ﷺ: «**ما منكم من أحد أو ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب مكانها من الجنة ومكانها من النار**»[3] وساق حديث المسألة في القبر، [وفيه][4] أنه يقال له: هذا منزلك من النار، أبدلك الله به منزلاً من الجنة، ويقال للآخر: هذا منزلك من الجنة، قد أبدلك الله به منزلاً من النار، قال رسول الله : ﷺ «**فيراهما جميعًا**»[5].

وأمَّا ما احتج به بعض من تكلم في هذا الفصل منكرًا لما قدمنا ذكره وتشنيعه، ذلك بقوله: «أترى القائل بهذا يقول: إن محمدًا ﷺ خلق له منزل في النار، وأن فرعون وهامان وشبههما في الضلال، خلقت لهم منازل في الجنة» فمحجوج غير مصيب.

قال رسول الله ﷺ: «**أشد الناس عذابًا يوم القيامة من قتل نبيًا أو قتله نبي**»[6] ولو علم هذا العلم يقينًا أن على قدر تهوره في دركات الكفر، والسعي على المسلمين، والبغي على الرسل والمؤمنين، فعلى قدر ذلك [كان][7] قد أعدَّ له في

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٢) في النسخة (خ): «الماضي».

(٣) أخرجه البخاري (٤٦٦٥)، ومسلم (٢٦٤٧)، وأبو داود (٤٦٩٤)، والترمذي (٣٣٤٤) وأحمد (١٠٦٧)، وعبد بن حميد (٨٤)، وأبو يعلى (٥٨٢).

(٤) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٥) أخرجه البُخَارِي (١٣٣٨)، ومسلم (٧٣١٨) وأبو داود (٣٢٣١) والنَّسائِي (٩٦/٤) وفي الكبرى (٢١٨٩)، أحمد (١٢٢٩٦)، وعَبد بن حُميد (١١٨٠).

(٦) أخرجه أحمد (٣٨٦٨)، والطبراني (١٠٤٩٧)، وقال الهيثمي (١٨١/١): فيه الحارث الأعور، وهو ضعيف.

(٧) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

الجنة منزلة يرثها عدوه من الرسل أو المؤمنين.

قال الله ﷻ: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران:١٧٦].

فأخبر الصادق [الحق](١) - عزَّ جلاله - أنه على قدر مسارعته في الكفر والصد عن سبيل الله يكون عظم عذابه فيما هنالك، وأن سعيه ذلك ينتقص حظه في الجنة، وجعل الله - جل ذكره - سعيه على الإسلام، ومسارعته في الكفر على قدر انتقاصه حظه وهدمه خلاقه من الجنة، وجعل العاجز منهم الضعيف في السعي المهين عن المسارعة أقل عذابًا في النار ومنزلة أدنى منزلة في الجنة يرثها ضعيف يقابله من هذه، فافهم.

قال الله ﷻ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ المُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان:٣١] فجاء من هذا أنهم فيما هنالك كالأقران في الحرب، الأغلب منهم في حظ البقاء وتأخير الأجل هو القاتل لمن حضر أجله [منهما](٢)، ولو عبر هذا القاتل - عفا الله عنا وعنه - بالوجود المشاهد إلى الوجود الموعود الغائب [الأيقن](٣) لا محالة بأنه من خلفه الله في الدنيا ومن الدنيا، فإنه مصيبه لا بد حرها وبردها الكائنين عن نفَسي جهنم - أعاذنا الله برحمته منها - ومصيبه أيضًا فتح الله رحمته من السماء بالماء والأرض والهواء، ونعمته بما سخر له السماوات والأرض وما بين ذلك، فمن واجب الوجود والمعهود ومن صدق الوعد والوعيد الكائنين عن حكمة الله - جل ذكره - أن يخلق لكل من خلقه من الدنيا وشمله حكم الفتح والفيح منزلتين:

أحدهما: في الجنة التي هي منبعث الفتح.

والآخر: في النار التي منبعث الفيح؛ لأنه المبدئ المعيد.

قال الله ﷻ: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ [طه:٥٥] يعني: الأرض، وكذلك [خلقها](٤) عن الفيح والفتح.

---

(١) في النسخة (خ): «الخبر».
(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٣) في النسخة (خ): «لأتقن».
(٤) في النسخة (خ): «خلقنا».

وقال في النار: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ يعني: الآن ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم:٧١] فلذلك لا بد ولا محالة من ورود جهنم، ولو على قدر خطف البرق ورجع الطرف أو يمر به على مسامتتها على البعد، ولا يشعر بها ولا يخافها ولا يحزن من [أجلها][١]، كذلك جعلها الله يومئذٍ ممرًا إلى الجنة كما جعلها في الدنيا ممرًا إلى آخر العمر فيها، فتطلب هذا في مظانه تجده هكذا ﴿والله يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

كما أنه لما كان مما قد خلفنا عنه فتح رحمته قضى في الوجود لعباده الطيب والطاهر والصديق الصادق يدخله الجنة برحمته [وكريم][٢] سابقته في هؤلاء، يقول - عزَّ من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠١ - ١٠٢] وإنما يعصم من النار ويبعد منها، ويدخل الجنة ويقرب من الله - جل ذكره - مشيئته العالية ورحمته الواسعة، بواسطة طاعته وابتغاء مرضاته أو بواسطة كفرانه ومواقعة مواقع سخطه، وعلى مشيئة الله ورحمته المعول أجمع، وما عدا ذلك أسباب وأواسط، وهذا هو الذي أخرج آدم عليه السلام من الجنة إلى الدنيا مع [الذم][٣] الوارد ومواقعة الخطيئة سبب كالأسباب، ومن أجل ذلك حاج آدم موسى عليه السلام.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّـٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ

---

(١) في النسخة (خ): «دخلها».

(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٣) في النسخة (خ): «النهي».

لَقَـٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْـَٔاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المؤمنون: ١٢ - ٢٢].

قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون:١٢ - ١٣] إلى آخر المعنى، السلالة: ما تسلل من الشيء، وسلالة الطين: ما رقَّ منه وثخن من الماء، وهو الصلصال إذا يبس.

قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر:٢٦] و﴿مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن:١٤].

ثم قال - عز من قائل: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون:١٣] يعني: الرحم، فذكر سبعة أحوال بحمله فيهن في طبقات التكوين خلقًا من بعد خلق في ظلمات ثلاث، وقد تقدم الكلام في هذه الإسبوعات في غير هذا الموضع وأنه أخرجه إلى أن [تقلُّبه][1] في سبعة أحوال إلا أن يخترمه الأجل، كما قال: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ﴾ [غافر:٦٧] ثم من الموت إلى سبعة أحوال، فيستقر في إحدى الدارين، وقد كان جمعه من سبع.

قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ هذه هي السماوات الدنيا اللاتي دون السماوات العلا التي جعل القمر فيهن نورًا والشمس سراجًا، ثم قال - عز من قائل: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ [المؤمنون:١٧] يريد - وهو أعلم بما ينزل - إنه كان عالمًا بالخلق قبل أن يوجدهم، كعلمه بهم بعد إيجادهم لم يزدد علمًا بذلك، ويمكن أن يكون المعنى بذلك زائدًا على ما تقدم ما تضمنه قوله الحق: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ [الأعراف:٥٤] ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ [الجاثية:١٣] يقول: فهذا أمرنا فيما علا متصل بما سفل، وأخبر بذلك

---

(١) في النسخة (خ): «يقلبه».

[منبهًا][(١)] على أنعمه، ثم قال: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ [المؤمنون:١٧] أي: إنا لم نجعل ذلك خشية منا النسيان.

ثم قال - تبارك وتعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ﴾ أسكن في الأرض ما هو نافع، وأذهب الزبد جفاء، وأسكن الفصل باطن الأرض [أسلكه][(٢)] ينابيع فيها فأجرى منه الأنهار والعيون وألحقه بما ينفع الناس، ثم قال: ﴿وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ [المؤمنون:١٨] آيته على ذلك ما يذهبه من الماء سيوله ومنافعه بالهواء وتبخره بالشمس حتى يجعله على قدر ما يصلح به العباد والبلاد والزرع وغير ذلك.

قوله - جل ذكره: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ [المؤمنون:١٩] نبه بهذا الخطاب على [اعتبار جليل خطره][(٣)] أي: إن هذا الماء الذي أنزلناه لكم من السماء، وأنشأنا لكم به الجنات من النخيل والأعناب وغير ذلك من الفواكه اعبروا منه إلى ما يكون في العاقبة، فإنكم شاهدتم سلالة الطين وما يكون عن النطف المتسللة عن كل ذي جنس ونوع من الحيوان، وكذلك عن كل بذر من النبات أو [غراسَة][(٤)]، فإنما يكون عن كل ذي جنس ما هو من جنسه ومثله وشبهه، فالإنسان عن الإنسان، والأنعام عن الأنعام، وكذلك سائر الحيوان وبذور النبات وغير ذلك.

فاقضوا إذًا بحكم الاعتبار إن هذا الماء المنزل من السماء، الكائن عنه أنواع الجنات إنما نزل عن جنة، وإن لم يكن عين الجنة اليوم فيها ظاهرة، فهي فيها باطنة، وكذلك الكائن عن الماء من جنات على أنواعها فهو عن الجنة، وقد تقدم ذكر اعتبار آخر بالماء ينزله الله من السماء طاهرًا مطهرًا، وهو واحد في نفسه من حيث هو ماء، فيخرج الله عنه نبات كل شيء، ويخلق منه كل شيء حي آية على أن الله واحد، وهو خالق كل شيء، وكما في وجود الماء إثارة فيح جهنم فكان عنه نبات

(١) في النسخة (غ): «منها».
(٢) في النسخة (خ): «سلكه».
(٣) ما بين [ ] غير واضح من النسخة (غ).
(٤) في النسخة (خ): «عراسه».

كل شيء، وخلق الله منه كل شيء حي على اختلاف وجوده، وهو ماء واحد من حيث هو ماء، فاقضِ بذلك على تخالف الوجود في الموجودات مع وجود الكثرة والوحدة.

وقد ضرب الله - جل ذكره - في ذلك مثلاً قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ﴾ [الأعراف:١٨٩] إلى آخر المعنى.

ثم قال - عز من قائل: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [المؤمنون:١٩] عطف معنى الدنيا على معنى الآخرة، فانبثق عن هذا اعتبار آخر، وهو أنه قد أعلمنا بما تقدم ذكره أن كل ما ينبته عن الماء فهو عن موجود الجنة، ثم قال: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي: مما هو عن الجنة كأبيكم آدم ﷺ إذ قال له ربه ﷻ: ﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا﴾ [البقرة:٣٥] المعنى، ثم أخرجهما منها وأخلف لهما مثالها يأكلان منها وذريتهما.

كما قال - عز من قائل: ﴿وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ﴾ أي: مما أنزله عليكم وأفتحه لكم من رحمتي ﴿إِلَى حِينٍ﴾ [الأعراف:٢٤] يعني: آخر العمر؛ أي: ثم تنقسم العباد بعد فيما بعد الموت وفي الدار الآخرة إلى ما عهد به إليهم من قوله الحق: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف:٣٥ - ٣٦].

وفيه اعتبار آخر وهو أنا إذا أكلنا مما هو عن الجنة بفتح رحمته - جل ذكره - ومما هو أيضًا عن جهنم بواسطة فيحها، فإذا أكلنا من ذلك خلقنا منهما - أعني: الجنة والنار - وما هو الدار الآخرة فالجور إذًا إلى الدار الآخرة واجب إلى جنتها ونارها، فبوجود الوفاء بالعهد إلى الجنة وإلى النار بضد ذلك، نسأل الله رحمته وعافيته في ذلك للمعهود من أنه من خلق عن شيء عاد إليه، كما قال - عز من قائل: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ [طه:٥٥] وقال: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٤].

ألا ترى أن آدم ﷺ لما خلق من الدنيا وجب في وجود الحكمة أن يرجع

إليها ظهر ذلك في معهود يخاطب الملأ الأعلى، حيث «**تحاج آدم وموسى عند ربهما** - عزَّ جلاله - **قال له موسى: أنت الذي أخرجت ذريتك من الجنة، فقال له آدم** - عليهما السلام: **بكم وجدت الله كتب علي أن يخرجني إلى الدنيا، قال: قبل أن يخلقني بأربعين سنة، قال: فتلومني على أمر كتب علي قبل أن أخلق بأربعين سنة، قال: فحاج آدم موسى**»[(١)].

فعلى هذه الرواية من ذكر الدنيا [تصحيح][(٢)] العبرة، فإنه لا بد لهم من الدنيا، ثم لا بد لهم من الجنة أو النار، وإنما يجير من النار مشيئة الله - جل ذكره - ثم لزوم طاعته واجتناب مناهيه، ومن لم يوفق لذلك فالنار موعده هي [مولاكم][(٣)]، كما يقال في تذاكر أهل البرزخ عمن مات ولم يره الحزب الصالح: أنا لله ذهب والله به إلى أمه الهاوية هي أمه منها خلق وإليها عاد.

فمفهوم هذا في الجنبة الأخرى أن يقال في التقي: ذهب والله [به][(٤)] إلى أمه العالية، فإنما هذه أم وهذه أم، لكن الشقي لما لم يشكر نعمة الله عليه فيما أنزله عليه من السماء، ولا صدق الله ورسله وكفر صارت له جهنم الذي خلق من فيحها أمًّا، وفي أهل الطاعة بالإيمان والشكر لله صارت الجنة [لهم][(٥)] أمًّا وموعدًا ومصيرًا.

ومن موضع هذا اللزوم كان رسول الله ﷺ يقول في دعائه: «**أسألك اللهم فكاك رقبتي من النار، اللهم أعتقني من النار**»[(٦)].

وقال الله ﷻ: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ [الفرقان:٧٧].

فمن خلقه الله في الدنيا فقد خلقه أيضًا مما أنزله من فتح رحمته [بالماء][(٧)] فإن

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥١٥)، والطبراني في مسند الشاميين (٢٩٨٧).

(٢) في النسخة (خ): «بصحيح».

(٣) في النسخة (خ): «مولاهم».

(٤) ما بين [ ] زيادة من النسخة (خ).

(٥) في النسخة (خ): «له».

(٦) لم أقف عليه، وإنما وقفت على لفظ: «**اللهم إني أسألك فكاك رقبتي من النار**» أخرجه الديلمي في المسند الفردوس (١٨٩٧).

(٧) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

شكره وآمن به وأطاعه واستعمله ربه برحمته الموجودة في كتابه وأسمائه، فقد ركب السبيل القويم منهاج الحق المخلوق به السماوات والأرض على طريق ما أمر به ونهى عنه، فالجنة موعده لا محالة ولا مرية ﴿**والله يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ**﴾ [الأحزاب:٤].

قوله ﷻ: ﴿**وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ**﴾ [المؤمنون:٢٠] [نظم الكلام، والله أعلم ﴿**فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ**﴾ [المؤمنون:١٩] ﴿**وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ**﴾ [المؤمنون:٢٠]][1] وقُرِئت: «**تُنْبَتُ بِالدُّهْنِ**» أي: تنشأ الشجرة [بالدهن، وقُرِئت أيضًا: «**تَنْبِتُ بالدهن**»][2] فالدهن في الشجرة؛ [وقرئت: «**تُنبت بالدهن**»][3] أي: الشجرة تنبته، وهو معنى ما قرأ به الأعمش: **تخرج الدهن**[4].

قال الله - عزَّ من قائل: ﴿**اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ**﴾ إلى قوله: ﴿**يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ**﴾ [النور:٣٥] فأنبأ الله ﷻ عباده أنه كما ينزل عن الجنة جنات إلى الأرض، كذلك ينزل عن آثاره نوره في السماوات والأرض نورًا يكون في نبات الأرض وحيوانها، وشجرة الزيتونة واحدة من شجر الدهن يلحق بها في وجود العبرة بها إلى ما هو نور، وإن كانت شجرة الزيتون مقدمة [الخصوص][5] ذكر الله تعالى إياها.

ثم عطف بواو في قوله: ﴿**وَصِبْغٍ لِّلآكِلِينَ**﴾[6] [المؤمنون:٢٠] هنا محذوف

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٢) ما بين [ ] غير واضح في النسخة (غ).

(٣) في النسخة (خ): «الماضي».

(٤) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو: «تُنبِت» برفع التاء وكسر الباء. وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: بفتح التاء وضم الباء. وقرأ ابن مسعود: تخرج الدهن وصبغ الآكلين. وغيره: تخرج بالدهن: وفي حرف أبي: «تثمر الدهن» وعن بعضهم: تنبت بالدهان. وقرأ الأعمش: «صبغا» وقرىء: «وصباغ» ونحوهما: دبغ ودباغ. والصبغ: الغمس للائتدام. وقيل: هي أول شجرة نبتت بعد الطوفان. [زاد المسير (٤٠٧/٤)، الكشاف (٨١٤/١)].

(٥) في النسخة (خ): «الخصوصية».

(٦) ﴿**وَصِبْغٍ لِّلآكِلِينَ**﴾ معطوف على الدهن، ومغايرته له التي يقتضيها العطف باعتبار المفهوم وإلا فذاتهما واحدة عند كثير من المفسرين، وقد جاء كثيرًا تنزيل تغاير المفهومين منزلة
=

مقدر تقديره، والله أعلم بما ينزل: تنبت بالدهن ضياء أو نورًا للمستصبحين ﴿وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾ يعلم بذلك أنه يصرف الدهن الذي هو آية على باطن نوره في [سبيل](١) الخلقة بما هو نور كما أظهره في النيرات، ومنه قول رسول الله ﷺ: «**كلوا الزيت وادهنوا به فإنه من شجرة مباركة**»(٢).

عبرة

طور سيناء هو الجبل الذي كلم الله - جل ذكره - منه موسى وناداه وواعده، ونسب شجرة الزيتون إلى هذا الجبل، وأوجدها فيه وفاقًا بالإيجاد لما قد قدره في الأزل، ولما في ذلك من المقاربة من ضربه المثل بنوره ووجود تجليه وكريم مواعدته إياه إليه، فالزيتونة شبيهة بالحق المخلوق به السماوات والأرض، وفيها شبه [بالإنباء](٣) والنبوة لما في الحق من الإنباء والهداية والشهادة، ولما في النبي والنبوة من النور.

قوله تعالى: ﴿**وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا**﴾ [المؤمنون:٢١] يقول: تعبرون بها إلى ما في هنالك من وجود الأنعام على خلقه الآخرة، كما قال - عز من قائل: ﴿**اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ**﴾ [غافر:٧٩ - ٨٠] أي: في هذه الدار والدار الآخرة، فهذه الوجوه كلها هي متاع لنا في الدنيا على ما هي عليه من النقص عما هنالك، وهناك ملكًا وخلدًا ونعمةً وحبور بكل وجه وعلى ما تشتهي الأنفس.

تغاير الذاتين، ومنه قوله: «إلى الملك القرم وابن الهمام ... وليث الكتيبة في المزدحم» والمعنى: تنبت بالشيء الجامع بين كونه دهن يدهن به، ويسرح منه وكونه إدامًا يصبغ فيه الخبز؛ أي: يغمس للائتدام. تفسير الألوسي (١٣/١٩٠).

(١) في النسخة (خ): «سبل».

(٢) أخرجه الترمذي (١٨٥١)، والحاكم (٧١٤٢) وقال: صحيح على شرط الشيخين، وأحمد (١٦٠٩٧)، والطبراني (٥٩٧)، والبيهقي (٥٩٣٨)، وابن قانع (١/٤٢).

(٣) في النسخة (خ): «بالنبي».

ثم عطف بحرف الواو بقوله: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [المؤمنون:٢١] تنبيه منه إلى وجوه من العبرة [منها أنه يخلفنا عنها لحومها وألبانها ويغذينا به وينشؤنا عنها][١] ومعلوم أنه قد جمع خلقها بأمره من خزائن السماوات والأرض والسحاب والأجواء بالرياح والهواء، ثم خلق عن ذلك الماء وأنزله إلى الأرض فأقره [منها][٢] قراره، ثم أخرج منها نباتها وخلق على ذلك أنواع الحيوان، ثم تتفرق أجسام الحيوان والأناسي إلى آكليها وأجسام الآكلين إلى آكلين، هكذا إلى آخر الدنيا ويوم الانقراض، ثم إذا دعاهم دعوة من الأرض استجاب كل من [موضعه وقراره][٣] وسلك في الاستجابة سبيل ذهابه الأول، فإذا هم منها يخرجون ﴿كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل:٧٧] أوليس الذي فعل هذا الذي بيده ملكوت كل شيء وبيده مقاليد السماوات والأرض بقادر على أن يجمع الكل من مفترقات الأماكن ومختلفات السبل؟ بلى، وهو الآن الخلاق العليم، نشاهد ذلك منه ونعاينه.

ثم قال: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [المؤمنون:٢٢] تنبيه منه على ما أعده لهم في الدار الآخرة من مراكب الأنعام ومراكب الفلك، فافهم، بلغ الله بنا وبك.

فصل

قال الله - جلَّ من قائل: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [ص:٢٩] فالتدبر أولاً ولا يكون إلا بتفكر وبه يتحصل العلم، والتذكر خاص هو لأولي الألباب والعلم بمعاني الكتاب العزيز، وإن كان خاصًا، فإن التذكر بالإضافة إليه خاص الخاص.

وقد جاء في الذي أنزل فيه قوله - جل ذكره: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الأعراف:١٧٥]: «أنه نزل عليه ملكان وهو نائم، فقعد أحدهما عند رأسه، والآخر عند رجليه، فقال أحدهما

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٢) في النسخة (خ): «فيها».

(٣) في النسخة (خ): «موضع قراره».

للآخر: أوعى؟ قال: وعى، قال: وزكى؟» قال أُبي: فالتذكر مقام وراء التدبر، وبالتذكر يجتلب الخوف والخشية والرجاء والحب والرضا واليقين، وعنه تكون زكاة الأعمال والأخلاق بإذن الله، فمتى تدبرت قوله الحق: ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ [الحجر:٢٢] وعبرت من هذا الماء وما خلقه الله عنه من نبات وحيوان وأناسي وأتباع ذلك كله إلى ما هو الجنة.

فتذكر موجودات ما هنالك ولا تكونن زهودًا في العلم تقنع منه بأوائله، وتذكر تلك الدار وذلك الملك و[خطير][١] الخلود في النعيم المقيم، وسرور النفس بالقرب والجاه والتمكين عند رب العالمين من ليس كمثله شيء، ثم أرجع البصر في موجودات الدنيا وتوابعها، واعبر بذلك إلى ما هنالك أيضًا وتذكر قدر المزيد، فإن العلم بما ها هنا مزيدًا لله في دار الدنيا للمعتبرين، وهو لا انقضاء له، وكذلك تذكر الخزائن والاختزان وكيف يُظهر ما اختزنه، ومتى وبِمَ ولِمَ ولأي حكمة وحكم؟!.

وكذلك فتذكر بقوله الحق: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ﴾ [المؤمنون:٢٠] وقد عبرت منها إلى شجرة الحق المخلوق به السماوات والأرض، فتذكرها وتعلم علمها.

والفرق بين [قوله][٢]: «تُنْبِتُ بِالدُّهْنِ» وقوله: «تَنْبِتُ الدُّهْنِ» و«تُخرِج الدُّهْنِ» تذكر ما المراد بالدهن وذكره؟ وما المنفعة به ها هنا؟ فبذلك تعبر إلى الدار الآخرة، وتذكر ثبوت أصلها وتفرق فروعها وشياع أفنانها وأفنان أفنانها إلى أقصى [موجودات][٣] المخلوقات، وما الذي منها هو للهداية وما هو للفطرة ومعاني الخلقة، ثم صل اعتبارك بتذكر الدار الآخرة، ويشعر لتوصيل الخطاب معاني الوحي وإشاراته إلى موجود ما هنالك، وتذكر ذلك بحق ما ها هنا، تتعرف به حق ما هنالك، وسل البر الرحيم أن يعلمك ويفتح عليك من رحمته.

---

(١) في النسخة (خ): «خطر».

(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٣) في النسخة (خ): «موجود».

وكذلك فتذكر بعد تقصي العبرة من مفهوم قوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ [المؤمنون:٢١] فتذكر بذلك أنهار ما بها من لبن لم يتغير طعمه، ثم تطرق بالتذكار إلى [تذكار][١] أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من عسل مصفى، وأنهار من خمر لذة للشاربين.

وتذكر مفهوم قوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [محمد:١٥] واعبر إليها من قوله الحق: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ [وتذكر الأكل منها هنالك، واعبر إليه من قوله فيما ها هنا][٢]: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [المؤمنون:١٩] ثم كذلك أبدًا بعد التدبر والاعتبار استعمل التذكر، ثم بعد التذكر سؤال حال [فيما ها هنا][٣] يوجب اللحاق [بما][٤] هنالك، ويجيب إليه بالتصديق له والشهادة بما شهد به لنفسه - جلَّ ذكره - ولسواه، واعمل [في][٥] ذلك عمل من يعلم ما يطلب، ومَن الذي يسله وفِيمَ [يرغبه][٦]، علمنا الله وإياك من علمه، وأجزل حظنا وحظك من معرفته، وأحسن عوننا على ذكره وشكره وحسن عبادته.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون:٢٣] المعنى إلى آخره، عطف بواو في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ إذ معنى ما تقدم تعداد آياته والتنبيه على براهينه ودلائله في السماوات والأرض، ولما أن كان إرساله الرسل منبهًا للعقول ومبينًا للآيات على التوحيد والرسالة وما جاءت به، وموقظًا للعقول التي أرادها الله بذلك، عطف بالواو على ما تقدم.

والمراد الأول بإرسال الرسل: الإعلام بإجماع جميعهم على ما انعقد عليه جميع الموجودات في الأرضين والسماوات أنه الله إله واحد فاعبدوه واتقوه، وأن

---

(١) في النسخة (خ): «تذكر».
(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٣) في النسخة (خ): «بما هنا».
(٤) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٥) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٦) في النسخة (خ): «يرغب».

الرسل والنبوة حق، وتبين الأمر بطاعتهم وحسن الاقتداء بهم والطاعة لهم.

ثم المراد الثاني: الإعلام بالحساب العاجل والآجل وثوابه للمؤمنين وعقابه للمكذبين، والتنبيه على ما اجتمعت عليه أمم الخليقة ناطقها وصامتها، بما جعلها الله عليه من الجريان على سنن معلوم.

قال الله تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ [الحج:٦٧] على تبيين لزوم شرعة الرسل وإثبات سننهم، ثم التنبيه على الاعتبار بثواب المؤمنين في العاجل والآجل واجتبائهم، وعقاب المكذبين وإهلاكهم على ما يطابق ذلك في الدار الآخرة ﴿وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء:٢١].

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ
(٢٣) فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ
ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ (٢٤) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟
بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ (٢٥) قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ (٢٦) فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا
وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ
إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٢٧) فَإِذَا
ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٢٨) وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى
مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ (٢٩) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (٣٠) ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا
ءَاخَرِينَ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣٢) وَقَالَ
ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ
مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) ﴾ [المؤمنون: ٢٣ - ٣٣].

قوله تعالى فيما حكاه عن المكذبين: ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون:٢٤] يتفعل من الفضل؛ أي: إنه يريد أن يكون الفاضل دونكم.

قوله تعالى: ﴿فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾ أمره أن يدخل فيها

هو وأهله ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ فإنه لا يؤمن، وهو ابنه الذي كان من المغرقين، نهى أن يشفع فيه فشفع فيه بحكم العموم في قوله: ﴿وَأَهْلَكَ﴾ [المؤمنون:٢٧] فقال: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ [هود:٤٥] فأبان الله - جل ذكره - له من هو أهله بقوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ ثم أتبع ذلك [تبيينًا][1] بقوله: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود:٤٦] لا ولاية نسب مع البراءة في ذات الله، وعلى القراءة الأخرى: «إنه عمل غير صالح» أي: إن هذا منك عمل غير صالح شفاعتك فيما ليس لك به علم.

فصل

ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**نحن أولى بالشك من إبراهيم ويرحم الله لوطًا، لقد كان يأوي إلى ركن شديد ولو لبثت في السجن طول لبث يوسف لأجبت الداعي**»[2] فأمَّا ما ذكره من أمر يوسف فقد مضى في موضعه، وكذلك قصة إبراهيم وأن قوله تعريض إلى إحياء خاص في أمة ما هذا هو المراد الأول منه، ثم إحياء الموتى حال موتهم ثانيًا، ثم إحياء موتى الأجسام ثالثًا.

وأمَّا قوله: «**ويرحم الله لوطًا لقد كان يأوي إلى ركن شديد**»[3] كان ﷺ قد تقدم إليه بأنه متصور، وأن أولئك القوم مهلكون، قال الله ﷻ: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ [الحجر:٦٦] ولما حل به الأضياف لإنجاز الوعيد فيهم والوعد له بالفرح، وجاء القوم إليه مستبشرين؛ أي: ببلوغ بغيتهم على زعمهم، ووقعت بينه وبينهم المحاورة وتراجعوا الكلام، نفث نفثة المصدور على عوائد البشر، فقال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أو آوِي إلى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود:٨٠] أي: كنت أنتصر لنفسي ولأضيافي قالوا له: ﴿يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ [هود:٨١].

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٢) أخرجه البخاري (٤٢٦٣)، ومسلم (١٥١)، والنسائي (١١٠٥٠)، وابن ماجة (٤٠٢٦)، وأحمد (٨٣١١)، وابن حبان (٦٢٠٨)، وأبو عوانة (٢٣٠).

(٣) أخرجه بنحوه الحاكم (٤٠٥٤) وقال: صحيح على شرط مسلم.

فأقاموه - صلوات الله على جميعهم - على [نفسه][(١)]، ولما [بيّن][(٢)] الحال التي [يعتري][(٣)] عند [مباشرة][(٤)] الشدة، فتعطى على الذكر الأول، قال: ويرحم الله لوطًا، فدعا له بالرحمة كذلك سنة الله في رسله وعباده كقوله: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ [يوسف:١١٠].

﴿وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ الله أَلَا إِنَّ نَصْرَ الله قَرِيبٌ﴾ [البقرة:٢١٤].

﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح:٥ - ٦].

﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [المؤمنون: ٣٤ - ٤٩].

وتكلم رسول الله ﷺ في الثلاثة رسل - صلوات الله على جميعهم - على سير

(١) في النسخة (خ): «يقينه».
(٢) في النسخة (خ): «تبيّن».
(٣) في النسخة (خ): «تعترى».
(٤) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

الأنبياء والنبوة، قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ [المؤمنون:٣٦] مفهوم هذه اللفظة البعد من المطلوب المعني [من](١) المتكلم بها ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾(٢) [المؤمنون:٤١] أي: هشيمًا يابسًا وحطامًا متقطعًا يحمله السيل.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ [المؤمنون:٤٤] بمعنى تتواتر.

﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [المؤمنون: ٥٠ - ٥٦].

﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ [المؤمنون:٥٠] أي: على أن الله يخلق من غير ذَكَر كما يخلق من ذكر، وقد خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى، وكانت جيئته الأولى آية على جيئته الثانية ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر:٤٤].

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون:٥١ - ٥٢] نصَّ - جلَّ ذكره - على أن إجماع الرسل وإجماع الخليقة كلها أن الله إله واحد، وأمة

(١) في النسخة (خ): «عن».

(٢) الجعل بمعنى: التصيير، و«غُثَاءً» مفعول ثان، والغُثَاء: قيل: هو الجفاء، وتقدم في الرعد، قاله الأخفش. وقال الزجاج: هو البالي من ورق الشجر والعيدان إذا جرى السيل خالط زبده واسوَّد، ومنه قوله: ﴿غُثَاءً أَحْوَى﴾ [الأعلى:٥] وقيل: كل ما يلقيه السيل والقدر مما لا ينتفع به، وبه يُضْربُ المثل في ذلك ولامه واو؛ لأنه من غَثَا الوادي يَغْثُو غَثْوًا، وكذلك غَثَتِ القِدر، وأمّا غَثِيَتْ نَفْسُهُ تَغْثِي غَثَيَانًا؛ أي: خَبُثَتْ. فهو قريب من معناه، ولكنه من مادة الياء. وتشدد ثاء الغُثَاء وتُخفَّف، وقد جمع على أَغْثَاء، وهو شاذ، بل كان قياسه أن يجمع على أَغْثِية كَأَغْرِبَة، وعلى غِيثَان كغِرْبَان وغِلْمَان. تفسير اللباب لابن عادل (٤٩٦/١١).

[المسلمين](1) أمة واحدة، الأنبياء والملائكة والمؤمنون والأمة الطريق وتكون الجماعة يؤمها بعضها والأمة الملة، وهذا كله قريب القرابة بعضه من بعض، فالرسل والأنبياء كلهم في وجوب الإيمان بهم كرجل واحد، والملائكة كلهم في وجوب الإيمان بهم كملك واحد، والمؤمنون كلهم في وجوب النصيحة والولاية كرجل واحد، ولله - جلَّ ذكره - تخصيص تفضيل في كل أمة يجب الإيمان به أيضًا، فالدين دين واحد، والأمة أمة واحدة والله - ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه - رب واحد لا شريك له.

يقول الله - جلَّ من قائل: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ أي: فرقوا التوحيد ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون:٥٣] الأحزاب والشيع والفرق [سواء](2).

يقول الله - جلَّ من قائل: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ﴾ [المؤمنون:٥٤] الغمرة: ما غمر المغمور من ماء أو هول أو فتنة أو نوم ونحو هذا، وهؤلاء غمرتهم الغفلة فهم لا يفقهون، ومع ذلك فهم لما هم فيه من التيه والضلال لا يشعرون، بأنا نملي لهم ونستدرجهم من حيث لا يعلمون.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَـٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَـٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَـٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَـٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [المؤمنون:٥٧ - ٦٥].

يقول الله - جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧] الخشية: رقة الخوف، والإشفاق: رقة الحزن، فمن كان هكذا ساء

(١) في النسخة (خ): «الإسلام».

(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

ظنًّا بنفسه وبعلمه، حتى لا يستحق عند نفسه خيرًا ولا يستأهله، وأنه ليخاف من حيث يأمن سواه والشفيق بسوء ظن مولع.

ثم قال - عز من قائل: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون:٥٨] من تحقق بهذا الوصف لا يرى شيئًا إلا ازداد به علمه، ولا يخطر بباله خاطر إلا زاده الله به إيمانًا بربه ويقينًا.

ثم قال - عز من قائل: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون:٥٩] المتحقق بهذا هو المخلص.

يقول الله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون:٦٠] أي: هم يعطون الزكاة والصدقة من أموالهم والنصيحة من أنفسهم، ويزكون أنفسهم بالتقرب من الله - جلَّ ذكره - ويصدقون بواطنهم بظواهرهم وظواهرهم ببواطنهم عند أنفسهم، ممن لا يتقبل منهم حسناتهم ولا يكفر عنهم سيئاتهم، ليس لخلف وعد يعتقدونه، لكنهم يرون عند أنفسهم أنه ممكن أن يكون الله ﷻ قد اطلع على أحدهم في بعض هناته إطلاعةً، فأعرض عنه بوجهه الكريم فقال: «**اعمل ما شئت فلا أغفر لك**»[1].

وإلى هذا فإن علم [الخاتمة][2] غيب في حقهم لغيب السابقة، فهم يحزنون على ما لا علم لهم بحقيقته [مع عظم الخطر، وأنهم ليس لهم من دونه ولي ولا نصير][3] وقد قال رسول الله ﷺ: «**قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الله، إذا شاء أن يقيمه أقامه، وإذا شاء أن يزيغه أزاغه**»[4] ولذلك كان رسول الله ﷺ يقول في دعائه: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**»[5] وفي أخرى: «**على**

(١) أخرجه بنحوه أبو نعيم (١٠/٢١٥)، والديلمي (٨٧٣٩).

(٢) في النسخة (خ): «الآخرة».

(٣) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٤) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٨/١٢٦)، والطبراني في الشاميين (١/٣٣٠)، وأحمد (١٧٦٦٧)، وابن ماجة (١٩٩)، وقال البوصيري (١/٢٧): هذا إسناد صحيح، والحاكم (١٩٢٦) وقال: صحيح على شرط مسلم، وابن عساكر (١٠/١٥٧).

(٥) أخرجه ابن أَبي شَيْبَة (٢٩١٨٧)، والنسائي في الكبرى (٤/٤١٤)، وأحمد (١٢١٣١)، والتِّرْمِذِيّ (٢١٤٠)، وأبو يَعْلَى (٣٦٨٧)، والبيهقي (٧٧٦)، والطبراني (٧٥٨) وفي الأوسط =

طاعتك»[١].

وروت عائشة - رضي الله عنها - أنها سمعت رسول الله ﷺ يقرؤها: «**والذين يأتون**» بالألف، وقالت: «**ما يقرؤها إلا من الخشية**»[٢] وقرأ ابن عمر: «يؤتون ما أتوا» بالقصر، وقال: هي الزكاة، هكذا وجدته في الرواية، وأظنه من قصر الممدود؛ أي: يزكون أنفسه بطاعة الله[٣] على ما تقدم في صدر الكلام.

يقول الله - عزَّ من قائل: ﴿**أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ**﴾ [المؤمنون:٦١] أتبع ذلك قوله - جل ذكره: ﴿**وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ**﴾ [المؤمنون:٦٢] كما قال: ﴿**إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ**﴾ [النساء:٤٠] وقال: ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ**﴾ [الأنبياء:٩٤].

قوله تعالى: ﴿**بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا**﴾ [المؤمنون:٦٣] أي: من خشية هؤلاء وإخلاصهم، وإشفاقهم من سيئاتهم و[نسيانهم][٤] حسناتهم غمرتهم الغفلة واستحوذ عليهم الشيطان بالتزين بالغرور والجهل فهم لا يعقلون.

=

(١٥٨٨)، وأبو يعلى (٢٢٦٤)، والطيالسي (١٧٠٢).

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٦/٨٣)، وأبو يعلى (٤٨٢٤)، وعبد بن حميد (١٥١٨)، وابن أبي عاصم في السنة (١٨٨)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٣٠٤).

(٢) أخرجه الترمذي في التفسير، ٩ / ١٩ - ٢٠ والإمام أحمد:٦ / ١٥٩، ٢٠٦ ، والحاكم: ٢ / ٣٩٣ - ٣٩٤ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، والطبري:١٨ / ٣٤. وانظر: الدر المنثور:٦ / ١٠٥ بلفظٍ ما معناه.

(٣) قرأت عائشة - رضي الله عنها - وابن عباس والنخعي «والذين يأتون ما أتوا» مقصورًا من الإتيان، قال الفراء: ولو صحت هذه القراءة عن عائشة لم تخالف قراءة الجماعة؛ لأن الهمز من العرب من يلزم فيه الألف في كل الحالات إذا كتب فيكتب سئل الرجل بألف بعد السين ويستهزئون بألف بين الزاي والواو وشئ وشئ بألف بعد الياء فغير مستنكر في مذهب هؤلاء أن يكتب «يؤتون» بألف بعد الياء فيحتمل هذا اللفظ بالبناء على هذا الخط قراءتين «يؤتون ما آتوا» ويؤتون ما أتوا وينفرد ما عليه الجماعة باحتمال تأويلين: أحدهما: والذين يعطون ما أعطوا من الزكاة والصدقة وقلوبهم خائفة. انظر: تفسير القرطبي (١٢/١٢٠)، تفسير البغوي (٥/٤٢١).

(٤) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

أتبع ذلك قوله: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ [المؤمنون:٦٣] المراد الأول بإرجاع الضمير عليهم هنا هم الحزب الصالح، مفهوم الكلام، والله أعلم بما ينزل: ولهم أعمال من دون ذلك؛ أي: تلك الأعمال المحمودة هم لها عاملون لا بد ولا محالة؛ لذلك خلطهم يوم ميز بينهم في البدء الأول، ثم قال لهم: أعمال من دون ذلك هم لها عاملون، وقد قيل: لا يخلو الصديقون من الذنوب، [فوصفه][1] إياهم بذلك في معرض المدح لهم دليل على [مغفرته لهم][2].

ثم المراد الثاني: أن يكون إرجاع الضمير على الحزب المذموم أن يعملوا بعمل أهل النار وهم في غمرة عماهم عليه؛ ليقولوا يوم القيامة: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف:١٧٢] وقد يكون المعنيون بهذا أصحاب الإهمال والتردد على المعاصي، الراجون غفران الذنوب مع الإصرار والجنة بالمعاصي من الموحدين، و[الصنف][3] الأكثر جرمًا قد جاء وصفهم في قوله ﷻ: ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٣].

ولذلك أحضرهم أنفسهم في [الأول][4]، وأشهدهم على أنفسهم بالعبودية له وأنه ربهم، وأشهدهم على النبوة والرسالة، ثم لما أوجدهم بعث إليهم رسله تأكيدًا للمعرفة المغروزة في أصل جبلتهم المركبة في جذر قلوبهم، لا تصح [القضية ومضاؤها][5] إلا بأن يكونوا على كمال عقولهم وحوار أمرهم، وعلى ذلك [من][6] الحكم شرع شرعه، فافهم.

فصل

قال الله - جل قوله وتعالى علاؤه وجده - في هذا الخطاب: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [المؤمنون:٦٢] [كما قال في موضع آخر: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

(١) في النسخة (خ): «فوصفهم».
(٢) في النسخة (خ): «معرفته بهم».
(٣) في النسخة (خ): «النصف».
(٤) في النسخة (خ): «الأزل».
(٥) في النسخة (خ): «العصبة ومصادها».
(٦) من النسخة (غ).

الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأعراف:٤٢][(١)] فهذه دلالة على أنه - تبارك وتعالى - لم يكلف المؤمنين تعذيب النفوس في مطلق العبودية إلا على معنى التأديب لها والقصاص منها لها، فإنه لا بأس بذلك.

قال الله ﷻ: ﴿وَلَكُمْ فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [البقرة:١٧٩] لهذا الخطاب وجه إلى الأمر بالقصاص في المظالم بين العباد في الأنفس والدماء والجراح والأموال ونحو هذا، ووجه إلى المقاصاة من الأنفس، وهو [تصحيح][(٢)] التوبة بجعل مكان الضحك بكاء، ومكان الترف من العيش شظفًا وصيامًا وعطشًا، ومكان النوم سهرًا، ومكان السهر على المعاصي سهرًا على الطاعات، إلى غير ذلك من التأديب.

دلَّ على صحة هذا التأويل قوله: ﴿يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٩] وعلى الحقيقة فليست تسخو نفوس على القصاص منها لها إلا نفوس أولي الألباب والتقوى الوافرة، والخطاب راجع إلى الفريقين، وإن كان أظهر في الفريق المحمود.

- فأمَّا أهل الاستقامة فهم المقول فيهم: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف:١٦].

- وأمَّا المكذبون فهم المقول فيهم: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٤٧].

- وأمَّا أصحاب الإهمال والإصرار، والركون إلى أماني الغرور، فقد قال فيهم: ﴿أَن تَقُولُوا يَوْمَ القِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف:١٧٢].

وعلى القول بالتحقيق فإن من سبقت له من الله - جل ذكره - الحسنى [له][(٣)] يغفر له ويتجاوز [عن سيئاته][(٤)] أصحاب الإشفاق

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٢) في النسخة (خ): «صحيح».
(٣) في النسخة (خ): «وقدر له أنه».
(٤) في النسخة (خ): «عنه وهم».

[والخشية][1] - والله أعلم - فهم الأوَّابون الذين يقول لهم - جل ذكره: «**اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**»[2] أي: في الأولى يقدر عليهم الذنوب ويقدر عليهم بالتوبة [منها][3]، لا إله إلا الله العليم الحكيم.

قوله ﷻ: ﴿**حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ**﴾ [المؤمنون: ٦٤] أرجع وجه الخطاب إلى الإخبار عن الفريق المذموم، الجؤار قد يكون وصفًا مذمومًا وهو الأظهر فيه، وهو الجهر بالاستغاثة، والصوت العالي دون تضرع، وإذا ورد ذكر الجؤار مقيدًا بوصف حمد كان جوازًا على سبيله، وهو الجهر بالتضرع.

والدعاء **الأول**: ﴿**إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ**﴾ [النحل: ٥٣].

الثاني: قال رسول الله ﷺ وقد أشرف في طريق مكة على ثنية هرشا: «**كأني أنظر إلى يونس بن متى منحدرًا من هذه الثنية على ناقة حمراء، خطامها ليف، له جؤار إلى الله بالتلبية**»[4].

يقول الله جلَّ من قائل: ﴿**لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ**﴾ [المؤمنون: ٦٥] متى تضرعوا حين معاينة الهلاك بالعذاب فلا ينفعهم توبة ولا تضرع، وإنما ينفعهم التوبة، ويتداركهم الله برحمته حين تبليغ الرسول إليهم ما [أنزل][5] به، فإن ردوه وكذبوه وأعرضوا عن تذكير ربهم إليهم فهو [العقاب][6]، ويوجب ذلك الإعراض عنهم والخذلان لهم، وكثيرًا ما لا يوفقون لتوبة؛ فيؤخذون بالبأساء والضراء، قال الله ﷻ: ﴿**فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ**﴾ [يونس: ٧٤].

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٤٥)، ومسلم (٢٤٩٤)، وأحمد (٦٠٠)، وأبو داود (٢٦٥٠)، والترمذي (٣٣٠٥) وقال: حسن صحيح. والحميدي (٤٩)، وابن حبان (٦٤٩٩).

(٣) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٤) أخرجه مسلم (١٦٦) وأحمد (١٨٥٤)، وابن ماجة (٢٨٩١) والحاكم (٤١٢٣) وابن خزيمة (٢٦٣٢)، والطبراني (١٢٥٨٧) والبيهقي (٣٨٤٣)، وأبو عوانة (٣٠٠٦) وأبو يعلى (٢٤٨٨).

(٥) في النسخة (خ): «أرسل».

(٦) في النسخة (خ): «العتاب».

ولربما [تداركوا][1] بالتوبة، ومُنَّ عليهم بالإنابة والأوبة، فضجوا وجأروا إلى الله وأعلنوا بالتضرع، فتاب عليهم عند ذلك، قال الله عزَّ من قائل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام:٤٢] أي: كذبوا فأخذناهم بالبأساء والضراء ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:٤٣] إلى آخر القصة.

فمثال مسارعتهم للاستجابة عند مجيء الرسول إليهم مثال المسارع بالهداية والتوبة عند البلوغ، ومثال أخذهم بالبأساء والضراء ليتضرعوا، وقد وقع عليهم استحقاق [العقاب][2]، وأورثهم ذلك التثاقل عن الإجابة، مثال ما يكتسبه العبد من ضراوات الشهوات، وفتح أبواب الفتن عليه بعد عصمة النشأة وهداية الفطرة، وسهولة سلوك سبيل العفاف عليه، وكفاية مؤنة المجاهدة.

ومثال ظهور أعلام الهلاك ومعاينة العذاب المعبر عنه بقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾[3] [المؤمنون:٧٧] مثال معاينة أعلام الآخرة وظهور [ملائكة][4] الموت في سد باب التوبة.

﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ ۚ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾﴾ [المؤمنون: ٦٦ - ٧٣].

---

(١) في النسخة (خ): «تدوركوا».
(٢) في النسخة (خ): «العتاب».
(٣) قرئ «فَتَّحنَا» بالتشديد. قال ابن عباس ومجاهد: يعني: القتل يوم بدر. وقيل: الموت. وقيل: قيام الساعة. وقيل: الجوع. تفسير اللباب لابن عادل (١٢/١٤).
(٤) في النسخة (خ): «مليكة».

أتبع ذلك قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ * مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون:٦٦ - ٦٧] فعدد عليهم في حال معاينتهم الهلاك ما كانوا يأتونه من التخلف عن الاستجابة والنكوص القهقرى عن المسارعة إلى داعي الله ورسله استكبارًا منهم عن الحق والقبول له.

قوله: ﴿بِهِ﴾ يعني: القرآن والأمر المبلغ إليهم المتلو عليهم ﴿سَامِرًا﴾ أي: دائمًا ﴿تَهْجُرُونَ﴾ الهجر: قول الخنا، والنكوص: الرجوع القهقرى تركًا للإقدام، والسامر أيضًا: الجماعة يتحدثون ليلاً ونهارًا، والسمَر: ضياء القمر؛ سمي [بذلك][(١)] كذلك لاجتماعهم إليه يسمرون للحديث وهم السمر والسمار، وقد يكون الهجر قولاً لا تحصيل معه، ككلام المبرسم وصاحب الهذيان، وفائدة ذلك: أنهم كانوا يتكلمون في القرآن بكلام الخنا على الدوام منهم، وبما لا تحصيل معه، وقد قرئ هذا الحرف: «سامرًا تهجرون» من الهجران، وهو ظاهر في التلاوة، يقول: إنهم كانوا يعرضون عن القرآن والذكر ويبغضونه كراهية له.

قوله ﷻ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون:٦٨] القول هنا هو مخاطبتهم بالقرآن، وما يقول لهم الرسل و[يبلغه][(٢)] إلى أممهم، وسيأتي تفسير ذلك مشارًا إليه بعد في أثناء ما يأتي من الخطاب، و[جملته][(٣)] قول الرسل إليهم: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ [نوح:٢ - ٣] ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف:٣١].

هذا وما عبّر عنه كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف:١٥٨] وبهذا ونحو هذا جاءت الرسل إلى آبائهم من قبل، فكان يجب أن يتعرفوا حق ما جاءهم به رسولهم

---

(١) ما بين [ ] زيادة من النسخة (غ).

(٢) في النسخة (خ): «تبلغه».

(٣) في النسخة (خ): «حملته».

[هذا ويتبينوا][١] النذارة، فقد كان من قبلهم جاءتهم رسلهم بذلك فكفروا، فأخذهم الله بذنوبهم، ولم يكن لهم من دون الله من ولي ولا نصير.

أتبع ذلك قوله: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ [المؤمنون:٦٩] قد كانوا يسمونه فيما بينهم الصادق الأمين، ولم يكونوا قبل عرفوه بالتعلم من العلماء ولا بالاختلاف والرحلة إليهم، فكان بمثابة من أمسى ولا يعلم علمًا من العلوم، ثم أصبح وهو أعلم أهل الأرض.

أتبع ذلك قوله الحق: ﴿بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [المؤمنون:٧٠].

ثم قال وقوله الحق: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون:٧١] كان من أهواءهم ما هو سوى التوحيد، وبالعدول عنه كانوا يدينون، وإياه كان مرادهم، وبإزالة التوحيد وتفريق الدين لا يتوهم بقاء شيء على ما هو عليه، كيف وهو الله ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ﴾ [البقرة:٢٥٥] لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يرفع القسط ويخفضه، يمسك السماوات والأرض وما بين ذلك، وكل شيء عنده بمقدار، لا والد له ولا ولد، ولا شريك له ولا ظهير.

خلق السماوات والأرض وما بينهما بالحق، وأسس علو ذلك وسفله على قواعد الإسلام، ورفع بناءهن على دعائمه، وأسلك مقتضى أسمائه الحسنى وصفاته العلا في ذلك سلوك الأرواح في الأجسام، وأجراه فيه جريان الغذاء في المتغذيات، فهذا هو الحق [المبتغى][٢] والسبيل القيم المرتضى، فلو اتبع هذا الحق أهواءهم لنازعه الكبرياء والعظمة، ولوصفه بما ليس به، ولو نازعه شين الكبرياء والعظمة لقصمه، ولو قصمه لم يمسكه، ولو لم يمسكه طرفة عين لدكدك العالم كله بأسره جملة واحدة.

أتبع ذلك قوله - جلَّ من قائل: ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ [المؤمنون:٧١] أي: أضرب عن هذا الحق وذكره أنا أتيناهم بما هو شرف لهم، وذكر لغابرهم وسالفهم

(١) في النسخة (خ): «ويتبنون».

(٢) في النسخة (خ): «المسغى».

ونمكنهم في الأرض ونجعلهم أئمة، ونجعلهم الوارثين، ونستخلفهم في الأرض، فننظر كيف يعملون هذا الخطاب المراد به قريش خاصة، ثم العرب عامة، ثم سائر الأميين من آمن وأصلح منهم، هو ذكر لهم و[شرف][١] في الدنيا والآخرة.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [المؤمنون: ٧٤ - ٨٠].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [المؤمنون:٧٥] أرجع خطابه - وهو أعلم - إلى المعنيين بقوله: ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ [المؤمنون:٦٤] غير أن هذا إخبار منه عن فعلهم لو كشف العذاب عنهم، وذلك إخبار عن حالهم لو قد رأوا العذاب كان يكون [هجيراهم][٢] حينئذٍ الجؤار والإقرار بالذنوب، وبأنهم كانوا ظالمين، وذلك حين لا تنفعهم التوبة ولا تغني عنهم [التلاوة][٣]، وإنما كان ينفع ذلك قبل المعاينة للعذاب أو الموت، وهذه الآية إخبار منه عن حالهم لو كشف عنهم العذاب، كما قال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٨].

أتبع ذلك قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾[٤] [المؤمنون:٧٦] يريد - وهو أعلم بما ينزل - أوائل العذاب ونذره

---

(١) في النسخة (خ): «تشريف».

(٢) في النسخة (خ): «هجراهم».

(٣) في النسخة (غ): «ابتلاؤهم».

(٤) إشارة: أفرد أرواحهم في مبادئ العهد بشهود نور جماله لها وخطابه معها، فلما وصلت الأشباح ابتلاها بحجاب النفوس والشياطين، ولم ترجع إلى طلب معادنها؛ فشكا الله سبحانه =

وأسباب ذلك الذي عبر عنها قوله: ﴿فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام:٤٢] ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ * فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ﴾ [الأعراف:١٣٠ - ١٣١].

أتبع ذلك ما هو إتمام المعنى قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [المؤمنون:٧٧] هذه هي العزمة [والمعاينة][١] وقد تقدم ذكرها.

ثم أرجع الكلام إلى معنى صدر السورة من ذكر خلق الإنسان قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ﴾ [المؤمنون:٧٨] يعدد نعمه عليهم، ويعرض بل يصرح بقلة شكرهم وعدم اهتدائهم.

واستمر على ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المؤمنون:٧٩] إلى قوله: ﴿وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [المؤمنون:٨٠] يقول ﷻ: من له اختلاف الليل والنهار وله ما سكن فيهما، وهو الذي خلقكم وأنعم عليكم وأنتم تعلمون أن ما بكم من نعمة فمن الله، وله محياكم ومماتكم، وإليه تحشرون فتجزون بما كنتم تعملون، يُشرك [به][٢] سواه أو يُعدل به غيره! لذلك قرعهم بقوله: ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾.

﴿ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا

عنها، ومن حق معرفتها أنها تفنى براءة الحجاب والخطاب بالعتاب، وهذا وصف بعض العارفين الذين هاموا في أودية الكبرياء والعظمة، ولا يجدون لذة الوصال والجمال من صولة التوحيد؛ فوقعوا في بحار الأولية، وباشروا بالجرأة ما يوجب العتاب، فلم يلتفتوا إلى مراعاة الرجوع لاستكبارهم بمقاماتهم العظيمة، ولا يهتمون على فوائت حظوظ المشاهدة يا ليت لو علموا خفايا مكره لتضرعوا واستكانوا حتى يكشف ما وراء أحوالهم من عظائم غيوبات الصفات، وعجائب كشوف الذات، التي لو شاهدوها لذابوا ساعة بنعت الفناء في القدم، ولتاهوا ساعة بنعت البقاء مع السكر والصحو في الأبد.

(١) في النسخة (غ): «ابتلاؤهم».

(٢) في النسخة (خ): «معه».

لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾
قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ
﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ
أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن
كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ
لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ
وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ
عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ
نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ
أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا
تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ
فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ
خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [المؤمنون: ٨١ - ١٠٣].

أتبع ذلك بما معناه معنى ما تقدم في صدر السورة [من ذكر السورة][(١)] من ذكر الإعادة قوله: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ﴾ [المؤمنون:٨١] إلى قولهم: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون:٨٣].

قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون:٨٤]

(١) ما بين [ ] زيادة من النسخة (خ).

صرف وجه الخطاب إلى معنى ذكر شركهم وكفرهم وما عبر عنه بقوله: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ﴾ [المؤمنون:٧١] المعنى: فاستاقهم بالحجة إلى ما يقرون به ضرورة ولا يقدرون على إنكاره، حكى ذلك عنهم بقوله: سيقولون [الله][(١)] ضرورة يجدونها من أنفسهم لو يرجعون، فأمر عند ذلك رسوله إن لم يفوهوا بها بأن يقول لهم: أفلا تذكرون أن من له الأرض ومن فيها ملك له عباد [له][(٢)] مدبرون بتدبيره، ليس [لها][(٣)] مالك سواه ولا خالق غيره، أوجدهم عن عدم، [أفيعجزه][(٤)] جمع ما فيها إذا شاء ذلك، أفلا تذكرتم بالنشأة الأولى النشأة الآخرة فقضيتم بصحتها أولاً على صحة وجودها آخرًا.

وعلى القول بالتحقيق فإنها نشأة أخرى، هذه الأولى آية عليها لكن ليست كهذه، بل تلك أشرف وأكبر وأفخم وأبقى [وأكبر][(٥)]، وعلى سنن النشأ المعهود في العالم و[آية][(٦)] النشأة الآخرة نشأت موجودات الأولى، وهي نشآت كثيرة؛ لأنها جارية على سنة وتراخٍ في التكوين، والنطفة منشأة عن الماء والتراب، والعلقة منشأة عن النطفة، والمضغة منشأة عن العلقة واللحم، [واللحم][(٧)] والعظام منشأة عن المضغة، وكونه منشأ عن ذلك خلقًا آخر نشأ رفيع القدر.

لذلك تبارك - جل ذكره - عند [ذكرها][(٨)] وهي خلق الروح والحركة وظهور الصفات مع ذلك بداء، ثم كونه وليدًا منشأ عن كونه جنينًا، ثم كونه مميزًا متكلمًا يفهم ما يخاطب به منشأ من كونه وليدًا، ثم كذلك نشأت إلى بلوغ الأشد الأقصى، ثم كونه مؤمنًا نشأ من كونه كافرًا، ثم كونه عالمًا نشأ عن كونه مؤمنًا فقط، ثم كونه

(١) ما بين [ ] زيادة من النسخة (خ).
(٢) ما بين [ ] زيادة من النسخة (خ).
(٣) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).
(٤) في النسخة (خ): «أفيعجز».
(٥) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٦) في النسخة (خ): «أنه».
(٧) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).
(٨) في النسخة (خ): «ذكره».

صديقًا [منشأ][1] عن كونه عالمًا، ثم كونه وليًا لله - جل ذكره - نشأ عن ذلك كله، ثم كونه نبيًا، ثم كونه رسولاً لمن شاء الله ذلك له هكذا، فهذه نشآت لهذا الصنف الإنساني كذلك لكل صنف وأمة من الموجودات لو لم تكن منها غير واحدة لكانت كفاية في جواز النشأة الآخرة.

قال الله ﷻ: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح:١٤] وأقسم ﷻ بقوله: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ [الانشقاق:١٩] وهي كلها أطوار ونشآت توجب الإيمان بالإعادة بعد البداية والنشأة الآخرة بعد النشأة الأولى؛ لذلك - وهو أعلم - أعقب بقوله: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الانشقاق:٢٠] أي: بالجؤر إلينا، فافهم رجع الكلام.

ثم قال: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [المؤمنون:٨٦] ثم أخبر عنهم أنهم: ﴿فَسَيَقُولُونَ اللهُ﴾ قال له: ﴿فَقُلْ﴾ لهم ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس:٣١] رب السماوات السبع ورب العرش العظيم ﴿فَذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ﴾ [يونس:٣٢] فاعبدوه واتقوه، ألا تخافون من يملك السماوات والأرض أن يمسك عنكم نفعه بملكه، ويمسك عنكم نعمه ورزقه من السماوات والأرض، وتسخيره إياها لكم رياحها ونجومها وشمسها وقمرها وأفلاكها ونباتها وحيوانها إلى غير ذلك من مخلوقاته، فيطبق عليكم السماء ويخسف بكم الأرض، ويأمر كل شيء سخره لكم، وأنعم عليكم به ونفعكم به أن يقلب ذلك إلى العذاب والهلاك ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس:٣١].

ثم عاد عليهم - عزَّ جلاله - [بالتقرير][2] لهم لو كانوا يعقلون، لكنه كما حجب عنهم خطابه حجب عنهم الإيمان به، وإنما خاطبهم بواسطة رسوله وما وجه إليهم [من][3] وجه خطاب ولا رآهم أهلاً لذلك، كذلك حجتهم عن فهم كلامه والفقه عن حكمته في صنعته - ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه - [قال][4]: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٢) ما بين [ ] بياض في النسخة (غ).
(٣) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).
(٤) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

﴿تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون:٨٨].

فلما أقروا بأنه الله سبحانه وفي كلها [أقروا ضرورة](١) يجدونها من أنفسهم أجاب بقوله الحق: ﴿فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾(٢) [المؤمنون:٨٩] أي: كيف تقلبون عن هذه الحقائق إلى أباطيلكم؟!.

أتبع ذلك قوله الحق: ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ﴾ يعني: الكتاب والنبوة ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [المؤمنون:٩٠] في قولهم المعاند للحق وصفهم رب العزة بالأنداد والأولاد والصاحبة والمثل والشبيه، وما لا يجوز في تعاليه وهو مستحيل في صفاته العلا وأسمائه الحسنى، لو كان ما قالوه - تعالى الله عن ذلك - لوقع [التشاحن والتشاجر](٣) والتمانع، ولعلا بعضهم على بعض سبحانه وله الحمد.

قوله ﷻ: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ [المؤمنون:٩٩] قوله: ﴿رَبِّ﴾ دعائه الواحد الأحد - جل ذكره - وقوله: ﴿ارْجِعُونِ﴾ خطاب لملائكة الموت.

يقول الله ﷻ: ﴿كَلَّا﴾ [إنها](٤) ليس كما ظن [إرجاعًا إلى الدنيا](٥) ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ أي: لا بد له من الندم على ما فرط منه، فيسأل الرجعة لأجل ذلك، فلا يسعف ولا يمكن من ذلك، ثم قال: ﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٠].

سمى الدار الوسطى: برزخًا؛ إذ فيها من الدار الأولى ومن الدار الأخرى كالغبشين في كل واحد منهما بقية الليل ومقدمة النهار، وكبرزخ البحر وهو مرتكص

---

(١) في النسخة (خ): «أمر وضرورة».

(٢) مبالغة في التوبيخ بعد إقرارهم والتزامهم ما يقع عليهم به في الاحتجاج، و«أني» بمعنى: كيف قرر أنهم مسحورون وسألهم عن الهيئة التي سحروا بها؛ أي: كيف تخدعون عن توحيده وطاعته؟ والسحر هنا مستعار، وهو تشبيه لما يقع منهم من التخليط ووضع الأفعال والأقوال غير مواضعها بما يقع من المسحور عبر عنهم بذلك. تفسير البحر المحيط (٢٧٣/٨).

(٣) في النسخة (غ): «التشاح والتشاحن».

(٤) في النسخة (خ): «أي».

(٥) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

العذب والمالح منه، وكالخيف بين السهل والجبل فيه من حزن الجبل وسهولة السهل، وهي مدة لبثهم في التراب بعد الموت لما فيها من عذاب الدنيا، وما ينشأ إليه في تلك؛ لأنها أحق حقيقة في النعيم والعذاب من هذه، كما أن الدار الآخرة أحق حقيقة من هاتين دار الدنيا ودار البرزخ، والبرزخ مختلط الشيئين كبرزخ البحرين واختلاط النهار بالليل إلى غير ذلك من الموجودات.

ومعنى قوله - جل قوله: ﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ﴾ [المؤمنون:١٠٠] لما كانت إلى الدنيا وجوههم وإلى الآخرة ظهورهم صلح ذكر الوراء في هذا الموضع، ألا ترى أنهم قد يحصل لهم العلم بما قد مضى، وأمَّا ما هو آتٍ فهم به جاهلون، والأمام مضاف إليه العلم، والوراء بالضد، ولهذا أكثر ما يأتي هذا الخطاب بذكر الوراء ولا أحسبه إلا لهذه العلة، والله أعلم.

فصل

قال الله - جلَّ من قائل: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ﴾ [المؤمنون:٩٣] المعنى يخاطب في ذلك رسوله ﷺ والذين اتبعوه واقتدوا به داخلون معه في هذا الأمر، وقد كان ذكر الكفار مشركيهم والذين ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا﴾ [الكهف:٤] تعالى الله عما يصفون ومنكري البعث، إلى غير ذلك من أصناف الكفرة والضالين، ورد عليهم بما تقدم ذكره في أثناء السورة من إثبات الوحدانية والنبوة وتحقيق النشأة الآخرة والإعادة بعد البداية.

ثم قررهم على كفرهم [بما][1] هو محصل في ذواتهم حقيقة خلافه الذي هو الحق، ثم تبرأ من جميع ما نسبوه إليه وسبَّح نفسه ﷻ عن ذلك وتعالى علوًّا كبيرًا عن افترائهم، ثم قال على أثر ذلك: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٣] أي: من الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة ﴿فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون:٩٤].

ثم أعقب ذلك قوله الحق: ﴿وَإِنَّا عَلَى أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ * ادْفَعْ

(١) في النسخة (خ): «مما».

بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون:٩٥ - ٩٦] التي هي أحسن الصبر، والسيئة هو ما ظهر من خوفهم وهجرهم، وقد يكون معنى ذلك اعبد ربك وادفع سيئاتك بحسنات تتبعها إياها، كما قال: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر:٩٤] ثم إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ * وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر:٩٧-٩٩].

ثم قال - عز من قائل: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون:٩٧ - ٩٨] همزات الشياطين: ما ينسبونه إلى رب العالمين من قبيح افترائهم، وعظيم ما يأتون به من إلقاء بذلك، ونفث في روع ونحو هذا، وكان رسول الله ﷺ يقول: «**رب أعوذ بك من الشيطان الرجيم من همزه ونفثه ونفخه**»[1] فهمزه: ما يلقيه إلى العبد مما يستعاذ بالله من شره، ونفثه: ذلك في الروع والصدر، ونفخه: هو كبره وما يزينه ويبعث عليه من ذلك.

ثم قال - جلَّ قوله: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون:٩٨] يعني - والله أعلم بما ينزل: الشياطين والكفار من الإنس، وهم شياطين الإنس، وهم الذين يحضرون المحتضر قبيل الموت، وهي ذوات لأهل الكفر وللشياطين، وهم الذين يبعثون مع الدجال - لعنه الله - من هؤلاء وهؤلاء، يدعون الناس إلى الدجال، يبعثون على صور الآباء والأمهات.

قال الله - عزَّ من قائل - في فرعون وآله: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ [القصص:٤١].

وقال رسول الله ﷺ: «**جعل أكلة الربا في سابلة آل فرعون في مسيرهم إلى النار غدوة وعشيًا فيثردونهم بأرجلهم ثردًا**»[2].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١٧/٧)، والبيهقي في الكبرى (٣٤/٢)، وعبد الرزاق (٢٥٧٢)، والحاكم (٨٢٣)، وابن حبان (٢٦٥٣)، وأحمد (٣٩٠٥)، والدارمي (١٢٨٦)، والدارقطني (١١٥٢).

(٢) قال البوصيري في إتحاف الخيرة المهرة (٣٠/١): رواه البزار في مسنده مطولاً جدًّا.

قال الله ﷻ: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ﴾ يعني: [من](١) في البرزخ ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة:٢٧٥].

وقال ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾ [آل عمران:١٣٠] يقول: لا تأكلوا الربا [فتربوا في](٢) بطونكم في البرزخ على ذلك أضعافًا مضاعفة.

قال رسول الله ﷺ: «**ورأيت ناسًا بطونهم أمثال البيوت فيها الحيات ترى من ظاهر بطونهم، فقلت: من هؤلاء؟ قيل لي: هؤلاء أكلة الربا**»(٣) والمراد بهذا كله: أنهم ذوو ذوات وأنفس يتعارفون بينهم، والإنسان مخلوق من مرح ملكي وشيطاني، كذلك جعل له قرين ملكي وقرين شيطاني، فمتى أطاع الملك نسب في البرزخ إلى [الملك وقرن به قرين من الملائكة](٤).

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ [فصلت:٣٠] إلى قوله: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [فصلت:٣١] ومتى أطاع الشيطان نسب في البرزخ إلى الشيطان، فيبعثون مع الدجال من يبعث منهم شياطين في صور الإنس، ويبعث الحزب الصالح ملائكة على صور الإنس.

قال رسول الله ﷺ: «**يبعث مع الدجال ملكان يشبهان نبيين من الأنبياء...**»(٥) [لا ريث](٦) وأمر الله - جلَّ ذكره - نبيه وعباده المؤمنين أن يتعوذوا به من همزات الشياطين في الدنيا ومن أن يحضروهم عند الموت.

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٢) في النسخة (خ): «فتربق».

(٣) أخرجه أحمد (٨٦٢٥)، وابن أبي شيبة (٣٦٥٧٤) وابن ماجة (٢٢٧٣) والبيهقي في الدلائل مطولاً (٢٧٢/٢)، وقال الهيثمي (٦٦/١): فيه أبو الصلت لا يعرف ولم يرو عنه غير علي بن زيد.

(٤) اضطراب فى الأصل تم تصويبه.

(٥) أخرجه أحمد (٢١٩٧٩)، والطبراني (٦٤٤٥)، وقال الهيثمي (٣٤٠/٧): رجاله ثقات وفي بعضهم كلام لا يضر، وابن عساكر (٢٢٩/٢).

(٦) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

قوله ﷻ: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون:١٠١] يقبض الرحمن - جلَّ ذكره - رحمة الرحمانية يومئذٍ ولم يصبهم بعد برحمة اسمه الرحيم، وتبقى الخليقة غير المؤمنين لا أنساب بينهم ولا رحم؛ لذلك ما تضع الحوامل ما حملن وتذهل المراضع عما أرضعن، ويفر المؤمن من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ﴿الأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:٦٧] يتصل لهؤلاء رحم النسب برحم التقوى برحمة الرحمن الرحيم.

وذلك أن رحمة الرحمانية يومئذٍ يقبضها الرحمن - عزَّ جلاله - إلى ما عنده فيرحم بها عباده المؤمنين، فتتأكد الخلة بينهم ويشفع بعضهم لبعض، وينفع بعضهم بعضًا ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٢] يزن لهم وزن فضل، ويحاسبهم حساب يسر ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ يزن لهم وزن عدل ويسومهم سوء الحساب مناقشة ومداقة، ثم يعذبهم لا بد ولا محالة ﴿فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [المؤمنون:١٠٣].

قال رسول الله ﷺ: «من نوقش الحساب هلك»[١].

﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا
تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا
مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ
عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا
حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ [المؤمنون: ١٠٤ - ١١٠].

أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾[٢] [المؤمنون:١٠٤] الكلوح: تقلص الشفاة وانكماشها عن

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٣) ومسلم (٢٨٧٦) والترمذي (٢٤٢٦) والحاكم (٩٣٦) والبيهقي (٢٧٠) وابن راهويه (٩٠٩) وأحمد (٢٤٢٦١) وابن خزيمة (٨٤٩) وابن حبان (٧٣٧٢).

(٢) ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ جملة حالية أو مستأنفة، واللفح: مس لهب النار الشيء، وهو كما قال الزجاج: أشد من النفح تأثيرًا، والمراد: تحرق وجوههم النار، وتخصيص الوجوه بذلك؛ =

مواضعها التي جعل فيها حسنها قبل.

قال الله ﷻ: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص:٤٢] لما لم يوجهوا وجوههم للذي فطرهم ولا أسلموها له لم يجعل لتلك الوجوه حرمة، ولا قضى لها بصيانة، يسحبون في النار على وجوههم، وتضرب الملائكة بالمقامع وجوههم وأدبارهم، ويمشون عليها وتشوه خلقهم، نعوذ بالله من عذاب الله ومن درك الشقاء، ومن شر ما سبقت به المقادير.

﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ
عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا
لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾
فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ
إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ
اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [المؤمنون: ١١١ - ١١٨].

قوله تعالى: ﴿قَالَ كَم لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ [المؤمنون:١١٢] السؤال عن مقدار لبثهم يقتضي معنيين:

=

لأنها أشرف الأعضاء، فبيان حالها أزجر عن المعاصي المؤدية إلى النار، وهو السر في تقديمها على الفاعل ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ متقلصو الشفاة عن الأسنان من أثر ذلك اللفح، وقد صح من رواية الترمذي وجماعة عن أبي سعيد الخدري ؓ عن رسول الله ﷺ أنه قال في الآية: «**تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه، وتسترخي شفته السفلى حتى تضرب سرته**».

وأخرج ابن مردويه والضياء في صفة النار عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ موازينه فَأُوْلَئِكَ هُمُ المفلحون * وَمَنْ خَفَّتْ موازينه فأُوْلَئِكَ الذين خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خالدون * تَلْفَحُ...﴾: «**تلفحهم لفحة فتسيل لحومهم على أعقابهم**» وعن ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما - أن الكلوح: بسور الوجه وتقطيبه. وقرأ أبو حيوة وابن أبي عبلة «كالحون» بغير ألف، جمع: كلح، كحذر. تفسير الألوسي (٢٩١/١٣).

أحدهما: أن يكون عن طول حياتهم في الدنيا.

والآخر: أن يكون سؤالاً عن مقدار لبثهم في التراب حال الموت في البلاء.

أشار إلى الوجه الأول بقوله: ﴿**عَدَدَ سِنِينَ**﴾ [المؤمنون:١١٢].

وأشار إلى الوجه الثاني بقولهم: ﴿**لَبِثْنَا يَوْمًا أو بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ العَادِّينَ**﴾ [المؤمنون:١١٣] أجيبوا ﴿**إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً**﴾ أي: في حياتكم الدنيا ﴿**لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ [المؤمنون:١١٤] أي: ما خلقتم له فعملتم لهذا اليوم.

و[على](١) الوجه الآخر: ﴿**إِن لَّبِثْتُمْ**﴾ أي: في البلاء ﴿**إِلَّا قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ**﴾ أي: في الدنيا ﴿**تَعْلَمُونَ**﴾ [المؤمنون:١١٤] يسر إعادتكم علينا فتؤمنون به وتعملون للقائنا.

ومعنى قولهم: ﴿**لَبِثْنَا يَوْمًا أو بَعْضَ يَوْمٍ**﴾ إن كان جوابهم عن بقائهم في الحياة الدنيا، فاليوم المعني قد يكون ألف شهر أو خمسمائة سنة أو ألف سنة وهذا ممكن، فإنه من مات في بعض النهار وأحيي ليلاً ظن أنه ما بقي في البلاء إلا من وقت من النهار إلى مثله من اليوم الذي [بعده، كما قال ذلك النبي ﷺ الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه: ﴿**قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أو بَعْضَ يَوْمٍ**﴾ [البقرة:٢٥٩] لما توفي في وقت من النهار وأحيي في وقت مثله](٢).

يقول الله - عزَّ من قائل: ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ**﴾ [المؤمنون:١١٥] فكان هذا جوابًا عن كل الوجهين، العبث: كل فعل ليس بمحكم ولا [بحكمة](٣)، والحكمة هنا: هو ما خلق عليه اختلاف الليل والنهار ومجاري الشمس والقمر والنجوم والكواكب والأفلاك، وجميع [موجود حكمته في](٤) إرجاعه أوائل الحكمة على أواخرها، وكذلك جميع ما سخره لعباده من نفعه لهم ودفعه عنهم وشهادة له ودلالة على ما أوجب الإيمان به، ما خلق الله شيئًا دقَّ أو

---

(١) في النسخة (خ): «عن».
(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٣) في النسخة (خ): «لحكمة».
(٤) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

جلَّ إلا لحجة بالغة وحكمة ظاهرة أو باطنة ونعم [سابغات][١]، دلالات على ما هو آتٍ به من الحق الذي يظهره من حكم الآخرة، خبأه في هذه خبئًا وأبطنه فيها إبطانًا.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون:١١٧] البرهان: الوثيقة والشيء المستوثق به، وإنما يكون البرهان ظاهرًا لعباده المخلصين، يقول الله ﷻ: «**إني لأطلع على قلب عبد فأجد الغالب عليه ذكري إلا كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإلا أتجرت له من وراء كل تاجر، ولئن دعاني لأستجيبن له، ولئن سألني لأعطينه**»[٢] فوقوف العبد بحقيقة من [يقين][٣] سره على ما فطر الله عليه المفطورات هو البرهان وهو الموثق.

﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ * فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات:٢٠-٢٣].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ﴾ [النساء:١٧٤ - ١٧٥] هذا للبرهان، ويهديهم إليه صراطًا مستقيمًا هذا للإيمان يهديهم ربهم بإيمانهم.

﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:١١١ - ١١٢].

قال رسول الله ﷺ: «**يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفًا أو سبعمائة ألف، مع كل ألف سبعون ألفًا أو سبعمائة ألف لا حساب عليهم**»[٤].

وقال ﷺ: «**من قال إذا أوى إلى فراشه: اللهم إني وجهت وجهي إليك،**

---

(١) في النسخة (خ): «سابغة».

(٢) أخرجه بنحوه البخاري (٦١٣٧)، وابن حبان (٣٤٧) والبيهقي (٢٠٧٦٩).

(٣) في النسخة (خ): «نفس».

(٤) أخرجه أحمد (٢٢٣٥٧)، والترمذي (٢٤٣٧) وقال: حسن غريب، والطبراني (٧٥٢٠) وابن حبان (٧٢٤٦) والدارقطني في الصفات (٥٠) وابن ماجة (٤٢٨٦) والمحاملي (٦٠).

وألجأت ظهري إليك، وفوضت أمري إليك، رهبة منك ورغبة إليك، لا منجا ولا ملجأ منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت، ونبيك الذي أرسلت، أنت إلهي لا إله إلا أنت، قال: فإن مات من ليلته مات على الفطرة»[1].

وتقدير نظم الآية - والله أعلم بما ينزل: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ الله إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ أي: لا موثق له منه بولاية ولا أمان، ومن لا برهان له به ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ فمفهوم هذا أنه من كان له [به][2] برهان فلا حساب عليه، ثم قال: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون:١١٧].

﴿أُوْلَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي﴾ [العنكبوت:٢٣] ثم البرهان [يدق][3]، والموثق يخفى ويدق في أهل المحاسبة حتى يكون أرفعهم من ﴿يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق:٨ - ٩] وأدناهم: من يخرج من النار؛ لأنه قال: «لا إله إلا الله» بغير عمل عمله ولا قدم قدمه ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ الله وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران:١٦٣].

فصل

قال الله - جلَّ من قائل: ﴿قَدْ أَفْلَحَ المُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون:١] إلى قوله: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون:١٠ - ١١] نظم بهذا قوله - جلَّ ذكره: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون:٥٢].

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون:٥٧-٦٠] إلى قوله: ﴿سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون:٦١].

ثم ذكر في أثناء ذلك آياته في الخلقة والإعادة بعد البداية وآياته في السماء

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٤)، ومسلم (٢٧١٠)، وأبو داود (٥٠٤٦)، والترمذي (٣٣٩٤) والنسائي في الكبرى (١٠٦١٨)، وأحمد (١٨٥٨٤)، وابن خزيمة (٢١٦)، وابن ماجة (٣٨٧٦).

(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٣) في النسخة (خ): «ترق».

والأرض والحيوان وجميع الموجودات، ثم آياته [في][1] الرسالة والنبوة والمرسلين والمرسل إليهم، وآياته فيمن كذب فهلك وفيمن آمن فنجى.

إلى قوله: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون:٥٢] ثم تداخل الخطاب، و[انثنى][2] بعضه على بعض؛ لتداخل المعاني، و[انثناء][3] بعضها على بعض من محاجة وجدل وتبيان مراد وتعداد نعم.

إلى قوله - جلَّ قوله: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ * قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ [المؤمنون:٨١ - ٨٢] ﴿وَآبَاؤُنَا﴾ [المؤمنون:٨٣] ثم ردَّ قولهم بما اضطرهم إلى الإقرار به وكسر حججهم بما يتناقضوا به في مذاهبهم وبين تكذيبهم أنفسهم بسوء معتقدهم، ثم تنزه العلي الأعلى عن قبيح افترائهم.

وبعد هذا أمر نبيه بالتعوذ من الشيطان الرجيم وهمزاته وشنيع ما يلقيه إلى قلوب أوليائه وعظيم كفرانه، وأمره مع ذلك بالتعوذ من أن يحضرونه عند الموت أو في دار البرزخ، وأعلم بخفي الخطاب أن دار البرزخ وما فيها من نعيم أو عذاب ومنعمين ومعذبين من أمر ممتزج من معنى الدارين، وأن آخر حد تلك الدار يوم البعث، وأن في ذلك اليوم يتحقق ظاهر هاتين وباطنهما، ويجتمع إلى ما في هنالك، وأعلم بالحساب وثقل الوزن وخفته، وذكر بأهل النار وأحوالهم.

ثم ذكر بعباده المخلصين الذين بدأ بهم في صدر السورة، وثنى ذكرهم في أثنائها على ذكر الضالين والمكذبين، ثم ختم بقوله: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ [المؤمنون:١١٧] إلى آخر [المعنى][4] السورة.

وقرأ ابن [محيصن][5]: «رب العرش الكريم» بالرفع وصفًا له ﷻ.

---

(١) في النسخة (خ): «على».
(٢) في النسخة (خ): «انبنى».
(٣) في النسخة (خ): «انبناء».
(٤) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).
(٥) في النسخة (خ): «محيص».

تفسير سورة النور[1]

[مدنية][2]

بسم الله الرحمن الرحيم

---

(١) هذه السورة مدنية بلا خلاف، ولما ذكر تعالي مشركي قريش ولهم أعمال من دون ذلك أي أعمال سيئة هم لها عاملون، واستطرد بعد ذلك إلى أحوالهم، واتخاذهم الولد والشريك، وإلى مآلهم في النار كان من أعمالهم السيئة أنه كان لهم جوارٍ بغايا يستحسنون عليهن ويأكلون من كسبهم من الزنا، فأنزل الله أول هذه السورة تغليظًا في أمر الزنا وكان فيما ذكر وكأنه لا يصح ناس من المسلمين هموا بنكاحهن، وقرأ الجمهور (سورة) بالرفع فجوّزوا أن يكون خبر مبتدأ محذوف أي هذه (سورة) أو مبتدأ محذوف الخبر، أي فيما أوحينا إليك أو فيما يتلى عليكم، وقال ابن عطية: ويجوز أن يكون مبتدأ أو الخبر (الزانية والزاني) وما بعد ذلك، والمعنى السورة المنزلة والمفروضة كذا وكذا إذ السورة عبارة عن آيات مسرودة لها بدء وختم إلّا أن يكون المبتدأ ليس بالبين أنه الخبر إلّا أن يقدر الخبر في السورة كلها وهذا بعيد في القياس و(أنزلناها) في هذه الأعاريب في موضع الصفة، وقرأ عمر بن عبد العزيز ومجاهد وعيسى بن عمر الثقفي البصري وعيسى بن عمر الهمداني الكوفي وابن أبي عبلة وأبو حيوة ومحبوب عن أبي عمرو وأمّ الدرداء (سورةً) بالنصب فخرج على إضمار فعل أي أتلو سورة و(أنزلناها) صفة، قال الزمخشري: أو على دونك (سورة) فنصب على الإغراء، ولا يجوز حذف أداة الإغراء وأجازوا أن يكون من باب الاشتغال أي أنزلنا (سورة أنزلناها) فأنزلناها مفسر لأنزلنا المضمرة فلا موضع له من الإعراب إلّا أنه فيه الابتداء بالنكرة من غير مسوغ إلّا إن اعتقد حذف وصف أي (سورة) معظمة أو موضحة (أنزلناها) فيجوز ذلك، وقال الفراء: (سورة) حال من الهاء والألف والحال من المكنى يجوز أن يتقدّم عليه، فيكون الضمير المنصوب في (أنزلناها) ليس عائدًا على (سورة) وكان المعنى أنزلنا الأحكام (وفرضناها) سورة أي في حال كونها سورة من سور القرآن، فليست هذه الأحكام ثابتة بالسنة فقط بل بالقرآن، والسنة، وقرأ الجمهور (وفرضناها) بتخفيف الراء أي فرضنا أحكامها وجعلناها واجبة متطوّعاً بها، وقيل: وفرضنا العمل بما فيها، وقرأ عبد الله وعمر بن عبد العزيز ومجاهد وقتادة وأبو عمرو وابن كثير بتشديد الراء إما للمبالغة في الإيجاب، وإما لأن فيها فرائض شتى أو لكثرة المفروض عليهم، قيل: وكل أمر ونهي في هذه السورة فهو فرض. انظر: [تفسير البحر المحيط (٨/٢٨٢)].

(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١) الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣) وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥)﴾ [النور: ١ - ٥].

قوله تعالى: ﴿سورة أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾ [النور:١] يقول وهو [الله][1] أعلم: أوجبنا ما فيها عليكم، فعلى ظاهر هذا الخطاب جميع ما حوته من أمر ونهي، وخطاب على وجوهه واجب امتثاله، واختلف منها في قوله: ﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور:٣٣] أواجب هو إعطاء المكاتب بعد قضاء كتابته أم لا؟ وهو خطاب مجمل كقوله: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام:١٤١] والأوجه أن يكون واجبًا إعطاؤه، وإنما أنزله إلى معنى الندب من شبهه بالمتعة للزوجات ممن لم يرَ المتعة على المطلق فرضًا، وعموم قوله في قوله: ﴿سورة أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾ [النور:١] يتناول جميع ما جاء فيها في لحاق الفرض والوجوب دون استثناء.

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور:١] هذه الآيات هي من لدن قوله الحق: ﴿اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [النور:٣٥] إلى قوله: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ﴾ [النور:٤٦] ﴿وَاللهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة:٢١٣] وهو من القرآن العظيم؛ ولذلك نبه عليه - وهو أعلم - وسيأتي ذكرها على نسقها إن شاء الله، والسورة كلها آيات مبينات، والقرآن كله كذلك، قد تقدم الكلام في قوله تعالى: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أو مُشْرِكَةً...﴾ [النور:٣].

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ

(١) ما بين [ ] زيادة من النسخة (خ).

إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [النور: ٦ - ١٠].

قوله تعالى بعد آيات الملاعنة: ﴿وَلَوْلا فَضْلُ الله عَلَيْكُم وَرَحْمَتُهُ﴾ أي: بالستر والإمهال ﴿وَأَنَّ اللهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ [النور:١٠] يعرض بالتوبة، يقول - وهو أعلم: لعاجل الجاني بالعقوبة أو ما كان في معنى هذا الحكم في صنعه وحكمه بين عباده.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [النور: ١١ - ١٥].

قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾(١) [النور:١١] المعنى:

---

(١) سبب نزول هذه الآية: ما روي عن عروة بن الزبير وسعيد بن المسيب وعلقمة بن وقاص وعبيد الله ابن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن السيد عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ حين قال لها أهل الإفك ما قالوا وكلهم حدثني طائفة من حديثها وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض وأثبت له اقتصاصًا وقد وعيت عن كل رجل منهم الحديث الذي حدثني عن عائشة وبعض حديثهم يصدق بعضًا، قالوا: قالت عائشة: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفرًا أقرع بين أزواجه وأيهن خرج سهمها خرج بها النبي ﷺ معه قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج فيها سهمي فخرجت مع رسول الله ﷺ بعدما أنزل الحجاب فكنت أحمل في هودج وأنزل فيه فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقفل ودنونا من المدينة قافلين آذن ليلة بالرحيل فقمت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش =

فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي فلمست صدري فإذا عقد لي من جزع ظفار قد انقطع؛ فرجعتُ فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه، قالت: وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بي فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب عليه وهم يحسبون أني فيه وكان النساء إذ ذاك خفافًا لم يهبلن ولم يغشهن اللحم إنما يأكل العلقة، من الطعام فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه، وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل وساروا ووجدت عقدي بعدما استمر الجيش فجئت منازلهم وليس بها منهم داع ولا مجيب فتيممت منزلي الذي كنت به وظننت أنهم سيفقدونني فيرجعون إلي فبينما أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني من وراء الجيش؛ فأصبح عند منزلي فرأى سواد إنسان نائم فعرفني حين رآني وكان رآني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني، فخمرت وجهي بجلبابي، ووالله ما تكلمنا بكلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، وهوى حتى أناخ راحلته فوطئ على يدها، فقمت إليها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش موغرين في نحر الظهيرة وهم نزول، قالت: فهلك من هلك، وكان الذي تولى كبر الإفك عبد الله بن أبي بن سلول، قال عروة أخبرت أنه كان يشاع ويتحدث به عنده فيقره ويستمعه ويستوشيه، وقال عروة أيضًا: لم يسم من أهل الإفك أيضا إلا حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش في ناس آخرين لا علم لي بهم غير أنهم عصبة، كما قال الله تعالى ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ﴾ قال: عبد الله بن أبي بن سلول، قال عروة: كانت عائشة تكره أن يسب عندها حسانُ، قالت عائشة: فقدمنا المدينة، فاشتكيت حين قدمت شهرًا، والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك لا أشعر بشيء من ذلك، وهو يريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل عليّ رسول الله ﷺ فيسلم ثم يقول كيف تيكم؟ ثم ينصرف، فذلك يريبني ولا أشعر بالشر حتى خرجت حين نقهت، فخرجت مع أم مسطح قبل المناصع وكان متبرزنا، وكنا لا نخرج إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكُنف قريبًا من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأول في التبرز قبل الغائط، وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا، قالت: فانطلقتُ أنا وأم مسطح - وهي ابنة أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب، فاقبلت أنا وأم مسطح قبل بيتي حين فرغنا من شأننا، فعثرت أم مسطح في مرطها، فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: بئس ما قلت أتسبين رجلا شهد بدرًا؟ فقالت: أي هنتاه أو لم تسمعي ما قال؟ قالت فقلت: ما قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك، قالت فازددت مرضًا على مرضي، فلما رجعت إلى بيتي دخل علي رسول الله ﷺ ثم قال: كيف تيكم؟ فقلت له: أتأذن لي أن آتي أبوي؟ قالت: وأنا أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما، قالت: فأذن لي رسول الله ﷺ فقلت لأمي: يا أمتاه ماذا يتحدث الناس؟ فقالت: يا بنية هوني عليك فوالله لقل ما كانت امرأة قط رضية عند رجل يحبها لها ضرائر إلا أكثرن عليها، قالت فقلت: سبحان الله أو لقد تحدث الناس بهذا؟ قالت:
=

=

فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت أبكي، قالت: ودعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يسألهما ويستشيرهما في فراق أهله، فأما أسامة فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله وبالذي يعلم لهم في نفسه، فقال أسامة: أهلك ولا نعلم إلا خيرًا، وأما علي فقال: يا رسول الله لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير، وسل الجارية تصدقك، قالت: فدعا رسول الله ﷺ بريرة، فقال: أي بريرة هل رأيت من شيء يريبك؟ قالت له بريرة: والذي بعثك بالحق ما رأيت عليها أمرًا قط أغمضه أكثر من أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله، قالت: فقام رسول الله ﷺ من يومه فاستعذر من عبد الله بن أبي وهو على المنبر، فقال: يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني عنه أذاه في أهلي، والله ما علمت على أهلي إلا خيرًا، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيرًا وما يدخل على أهلي إلا معي، قالت: فقام سعد بن معاذ أخو بني عبد الأشهل، فقال أنا يا رسول الله أعذرك فإن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك، قالت: وقام رجل من الخزرج وكانت أم حسان بنت عمه من فخذه وهو سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج، قالت: وكان قبل ذلك رجلاً صالحًا ولكن احتملته الحمية فقال لسعد: كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله، ولو كان من رهطك ما أحببت أن يقتل، فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتلنهُ فإنك منافق تجادل عن المنافقين، قالت: فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ قائم على المنبر، قالت: فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت، قالت: فبكيت يومي ذلك كله لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم قالت وأصبح أبواي عندي، وقد بكيت ليلتين ويوما لا أكتحل بنوم ولا يرقأ لي دمع حتى إني لأظن أن البكاء فالق كبدي فبينا أبواي جالسان عندي، وأنا أبكي فاستأذنت عَلَيّ امرأة من الأنصار فأذنت لها، فجلست تبكي معي، قالت: فبينما نحن على ذلك دخل رسول الله ﷺ علينا فسلم ثم جلس، قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها، وقد لبث شهرًا لا يوحى إليه في شأني بشيء، قالت: فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال: أما بعد يا عائشة فإنه بلغني عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف ثم تاب تاب الله عليه، قالت: فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته فاض دمعي حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي أجب رسول الله ﷺ فيما قال، فقال أبي: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ فقلت لأمي: أجيبي رسول الله ﷺ فيما قال، فقالت أمي: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ من القرآن كثيرًا: إني والله لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم إني بريئة لا تصدقوني، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني منه بريئة لتصدقني، فوالله لا أجد لي ولكم مثلاً إلا قول أبي يوسف حين قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ ثم تحولت

=

الإفك: الكذب، وأصله من التأفيك، أفكت الشيء: قلبته، ومن ذلك المؤتفكات مدائن قوم لوط عليه السلام [وهذا قلب][1] عن الحق إلى ما ليس به وهو الكذب.

ومنه قوله ﷻ: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ آيَاتِ اللهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ [الجاثية:٧-٩] فهذا قلب الحق باطلاً، والجد والقول الفصل هزوًا، والعصبة: ما بين العشرة إلى الأربعين، ولا يقال لما دون العشرة: عصبة، وما كان أقل من عشرة فهم نفر.

وقال في الذين جاءوا بالإفك: إنهم ﴿عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ [النور:١١] ولم يخرجهم من جملة المؤمنين، وقال: عصبة، ولم يسمهم وهو المحيط بعلمهم، كذلك فعل

=

واضطجعت على فراشي وأنا أعلم والله يعلم أني حينئذ بريئة، وأن الله مبرئي ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن الله منزل في شأني وحيًا يتلى، لشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله في بأمر، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها، فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه الوحي فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء حتى إنه ليتحدر منه العرق مثل الجمان، وهو في يوم شات، من ثقل القول الذي أنزل عليه، قالت: فسري عن رسول الله ﷺ وهو يضحك فكانت أول كلمة تكلم بها أن قال: يا عائشة أما والله فقد برأك الله، قالت: فقالت لي أمي: قومي إليه فقلت: والله لا أقوم إليه فإني لا أحمد إلا الله، قالت: وأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ العشر الآيات، فلما أنزل الله في براءتي قال أبو بكر الصديق، وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره: والله لا أنفق على مسطح شيئًا أبدًا بعد الذي قال لعائشة ما قال، فأنزل الله: ﴿وَلا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ إلى قوله: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قال أبو بكر الصديق: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبدًا، قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحش عن أمري فقال لزينب: ماذا علمت أو رأيت؟ فقالت: يا رسول الله أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت إلا خيرًا، قالت عائشةُ وهي التي تساميني من أزواج النبي ﷺ فعصمها الله بالورع، قالت: وطفقت أختها حمنة تحارب لها فهلكت فيمن هلك، قال ابن شهاب: فهذا الذي بلغني من حديث هؤلاء الرهط، قالت عائشة: والله إن الرجل الذي قيل له ما قيل ليقول: سبحان الله فوالذي نفسي بيده ما كشفت عن كنف أنثى قط قالت: ثم قتل بعد ذلك في سبيل الله.... انظر [تفسير البغوي (١٨/٦)].

(١) في النسخة (خ): «وهو أقلب».

رسول الله ﷺ لما أكثروا في ذلك، ومضت لذلك مدة، فصعد المنبر وقال: «**من يعذرني من قوم آذوني في أهلي واتهموهم بما ليس فيهم...**»(١) ولم يسمِّ أحدًا حتى قام سعد بن معاذ فقال: أخبرنا بهم يا رسول الله، فإن كانوا من الأوس ضربنا أعناقهم، وإن كانوا من الخزرج أمرتنا فيهم بأمرك ففعلناه، وثار حينئذٍ بينهم خلاف، ولم يسمِّ أحدًا، وهذا هو الأدب والورع.

قوله تعالى: ﴿**لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا**﴾ [النور:١٢] صرف وجه الخطاب إلى المؤمنين الذين كانوا يصغون إلى خوض الخائضين في الإفك، يقول لهم: هلا إذ سمعتموه ظننتم بالمؤمنين خيرًا، فصرفتم عنهم قول السوء، وقلتم لأنفسكم ولمن تسمعونه منهم: ﴿**هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ**﴾ [النور:١٢] انعقد العقد في المؤمن أنه مؤمن حق، فلا يخرجه عن ذلك قول قائل وإن كثرت المقالات إلا بمعاينة أو إقرار منه، ثم إن تحصلت المعاينة فيتوجه حينئذٍ وجوب الستر عليه للمؤمن والنصيحة له فيما بينه وبينه.

ثم إن تحقق منه عصيان فوجب عليه حد من الحدود أقيم عليه، ومع هذا فلا يخرجه عن المعهود منه الذي هو الإيمان إلا الردة، ونهى المؤمنون عن التحسس والتجسس، فمتى اتفق أربعة رجال عدول عثروا على زانيين والفرج في الفرج، وعاين كل واحد منهم ذلك عيانًا، لا يشك في المشاهدة توجه عليهم أداء الشهادة عند السلطان إن حضر رافع يرفعها إليه سواهم، وإلا كانوا في موضع الحاجة إلى من يشهد لهم بتحقق ما رفعوه وذكروه عنهما، هكذا هي [حرمة المؤمن](٢) من حيث هو مؤمن، يقول الله - جلَّ من قائل: ﴿**لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُوْلَئِكَ عِندَ الله هُمُ الكَاذِبُونَ**﴾ [النور:١٣].

قوله تعالى: ﴿**وَلَوْلا فَضْلُ الله عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ**﴾ [النور:١٤]

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥١٨)، ومسلم (٢٧٧٠)، وأحمد (٢٦٣٧١)، وعبد الرزاق (٤١٥/٥)، والطبراني (٣٦١/١٦) بلفظ: «**يا معشر المسلمين، من يعذرني من رجل قد بلغني عنه آذاه في أهلي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرًا، لقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيرًا، وما كان يدخل على أهلي إلا معي**».

(٢) في النسخة (غ): «حرمته».

أعلمهم - جل ذكره - بسابقة ما سبق لهم في القدم من فضله ورحمته، لولا ذلك لأصابهم مثل ما أصاب به الذي تولى كبره [منهم][(١)]، قيل: هو عبد الله بن أبي بن سلول المنافق، وعطف بالواو [في قوله: ﴿وَلَوْلَا﴾ في هذه الآية، وفي التي نزلت في المتلاعنين، المراد بالواو][(٢)] العاطفة فيهما: عطف الحكم منه فيهم على الحكم الذي جعله بين العباد بعضهم مع بعض.

يقول - جلَّ قوله وتعالى جده - يخاطب المؤمنين: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾[(٣)] «إذ» هنا منتظمة بإصابته إياهم بعذابه لولا رحمته بهم وفضله عليهم، ثم قال: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ الله عَظِيمٌ﴾ [النور:١٥] أعلم - جلَّ ذكره - أن أحدًا لا يأخذ في عرض أخيه إلا عن جهل بقدر ما أتاه من ذلك، والمؤمن حرمة من حرمات الله تعالى فذلك عنده عظيم.

﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٢) ما بين [ ] غير واضح من النسخة (غ).

(٣) ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ الظرف منصوب بـ«مسكم» أو بـ«أفضتم». قرأ الجمهور: «إِذْ تَلَقَّوْنَهُ» من التلقي، والأصل: تتلقونه، فحذف إحدى التاءين. قال مقاتل ومجاهد: المعنى: يرويه بعضكم عن بعض. قال الكلبي: وذلك أن الرجل منهم يلقى الرجل فيقول: «بلغني كذا وكذا» ويتلقونه تلقيًا. قال الزجاج: معناه: يلقيه بعضكم إلى بعض. وقرأ محمد ابن السميفع بضم التاء وسكون اللام وضم القاف، من الإلقاء، ومعنى هذه القراءة واضح. وقرأ أبيّ وابن مسعود «تتلقونه» من التلقي، وهي كقراءة الجمهور. وقرأ ابن عباس وعائشة وعيسى بن عمر ويحيى بن يعمر وزيد بن عليّ بفتح التاء وكسر اللام وضم القاف، وهذه القراءة مأخوذة من قول العرب، ولق يلق ولقًا: إذا كذب. قال ابن سيده: جاءوا بالمعتدي شاهدًا على غير المعتدي. قال ابن عطية: وعندي أنه أراد يلقون فيه، فحذف حرف الجرّ، فاتصل الضمير. [فتح القدير (١٩٥/٥)].

رَءُوفٌ رَحِيمٌ (٢٠)﴾ [النور:١٦ - ٢٠].

يقول ﷻ: ﴿**وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا**﴾ هلا تورعتم عن التورط في مثل هذه العظيمة؛ إذ جهلتم مقدارها، قوله تعالى: ﴿**سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ**﴾ [النور: ١٦] سبحانه وله الحمد في السماوات والأرض، كما قال في شأنه العلي الكبير: ﴿**سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾ [الصافات:١٥٩] مولى القوم منهم، ولما كان المؤمن عبدًا لله - جل ذكره - وهو العزيز الجبار الرفيع الدرجات، كان الله المولى الأعلى وعبده المولى الأسفل، حمى عرضه هذه الحماية.

قال الله - جل ذكره: ﴿**لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ**﴾ [آل عمران:٢٨] أي: بمعنى الموالاة والعبودية.

ويقول ﷻ: «**ابن آدم، مرضت فلم تزرني، وجعت فلم تطعمني، وظمئت فلم تسقني**» إلى قوله: «**أما إنك لو فعلت ذلك لعبدي فعلته بي**»[(١)].

ويقول - ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه: «**إني لأطلع على قلب عبد فأجد الغالب على قلبه ذكري إلا كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به...**»[(٢)].

ومن هذا قول رسول الله ﷺ: «**مولى القوم منهم**»[(٣)].

وقال لجعفر: «**أنت مني وأنا منك**»[(٤)] وقال مثلها لعلي.

وقال [لجعفر: «**أنت مني وأنا منك**»[(٥)] وقال مثلها لعلي][(٦)] وقال لأسامة: «**أنت**

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٩)، وابن حبان (٢٦٩)، وأحمد (٩٤٨٠).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري (٦٣٨٠) وأبو داود (١٦٥٠) والنسائي (٢٦١٢) والبيهقي (٢٦٨٧) والطيالسي (٩٧٢) وأحمد (٢٧٢٢٦) وابن خزيمة (٢٣٤٤) وابن حبان (٣٢٩٣) والطبراني (١٢٠٥٩) والحاكم (١٤٦٨) والقضاعي (٩٨٨)، والروياني (٧٣١)، وابن عساكر (٢٨٤/٤).

(٤) أخرجه البُخَارِي (١٨٤٤)، وأحمد (١٨٨٣٨)، والدارمي (٢٥٠٧)، والتِّرمِذِيّ (١٩٠٤)، والنَّسائي في الكبرى (٨٤٠١).

(٥) أخرجه البخاري (٢٦٩٩)، والترمذي (٤٠٨١)، وأحمد (٩٤٣)، وابن أبي شيبة (٣٢٢٠١)، والبيهقي (٢٠٨١٦).

(٦) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

سيدنا ومولانا»[١] [أي: سيدنا][٢] يعني - والله أعلم: المؤمنين هو من ساداتهم ومولانا؛ يعني: النبي وبيته.

أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿**يَعِظُكُمُ اللهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ [النور:١٧] موضع الموعظة هنا هو إعلامه إياهم بقرب المؤمن منه ومنزلته عنده، فمن كان مؤمنًا فلا يُصغي لمثلها بعد هذا ولا يشايع في ذلك، فإنه قد جاء في الثابت عن رسول الله ﷺ أنه قال مُبلِّغًا عن ربه ﷻ: «**من آذى لي مؤمنًا فليأذن مني بالمحاربة**»[٣].

وفي مفهوم قوله: ﴿**إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ [النور:١٧] عزله عن منزلة المؤمن [المطلق][٤] كما قال: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ولا ينتهب...**»[٥] أي: ليس بالمؤمن المطلق عليه اسم [المؤمن][٦] الذي يحميه الله هذه الحماية، فإنه قد جاء عن أبي ذر - رحمه الله - عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**جاءني جبريل فأخبرني وقال: بشِّر أمتك أنه من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة، وإن زنا وإن سرق، قلت: وإن زنا وإن سرق؟ قال: وإن زنا وإن سرق**»[٧] فهذا مؤمن [مقيد][٨] اسم الإيمان عليه، معرض للحدود والوقوف [للمحاقة][٩] إلا أن يعفو الكريم بفضله.

---

(١) لم أقف عليه .

(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٣) أخرجه بنحوه الطبراني (٣٢١)، وابن ماجة (٣٩٨٩) والحاكم (٧٩٣٣) وقال: صحيح الإسناد، والبيهقي (٦٨١٢).

(٤) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٥) أخرجه البخاري (٢٣٤٣)، ومسلم (٥٧)، والنسائي (٤٨٧٠)، وابن ماجة (٣٩٣٦)، وعبد الرزاق (١٣٦٨٤)، والطيالسي (٨٢٣)، وأحمد (١٩١٢٥)، وعبد بن حميد (٥٢٥)، والحكيم (٢٦٩/١)، والبيهقي (٥٤٩٧) بنحوه.

(٦) في النسخة (خ): «الإيمان».

(٧) أخرجه البخاري (٦٤٤٣) وأحمد (٢١٤٧١) ومسلم (٩٤) والترمذي (٢٦٤٤) والنسائي في الكبرى (١٠٩٥٥) وابن حبان (١٧٠) والبزار (٣٩٨١) وابن منده في الإيمان (٨٢).

(٨) في النسخة (خ): «معيد».

(٩) في النسخة (خ): «للمخافة».

أتبع ذلك قوله: ﴿وَيُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور:١٨] الآيات المشار إليها هن ما تقدم ذكره، وما كان من معنى ذلك، والله عليم بما ينزل، حكيم فيما يحكم به ويصنعه.

أتبع ذلك ما هو في معناه ومتمم له قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [النور:١٩] أي: لأنهم آمنوا كما قال: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِالله العَزِيزِ الحَمِيدِ﴾ [البروج:٨].

﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ [النور:١٩] هذا منتظم بقوله: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور:١١].

ثم صرف وجه الخطاب إلى المؤمنين بقوله: ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور:١٩] يعلم بقرب المؤمن من ربه ومنزلته لديه وكرامته عليه، وكيف وبم ولِمَ وأنتم لا تعلمون؟ كيف يعلم من قصر فهمه عن مراد ربه في عبده، فقصر في [ائتماره][١] وأداه واتخذه سخريًا وهزوًا ومن طغى وعلا فيه، فعاد بذلك خصيمًا مبينًا يعتقده ويدعو إليه؛ [لكن][٢] ظنه في المعني بذلك ورأي رآه ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر:٦٧].

أتبع ذلك قوله: ﴿وَلَوْلا فَضْلُ الله عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ [النور:٢٠] هذا منتظم المعنى بمعنى [مخاطبه][٣] المقذوف بالإفك، قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النور:١١] يقول لهم، وهو أعلم بما ينزل: ﴿وَلَوْلا فَضْلُ الله عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ بكم في تحبيبه الإيمان إليكم، وتزيينه في قلوبكم، وتكريه الكفر والفسوق والعصيان إلى نفوسكم، لكان غير ما ترونه من التوفيق والعصمة ﴿وَأَنَّ اللهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور:٢٠] كما قال: ﴿وَإِنَّ اللهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد:٩] ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣].

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٢) في النسخة (خ): «لظن».

(٣) في النسخة (خ): «مخاطبته».

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢) إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣)﴾ [النور: ٢١ - ٢٣].

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ [النور:٢١] المعنى: كان الكلام فيما مضى عن أهل العلية من المؤمنين وفي أهل الإذاية لهم، فكانت الحماية والمحافظة على ما تقدم إلماع إليه.

وهنا خطابه المراد الأول به: عموم المؤمنين.

والمراد الثاني: التعريض لأهل العلية الذين قال الله ﷻ فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر:٤٢] أعلمهم ﷻ بأنه من يتبع خطوات الشيطان فإن الشيطان ﴿يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [النور:٢١] ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال:٤٢].

ثم قال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ الزكاء: عبارة عن دخول العبد في السلم كافة، وترك المناهي قطعًا إلا ما شاء الله، وتعقيب ذلك بالتوبة النصوح، ثم قال: ﴿وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور:٢١] سميع للدعاء والتضرع إليه، [عليم بما يعملون][(١)] بحيث يجعل ولايته أعلم بهذا أن الدعاء إليه وطلب العصمة طريق إلى [منال][(٢)] الولاية الكبرى.

قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ﴾[(٣)] أي: عن طلب

(١) في النسخة (خ): «بما علمتم عليم».
(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٣) يجوز أن يكون المراد بـ﴿الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ﴾ عبد الله بن أبي بن سلول وحده، فعبر عنه بلفظ الجمع؛ لقصد إخفاء اسمه تعريضًا به، كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ

مغائب الناس ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾ هن اللاتي أمنت بوائقهن ﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ [النور:٢٣] أرجع الخطاب إلى معنى آية القذف، والذي كان اللعان من أجله، والإفك [أرى][1] هذا الوعيد متوجه على الذين جاءوا بالإفك وتولوا كبره.

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [النور: ٢٤ - ٢٧].

دلَّ على ذلك قوله ﷻ: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور:٢٤] إلى قوله: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ المُبِينُ﴾[2] [النور:٢٥]

= قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ [آل عمران:١٧٣] وقول النبي ﷺ: «ما بال أقوام يشترطون شروطاً ليست في كتاب الله». التحرير والتنوير (٩/٤٦١).

(١) ما بين [ ] غير واضح في النسخة (غ).

(٢) قال المصنف: فصل في الشهادة بقوله: ﴿ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾ أجمعت الخليقة قاطبة على أن الله هو الحق إجماعًا تامًا، وأصفقت الجملة على ذلك إصفاقًا كاملاً، والكل له من أجل ذلك قانت ومسبح وحامد وساجد، فإنه لما خلق الخلق يوم خلقه عرَّفه نفسه فعرف ربوبيته معرفة لا ينبغي له أن ينكرها بعدها أبدًا، وذل له الخلق يومئذ ذلاً لا ينبغي له أن يعتز بعده أبدًا، ودخله من الخشية يومئذ ما لا ينبغي له أن يخرج منه بعد ذلك أبدًا، وأقر له بالمملكة يومئذ إقرارًا لا ينبغي له أن ينكره ولا يستنكف عن عبادته بعدها أبدًا، ثم صارت تلك المعرفة وراثة فيما يكون من النسل بعد ذلك إلى يوم القيامة، ثم تفرقت الطرق بالمكلفين في سبل الأمر والنهي بواسطة الإرادة لعلة الابتداء لتحق كلمته ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:١١٩] وإنما خرق ذلك الإجماع عقل قاصر، وهوى متبع، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، ولفظه الحق يعبر بها عن معنى هو جماع كل شيء، وعلى هذا =

الحق المبين هو الله لا إله إلا هو، المتجلي لهم في الدار الآخرة، وسمي بالمبين؛ لأنه بيَّن بظهوره هنا هذا الحق المخلوق به السماوات والأرض، الذي هو صراط الإسلام والإيمان [فيما هنا][(١)] ينشأ إلى رؤية الحق السلام المؤمن المهيمن العلي الكبير، [فافهم واعبر][(٢)] تصب البغية إن شاء الله.

قوله تعالى: ﴿الخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ [النور:٢٦] يمكن أن يكون معنى هذا الخبيثات من المقالات للخبيثين من الرجال فيكون هذا تعريضًا بالذي تولى كبر الإفك، ويمكن أن يكون المراد بذلك الأعمال أيضًا فيكون معنى الكلام: ﴿كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء:٨٤].

والقول الخبيث والعمل [الفشل][(٣)] لا يعلق بالمؤمن الطاهر ولا بالمؤمنة الطاهرة، فيكون المراد الأول بهذا عائشة وصفوان بن المعطل - رضي الله عنهما - ثم الأزكياء من المؤمنين والمؤمنات، ويمكن أن يكون المراد عائشة ورسول الله ﷺ

=

تكون الشهادة بذلك، أما الشهادات وقد تقع العبارة بها أيضًا على أنه موجود، وإياه نعني بكلامنا هذا فآية وجوده ﷻ وجود الفعل، فما من موجود دق أو جل ظهر أو بطن إلا هو آية على وجوده تحقيق حق وإثبات ثبت ولزوم قطع من حيث لزوم الفعل عن الفاعل، والضرب عن الضارب لم تجد العقول قط فعلاً لا عن فاعل، ولا صنعة لا من صانع ثم شهدت الخليقة له بعد تمهيد هذه الشهادة شهادة كاملة بالحق الذي أودعها واستخلفه فيها، فهذا المعنى بالحق محيط بالموجود وفيه وهو الذي يكلم العقول من الموجودات، ويشير إليها ويدل على جاعله فيها بما فيها من آثاره ووجوده، فتلقن عنه الألباب وتصدقه العقول؛ لأنها منه وهو لها أول وبينه وبينها رحم وأشجة وقرابة قريبة، وهو بمنزلة النطفة في أوليته أو كالبذرة في بدو العالم وجبلته وفطرته، فلا تزال تنشأ بإنشاء المنشئ الحق جاعله - جل ذكره - حتى تظهر في أعلام العالم ورءوسه، فيعرب عن نفسه، وعن هذا المعنى العبارة بقوله ﷻ: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الجاثية:٢٢] وكثير نظائر هذا في القرآن العزيز. [شرح الأسماء ٢/٢١].

(١) في النسخة (خ): «فيها ها هنا».

(٢) في النسخة (غ): «واعتمد فاعبر».

(٣) ما بين [ ] غير واضح في النسخة (غ).

ثم أهل الزكاء والطهارة من المؤمنين والمؤمنات، ويكون هذا في المعنى كقوله: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أو مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أو مُشْرِكٌ﴾ [النور:٣] على معنى أنه ليس كفؤ الزاني إلا زانية مثله أو مشركة ولا كفؤ الزانية إلا زانٍ مثلها أو مشرك.

ويتصل معنى هذا بمعنى قوله ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»[1] دلَّ على هذا التأويل قوله: «لا تنكح» و«لا ينكحها» بالرفع ولم يجزم، فظاهر هذا الإعلام والإخبار، وقد جاء ذكر التحريم بعد هذا في قوله: ﴿وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور:٣] أي: الزنا ونكاح الزانية والمشركة [جميع][2] معاني ما تقدم في قوله: ﴿أُوْلَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور:٢٦].

فصل

كان من كريم لطفه - جلَّ ذكره - أن قدر بأن يكون الإفك في موضع زكاء وطهارة وكان إفكًا، فوسع العقاب والتوبيخ لمن أصغى إليه، والوعيد والتهديد للذين من إرادتهم إشاعة الفاحشة وتنقص المؤمنين، ووسع مع هذا صدق قول الله ﷻ: ﴿لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النور:١٣] فهؤلاء كاذبون لو جاءوا بالشهداء لكانوا شهداء زور؛ لزكاء المقول فيه وبراءته من قبيح مقالهم، وبالغ مع ذلك في الموعظة والنهي عن العود إلى مثلها والإيذاء في ذلك والإعادة، واندرج حماية سائر المؤمنين والمسلمين في ظل ذلك، كما قال: ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور:٢٠] ثم لا بد أن يكون فيمن دخل في عام الإيمان وشمله ظل دين الإسلام من نزول عن كمال الطهارة والزكاء إلى خيانة وسرقة وغير ذلك، والله يحب المتطهرين ويحب المحسنين.

فأنزل على أثر ما تقدم ذكره في نحو ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ [النور:٢٧] وفي قراءة

(١) سبق تخريجه.

(٢) في النسخة (خ): «جمع».

أبي: «**حتى تسلموا وتستأذنوا**» وكذلك كان يقرؤها ابن عباس: «**حتى تستأذنوا وتسلموا**».

والاستئناس في اللغة: الاستئذان، والاستئناس قد يكون بكلام وبتنحنح، والاستئناس أيضًا قد يكون بأن يقول لمن رآه يدخل على القوم: «استأذن عليهم» ونحو هذا، يقال من ذلك: أنست وأنست، بمعنى: رأيت وأحسست، قال الله تعالى: ﴿**آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا**﴾ [القصص:٢٩] بمعنى: رأيت وآنست من فلان كذا؛ أي: أحسست، فقوله: ﴿**حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا**﴾ أي: حتى تروا من تأنسوا به من داخل عليهم، فإن أصل هذه الكلمة من الأُنس.

قال رسول الله ﷺ: «**للداخل دهشة فابدءوه بالسلام**»[1] وفي قوله بعد هذا ما يؤيد ما ذهبنا إليه.

﴿**فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٢٩)**﴾ [النور:٢٨ - ٢٩].

قوله: ﴿**فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا**﴾ يريد - والله أعلم بما ينزل: إن لم تجدوا فيها أحدًا يستأذن لكم فلا تدخلوها ﴿**حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ**﴾ أي: طلبكم هذا وامتثالكم ما تؤمرون به من هذا، هو أزكى لكم، ثم أكد الأمر بقوله: ﴿**وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ**﴾ [النور: ٢٨].

قوله تعالى: ﴿**لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ**﴾ يعرض بالنهي عن الدخول مواطن الخيانة والتشبه بمخائل السرقة؛ لذلك - وهو أعلم - قال: ﴿**وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ**﴾ [النور:٢٩] و[يتوجه][2] أيضًا زائدًا على هذا أن يكون المراد بالبيوت الغير مسكونة فيها المتاع: بيوت الخيانات، وهي المخازن، تسميها أهل العراق: الخانات، وتسميها أهل الشام: الفنادق، وهي بيوت

---

(١) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس (٢١٨٧٦).

(٢) في النسخة (خ): «شرحه».

غير بيوت المختزنين، أباح لهم دخولها إلى متاع لهم فيها ﴿والله يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ في ذلك كله ﴿وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ تعريض بوعيد وتهديد.

ثم أرجع الخطاب إلى التوصية بتعاطي العفاف وسدّ مسالك النفوس إلى معازلة الشهوات، فأمر بغض البصر أمرًا سواء للذكور والإناث؛ لأنه هو أجلب للزكاء، وأحرى لبقاء [ضراوة](١) العفاف، و[حذر المؤمنات](٢) من تليين [الخطاب](٣) ومن يبدين زينتهن له.

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوٓا إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور: ٣٠ - ٣١].

والمراد بذكر الزينة هنا، وهو أعلم: الوجه والكفان، واستماع الكلام وتصريف بعض الحركات، وإلقاء بعض الثياب، وترك بعض مؤنة التحفظ، فقال تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أو آبَائِهِنَّ أو آباءِ بُعُولَتِهِنَّ أو أَبْنَائِهِنَّ أو أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أو إِخْوَانِهِنَّ أو بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أو بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أو نِسَائِهِنَّ﴾(٤) [النور:٣١] يريد - وهو

(١) في النسخة (خ): «صراوة».
(٢) في النسخة (خ): «وحد للمؤمنات».
(٣) في النسخة (خ): «الحجاب».
(٤) ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ واستثنى ما ظهر من الزينة، والزينة: ما تتزين به المرأة من حلّي أو كحل أو خضاب، فما كان ظاهرًا منها كالخاتم والفتخة والكحل والخضاب فلا بأس بإبدائه للأجانب، وما خفي منها كالسوار والخلخال والدملج والقلادة والإكليل والوشاح والقرط =

أعلم - نساء المسلمات اللاتي بعضهن من بعض، وفي هذا من الفقه ألا يبدين زينتهن لنساء أهل الكتاب ولا للمشركات، فإنهن لسن من نسائهن إلا أن يكن إماء لهن، وقد كان السلف ﷺ يمنعون الكتابيات من دخول الحمام مع النساء المسلمات.

ويمكن أن يكون المراد بذكر الزينة: [موضع الزينة][(١)] كالوجه والمعاصم والساقين والشعر والعنق، فهذه مواضع الزينة والحلي ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ من الإماء ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور:٣١] يريد: الخلاخل والدمالج.

قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور:٣١] يقول - وهو أعلم: توبوا التوبة كلها من كل ما [يجب إليه][(٢)] التوبة منه كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ [البقرة:٢٠٨].

﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا

فلا تبديه إلا لمن استثنى. وذكر الزينة دون مواضعها مبالغة في الأمر بالتصون والتستر؛ لأن هذه الزينة واقعة على مواضع من الحسد لا يحل النظر إليها لغير هؤلاء، وهي: الساق والعضد والعنق والرأس والصدر والآذان، فنهى عن إبداء الزينة نفسها؛ ليعلم أن النظر لا يحل إليها لملابستها تلك المواقع بدليل النظر إليها غير ملابسة لها، وسومح في الزينة الظاهرة؛ لأن سترها فيه حرج، فإن المرأة لا تجد بدًّا من مزاولة الأشياء بيدها، ومن الحاجة إلى كشف وجهها خصوصًا في الشهادة والمحاكمة والنكاح، وتضطر إلى المشي في الطرقات وظهور قدميها خاصة الفقيرات منهنّ، وهذا معنى قوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ يعني: إلّا ما جرت العادة والجبلة على ظهوره، والأصل فيه الظهور، وسومح في الزينة الخفيفة. تفسير البحر المحيط (٨/٣٠٤).

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٢) في النسخة (خ): «تجب».

وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [النور: ٣٢ - ٣٤].

قوله ﷻ: ﴿وَأَنكِحُوا الأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ [النور:٣٢] إرشادًا منه إلى قطع الفاحشة من الأتباع والغاشية [وغيرهم][(١)] ينكحون ليغنوهم بذلك عن مقارفة الزنا، ثم وعدهم بالغنى إن خافوا الفقر، إن لم يجدوا طولاً للحرائر فلينكحوا الأيامى حتى يغنيهم الله من فضله.

ثم قال - عز من قائل: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ [النور:٣٣] الخير المعني هنا: هو الديانة والإسلام والقوة على ابتغاء الرزق في مظانه؛ لئلا يكون عالة على المسلمين، واختلف العلماء في وجوب الكتابة وفي إيتاء المكاتب من المال ما يبلغه إلى أن يتعلق بسبب يسترزق الله منه وفي إيجاب إنكاح الإماء والعبيد والأتباع [اختلافًا كثيرًا][(٢)] والصواب أن ذلك فرض على السادة والأولياء والمتبوعين إنكاحهم [كل][(٣)] على قدر طوله واستطاعته، ومن لم يستطع طولاً لمن هو له كفؤ نزل إلى ما هو دونه في النكاح.

قال الله ﷻ: ﴿بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾ [النساء:٢٥] يعني: المؤمنين، قطعًا لفعل الحرام، وسدًا لمسالك الفواحش، ونزوعًا إلى العفة، وعلى إيجاب ذلك استفتح السورة في قوله: ﴿سورة أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾ [النور:١].

ثم قال - عز من قائل: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى البِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [النور:٣٣] هذا خطاب خرج مخرج تعديد قبيح

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).
(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).
(٣) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

الأفعال وسفال السير، وكانت الجاهلية تفعل ذلك، فاستاق ذكر ذلك تعييبًا وتمقيتًا؛ لذلك قال: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ﴾ أي: لذنوبهن ﴿رَّحِيمٌ﴾ أي: بهن [النور:٣٣] [كما قال رسول الله ﷺ: «**وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه**»(١) فالإثم على من أكرههن بغاءً](٢).

قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ﴾ [النور:٣٤] هذه الآيات اللاتي ذكرهن في أول السورة، فعطف هنا بالواو على ذكر ما أنزله من أول السورة إلى هذا الموضع من آيات بينهن، وفرضهن على عباده، واسم آيات عام في الكتاب الذي هو القرآن، لكنه لما ذكر الآيات بالعموم نبه على تفصيل ما أراده.

قوله تعالى: ﴿وَمَثَلاً مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [النور:٣٤] أعلمنا ﷻ أنه قد مثل لمن قبلنا في التعريف به كما مثل لنا بمثل ما مثله لهم أو بما يقاربه ذلك؛ ليبسر مأتي الذكرى للمتذكرين، ونصَّ على أن هذا المثل هو من تلك الأمثال كما قال: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا العَالِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣] فمتى مرَّ عليك في تلاوتك مثل من الأمثال فتوقف وتدبر واستعن بالله، وسله التشديد لإصابة الصواب، ففي الأمثال العلم وعلي المعرفة، فافهم.

وفيهن معالي المعاني التي لم تعهد النفوس لها مثالات، ولا سبقت إليها لها أشباه، فليمثل لها من المشهودات مثالات، ومن المعهود في الموجودات ما يكون فيه وصف من أوصاف المطلوب، والعقل يقضي بالتنزيه للرفيع، والإيمان يوجب المثل الأعلى للعلي، ولولا الفعل لم يعلم الفاعل، ولولا الأسامي لجهل الاسم والمسمى؛ لذلك قال وقوله الحق: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا العَالِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣] ثم قال: ﴿خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [العنكبوت:٤٤].

ورؤية المتقين أعرف في سبيل العبرة من رؤية سائر المؤمنين لذلك - وهو أعلم - قال: ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [النور:٣٤] وذلك أن لروح التقي روحًا تحيى به

---

(١) أخرجه ابن ماجة (٢٠٤٥)، والبيهقي (١٤٨٧١).

(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

حياة إلى حياة الإيمان، فلثاقب أنوار بصائرهم وصفاء موجود بواطنهم أضاء لهم وجود الموجودات؛ ذلك لاتصال نور الحق الموجود به الموجودات بأنوار بواطنهم، مع اتصال اشتعال نيران أفكارهم المستمدة بوقود مصابيح إيمانهم، الموجود عن خالص زيت الشجرة المباركة، شجرة الحق المفطور عليها خلقهم المخلوق به السماوات والأرض وما بينهما، القائمة بين العدل والفضل، الثابت أصلها بحيث لا حيث ليست بشرقية ولا غربية.

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾ [النور: ٣٥ - ٣٧].

﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ﴾ [النور:٣٥] في صفاء زجاجات قلوبهم، لخطير ذكاء ثاقب [أذهانهم][(١)] دون نيران الأفكار أن يمسه [إيقادًا][(٢)] لمصابيح الإيمان في بيوت صدورهم، واستسراجًا لشموس الإيقان المشرقة في ذوات قلوبهم وظاهر جوارحهم.

قوله تعالى: ﴿اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور:٣٥] المعنى إلى آخره، وقرأها عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة: «الله نور السماوات والأرض»[(٣)] أي: هو الذي نورهن بما جعل فيهن من الآيات البينات، ونصب عليهن من الدلائل الموضحات، وقيل: إن معنى اسمه النور في قوله: ﴿الله

---

(١) في النسخة (خ): «إذعانهم».

(٢) في النسخة (خ):.«اتقادًا».

(٣) قرأ عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة وأبو عبدالرحمن السلمي الله « نَوَرَ » بفتح النون والواو المشددة وفتح الراء على أنه فعل. [المحرر الوجيز (٧٦/٥)].

نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: هادي أهل السماوات والأرض[(١)].

ومعلوم أن الهدى من أفاعيل النور، ولو كان معنى اسمه النور هو بمعنى اسمه الهادي لكانا جميعًا اسمًا واحدًا، واجتلابهما معًا باسمين متغايرين من جهة التسمية دليل قائم على أن المفهوم من اسمه النور هو المفهوم من اسمه الهادي، وإن اتفقا في الانبساط على موجودات تقتضيه كل واحد من الاسمين، فلا بد أن يفترقا في سبيل العلم [بهما][(٢)] وتفهيم المفهوم عنهما وبهما.

فعلى قراءة من قرأ: «**الله نوَّر السماوات والأرض**» على وزن فعَّل[(٣)] فمعناه: [أنه][(٤)] نورها بالشمس والقمر والأنوار والنيرات، وبالهدايات والدلائل البينات وبشهادات الشواهد له وتوحيدها وتكبيرها وتحميدها وتمجيدها وقنوتها وعباداتها، وتسبيح المسبحات، وإنباء الكتب والأنبياء والنبوات والرسل والرسالات، والمصنوعات كلها وجميع الموجودات، وهو منور القلوب بالأنوار الباطنة، ومنور الجوارح بأعمال الطاعات، ومنور الصدور بالعلوم والفهوم والتدبر والتفكر والعقول، ومنور الأخلاق بالمعالي منها والمحاسن، وهو حب ما أحبه الله وكراهة ما كرهه.

---

(١) قال المصنف: معنى النور الإشراق والإبصار ظاهرًا والهداية به إلى المقصود باطنًا، وأصل مفهوم لفظه النور من جهة اللغة والله أعلم: النفور عن السوء والبعد عنه، من ذلك قولهم: نارت المرأة تنور نورًا إذا نفرت عن الفاحشة، وامرأة نوار من نساء نور إذا نافرت السوء وبعدت عنه، وناورت المرأة باعدت ذلك ونافرته، ونُرتها أنا إذا نفرتها، فقولهم: إذا نار النور، وأنار معناه نفر الظلام والضلال عمّا أناره وأبعده عنه، فقولهم: إذا نار النور وأنار معناه نفر الظلام عما أناره وأبعده عنك، ومن ذلك سميت النار لإضاءتها ما حولها عند إيقادها فتطرد الظلام عمّا هنالك، منه سميت النورة لإماطتها الأذى من الشعر وغيره وإبعادها إياه، ومن ذلك قولهم: نرت الدابة إذا وسمتها فجعلت عليها بذلك علمًا تعرف به؛ لأن ذلك يباعد الجهل بها فمفهوم النور من جهة المعنى أنه المنزه عن الأدناس المبتعد عن الآفات، كما أن ظاهره منفر لإجراء الظلام كلها على اختلاف أنواعها.

(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٣) قرأ عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة وأبو عبدالرحمن السلمي الله «نَوَّرَ» بفتح النون والواو المشددة وفتح الراء على أنه فعل. [المحرر الوجيز (٧٦/٥)].

(٤) في النسخة (غ): «أي».

عبرة

فعلى ما تقدم فهو الذي سمى نفسه بالنور؛ لأن منه النور على التقريب [لأفهامنا](١) للمعهود من تسمية الشيء باسم الشيء يكون منه، وكتسميتهم المقبل بالإقبال والمدبر بالإدبار، واحتجوا على ذلك بقول الشاعر:

تَـرتَعُ مـا رَتَعَـت حَتّـى إِذا اِدَّكَـرَت فَإِنَّمـا هِـيَ إِقـبالٌ وَإِدبـارُ(٢)

وهذا طريق من النظر ليس بالتحقيق في تعرف أسمائه - جل وعلا - والله أعلم بحقيقة معاني أسمائه(٣).

وقد سئل رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ قال: «**رأيت نورًا**»(٤).

وفي أخرى: «**نورٌ أني أراه، رأيت نورًا**»(٥).

قال الله - جلَّ من قائل: ﴿**وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا**﴾ [الزمر:٦٩] وقد أوجد النيرات آيات له ودلالات عليه، وقال: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ**﴾ [فصلت:٣٧] وقال: إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، وهما نيّران منيران، وعلى قراءة من قرأ: «**الله نور السماوات والأرض**» [فهو إخبار منه - جلَّ ذكره - أنه نور السماوات والأرض](٦).

---

(١) في النسخة (خ): «لأنها منار».

(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ) وفي (خ) امتلأت.

(٣) قال المصنف: وهذا وجه صحيح يعضده الوجود، هو النور لأن منه النور، وعلى هذا فهو بمعنى اسم البارئ والمبين والمرشد؛ لأنه يهدي بالنور الظاهر الأبصار إلى المبصرات الظاهرة، ويهدي بالنور الباطن البصائر الباطنة إلى المعارف الباطنة، فهو إذن منور السماوات والأرض، وهو النور الذي أنار كل شيء ظاهرًا وباطنًا، قال الله ﷻ: ﴿**وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ**﴾ [الجاثية: ١٣] (شرح الأسماء ١/٢٠١).

(٤) أخرجه مسلم (٤٦٢)، وابن حبان (٥٨).

(٥) أخرجه مسلم (١٧٨)، والترمذي (٣٢٨٢) وقال: حسن، والطيالسي (٤٧٤)، وأحمد (٢١٤٢٩)، وأبو عوانة (٢٨٧).

(٦) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ). وقال المصنف: فرؤيته النور الذي أخبر بأنه رآه هو ما قيل فيه أن محمدًا رأى ربه ﷻ، وربما إلى هذا المقام العَليّ الإشارة في قوله جل قوله: ﴿**مَا زَاغَ البَصَرُ وَمَا طَغَى**﴾ [النجم:١٧] فربما وقعت رؤية البصر على ذلك النور العَليّ القريب منه وهو ما أخبر عنه بقوله: ﴿**لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الكُبْرَى**﴾ [النجم:١٨] وقوله: «**نور أنى**

=

ثم جعل يخبر عن نوره بما نوره، فذكر المشكاة والمصباح والزجاجة والبيوت، وقد تقدم أنه من الأمثال المضروبة قبلها مصداقًا لما جاء في بعض الكتب التي يذكر أنها من الكتب المنزلة على من كان قبلنا أن الله هو الحي القيوم، ملأت العالم عزته، ووسع السماوات والأرض كرسيه، وأحاط بجميع ذلك عرشه، الذي خدامه آلاف آلاف الآلاف، ولا يحصى من خدامه ولا من جيوشه إلا ما شاء جنوده، نيران تلتهب وأودية اللهيب جارية قدامه، وكل مرغوب من أسمائه جازع من هيبته وحذره، المختفي عن الأبصار الغمام ستره، والظلام سرادقه والضياء بين يديه والنور أمامه.

وفي مفهوم قوله ﷻ: ﴿اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [النور:٣٥] تحقيق التوحد بنور كل الموجودات، قال الله تعالى: ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ [الأنعام:١] أي: بالحق خلقهما وما بينهما، وكذلك كل ما علا وسما وما سفل إلى المنتهى، كل ذلك بالحق خلقه وللحق أوجده.

ثم قال - جلَّ من قائل: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام:١] وليس في الوجود كله إلا ظلمة أو نور أو ممتزج منهما وهو هما، فكل الموجودات فلا تخلو ما يقال [فيه منها][1] أنه نور أن يكون ظاهرًا كالنيرات وما أنارته، أو الوجود الذي هو ضد العدم، فإنه لا أثقب نورًا من الوجود ولا أظلم ظلامًا من العدم والفقد، أو باطنًا [في الوجود][2] كالآيات والبينات والشواهد على ما جعلها عليه شواهد، ومسالك مقتضيات أسمائه وصفاته من جملة العالم وأنواع الهدايات وما هو

أراه » هو وصف له بأنه النور حسب لا مجال في العلم به للعقول، خلا أنه النور ﷻ يهدي الله إليه بالإيمان من يشاء من عباده فيعبرون إليه من شهادة إلى غيب وكما أن العلم يتفاضل في درجات معرفة هذا النور كذلك يتفاضلون في دار الآخرة في رؤيته، فعامة أهل الجنة يرون الله هو الحق المبين، أي: المبين هذا الحق المخلوق به السماوات والأرض وما بين ذلك، وهم أيضًا في رؤيته على درجات على قدر ارتقائهم في مشاهدته فيما ها هنا فهذا لهم على تفاضلهم فيه على الدوام.

(١) في النسخة (خ): «فيها».

(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

الصراط المستقيم، فلئن كانت دلالة المفعول على فاعله نورًا أن ضد ذلك لظلام، وقد حصلت ضرورة العلم بأنه المتوحد بإيجاد كل ما دخل تحت الكون قاطبة كتوحد بواحد منها ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان:٢٨].

ولئن كانت الأسامي بما هي معرفة بالمسمى، والأسماء معربة عن صفات المسمى الموصوف، والمسمى بالأسماء الموصوف بالصفات هو المطلوب الأعلى، الله رب العالمين، فما عدا ذلك فهو جهل والجهل ظلام، وقد تقدم الكلام في دلالة الفعل على الأسماء، وإعلام الأسماء بالصفات، وتعريف الصفات بالموصوف في غير هذا الموضع، مبينًا على حسب الطاقة، وكما هو خالق الخلق لا خالق سواه، ورب الأرباب لا رب غيره، وإله كل شيء لا إله إلا هو، فكذلك هو النور الأعلى وهو نور النور ونور الأنوار إذًا بما أنارت النيرات جمعاء بنوره، وأضاءت الأضواء كلها علوًا وسفلاً بضياء وجوده العلي.

وهو الهادي إلى الصراط المستقيم الذي ما عداه فهو الضلال، وهو جاعل الهداية هداية، وهو هادي المهتدين، وهو الذي ﴿لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [النحل:٣٧] فليس إلا هو وجودًا ونورًا، هو الأول بذلك في كل الموجودات والآخر فيها، والظاهر والباطن، القيوم على كل شيء نوره العلي، ممد لكل نور، ومنه منبعث كل نور طبقًا عن طبق من لدن العرش العظيم إلى المنتهى علوًّا وسفلاً ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام:٣٩].

قوله ﷻ: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور:٣٥] يعبر من المثل إلى الممثل به.

- والمثل هو: المشكاة، وهي عبارة عن المفعول كله جملة، فكما المفعول كذلك المشار إليه بالمشكاة هو موضع المصباح، وهو النور المنبعث عن المصباح.

- والممثل به هو النور الأول العلي الذي كل نور فعنه مقتبسه، هم درجات عند الله.

والممثل به فيما هنالك بالزجاجة هو الأفق المبين، والممثل بالزيت من الشجرة الزيتونة فيما هنالك هو الحق، المخلوق به السماوات والأرض، أصلها

ثابت في حيث لا حيث، ليست بشرقية ولا هي بغربية، ولا منسوبة إلى ناحية، ولا أمم سوى أنه الحق المبين، تشعبت أفنان هذه الشجرة في أقطار الوجود، وعمَّت عموم الخلق والأمر ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم:٢٥] متى فكر المتفكر فيها، وتذكر المتذكر بها، أو عمل بمقتضى ما أمر به في كتاب الله وسنة رسوله من الموجود في جملتها، المثبت في اللوح المحفوظ من مكنونها آتت أكلها [كل حين][١] بإذن ربها.

﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ﴾ [النور:٣٥] للأبصار، فيلحق بظاهر الأنوار وجلي الضياء، وإن لم تمسسه نار فكر أو يميزه علاج ذهن، فتزداد الأذكار في إنباء معاناة الاعتبار؛ إذ بذلك تتوقد مصابيح الإيمان في مشاكي علوم الفطر المتوقدة بالمعرفة في زجاجات القلوب التي [هي][٢] ألواح [أجوائها][٣] ذوات الصدور، وتلك ﴿بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ * رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ [النور:٣٦ - ٣٧] إلى آخر المعنى.

مواقع أبصارهم مجال بصائرهم من الآفاق، والوجود كله ساطعة بضياء المعرفة وبواطنهم بنور الإيمان عامرة نيرة، ومصابيح الإيمان في قلوبهم الزجاجية رقة وصفاء كالكواكب الدرية، تتوقد في مشاكيها بزيت الشجرة المباركة الزيتونة، ليست بشرقية ولا غربية إن ربي على صراط مستقيم ﴿صِرَاطِ اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلَا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾ [الشورى:٥٣].

قوله ﷻ: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ [النور:٣٦] إلى آخر المعنى، إنه وإن كان ظاهره ما ذكره من البيوت المأذون في ترفيعها هي المساجد لذكر المصباح والزيت والزجاجة والمشكاة، فإنه على ظاهر أول ما تلاه علينا - جل ذكره - من قوله: ﴿اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٣) في النسخة (خ): «أحوابها».

[النور:٣٥] والأرض ذكر عام في السماوات وفي المساجد وفي القلوب والصدور، وكذلك النور عام ذكره كما تقدم في النيرات والهدايات والأنبياء والرسل والملائكة و[العلم][١] والشرائع والكتب، فتأويل البيوت ها هنا على هذا النظر السماوات والأرض وما علاها إلى ما شاءه الله تعالى.

قال الله - جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف:٢٠٦].

وقال: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء:٢٠].

وقال رسول الله ﷺ: «**أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها من مقدار شبر**»[٢].

وفي أخرى: «**أربعة أصابع إلا وعليها ملك يسبح الله ويكبره ويهلله...**»[٣] وجاء عنه في الأرض كذلك.

[والرجال هم الملائكة - عليهم السلام - وهم على الحقيقة الذين ﴿لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ [النور:٣٧] المعنى][٤] فهذه بيوت قد ﴿أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ [النور:٣٦] وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾ [الحج:١٨] وقال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤] وهذا كله من نوره الذي أبطنه وسيظهره في الآخرة.

ثم الزجاجة على هذا التأويل [هي ألواح الأجواء][٥] ما علا إلى المنتهى، وتأويل الشجرة المباركة على هذا هو ما خلق الله به السماوات والأرض من الحق،

---

(١) في النسخة (خ): «العلماء».

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦/٢٦٩)، والبيهقي في سننه (١٣٧١٩)، وابن عساكر (٥٢/٣٨١).

(٣) أخرجه أحمد (٢١٥٥٥)، والترمذي (٢٣١٢) وقال: حسن غريب، وابن ماجة (٤١٩٠)، والحاكم (٣٨٨٣) وقال: صحيح الإسناد، وأبو الشيخ في العظمة (٥٠٧).

(٤) ما بين [ ] غير واضح في النسخة (غ).

(٥) ما بين [ ] بياض في النسخة (غ).

وجاعل هذا الحق المشار إليه المعبر عنه هو الله الحق المبين، المحيط بكل ذي وجود أوله وآخره وظاهره وباطنه، من ذلك جماع ما وجبت له به الشهادات كلها، وقد تقدم في اسم الشهيد إلى ذلك بطريق، وأنه كقول رسول الله ﷺ والمسلمين: «**أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، وأشهد أن الجنة حق، وأن النار حق، وأن الصراط حق، وأن الحوض حق، وأن الميزان حق**»[١].

هكذا على استقراء ضروب الشهادات كلها، فكل ذلك من الحق الذي خلق به الله السماوات والأرض، وكذلك جميع ما شرعه لعباده؛ ليمتثلوه وهو من ذلك، شهدت له بذلك شواهده، وعنونت به عنه كتبه، وأعربت به رسله وشواهده وبيناته، وكل ذلك من الحق المذكور، وهو الموجود عن أسمائه ومعاني صفاته، أسلك ذلك كله فيما خلقه سلوك الأرواح في الأجساد، وأجرى حقائقها في براياه إجراءه الأغذية في الأجسام.

ثم الزيت على هذا التأويل هو ما تميزه الأذهان وتستخرجه الأفكار بترداد الأذكار، وأن الله - تبارك اسمه وتعالى جده - لما علَّم أبانا آدم الأسماء كلها، وهي كالمشكاة للأنوار والأضواء الموجود في الوجودين: [العالم][٢] والكتاب، أظهرهما في قلبه علمًا وهي النبوة، ثم أمره فأنبأ الملائكة بما أذن له من ذلك أن يظهره على لسانه إنباء وشهادة، وجعل ذلك في بواطن بنيه فطرة، و[عيبًا شبيهًا][٣] به عليه السلام على ما قدره في حكم التناسل.

كذلك قال رسول الله ﷺ: «**كان الله ولم يكن شيء قبله**»[٤] [وفي أخرى:

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٣٢٥٢)، ومسلم (٢٨)، وابن حبان (٢٠٢)، والنسائي (١١١٣٢)، وأحمد (٢٢٧٢٧).

(٢) في النسخة (خ): «العلم».

(٣) في النسخة (خ): «عسى شبهًا».

(٤) أخرجه البخاري (٣٠١٩) وأحمد (١٩٨٨٩) والطبراني (٤٩٧) وابن حبان (٦١٤٠) والروياني (١٤٠) والحاكم (٣٣٠٧) والبيهقي (١٨١٥٥).

«معه»[(١)][(٢)] وكتب في الذكر كل شيء، ثم خلق كل شيء فقدره تقديرًا، المعنى؛ أعني: جملة العالم المتقدم ذكره في صدر هذا الكتاب، المخلوق في لا مكان ولا زمان ولا يحيط به ظرف؛ إذ قد [جاز](٣) المكان في وجوده والزمان و[الظرف](٤) إنما يحيط به أمر الله قدرةً وعلمًا ومشيئةً وإيجادًا وحفظًا إلى غير ذلك، أوجده عبدًا مربوبًا على صورته في أحسن تصوير وأكرم تقدير، أسلك فيه معاني أسمائه وصفاته، وركبه على مقتضيات ذلك جملةً وتفصيلاً، إلى ما هو الانتهاء إليه من الحق الذي قدره، كذلك خلق الإنسان، وقد تقدم ذكر آدم عليه السلام وأبطن فيه علم الأسماء، ولم يكن ليجعل علم الأسماء في باطنه وأظهر الإنباء بها على ظاهره، إلا وقد خلقه بها.

يقول الله - جلَّ من قائل: ﴿قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أي شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِن نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ [عبس:١٧-٢٠] فاتصل باطن العبد الجزئي بظاهر الوجود، ألا ترى كيف أنزل عليه كتابه، وشرع له شرائعه على مقتضى ذلك، وباستعمال التفكر وترداد التذكر بواسطة التوسل إلى ممسك عصم الإصابة والاستعانة بمالك الملك يستخرج من غيابات الفطر معرفة السر المكنون في العالم الكلي، فافهم فهمنا الله وإياك عنه، إنه قريب مجيب.

قال رسول الله ﷺ: «لا تقولوا [للعنب](٥): الكَرْم، إنما الكرم قلب المؤمن»(٦).

ثم توجيه قوله: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ﴾ [النور:٣٦] بأنها القلوب هو ما أنزله من أمره وشرعه لها في [شرعته](٧) التي يسلك [إليه](٨) عليها في سبيلها إليه

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (١٠٠٦/٢) وعزاه إلى ابن حبان والحاكم وابن أبي شيبة عن بريدة.

(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٣) في النسخة (خ): «حار».

(٤) في النسخة (خ): «الظروف».

(٥) في النسخة (خ): «للجبلة»، والمثبت هو الصحيح.

(٦) أخرجه البخاري (٥٨٢٩)، ومسلم (٢٢٤٧)، وأحمد (٧٢٥٦)، والحميدى (١٠٩٩).

(٧) في النسخة (خ): «شرعه».

(٨) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

أن يترفع عن الشكوك والتكذيب [وأنواع الكفر وضروب الخنا][1]، والعقد على فعل الفحشاء والمناكير كلها وأنواع البغي، كما أذن لبيوته التي هي المساجد في الأرض أن ترفع عن التملك والأقذار وغير ذلك؛ ليذكر ﴿فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا﴾ بخفض الباء ﴿بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ * رِجَالٌ﴾ [النور:٣٦ - ٣٧].

ثم بمعنى آخر تكون الشجرة المباركة على الاعتبار بأن البيوت هي بواطن العباد هو الرسول الآتي بالبينات والهدى والوحي، الذي به يكون الاتصال بالله ﷻ وبمعاني أسمائه وصفاته، وبالوحي الذي جاء به من عند الله تتوقد مصابيح الإيمان في قلب العبد كما في الزيت عمل المصباح الذي [يوقده][2] كذلك في سنة الرسول عمل الإيمان بواسطة الإسلام، وتلك مادته التي بها يضيء وعنها يكون منه ما يكون بمنزلة التوقد من المصباح، والمصباح لا يضيء إلا بإنارة جعل الله ﷻ له ذلك لها آية منه على معالم كريمة من معرفته فيما هنالك وها هنا.

كذلك القرآن هو القائم للإيمان مقام الشمس، وسنة رسول الله ﷺ بمنزلة القمر، والعلماء بمنزلة النجوم، فكما أن الشمس لا فعل لها فيما يوجد عنها، وأمَّا الفاعل على الحقيقة هو منوِّرها وجاعلها سراجًا يستضاء به، كذلك القرآن والسنة وإن كانا من عند الله فهما للإيمان بمنزلة الشمس والقمر والنجوم للوح [الجو][3]، ليسوا بأنفسهم بمنيرات لنا، بل بإمداد من الله، وإيجاد وإمساك من عنده، كذلك القرآن والسنة، بل يكونان عمى في حق قوم، هداية في حق آخرين، كالشمس والقمر والكواكب، ينفع الله بما شاء منها ويضر قومًا في بعض الأحايين، ويمنع الإبصار بها العميان من عباده، ويضل بها من يشاء، فيشركون [بها][4] ويعبدونها من دون الله وعلى حال، ففي القرآن والوجود [الخبر][5] اليقين، فافهم.

وكذلك الجوارح أنوارها بأعمال الطاعات لله، بها تضيء باطنًا في الدنيا،

---

(١) في النسخة (خ): «وضروب الحني».

(٢) في النسخة (خ): «به توقده».

(٣) في النسخة (خ): «الحق».

(٤) في النسخة (خ): «بهما».

(٥) في النسخة (خ): «الخير».

ويظهر الله ذلك عليها في الآخرة، قال رسول الله ﷺ: «أنتم الغرّ المحجلون من آثار الوضوء يوم القيامة»(١).

وقال: «تبلغ الحلية من المؤمن مبلغ الوضوء، فمن استطاع منكم أن يطيل غرته وتحجيله فليفعل»(٢).

وكان رسول الله ﷺ يقول في دعائه: «اللهم اجعل لي نورًا في قلبي، ونورًا في صدري، ونورًا في سمعي، ونورًا في بصري، ونورًا في لحمي، ونورًا في دمي، ونورًا في عظمي، ونورًا في مخي، ونورًا في شعري، ونورًا في بشري، ونورًا عن يميني، ونورًا عن شمالي، ونورًا من فوقي، ونورًا من تحتي، ونورًا من أمامي، ونورًا من ورائي، اللهم أعظم لي نورًا، واجعل لي نورًا، وفي أخرى: واجعلني نورًا»(٣).

﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور: ٣٧ - ٤٠].

وضرب مثلاً لأعمال من لم يهده لنوره، وهم أهل الكتابين والمنافقين، بقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٦)، وأبو يعلى (٢١٦٢) والطبراني في الأوسط (٨٢٢٢)، والبيهقي (٣٦٦)، والقضاعي (٢٩٠)، وأبو عوانة (٥١٠).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٠)، وأحمد (٨٨٢٧)، والنسائي في الكبرى (١٤٢)، وابن أبي شيبة (٦٠٧)، وأبو عوانة (٦٦٦).

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٦٩٦)، والترمذي (٣٤١٩)، والطبراني (١٠٥٢٠) وفي الدعاء (٤٣٩)، وابن خزيمة (١٠٥٦)، والبيهقي في سننه (٤٥٨٤).

شَيْئًا﴾[١] أي: مقبولاً عند الله؛ إذ لم يكن بأمره ولا على سنة رسوله **﴿وَوَجَدَ اللهَ عِندَهُ﴾** يجزي به **﴿فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾** [النور:٣٩] على سواء عمله أهل الكتاب، والمنافقون هم الأخسرون أعمالاً **﴿يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾** [الكهف:١٠٤] وهم في الضلال المبين، فهم على ذلك العاملون الناصبون، لهم على ذلك النار وسوء المصير.

يقول: مثل عملهم كمثل سراب بقيعة من الأرض قد اكتنفتها [الجدائب][٢]، وقد استجرت الشمس فاستخرجت الأبخرة من الأرض في ذلك المطمئن، واكتنف [القيعة][٣] ما أحاط بها من المرتفع، ولم تتمكن الرياح أن تبدد تلك الأبخرة، وكثفت عن أن ينفذها حر الشمس ولهب شعاعها فيلحقه بما يصعده منها، ولمقابلة الشمس تلك الأبخرة في مسامتها من الجو، وتحريك الرياح إياها أدنى حركة أشبه لون البخار لون الماء في البعد؛ لقربه منه في الغلظ، وبريقه الذي يكون فيه لمقابلة الشمس له بريق الماء، وحركته حركة الماء، فظنه العاطش ماء، فقصده لشفاء [غلته][٤]، فـ**﴿إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾** [النور:٣٩] أي: لم يجده ماء؛ لأنه نفذ بصره فيه كغيره.

فمثَّل الله - جلَّ ذكره - أعمال المنافقين والمرائين وأهل الكتابين بهذا؛ ذلك نضلالهم عن الرشد، وإفلاسهم من النور الحق، فإذا كان يوم القيامة يقول الله - جلَّ من قائل: «**لتتبع كل أمة ما كانت تعبده، فلا يبقى أحد كان يعبد شيئًا إلا اتبعه حتى يجعله في جهنم**»[٥] وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها وغبرات أهل الكتابين، يقول الله

---

(١) قال الأزهري: «السَّرَابُ: ما يتراءى للعين وقت الضحى في الفلوات شبيهًا بالماء الجاري وليس بماء، ولكن الذي ينظر إليه من بعيد يظنه ماء جاريًا، يقال: سَرَبَ الماءُ يَسْرُبُ سُرُوبًا: إذَا جرى، فهو سَارِبٌ». وقيل: السَّرَابُ: مَا يَتَرَاءَى للإِنْسَانِ في القَفْرِ في شِدَّةِ الحَرِّ مِمَّا يُشْبهُ المَاءَ. وقيل: مَا يَتَكَاثَفُ مِنْ قُعُورِ القِيعَانِ. تفسير اللباب لابن عادل (١١٤/١٢).

(٢) في النسخة (خ): «الحدائب».

(٣) في النسخة (خ): «البقيعة».

(٤) في النسخة (خ): «علته».

(٥) أخرجه بنحوه مسلم (٢١٦/٨)، وأبو داود (٤٧٣٠)، وابن ماجة (١٧٨)، والتِّرمِذي (٢٥٥٤)، والحميدي (١١٧٨)، وأحمد (٩٠٤٦).

- جل ذكره - لهم: «**ما تبغون؟ فيقولون: عطشنا يا ربنا فاسقنا، فيشار لهم إلى جهنم كأنها سراب يحطم بعضها بعضًا، فيقال: ألا تردون، فيسيرون إليها سعيًا ويردونها وهي جهنم**»(١) هذا قوله: ﴿**حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا...**﴾ [النور:٣٩].

ثم ضرب مثلاً آخر لأعمال الكفار وأحوال بواطنهم بخالص الظلام المصاحب لهم بقوله الحق: ﴿**أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ**﴾ [النور:٤٠] فهذه ظلمة الليل في البحر مثل ذلك [بعدم](٢) الهداية مع خطر الحال، لا يجد من يسأله عن هداية ولا بما يهتدي، ثم قال - عز من قائل: ﴿**يَغْشَاهُ مَوْجٌ**﴾ [النور:٤٠].

فأعلم بهذا أن الجو مغيم، والبحر قد [اغتلم](٣)؛ تعريضًا بظلام الكفر ووشيك الإهلاك، ليس كمن هو من نور ربه في مثل الهواء [الصافي](٤) المشبه بالزجاجة، [وبالكوكب](٥) الدري بما أنارته الشمس [الضاحية](٦) وفي قوله تعالى: ﴿**يَغْشَاهُ مَوْجٌ**﴾ أي: يغشى هذا الغريق [في البحر](٧) في الليل المظلم موج؛ لأجل اعتلام البحر، وخصَّ البحر بالذكر لأجل كفره؛ ولأنه مهلك، لا سيما لمن هو في غير سفينة من إيمانه وعلمه وعمله يحمله فيها.

ثم قال - عز من قائل: ﴿**مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ**﴾ أي: من فوق الموج الذي يغشاه موج غيره، من فوق ذلك [الموج](٨) ﴿**سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ**﴾ [النور:٤٠] ظلام الموج الذي يغشاه، ثم ظلام الموج الثاني الذي يكون في البحر عند وجود النوء وعصوف الرياح، ثم ظلام الليل مع ظلمة الجو من السحاب الذي غشيه، فهذه ظلمة السحاب التي تهيل البحر، وتحول دون أنوار الكواكب وبياض السماء وظلمة

---

(١) أخرجه مطولاً البخاري (٤٣٠٥) ومسلم (١٨٣) وابن ماجة (١٧٩) والطيالسي (٢١٧٩) وأحمد (١١١٤٣).
(٢) في النسخة (خ): «لعدم».
(٣) في النسخة (خ): «اعتلم».
(٤) في النسخة (خ): «للصافي».
(٥) في النسخة (خ): «كالكوكب».
(٦) في النسخة (خ): «الصاحية».
(٧) مابين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٨) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

الليل التي لا تكون معها شمس وعصوف الرياح، وتحريك الموج و[اصطفاقها][(١)] تعلوه، ويعلو بعضها بعضًا.

شبه ظلمة الليل بظلمة كفره، وستر السحاب السماء بالإفلاس من الهداية، و[تحقيق الظلال][(٢)] في حقه، وغشيان الموج إياه بترادف الفتن عليه من ظلمة كفره، وظلمة طبعه المحيلة له عن هداية فطرته إلى ما يكون مع ذلك من فتن غروره وتزيين ما هو فيه إلى نفسه [ثم][(٣)] من خواطره، ونوازع [هممه][(٤)] وبواعث الاستواء إليه، تؤزهم الشياطين إلى ضلالاتهم أزًّا، وتزعجهم إليها إزعاجًا، فمتى همَّ بإخراج يد معرفة [لنجا][(٥)] مما هو فيه من هلكته وشعور بعلم حاله ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ [النور:٤٠].

ومعنى المقارنة هنا: هو عبارة عن علمهم اللازم قلوبهم ضرورة، متى سألتهم عمن خلقهم قالوا: الله، من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم؟ قالوا: الله، من بيده ملكوت كل شيء، وهو يجير ولا يجار عليه؟ قالوا: الله، من المنعم؟ من الرازق؟ من الدافع الحق؟ من الواقي؟ قالوا: الله.

فقوله: ﴿إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ [النور:٤٠] عبارة عن علمهم هذا الذي لم ينتفعوا به، ثم هو إذا خطر هذا الخاطر عليهم فلم ينتفعوا به ولا تنبهوا لحقيقته، متى أراد أن يخرج يده بعدها لم يخرجها، و﴿لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ أي: لم يرها ولم يقارب ذلك؛ لذلك قال - عز من قائل: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور:٤٠].

فصل

إنه - تبارك وتعالى - وإن كان قد خلق من شاء من خلقه في الظلمة فقد جعل

---

(١) في النسخة (خ): «اصطفافها».
(٢) في النسخة (خ): «تحقق الضلال».
(٣) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).
(٤) في النسخة (خ): «همته».
(٥) ما بين [ ] غير واضح في النسخة (غ).

له نورًا في فطرته، كما جعله للآخرين بحكم الفطرة أيضًا، لكنهم أخرجَتْهُم أعمالهم بإذن ربهم من نور فطرتهم إلى ما خلقوا فيه من ظلمة، وإنه وإن كان قد خلق آخرين في النور فقد جعل لهم ظلمة من أمشاج خلقتهم وأغذيتهم في حال كونهم أجِنَّة في بطون أمهاتهم، ثم من أغذيتهم في نشأتهم، ثم من غفلاتهم المستصحبة لهم في تقبلهم ومثواهم، لكنهم أخرجهم عنها بإذن ربهم إيمانهم وتصديقهم وأعمالهم التي هدوا إليها، وذلك من نور الله فيهم ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور:٤٠].

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [النور: ٤١ - ٤٣].

وضرب الله مثلاً آخر لنوره الباطن الموجود في الموجودات فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾(١) [النور:٤١] انتظم معنى هذا بوصف نوره في السماوات والأرض فذكر

---

(١) وقرأ الأعرج «**والطير**» بالنصب على أنه مفعول معه، وقرأ الحسن وخارجة عن نافع «**والطير صافات**» برفعهما على الابتداء والخبرية، والظاهر على هذه القراءة أن قوله تعالى: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ خبر بعد خبر، وعلى قراءة الجمهور استئناف جيء به لبيان كمال عراقة كل واحد مما ذكر من الطير وما اندرج في عموم ﴿مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ في التنزيه ورسوخ قدمه فيه بتمثيل حاله بحال من يعلم ما يصدر عنه من الأفاعيل فيفعلها عن قصد ونية لا عن اتفاق بلا روية، وقد أدمج سبحانه في تضاعيفه الإشارة إلى أن لكل واحد من الأشياء المذكورة مع ما ذكر من التنزيه حاجة ذاتية إليه تعالى، واستفاضة منه ﷻ لما يهمه بلسان استعداده، وتحقيقه أن كل واحد من الموجودات الممكنة في حد ذاته بمعزل عن استحقاق الوجود، لكنه مستعد لأن يفيض عليه منه تعالى ما يليق بشأنه من الوجود وما يتبعه من الكمالات ابتداءً وبقاءً، فهو مستفيض منه تعالى على الاستمرار، فيفيض عليه في كل آن من فنون الفيوض المتعلقة بذاته وصفاته ما لا يحيط به نطاق البيان بحيث لو انقطع
=

في صدر المثل نوره الظاهر الشائع في السماوات والأرض من النيّرات والمصابيح، وعرض بالزيت والشجرة، ثم قال: ﴿وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور:٣٥] ثم نظم به قوله هذا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ...﴾ [النور:٤١].

ثم ضرب مثلاً آخر لباطن نوره الحق في السماوات والأرض [بأن له ملك السماوات والأرض][١] بقوله الحق: ﴿وَللهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [النور:٤٢] مفهوم هذا فبعدوا عليه ملكه ويشركه في ملكه [عبده][٢] هذا النور المبين والضلال منهم عنه بعيد عن الهداية.

ثم قال - عز من قائل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ﴾ [النور:٤٣] يعني - وهو أعلم بما ينزل: السحاب [الدهم][٣] كالجبال مسخرة بين السماء والأرض ممسكة على الهواء ينزل منه البرد ﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ﴾ [النور:٤٣] يعرض بذكر الفيح والفتح برحمته، وأن باجتماعهما يخلص برحمته من شاء بمعنى الفيح من المعنى الناري الذي خالط الجو ومازج الهواء، فيكون عنه البرق والرعد آيات على زفرات جهنم وإخراجها أعناقها لأهل المحشر.

﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ

= ما بينه وبين العناية الربانية من العلاقة لانعدم بالمرة، وقد عبر عن تلك الاستفاضة المعنوية بالصلاة التي هي الدعاء والابتهال لتكميل التمثيل، وتقديمها على التسبيح في الذكر؛ لتقدمها عليه في الرتبة، كذا في «إرشاد العقل السليم». تفسير الألوسي (١٣/٤٦٧).

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٢) في النسخة (خ): «عنده».

(٣) في النسخة (خ): «الهم».

مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النور: ٤٤ - ٤٨].

ثم قال: وقوله: ﴿يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي: حرورًا وصرودًا وطولاً وقصرًا ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ﴾ [النور:٤٤].

أتبع ذلك قوله معلمًا بأن إيجاده الموجودات من نوره في السماوات والأرض وعن فتح رحمته مع ممازجة بفيح جهنم - أعاذنا الله منها برحمته - فقال: ﴿وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور:٤٥].

أتبع ذلك قوله الحق: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ﴾ أنوار بنور الله العلي تزهر لبصائر المستبصرين، وآيات على ما أخبر به تبهر عقول الناظرين، وتدحض حجج المبطلين ﴿وَاللهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النور:٤٦] نصَّ بهذا على أن الهدايات كلها عن نوره العلي، كرر ذكر إنزاله الآيات المبينات؛ أي: ذلك - والله أعلم - أنه لما كان النور منه ظاهر ومنه باطن، والكافر به ضربان: منافق وكتابي، والآخر: كافر محض، كرر ذلك أول الخطاب وآخره.

﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُواْ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾ [النور: ٤٩ - ٥٤].

أتبع ذلك ذكر المنافقين الذي أجرى ذكرهم في أول قصة الإفك الذي تولى

كبره ومن [تبعه][(١)] منهم، فقال - جلَّ من قائل: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور:٤٧] إلى قوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا﴾ [النور:٥٣] في هذا من الفقه ألا يعد العبد بما هو مستقل به من نفسه دون أن يستثني بمشيئة الله - جلَّ ذكره - فكيف بأن يقسم على عزيمته زعامة ورعونة، يقول الله - جلَّ ذكره: ﴿لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ [النور:٥٣] أي: يعرف ظاهرها، معنى ذلك أن يكون من المعروف لا من المنكر ويؤمن باطنها ﴿إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ﴾ [النور:٥٣] ببواطنكم عليم بأعمالكم ثم أمر بطاعة الله وطاعة رسوله وأولي الأمر من المؤمنين.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ [النور: ٥٥ - ٦٠].

---

(١) في النسخة (خ): «نفعه».

قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [ثم مدحهم بقوله][(١)]: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ ثم قال: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ﴾ [النور:٥٥].

قال رسول الله ﷺ: «**لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض**»[(٢)] علم ﷺ ما يكون في المستقبل من قوم يلون الأمر بعد الخلفاء الممدوحين، ينبذون الحق وراء ظهورهم، يخرجون بذلك مما دخلوا فيه من إيمان وإسلام فيستحقون بذلك اسم الفسق.

ثم قال مخاطبًا للجملة؛ يعني: جملة الأمة ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور:٥٦] أي: أقيموا الصلاة، وافعلوا ما أمرتم به، واثبتوا على الحق، وعضوا عليه بالنواجذ، فلا تطيعوا مخلوقًا في معصية الخالق، واصبروا على ذلك ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ فيكون لكم الكرة، كما قال رسول الله ﷺ: «**لا يزال طائفة من أمتي قائمة على أمر الله ظاهرين لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك**»[(٣)].

ختم ذلك بقوله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ﴾ أي: إنما ذلك بلوى منا وكفارة لمن عدل عن سبيل القصد ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ المَصِيرُ﴾ [النور:٥٧] يعرض بمن يكون بعد ذلك الفتح من [الكفار][(٤)]، وهم شيعة الدجال - لعنهم الله وقصر مدتهم - يقول: لا تظنن ما بلغوه من الملك، والتمكين في الأرض، وما [يجيئون][(٥)] به من آيات وكبير أمر أنهم معجزو الله، سيجعل الكرَّة عليهم

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٢) أخرجه البخاري (١٢١)، ومسلم (٦٥)، والنسائي (٤١٣١)، والترمذي (٢١٩٣) والطبراني (٥٤٤٢)، والطيالسي (٦٦٤)، وابن أبي شيبة (٣٧١٧٦)، وأحمد (١٩٢٣٧)، وابن ماجة (٣٩٤٢)، والدارمي (١٩٢١)، وابن حبان (٥٩٤٠)، وأبو داود (٤٦٨٦).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) في النسخة (خ): «الكفارة».

(٥) في النسخة (خ): «يحيون».

للمسلمين، [مع صالح الأمة وعيسى ابن مريم][(١)] ثم عطف على هذا المحذوف قوله: ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ [النور:٥٧] ولبئس المصير؛ أي: ما صاروا إليه.

فصل

قسم الله العباد على أربعة أقسام:

الصديقون وأتباعهم: وكان [أولاً لهم][(٢)] أبو بكر الصديق ﷺ.

ثم الفقهاء وحملة الدين ومقومو الناس: والناس أتبع لهؤلاء، فكان عمر ﷺ أولاً لهم.

ثم الملوك وأولوا الأمر ووزعة الناس، والناظرون لهم الحافظون [لجملتهم][(٣)]: وكان عثمان ﷺ أولاً لهم، وظهر ذلك في [معاونة][(٤)].

ثم العلماء بالله وبآياته: وهم حملة علوم الصديقين ومعارف [المؤمنين][(٥)] من العلم المكنون، وكان علي بن أبي طالب ﷺ أولاً لهم.

وقد كان للصديقية تبع كالعمرين و[دولتهما][(٦)]، ولم يكن [لجملة][(٧)] العلم المكنون دوله بعد سوى الذي كان أولاً لها، ذلك منتظر - إن شاء الله - وبذلك ترجع الصديقية في هذه على الصديقية الأولى، كما ترجع النبوة بعيسى ابن مريم على نبوة محمد - صلوات الله وسلامه عليهما وعلى جميع الأنبياء والمرسلين والأولياء والصالحين.

وأمَّا اختلاف الأمة فيمن أولى بالإمامة منهم فذلك موقوف على الحكم المقدور والوعد المحقق بالإنجاز، قال الله - جلَّ من قائل: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا

---

(١) ما بيم [ ] سقط من النسخة (خ).
(٢) في النسخة (خ): «أولهم».
(٣) في النسخة (خ): «لحملتهم».
(٤) في النسخة (خ): «معونة».
(٥) في النسخة (خ): «الموقنين».
(٦) في النسخة (خ): «دوله».
(٧) في النسخة (خ): «لحملة».

مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ﴾[1] [النور:٥٥] المعنى: وسابقوا المؤمنين هم هؤلاء الأربعة، فلو كان الوالي أولاً علي بن أبي طالب لم يلِ عثمان ولا عمر ولا أبا بكر، كذلك لو كان [أولاً][2] عثمان لم يلِ أبا بكر ولا عمر، وكذلك القول [في عمر لو كان الوالي أولاً، فترتيب الله إياهم هذه الرتبة هي الحكمة البالغة، وكان كل واحد منهم][3] مثلاً لمن بعده وأولاً لمن كان من أتباعه، وكان في هذا من الفقه أن العلم بالحق والمعرفة التي يؤتي الله بها الحكمة ليس من الدنيا في شيء إلا ما شاء ربك، اعتبر ذلك بالخضر وموسى - صلوات الله وسلامه عليهما.

قوله ﷻ: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ﴾** [النور:٥٨] المعنى: صرف وجه الخطاب إلى معنى ما تقدم من الاستئذان والوعظ في ذلك، فذكر هنا إيجاب استئذان من أذن له في الولوج على الحرم من المملوكين والنساء، ومن لم يبلغ الحلم في أوقات العورة والتخلي بالأهل بعد صلاة العشاء، وفي القائلة، و[قبل][4] صلاة الفجر.

ثم ذكر الرخصة في إلقاء بعض الستر للقواعد من النساء اللاتي لا إربة فيهن للرجال والتعفف مع ذلك **﴿خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾** وقرن بذلك قوله: **﴿وَاللهُ سَمِيعٌ﴾** أي: [لمقالاتكم][5] **﴿عَلِيمٌ﴾** [النور:٦٠] [بفعالكم][6] ظاهرًا وباطنًا ثم ذكر انبساط

---

(١) روى الطبراني في «الأوسط» عن أبيّ بن كعب ﷺ قال: لما قدم النبي ﷺ وأصحابه ﷺ المدينة وآوتهم الأنصار ﷺ أجمعين، رمتهم العرب من قوس واحدة، فنزلت: **﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ...﴾**. ولقد صدق الله سبحانه، ومن أصدق من الله حديثًا، ففتح سبحانه لهم البلاد، ونصرهم على جبابرة العباد، فأذلوا رقاب الأكاسرة، واستعبدوا أبناء القياصرة، ومكنوا شرقًا وغربًا مكنة لم تحصل قبلهم لأمة من الأمم، كما قال ﷺ: «**إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها**». نظم الدرر للبقاعي (٤٨٦/٥).

(٢) في النسخة (خ): «الوالي».

(٣) ما بين [ ] غير واضح في النسخة (غ).

(٤) في النسخة (خ): «قيل».

(٥) في النسخة (خ): «لمقالهم».

(٦) في النسخة (خ): «بفعالهم».

القرابة بعضهم لبعض، وأكل بعضهم مع بعض [وعند بعض][١]، وأكل الوكلاء مما وكلوا عليه، والأوصياء بالمعروف، ورفع [الجراح][٢] في ذلك كله ما لم يفارق المعروف في الأمر كله.

﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦١)﴾ [النور: ٦١].

ثم قال - جل ذكره: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾ [النور:٦١] قد قال ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا﴾ [النور:٢٧] فهذه بيوت السكنى، وقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ﴾ [النور:٢٩] هذه الخانات تحتوي على بيوت ينزلها مرار الطرق ذلك هو المتاع التي لهم فيها كن ومبيت، وقد تكون المخازن في الخانات، وتسميها أهل الشام: الفنادق، فيها متاع لكم مال مختزن.

وقال - عز من قائل - في هذه: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ﴾ [النور:٦١] [وهي والله أعلم بما ينزل البيوت المنسوبة إليه التي هي المساجد قال الله ﷻ: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ﴾ [النور:٣٦] تعني: المساجد ﴿فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ﴾][٣] يعني - وهو أعلم: ليسلم بعضكم على بعض كما قال: ﴿وَلَا

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).
(٢) في النسخة (خ): «الجناح».
(٣) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

﴿تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء:٢٩] وقال: ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾ [البقرة:٨٤] أي: لا يقتل بعضكم بعضًا، ولا يخرج بعضكم بعضًا من ديارهم، وقد يكون المعنى زائدًا إلى ذلك ﴿فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ﴾ يعني: إذا لم تجدوا في المسجد أحدًا فسلموا على أنفسكم.

والأوجه في ذلك أن يقول [العبد][1] حين دخوله المسجد ليس فيه أحد: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» وربما قال - وهو أتم للمعنى: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» وهذا لازم في مسجد الرسول ﷺ ثم في غيره فضيلة، وحيثما كان فسلامه يبلغ إليه ﷺ وقد جاء ذلك عنه ﷺ.

وقال رسول الله ﷺ: «**من صلى علي واحدة صلى الله عليه بها عشرًا**»[2] والسلام كذلك والله أعلم.

قال الله سبحانه: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام:١٦٠].

أتبع ذلك قوله: ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾ [النور:٦١] قال الله - عزَّ من قائل: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس:٥٨] ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [إبراهيم:٢٣] يعني: في الجنة، وأرى - والله أعلم - أن مفهوم قوله هنا: ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾ [النور:٦١] وصف لتحية هذا الداخل المسجد إذا سلم على نفسه أو على جماعة مرَّ بها من المسلمين، ومن غاب من عباد الله الصالحين، وإن ذلك إعلام منه أن هذه التحية هي من عند الله حباه بها ومن في المسجد، ومن غاب من صالحي عباده على لسان نفسه.

قال رسول الله ﷺ: «**ما من عبد توضأ فأحسن الوضوء ثم عمد إلى بيت من بيوت الله ليصلي فيه إلا تبشبش الله له كما يتبشبش أهل الغائب بطلعته إذا قدم من**

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٦٤٣)، ومسلم (٤٠٨)، وأبو داود (١٥٣٠)، والترمذي (٤٨٥) وقال: حسن صحيح، والطبراني (٤٧١٧)، والنسائي في الكبرى (٩٨٩١)، وأحمد (٨٨٦٩)، وابن حبان (٩٠٤)، والحاكم (٢٠١٨) وقال: صحيح الإسناد، والبيهقي (١٥٥٤)، والضياء (١٨٧٠).

غيبته»[(١)].

وفي أخرى: «إلا قال الله له في ملكوت عرشه: عبدي زارني وعليَّ قراه، ولن أرضَ له بقرى إلا في الجنة»[(٢)].

فهذا معنى قوله ﷻ: ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾ والله أعلم بما ينزل؛ لذلك أعقب بقوله الحق: ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: كما في الجنة تحيتكم، تحيتكم هنا غير أن التحية في الجنة ظاهرة وفي هذه باطنة ﴿يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [النور:٦١] أي: هذه بهذه ﴿وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾﴾ [النور: ٦٢ - ٦٤].

ثم أرجع المعنى إلى الأمر بطاعة الرسول وأن من رضاه ﷻ ألَّا يخرج أحد من جمع جمعهم إليه وأمر حزبهم إلا بإذنه وأمره، وذم المتسللين عنه المتلوذين بقلة طاعتهم، وثقل أمره عليهم، وكان المنافقون إذا أراد رسول الله ﷺ [الخروج][(٣)] إلى جهاد أو أراد أن يجمع المسلمين لأمر كحفر الخندق وغيره تسللوا وذهبوا عنه، وأوعدهم على ذلك وعيدًا شديدًا بقوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن

---

(١) أخرجه الحاكم (٧٢٧)، والطيالسي (٢٤٤٥)، وأحمد (٨٢٨٦)، وابن ماجة (٨٤٩)، وابن حبان (١٦٣٢)، وابن خزيمة (١٤١١).

(٢) أخرجه أبو يعلى (٤١٤٠)، وأبو نعيم في الحلية (٣/١٠٧)، والضياء (٢٦٧٩) وقال: إسناده حسن.

(٣) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾[1] أي: في الدين فلا يهتدوا لمرشد **﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** [النور:٦٣] في الدنيا والآخرة، [فاتقى عبد][2] ربه ولا يترك طاعة نبيه إلى طاعة سواه.

قوله تعالى: **﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾** أي: لا تدعونه: يا محمد، باسمه ولا باسم أبيه ولا بكنيته، بل قولوا: يا نبي الله، يا رسول الله، ونحو هذا، ويتخرج أيضًا على معنى آخر: لا تجعلوا دعاءه [إليكم][3] إلى طاعته كدعاء بعضكم بعضًا، إنما طاعته من طاعة الله **﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾** [النور:٦٣] المعنى [وقد تقدم][4] ختم السورة بجامعة معنى السورة كلها.

قوله الحق: **﴿أَلَا إِنَّ لله مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾** هذا من نوره في السماوات والأرض، ثم قال: **﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾** [النور:٦٤] هذا من معنى ما فيها من أمر ونهي ووعظ ووعد ووعيد.

قوله ﷻ: **﴿قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾** [النور:٦٣] وقوله: **﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾** [النور:٦٤] حرف «قد» كما قالوا: يجيء بمعنى التوقع لأمر

---

(١) الفاء في قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ لترتيب الحذر، أو الأمر به على ما قبلها من علمه تعالى بأحوالهم، فإنه مما يوجب الحذر ألبتة، والمخالفة كما قال الراغب: أن يأخذ كل واحد طريقًا غير طريق الآخر في حاله أو فعله، والأكثر استعمالها بدون «عن» فيقال: خالف زيد عمرًا، وإذا استعملت بـ«عن» فذاك على تضمين معنى الإعراض. وقيل: الخروج؛ أي: يخالفون معرضين أو خارجين عن أمره. وقال ابن الحاجب: عدى يخالفون بـ«عن» لما في المخالفة من معنى التباعد والحيد، كأنه قيل: الذين يحيدون عن أمره بالمخالفة، وهو أبلغ من أن يقال: يخالفون أمره. وقيل: على تضمين معنى الصد. وقيل: إذا عدى بـ«عن» يراد به الصد دون تضمين، ويتعدى إلى مفعول بنفسه، يقال: خالف زيدًا عن الأمر؛ أي: صده عنه، والمفعول عليه هنا محذوف؛ أي: يخالفون المؤمنين؛ أي: يصدونهم عن أمره، وحذف المفعول؛ لأن المراد تقبيح حال المخالف، وتعظيم أمر المخالف عنه، فذكر الأهم وترك ما لا اهتمام به، وقد يتعدى بـ«إلى» فيقال: خالف إليه؛ إذا أقبل نحوه. تفسير الألوسي (٢٤/١٤).

(٢) في النسخة (خ): «فأبقى عند».

(٣) في النسخة (خ): «إياكم».

(٤) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

مترقب، وقد يجيء الإخبار عن وجوب الشيء في الفرط أو على الأكثر، كما قال الشاعر:

قَدْ يُدْرِكُ الْمُتَأَنِّي بَعْضَ حَاجَتِهِ   وَقَدْ يَكُونُ مَعَ الْمُسْتَعْجِلِ الزَّلَلُ

هذا إذا اقترن هذا الحرف بفعل مستقبل والله - جل ذكره ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الأَرْضِ﴾ [سبأ:٣] وقد علم الكائنات جميعًا قبل تكوينه إياها كتبها في الذكر الأول كل إلى إنابة، يؤجل إلى آجاله، فأجل كل كائن مترقب وأجله مؤقت.

فتخريج قوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ [النور:٦٣] أي: ذلك قد بدا منكم فيعلمه الله واقعًا منكم كما كان قبل يعلمه أنه سيقع منكم، وعلى المخلوق تختلف الأحوال كذلك قوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ [النور:٦٤] أي: قد ظهر ذلك منكم ووقع قد علمه قبل منكم في الأزل أنه كائن، وقد يعلم الآن أنه واقع، كما يقال: قد يطلع الفجر، إذا بدت تباشيره، ويقولون: قد يدخل البرد، قد يظهر الحر، قد تطلع الثريا، قد يطلع نجم كذا عند أوائل ذلك.

كذلك قوله - جلَّ من قائل: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ١٤٤] أي: أن الذي بدا منهم قد قدرناه في الأزل من توجيه العباد إلى البيت الحرام، ثم من توجيههم إلى بيت المقدس، ثم من توجيههم إلى البيت الحرام؛ لعود أواخر الكلمة إلى أوائلها، قد نعلم يا محمد سبب ذلك بتقليبنا لوجهك في السماء ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة:١٤٤] المعنى قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ...﴾ [النور:٦٣].

تفسير سورة الفرقان[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) هذه السورة مكية في قول الجمهور، وقال ابن عباس وقتادة: إلّا ثلاث آيات نزلت بالمدينة وهي: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ...﴾ إلى ﴿رَحِيمًا﴾ وقال الضحاك مدنية إلا من أولها إلى قوله ﴿ولا نشورًا﴾ فهو مكي، ومناسبة أول هذه السورة لآخر ما قبلها أنه لما ذكر وجوب مبايعة المؤمنين للرسول وأنهم إذا كانوا معه في أمر مهم توقف انفصال واحد منهم على إذنه وحذر من يخالف أمره وذكر أن له ملك السماوات والأرض وأنه تعالى عالم بما هم عليه ومجازيهم على ذلك، فكان ذلك غاية في التحذير والإنذار ناسب أن يفتتح هذه السورة بأنه تعالى منزه في صفاته عن النقائص كثير الخير، ومن خيره أنه (نزل الفرقان) على رسوله منذرًا لهم فكان في ذلك اطماع في خيره وتحذير من عقابه، و(تبارك) تفاعل مطاوع بارك وهو فعل لا يتصرف ولم يستعمل في غيره تعالى فلا يجيء منه مضارع ولا اسم فاعل ولا مصدر، قال ابن عباس: لم يزل ولا يزول، وقال الخليل: تمجد، وقال الضحاك: تعظم، وحكى الأصمعي تبارك عليكم من قول عربي صعد رابية فقال لأصحابه ذلك، أي تعاليت وارتفعت، ففي هذه الأقوال تكون صفة ذات، وقال ابن عباس أيضًا والحسن والنخعي: هو من البركة وهي التزايد في الخير من قبله، فالمعنى زاد خيره وعطاؤه وكثر، وعلى هذا يكون صفة فعل وجاء الفعل مسندًا إلى (الذي) وهم وإن كانوا لا يقرون بأنه تعالى هو الذي نزل الفرقان فقد قام الدليل على إعجازه فصارت الصلة معلومة بحسب الدليل، وإن كانوا منكرين لذلك، وتقدّم في آل عمران لمَ سمي القرآن فرقانًا، وقرأ الجمهور (على عبده) وهو الرسول محمد ﷺ وقرأ ابن الزبير على عباده أي الرسول وأمته كما قال (لقد أنزلنا إليكم) (وما أنزل إلينا) ويبعد أن يراد بالقرآن الكتب المنزلة، وبعبده من نزلت عليهم فيكون اسم جنس كقوله (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) والضمير في (ليكون) قال ابن زيد: عائد على (عبده) ويترجح بأنه العمدة المسند إليه الفعل وهو من وصفه تعالى كقوله: (إنّا كنا منذرين) والظاهر أن (نذيراً) بمعن منذر، وجوز أن يكون مصدرًا بمعنى لإنذر كالنكير بمعنى الإنكار، ومنه (فكيف كان عذابي ونذر) و(للعالمين) عام للإنس والجن، ممن عاصره أو جاء بعده وهذا معلوم من الحديث المتواتر وظواهر الآيات، وقرأ ابن الزبير (للعالمين) للجن والإنس وهو تفسير (للعالمين)، ولما سبق في أواخر السورة ألا إن لله ما في السماوات والأرض فكان إخبارًا بأن ما فيهما ملك له، أخبر هنا أنه له ملكهما أي قهرهما وقهر ما فيهما، فاجتمع له الملك والملك لهما. انظر [تفسير البحر المحيط (٣٤٢/٨)].

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾ [الفرقان: ١ - ٦].

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١] تمجيد الله - جلَّ ذكره - بأنه أنزل الفرقان على عبده تبارك تفاعل من البركة، والبركة لزوم المدائح كلها والمحامد أجمعها، والخير وده والحُسن كله، والأسماء الحسنى ومعاني الصفات العُلا، وبقاء ذلك ودوامه، والفرقان وزنه: فعلان، كسبحان وحسبان وقربان وقرآن[1].

وقد يكون القرآن الفرقان من حيث فرق بين الحق والباطل، وبيَّن المواعظ والأحكام وغير ذلك من المعاني، وقد يكون وصفًا لصفة تكون من الله - جل ذكره - وموهبة يهبها من يشاء من عباده، والفرقان اسم من أسماء الحق المبثوث في العالم الموجود عن أسماء الله وصفاته فيه، به خلق السماوات والأرض وما بينهما، والفرقان موجود على القول بالخصوص عن اسمه الحق، واسمه المتين والمصور إن حل في الظاهر كان صورة يميز بها من سواه وإن كان في الباطن، والمعاني كان نورًا وفرقانًا.

قال الله ﷻ: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة:٥٣].

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الحديد:٢٨].

---

(١) انظر: التبيان (٢/١٦٠)، والدر المصون (٥/٢٤١).

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [الأنفال:٢٩] المعنى إلى آخره[١].

وقرأ ابن الزبير: «تبارك الذي نزل الفرقان على عباده»[٢] بالألف على الجمع.

قوله ﷻ: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي المُلْكِ﴾ [الفرقان:٢] استحق المحامد بأسرها والثناء الحسن بأجمعه؛ لأنه لم يتخذ ولدًا ولم يكن ذلك في نعوت تعاليه؛ ولأنه لم يكن له شريك في ملكه ولا ظهير استعان به على ما خلقه، سبحانه وله الحمد كما ينبغي لكريم وجهه وعز جلاله وعلو شأنه ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [الزخرف:٨٥].

وهو الذي خلق كل شيء جملةً وتفصيلاً، فالجملة العالم كله بأسره كان في علم خالقه موجودًا مصورًا قانتًا له في غيبه، كما أنه قانت حال شهوده، يراه بارئه في أزله ويسمعه، كما الآن على ذلك قدره غيبًا في أزله الذي لا أول له، ثم أوجده يوم أوجده على سواء ما قدره لم يستزد به علمًا خلا أنه الآن مشهود لنفسه وموجود، وقد كان قبل عدمًا وفقدًا، وعلى المخلوق تختلف الأحوال لا على الخالق تعالى عن ذلك، فمن الواجب القضاء أيضًا بأن كل موجود تضمنته الجملة وشمله الوجود الكلي كذلك أيضًا قانت عابد ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور:٤١].

فإذًا قد كان كل هناك - أعني: في الأزل - عاملاً على شاكلته من حيث التقدير والعلم والشهود له بذلك كله بما هو الآن عامل ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى العَالَمِينَ﴾ [الدخان:٣٢] كذلك خلقهم على علم بما هم عاملون؛ لأنهم قد كانوا في موجود علمه حال عدمهم بذلك عاملون شهادةً منه لهم وعلمًا بهم لا عملاً منهم ولا حالاً لعدمهم، ولما أخرجهم لما قد علمه منهم عملوا بذلك، فكل إذا يستذكره ما ذكره به في الأزل ويستعمله بما لم يزل يعلم أنه عامله.

---

(١) انظر: اللسان (مادة: فرق).

(٢) انظر: قراءة ابن الزبير هذه في: البحر المحيط (٦/٤٤٠).

وفائدة هذه المسألة إزالة الإشكال في سبيل القول بالإحالة في حدث العالم، وسبيل القول بالتجويز في قدمه فهو محدث؛ لأنه لم يكن ثم كان، وهو مربوب؛ لأنه مخلوق مدبر مفصل وموصل، وهو قديم؛ لكونه معلومًا لخالقه مشاهدًا لبارئه، فحدثه محدثه؛ لأنه مستفتح الوجود، فهو محدث لنفسه وقدمه؛ لأنه كان في علم خالقه معلومًا وعنده مذكورًا، فقدمه إذًا لغيره لا لنفسه، ومن ها هنا تشعب الخلاف، قال رسول الله ﷺ: «**أعرفكم بالله أعرفكم بنفسه**»[1] وقد قيل: من لم يستدل على المعرفة بالله - جل ذكره - بصنعه لنفسه، فلم يعرف الله إلا بالاسم لا بحقيقة المعنى.

قال الله - جل ذكره - في الكُلي: ﴿**اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ [الزمر:٦٢] ﴿**وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا**﴾ [الفرقان:٢].

وقال في الجزئي: ﴿**قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ**﴾ [عبس:١٧-١٩] ﴿**هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا**﴾ [الإنسان:١] أي: لم يكن مذكورًا في نفسه ولا لنفسه، بل كان مذكورًا عند بارئه، فإذا كان مذكورًا لا لنفسه إلى آخر المعنى فجملة العالم موجودة عند الله - جل ذكره - بالقوة؛ أي: علمًا بها وقدرةً عليها ومريدًا لها كيف شاء وبِمَ ولِمَ ومتى على الإجمال والتفصيل وتفصيل التفصيل إلى آخره.

ثم لما أوجدها - أعني: الجملة - صارت موجودة بالفعل على ما سبق منه بها في الأزل، لا زيادة فيها ولا نقصان منها، وعلى الموجود تختلف الأحوال لا على الموجد ﷻ فلأن كان موجودًا عند بارئه علمًا وقدرةً ومشيئةً كان مفطورًا على معرفة خالقه لأنه فطره؛ أي: أخرجه إلى وجوده عن حال عدمه؛ ولأنه لم يكن موجودًا لنفسه جهل أمره ونسي ما فطر عليه، ولكونه الأول هو الآن إذا استذكره ذكر، وإذا فكر علم، وكان كل ما علمه تذكيرًا وإلهامًا لما نسيه وغفل عنه مما هو مخبوء في حقيقته ﴿**أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [الشورى:٩] إلى قوله: ﴿**فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ**

---

(١) تقدمت الإشارة إليه.

أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] تفهم الإشارة وتفقه في العبارة واعبر من ظاهر إلى باطن ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الفرقان:٣] عجب - جل ذكره - من إيجادهم آلهة من دونه إلى حيثما تقدم ذكره من تحقيق إحاطة الخالق والآمر جملةً وتفصيلاً، وإنما تتبين الأضداد بحقائقها.

أتبع ذلك ما حكاه عنهم ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرًا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان:٣] من قولهم: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ﴾ يعنون: القرآن ﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ [الفرقان:٤] يعنون: أهل الكتاب، قالوا: هو سلمان.

قال الله ﷻ: ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل:١٠٣] وقرأها يعقوب: «اللسان الذي يلحدون إليه أعجمي» يعني وهو أعلم: أهل الكتاب، وهذه القراءة أعلى - والله أعلم - إذ سورة الفرقان مكية، وإنما جاء سلمان مسلمًا بالمدينة، وكذلك عبد الله بن سلام[١].

قال الله - جلَّ من قائل: ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ [الفرقان:٤] الظلم منهم هنا: افترائهم على الرسول والقرآن ووصفهم لهما بالشعر والسحر والكهانة وأساطير الأولين اكتتبها، وهذا هو الزور؛ إنه ﴿أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾[٢] [الفرقان:٥] وفي غير هذه القراءة: «اكتتبها» على وزن مفعول لم يسم فاعله، والزور في الشهادة: الميل بها إلى الباطل عن حقيقة ما هي عليه[٣].

---

(١) تفسير مقاتل (٤٣٠/٢). وانظر: الوسيط (٣٣٤/٣)، وزاد المسير (٧٢/٦ - ٧٣).

(٢) قرأ طلحة: «اكتتبها» مبنيًا للمفعول، والمعنى: اكتتبها له كاتب؛ لأنه كان أميًا لا يكتب، ثم حذفت اللام، فأفضى الفعل إلى الضمير، فصار اكتتبها إياه، ثم بنى الفعل للضمير الذي هو «إياه» فانقلب مرفوعًا مستترًا بعد أن كان منصوبًا بارزًا، كذا قال في «الكشاف». واعترضه أبو حيان ﴿فَهِيَ تملى عَلَيْهِ﴾ أي: تُلقى عليه تلك الأساطير بعد ما اكتتبها؛ ليحفظها من أفواه من يمليها عليه من ذلك المكتتب؛ لكونه أميًا لا يقدر على أن يقرأها من ذلك المكتوب بنفسه، ويجوز أن يكون المعنى: اكتتبها: أراد اكتتابها. فتح القدير (٢٦٠/٥).

(٣) الكشاف (٢٦٩/٣).

يقول الله سبحانه وقوله الحق: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان:٦] يستعتبهم ويدعوهم ويعرفهم نفسه على ما هم عليه، سبحانه وله الحمد.

﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الفرقان: ٧ - ١٢].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان:٧] قالوا هذا على سبيل التهزئة والإنكار منهم، إن يبعث الله بشرًا رسولاً[١]

(١) قال الشيخ الألوسي (٣٢٨/٥): وليس في الآية على هذا دليل على تفضيل الملائكة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فيما هو محل النزاع كما زعم الجبائي لأنها إنما وردت رداً على الكفار في قولهم (مَا لهذا الرسول) الخ وتكليفهم له عليهم الصلاة والسلام بنحو الرقي في السماء. ونحن لا ندعي تميز الأنبياء على الملائكة عليهم الصلاة والسلام في عدم الأكل مثلا والقدرة على الأفاعيل الخارقة كالرقي ونحوه ولا مساواتهم لهم في ذلك بل كون الملائكة متميزين عليهم عليهم الصلاة والسلام في ذلك مما أجمع عليه الموافق والمخالف ولا يوجب ذلك اتفاقاً على أن الملائكة أفضل منهم بالمعنى المتنازع فيه وإلا لكان كثير من الحيوانات أفضل من الإنسان ولا يدعي ذلك الاجماد . وهذا الجواب أظهر مما نقل عن القاضي زكريا من أن هذا القول منه وليس في الآية على هذا دليل على تفضيل الملائكة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فيما هو محل النزاع كما زعم الجبائي لأنها إنما وردت رداً على الكفار في قولهم (مَا لهذا الرسول) إلخ، وتكليفهم له - عليهم الصلاة والسلام - بنحو الرقي في السماء. ونحن لا ندعي تميز الأنبياء على الملائكة في عدم الأكل مثلاً والقدرة على الأفاعيل الخارقة كالرقي ونحوه ولا مساواتهم لهم في ذلك بل كون الملائكة متميزين عليهم في ذلك مما أجمع عليه الموافق والمخالف ولا يوجب ذلك اتفاقًا على أن =

﴿لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا * أَو يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَو تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ [الفرقان:٧ - ٨] تعجب من جهلهم؛ إذ لم يتعد علمهم الدنيا؛ فاقتصروا عليها ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَّسْحُورًا﴾ [الفرقان:٨].

أتبع ذلك قوله الحق: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾ [الفرقان:٩] يعلمه بمواريث الأعمال ويعجبه؛ لذلك يقول: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا﴾ عن أن يهتدوا بما أرشدتهم إليه من النصيحة، لما قابلوا نعمة الله عليهم ورسوله وكتابه بالكفر والتكذيب، أضلهم عن هدايتهم وفتنهم عن سواء طريقه، فجاء من الفقه في هذا أنه من كفر بالرسول لم يهتد به وكذلك الكتاب، ومن أعرض عن تفهم كتاب ربه أعرض الله عنه بالفهم عنه والفقه فيه، وربما لم يهتد به، ومتى لم يهتد به كذب به لا محالة، حديث الله وقوله الحق: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ الله حَدِيثًا﴾ [النساء:٨٧] ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف:١١].

ولذلك عجب بقوله الحق: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ﴾ يقول فنالهم حكمنا بمواريث الأعمال فهم لذلك قد ضلوا عن هدايتهم ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ إليها ﴿سَبِيلاً﴾ [الفرقان:٩] هذا أورثهم قولهم وعملهم، أعماهم الله وأصمهم فهم لا يسمعون ولا يبصرون، بل على قدر ما يتفرع لسماع كلام ربه بعد تقديم الإيمان به والاستسلام والإعظام والإجلال منه؛ لذلك يكون علمه ويقينه، فأبقي عند ربه، وليقبل إلى ربه بالإيمان والتسليم له، وليفرّغ لكلام ربه قلبه، وليلق الكنف بين يديه، ويتبرأ من الحول والقوة إليه، وليقل: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:١١٤] لا علم لي إلا ما علمتني إنك أنت العليم الحكيم.

قوله ﷻ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾ [الفرقان:١٠] مجدّ رب العزة نفسه وتمدح بقدرته على إمضاء مشيئته وإنجاز وعده، على أن يجعل له في الدار الآخرة خيرًا من

= الملائكة أفضل منهم بالمعنى المتنازع فيه وإلا لكان كثير من الحيوانات أفضل من الإنسان.

وصفهم، الذي قصرت عقولهم عليه جنات باقية وقصورًا عالية، هذا - والله أعلم - في الدار الوسطى دار البرزخ، ثم في الدار الآخرة خير من هذه وهذه، ويجعل له قصورًا حيث لا يصيبه موت ولا يلحقه فوت.

أتبع ذلك بالتذكير بما أغفلوه والتعليم لما جهلوه، قوله - جل قوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ وهي مفتح لما وراءها من عظيم الوجود الذي جهلوه ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ [الفرقان:١١].

ثم أخذ في وصفها في حقهم بقوله: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان:١٢] الزفير: اجتماع النفس في الجوف ثم يخرج دفعة واحدة، وهو الشهيق[١] وقال في موضع آخر: ﴿سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ * تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الغَيْظِ﴾ [الملك:٧ - ٨].

فصل

أخبر الله سبحانه وهو العليم الخبير أن جهنم - أعاذنا الله منها - ترى وتتنفس، وأن من تنفسها الزفير تغيظًا منها على أعداء الله سبحانه، وقد تقدم فيما مضى أن كل شيء جماد أو نبات أو حيوان أو إنسان، وبالجملة فالعالم كله صائر في سنن حكمة الله - جل ذكره - إلى النشوء في الدار الآخرة، يكمل الأمر جدًّا فيعلو الأعلى على غير قياس، ويلحق الأدنى بالكمال المقدور له أن يبلغه، فافهم.

وقد جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**من انتمى إلى غير أبيه، أو ادعى إلى غير مواليه، أو كذب علي متعمدًا فليتبوأ بين عيني جهنم مقعدًا**» قيل: يا رسول الله ولجهنم عينان؟ قال: «**أولم تسمعوا قول الله**: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان:١٢]»[٢].

---

(١) ذكره ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن (ص:٣١٠)، وابن الجوزي في زاد المسير (٧٥/٦).

(٢) أخرجه أبو نعيم في معرفة الصحابة (٦٥٧٦) والبوصيري في إتحاف الخيرة (٣١٨)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٨٧/١) وعزاه إلى البزار وفيه عبد الرزاق بن عمر ضعيف لم يوثقه أحد.

عبرة:

ثبت عن رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - حديثه المشهور الذي يقول فيه: «**إن النار اشتكت إلى ربها، فقالت: يا رب أكل بعضي بعضًا، فأذن لي أن أتنفس، فأذن لها بنفسين؛ نفس في الشتاء، ونفس في الصيف...**»(١).

وقال الله - عزَّ من قائل: ﴿مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ [فاطر:٢] ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾ كما قال: ﴿بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً﴾ [الأعراف:٥٧].

وقد يجمع بقدرة الله وبرحمته في الماء المكون ذلك الخير، والسحاب من فيح جهنم ما غلب من كلا النفسين على لوح الجو، فتخرج الملائكة - عليهم السلام - بقدرة الله نار ما هنالك بروقًا وزمهريرًا، ذلك بردًا وتنفسها رعدًا، وحقيقة ما هنالك فيها صواعق يرسل الله البرد والصواعق على من يشاء ويصرفه عمن يشاء، كل ذلك آيات ما ها هنا على ما هنالك، فالصواعق آيات على ما ترمي به هنالك من شررها كالقصر و﴿كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ﴾ [المرسلات:٣٣].

﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٨٧)، ومسلم (٦١٧)، والترمذي (٢٥٩٢)، وابن ماجة (٤٣١٩)، وأحمد (١٠٥٤٥)، ومالك (٢٨)، والشافعي (١/٢٧)، وابن حبان (٧٤٦٦).

كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ [الفرقان: ١٣ - ٢٠].

والرعد آية على ما لها هنالك من زفير وشهيق وتقصف عبراته هنا، منها تسبيح وتسخير للعباد وصلاح للأرض ومن عليها، وهناك هو منها تغيظ وحنق على من عصى ربها - جل ذكره - ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا﴾ من النار التي هو عنها ﴿وَطَمَعًا﴾ أي: في الحياة لمصاحبة الرحمة إياها ﴿وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ * وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ لذلك قال ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ﴾ أي: لو فهموا عن آياته لشاهدوها وشاهدوا ما هي عليه آيات عيانًا لكنه ﴿شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ [الرعد:١٢ - ١٣] ويمكرون بأنفسهم فيمكر الله وهو خير الماكرين.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا﴾ [الفرقان:١٥] أعاد معنى الكلام إلى قوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾ [الفرقان:١٠] يقول - والله أعلم بما ينزل: أمَّا الدنيا التي هي همكم ومبلغ معقولكم فلستم متروكين فيها، وإنما هي الساعة والدار الآخرة فيها جهنم بسعيرها وزمهريرها، وما ضمنته من عذاب وأنكال وهوان أو جنة عالية زادت على الأماني، وأربت على العلوم مع الخلود والدوام في هذه أو هذه، فأيُّما خير نزلاً ومصيرًا ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ﴾ أي: الساعة والبعث والنزول في إحدى تلك الدارين ﴿وَعْدًا مَّسْئُولاً﴾[1]

(١) فيه ثلاثة أوجه: **أحدها**: أنه وعد الله لهم بالجزاء فسألوه الوفاء فوفاه، وهو معنى قول ابن عباس.

الثاني: الملائكة تسأل الله لهم، فيجابون إلى مسألتهم، وهو معنى قول محمد بن كعب القرظي.

الثالث: أنه سألوا الله الجنة في الدنيا ورَغِبُوا إليه بالدعاء فأجابهم في الآخرة إلى ما سألوا وأعطاهم ما طلبوا، وهو معنى قول زيد بن أسلم. النكت والعيون (١٩٣/٣).

[الفرقان:١٦] وموضع لزام هذا الخطاب قوله الحق: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٤].

وقال في إعادة الخلقة ثانية ﴿مِنْهَا﴾ يعني: الأرض ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه:٥٥] كذلك لما خلقنا مما انبنت عليه دار الدنيا من فيح وفتح أساع ذلك في أجواء الهواء من الأرض والأصول التي خلقنا عنها، كان ذلك لزامًا أن يعيدنا فيما خلقنا وعدًا بأنه ظاهرًا وباطنًا، ولم يكن لأحد أن يتخلص من النار التي صيرها عذابًا إلا برضاه، ولا يدخل الجنة التي جعلها نعيمًا وفوزًا وظفرًا بالمرغوب كله إلا برضاه، فامتن على عباده.

وبتبيين سبيل مرضاته من سبل مساخطه فخلق على ذلك عالمه أرضه وسماه وما بين ذلك، وأرسل به رسله وكتبه، فالجنة للمتقين التي دل عليها فيما هاهنا بفتح رحمته وما خلق عن ذلك، والنار للعاصين التي دل عليها فيما هاهنا بالفيح من جهنم - أعاذنا الله برحمته - ثم في هذه وهذه موجود دار الآخرة من رؤية الله - عزَّ جلاله - بما تبع ذلك من نعيم وجاه وإكرام في الجنة، وفي جهنم البعد عن الله الرحمن الرحيم - عز جلاله - نعوذ بالله من بعده وما تبع ذلك من مقت وهون وعذاب وخزي إلى غير ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ [الفرقان:١٧] هذا منه تقرير للمتبوعين ليبين كذب التابعين لهم ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الفرقان:١٨] وقرأها الحسن: «سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نُتخَذ من دونك من أولياء» بضم النون وفتح الخاء، وكذلك روي عن النبي ﷺ من رواية معاذ - رحمة الله عليه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان:٢٠] انتظم هذا بقولهم: ﴿مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان:٧] ردًّا عليهم.

أتبع ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ [الفرقان:٢٠] سبحانه وله الحمد قرب هذا ووالاه، وأبعد هذا ولعنه، وأعطى هذا ومنع هذا، وملك هذا

هذا وأخدم هذا هذا.

ثم أعلم بثقل ذلك على النفوس بقوله: ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ [الفرقان:٢٠] يخاطب الجميع، وهو أمر استاقه على صيغة الاستخبار، فوجب على صاحب البلاء أن يصبر على بلائه، وعلى المؤخر أن يعرف حقًا للمتقدم عليه، والعبد أن يعرف لسيده الحق له عليه، وكان سياق هذا الكلام على صيغة الاستخبار تعريفًا بعظيم المثوبة، ثم قال: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان:٢٠] أي: بما يكون منكم من صبر أو شكر، وتقدم في ذلك أو تأخر.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ [الفرقان: ٢١ - ٢٦].

قوله ﷻ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا المَلائِكَةُ أو نَرَى رَبَّنَا﴾ [الفرقان:٢١] لم يأت في القرآن العزيز ذكر اللقاء إلا بلفظ الرجاء، ولا بد من لقائه ﷻ فهي أعظم البشرى كما أن كراهة لقائه أكبر الكبائر بعد الشرك بالله والكفر به، بل عدم الرجاء للقائه من الكبائر، قال الله - عزَّ من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ ثم عطف الكلام بوصف قوم آخرين فقال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ [يونس:٧] ثم جمعهم في سوء المآل بقوله ﴿أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يونس:٨].

وقال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ....﴾ [يونس:٤٥] ويتبع ذلك كراهة الموت، فإنه لا يرى أحد ربه حتى يموت، كذلك قال رسول الله ﷺ: «**إذا أحب العبد لقاء الله أحب الله لقاءه، وإذا كره العبد لقاء الله كره الله لقاءه**»(١) فهذه

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٧)، ومسلم (٦٩٩٦)، والترمذي (١٠٨٧)، والنسائي (١٨٤٧)، وابن =

بشارة منه وترغيب في مطالبة هذه الدرجة.

ولما قالت عائشة: يا رسول الله كلنا نكره الموت، ردها إلى بشارة أخرى دون تلك ذكرت هذا الفصل لما لزمنا من كثرة التغافل عنه حتى أورثنا ذلك كراهة الموت ومحبة البقاء في الدنيا، هذا هو المعهود من جميعنا إلا من شاء الله، نسأل الله حسن عائدته وتعجيل توبته علينا، إنه هو التواب الرحيم. فقال: **«ليس كذلك إن العبد المؤمن إذا حضره الموت وبشر برحمة الله أحب لقاء الله وأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا حضره الموت فبشر بالعذاب** - أو كما قال ﷺ - **كره لقاء الله فكره الله لقاءه»**[١].

وإنما

أتبع ذلك قوله: ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان:٢١] أي: اشتراطهم أنهم لا يؤمنون حتى يروا ربهم ﷻ.

ثم ذكر الموت بقوله: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان:٢٢] أي: بجبريل ؈ بما قال: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء:١٣٨] وبقوله: ﴿إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء:١٤٠].

يقول الله - جلَّ من قائل: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ﴾ أي: عند الموت ﴿لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان:٢٢] أي: حرامًا محرمًا الرجوع إلى الدنيا والنظر إلى الله - جل ذكره.

يقول الله - جل ذكره: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾[٢]

=

ماجة (٤٤٠٥)، وأحمد (٨٣٥٤)، وابن حبان (٣٠٧٢)، وعبد الرزاق (٦٧٤٩)، والدارمي (٢٨١٢) والقضاعي (٤١٠)، والطيالسي (٥٦٩)، والطبراني (١٦٢٨٦)، وأبو يعلى (٣٧٧٣).

(١) أخرجه بنحوه مسلم (٦٩٩٨)، والترمذي (١٠٨٨)، وعبد الرزاق (٦٧٤٨)، والنسائي في الكبرى (١٩٤٦)، وأحمد (١٢٣٧٣)، وابن حبان (٣٠٧٢).

(٢) قال الشيخ الألوسي (١٠٧/٦): إذ الجنة لا نوم فيها. وقال الليث: هي نومة نصف النهار، ودفع الاستدلال بأن ذلك مجاز، وإنما خص إنزال العذاب عليهم في هذين الوقتين لما أن نزول المكروه عند الغفلة والدعة أفظع وحكايته للسامعين أزجر وأردع عن الاغترار بأسباب

=

[الفرقان:٢٤] اتصل معنى هذا الخطاب بمعنى ما تقدم من قوله: ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الخُلْدِ الَتِي وُعِدَ المُتَّقُونَ﴾ [الفرقان:١٥].

ثم قال وقوله الحق: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ المَلائِكَةُ تَنزِيلاً﴾ [الفرقان:٢٥] هذا الكلام مقابل لقولهم: ﴿لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا المَلائِكَةُ أو نَرَى رَبَّنَا﴾ [الفرقان:٢١] فجاء بذكر الملائكة وذكر مُحيَّه النزيه الرفيع - ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه - وفي ذلك تعريض برؤية المؤمنين إياه يومئذٍ، يوم تتبع كل أمة ما كانت تعبد، ويتبع المؤمنون ربهم ﷻ يرونه بوعده الكريم عيانًا كما علموه في الدنيا يقينًا.

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾ [الفرقان:٢٧ - ٣١].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا القُرْآنَ مَهْجُورًا﴾[1]

=

الأمن والراحة، وفي التعبير في الحال الأولى بالمصدر وجعلها عين البيات، وفي الحال الثانية بالجملة الاسمية المفيدة في المشهور للثبوت مع تقديم المسند إليه المفيد للتقوى ما لا يخفى من المبالغة ، وكذا في وصف الكل بوصف البيات والقيلولة مع أن بعض المهلكين بمعزل منهما إيذان بكمال الأمن والغفلة ، وفي هذا ذم لهم بالغفلة عما هم بصدده، وإنما خولف بين العبارتين على ما قيل وبنيت الحال الثانية على تقوى الحكم والدلالة على قوة أمرهم فيما أسند إليهم لأن القيلولة أظهر في إرادة الدعة وخفض العيش فإنها من دأب المترفين والمتنعمين دون من اعتاد الكدح والتعب . وفيه إشارة إلى أنهم أرباب أشر وبطر.

(١) ﴿مَهْجُورًا﴾ أي: متروكًا بالكلية، ولم يؤمنوا به ولم يرفعوا إليه رأسًا، ولم يتأثروا بوعيده ووعده، فمهجورًا من الهجر - بفتح الهاء - بمعنى: الترك، وهو الظاهر، وروي ذلك عن مجاهد والنخعي وغيرهما. واستدل ابن الفرس بالآية على كراهة هجر المصحف وعدم تعاهده بالقراءة فيه؛ وكان ذلك لئلا يندرج من لم يتعاهد القراءة فيه تحت ظاهر النظم الكريم، فإن ظاهره ذم الهجر مطلقًا وإن كان المراد به عدم القبول لا عدم الاشتغال مع

=

[الفرقان: ٣٠] أي: منفورًا عنه مباعدًا، ويكون من الهجر الذي هو قول الخناء.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (٣٢) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣) الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٣٤) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا (٣٥) فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا (٣٦)﴾ [الفرقان: ٣٢ - ٣٦].

قوله تعالى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ [الفرقان:٣٢] أي: هلا نزل، وقد تقدم تحقق معنى «لولا» حيث جاءت في القرآن.

يقول الله - جل ذكره - ﴿كَذَلِكَ﴾ الكاف للتشبيه، وذلك إشارة إلى مشار إليه، والمشار إليه المشبه به في نفس الخطاب، وتقديره: كذلك فعلنا نزلناه جملة واحدة إلى السماء الدنيا، وكان ذلك منا تنزيلاً له إلى صدره نوره وبركته، وجملة معرفة به، قام له ذلك في القرآن كعلم الفطرة لسائر المؤمنين، وكما ملأ جبريل - صلوات الله وسلامه عليهما - صدره وهو صغير حكمةً وإيمانًا.

دلَّ على صحة هذا التأويل قوله الحق: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ أي: كذلك فعلنا بك ﴿لِنُثَبِّتَ﴾ بذلك ﴿فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ [الفرقان:٣٢] أي: قطعناه تقطيعًا على حسب النوازل، ودفع الحاجة من المؤمنين إلى تنزيله في مفترقات المواطن.

عبر عن ذلك قوله: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان:٣٣] ثم جعل يسرد ذكر إرساله الرسل إلى القرون الماضية والأمم الخالية، وتدميره إياهم وإهلاكه لهم، وإعراض هؤلاء عن الاتعاظ بمن مضى منهم على

= القبول ولا ما يعمهما، فإن كان مثل هذا يكفي في الاستدلال فذاك وإلا فليطلب دليل آخر للكراهة، وأورد بعضهم في ذلك خبرًا وهو: «**من تعلم القرآن وعلق مصحفه لم يتعاهده ولم ينظر فيه جاء يوم القيامة متعلقًا به يقول: يا رب، عبدك هذا اتخذني مهجورًا اقضِ بيني وبينه**» وقد تعقب هذا الخبر العراقي بأنه روي عن أبي هدبة وهو كذاب، والحق أنه متى كان ذلك مخلاً باحترام القرآن والاعتناء به كره، بل حرم وإلا فلا. تفسير الألوسي (٨٦/١٤).

ذلك، والغفلة عن النظر لأنفسهم في النجاة مما أصاب أولئك بطاعة الله وتصديق رسله.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الفرقان: ٣٧ - ٤٦].

ثم قال عز من قائل: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا...﴾ [الفرقان:٤١].

أتبع هذا كله ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾ [الفرقان:٤٣] وقرئت هذه الآية: (أرأيت من اتخذ آلهة هواه)[1] يقول جلَّ من قائل: أنت لا تستطيع هدايته، ولا تملك صرفه عن غوايته، ثم وصفهم العليم الخبير، فحطهم عن درجة الأنعام في العقل والهداية، وناهيك من حَطيطه.

قوله - سبحانه وله الحمد: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلى رَبِّكَ كَيفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً﴾ [الفرقان:٤٥] سمى كل ما كان خلقًا للشمس ظلاً، وأخبر بذلك عما يكون ظلاً للأرض عن دوران الشمس، والشمس آية الله - جل ذكره - فيما هنا على تجليه العلي - ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه - في دار القرار فيمكن أن يكون مجيء هذا الخطاب قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلى رَبِّكَ﴾ على معنى قوله: ألم

(١) هكذا النص، ولم أقف على قراءة فيها غير هذه، وانظر في تفسيرها: فتح القدير (١١٢/٤).

تر إلى ربك في آيته يخبر عن نفسه - جل ذكره - بآيته لاستقرار العلم في معهود النبوة والرسالة أن آياته لتحقيقها ما هي عليه، أنه يخبر بالدليل عن المدلول عليه، وهذا لقوة عين اليقين، فقال: ألم تر إلى ربك؛ معناه: ألم تر إلى آية ربك في الشمس ﴿كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ حين غابت الشمس ﴿وَلَوْ شَاءَ﴾ لجعل الليل ﴿سَاكِنًا﴾ لا براح له، والليل آية على آلهة باطلة، لكنه - وله الحمد - جعل ﴿الشَّمْسَ﴾ على الظل ﴿دَلِيلاً﴾ [الفرقان:٤٥] لولاها ما عرف الظلام، وإنما تتبين الضلالة بالهداية والظلام بالضياء، وهكذا بضدها تتبين الأشياء، وإنما هو مثل ضربه له على إدالة الباطل على الحق في بعض الأحايين ونصر الحق على الباطل، وأن ذلك يكون بتدريج وأمر محكم.

لذلك قال، وهو أعلم بما ينزل: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ [الفرقان:٤٦] يقول لما عم الظل الأقطار: ﴿جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً﴾ [الفرقان:٤٥] فهي تطلع من مشرقها والأشخاص تقابلها فينبسط الظلال طولاً، فلا تزال تطلع هي، ويقبض الله تلك الظلال إليه؛ أي: تقدمها قليلاً قليلاً، حتى ينتهي القبض فيها حين استوائها، ثم تدحض عن كبد السماء غاربة فيزيد الظلال قليلاً قليلاً، وقد فات عن انبساطها طولاً في المغرب إلى المشرق، وذلك بسجود الشمس لخالقها - جل ذكره - فيسجد الظلال لسجودها.

هي تقول: لا يحزنك ما تراه من عُلو الباطل وخضوع الحق، فإنما هي أحوال نداولها بين الموجودات، وللصابر صبره وللشاكر شكره، وكما أن الشمس ساجدة حال طلوعها إلى حين استوائها شكرًا لبارئها ﷻ والظلال ساجدة خضوعًا لخالقها حال نقصها وقبضها عن طولها لطلوع الشمس في درجات ارتفاعها من الجو، كما هي قائمة حال استوائها، وقد تقدم أن سجودها وقيامها وجوبها في طريقها على مقادير السماوات.

قال رسول الله ﷺ: «**إن الشيطان يقارنها حال استوائها وأن جهنم تسجر حينئذٍ**»(١).

---

(١) أخرجه بنحوه أحمد (٢٢٢٩٩)، وأبو داود (١٢٧٩)، والطبراني (٨١٠٥) وقال الهيثمي (٢/ =

وهي أيضًا - أعني: الشمس - ساجدة لله جل ذكره حال دحوضها إلى غروبها خضوعًا لخالقها، والظلال كذلك ساجدة لجاعلها شكرًا له حال امتدادها، فكذلك فاعبدوه أنتم في كلتي الحالتين، وسبحوه بكرةً وأصيلاً، وتعبدوا له شكرًا لنعمه وصبرًا على بلائه، حتى يأتي الله بأمره، فرض الله على عباده فرائضه على وفاق قنوت الموجودات، ذلك دين القيمة، فافهم فهمنا الله وإياك عنه.

وهو أيضًا مثل على أن القيمة والذكر واللبس والبيان يتعاقبان، يعزي بذلك رسوله ﷺ ويعلم عباده أن ذلك طريق في الموجودات مسلوك، فلا تستوحشوا الدائرة الباطل، واعلموا إن مع العسر يسرًا.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتٗا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورٗا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ
ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ﴿٤٨﴾ لِّنُحۡـِۧىَ
بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرٗا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ
فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ﴿٥٠﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِى كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ
ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ﴿٥٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ هَٰذَا عَذۡبٞ
فُرَاتٞ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرٗا
فَجَعَلَهُۥ نَسَبٗا وَصِهۡرٗاۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرٗا ﴿٥٤﴾ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمۡ وَلَا يَضُرُّهُمۡۗ
وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرٗا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٥٦﴾ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ
عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ﴿٥٧﴾﴾ [الفرقان: ٤٧ - ٥٧].

أتبع ذلك قوله الحق: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الفرقان:٤٧] الليل يضرب مثلاً للجهل واللبس والنوم والضلال، والإشكال والفتنة والكفر والموت، ولجهنم - أعاذنا الله منها برحمته - ولآلهة باطلة

=

٢٢٥): فيه ليث بن أبي سليم وفيه كلام كثير، والبيهقي (٤٥٦٠)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١٢٥٠)، والروياني (١٢٤٣).

والنهار يضرب مثلاً للبيان والنور والحياة والإيمان، والعلم والإبصار، وللإله الحق - جل وعلا - وللهدى والنشور وللجنة والذكر.

جاء التمثيل بكل هذا في القرآن والحديث بقوله: جعل ﴿اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ أي: ضلةً وإشكالاً ولبسًا ﴿وَالنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ أي: موتًا على حياله، وقوله: ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الفرقان:٤٧] أي: بعثًا من ذلك الموت، آية منه على البعث من بعد الموت، وإخلافه الهدى بعد الضلال قدر هذا وهذا، وأوجدهما فتنةً وذكرًا وضلالةً وهدايةً ونورًا وظلمةً وإيمانًا وكفرًا وموتًا وحياةً.

يقول - عزَّ من قائل: فلا تحزن لضلال الضالين وتثبط المتثبطين وتكذيب المكذبين، فهذا وهذا من حكم الله في عباده، وحكمته في خليقته، وهذا كله المراد راجع به إلى ما تقدم ذكره من لدن صدر السورة إلى هنا.

أتبع هذا قوله الحق: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الفرقان:٤٨] بالنون وبالباء، فالباء من البشرى؛ أي: بشر بالحياة والغيث، ويظهر ذلك في الجو وفي الهواء والأرض والنبات، كما يبدو أثر البشرى في وجه المبشر بها، وأمَّا النور؛ فلأنه ينشر السحاب؛ أي: يظهرها ويوجدها، فيبعثها ويرسل الرياح وينزل المطر وينبت النبات، فيخلق عن ذلك الأنعام وجميع الحيوان على اختلاف أجناسه، وتتغذى به الأناسي والبهائم، فيبعث الله عن ذلك الأنعام والحيوان كله والأناسي، وذلك كله نشور.

فكم في الماء النازل من السماء من نبات على اختلافه واختلاف روائحه وطعومه ومنافعه ومضاره إلى أقصى أوصافه، وكم فيه من حيوان وأنعام ووحوش وكل ذي روح، على اختلاف أنواع ذلك وتباين أوصافه وأخلافه وصوره وما وجد له، وكم فيه أيضًا من إنسان شيب وشبان وأطفال وكهول ونساء ورجال، على اختلاف أنواع ذلك وتباين صورهم وجمالها وقبحها وأخلاقهم وصفاتهم وحركاتهم وأفعالهم وكفرهم وإيمانهم وعلومهم وحلومهم وطاعاتهم وعصيانهم.

أشار إلى ما ذكرنا وأكثر منه بقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا * لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا * وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ﴾ يعني: الماء ﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾ [الفرقان:٤٨-٥٠] بالنشأة الأولى النشأة الآخرة.

قال رسول الله ﷺ: «**ينزل الله من تحت العرش ماء كمني الرجال، فلا يترك على ظهرها من مصرع قتيل ولا مدفن إلا شقت عنه، حتى يخلقه الله من قبل رأسه ويستوي جالسًا**»(١).

ويكون بمعنى قوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ﴾ إن المعني بذلك هو القرآن، صرفه إخبارًا وتمثيلاً وظاهرًا وباطنًا ونصًا وتعريضًا ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾(٢) [الفرقان:٥٠].

ويكون أيضًا المراد بقوله الحق: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفرقان:٥٠] إنما صرفه إلى ما تقدم ذكره وإلى أكثر من ذلك، لكنهم تركوا التذكار وأعرضوا عن المذكرين ﴿نَسُوا اللهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر:١٩] نسأل الله قرب الأوبة وتصحيح التوبة بمنه وطوله.

أتبع ذلك ما هو في معنى ما تقدم قوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾ [الفرقان:٥١].

ثم قال: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٢] إذا كان الخصام والمحاجة في ذات الله سبحانه وتبيين آياته فهو جهاد، ومتى كان لطلب العلو والظهور على الخصماء والارتفاع على الأقران فهو الجدال، وهو مذموم، هذا إذا جاء اسم الجدال معرى من القرائن، فإذا جاء مقيدًا كقوله: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥] ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت:٤٦] فهذا محمود.

قوله - جلَّ ذكره: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان:٥٣] البحر العذب مثل للإيمان وللهدى وللإله الحق، والبحر الملح مثل للكفر والهلاك والضلال وللآلهة الباطلة،

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٦٧٦/٨)، والحاكم (٨٦٥٨)، والبيهقي (٣٦٠).

(٢) قال عكرمة: هو قولهم: «مطرنا بالأنواء». روى الربيع بن صبيح قال: أمطر الناس على عهد رسول الله ﷺ ذات ليلة، فلما أصبح قال النبي ﷺ: «**أَصْبَحَ النَّاسُ فِيهَا بَيْنَ رَجُلَيْنِ شَاكِرٍ وَكَافِرٍ، فَأَمَّا الشَّاكِرُ فَيحْمِدُ اللهَ عَلَى سُقْيَاهُ وَغِيَاثِهِ وَأَمَّا الكَافِرُ فَيقُولُ مطرنا بِنَوءِ كَذَا وَكَذَا**». النكت والعيون (٢٠٤/٣).

يقول ﷻ: مرج هذا مع هذا فاختلطا على حد محدود حده لهما، فلا يبغي العذب المحض على المختلط منهما والملح، ولا موضع المختلط يتعدى قدره إلى هذا ولا إلى هذا.

يقول - جلَّ ذكره: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ يعني، وهو أعلم: موضع اختلاطهما ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان:٥٣] في الثلاثة الأصناف، حيث رق الملح والعذب، وحيث رق المختلط ومحض الملح من الطرف الآخر، والوسط الذي هو حقيقة البرزخ؛ أي: منعًا لكل واحد منهما أن يتعدى حده، ثم قد يكون الحلي المستخرج من البحر المالح واللحم الطري أكثر حدًا، وأحسن ذلك؛ لأنه قدر الفتنة في هذه الدار أكثر، وجعل دوائرها على الأغلب أكثر، والدنيا إلى ذلك الحزب أميل بمتاعها وحطامها، كذلك البحار المالحة أكثر ماء من العذبة وأوسع حدًا، ويكون معنى إيراده هذا في معرض التعرية لنبيه ﷺ والمؤمنين؛ لأجل غلبة الباطل ذلك الوقت وفي أكثر الأحوال إلا ما شاء الله.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ [الفرقان:٥٤] نبه - جل ذكره - على قدرته على خلق البشر من الماء، وأن موجود الإنسان من كونه ماء، كما قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [يس:٧٧] وأنه نوعه نسبًا وصهرًا، فالنسب ما لا يجوز النكاح فيه كالأم والأخت والعمة والخالة، وما قد ذكره الله في كتابه وبينه رسوله، وجعل منه صهرًا، وهو ما ينكح إليه، وهو ما شمله قوله: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ﴾ [النساء:٢٤].

فصل

قال الله - جل قوله: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [النحل:٤] أي: يبين عن نفسه مراداته في خصومته، ويعرب بحجته - عز شأنه - ويكون المراد أيضًا بقوله: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾ أي: مجادل في الله وفي آياته، ويصد عن سبيل الله ويملأ الأرض جورًا وظلمًا، كفرعون والدجال ومن تبعهما وكل من دعا إلى نفسه، وقال هنا: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ [الفرقان:٥٤] فهذا إخبار منه - والله أعلم بما ينزل - عمن أتم الله عليه نعمته، فانتسابه إلى الربانية.

يقول: ربي الله ربي الله وحده لا شريك له، وربما سمي بعبد الله وعبد الرحمن، وبغير ذلك من أسماء العبودية لله - جل ذكره - ويرفع ذكره ويعلي شأنه، حتى ينسبه إلى نفسه بالعبودية والولاية كقوله: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الكِتَابَ﴾ [الأعراف:١٩٦] ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢].

قال الله - جلَّ من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ فهذا انتساب بعضهم إلى بعض، وأمَّا انتسابهم إليه فالتقوى؛ لذلك قال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣].

وفي الثابت عن رسول الله ﷺ قال: «**إذا جمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، يقول الله - جلَّ من قائل: يا أيها الناس إني طال ما صمت وتكلمتم، فاصمتوا لي إني جعلت نسبًا ورحمًا، فقلت: إن أكرمكم عند الله أتقاكم، فأبيتم إلا أنسابكم، فاليوم أرفع نسبي وأضع نسبكم أين المتقون، ويتزوج عبد الله أمة الله على كلمة الله وسنة رسول الله يصدقها مال الله، يأكلان ما رزقهما الله**»[1].

قال رسول الله ﷺ: «**يا معشر المؤمنين لو تعلمون ما أعلم**» إلى قوله: «**لا أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته**»[2].

وقال رسول الله ﷺ: «**مولى القوم منهم**»[3].

وقال الله: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ﴾ [آل عمران:٢٨] فالانتساب إلى الله ﷻ بالعبودية له وابتغاء مرضاته يدخله في ولايته ورحمته.

وقال ﷻ: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ [النساء:٢٥] ولله المثل الأعلى في السماوات

---

(١) أخرجه الحاكم (٣٦٨٥)، والبيهقي (٤٩٢٣)، والطبراني في الصغير (٦٤٢) وفي الأوسط (٤٥١١) وقال الهيثمي (٨/٨٤): فيه طلحة بن عمرو وهو متروك.

(٢) أخرجه البخاري (٩٩٧)، ومسلم (٩٠١)، وأبو داود (١١٨٠)، وابن ماجة (١٢٦٣)، ومالك (٤٤٤)، وأحمد (٢٥٣٥١)، وابن الجارود (٢٤٩)، وابن خزيمة (١٣٨٧).

(٣) سبق تخريجه.

والأرض، هو الله الأحد الصمد ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:٣ - ٤].

لذلك - والله أعلم بما ينزل - ختم المعنى بقوله: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [الفرقان:٥٤] فنسب نبيه ﷺ إلى نفسه، واتصف بالقدرة على خلقه من ماء إلى أن سواه وبلغ به هذا الجاه العريض.

أتبع هذا قوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ [الفرقان: ٥٥] يشنع عليهم عظم ضلالتهم وبيان جسارتهم، يقول - عز من قائل - على هذا البيان وظهور هذه الحقائق، وشياع هذا النور، ووجدان هذا التقريب، وعلو المنزلة وسني المرتبة: هم على هذا من عبادتهم ما لا ينفعهم ولا يضرهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الفرقان:٥٦] يقول - جل ذكره: امضِ لأمرك، وداوم على ما فيه رضا ربك، فأجرك على الله لا عليهم.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان: ٥٨ - ٦٢].

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ أي: اعمل له بطاعته ﴿وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٨] أي: كلهم إلى من إليه إيابهم وعليه حسابهم، ألا يرون أنك لا تسألهم على ما تبلغه إليهم أجرًا، إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً؛ أي: عهدًا يوافيه عليه، واستثنى هدايتهم في الأجر تعريضًا بالمفهوم، من قوله ﷻ: ﴿مَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ [النساء:٨٥].

وبيَّن رسول الله ذلك بقوله: «من دعا إلى هدى فله أجره وأجر من عمل به إلى

يوم القيامة لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا»[(١)].

قوله ﷻ: ﴿فَاسْئَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ يعني: خبيرًا بالحي الذي لا يموت، خالق ﴿السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ الذي ﴿اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ﴾ الذي هو ﴿الرَّحْمَنُ﴾ [الفرقان:٥٩] ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، الخبير به هو آياته في السماوات والأرض وما بينهما، وهذا هو الذي تصح الإحالة عليه في السؤال عنه.

ولما أمر رسوله ﷺ وأمره له أمر منه لكل عبد من عباده بأن يتوكل على الحي الذي لا يموت إلى قوله: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ - جل ذكره - قال له: ﴿فَاسْئَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٩] تقدير الكلام: فأسال عنه خبيرًا، وقراءة زيد بن ثابت الرحمن بالكسر نعتًا للحي الذي لا يموت - جل ذكره - تمجد تبارك وتعالى دالاً على الخبير به.

ثم قال - عز من قائل: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾[(٢)] [الفرقان:٦١] فمفهوم الخطاب سل عنه السماوات والأرض

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٧٤)، وأبو داود (٤٦٠٩)، والترمذي (٢٦٧٤) وقال: حسن صحيح، وابن ماجة (٢٠٦)، وأحمد (٩١٤٩)، وأبو يعلى (٦٤٨٩)، وابن حبان (١١٢)، والدارمي (٥١٣).

(٢) الظاهر أنها البروج الإثنا عشر المعروفة. وأخرج ذلك الخطيب في كتاب «النجوم» عن ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما - وهي في الأصل: القصور العالية، وأطلقت عليها على طريق التشبيه؛ لكونها للكواكب كالمنازل الرفيعة لساكنيها، ثم شاع فصار حقيقة فيها. وعن الزجاج: إن البرج: كل مرتفع، فلا حاجة إلى التشبيه أو النقل. واشتقاقه من التبرج بمعنى: الظهور، والذي يقتضيه مشرب أهل الحديث أنها في السماء الدنيا، ولا مانع منه عقلاً لا سيما إذا قلنا بعظم ثخنها بحيث يسع الكواكب، وما تقتضيه على ما ذكره أهل الهيئة، وهي عندهم أقسام الفلك الأعظم المسمى على ما قيل بالعرش ولم يرد فيما أعلم إطلاق السماء عليه وإن كان صحيحًا لغة سميت بأسماء صور من الثوابت في الفلك الثامن وقعت في محاذاتها وقت اعتبار القسمة، وتلك الصور متحركة بالحركة البطيئة كسائر الثواب، وقد قارب في هذه الأزمان أن تخرج كل صورة عما حاذته أولاً، وابتداؤها عندهم من نقطة الاعتدال الربيعي، وهي نقطة معينة من معدل النهار لا تتحرك بحركة الفلك الثامن ملاقية لنقطة أخرى من منقطة البروج تتحرك بحركته، وإذا لم يتحرك مبدأ البروج بتلك الحركة لم يتحرك ما عداها، وقد جعل الله تعالى ثلاثة منها ربيعية؛ وهي: الحمل والثور والجوزاء، وتسمى «التوأمين» أيضًا، وثلاثة صيفية؛ وهي: السرطان والأسد والسنبلة، وتسمى «العذراء» أيضًا، وهذه الستة شمالية. وثلاثة خريفية؛ وهي: الميزان والعقرب والقوس، ويسمى «الرامي» أيضًا. وثلاثة شتوية؛ وهي: الجدي والدلو ويسمى «الدالي» و«ساكب الماء» أيضًا، =

والبروج والشمس والقمر، وأحال بالمعنى على كل ما خلق الله من شيء بمقتضى اسمه الرحمن، ومفهوم استوائه على العرش.

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان: ٦٣ - ٦٧].

وألحق بذلك - أي: بالخبر به - عباده الذي هم عباد الخصوص فقال: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣] الذين من صفاتهم كذا ومن نعتهم كذا ومن عملهم كذا إلى آخر المعنى؛ أي: فبهذه الأعمال والنظر والتفكر في هذا السبيل يدرك العلم بالله الحي الذي لا يموت، خالق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، الرحمن الذي استوى على العرش، يدبر الأمر، قربه من العرش كقربه من الثرى بوجه ما، وبمعنى يستحق الوصف به، يعلم السر وأخفى وما يعطف له العقبى، ولا يعزب عنه شيء دقَّ أو جلَّ في العلا ولا فيما تحت قرار المنتهى.

فصل

أعلم الله ﷻ أنه استوى على العرش، ولم يعلمنا بأنه أحدث لذاته وصفًا لم يكن عليه قبل، فالاستواء صفة فعل في المستوي له والمستوي عليه، وينزل من المستوى الأعلى - جل ذكره - وذلك الفعل الذي هو الاستواء يوجب في

= والحوت تسمى «السمكتين» وهذه الستة جنوبية، ولحلول الشمس في كل من الأثني عشر يختلف الزمان حرارة وبرودة الليل والنهار طولاً وقصرًا، وبذلك يظهر بحكم جري العادة في عالم الكون والفساد آثار جليلة من نضج الثمار وإدراك الزروع ونحو ذلك مما لا يخفى، ولعل ذلك هو وجه البركة في جعلها. تفسير الألوسي (١٤/١٣٠).

المستوي له والمستوي عليه كمالاً وإتمامًا، إلى غاية من شأنه أن يبلغه إليها بالاستواء، يقول الله - جلَّ من قائل: ﴿**ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ**﴾ أي: أتمهن وفصلهن سبعًا، ثم اتصف بالعلم بعد هذا فقال: ﴿**وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ [البقرة:٢٩].

وقال في آدم: ﴿**فَإِذَا سَوَّيْتُهُ**﴾ أي: أتممته ﴿**وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي**﴾ أكملته ﴿**فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ**﴾ [ص:٧٢] فأهله للإمامة؛ لكماله المجعول فيه بالتسوية ونفخ الروح فيه منه، وكان من تسويته إياه أن جعله مجتبى ومصطفى مؤيدًا بالروح العلي منه، وبذلك علم الأسماء كلها، وبتعليم الله له قال رسول الله ﷺ: «**يؤم القوم أعلمهم وأقرؤهم لكتاب الله**»(١) وفي أخرى: «**وأفقههم**»(٢).

ومن الدلالة على أن أمره ﷻ الملائكة - عليهم السلام - كان على سبيل الإتمام به؛ ليسجد آدم لله إثر نفخ الروح فيه وإكماله إياه بذلك، فيسجدوا لسجوده لله - جل ذكره - ائتمامًا به، صلوات الله وسلامه على جميعهم، قول رسول الله ﷺ: «**إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي يقول: يا ويله، أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار**»(٣) ومن نظر تفقه وعلم لربه تعالى وقف على أن جميع سجود القرآن كله ائتمام بسجود الملائكة وسجود الموجودات.

وقال رسول الله ﷺ: «**إذا كان أحدكم وحده فأذن وأقام صلى معه أمثال الجبال من الملائكة، فإن أقام فصلى صلى معه ملكاه، فما بقي من تلك الإمامة في صالحي ذريته وراثة، ولا ينال عهده الظالمين**»(٤).

(١) أخرجه مسلم (٦٧٣)، وأبو داود (٥٨٢)، والترمذي (٢٣٥) والنسائي (٧٨٠)، وابن ماجة (٩٨٠)، والبيهقي (٤٩١١)، وابن أبي شيبة (٣٤٥١) وأحمد (١٧١٠٤) وعبد الرزاق (٣٨٠٩)، والحميدي (٤٥٧) وابن الجارود (٣٠٨)، وأبو عوانة (١٣٦٣) وابن حبان (٢١٢٧).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (١/٣٧٩)، والطبراني (١٤٠٤٣).

(٣) أخرجه مسلم (٨١)، وابن ماجة (١٠٥٢)، وابن حبان (٢٧٥٩)، وأحمد (٩٧١١)، والبيهقي (٣٥١٦) وابن خزيمة (٥٤٩) وأبو عوانة (١٩٤٥) والطبراني (٩٤٦٣).

(٤) أخرجه عبد الرزاق (١٩٥٥)، والطبراني (٦١٢٠)، وأبو نعيم (٦/٣٢).

عدل بنا الكلام فلنرجع إلى ما كنا فيه، قال الله سبحانه: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد:٤] وقال: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ﴾ [سبأ:٣] سبحانه وله الحمد استوى على العرش، وهو الحي الدائم القيوم الرحمن، فحييت الحملة باستوائه، وقامت بقيوميته وتواصلت وتواشجت، وتعاطفت برحمانيته علوًا وسفلاً وظاهرًا وباطنًا، فهو لذلك أقرب إلى الموجود من نفسه وروحه وذاته، وأقرب من القرب؛ ذلك لمضاء صفاته وعظمة شأنه بحكم الاستواء الذي هو فعله وأمره على ذلك يظهر أمره وتدبيره وحكمه وخلقه على سنن سنته، إلى ما سوى هذا من مقتضيات أسمائه وصفاته.

هذا بحكم التنزل المعبر عنه بالاستواء، آية ذلك تسويته الأجسام بأرواحها وحياتها وصفات ذواتها، وبذلك يحيا المحل ويعلم ويقدر، ويحسن ويعقل ويدرك ما يصيب محله ذلك من لذة وألم، وقد كان ذلك المحل قبل استواء الروح عليه الذي هو العبد بضد ذلك.

والله ﷻ أعلى صفات وأجلى وصفًا لم يزل عالمًا لما قبل الاستواء وبعده، لكن بالاستواء قرب إلينا تحقيق ذلك بالعلم والمشاهدة منا لأنفسنا، قال الله - جل ذكره: ﴿أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم﴾ [الروم:٨] وقال: ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات:٢٠ - ٢١].

فجعل استواء الروح في الجسم وحياة الجسم به وعلمه ما يصيب جسمه آية على ذلك بقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤] وقال: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [البروج:٩].

﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم:٢٧] من تحقق في علم هذه الجملة وعلم ما أشير إليه فيها على القدر المقسوم منه للبشري الضعيف وصل إلى اليقين بذلك، ويسر له ما عسر على سواه ﴿وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

وإنما يكون ذلك بترداد الفكر وتدأب التذكر، والمواظبة على البصر والتبصر بعد اللجأ إلى الله - جل ذكره - كما تقدم، واقتفاء سبل الموصوفين الذين هم عباد الرحمن، فيعطى من علم ذلك على قدر ما بذل من جهده، واستفرغ له من وسعه، وكان - إن شاء الله - من أئمة المتقين، والله ﷻ قد شهد لهم بأنهم عباد الرحمن، وبأنهم الخبراء بعلم العلماء به أحال الطالبين علمه عليهم، كما أحالهم على استرشاد الصنعة ومسألة عجائب الخلقة عند المباحثة.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١) وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤) أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦) قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا (٧٧)﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧٧].

قوله ﷻ: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ﴾ [الفرقان:٧٧] أي: ما يبالي بكم أو ما يصنع بكم؛ أي: بإرساله رسله إليكم، وإنزاله كتبه عليكم، وإنذاره إياكم وإعذاره لكم، لولا أنه يدعوكم إلى عبادته، فيجازيكم بذلك جنة عرضها السماوات والأرض ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ بدعائه إياكم إلى ذلك، وإرشاده لكم إلى مراشدكم ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ﴾ العذاب أو العقاب ﴿لِزَامًا﴾ [الفرقان:٧٧] أي: واجبًا دائمًا، وقد تقدم الكلام في وجوب وجود الخزائن في الدار الآخرة؛ إذ قد تقدم خلقه إيانا منهما.

قال الله - جلَّ من قائل: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ [طه:٥٥] ومن حكمته في الحكمة التي أوجدها ردها على أعقابها وبالمشيئة العالية، ثم بالأمر والنهي، ثم الطاعة من العباد أو العصيان، يختص فريق بالجنة وفريق بالسعير، نعوذ بالله من عذابه، ونسأله رحمته وعميم عافيته ﴿والله يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس:٢٥].

تفسير سورة الشعراء[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾
إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ
مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ
يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾

---

(١) موضوع هذه السورة الرئيسي هو موضوع السور المكية جميعًا، العقيدة: ملخصة في عناصرها الأساسية: توحيد الله: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ والخوف من الآخرة: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ والتصديق بالوحي المنزل على محمد رسول الله ﷺ: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ ثم التخويف من عاقبة التكذيب، إما بعذاب الدنيا الذي يدمر المكذبين؛ وإما بعذاب الآخرة الذي ينتظر الكافرين: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾. ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ ذلك إلى تسلية الرسول ﷺ وتعزيته عن تكذيب المشركين له وللقرآن: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ وإلى طمأنة قلوب المؤمنين وتصبيرهم على ما يلقون من عنت المشركين؛ وتثبيتهم على العقيدة مهما أوذوا في سبيلها من الظالمين؛ كما ثبت من قبلهم من المؤمنين، وجسم السورة هو القصص الذي يشغل ثمانين ومائة آية من مجموع آيات السورة كلها، والسورة هي هذا القصص مع مقدمة وتعقيب، والقصص والمقدمة والتعقيب تؤلف وحدة متكاملة متجانسة، تعبر عن موضوع السورة وتبرزه في أساليب متنوعة، تلتقي عند هدف واحد، ومن ثم تعرض من كل قصة الحلقة أو الحلقات التي تؤدي هذه الأغراض، ويغلب على القصص كما يغلب على السورة كلها جو الإنذار والتكذيب، والعذاب الذي يتبع التكذيب، ذلك أن السورة تواجه تكذيب مشركي قريش لرسول الله ﷺ واستهزاءهم بالنذر، وإعراضهم عن آيات الله، واستعجالهم بالعذاب الذي يوعدهم به؛ مع التقول على الوحي والقرآن؛ والادعاء بأنه سحر أو شعر تتنزل به الشياطين! والسورة كلها شوط واحد مقدمتها وقصصها وتعقيبها في هذا المضمار، لذلك نقسمها إلى فقرات أو جولات بحسب ترتيبها.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٩﴾ [الشعراء: ١ - ٩].

قوله - جلَّ من قائل: ﴿طسم[1] * تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ المُبِينِ﴾ [الشعراء: ١ - ٢].

وقال في سورة النمل: ﴿طس تِلْكَ آيَاتُ القُرآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [النمل: ١].

وقال في سورة الحجر: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ [الحجر: ١].

عطف القرآن على الكتاب، فدلَّ بذلك على أن الحروف المقطعة هذه آيات على الكتاب الأول، كما هي آيات على القرآن وآيات الله التي نصبها شواهد على معرفته، وإن كثرت بكثرة الموجودات وتنوعت بتنوعها، فإنها تبرم إلى موطنين على علمنا، والله أعلم بما وراء ذلك، وهما آياته في موجود ما خلقه، وأوجده وآياته في كتابه فيما نزله وأوحى به، فمن آياته على ما أوحى به حروف الكتابة التي بها يتوصل إلى قراءة كتابه وفهم المراد منه.

قال الله - عزَّ من قائل: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران:٤٨] وذلك منَّة منه ﷻ وهبة لمن يفكر فيها، لم يكن لمتعلمها أن يعلم منها قراءة المكتوب وفهم المراد منه، لولا منَّة الله عليه بذلك.

وقد نبه الله - جل ذكره - عليها من منه بقوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى المُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤] وقال: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ

---

(١) قال الإمام الجنيد: الطاء طرب التائبين في ميدان الرحمة. والسين سرور العارفين في ميدان الوصلة. والميم مقام المحبين في ميدان القربة، وقيل: الطاء طهارة القدم من الحدثان والسين سناء صفاته تعالى التي تكشف في مرايا البرهان. والميم مجده سبحانه الذي ظهر بوصف البهاء في قلوب أهل العرفان. وقيل: الطاء طهارة قلب نبيه ﷺ عن تعلقات الكونين. والسين سيادته ﷺ على الأنبياء والمرسلين عليهم السلام. والميم مشاهدته ﷺ جمال رب العالمين، وقيل: الطاء شجرة طوبى والسين سدرة المنتهى، والميم محمد ﷺ [تفسير الألوسي (١٤ /٤٠٢)].

وقال المهائمي: أي: الطوالع الساطعة للأنوار الماحية للظلمات، أو طوافح الدلائل المساعدة للتحقيق المذهبة للترددات، أو طيبات البراهين السالمة عن القوادح المؤيدة بالكشف، أو طامسات الجهل سريعة الإزالة للعوارض المزيلة للشبهة. [التبصير ٣/١٠٣٤] بتحقيقنا.

﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٥١] يقول: لولا تعليمنا إياكم.

واعلم أن هذا المعنى المشار إليه ينشأ من لدن أدنى ما عبرت عنه الكتابة إلى أن يعبر عن كلام الله - جل ذكره - وفهم مراده في الكتب المنزلة سواه، ثم ينشأ ذلك إلى معرفة ما هي هذه الحروف المقطعة التي هي حروف هذه الكتب آيات عليها، ثم إلى حروف الكتاب المبين الذي هو اللوح المحفوظ، فإنها أفصح عبارة وأوضح دلالة وأنور تبيانًا، مما تقدم على مقدار ما بين الحروف والحروف من خصوصية ورفعة وكذلك العلم بمفهومها.

وذلك المشار إليه المعبر عنه بأنه الهبة والمنة ينشأ التفاضل فيه من لدن أقل الناس معرفة بقراءة الحروف ومعرفة المراد من المكتوب بها إلى العلماء بذلك، ثم إلى علم الملائكة - عليهم السلام - بمكتوب الكتاب المحفوظ، ومعرفة ما عبرت عنه حروف كتابته.

وأمَّا علم الله - جل ذكره - بالكتابة والمكتوب فكعلمه بمشاهدته ما ذكر فيه بتوابع ذلك المعلوم وباطنه وظاهره نظرًا وسمعًا وعلمًا، ولا يحل اعتقاد حدوث الزيادة في علمه ولا النقصان، بل هو شهود حق وعلم حق ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢].

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٣] ينتظم هذا بما تقدم ذكره في غير هذه السورة من ذكر تعزيته إياه، والتهوين عليه من قلة استجابتهم وتوليهم عن الذكر، يقول: **لعلك** مهلك نفسك من أجل تركهم الإيمان بما جئت به، ومفهوم ذلك: أنا لم نرد إفهامهم ولا إيمانهم، فلا يحزنك منهم، لو شئنا ذلك لأتيناهم بآية تخضع لها رقابهم، وينعدم لعزيمتها نفارهم، ثم أكد ذلك عنده بما يظهر من أحوالهم، أولا ترى أنهم ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ﴾ أي: محدث الإتيان ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ [الشعراء:٥].

ثم قال - عز من قائل: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الشعراء:٦] وعيد منه بالإهلاك الذي أصاب به سواهم من الأمم الماضية والقرون

الخالية، يمكن أن يكون المعنى بالآتي لهم هو ما اجتلبه في السورة من إهلاكه من كان قبلهم بمثل ذنوبهم هذه، من تكذيب الرسل والرد عليهم، ويمكن أن يكون المراد بذلك هو ما يكون منهم في الموت وما بعده، وما يصابون به فيما هنالك.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً﴾ [الشعراء:٧ - ٨] أي: على إحياء الله الموتى وعلى بعثهم من بعد الموت، وعلى أن الله هو الحق، وعلى إرساله الرسل، وعلى أن الآخرة موجودة، وعلى هذا ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ﴾ ذو الانتقام ممن عصاه وكذب رسله ورد أمره ﴿الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء:٨ - ٩] لمن آمن به وصدق المرسلين، الرحيم الذي لم يعاجل المكذبين بإهلاكه ونقمته.

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَـٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الشعراء: ١٠ - ٢٨].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ القَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الشعراء:١٠] قوم فرعون، إلى قوله: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾[1] [الشعراء:١٣].

(١) ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى﴾ معطوفان على خبر «إن» فيفيد أن فيه ﷺ ثلاث علل:
=

وقال في موضع آخر: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ [طه:٢٧ - ٢٨].

وقال في موضع آخر: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾ [القصص:٣٤] كان ذلك به لما خرج من مصر، وبعد عهده بلسان القبطيين، وجاور العرب في بلد مدين، ومن المعهود أن يكون الرسول على لسان المرسل إليهم ليبين لهم، اعتذر بعجمة لسانه، وكان هارون - عليهما السلام - لم يغب عن حضرة مصر وإن كان عبرانيًا، فإنه كان من أجل ملازمة الحوار فصيحًا بلغتهم.

قول فرعون لما قالا له - عليهما السلام: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الشعراء:١٦] يقال: رسول للواحد، وللكثير: هذا رسولي، وهؤلاء رسولي، وهذان رسولي.

ثم ﴿قَالَ﴾ لهما ﴿فِرْعَوْنُ﴾ بعد كلام جرى بينهما: ﴿وَمَا رَبُّ العَالَمِينَ﴾ [الشعراء:٢٣] وما لا يسأل بها في لسان العرب، وفي غيره من الألسنة إلا عن ذي جنس، فمن سأل بها عن الله فهو غالط بكل وجه، وكان فرعون دجالاً علا في الأرض وطغى، ودعا إلى نفسه فقال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ [النازعات:٢٤] وعند من

خوف التكذيب، وضيق الصدر، وامتناع انطلاق اللسان، والظاهر ثبوت الأمرين الأخيرين في أنفسهما غير متفرعين على التكذيب؛ ليدخلا تحت الخوف، لكن قرأ الأعرج وطلحة وعيسى وزيد بن علي وأبو حيوة وزائدة عن الأعمش ويعقوب بنصب الفعلين عطفًا على ﴿يُكَذِّبُونَ﴾ [الشعراء:١٢] فيفيد دخولهما تحت الخوف، ولأن الأصل توافق القراءتين قيل: إنهما متفرعان على ذلك، كأنه قيل: ربِّ إني أخاف تكذيبهم إياي ويضيق صدري انفعالاً منه، ولا ينطلق لساني من سجن اللكنة وقيد العي بانقباض الروح الحيواني الذي تتحرك به العضلات الحاصل عند ضيق الصدر واغتمام القلب، والمراد: حدوث تلجلج اللسان له ﷺ بسبب ذلك كما يشاهد في كثير من الفصحاء إذا اشتد غمهم وضاقت صدورهم، فإن ألسنتهم تتلجلج حتى لا تكاد تبين عن مقصود، هذا إن قلنا: إن هذا الكلام كان بعد دعائه ﷺ بحل العقدة واستجابة الله تعالى له بإزالتها بالكلية، أو المراد ازدياد ما كان فيه ﷺ إن قلنا: إنه كان قبل الدعاء أو بعده، لكن لم تزل العقدة بالكلية، وإنما انحل منها ما كان يمنع من أن يفقه قوله ﷺ فصار يفقه قوله مع بقاء يسير لكنة. تفسير الألوسي (١٤/١٧٢).

يذهب مذهبه أو ينحو نحوه إن كل ذي حقيقة قائمة بنفسها فهو الحق، ويصلح أن يسأل عنه فيقال: ما هو، وجعلوا هذا من حد السؤال عن كل جوهر قائم بنفسه.

فقوله - لعنه الله: ﴿وَمَا رَبُّ العَالَمِينَ﴾ [الشعراء:٢٣] كأنه يقول: أليس هو الحق وأنا الحق أيضًا، فأجابه موسى ﷺ بما هو مبطل لحجته لو يعقل بقوله: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء:٢٤] أي: إن كنت توقن أنك لست بخالق السماوات والأرض وما بينهما، وهذا موضع اليقين لو اهتدى لعلم أنه من خلق السماوات والأرض وما بينهما هو المالك لذلك كله، وفرعون ومن تبعه مما بين السماوات والأرض فـ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء:٢٥] قوله هذا يدل عليه بأنه لم يسمع مقالته، ولم يفهم عنه مراده بقوله: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء:٢٦].

فصل

أصل الدجل: إبليس لعنه الله، قال الله - جلَّ من قائل - للسامري على لسان رسوله موسى ﷺ: ﴿فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ﴾ [طه:٩٧] فقوله: ﴿لَا مِسَاسَ﴾ كناية عن العزة، وأنه لا يعاصب، وقوله: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ﴾ [طه:٩٧].

قول إبليس، لعنه الله: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ المُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف:١٦] إلى قوله: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٧] ﴿وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ المُخْلَصِينَ﴾ [الحجر:٣٩ - ٤٠] فأجاب رب العزة على ذلك منه: ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الغَاوِينَ * وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر:٤١-٤٣].

المعنى كله كما جاء، وأنه لما أراد الله - جل ذكره - أن يستخلف في الأرض الساجدين من ذرية آدم خلقه من تراب، وأمر الملائكة بالسجود له إذا سواه ونفخ فيه من روحه، وفي ذلك وجوب وجود السجود من آدم خالقه ﴿فَسَجَدَ المَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [ص:٧٣] ائتمامًا به ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ [ص:٧٤] لم يكن يومئذٍ من الساجدين؛ لأنه لم يكن في الأزل كذلك: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ

﴿السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر:٣٢] يقول: ألا سجدت فتكون مع الساجدين الذين أستخلفهم في الأرض وملائكة السماوات والأرض؟ وكذلك قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا﴾ [الأعراف:١٢] تكون من الساجدين؟.

ثم كان بعدما كان منه من إغوائه آدم وزوجه حتى أخرجه من الجنة، وجعلت الدنيا سجنه، فبكى آدم عليه السلام قيل: إنه بقى ثلاثمائة سنة لا يرفع رأسه إلى السماء حزينًا باكيًا، ولم يكن بكاؤه ذلك كله على خروجه من الجنة فقط، بل خوفًا من نفسه وعدوه، وأنه في منزل القرب ومحل الأنس، ظفر منه ببعض بغيته، فكيف يكون الحال هاهنا؟! ثم توفى - صلوات الله وسلامه عليه - وخلفه بعده الأئمة من ذريته، وفي أثناء هذا ظفر من ابنه القاتل أخاه ببعض بغيته أيضًا، ففر القاتل إلى الجبل، وانسل بها، ومنعه أبوه حضور المجلس واحتجب عنه.

قال الله - جلَّ من قائل: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [البقرة:٢١٣] أي: مهديين، فاختلفوا هذا محذوف، قيل: إن أصل اختلافهم أن نسل القاتل تشوقوا بعد موت آدم عليه السلام وبعد مضي جل زمان الأئمة من بعده إلى الاجتماع ببني أعمامهم في السهل، فنزلوا إليهم وخالطوهم وواقعوا النساء بعضهم في بعض على غير وجه الحلال، فكان عن ذلك أولاد الزنا، فهم الذين زيَّن لهم الشيطان عبادة غير الله، وتفرقت بهم في الكفر الطرق، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين.

ويكون المعنى أيضًا: كان الناس أمة واحدة في الكفر؛ يعني: الجاهلية التي أرسل إليها نوح عليه السلام وذلك بعد الهداية ثم الاختلاف.

﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣) قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧) فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (٤٠) فَلَمَّا جَاءَ

ٱلسَّحَرَةُ قَالُوٓاْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ
﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا
لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلۡقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ
سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ
لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ فَلَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ
وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيۡرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا
خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥١﴾ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾
فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾
وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ
وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتۡبَعُوهُم مُّشۡرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ
إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ
ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن
مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٦٧﴾
وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا
تَعۡبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوۡ
يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ
﴿٧٥﴾ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ
يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي
ثُمَّ يُحۡيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا

وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ
النَّعِيمِ (٨٥) وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا
بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١)
وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ (٩٣) فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ
وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ
مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ (١٠٠)
وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ
(١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٠٤) كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا
تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨)﴾ [الشعراء: ٢٩ - ١٠٨].

يقول الله ﷻ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الشعراء:١٠٥-١٠٧] إلى آخر المعنى.

وقال: ﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ [الأعراف:٦٣] فكان من شأنه وشأنهم ما قصه الله - جلَّ ذكره.

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ
(١١٠) قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (١١١) قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ
حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١١٥) قَالُوا
لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ
فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا
بَعْدُ الْبَاقِينَ (١٢٠) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ
الرَّحِيمُ (١٢٢) كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ

﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾
أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم
بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الشعراء: ١٠٩ - ١٣٠].

ثم قال: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الشعراء:١٢٣-١٢٥] إلى آخر المعنى.

وقال: ﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ [الأعراف:٦٣] ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف:٦٩] فكان من شأنه وشأنهم ما قد قصه الله - جل ذكره.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ
﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا
أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾
فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ
﴿١٤٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ
﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾
أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ
﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ
الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾
مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الشعراء: ١٣١-
١٥٤].

ثم قال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء:١٤١-١٤٤].

وقال لهم: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ

هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ﴾ [الأعراف:٧٣] ثم كان من شأنه وشأنهم ما قد قصه الله ﷻ.

﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ
عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ
وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ
ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ
وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ
ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾
قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى
وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ
﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾
وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا
تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ
أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ
ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى
خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن
نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾
قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ
عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾
وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾
[الشعراء: ١٥٥ - ١٩٤].

ثم قال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء:١٦٠-١٦٣] فكذبوه، فكان من شأنه وشأنهم ما قصه الله - تبارك وتعالى.

ثم قال - عز من قائل: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء:١٧٦-١٧٩].

وقال لهم: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف:٧٣] إلى آخر القصة، فكان من شأنه وشأنهم ما قصه الله ﷻ.

وقد كان في زمان إبراهيم عليه السلام الجبار الذي ابتلي به لما قال له إبراهيم وقد سأله عن ربه: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨] وكذلك كان جل من تقدمه من الرؤساء يعبدون ويدعون إلى أنفسهم، والأتباع يعبدونهم ويعبدون الأصنام والطواغيت؛ كملك أصحاب الأخدود وغيره، إلى أن بلغت النوبة إلى فرعون، فتعبد أتباعه، واستعبد بني إسرائيل، وذبح الرجال واستحيى النساء.

وكان ذلك عقوبة لفعل آبائهم بيوسف عليه السلام لما غربوه واستعبدوه فباعوه، وزيدوا هم على ذلك نكالاً وطول مكث في البلاء، ثم لم يزل ذلك في علمائهم يستتبعون الأتباع ويترأسون عليهم، وفيما قيل أن الله - جل ذكره - أوحى إلى أرميا عليه السلام أن هؤلاء القوم - يعني: بني إسرائيل - تركوا ما أكرمت عليه آباءهم، وابتغوا الكرامة من غير وجهها.

أمَّا أحبارهم ورهبانهم: فاتخذوا عبادي حولاً من دوني، ويحكمون فيهم بغير كتابي، حتى أجهلوهم أمري وأنسوهم ذكري وغروهم مني، فبطروا نعمتي وأمنوا مكري، وبدلوا كتابي ونسوا عهدي، وضيعوا أمري ثم هكذا.

أمَّا الكفار: فرؤساؤهم يدعون إلى أنفسهم من دون الله.

وأمَّا الأتباع: فعلى ما تقدم ذكره.

وأمَّا من آمن وطال بهم العهد: نسوا كثيرًا مما ذكروا به، فرؤساؤهم تملكوا الأتباع، والأتباع على دين ملوكهم، والعلماء على ما تقدم ذكره من وصف الله لهم

﴿إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات:٤٠] ثم كذلك إلى أن بعث رسول الله محمد - صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين - ظهر في أيامه علم الدجال في ابن صائد ثم خفي، وكان ﷺ يقول: «**أنذرتكم الدجال وكل نبي قد أنذره قومه، حتى أن نوحًا قد أنذره قومه**»[1] ولم يكن الأنبياء والمرسلون لينذروا قومهم، ويبعث الله ذلك على ألسنتهم إلا لأنه في أممهم كما تقدم ذكره من الرؤساء والملوك.

وخطب رسول الله ﷺ وذكر الدجال فخفض فيه ورفع، حتى ظنوا أنه في طائفة النحل، وهو يعلم أنه غير مدركهم، ولما أصبحوا رآهم كاسفة ألوانهم فسألهم عن ذلك فقالوا: يا رسول الله إنك ذكرت الدجال بالأمس فخفضت فيه ورفعت حتى ظننا أنه في طائفة النحل فقال: «**إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه، وإن يخرج من بعدي فالله خليفتي على كل مسلم، أخوف ما أخاف عليكم أئمة مضلين**»[2].

وفي أخرى: «**أنا من غير الدجال أخوف عليكم مني من الدجال أئمة مضلين**»[3] ثم كذلك حتى يأتي أمر الله.

فالدنيا مقسمة قسمين: ذكر وفتنة، ففي قسم الفتنة الدجل وهو أعظمها، وهو لها كالعمود الذي عنه تتفرع الفتن كلها، وفي قسم الذكر الحق المخلوق به السماوات والأرض لا فتنة فيه، وهو للذكر كالعمود وعنه يتفرع الذكر كله.

وجاء في بعض النبوات: أن الله - جل ذكره - قال لبعض الأنبياء: «قد أقمتك نظارًا فانظر ما ترى» فزوى له الأمر - والله أعلم - فقال: أرى قضيبًا سامرًا، قال له: «حسن ما رأيت؛ لأني سامر على كلمتي لأتمها» يمكن أن الذي أراه هو قسم الفتنة والدجل؛ ولذلك قال: أرى قضيبًا سامرًا، فسماه قضيبًا؛ إذ به وبسببه يعاقب من ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٥٩) ومسلم (١٦٩) وأبو داود (٤٧٥٧) والترمذي (٢٢٣٥) وأحمد (٢٤٤٠٥)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (٦٥١٢).

(٢) أخرجه بنحوه الحاكم (٨٦١٤)، والطيالسي (٩٧٥)، وأبو نعيم في الحلية (٤٦/٦)، وأحمد (٢٩٣).

(٣) أخرجه أحمد (٢١٣٣٥).

قوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥] ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة:٧٧] ويكون المعني بقوله: لأني سامر على كلمتي لأتمها؛ أي: كلمته في قسم الذكر، هذا على المعنى الأول، ثم يكون التداخل بين المعنيين، وإتمام كلمته الحق بالذكر في هذه الدار موقوف انقضاؤها على آخر مدة عبده ورسوله عيسى ابن مريم - صلوات الله وسلامه عليه - وأمَّا القسم الآخر فمدة الدجال، ثم لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس.

فصل

وأكبر الدجل وأسوأه عائد وجوده في الإسلام؛ إذ الكفار أموات الدين غير أحياء، وما لجرح بميت إيلام، فالعقوبة عليه في الإسلام لازمة، والعتاب من أجله كثير، ألا ترى إلى بني إسرائيل لما اتخذوا ما أخرج لهم السامري عن حليهم عجلاً جسدًا له خوار ما أكثر تكرار العتاب عليه، وإن كان قد تاب عليهم من ذلك؛ لأن عقوبات الله عليه لازمة، ولو حصلت التوبة من الخطيئة فإن زلل العادات وعقوبة المثوبات تظهر في الأفعال، وتخرج من النسل على سنن الشبه الكائن عن النسل؛ لذلك قال رسول الله ﷺ: «**الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا**»(١) ألا ترى أن الدجال الأعور - لعنه الله - خارج فيهم وبهم، ثم انظر إلى بني يعقوب - عليهم السلام - وفعلهم بأخيهم؛ إذ هم جاهلون.

يقول الله - جلَّ من قائل: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾ [يوسف:٧] أي: للباحثين الطالبين علم ما جاء به الكتاب المبين والقرآن الحكيم، ثم جعل يقص نبأهم بالحق، فكان من العشرة الأخوة مثلاً للدجل بوجه، ويوسف مثلاً للحق المغرب والأمة المغلوبة المستملكة، ويعقوب مثلاً للرسول الآتي بالكتاب والنبوة.

ولما جاءوه بما كادوه من القميص المدمي المكذوب عليه لم ينعم بتصديقهم،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٠٤)، ومسلم (٢٥٢٦)، وأحمد (٧٤٨٧)، والحاكم (٥٠٦١)، وإسحاق بن راهويه (٥٠٥)، وأبو يعلى (٦٠٧٠)، وابن حبان (٩٢)، والديلمي (٦٨٨٠).

بل أضرب عن ذلك منهم وقال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ في يوسف ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ على ما أصاب به وابتلي ﴿وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف:١٨] لعلمه أن ذلك منهم في وجوب الوجود مثل لما آل إليه، وكان سجنه عليه السلام مثلاً لاختفاء المسلمين يومئذٍ؛ أعني: يوم الدجال وطمس نور الإسلام؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ: «لو لبثت في السجن طول لبث يوسف لأجبت الداعي»(١).

تأول في ذلك تقصير مدة الغلبة وتعجيل خروج الحق وظهور الحق، وتأول يوسف عليه السلام بما ألهمه ربه ﷻ تنزيه محل النبوة وأخذ التنزيه لطهارة الرسالة، وكان تعجيله القميص إلى يعقوب عليه السلام ووجد أن يعقوب عليه السلام ريحه مثلاً لصوت الصريخ سحرًا لنزول المبارك، عبر عنه رسول الله ﷺ فقال: «وتسمعون صائحًا في السَّحر: قد جاءكم الصريخ، فيقولون: هذا صوت شبعان، ثم ينزل عند الفجر صلوات الله وسلامه عليه» ويذكر أن هذا يكون من تعرف بعضهم ببعض وإرساله في جملتهم ودفع القميص إليهم حين اشتداد الأمر على يعقوب عليه السلام.

عبر عن ذلك قوله الله - جل ذكره، والله أعلم بما ينزل - لما وصف غيبة يوسف على الوجه الذي قصه، ثم غيبة أخيه بنيامين، ثم احتباس كبيرهم؛ من أجل ذلك عظم لذلك كربه واشتد أسفه ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف:٨٤] وكان قول يوسف عليه السلام لفتيته: ﴿اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يوسف:٦٢] في تأويل الحق المغروز في الجبلة، كان ذلك من حكمة الله - جل ذكره - ليرجعوا إليها في ضروراتهم، تنبيهًا منه لهم لعلهم عند خلوهم بذلك المعنى المجعول فيهم إليه يرجعون.

وما في أثناء قصص السورة من شيء عسر لهم إلا له في المستقبل وجود، يتبين ذلك بالكلية عند معاينة الأمر، ويناظر الدليل مع المدلول عليه، وكان يجمع الشمل المعبر عنه بقوله: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللهُ آمِنِينَ * وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢٦٣)، ومسلم (١٥١)، والنسائي (١١٠٥٠)، وأحمد (٨٣١١)، وابن ماجة (٤٠٢٦)، وابن حبان (٦٢٠٨)، وأبو عوانة (٢٣٠).

وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ [يوسف:٩٩ - ١٠٠] والشكر منهم على ذلك مثل ليجمع الشمل المستقبل، والتزامهم طاعة مسيح الهدى ﷺ.

يقول الله ﷻ: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾ بالتخفيف ﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ [يوسف:١١٠] إلى قوله: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ الذي بين يديه؛ أي: من التوراة ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [يوسف:١١١] أي: الكتاب المحفوظ الذي حوى الوجود كله.

وقد ظهرت جملة من الدجل في هذه الأمة منذ نحو عام ثلاثمائة إلى هلم جرا، ومنهم من ادعى النبوة، ومنهم من ادعى الربوبية، وأصلهم المعتمد عليه إبطال ما جاءت به الرسالة والنبوة، وغايتهم الدعاء إلى أنفسهم، فمن مقصر عن ذلك قدره وقدرته أبطن لذلك مذهبه، ومن مدرك ذلك أظهره، والله المستعان.

قوله ﷻ: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الشعراء:١٩٢] يقول: قد كانت لهم آيات الأرض وآيات السماء كافية، وآيات ما جرى على الأمم الماضية والقرون الخالية، من الإهلاك والتدمير لأجل تكذيبهم الرسل، وردهم أمر الله - جل ذكره - وإنجاء من آمن وصدق المرسلين، وإن دلك على أنه إنجاء الله المؤمنين من عذاب الآخرة وتعذيب المكذبين.

وهذا القرآن كتاب الله نزله بلسان عربي مبين، كلام رب العالمين، نزل به الروح الأمين على قلب محمد ﷺ لينذر الناس ما هم إليه صائرون، فهذه آيات بينات لكل وجه ومعنى، فما نظروا ولا فكروا وما آمنوا به ولا تعرفوا صدقه من حيث إعجازه، ولا من حيث هو معلوم لبني إسرائيل، مثبتًا في زبر الأولين، مذكورًا في صحف المرسلين قبله، ألا ترى يا محمد أن هذا إضلال منا لهم، لما زاغوا عن الهداية أزغنا قلوبهم، وأزللنا لذلك أقدامهم عن الصراط المستقيم، أفعلى هؤلاء يحزن قلبك وتبخع نفسك.

﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾

كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾
فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ
﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم
مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ
﴿٢٠٩﴾﴾ [الشعراء: ١٩٥ - ٢٠٩].

ثم أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ﴾ [الشعراء:١٩٨] وقرأها الحسن: «الأعجميّن» مشددة الياء؛ أي: لو أنزلناه على غير لسانهم، وهم العرب، فقرأه الأعجمي عليهم ما كانوا به مؤمنين، يقول ﷻ: ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ المُجْرِمِينَ﴾ [الشعراء:٢٠٠] يريد المعرضين عن الآيات المكذبين بالكتاب والرسول؛ أي: كما نسلك الخطاب العربي في قلوب الأعجمين، وخطاب الأعجمين في قلوب العربيين، لا يؤمنون به؛ لأنهم لم يسمعوه بقلوبهم ولا فهموه بعقولهم، بل هم في سماعه كالراعي ينعق بالغنم، فهي لا تسمع إلا دعاء ونداء صوتًا يفزع الأسماع لا غير، بل هؤلاء أسوء حالاً من البهائم في التأني وقلة الطواعية؛ إذ الراعي يزجر تلك فتنزجر، وهؤلاء لا يعقلون.

يقول ﷻ: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا العَذَابَ الأَلِيمَ﴾ [الشعراء:٢٠١] فيومئذ لا ينفعهم إيمانهم، ثم قال ﷻ: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ [الشعراء:٢٠٤] لقولهم: ﴿مَتَى هَذَا الوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل:٧١] ﴿ائْتِنَا بِعَذَابِ الله إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [العنكبوت:٢٩].

أتبع هذا قوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء:٢٠٥-٢٠٧] ما قد مضى فكأن لم يكن، وما هو آت فكأن قد ومن تورط في المحذور، وأحاط بهم المخوف ما الذي يغني عنه الآن، ما قد مضى من رفاعة بال ونعمة حال، والآخرة أحق حقيقة من الأولى، والعاقبة بالعبيد أملك وأولى والأمور بالخواتم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ * ذِكْرَى﴾ [الشعراء:٢٠٨ -

٢٠٩] يقول الله ﷻ: قد سبق منا العلم بإهلاك المهلكين وأعمالهم، وبالأسباب التي أوجبت هلاكهم، لكنا نرسل المرسلين منذرين لهم بما هو مصيبهم، ذكرى لهم ولسواهم ﴿وَمَا كُنَّا﴾ أي: في الأزل حين التقدير عليهم بذلك ﴿ظَالِمِينَ﴾ [الشعراء:٢٠٩] لأنا إنما أوجبنا الإهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة، على من لو أدخل النار ثم أخرج منها وأعيد إلى الدنيا لعاد إلى ما كان عليه، وكيف يكون منهم غير ما سبق في علم العليم الحكيم، ولما ذكرتهم الرسل ووعظتهم الكتب وبينت لهم الآيات أعرضوا عن التذكار، وأنفوا من صدق الاستجابة، وردوا الحق على من جاء به وجادلوهم بالباطل؛ ليدحضوا به الحق، فأخذهم الله بذلك من كسبهم، وهذا هو العدل؛ إذ لم يشأ في البدء أن يتفضل عليهم فيدخلهم في رحمته وفضله، ذلك قوله: ﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الشعراء:٢٠٩].

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾ [الشعراء: ٢١٠ - ٢٢٠].

أتبع هذا قوله: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [الشعراء:٢١٠ - ٢١١] وصرف وجه الخطاب إلى وصف القرآن، يقول: إنما نزل به من عند الله ﷻ الملك الروح الأمين، لم تتنزل به الشياطين، وما ينبغي لهم ذلك؛ أي: أنهم ليسوا من أهل ذلك ولا هو من شأنهم، ولا تلك بمرتبة لهم، ولا يستطيعون لمنع عراهم وصد صدهم عن ذلك.

دلَّ على ذلك قوله: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء:٢١٢] عزلتهم هذه من لدن أهبط أبوهم المبلس الملعون من ملكوت السماء.

قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى العَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ [الشعراء:٢١٧] أرى هذا الخطاب - والله أعلم بما ينزل - معطوفًا على المفهوم من قوله: ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾

[الشعراء:١٩٤] فيكون تقدير الكلام: فانذر وتوكل على العزيز الرحيم.

ثم اتصل منتظمًا بقوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ * وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء:: ٢١٤ - ٢١٦] وانتظم قوله هذا بما في قوله: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٣].

ثم عطف قوله: ﴿وَتَوَكَّلْ﴾ [الشعراء: ٢١٧] على قوله: ﴿وَأَنذِرْ﴾ [الشعراء: ٢١٤] ﴿وَاخْفِضْ﴾ [الشعراء: ٢١٥] وقل على قوله: ﴿العَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ [الشعراء: ٢١٧] الذي يراك حين تقوم في قوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى العَزِيزِ﴾ أي: القادر على الانتقام منهم ﴿الرَّحِيمِ﴾ [الشعراء:٢١٧] بك وبمن اتبعك ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الشعراء:٢١٨] يراه على كل أحواله، لكنه - ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه - لعظيم كرمه وجليل ذكره ونعوت تعاليه وجلاله ذكره بأحسن أحواله وأكرم حركاته، وهو قيامه إلى الصلاة، وبخاصة صلاة الليل.

ثم قال: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ [الشعراء:٢١٩] الساجدون هنا هم الملائكة، ومن كان يومئذٍ في الأرض من المؤمنين المهتدين وكل الموجود له ساجد قانت لما كان خاصة دين الإسلام الصلاة، وخاصة الصلاة السجود، عرفه من نفسه بأفضل أحواله وأحسن أعماله، وذكر التقلب عبارة عن التقلب في عمل الصلاة، كما قال ﷻ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ [الزمر:٩].

ثم قال وقوله الحق: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ أي: لقراءتك وذكرك إياه ودعائك وسؤالك ﴿العَلِيمُ﴾ [الشعراء:٢٢٠] بحركاتك، فيكون معنى ذلك: وتقلبك في أصلاب الساجدين، يخبر بذلك كهيئة تنزلك عن علمه العلي به حال عدمه قبل إيجاده إياه.

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ
وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ
يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ

﴿٢٢٧﴾ [الشعراء: ٢٢١ - ٢٢٧].

قوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ﴾ [الشعراء:٢٢١] المواجه بهذا الخطاب هم القائلون فيه أنه كاهن وشاعر ومجنون، فابتدأ بوصف الكهنة، فقال فيهم: أنهم كاذبون، أفاكون، آثمون، يلقون السمع للشياطين، ثم يكذبون على كذب الشياطين.

قال رسول الله ﷺ في إلقاء الشيطان على الكاهن: «**فيقرها في أذنه قر الدجاجة**»(١) يعبر بأنه وحي يوحون به إليهم خارج عن معهود كلام البشر بعضهم لبعض غير مفهوم على التفصيل.

وربما فهمه على الإجمال من غير إحاطة معرفة وفهم به ذلك؛ لأن الله - جل ذكره - جعلها - أعني: الكهانة - آية على الوحي الحق من عند الله ﷻ والله يوحي إلى عبده بإلقاء يلقيه في قلبه أو نفث من روح القدس في روعه، وهو قادر على إفهام الموحى إليه عنه ما شاء إفهامه إياه، بجعل ذلك المفهوم له مفروغًا منه بنفسه، وعلمه ليس كذلك تبليغ الشياطين، ولله المثل الأعلى وهو العليم القدير.

وموضع تلقي الشياطين من العرش إلى العنان إلى ما دون ذلك، والوحي متلقاه من فوق العرش العظيم، ثم قال رسول الله ﷺ: «**ويخلطون إليها**» يعني: الكهنة «**مائة كذبة**»(٢) فيجتمع في ذلك كذب الشياطين وقلة فهم الكاهن لما ألقى إليه، ثم كذبه، فهذه ظلمات بعضها فوق بعض.

قال الله ﷻ: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ السلم للشياطين والمعارج للملائكة - عليهم السلام - ثم قال، عز من قائل: ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الطور:٣٨] فجعلهم الله بموضع التهمة ليس كما قال في منزل القرآن ﷺ ﴿نَزَلَ بِهِ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢١٣)، ومسلم (٥٩٥٣)، وأحمد (٢٥٣٠٧)، والطبراني في الأوسط (٦٧٧)، بلفظ: سَأَلَ أُنَاسٌ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الْكُهَّانِ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَيْسُوا بِشَيْءٍ» قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ: فَإِنَّهُمْ يُحَدِّثُونَ أَحْيَانًا بِالشَّيْءِ يَكُونُ حَقًّا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «تِلْكَ الْكَلِمَةُ مِنَ الْحَقِّ يَخْطَفُهَا الْجِنِّي، فَيَقُرُّهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ قَرَّ الدَّجَاجَةِ، فَيَخْلِطُونَ فِيهَا أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ كَذْبَةٍ» وقَرّ الدجاجة: صوتها إذا قطّعَتْه.

(٢) انظر السابق.

الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ﴾ [الشعراء:١٩٣ - ١٩٤] وأخبر بأن الوحي الملك يكون ملقى إلى الرسول تامًا مفهومًا مفروغًا منه فهمه وعلمه معه.

ثم قال ﷻ: **﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الغَاوُونَ﴾** [الشعراء:٢٢٤] يريد - وهو أعلم: الشعراء الذين كانوا ينصرون الكفرة بألسنتهم، يلقون إليهم سب الرسول وذم الإيمان، وتزيين الكفر والشرك، هذا فعل الغاوين بأولئك الشعراء **﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾** [الشعراء:٢٢٥] أي: من الكفر والضلال يهيمون؛ أي: أنهم لا يمشون على الصراط المستقيم، فيصفون في أشعارهم مِدحة الله ومِدحة رسوله والإسلام والإيمان.

ثم قال: **﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾** [الشعراء:٢٢٦] أي: يكذبون، فهذه أعمال الشياطين وأخلافهم، فدلَّ من هذا على الشعر المذموم وتمييزه من المحمود منه، ودلَّ بما ذكره في القسم الآخر أن ذكر الله في الشعر ذكر كبير، والحمد لله رب العالمين.

ويمكن مع هذا أن يكون معنى قوله: **﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾** [الشعراء:٢٢٥] أي: يأخذون كل مأخذ ويخلطون كل التخليط، بينا أحدهم يصف ممدوحه يعرض له في ذلك ذكرنا فيه فيتفرع لوصفها، وبينا هو في ذلك؛ إذ يعرض له ذكر طريقه إليه أو مدحه نفسه أو غير ذلك حتى يبعد عن ذكر مقصده، ويضل عما شرع فيه وسواء بينهم، فهم على ذلك في كل وادٍ يهيمون، ليس كالقرآن العزيز في حسن سرده وكرم نظمه.

قوله: **﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾** [الشعراء:٢٢٧] هذا مثل حسان بن ثابت وكعب بن مالك، وغيرهما من الشعراء الذين كانوا ينافحون عن رسول الله والإيمان والمؤمنين.

ولما ذهبت قريش بأحزابها وتفرقت عن غزوة الخندق قال كعب بن مالك - رضوان الله عليه - في كلمة له طويلة جاءت سخينة كي تغالب ربها: وليغلبن مغالب الغلاب، فأنشده رسول الله ﷺ فلما أصبح قال له: «**يا كعب، إن الله قد شكر لك**

قولك»[1] ثم قال - تبارك وتعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أي مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء:٢٢٧] يعني: يوم القيامة يوم الفصل.

(١) ذكره ابن هشام في السيرة النبوية (٤/٢٢٠).

تفسير سورة النمل[1]

(١) هذه السورة مكية بلا خلاف، ومناسبة أول السورة لآخر ما قبلها واضحة، لأنه قال: ﴿وما تنزلت به الشياطين﴾، وقبله: ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين﴾، وقال هنا: ﴿طس تلك آيات القرآن﴾: أي الذي هو تنزيل رب العالمين، وأضاف الآيات إلى القرآن والكتاب المبين على سبيل التفخيم لها والتعظيم، لأن المضاف إلى العظيم عظيم، والكتاب المبين، إما اللوح، وإبانته أن قد خط فيه كل ما هو كائن فهو يبينه للناظرين، وإما السورة، وإما القرآن، وإبانتهما أنهما يبينان ما أودعاه من العلوم والحكم والشرائع، وأن إعجازهما ظاهر مكشوف ونكر، ﴿وكتاب مبين﴾ ليبهم بالتنكير، فيكون أفخم له كقوله: ﴿في مقعد صدق﴾ وإذا أريد به القرآن، فعطفه من عطف إحدى الصفتين على الأخرى، لتغايرهما في المدلول عليه بالصفة، من حيث أن مدلول القرآن الاجتماع، ومدلول كتاب الكتابة، وقيل: القرآن والكتاب اسمان علمان على المنزل على محمد ﷺ فحيث جاء بلفظ التعريف، فهو العلم، وحيث جاء بوصف النكرة، فهو الوصف، وقيل: هما يجريان مجرى العباس، وعباس فهو في الحالين اسم العلم، وهذا خطأ، إذ لو كان حاله نزع منه علمًا، ما جاز أن يوصف بالنكرة، ألا ترى إلى قوله: ﴿وكتاب مبين﴾، ﴿وقرآن مبين﴾ وأنت لا تقول: مررت بعباس قائم، تريد به الوصف؟ وقرأ ابن أبي عبلة: وكتاب مبين، برفعهما، التقدير: وآيات كتاب، فحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه، فأعرب بإعرابه، وهنا تقدم القرآن على الكتاب، وفي الحجر عكسه، ولا يظهر فرق، وهذا كالمتعاطفين في نحو: ما جاء زيد وعمرو، فتارة يظهر ترجيح كقوله: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم﴾ وتارة لا يظهر كقوله: ﴿وقولوا حطة وادخلوا الباب سجداً﴾ قال يحيى بن سلام: ﴿هدى﴾ إلى الجنة، ﴿وبشرى﴾ بالثواب، وقال الشعبي: هدى من الضلال، وبشرى بالجنة، وهدى وبشرى مقصوران، فاحتمل أن يكونا منصوبين على الحال، أي هادية ومبشرة، قيل: والعامل في الحال ما في تلك من معنى الإشارة، واحتمل أن يكونا مصدرين، واحتملا الرفع على إضمار مبتدأ، أي هي هدى وبشرى؛ أو على البدل من آيات؛ أو على خبر بعد خبر، أي جمعت بين كونها آيات وهدى وبشرى، ومعنى كونها هدى للمؤمنين: زيادة هداهم، قال تعالى: ﴿فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون﴾ وقيل: هدى لجميع الخلق، ويكون الهدى بمعنى الدلالة والإرشاد والتبيين، لا بمعنى تحصيل الهدى الذي هو مقابل الضلال. ﴿وبشرى للمؤمنين﴾ خاصة، وقيل: هدى للمؤمنين وبشرى للمؤمنين، وخصهم بالذكر لانتفاعهم به، ﴿وهم بالآخرة هم يوقنون﴾: تحتمل هذه الجملة أن تكون معطوفة على صلة ﴿الذين﴾ ولما كان: ﴿يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة﴾ مما يتجدد ولا يستغرق الأزمان، جاءت الصلة فعلاً، ولما كان =

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ۝١ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ۝٥ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾ [النمل: ١ - ٦].

قوله ﷻ: ﴿طس تِلْكَ آيَاتُ القُرآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[١] [النمل:١] المعنى حيث

=

الإيمان بالآخرة بما هو ثابت عندهم مستقر الديمومة، جاءت الجملة اسمية، وأكدت المسند إليه فيها بتكراره، فقيل: ﴿هم يوقنون﴾ وجاء خبر المبتدأ فعلاً ليدل على الديمومة، واحتمل أن تكون الجملة استئناف إخبار، قال الزمخشري: ويحتمل أن تتم الصلة عنده، أي عند قوله: ﴿وهم﴾ قال: وتكون الجملة اعتراضية، كأنه قيل: وهؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة هم الموقنون بالآخرة، وهو الوجه، ويدل عليه أنه عقد جملة ابتدائية وكرر فيها المبتدأ الذي هو هم، حتى صار معناها: وما يوقن بالآخرة حق الإيقان إلا هؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح، لأن خوف العاقبة يحملهم على تحمل المشاق، وقوله: وتكون الجملة اعتراضية، هو على غير اصطلاح النحاة في الجملة الاعتراضية من كونها لا تقع إلا بين شيئين متعلق بعضهما ببعض، كوقوعها بين صلة وموصولة، وبين جزأي إسناد ، وبين شرط وجزائه، وبين نعت ومنعوت، وبين قسم ومقسم عليه، وهنا ليست واقعة بين شيئين مما ذكر وقوله الخ. حتى صار معناها فيه دسيسة الاعتزال. وقال ابن عطية: والزكاة هنا يحتمل أن تكون غير المفروضة؛ لأن السورة مكية قديمة، ويحتمل أن تكون المفروضة من غير تفسير، وقيل: الزكاة هنا بمعنى الطهارة من النقائص وملازمة مكارم الأخلاق. [البحر المحيط (٨ /٤٤٤)].

(١) قال نجم الدين كبرى فى «التأويلات النجمية»: يشير بطائه الطاء طيب قلوب محبيه، وبالسين إلى سر بينه وبين قلوب محبيه لا يسعهم فيه ملك مقرب وإلا نبي مرسل. وأيضًا يقسم بطاء طلب طالبيه وسين سلامة قلوبهم عن طلب ما سواه، وفى «كشف الأسرار» الطاء إشارة إلى طهارة قدسه والسين الى سناء عزه يقول تعالى بطهارة قدسى وسناء عزى لا خيب أمل من أملّ لطفى انتهى، وقال بعضهم الطاء طوله أي: فضله والسين سناؤه أي: علوه وقد سبق فى طسم ما يتعلق بهذا المقام فاردع إليه، وقال عين القضاء الهمذاني قدس سره فى مقالاته لولا ما كان فى القرآن من الحروف المقطعات لما آمنت به ، يقول الفقير قد كفره فى قوله هذه كثير من علماء زمانه والأمر سهل على أهل الفهم ومراده بيان اطلاعه على بطون

=

جاء هذه الحروف في أوائل السور لغيابه المطلع وبعد الغور لا تكاد العبارات تفهم عن جوامعها، ولسعة ما انبسطت عليه عسر على الوهم تصور ما يحاوله من ذلك.

لكنها - والله أعلم بما ينزل - حروف معبرة عن ذوات جمل الموجودات كلها مع ما في الكتب المنزلة؛ ولذلك كانت آيات على حروف القرآن والكتاب المبين، كما أن حروف القرآن معبرة عما حواه من علم بالله ومعرفة أسماء وصفات، وأمر ونهي، وعام وخاص، وظاهر وباطن، ومفصل ومجمل، وغير ذلك من أنواع الخطاب؛ لذلك - وهو أعلم بما ينزل - كان هذا؛ أي: الحروف المقطعة بما عبرت عنه من دلالة الوجود.

﴿وَبُشْرَى﴾ أي: القرآن ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ﴾ [النمل:٢ - ٣] إلى قوله: ﴿يُوقِنُونَ﴾ [النمل:٣] كذلك قال - عز من قائل: ﴿الم * ذَلِكَ الكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:١ - ٢] فهذا وصف للحروف المقطعة؛ إذ كل ما في الوجود فهو نسخة لأم الكتاب، فهو هدى يهتدي به أولوا الألباب.

ثم قال وقوله الحق: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [البقرة:٤] فهذا القرآن والكتب قبله التوراة والإنجيل والزبور والصحف بأجمعها، وجميع ذلك هدى للموقنين؛ لإخبارها عن مرضاة الله - جل ذكره - وتنبيهًا في الأغلب على ما سطر في أم الكتاب، ألا ترى أنه إنما هو الله ﷻ وأسماؤه وصفاته ومفعوله، وهذا عهده موجود الوجودين الوحي والعالم.

أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ [النمل:٤] العمه: التردد في الضلال والحيرة في المجهل، فهم لذلك لا يرون الآيات رؤية اعتبار، ولا يسمعون القرآن يتقدمه إيمان ولا هداية، ولا يعرفون الآخرة، فيذكرونها بما يشاهدونه ويرونه من الدنيا، زين لهم سوء أعمالهم؛ لأنهم لا يخرجونها على هداية إيمان واقتداء برسول من عند الله، ولا يعتبرون المأمور والمنهي عنه بموجودات الوجود الأدنى، فيعملون على بصيرة واحتساب ذخر إلى

=

معاني الحروف التي هي دليل لأرباب الحقائق وسبب تزيد إيمانهم العياني. [تفسير حقي (١٠ / ٥)].

الوجود الآخر وموجوداته، ولا يمتثلون الأمر المسموع بواسطة القرآن المبين، وفاقًا لمرضاء وجود الكتاب الأول؛ ذلك لأنهم عدموا بركة المسموع والمرئي فهم يعمهون.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل:٦] عطف معنى الرسالة على ما في قوله المتقدم من معنى الوجودين الوحي والعالم، يقول - عزَّ من قائل، وهو أعلم بما أراده: يسألونك أن تأتيهم بآية، قد كان كافيهم ما يشاهدونه من الآيات في السماوات والأرض وما بينهما على وحدانيتي، والشواهد على رسالة المرسلين ونبوة النبيين، وما بلغت إليهم الكتب وأعلمهم به الوحي الكريم.

ثم عطف ذكر رسالة محمد - صلوات الله عليه وعليهم أجمعين - على ما في تلك الجملة من معنى الرسالة فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل:٦] الشاهد على ذلك لو يعقلون إعجاز ما جئت به زائدًا على أنك أمي لم تكتب الكتب، ولا تعلمت العلم، ولا عرفت بصحبة العلماء، وعلى ذلك فإنك جئت بما أعجز الجن والإنس، ثم جعل يسرد ما قد أثبته في الكتاب المبين وخرجه في الوجود، وأجرى ذكره في القرآن المبين سماه مبينًا؛ لأنه بين عما في اللوح المحفوظ في الوجود ذكرًا وتلاوةً.

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ
تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ
﴿٨﴾ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ
يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ
إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾ [النمل: ٧ - ١٢].

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ [النمل:٧] المعنى إلى آخره، «إذ»: ظرف لما تقدم ذكره من معنى رسالة محمد ﷺ تقدير الكلام المعبر

عن المعنى: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس:٣] تلقى الوحي كما تلقى المرسلون؛ إذ قال موسى المعنى كما قال: ﴿يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ [يس:١-٥].

ومعنى قوله: تلقى تلقن، واللقن يكون بمعنى الفهم، ويكون بمعنى التعليم، كالمعلم يقرأ الآية على المتعلم، ثم يقرؤها المتعلم كما سمعها منه، ويقال: لقاك الله خيرًا بمعنى: أعطاكه الله ورزقكه، وكان ﷺ يلقى القرآن من عند الله، ومن الله بواسطة الملك، ولو شاء أن يفعل ذلك به من غير واسطة لفعل، وقد أمره ألَّا يحرك به لسانه حين يقرأه الملك ﷺ ووعده بأن يجمعه في صدره، ويجعله قرآنًا على لسانه، فكان الملك - عليهما السلام - يأتيه بالآية أو السورة فيقرؤها عليه وهو ساكت، فإذا ذهب عنه قرأه كما قرأه عليه الملك، فهذا - والله أعلم - معنى خاصة.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل:٦] كذلك قال في سورة الشعراء عطف بالواو في قوله: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الشعراء:١٠] على ما تقدم ذكره من ذكر آياته في الوجودين العالم والوحي، وإنما ذلك تذكير بما تقدم من سنته وحكمه في الأمم قبلهم، وتذكير برسالاته وما تبع ذلك من مجازاة بثواب وعقاب وإنذار وإعذار وغير ذلك.

ثم جعل يسرد ذكرهم رسولاً رسولاً وأمة أمة في آخر كل قصة، يقول: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ [الشعراء:١٩٠] ثم عطف على ذلك كله ذكر القرآن بقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:١٩٢] إلى آخر السورة، وقد تقدم ذكر هذا ﴿والله يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

قوله ﷻ فيما حكاه عن موسى ﷺ: ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ [النمل:٧] أحسست نارًا رأيتها بعيني، وهو من الحاسة، وآنست أيضًا علمت، وهو علم القلب، لعلي آتيكم ﴿مِّنْهَا بِخَبَرٍ أو آتيكم بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ [النمل:٧] أي: بشعلة نار أو قبس، يريد شيء مأخوذ منها.

وقال في موضع آخر: ﴿لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أو جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص:٢٩] الجذوة العود أو الشيء، قد اتخذت فيه النار.

وفي موضع آخر: ﴿لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أو أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ [طه:١٠]

كانت منه كلمة إنباء سبقها إليه رب العالمين، رأى عينه نارًا، فوجد نورًا وكلمه من النور نور الأنوار رب العالمين؛ لذلك قال، وهو أعلم: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [النمل:٨] دخول «أن» هنا دليل على أن الكلام مترجم عن كلام الله - جل ذكره - كأنه قال نودي بكلام معناه: ﴿بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [النمل:٨] إلى قوله: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ [النمل:١٠] وقد قال في غير هذا الموضع: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ [القصص:٣١] وفي قراءة أُبي: «إن بوركت النار ومن حولها من الملائكة» وهذه قراءة صحيحة[1] لأن ذلك المرئي هو نور رب العالمين ﷻ ومن حولها موسى والملائكة، عليهم السلام.

﴿وَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [النمل:٨] نزَّه نفسه العلي الأعلى عن أن يحيط به مكان أو يحضره زمان تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا ﴿بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [النمل:٨] تبريك من الله على ما ذكره، فلقد بورك فيها وعلا شأنها من نار ذهب بقبس منها لصلا فآل شأنها إلى أنها نور رب العالمين، وكان هو رجلاً من البشر فصار نبيًا رسولاً، ثم إلى ما آل إليه أمره بعد ذلك.

قوله تعالى: ﴿يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللهُ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ [النمل:٩] الضمير الذي في قوله: «إنه» هو بمعنى الأمر والشأن، ونون «أنا» أكبر حرف وأكرم نون، لا مثل لها إلا عزمًا عما عبرت هي عنه، وأعلم بما أعلمت به.

كذلك قال في موضع آخر: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ [طه:١١ - ١٢] أي: أن مكلمك هو ربك، والذي ترى نوره هو ربك.

وقال في موضع آخر: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه:١٤] تنبه لها ولا تنم.

كذلك قال في موضع آخر: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الوَادِ الأَيْمَنِ فِي البُقْعَةِ المُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ﴾ [القصص:٣٠]

---

(١) قرأ أبيّ، وابن عباس، ومجاهد: «أن بوركت النار ومن حولها» حكى ذلك أبو حاتم. وحكى الكسائي عن العرب: باركك الله، وبارك فيك، وبارك عليك، وبارك لك، وكذلك حكى هذا الفراء. [فتح القدير (٣٤٣/٥)].

أي: أن الذي ترى نوره وتسمع كلامه هو الله رب العالمين، وأخبره - ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه - عن نفسه بالآنية وتحقق الشهود والحضور، يقول الله - جلَّ من قائل: ﴿وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤].

وقوله: ﴿نُودِيَ مِن شَاطِئِ الوَادِ الأَيْمَنِ﴾ [القصص:٣٠] شاطئ الوادي هو جانبه الأيمن منه نعت للشاطئ، فإمَّا أن يكون من اليمن وهو كذلك، ولا أحق تحقيقًا من ذلك اليمن، وإمَّا أن يكون اليمين، فإلى من يكون يمينًا شاطئ ذلك الوادي المقدس؟.

أرى - والله أعلم بما ينزل - أن ذلك الشاطئ الذي نودي منه موسى كان عن يمين موسى ﷺ والمواجهة أيضًا يمين ولا يستقبله عبد ابتغاء مرضاته إلا كان له - جل ذكره - مواجهًا ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾ [البقرة:١١٥].

وقال في موضع آخر: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا﴾ [القصص:٤٤] فإن كان ذلك كما ذكرنا، فقد يجمع في هذا الشاطئ الوجهان معًا: اليمن من الله ﷻ واليمين من موسى، والمواجهة والجانب الغربي، قال رسول الله ﷺ: «**باب الجنة مفتوح من قبل المغرب عرضه أربعون سنة لا يغلق حتى تطلع الشمس من مغربها**»[1] فاتصف الشاطئ باليمن بالنداء الكريم منه ومن قبله، واتصف باليمين بموقف الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - ونسبته إليه بالمواجهة واليمين منه.

وأرى - والله أعلم - أن تلك الأرض إنما سميت بالأرض المقدسة والمباركة لذلك التجلي العلي يومئذ، ولعلم الله - جل ذكره - في أزله أنه يكون ذلك منه في المستقبل سماها بذلك قبل وبعد، وقد جاء أن تلك الأرض هي المقصودة بالحشر، ويومئذٍ يجيء الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه ﴿فِي ظُلَلٍ مِّنَ الغَمَامِ﴾ [البقرة:٢١٠] ويتجلى للمؤمنين يومئذٍ، وإنما ذكرنا هذا لنقف على اتساق حكمته في أحكامه.

قوله ﷻ: ﴿يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ المُرْسَلُونَ * إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ....﴾ [النمل:١٠ - ١١] أعلم - جل ذكره - أن المرسلين لا خوف عليهم، كما قال في موضع آخر: ﴿يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ

---

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية أولياء (٣٠٨/٧).

الآمِنِينَ﴾ [القصص:٣١] وإن كان الخوف يومئذٍ لا يعرى منه أحد لشدائد أهوال المطلع؛ لذلك تقول لهم الملائكة - عليهم السلام - ولأتباعهم: ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا﴾ [فصلت:٣٠].

وقوله: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ يمكن أن يكون استثناء منقطعًا وحذف من الكلام ما تقديره: فإنه لا يخاف إلا من بدل حسنًا بعد سوء ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النمل:١١].

وليس قوله: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ مستثنى من المرسلين، بل هو مستثنى من أتباعهم، فإن المرسل إليهم مفهوم في مراد القول من المرسلين، كما المفهوم من المرسل إليهم أن منهم المحسن والظالم لنفسه، والمحسن ما عليه من سبيل والظالم المبين هنالك، ومفهوم المراد من القول أن بين المحسن السابق والظالم المبين متوسط خلط عملاً صالحًا وآخر سيئًا، فمن عمل صالحًا ثم ختم عمله بظلم عظيم فهالك لا ريب، ومن ظلم ثم بدل حسنًا بعد سوء فهو المراد في هذه، وتجاوز في خطابه - جل ذكره - هذه الأصناف؛ إذ هي كلها من مفهوم الخطاب، وقرأ زيد بن أسلم: «أَلَا مَن ظَلَمَ» بفتح الهمزة وتخفيف اللام على معنى استفتاح الكلام.

﴿ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّنۡ عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [النمل: ١٣ - ١٧].

قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾[1] [النمل:١٥] من العلم الذي

---

(١) قال الورتجبيي: افهم أن العلم علمان: علم البيان وعلم العيان، علم البيان ما يكون بالوسائط الشرعية، وعلم العيان مستفاد من الكشوفات الغيبية؛ فما ذكر الله سبحانه فيما أعطاهما، فهو من العلمين البياني والعياني، فالعلم البياني معروف بين العموم، والعلم العياني مشهور بين الخصوص لم يطلع عليه إلا ولي أو نبي؛ لأنه صدر من الحق لأهله، شهوده من المحبين والعارفين والموحدين والصديقين والأنبياء والمرسلين، ومن ذلك العلم علم اللدني، والعلم اللدني حقائقه علم المجهول، وعلم المجهول ما يكون صورته بخلاف علم الظاهر مثل =

أتاهما الشكر لله ﷻ قولهما: ﴿الحَمْدُ لله الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ﴾ [النمل:١٥] وفسر بعض العلم المذكور بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الفَضْلُ المُبِينُ﴾ [النمل:١٦] أمر الأنبياء والمرسلون يحدثوا بنعمة الله قبلهم؛ لأن ذلك منهم دعاء إلى الله - جل ذكره - ليس كذلك الغير، إلا أن تدعو إلى ذلك ضرورة ما به.

وقال في موضع آخر: ﴿سَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ [الأنبياء:٧٩] ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الحَدِيدَ * أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [سبأ:١٠ - ١١] هذا كله من العلم الذي أتاهما - صلوات الله وسلامه عليهما - وقال: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ﴾ [سبأ:١٠] التأويب هنا: العود بعد البدء، ثم العود.

قال الله - عزَّ من قائل: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ [النمل:١٦] أطلعهما الله على تسبيح الجمادات ونطق الصوامت، وأفهمهما ما تقول ذوات الأصوات المعجمة، وأراه صور الجن على تباين خلقهم وحكمه فيهم، وسخر ذلك كله طاعة له.

قوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل:١٧] الوازع المعدل للصفوف الحابس للأول، حتى يلحق الآخر والسابق للمتأخر ليلحق.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ

=

صنيع الخضر عند موسى - عليهما السلام - من قتل الغلام وغيره، وهو حلم الأفعال وبطون حقائق المقدرات والأمور الغيبية، وما يتعلق بالملك والملكوت الذي هو المرتبة الأولى من علوم المعارف والحكم، والمرتبة الثانية علوم الأسماء والنعوت والصفات مثل ما علمه الله آدم بقوله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾، والمرتبة الثالثة العلم بالذات: وهو علم الأسرار. [عرائس البيان في حقائق القرآن] بتحقيقنا.

كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾ [النمل: ١٨ - ٢٦].

﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ﴾ أرض كثيرة النمل ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل:١٨].

عبرة

أخبر الله الخبير بما خلق أن النمل تعرف الأنبياء والصالحين الحق، وأنهم لا يقتلون نملة فما فوقها عمدًا، علم ذلك بمفهوم الخطاب إلا أن يكون ذلك منهم على سبيل الخطأ، فكان هذا مصداقًا لقول رسول الله ﷺ: «**يستغفر للعالم كل شيء حتى حيتان البحر وطير السماء**»[1].

وفي أخرى: «**إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم وصلت عليه ملائكة السماوات وحيتان البحور**»[2].

أتبع ذلك قوله: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ [النمل:١٩] ضحكه ﷺ ضحك سرور بما جعل الله له من النبأ على أفواه الصوامت، وإن ذلك من عند الله كما قيل:

---

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ، وإنما وقفت على لفظ: «**علماء هذه الأمة رجلان: رجل آتاه الله علمًا فبذله للناس، ولم يأخذ عليه طمعًا ولم يشتر به ثمنًا، فذلك تستغفر له حيتان البحر ودواب البر والطير في جو السماء.....**» أخرجه الطبراني في الأوسط (٧١٨٧).

(٢) أخرجه أحمد (٢١٧٦٣)، وأبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢) وقال: لا نعرف هذا الحديث إلا من حديث عاصم بن رجاء بن حيوة وليس هو عندي بمتصل ثم أورد له إسنادًا وقال: هذا أصح، وابن ماجة (٢٢٣)، وابن حبان (٨٨)، والبيهقي (١٦٩٦).

«**إن رسول الله ﷺ كان جل ضحكه التبسم**»[1] ثم أخذ في الشكر لله والثناء عليه بما أولاه وخصه به والسؤال له أن يديم له ذلك ويزيده من فضله، وهذا أدب من جعل الله له نصيبًا من رحمته وحظًا من كرامته.

ألا تسمع إلى قول الله - جل ذكره - لموسى ﷺ لما أكرمه بكلامه وندائه إياه، وأراه الآيتين: قلب العصا حية، وإخراج اليد البيضاء، ثم قال له: ﴿**وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ**﴾ [القصص:٣٢] كما قال: ﴿**وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ**﴾ [البقرة:١٩٧] وجاء من مفهوم ما تقدم ذكره أن من عباد الله من يجعل الله له ودًا في نفوس الخليقة وثناءً عليه بينهم، وأن يفصح الوجود ظاهرًا بذلك، وذلك كان سؤل سليمان ﷺ أن يلحقه الله بهم في قوله: ﴿**وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ**﴾ [النمل:١٩].

قوله تعالى: ﴿**وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ**﴾ [النمل:٢٠] [2] إلى قوله: ﴿**اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ**﴾ [النمل:٢٦] أعلم - جل ثناؤه - أن الطير والنمل وجميع الخليقة لها تدبير وتدبر وآراء، وحذر متقدم

---

(١) أخرجه بنحوه الترمذي في الشمائل المحمدية (٨)، والطبراني (٤١٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٤٣٠)، وابن عساكر (٣٤٣/٣).

(٢) فيه قوله تعالى: ﴿**لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً**﴾ أي: لأعذبنه بالصبر على دوام المراقبة والرعاية والغيبة في بحر النكرة في المعرفة ليفنى، ثم يفنى عن الفناء أو أذبحته بسيف المحبة أو بسيف العشق، أو ليأتيني من الغيب بسواطع أنور أسرار الأزل، وعلى صورة الظاهر نكتتها أن سليمان أحب الهدهد؛ لأنه رأى ذلك الهدهد في مكان العشق، ورأى عليه آثار العشق؛ فاستأنس به، وكان للهدهد خاصية أنه عرف مواقيت صلاته، ورأى الماء بين الطين والحجر، وكان يدل الجن على الماء لوضوئه وطهارته حيث نزل، وكان بين هدهد سليمان، وهدهد بلقيس عشق، فغاب عن سليمان عند نزوله، وتلاقيا الهدهدان؛ فلما تفقده علم أنه عند معشوقه، فغار عليه إذ اشتغل بغيره من خدمته فطلبه، وأمر العقاب أن يأتي به فطار العقاب، ورأى هدهد سليمان عند هدهد بلد سبأ، فأتى به على سليمان ﷺ؛ فقال: لأعذبنه عذابًا شديدًا، أي: لأحبسنه في موقع فراقه عن معشوقه، فلما جاء إليه الهدهد تحير في شأنه إيش يقول: فعلم أن سليمان في مقام أنس الله وعشقه، ويحب أن يستأنس بمستحسن؛ فاحتال بأن يذكر عند سليمان ما رأى من حسن بلقيس وعظيم شأنها ليكون ذلك طريقًا له إلى قرب محبوبه، فلما مهد ذلك مع نفسه تعظم في شأنه، واجترأ من حيث جرأة العشيق.

بين يدي أمورها، وكلام مفهم وتخاطب ومعاملات، وطاعة لله ولرسوله، وود لعباده المؤمنين بما ذكر من شأن النملة والهدهد والجبال والطير.

جمع ذلك قوله: ﴿**وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم**﴾ [الأنعام:٣٨] وخصَّ هذا بذكر الجناحين تخصيصًا للبهائم؛ إذ الملائكة والجن لا يفتقرون في الصعود والنزول إلى جناح، وجمع ذلك كله بقوله: ﴿**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ**﴾ [الإسراء:٤٤] وحيثما ذكر السجود والقنوت منها إلى ربها فهو من ذلك وإن لم تفصح بذلك الوجود كل الإفصاح، ولأوضح ذلك منها للأكثرين كل الإيضاح ﴿**وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ**﴾ [الإسراء:٤٤].

لكن الإيمان: يقول الصادق الحق ويضطر إلى اعتقاد ذلك والتصديق به حقيقة لا مرية فيه، وإنما حمدت الحوامد عن الكمال، واستعجمت العجم عن الإفصاح في حقنا نحن، لا في حقيقتها لحكمة بالغة له ﷻ في ذلك، وهو دليل على أنه خبأ الآخرة في ظل الدنيا، وليدل أن من سبل سنته في جل الموجودات أن يبدأها صغيرة، ثم يستن بها سنن النشء حتى يكملها في الآخرة، وذلك أيضًا من دلائل وجود الآخرة عند انتهاء الدنيا إلى غير ذلك من آياته.

قوله ﷻ فيما حكاه عن الهدهد: ﴿**فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ**﴾ [النمل:٢٢] الإنباء أبدًا يأتي عن الإخبار عن الغيب، ولما كان أمر سبأ غائبًا عن سليمان أنبأه بشأنها يقينًا من الهدهد، ثم قال: ﴿**إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ**﴾ [النمل:٢٣] وأخبر أن سبأ ليست هي المرأة ولا البلد كما قد قيل.

وقد سئل رسول الله ﷺ عن سبأ ما هو؟ قال: «**رجل ولد عشر قبائل فسكن اليمن ستة والشام أربعة، فأمَّا اليمانيون فمذحج وكندة والأزد والأشعريون وأنمار وحمير، وأمَّا الشاميون فلخم وجذام وعاملة وغسان**»[1] وإنما سكن هؤلاء هذه البلاد لما أخرجهم الله منها - أعني: من موضع سكناهم - بسيل العرم.

---

(١) أخرجه الطبراني (١٢٨١٦) وفي مسند الشاميين (٤٣٦)، والحاكم (٣٥٤٤)، وأحمد (٢٩٥٤)، وابن أبي عاصم (١٥١١).

أتبع ذلك قوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ هذا عموم المراد به الخصوص، فإن ملك سليمان لم يكن مما أوتيته، وهذا جار في كلام العرب، وهو راجع إلى مراد قائله ونيته فيه، ثم قال: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل:٢٣] عرشها موضع مقعدها في هيئة الملك، وقد يعبر بالعرش عن الحال والمنزلة والمرتبة ونحو هذا، والأصل ما تقدم.

ثم قال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ [النمل:٢٤] إلى آخر المعنى، في هذا من الفقه أن الطير وما دون الإنسان والجن من العوالم قانتة لله - جل ذكره - لا تعبد إلا إياه ولا تسجد إلا له.

قال الله - جلَّ من قائل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾ ثم قال: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العَذَابُ﴾ [الحج:١٨] ولذلك أنكر الهدهد سجودها وسجود قومها للشمس من دون الله، وقال: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ ويمكن أن يكون من قوله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ [النمل:٢٤] إلى السجدة من قول الهدهد، فحكاه الله - جل ذكره - عنه، ويمكن أن يكون من قول الله - ﷻ والله أعلم بما نزله - لكن السلف تلقوه على أنه من كلام الهدهد لاتصاله به.

وفي هذا الكلام تقديم وتأخير، وتقديره - والله أعلم: وزين لهم الشيطان ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا للهِ الَّذِي يُخْرِجُ الخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل:٢٥] الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل:٢٤] أي: لما اتبعوا الشيطان زين لهم سوء أعمالهم، فاحتجب الحق عنهم وضلوا عن السبيل، فهم لا يهتدون.

وقرأ الكسائي: «ألا يا اسجدوا لله» على معنى: «ألا يا هؤلاء اسجدوا».

وروي عنه أنه قرأ: «ألا يسجدون» وهذا متعلق منتظم بقوله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ [النمل:٢٤] وفي قراءة أُبي: «ألا يسجدوا لله الذي يعلم سركم وجهركم وما تعلنون» وروي عنه: «ويعلم ما تسرون وما تعلنون» وقرأ عيسى بن عمر وابن

مسعود وطلحة: «ألا يسجدون لله»[١] ويذكر أن اسم الله الأعظم في هذه الآية التي يظن أنها حكاية عن الهدهد - رزقنا الله بركة أسمائه وعلمنا من علمه، وأجزل حظنا من معرفته، ونفعنا بذلك إنه أرحم الراحمين.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [النمل:٢٥] الخبء وإن انخرق العلم به انخراقًا عظيمًا فهو راجع إلى وجهين - الله أعلم بما وراء ذلك:

الأول: أنه خبأ الماء في خزائنه، وخبأ في الماء ما صرف إليه الماء، وخبأ الدواب في خزائن السماوات والأرض، وكذلك ما قد خلقه وما هو خالق مخبوء في الخزائن، قال الله - جلَّ من قائل: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾ [الحجر:٢١]، فإذا أراد إيجاد شيء، قال له: كن، فكان كما شاءه.

والخبء الثاني: وهو الأعظم خبأه الآخرة في الدنيا، فإذا مات أحدنا صار فيها كما قال ﷺ: «**للجنة أقرب إلى أحدكم من شسع نعله والنار كذلك**»[٢] دلَّت خبأ الجنة في السماوات والأرض، وخبأ النار فيما تحت الأرضين، ثم في الأرضين، حتى إذا بدل الأرض غير الأرض والسماوات أظهرهما عيانًا.

ولذلك - وهو أعلم - قال على أثرها: ﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النمل:٢٦] العرش موضع الملك ﴿لله مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ [المائدة:١٢٠] فالملك الآن ظاهر بما هو الآن، وهو على حقيقة ما تقدم ذكره من إخراج الخبء ذكره باطن وجود حق، وقد يخرج منه ما شاء ويظهر منه ما شاء لمن شاء، من معجزات وكرامات دلائل دلت على قدرته، ورسالات أنبيائه وإكرام أوليائه

---

(١) قال الفرّاء: حدّثني الكسائي عن عيسى الهمذاني قال: ما كنت أسمع المشيخة يقرؤونها إلّا بالتخفيف على نيّة الأمر، وهي في قراءة عبد الله: هلّا تسجدوا لله، بالتاء، وفي قراءة أُبي ألا يسجُدون لله، فهاتان القراءتان حجة لمن خفّف، وقرأ الباقون: ألّا يسجدوا بالتشديد بمعنى وزين لهم الشيطان أعمالهم لئلّا يسجدوا لله، فإنْ موضع نصب ويسجدوا نصب بأن، واختار أبو عبيد هذه القراءة وقال: للتخفيف وجه حسن إلّا أنّ فيه انقطاع الخبر عن أمر سبأ وقومها، ثم يرجع بعد إلى ذكرهم، والقراءة بالتشديد خبر يتّبع بعضه بعضاً لا انقطاع في وسطه، والوقف على هذه ألا ثمّ يبتدي يسجِدُوا كما يصل. [الكشف والبيان ٤٧٧/٩].

(٢) سبق تخريجه.

من مقدوره الغائب ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة:١٤٧].

نبه بقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [النمل:٢٦] وهو أعلم بما ينزل، على أن جميع الوجود كان مخبوءًا في علمه وقدرته ومشيئته، ونبه بذكره العرش على أن جميع الوجود في ضمن العرش العظيم؛ لأنه المحيط بجميع الوجود.

وكان أيضًا الوجود كله مخبوًا في الماء الذي كان عليه العرش، والوجود كله يومئذ مرتق، ثم لما فتق ذلك الرتق خلق الماء فيما خلقه من ذلك، فإذا أرسل الرياح اللواقح في الأجواء، وخلق الماء على ذلك فأنزله إلى الأرض، أخرج مما خبأه ما شاء كما سبق في علمه السابق وقدرته المحيطة ومشيئته العالية، سبحانه وله الحمد عالم الغيب والشهادة، فتعالى الله عما يشركون.

﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ
تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ
وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ
أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ
وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ
أَهْلِهَا أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ
﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ
تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾
قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ
بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ
قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ
وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي
أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا

وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [النمل: ٢٧ - ٤٢].

أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الكَاذِبِينَ * اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [النمل:٢٧ - ٢٨] هذا مما تقدم ذكره من إثبات صفات كمال لما دون الإنسان من عوالم، وفي ذلك أنه من الواجب على من أتاه الله من ملكه المجاهدة لأعدائه وأهل المشاقة لله ورسله، فوجه النظر إلى ما بلغه الهدهد وكتب الكتاب مستطلعًا، هكذا ينبغي لمن مكنه الله في الأرض.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ [النمل:٢٩] بلغ الهدهد الكتاب وفعل ما أمره به نبي الله ﷺ لا محالة وأتاه بما تراجعوا به في شأن الكتاب، وصفت الكتاب بالكرم لما وقفت عليه من توصيل له بواسطة طائر، فعلمت أن وراء ذلك ما وراءه من عظم الأمر، ولا يبعد أن يكون شأن ملك سليمان ﷺ مسموعًا لديها معلومًا عندها ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل:٣٠ - ٣١] [1] ومتى تصفح العالمون بالله وبكتابه وحكمته هذا الكتاب علموا لا بد أن هذا الكتاب كريم على الحقيقة؛ إذ جمع المعنى المقصود كله في الوجودين العالم والوحي في هذه الكلمات الأربع قوله على القول بالإيجاز، وحكم العموم ألا تعلو ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ﴾ هذا فضل النبوة ﴿وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [النمل:٣٠] فضل الإلهية بأسمائها وصفاتها على القول بالإيجاز وحكم العموم ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ﴾ كلمة جمعت المناهي كلها

---

(١) عرفت أنه كلام الله، ولا يشبه كلام الخلق، وقالت: كتاب كريم؛ فانبسطت من باء ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ إشارة بدء القدم والبقاء اللذين هما أصل جميع الصفات القديمة القائمة بذات الحق سبحانه من عرفه بالقدم والبقاء فقد عرفه بجميع الذات والصفات، وتلك المعرفة لا تكون إلا لمن شاهد مشاهدة الأزل والأبد، وعرفت من السين إشارة سنا الحق وأسراره، ومن الميم ملكه ومحبته، وإشارة الهيمنة المشاهدة المحيطة بكل ذرة من العرش إلى الثرى من حروف الله إشارة عين الذات الواحد الفرد من الألف، ومن اللامين الجلال والجمال، ومن إلهام الهوية، وغيوبات الغيب، ووجدت في الكلمة وجوب العبودية للربوبية ليصل برحمة الرحمانية العامة في الدنيا والآخرة ورحمة الرحيمية الخاصة في الآخرة لأهل الخصوص، وعلمت أنها بجميعها مقام الاتصاف من اتصف بها سهل عنده بتلفظها مراد أراده من معنى الإجابة القدرة بالأشياء بالآيات والكرامات.

﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل:٣١] جملة جمعت المأمور به كله بحذافيره حتى الهجرة، سبحانه وله الحمد أعطاهم وأفضل عليهم، ثم مدحهم على ذلك وأثنى به عليهم وأثابهم إنه حميد مجيد.

قوله تعالى فيما حكاه عنها: ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ هذا كلام المرأة[1] وهو كلام متصل بالحكمة، ثم استأنف كلامًا قائمًا بنفسه مصدقًا لكلامها قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل:٣٤] هذا قول الله ﷻ وقوله الحق، وله الملك يوم ينفخ في الصور، ولا يخلو الملك الداخل أن يكون مؤمنًا صالحًا أو كافرًا فاسقًا، فإن كان كافرًا أفسد على المدخول عليهم دينهم ودنياهم، وإن كان صالحًا والمدخول عليهم كافرون أفسد عليهم دنياهم، وربما اقتصر على تغيير منازلهم من الملك وحطهم عن مراتبهم، وذلك الذي عنته المرأة يومئذٍ.

ثم في قول الله - جل قوله وتعالى جده - عبرة قائمة وحكمة ظاهرة في دخول اليوم الآخر على يوم الدنيا، وهذا يفعله ملوك الدنيا، وهم لا يملكون سوى عذاب الأجسام ويقطع بهم عن ذلك الموت، ولا يملكون العذاب الدائم فكيف بالملك الحق مالك يوم الدين، إذا أذن بانقراض الدنيا وأدال منها دولة الآخرة، وقد قال رسول الله ﷺ: «**يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر يطئوهم الناس بأرجلهم**»[2].

---

(١) لما وجدت في الكتاب تلك الكرامات، عرفت عظم شأن سليمان وجلاله، وما عليه من أنوار الحسن والجمال، فمال قلبها إلى العشق والمحبة؛ فأرادت ألا تكون مخذولة حين دخل في بلدها سليمان، ولا تتأذى بنفسه في محبته، فإن العاشق لا يريد إيذاء معشوقه، ومن إشارة المعرفة إذا دخل سلطان الوجد والمحبة والمعرفة، والمشاهدة في قلوب العارفين، أغار ما دون الله من العرش إلى الثرى، ولا يبقى فيها إلا نور بلا ظلمة وصفاء بلا كدورة، وجمع بلا تفرقة، وذكر بلا فترة، وعشق بلا شهوة، وصدق بلا غفلة، ويقين بلا شك، وإخلاص بلا رياء، ويصير أوصاف النفس الأمارة محمودة، وصارت أبواب القلوب على الشياطين مسدودة، ويكون الروح مشاهد الحق بلا حجاب.

(٢) أخرجه بنحوه أحمد (٦٦٧٧)، والترمذي (٢٤٩٢) وقال: حسن صحيح. والحميدي (٥٩٨)، والبخاري في الأدب المفرد (٥٥٧).

وقال الله ﷻ: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًا فِي الأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣] وقد وصف الواقعة بأنها ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ [الواقعة:٣] وأن ذلك اليوم: يوم التغابن.

قوله تعالى فيما حكاه عنها: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل:٣٥] ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ﴾ يعني: رسولها ﴿قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم﴾ [النمل:٣٦] إلى قوله: ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهَم بِهَا...﴾ [النمل:٣٧] ثبت من فعل سليمان ﵇ وحكاية الله - جل ذكره - ذلك عنه في معرض الرضا أن قبول الهدية من العدو المشرك رشوة على الدين، وخلاف لطاعة الله وخيانة لله - جل ذكره - وللمؤمنين.

قوله تعالى فيما حكاه عن عبده ونبيه سليمان ﵇: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا المَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل:٣٨] أعلمه الله - جل ذكره - بأنهم يأتونه مسلمين، فأحب أن يبادر إقبالهم بكون العرش عنده؛ ليجربها هل تكون من المؤمنين كما هي من المسلمين أم لا، فإذا آمنت وصدقت بأنه هو عرشها وأنه كيف تهيأ انتقاله بعدها، وقد خرجت عنه يوم خروجها وتركته، والملوك لا يتعذر عليهم الإعلام لهم بالقليل الخطر مما يجري في ممالكهم بعدهم، فكيف بمثل هذه العظيمة؟!.

فيتحصل البيان من هذا كله عن سرعة النقلة أنه من المقدور الغائب، فالإيمان بالمقدور الغائب من وراء الإيمان بالمقدور الحاضر؛ وإذ ذاك يكون مؤمنًا مسلمًا، وقد يتهيأ أن نعتقد بعد تحصيل ما تقدم أن يكون أحب تحصيله عنده قبل إتيانهم إليه مسلمين ليطيب له.

أتبع ذلك قوله: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ [النمل:٣٩] العفريت: القوي، الماهر، الداهية، المجرب، العاصي، العاتي من الجن أو من الإنس، وفي الحديث: «**إن الله ليبغض العِفْرِيَةَ النِّفْرِيَةَ التي لم ترزأ في ماله ولا في جسمه**»(١) وقرأها عيسى بن عمر البصري وأبو

(١) أخرجه القضاعي في مسنده (١٠١١).

رجاء: «عفرية من الجن قبل أن تقوم من مقامك» يريد مجلس قضائه، قيل: وكان يجلس إلى نصف النهار.

﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل:٤٠] قيل: قبل أن يرجع إليك رسولك من أقصى ما يبلغ إليه طرفك.

وقيل في معنى قوله: ﴿يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل:٤٠] أن ترمي بطرفك إلى أقصى الغاية، ثم يرتد إليك حسيرًا أو قريرًا، وقيل: إن الذي كان عنده علم من الكتاب رجل من الإنس من بني إسرائيل، قيل: إنه علم من باطن الكتاب «**الاسم الأعظم** الذي **إذا دعي الله به أجاب وإذا سئل به أعطى**»[1] جاء في غير هذا المعنى أن «**اسم الله الأعظم الحي القيوم**»[2] وروي ذلك عن رسول الله ﷺ.

وقيل: يا إلهنا وإله الخلق جميعًا إلهًا واحدًا لا إله إلا أنت، وقيل غير هذا.

وقيل: إن الذي كان عنده هذا الاسم كان من الجن، علمه الله حقائق باطن الكتاب فعمل بما علم، فكان عند الله مستجاب الدعوة لعلمه وعمله، وهذا أصوب الأقوال - والله أعلم بما ينزل.

وقد يرى من يدعو الله يناجي يا قيوم، وبغير ذلك مما ذكر أنه اسم الله الأعظم، ثم قد لا يستجاب له، وقال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧] أي: القبول الأعلى، والمتقون هنا هم أهل التحقق في التقوى الذين راقبوا الله في السر والعلانية.

فصل

إجابة الدعاء من قبيل العطايا والهبات، ويقوي استجاب هبة ذلك بلزوم التقوى والتزام العلم، وتحقيق اليقين واستشعار صدق التوكل والشروط التي أمر بها الداعي؛ وأعني بالإجابة هنا: إحضار المسؤول حين السؤال، وإلا فهو - جل ذكره - قد وعد كل من دعاه أن يجيبه، وكيف يجيبه وهو من العمل ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٥٣١١).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٨١٣) بلفظ: «اسْمُ اللهِ الأَعْظَمُ فِي هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ وَفَاتِحَةِ آلِ عِمْرَانَ ﴿الم * اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾».

ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة:٧] وقد بيَّن رسول الله ﷺ ذلك بقوله: «**هو بين إحدى ثلاث إمَّا أن يعجل له وإمَّا أن يؤجل له ذلك إلى أجله المقدر له أو يدخر له إلى يوم الجزاء**»(١).

فصل

قال الله - جلَّ من قائل - في قصصه الحق الذي ذكر فيه سبأ: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً﴾ [سبأ:١٨] وأكثر ما قيل في بُعد ما بين الشام والسد مسيرة شهر، وكان ﷺ تسير به الريح على هيئتها ورخائها شهرًا رواحًا وشهرًا غدوًا، فتضمن له العفريت أن يأتيه بعرشها في مثل نصف النهار أو ما يقارب ذلك، وذلك منه مع إسراعه لمثلي مدة معهود سير سليمان ﵇.

وإذا كانت الريح تسير به على رخائها، وهو سعة الخطو مع المهل، فلربما بلغ العفريت مع الإسراع بين المر والقفل مثل ذلك وأكثر، فقرب ذلك من المعهود عند سليمان ﵇ وأراد أسرع من ذلك، فتضمن له الذي عنده علم من الكتاب أن يكون إتيانه به أسرع من ارتداد الطرف، وتحقيق ذلك: أن تقع العين على مرئي ما فيجذب المر بذلك المرئي، فأتى حال وقوع النظر في الرتبة دون زمان محسوس، فيرجع الطرف عن ذلك المرئي، وقد قضى الله له ما عليه من تحصيل العلم بذلك المرئي، والرجوع إلى نفس الرائي يعلم ذلك.

ومن ذلك قول عمر ﵁ وذكر إيلاء رسول الله ﷺ من نسائه، وفيه قال: فصعدت إليه وهو في مشربة له وهي خزانته، قال: «فما كان فيها ما يرد الطرف إلا أهب قليلة ويسر فرض....» فرد الطرف هو وقوع البصر على المرئي، ووقوع العلم بذلك في نفس الرائي.

قال الله ﷻ: ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ﴾ [النمل:٤٠] لم يكن في إحضاره بعد الإذن تلبث ولا انتظار.

---

(١) أخرجه بنحوه ابن أبي شيبة (٢٩١٧٠)، وأحمد (١١١٤٩)، وعبد بن حميد (٩٣٧)، وأبو يعلى (١٠١٩)، والحاكم (١٨١٦) وقال: صحيح الإسناد. والبيهقي في شعب الإيمان (١١٢٨). والطبراني في الأوسط (٤٣٦٨).

فصل

الذي يعطيه العلم ويوجبه النظر أن استئهال هذه العطية الكريمة بعده مشيئة الله - جل ذكره - وامتنانه بإيتاء فضله لأحد وجهين أو كليهما لعبد وفقه الله إلى ذروة العلم وعلا اليقين، مع العمل بما يرضيه فيما علمه، أو عبد وفق للعمل ورفع فيه إلى أعلى درجاته على سنن اقتداء وعلم صحيح بما هو عامله، غير أن الأول أصله العلم وهذا أصله العمل.

فالعبد الذي العلم ربما بلغ في قضاء سؤله إلى هذه الدرجة المذكورة، لهذا الذي كان عنده علم من الكتاب أن يسل أو يريد المراد، فلا يكون بين في ذلك إلا كما بين وقوع الطرف على المرئي، وحصول العلم به في القلب، ومن هذا قال سهل وذكر الأولياء وكان في أصحابه يومئذٍ في مدينة تستر أن فيهم كمن يقعد هنا ويقوم بمكة، وأمَّا الآخر الذي أصله العمل فهو الذي تطوى له الشقة، فربما سار في مسيرة الشهر مثلاً نصف المدة، وربما سار عشرها، وأقل من ذلك جدًّا وأكثر، وعلى قدر الحظ من العلم في هذا وهذا.

وأمَّا قول رسول الله ﷺ: **«الدعاء ثلاثة؛ فمنه معجل، ومنه مؤجل، ومنه مدخر»**[1] فتعجيله على ما تقدم ذكره، وكذلك تأجيله وادخاره له ليوم الجزاء، فهذا لعموم المؤمنين، فإن الدعاء من قبل العمل، والله لا يظلم مثقال ذرة.

جمع ذلك كله قوله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه: ﴿**ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ**﴾ [غافر:٦٠] كل على درجته ومقامه الذي جعله الله فيه وأهله له، ولكل نبأ مستقر وهو لا يخلف الميعاد.

فصل

قال رسول الله ﷺ: **«أجيفوا الأبواب واذكروا اسم الله»**[2].

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) أخرجه أحمد (١٤٣٢٢)، وعبد بن حميد (١١٥٧)، والبخاري في الأدب المفرد (١٢٣٤) وأبو داود (٥١٠٣، ٥١٠٤)، وأبو يعلى (٢٣٢٧)، وابن حبان (٥٥١٧)، والحاكم (٧٧٦٢).

وفي أخرى: «**فمروا الإناء واخفوا الإناء واذكروا اسم الله فإن الشيطان لا يفتح غلقًا ولا يكشف إناء**»(١) وهذا خبر صادق لا محالة.

وقد حكى الله - جل ذكره - عن العفريت أنه تضمن الاقتدار على الإتيان بالعرش المنسوب إلى تلك المرأة، على ما وصفه به أنه عظيم في قصر تلك المدة التي حدها لنفسه.

وقد ذكر الله ﷻ أن الجن كانوا يعملون لسليمان الصروح وما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان؛ كالجواب والقدور الراسيات، وأن منهم بناءين وصناعين، فكيف يجمع هذا مع ما أخبر به رسول الله ﷺ.

أرى - والله أعلم بما ينزل - أن قول رسول الله ﷺ مقصور على الشياطين منهم والكفار، وأن ذكر أسماء الله يحظر عليهم فتح الأبواب؛ ولأنها ظواهر والجن لا تصل إلى الظواهر إلا بظواهر معاني، فيكون تخطير الأسماء التي هي ذكر الله في معاني بواطن أبيحت لهم، وجعل لهم عليها سلطان؛ كقوله ﷻ: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ﴾ [الإسراء: ٦٤] فهم على ذلك لا يصلون إلى ظواهر الموجودات من حيث هم لكن بظواهر سواهم.

وما جاء أن الجن كانوا يصنعون المصانع لسليمان ﷺ ويشيدون له الصروح والمحاريب والتماثيل، ويظهرون له الملك المعجز، فبمشاركة الإنس لهم على ذلك، فهم يقتدرون على غيابات المصانع والأمور الباطنة، ويصلون ذلك بأعمال الإنس، فتظهر المصانع بما هي للإنس، وتعجز لغرائب بواطن ما يأتي به الجن، وإنما تضمن العفريت من سوق العرش ما تضمنه عليه من القوة والأمانة بما يصحبه نبي الله ﷺ من أهل مملكته، فإنه كان لا يعمل شيئًا إلا كان معهم من الإنس، والإنس لا تعمل ما يريد إجادته وإظهار الاقتدار عليه إلا بأن يصحبهم من الجن من يقوم بذلك.

ولعل هذا العرش إنما ظهر الاقتدار عليه بالجن والإنس، وبركة علم العالم

---

(١) أخرجه بنحوه أبو عوانة في مسنده (٦٥٨٠).

بالكتاب وبالحقيقة، فإن ما كان مجيء العرش إلا بالقدرة من الله ﷻ فإن الجن والإنس لا يبلغون مبلغ هذا الأمر المذكور، فعلى هذا ينبغي لنا ألَّا ننكر أن يكون لهم مصانع معجبة باطنة عنا، ومماليك ومدن ومساكن وجنات وموجودات غائبة عنا ظاهرة لهم، لما لم يشركهم الإنس في صنعها لم تظهر، ولما كانت من صنعهم على انفراد بها تناهت في العجب وبطنت.

والذي يعطيه العلم ويحكم به الوجود، أن مبانيهم تلك ومصانعهم تخرقها أجسامنا ولا تمتنع منا؛ لأنها باطنة، وفي حكم الغيب عنا، كما تخرق أجسامهم مصانعنا؛ لأنها ظواهر، وهم في حكم الغيب عنها، قال الله ﷻ: ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ﴾ [الأنبياء:٨٢] أي: عمل انفراد.

ومما ينبغي أن نعلمه أن الجن لا يتعذر عليهم أن تخرق أبصارهم مصانعنا ولا نخرق مصانعهم؛ لأنهم مفروض عليهم الستر والعفاف كما هو مفروض علينا، وإنما نتحرز نحن منهم بأسماء الله وذكره، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف:٢٧].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾ [النمل:٤٠] هذا منتظم بوجه ما بمعنى قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الحَمْدُ لله الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ١٥] وقول سليمان عند سماعه كلام النملة: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ﴾ [النمل: ١٩] المعنى كله حيث وقع.

وهذا أدب من بلغه الله إلى كرامته، وأظهر له من المقدور الغائب ما يكون برهانًا له على مواهبه التي يؤتيه من فضله أن يرد النعمة إلى وليها - جل ذكره - ويتبرأ له من الحول والقوة، ويلزم نفسه ذل العبودية ويخضع، وليستشعر البلوى من الله وسلب النعمة، وأنه ليؤاخذه بحقه عنده، كان من أحسن عباده قدرًا عنده وليتأهب؛ لذلك دلَّ على هذا قوله ﵇ لما رآه مستقرًا عنده: ﴿هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل:٤٠].

قوله ﷻ فيما حكاه عن نبيه سليمان ﵇: ﴿نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ

تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل:٤١] كانت فارقت عرشها على هيئة عهدتها، فأتى به سليمان ﷺ على الوجه الذي قص علينا من سبيل الإعجاز ووجود المقدور الغائب، فأراد محنتها إن كانت تنكره جملة أو تعرفه على تعذر سوقه؛ لبعد المسافة وقرب الوقت وعظم المحمل، وخروج جملة ذلك عن المعهود بكل وجه مع تنكيرهم إياه، فإن عرفته استدل بذلك على أنها ممن ينتبه للعجائب، ويحصل ما بين الأمر المعجز والمعهود منه.

﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ [النمل:٤٢] فإذًا هي قد عرفته، وإنما استرابت فيما نكر منه، فكانت عنده بعد ممن ترجى هدايتها، فإن الضلال المطبق على قلوب الضالين يعمي العيون ويغفل العقول، حتى لا يعرفون المعجز من المعهود، ولا يرون النور الباطن من ضده، فلا يميزون لذلك بين الهداية والضلالة، ولا ما بين الآيات وغيرها من المرتبات.

قال الله - عزَّ من قائل: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ [الطور:٤٤] ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام:٧] فلما بيّن هاتين المزلتين أراد ﷺ محنتها، فعلم بذلك منها ما قد علمه من هدايتها ﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل:٤١] كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللهُ﴾ [الأنعام:١١١] وكان هو ﷺ من العالمين ولم يكن من الجاهلين، وفيما أومأنا إليه بيان شاف لمن استقرأ كتاب ربه ﷻ وتحقق بذلك سنته في بريته.

قوله ﷻ حاكيًا عن نبيه ﷺ: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ [النمل:٤٢] هذا منتظم بقوله: ﴿هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾ [النمل:٤٠] يعدد نعمه قبله، ويقرر نفسه على ذلك إذعانًا منه لجبروته وشكرًا لأفضاله عليه، يأمر نفسه له بالإذعان والشكر، وأن تكون من ربها تعالى قائمة بين المخافة والرجاء؛ إذ خرق العوائد وإخراج المقدور الغائب إلى حال الشاهد لا يكون من الله - جل ذكره - إلا إفضالاً منه على من يشاء من عباده، واختصاصًا واجتباءً له وامتحانًا لقوم آخرين من أعدائه على أيدي أوليائه؛ لتقوم حجته عليهم، ثم يهلكهم لعتوهم.

يقول - صلوات الله وسلامه عليه: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ﴾ فيثبتني ﴿أَمْ أَكْفُرُ﴾ فيعاقبني ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ﴾ عمن كفر ﴿كَرِيمٌ﴾ [النمل:٤٠] عظيم فضله لمن شكر، فلِم لا أشكره وقد فضلني عليها بالنبوة والسلف الصالح والعلم بالله وبآياته وأحكامه وكتابه؟! ذلك قوله: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ [النمل:٤٢].

﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [النمل: ٤٣ - ٤٧].

ولم تكن هي مسلمة له فيما مضى لو شاء ربي لجعلني إياها وجعلها إياي، لكن استعملني بطاعته وفضلني عليها ﴿وَصَدَّهَا﴾ هي ﴿مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللهِ﴾ إذ كانت هي تعبد الشمس ﴿إِنَّهَا كَانَتْ﴾ بذلك ﴿مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [النمل:٤٣] جعلها من كفار وأنسلها من أصلاب وبطون قوم كافرين، يقول: فمن أحق بالخضوع لربي والشكر له مني؟!.

قوله ﷻ في قصصه الكريم: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ [النمل:٤٤] إلى آخر القصة، الصرح: بناء منيف عالي، من ذلك صرح فرعون الذي أراد بزعمه أن يبلغ السماء وأسبابها، والصرح: القصر المرتفع، أمر ﵇ بصنعته فصنعه الجن بمشاركة صنعة الإنس؛ لذلك خرج إلى ظاهر الوجود، قال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان لا يفتح غلقًا ولا يكشف إناء»(١).

صنعه من الزجاج الصافي الأبيض، فقام في هواء الجو وحفه صفاؤه، فأشبه

---

(١) تقدم تخريجه.

الهواء لرقته وغلظ بعض الغلظ فأشبه الماء، فظنت لبديع صنعته وإتقان حملته ولصفائه ورقته الذي نفذ الهواء فيه أن الذي علا منه هو منبطح على الأرض، و﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾ وهي كلمة مشتركة؛ إذ لم يقل لها: اصعدي الصرح، فتأهبت لذلك وكشفت عن ساقيها؛ لتخوض لجة ما رأته ماء، واللجة غدير الماء ومعظمه، فاعترضها دون ما عزمت عليه حائط الصرح قائمًا، فقيل لها: ﴿إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ [النمل:٤٤] أي: أنه صنع من زجاج، والممرد: المملس، ومنه قيل للشاب لم يلتح بعد: أَمرد؛ لملوسة خديه، فتبين لها إعجاز ملك سليمان، وأن ملكه ليس من ملك ملوك أهل الدنيا.

فالإتيان إبان عرشها على ما قص علينا، والأخرى في صنعة الصرح، وبما تقدم لها قبل من توصيل الهدهد الكتاب، ثم صار بموضع يسمع تراجعهم؛ ليوصل ذلك إلى نبي الله ﷺ فقالت عند ذلك: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ أي: في عبادتي سواك وتخلفي عن دعوة نبيك إياي إليك ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل:٤٤].

فهذه سنة الله - جل ذكره - في عباده ورسله ورسالاته وحكمته في دعائه عباده، ألا ترى أنه لما بعث موسى ﷺ إلى قوم جل ما يدينون به، وأكثر ما يعولون عليه صناعة السحر، أتاهم بقلب العصا حية وإخراج اليد بيضاء، وكذلك عيسى ﷺ أرسله إلى قوم قد توفرت دواعيهم إلى علم الطب والعمل به، فأتاهم بإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، وبأن يخلق من الطين كهيئة الطير، فينفخ فيه فيكون طائرًا بإذن الله.

وأرسل محمدًا - صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين - إلى قوم شأنهم فصاحة الخطاب والتفيهق في تصاريف الكلام، فأتاهم بالقرآن المعجز، كذلك لما كانت هذه المرأة ملكة أتاها سليمان بملك معجزة، وكانت أحرى بعرفان ذلك؛ لإشرافها على ما بين البونين، وأسلمت لذلك بإذن الله العليم الحكيم.

قوله - عزَّ من قائل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ [النمل:٤٥] الفريق مأخوذ من الفرقة، فمتى انفرد واحد من الجميع أو أكثر كانت فرقة وفريقًا، وقد بيَّن الله سبحانه أنهم فريقان مؤمنون

وكافرون بقوله: ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأعراف:٧٥] المعنى إلى آخره.

قوله تعالى فيما حكاه عن رسوله صالح ﷺ: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النمل:٤٦] السيئة هنا تكون بمعنى استعجالهم العذاب، قولهم: ﴿يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف:٧٧] ويكون بمعنى الكفر منهم والتكذيب لما جاءهم به من الهدى والحق، دلَّ على هذا التأويل قوله إثر هذا: ﴿لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النمل:٤٦].

علم ﷺ بما علمه ربه أن رد أمر الله وتكذيب رسله جالب لعذاب الله والخزي في الدنيا والآخرة، فحذرهم عاقبة ذلك، وأن الله ﷻ غير تارك أحدًا سدى، وأنه قد نصب الدنيا دار تحول وتقلب، لا تبقي عافيتها ولا بلاؤها، بل لذلك كله دوائر محكمة وتدبير مبرم يسوق بعضها بعضًا.

فدوائر العافية تستاقها دوائر الهداية، ودوائر الهداية تستاقها دوائر العافية، كما دوائر البلوى والانتقام تستاقها دوائر الظلم والتكذيب والكفران منهم، ودوائر التكذيب والظلم تستاقها دوائر الانتقام والبلوى من الله سبحانه، ثم مزج المدبر العليم القدير هذا بهذا وهذا بهذا، فداخل بعضها بعضًا، وبقي الأمر على الأغلب، ومشيئة الله من وراء ذلك، ما شاء من ذلك كان وما لم يشأ لم يكن.

يقول لهم - صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين: ﴿لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ أي: بالكفر والتكذيب قبل الإيمان والاستجابة ﴿لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللهَ﴾ [النمل:٤٦] فتنقذون أنفسكم من حلول عذاب قد قرب منكم، وأن له أن يحل بساحتكم ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ [النمل:٤٧] هذا جواب من لم يعقل الخطاب، فلم يحسن الجواب، إن من سنة الله - جل ذكره - في المرسل إليهم إذا لم يقبلوا نصيحة الله، وما بلغت إليهم رسلهم أن يأخذهم الله بالبأساء والضراء لعلهم يرجعون.

فلما أخذ الله هؤلاء بذلك حسبوه طيرةً وشؤمًا أحاط بهم من أجل رسول الله إليهم، فأجابهم ﷺ جمع لهم المطلب كله لو عقلوا عنه ﴿طَائِرُكُمْ﴾ معكم؛ أي:

هي عن أعمالكم وتخلفكم عن نصيحة ربكم ودعائه رسله إليكم، فأعمالكم هي الأسباب لتساق ما أصابكم من سيئ ما أنكرتم من أحوالكم وطائركم ﴿عِندَ اللهِ﴾ أي: أن تخلفكم عن القبول وحسن الاستجابة من عند الله وما ترونه عقوبات من الله لكم على ذلك على كفركم وتطيركم الحق ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ [النمل:٤٧] أي: عن الهداية وحسن الاستجابة إلى ما سبق لكم عنده من شقاوة.

﴿ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [النمل: ٤٨ - ٥٩].

قوله ﷻ: ﴿قُلِ الحَمْدُ لله وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ [النمل:٥٩] هذا الحمد أرفع الحمد؛ إذ هو حمد له كقوله: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلامٌ عَلَى المُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الصافات:١٨٠-١٨٢] وكقوله: ﴿وَقُلِ الحَمْدُ لله الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي المُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء:١١١].

فهذا هو الحمد العلي، والحمد على وجه منها أنه يحمد على السراء ويحمد

على الضراء، ويحمد على دفعها، ويحمد على كل حال، ويحمد لأنه والى هنا ارتفع الحمد كما قال: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى﴾ [النجم:٤٢] ليس دونه مقعر ولا وراءه مرمى كقوله: ﴿الْحَمْدُ لله الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَهُ الحَمْدُ فِي الآخِرَةِ وَهُوَ الحَكِيمُ الخَبِيرُ * يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ﴾ [سبأ:١ - ٢] المعنى كله حيث وقع.

وكما ليس كمثله شيء ولا كمثل نعمة التوحيد له نعمة، كذلك ليس كمثل النعمة به نعمة ولا منة تفوقها منه، فله الحمد كله؛ لأنه له الحمد كله، له الوحدانية المحضة والسناء والعلا والكبرياء والعظمة، لم يجر في نعوت تعاليه لحاق الأنداد ولا إيجاد الصاحبة والأولاد، ولم يكن له شريك في الملك ولا ولي من الذل، له ما في السماوات وما في الأرض، وله الدنيا والآخرة، وله كل شيء، وبيده ملكوت كل شيء، وإليه يرجع الأمر كله، له الأسماء الحسنى والصفات العلا والمثل الأعلى في السماوات والأرض، وهو العلي الكبير ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ﴾ أي: على كل ما يُدعى من دونه ﴿وَبِرَحْمَتِهِ﴾ إياكم بالإيمان والمغفرة به ﴿فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨].

أتبع هذا ما هو بمعناه من الشهادة قوله: ﴿وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ [النمل:٥٩] سلموا في الحياة الدنيا من الشرك والكفر وتوابع ذلك، وسلموا في الآخرة من عذاب الله، هذه شهادة الحق في الدنيا والآخرة وفي السماوات وفي الأرض، وهو الحق المخلوق عليه السماوات والأرض، فأعلم ذلك بما اتصل بها من شهادات ومباني إسلام وسعته وخصال إيمان، ومقتضيات أسماء وصفات، فاعمل على ذلك وتطلبه، فهو الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، أتم الله علينا وعليك نعمته بفضله ورحمته.

ثم استأنف كلامًا خاطب به العرب وكفار الأمم فقال: ﴿اللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل:٥٩] معناه، والله أعلم بما ينزل: أعبادة الله خير أم عبادة ما تشركون من دونه؟! كقوله: ﴿أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَى﴾ [يونس:٣٥].

﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ
ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾
أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ
حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ
ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾
[النمل: ٦٠ - ٦٢].

ومعنى خطاب هذه الآيات محذوف مضمر دلَّ عليه ظاهرها، فمعنى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ [النمل:٦٠] ﴿أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا﴾ [النمل:٦١] ﴿أَمَّن يُجِيبُ المُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل:٦٢] إلى آخر الآيات منتظم بالمفهوم من معنى المفاضلة بين التعبدين، وبعد البون في استقامة العبادتين، وأي المعبودين أحق بالتوجه إليه والخضوع له.

يقول - عزَّ من قائل: أم من يَخلق ولا يُخلق، ويَرزق ولا يُرزق ويَهدي ولا يُهدى ويُدعى فلا يجيب، ومن يَملك ولا يُملك أحق بأن يتبع أمره، ويعمل بطاعته، ويتوجه بالتعبد إليه والخضوع له، أم من خلق السماوات والأرض ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾ [النمل: ٦٠]؟!

ثم كذلك ينتزع لكل معنى استاقه ما شاكله، فالعجز والذل والهون والفقر وعدم الهداية والإفلاس من يجلب النفع ودفع الضر وفقد الاستجابة والنصرة، ووصف الموت وعدم الحياة لمعبوداتهم وآلهتهم الباطلة، والوصف العلي كله، والأسماء الحسنى والصفات العلا لله وحده، ألا له الحق ﷻ عما يشركون.

هو الذي يملك السمع والأبصار، ويملك الملك كله ظاهرًا وباطنًا عاجلاً وآجلاً، ويعطي ويمنع ويقدم ويؤخر، لا إله إلا هو البهجة الحسن، عرض بذلك إلى موجودات الجنة في الدار الآخرة، الحديقة: ما أحدق بحائط أو شجر يحدق بعضه ببعض ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ﴾ [النمل:٦٠] تقرير على ما تبين من تحقيق الحق، يقول: هل ترون فيهما من شرك أروني ماذا خلقوه ﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ﴾

ثم قال - عز من قائل: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل:٦٠] أي: يعدلون عن الحق فيعدلون بالله ﷻ ما ليس بعدل.

ثم قال ﷻ: أمن لايعقل ولا يسمع ولا يبصر ولا يقدر على شيء أحق أن يعبد ﴿أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ البَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ أهذا من يعدل به أو يشرك معه سواه ﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ﴾ ثم قال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل:٦١].

ثم قال: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ ولا يستجيب له ولا يملك الضر ولا النفع أحق بأن يعبد أم من يجيب المضطر إذا دعاه ﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ﴾ والمحذوف بينهما نحو ما تقدم: هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء ألهم شرك في السماوات والأرض، ثم قال - عز من قائل: ﴿قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل:٦٢].

﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦٓ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [النمل: ٦٣ - ٦٦].

ثم قال - عز من قائل: أمن يُهدي ولا يَهدى ويُقدر عليه ولا يَقدر ويُدبر ولا يَدبر أحق بالطاعة له والتعبد إليه ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ البَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾؟ هل تعلمون في ذلك من شرك أو وقعت أعينكم على معين له أو ظهير استظهر به؟ ﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ تَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل:٦٣].

يقول - جل ذكره: من له في البر والبحر والأجواء والأقطار والنواحي والأفلاك والنجوم والأعلام والرياح يهديكم بها في ظلمات البر والبحر، وينشر بها السحاب، فينزل به الماء إلى الأرض، فيخلق منه كل شيء حي، ويفصله إلى ما يفصله إليه، وله السماء والأرض، وله الخلق والأمر، فهل تعلمون هنا من شريك أو

تنظرون إلى شرك في شيء من ذلك كله؟! ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللهِ﴾ [النمل:٦٣] إلى قوله: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل:٦٤].

قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الغَيْبَ إِلَّا اللهُ﴾[1] [النمل:٦٥] هذا منتظم المعنى في قوله: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لله الَّذِي يُخْرِجُ الخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ﴾ [النمل:٢٥ - ٢٦] وهو مما تقدم، دلَّ على ذلك قوله؛ يعني: آلهتهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل:٦٥] ثم ينتظم ذلك بما في القرآن والوجود من معنى ذلك.

قال الله سبحانه: ﴿عَالِمُ الغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [الجن:٢٦ - ٢٧] ومن الغيب ما يكون غيبًا بالإضافة إلى بعض دون بعض؛ كالملائكة وعلومهم هم غيب في حقنا، وليسوا بغيب عند أنفسهم، وكذلك الجن، وكلما غاب عن مشاهدتنا وعلمنا فهو غيب في حقنا، وإن كان مشاهدًا ومعلومًا لسوانا، وإنما الغيب المقطوع أنه لا يعلمه سواه، كالمعني بقوله: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام:٥٩].

لا يعلم ما قدرته إلا هو، ولا يعلم ما علمه إلا هو، ولا يعلم ما هو إلا هو العلي الأعلى، ويلحق بذلك العلم بكل موجود على نهايته وكماله وحدوده الباطنة والظاهرة، ومآله وبدءه وعوده، لا يعلم ذلك إلا هو، وإنما يعلم كل موجود سواه

---

(١) ﴿إِلَّا اللهُ﴾ فمن تجلى الله عليه بهذا الاسم الجامع فكان خليفة رسول الله ﷺ في مقام المبايعة التي أنزل في حقها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ فهو الذي يعلم الغيب ويشعر أيان يبعث وهو اللابس لخلعة هذا الاسم إرثًا من محمد ﷺ فالمراد بهذا الاسم في هذه الآية هو القطب الجامع الذي يدور عليه أمر الولاية وإنما قلنا ذلك لأن الله لا يقال في حقه: إنه من جملة من في السماوات والأرض واستثنى منهم بعلم الغيب؛ لأنه من جهة وجوده المطلق عين المستثنى والمستثنى منه فلا يتصل بمن في السماوات والأرض حتى قال: الاستثناء متصل وليس مقطوعًا عنهم، ولا عن شيء وحتى يقال الاستثناء منقطع فثبت أن المراد بقوله: إلا الله المظهر الجامع لحقائق هذا الاسم بالتجلي الذاتي وهو القطب الغوث وإطلاق هذا الاسم عليه بحكم الخلافة الباطنية عمن قيل له: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح:١٠].

من نفسه إن كان مما يوصف بالعلم ظاهرًا من العلم ولا يحيط به، فكيف يعلم من سواه، ويتناول تقصي العلم بهذا وارتفاعه إلى أبعد غاياته اسمه المحيط والخبير والعليم، فيرجع ذلك إلى قوله: ﴿لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام:٥٩] ثم قال وقوله الحق: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ يعني: آلهتهم التي يدعون من دون الله ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل:٦٥].

كما وصف نفسه بالقدرة وحسن الاستجابة والأمر والخلق وصف أولئك بأنهم: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل:٢١] لذلك قال في هذا الموضع عند هذا: ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل:٢٢] علم كل شيء قبل كونه، وأحاط بالوجود كله قبل إظهاره كيف لا يكون كذلك، وهو يعلم نفسه سبحانه، وكل الوجود موجود عنه ومنه وبه وله، فهو يعلم الوجود كله من وجوده العلي، ألا يعلم من خلق لذلك قدر ما هو موجده قبل إيجاده.

قوله ﷻ: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ﴾ [النمل:٦٦] أضرب عن وصفهم بقلة الذكر والعلم بقول: إنما يجتمع علمهم وذكرهم الحق في الآخرة، ادارك: تلاحق واجتمع ونحو هذا، يتحصل العلم لهم يومئذٍ حين لا ينفعهم العلم، وقد ضيعوه حيث كان ينفعهم، ويمكن أن يكون المراد بذلك الإخبار بأن علمهم اجتمع في معرفة الآخرة، فهم بها جاهلون؛ أي: اجتمعوا في عدم العلم بها، والأول منتظم الوجهين، يدل على صحة الوجهين قوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا﴾ أي: اليوم؛ يعني: الآخرة، ثم قال: ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل:٦٦] أي: اليوم أضرب أيضًا عن وصفهم بالآخرة والعلم بها فيما هنالك، والشك فيما ها هنا.

ووجه الوصف إلى ما هم عليه من العمى اليوم، وما الذي أعماهم عن الآخرة بقوله: ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا﴾ يعني: الدنيا ﴿عَمُونَ﴾ أي: أسكرتهم الدنيا وأعمتهم؛ فتقدير الكلام - وهو أعلم: بل ادارك علمهم في الآخرة، تجمع إليهم وتلاحق لهم، بل هم اليوم في شك منها، بل هم من حب الدنيا وسكرتها عمون عن الآخرة وعن علم ما ينفعهم علمه.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ٦٧ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٦٨ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٦٩ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ٧٠ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٧١ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي تَسۡتَعۡجِلُونَ ٧٢ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ٧٣ ﴾ [النمل: ٦٧ - ٧٣].

أتبع ذلك قوله: ﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا﴾ [النمل:٦٧] إلى قوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل:٧١] هذا منتظم بخطاب المجادلة التي تقدم ذكرها ووصف المعاندين والعادلين بالله إلى قولهم: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام:٢٥] فكان الجواب لهم على ذلك من قولهم: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام:١١].

أتبع ذلك ذكر قولهم: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل: ٧١] فكان الجواب على ذلك: ﴿قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [النمل: ٧٢] أمر رسوله أن يجيبهم عنه، وهو من علم الغيب الذي أطلعه عليه وعلمه إياه في مستقبل ما يصيبهم، وهو جري القتل والأسر، وكون العاقبة للمؤمنين عليهم، ويكون أيضًا معناه زائدًا على ما تقدم ما يصيبهم به حال الموت وبعده وعنده من عذاب البرزخ الذي عبر عنه قوله الحق: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا المَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ [الأنفال:٥٠] أي: حال الموت، وذوقوا عذاب الحريق في البرزخ، نعوذ بالله من أحوالهم في الدنيا وفي الآخرة وفيما بين ذلك.

ثم عطف على ذلك قوله ﷻ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ [النمل:٧٣] أي: في إمهاله إياهم وانتظاره بهم على علمه فيهم، وبما هم به عاملون، ألا تسمعه ﷻ كيف؟.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ ٧٤ وَمَا مِنۡ غَآئِبَةٖ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّا

فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾
وَإِنَّهُۥ لَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُم بِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٧٨﴾
فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ
مُدۡبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم
مُّسۡلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [النمل: ٧٤ - ٨١].

أتبع ذلك: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [النمل:٧٤] ثم أكد ذلك بقوله الحق: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل:٧٥].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا القُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل:٧٦] كانت بنو إسرائيل قد أوتوا بينات من الأمر، فلما وقفوا على البيان ووضحت لهم السبيل بالعلم اختلفوا، فهدى الله - جل ذكره - الذين آمنوا بالقرآن ﴿لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة:٢١٣] لذلك ختم بقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل:٧٧].

ثم هم يوم القيامة محكوم بينهم فيما اختلفوا فيه، وكذلك المؤمنون محكوم بينهم وبين بني إسرائيل وبين جميع المخالفين لهم؛ لذلك قال - عز من قائل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ العَزِيزُ العَلِيمُ﴾ [النمل:٧٨].

قوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى الله إِنَّكَ عَلَى الحَقِّ المُبِينِ﴾ [النمل:٧٩] خطاب خاطب به رسوله ﷺ وهو خطاب لمن تبعه واقتدى به، والحق المبين هما الوجودان الوحي والحق المخلوق به السماوات والأرض، وإنما أضاء الحق وبان بالقرآن والوحي، فاعلم ذلك؛ ولذلك سماه مبينًا لموضع وحيه وهديه وكلامه، فإذا كان يوم القيامة تجلى الحق المبين - ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه - يسمو النشوء إلى ذلك ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرِينَ﴾ [البقرة:١٤٧].

وصف هذا الشأن بالنشء مجاز واتساع، وعلى ما هو الوجود عندنا في بادئ الرأي، والتحقيق هو أن الحق ظهر فيما ها هنا للعقول الصافية والقلوب المهدية،

واحتجب عمن سواهم، فإذا كان يوم الآخرة ظهر لأوليائه عيانًا كما يظهر يومئذ جزاؤه على الإيمان به والطاعة له ولرسله، ويظهر جزاؤه للكافرين والمكذبين.

﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الحَقَّ﴾ أي: جزاءهم الظاهر للمهتدين في هذا الحق المخلوق به السماوات والأرض، ويومئذٍ ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ﴾ ﷻ ﴿هُوَ الحَقُّ﴾ الظاهر لهم اليوم ﴿المُبِينُ﴾ [النور:٢٥] للحق، والمحتجب اليوم عن الأبصار، المحتجب عن قلوب الغافلين، كما يحتجب عنهم ظهوره يومئذٍ إلا إعلامًا منه لهم بلقاء يعبر عنه بالوقوف والتوقيف، فعاد وصف النشء على المخلوق المربوب المعبد، والحق بما هو الحق وصفه بالحجب والظهور ونحو هذا.

أتبع ذلك قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ المَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ﴾ [النمل:٨٠] الموتى: هم الكفار والمكذبون، والصم: هم الجهال، فلو أقبلوا إلى الله وأذعنوا للحق وسماع الوحي، فبالخيرات يتحصل لهم ما كتبه من السمع، فأمَّا من أدبر وتولى تولى الله عنه بنعمته، وأعرض عنه بكرامته؛ جزاءً لتوليه وإعراضه، والله الغني الحميد.

والصم: هم الذين لا يسمعون الوحي، ولا يقفون على حقيقته، والعمي: هم الذين لا يرون الآيات في الأرض ولا في السماء ولا في أنفسهم وفيمن خلا من المهلكين، إنما يسمع الرسول من آمن بالله وآياته، فكلما زاد من ذلك زاد إسماع الوحي له حتى يرى بعين اليقين، وكلما تبصر الناظر في الآيات أبصر، وكلما أبصر زاده الله إبصارًا، فكلما أغرق في ذلك أكسبه حياءً وإيمانًا، وحقق له صفاته، حتى أنه ربما رأى ما أسمع وسمع ما رأى، فيرى بباطنه الغيوب ويشاهد بباطنه المكنون، كذلك يسمع الصوامت تهزج بالتسبيح، والجوامد تعلن بالشهادات لربها والتمجيد والتحميد.

فإنه من ألقى سمعه إلى ما جاءه به الرسول، ومن ألقى ببصره إلى شواهد الموجودات وتحقق الحق، يجري في مسالكه تولاه مولاه، ورفعه إلى سماع ما لا يسمعه الغافلون، ورؤية ما لا يراه المعرضون؛ لذلك قال، وهو أعلم: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ [النمل:٨١] أي: إنما يسمع الذكر من أحياه الله بالإيمان، وحلاه بحليّة الإسلام، وأذعن للحق، واقتفى واقتدى.

﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (٨٢) وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (٨٣) حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨٤) وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ (٨٥) أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٨٦)﴾ [النمل: ٨٢ - ٨٦].

قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل:٨٢] معنى قوله: «وقع القول عليهم» وجَبت الحجة عليهم، ولم يكن عندهم نكير ولا حجة ينفصلون بها، مما ألزموه من الحق؛ كلزومه إياهم يوم نزول القرآن حين قررهم على الحق، فأقروا كقوله: ﴿قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ للهِ﴾ [المؤمنون:٨٤ - ٨٥] ولا بد من ذلك ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ للهِ﴾ [المؤمنون:٨٨ - ٨٩] ولا بد من ذلك.

وكقوله في هذه السورة: أفمن يَخلق ولا يُخلق، ومن يَملك ولا يُملك، ومن يَرزق ولا يُرزق أحق بأن يُتّبع ويُعبد ويُخضع له، ويُطاع أمره بخالصة الوحدانية ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ﴾ [النمل:٦٠]؟ ثم أجاب نفسه ومن تبعه - ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه - جواب الغالب في المناظرة المفلح في المخاصمة بقوله: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل:٦٠] أي: يعدلون بغير ما عدل ولا مثل ولا نديم، كذلك إلى آخر المحاجة.

وكان هذا في أول نزول الوحي، وقد كان في سابق علمه العلي أن يهدي به من شاهد آيته، ويستتبع من شاء ولايته، والقرآن آخر الكتب ومحمد رسول الله خاتم الأنبياء، وستعجز أعمال العباد وتستولي عليهم الغفلة، وتعش البصائر ويثقل سمع أهل السمع، فيقع عليهم القول؛ إذ لا منبه ينبه ولاستيلاء الأعراض والتولي، وعقوبات الإدبار لا ينتبهون ولو نبهوا، فيقع عليهم القول؛ أي: تتوجه

الحجة عليهم.

يقول الله - جل ذكره: ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ﴾ لانقطاع النبوة وختم الرسالة وعظيم إعراضهم عن الذكر، أعرض الله عنهم بذكره لهم بذلك، فلم يستأهلوا أن يكلمهم الرسل، يخرج الله ﴿لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ يقال: إنها تحطم الكافر سوادًا وتبيض وجه المؤمن، وقرأها ابن عباس: «تكلمهم»[١] وفي قراءة أبي: «تنبئهم» ﴿أَنَّ النَّاسَ﴾ [النمل:٨٢] بفتح الهمزة، وقرأ قتادة: «تحدثهم أن الناس» مفتوحة[٢]، أبو داود قال: سألت ابن عباس قلت: أخرجنا لهم دابة من الأرض «تُكَلّمهم» أو «تَكْلَمُهم» فقال: كلا، والله يفعل تكلم المؤمن وتكلم الكافر، ومن قرأ «تُكْلِمُهم» بكسر اللام، يقول: تَسِمُ وجوههم.

---

(١) وجب العذاب عليهم، وقال قتادة: إذا غضب الله عليهم (أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ) واختلفوا في كلامها، فقال السدي: تكلمهم ببطلان الأديان سوى دين الإسلام. وقال بعضهم: كلامها أن تقول لواحد: هذا مؤمن، وتقول لآخر: هذا كافر. وقيل: كلامها ما قال الله تعالى: ﴿أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ﴾ قال مقاتل: تكلمهم بالعربية، فتقول: إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون، تخبر الناس أن أهل مكة لم يؤمنوا بالقرآن والبعث. قرأ أهل الكوفة: "أن الناس" بفتح الألف، أي: بأن الناس، وقرأ الباقون بالكسر على الاستئناف، أي: إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون قبل خروجها. قال ابن عمر: وذلك حين لا يؤمر بمعروف ولا ينهى عن منكر. وقرأ سعيد بن جبير، وعاصم الجحدري، وأبو رجاء العطاردي: "تكلمهم" بفتح التاء وتخفيف اللام من "الكلم"، وهو الجرح. قال أبو الجوزاء: سألت ابن عباس رضي الله عنهما عن هذه الآية: "تُكَلِّمهم أو تَكْلِمُهم؟ قال: كل ذلك تفعل، تُكَلِّم المؤمن، وتَكْلِمُ الكافر. [تفسير البغوي (١٧٧/٦)]. وقال أبو حيان في البحر المحيط (٨/ ٤٩٥): يؤيده قراءة أبيّ : تنبئهم، وفي بعض القراءات: تحدثهم، وهي قراءة يحيى بن سلام؛ وقراءة عبد الله: بأن الناس. قال السدي: تكلمهم ببطلان سائر الأديان سوى الإسلام. وقيل: تخاطبهم، فتقول للمؤمن: هذا مؤمن، وللكافر: هذا كافر. وقيل معنى تكلمهم: تجرحهم من الكلم، والتشديد للتكثير؛ ويؤيده قراءة ابن عباس، ومجاهد، وابن جبير، وأبي زرعة، والجحدري، وأبي حيوة، وابن أبي عبلة: تكلمهم، بفتح التاء وسكون الكاف مخفف اللام، وقراءة من قرأ: تجرحهم مكان تكلمهم. وسأل أبو الحوراء ابن عباس: تكلم أو تكلم؟ فقال: كل ذلك تفعل ، تكلم المؤمن وتكلم الكافر. انتهى.

(٢) قرأ الكوفيون، وزيد بن علي: (أن الناس) بفتح الهمزة، وابن مسعود: بأن؛ وباقي السبعة: إن، بكسر الهمزة؛ فاحتمل الكسر أن يكون من كلام الله [تفسير البحر المحيط (٤٩٥/٨)].

فصل

يتخرج أيضًا قول الله - جل ذكره: ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الأَرْضِ﴾ [النمل: ٨٢] على ما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنفال: ٥٥] وهو مخلوق من الأرض؛ لأنه من بني آدم، فهو دابة من الأرض، ووصف الأرض فيه إشارة إلى الذم، والبلدة التي تضاد العلم النافع والإيمان بالله، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال:٢٢ - ٢٣].

فهذا وصف الدجال وصفاته - لعنه الله ووقى المسلمين ضره وأعاذنا من فتنته - وهو يكلم الناس داعيًا إلى نفسه، ذلك بأنهم كانوا بآيات الله لا يؤمنون، لما لم يطلبوا اليقين قست لذلك قلوبهم فنسوا ما ذكروا به، أخرج الله لهم دابة تكلمهم من حيث هي، إنما يكلم الله بواسطة وحيه أو بواسطة ملك أو عبد من عباده، واسم الدابة مذموم، ألا ترى أنه لم يقل: تكلمهم عن الله، بل قال: تكلمهم، ولو كان كلامها خيرًا لقصه وحكاه رضي به، بل أشار إلى معنى كلامها بعدم اليقين، وكلامها معبر لهم عن ذلك.

وعلى قراءة من قرأ: «إن الناس» جعل عدم اليقين منهم بآيات الله علّةً لخروجها، وأمَّا قراءة من قرأ «تَكْلَمُهم» أي: تَجْرَحُهم، فجرحة الدين أعظم الجرح، وهذا شأن الدجال - لعنه الله - ومقصده، ومن قرأ: «تكلمهم» من الوسم، قال الله - جلَّ من قائل - في من هو منه: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ * مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم:١٠-١٣] إلى قوله: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ [القلم:١٦].

وقد سبق الذم إلى وجه الدجال - لعنه الله - فإنه مكتوبٌ بين عينيه: كافر، وهو أعور عين اليمنى وعلى اليسرى ظفره غليظة، وعدَّد رسول الله ﷺ الدجال والدابة في العشر الآيات التي تكون بين يدي الساعة، فإن لحق هذا بتحقيق التواتر فإن الدجال - لعنه الله - آية على تلك.

قوله ﷻ: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾

[النمل:٨٣] الوازع: هو المعدل للصفوف والذي يحبس الأول حتى يلحق الآخر، وهؤلاء ترعهم الملائكة، يلحقون الآخر بالمتقدم، فإذا جاءوا إلى السؤال ﴿قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي﴾ فهذا صنف هم الكافرون، ثم قال: ﴿وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا﴾ فهذا صنف هم الغافلون ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل:٨٤] هؤلاء العلماء، كما قال ﷻ: ﴿وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة:١٣] فتكون المطالبة لهؤلاء على تكذيبهم بآياته والمطالبة لهؤلاء على تضييعهم العلم بها.

كما قال: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى * وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ [طه: ١٢٤ - ١٢٧].

فاعلم أنهما صنفان يلحق بعضهم ببعض وإن تفاوتت المنازل فيما هنالك في عذاب الله - نعوذ بالله من عذابه - فيطالبهم على التضييع كما طالب أولئك على التكذيب، فيسألهم لِمَ لم تؤمنوا بآياتي؟ لِمَ لم تطلبوا العلم بها؟ وإذ لم تعلموها لِمَ كذبتم بها؟ وإذ علمتم لِمَ لم تؤمنوا؟ لِمَ لم تنيبوا؟ لِمَ لم تعملوا بما علمتم؟.

يقول الله - جلَّ من قائل: ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ [النمل:٨٥].

قوله ﷻ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النمل:٨٦] أي: على الموت والحياة بعد الموت، وعلى وجود اليوم الآخر وما فيه من اللقاء الكريم والتجلي العلي، وبوجود الجنة وما فيها، السكن مثال للموت، والنهار المبصر دليل على الحياة، والمبصر الذي يبصر فيه، فكذلك الآخرة هي دار الحيوان، فيها تجتمع الحياة والعلم ويتدارك الذكر، يقول: قد كان لهم في تعاقب الليل والنهار آيات على الحياة بعد الموت والآخرة بعد الدنيا وعلى لقاء الله ﷻ لكن ذلك هي آيات لقوم يؤمنون.

﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ

إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٌ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن
جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ
أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ
﴿٩١﴾ وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ
﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [النمل: ٨٧ - ٩٣].

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللهُ﴾ هذه هي النفخة الأولى، دلَّ على ذلك قوله: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ﴾ أي: القَرْن ﴿دَاخِرِينَ﴾ [النمل:٨٧] أي: صاغرين، وقرأها الحسن: «دخرين» بغير ألف، إذا نفخ في الصور نفخة الصعق نودوا من الصور فيأتونه صاغرين، ثم إذا نفخ فيه أخرى - والمراد بها: الإحياء - نودوا من الأرض من الأجسام، فيأتي كل روح إلى ما نودي منه، قال الله - عزَّ من قائل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم:٢٥].

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨] كل مؤلف، فصنع الله - جل ذكره - يتعاقبه على الولاء إعدامًا وإيجادًا، فبالإعدام يمر مر السحاب، وبالإيجاد يكون بالإمساك لها وقيامها ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم:٢٥] وهذا أمره فيما هاهنا، وبالإيجاد المتوالي يكون الإتقان، عم بهذا التدبير جميع الموجودات علوًا وسفلاً ظاهرًا وباطنًا، وشمل بذلك الخليقة شمولاً محيطًا، وقد تقدم الكلام في هذا المعنى.

ولما تقدم ذكره من معنى قال: ﴿صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل:٨٨] فإذا كان على هذا الوجه فهو معطوف على قوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [النمل:٨٦] وعلى ما جاء من ذكر الآيات، وربما انعطف على معنى قوله: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾ [النمل:٨٧] المعنى؛ فيكون معناه: ﴿وَتَرَى الجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل:٨٨] أي: تنفش كالسحاب

في اليوم الصاحي، وتنهال كالكثب من الرمل، والأول أولى بالوجه الأول، والثاني بالثاني، وهذا حق وجوده وهذا حق، لكن هذا خاتمة قوله: ﴿إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل:٨٨] والأول قوله: ﴿صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل:٨٨].

قوله تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ [النمل:٨٩] الحسنة: كلمة التوحيد وما تبعها من علم وعمل، فخير من الشهادة رؤية المشهود، وخير من العمل رؤية من توجه بالعمل إليه، وخير من عمل العاملين جوار الله ودخول جنته، وخير من ذكرهم له ذكره إياهم وكلامه لهم، وخير من ترضيهم له ترضيه إياهم، حيث يقول ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه: أرضيتم عبادي، وأمَّا من لم يوفِ الحسنة شروطها ضوعف له ثواب حسنته إلى أكثر من ذلك ثم وُزن، أو يتجاوز الله بحسن تجاوزه، وكون عشر أمثال حسنته أيضًا خير منها ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ [النمل:٨٩] الوعد مسلم للقسم الأول، جعلنا الله منهم ومعهم.

قال الله ﷿: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢] وجاء في غير هذا الموضع ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء:١٠٣] وأكبر الفزع إعراض الله بوجهه الكريم عن أعدائه، نسأل الله معافاته ورحمته، ثم أكبر الفزع دخول النار وأكبر منه الخلود فيها، ثم الفزع من زفير جهنم، وحين تطاير الصحف، أبالأيمان تقع أم بالشمائل؟ والنهوض إلى العرض عند البداية، كيف يكون المنقلب وكل أهوال يوم العرض فزع؟! جعلنا الله من الآمنين برحمته.

أتبع ذلك قوله ﷿: ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل:٩٠] أي: تقول لهم الملائكة ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ لما كذبوا بجهنم وبالنار، وكانت تغدو عليهم بفيحها وتروح أدخلوها، ولما لم يؤمنوا بالجنة وكانت تغدوهم في أجسامهم ويعلهم بردها وشرابها وطعامها وفواكهها، الكائن ذلك كله من فتح الله عنها برحمته حرموها.

ولما لم يعملوا وجوههم ولا أبدانهم في حسن التوجه إلى خالقهم وخالق كل شيء، بالتوجه والعمل بطاعته والعمل بمرضاته حرمهم كرامته، وحال بينهم وبين رضاه، ولم يجعل لتلك الوجوه حرمة - نعوذ بالله من غضبه وعذابه ومما

يوجب ذلك.

ولما أطاعوا الشيطان المخلوق من نار السموم الداعي إليها العامل لها، وخالفوا الله رب العالمين الذي هو نور السماوات والأرض، أبعدهم لذلك عن جواره، وأحلهم محل الخزي، وأقصاهم إلى ظلمات البعد، هل يجزون إلا ما كانوا يعملون؟!.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ **البلدة المحرمة**: هي مكة، «**حرمها الله** - جل ذكره - **ولم يحرمها الناس**»[1] فالبائس من أجل ما قد حرمه الله من شعائره وأشهره، وبلدته وبيته هي حرام على الدجال، لا يدخلها ولا المدينة، أتبع ذلك: ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ هذا منتظم بمعنى التوحيد، معرض به للذين اتخذوا من دونه أندادًا وأشركوا به ما لم ينزل به سلطانًا ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [النمل:٩١] أي: كما أسلم له كل شيء، وكما قال إمام المسلمين خليل رب العالمين - صلوات الله وسلامه عليه - ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٧٩].

ثم قال: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ﴾ [النمل:٩٢] نور، وما فطر الله السماوات والأرض عليه من الإسلام، هو نور لمن استضاء بهما، وكون الملك كله لله نور، وآثار فعله في مفعولاته كلها نور؛ فلأجل هذه الأنوار يجزى المؤمنون أيضًا بما آمنوا به وبما عملوا له ومن أجله، وقد تقدم هذا المعنى.

أتبع ذلك ما هو في معناه قوله ﷻ: ﴿فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ [النمل:٩٢] الهداية لا تكون إلا بنور الله، ولا يجعل الله نورًا إلا لمن كان معه من نور الإيمان حظ، وبذلك النور يهتدي إلى المراد، والمراد الأعلى هو نور الأنوار والضلال البعيد والحيرة عن القصد، ومن بعد عن النور وقع في الظلمات، فهو لا يرى ولا يسمع ولا يعقل ولا يهتدي سبيلاً.

وقد تقدم قوله ﷻ: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ للهِ﴾ [النمل:٩٣] أمر نبيه ﷺ أن يحمده

---

(١) أخرجه أحمد (١٦٤٢٠)، والبخاري (١٠٤)، ومسلم (١٣٥٤)، والترمذي (٨٠٩)، والنسائي (٢٨٧٦)، والطبراني (٤٨٤)، والبيهقي (١٣١٥٢).

على ما هداه إليه من الإسلام والإيمان والنور الذي أنزله إليه من كتاب وفرقان وحكمة.

أتبع ذلك قوله: ﴿سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [النمل:٩٣] هذا كلام مودع مهدد لهم لما لم يهتدوا لنوره، ولا استصبحوا بمصباحه، ولا أطاعوا نصيحته ودعهم توديعًا، وأخرج كلامه لهم على معنى التهديد، وهو كقوله - جل قوله وتعالى جده: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ أو لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت:٥٣] فأراهم آياته كما قال: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ القِيَامَةِ أو مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [الإسراء:٥٨].

تفسير سورة القصص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ ① تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ② نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ③ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ④ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ⑤ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ⑥﴾ [القصص: ١ - ٦].

قوله تعالى: ﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [القصص:٣] يقال: تلوتُ بمعنى: تبعت، وتكون التلاوة على هذا الاتباع بمعنى أتبع الحرف الحرف والقصص القصص، فهذا في هذا الموضع القراءة، وأكثر ما يأتي الأمر بالتلاوة في القرآن بالقراءة التي هي الدراسة والتلاوة بالعمل ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ [الكهف:٢٧] ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [البقرة:١٢١].

وقوله هنا، والله أعلم: ﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ﴾ [القصص:٣] ما تلاه عليه في هذه السورة من اتباع الحروف الحروف والمعنى المعنى، وتأخر ما تلاه عليه من قصصهما في القرآن، وكرر ذلك وأعاده وبدأ به بألفاظ مختلفة ومعان متفقة، وربما ظهر في بعض المواطن في العبارات خلاف ما توهم خلافًا في المعاني، فإنما ذلك على حسب ما جرى بينهما من المحاورة في المواطن، فربما استاق حكاية ما جرى في ذلك الموطن، واستاق في سورة أخرى ما جرى في موطن آخر، وكذلك قصصهما حيث جرى.

ثم اقض بمثل ذلك في كل قصص قصه في القرآن، فيبدل آية مكان آية وعبارة

مكان عبارة، فهذا أصل هذا الباب فقف عليه، وهو المعني بقول الحق: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ [النحل:١٠١] كانوا لقلة إيمانهم وقاصر عقولهم يسمعون الآية والمعنى بعبارات مختلفة، وزيادة معنى ونقصان معنى في موضع آخر، فكانوا يكذبونه بذلك ويقولون: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾.

يقول الله ﷻ والله أعلم بما ينزل ويقول: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ١٠٠] ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾ وهو الحق ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ [النحل: ١٠٢] المبين ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء:١٠٥].

لذلك - وهو أعلم بما ينزل - قال: ﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [القصص:٣] يقول: نقص عليك وعلى من آمن خبرهم ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾[1] [القصص:٤] إلى آخر القصص قوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ

---

(١) (تِلْكَ ءَايَاتُ الكتاب المبين) اسم الإشارة مبتدأ خبره ما بعده، أو خبر مبتدأ محذوف، و(آيات) بدل من اسم الإشارة، ويجوز أن يكون تلك في موضع نصب بـ (نتلو)، والمبين: المشتمل على بيان الحق من الباطل، قال الزجاج: مبين الحق من الباطل، والحلال من الحرام، وهو من أبان بمعنى: أظهر (نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ موسى وَفِرْعَوْنَ بالحق لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) أي: نوحي إليك من خبرهما ملتبسًا بالحق، وخص المؤمنين؛ لأن التلاوة إنما ينتفع بها المؤمن، وقيل: إن مفعول نتلو محذوف، والتقدير: نتلو عليك شيئًا من نبئهما، ويجوز أن تكون «من» مزيدة على رأي الأخفش أي: نتلو عليك نبأ موسى وفرعون، والأولى أن تكون للبيان على تقدير المفعول كما ذكر أو للتبعيض، ولا ملجىء للحكم بزيادتها، والحق: الصدق، وجملة: (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الأرض) وما بعدها مستأنفة مسوقة لبيان ما أجمله من النبأ، قال المفسرون: معنى (علا): تكبر، وتجبر بسلطانه، والمراد بالأرض أرض مصر، وقيل: معنى (علا): ادعى الربوبية، وقيل: علا عن عبادة ربه (وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً) أي فرقاً، وأصنافاً في خدمته يشايعونه على ما يريد، ويطيعونه، وجملة: (يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ) مستأنفة مسوقة لبيان حال الأهل الذين جعلهم فرقًا وأصنافًا، ويجوز أن تكون في محلّ نصب على الحال من فاعل جعل، أي جعلهم شيعًا حال كونهم مستضعفًا طائفة منهم، ويجوز أن تكون صفة لطائفة، والطائفة هم بنو إسرائيل، وجملة: (يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ) بدل من الجملة الأولى، ويجوز أن تكون مستأنفة للبيان، أو حالاً، أو صفة كالتي قبلها على تقدير عدم كونها بدلاً منها، وإنما كان فرعون يذبح أبناءهم، ويترك النساء؛ لأن المنجمين في ذلك العصر أخبروه أنه يذهب ملكه على يد مولود من بني إسرائيل، قال الزجاج: والعجب من حمق فرعون، فإن الكاهن الذي أخبره بذلك إن كان صادقًا عنده فما

إلى النَّارِ﴾ [القصص:٤١] **﴿وَيَوْمَ القِيَامَةِ هُم مِّنَ المَقْبُوحِينَ﴾** [القصص:٤٢].

الشِيَع: الفِرق، لم يُسَوّ بين الناس، بل استضعف طائفة واستصفى طائفة، والمستضعفون بنو إسرائيل **﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾** يريد بناتهم **﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ المُفْسِدِينَ﴾** [القصص:٤] كما قال رسول الله وذكر الدجال، فعاث يمينًا وعاث شمالاً، يا عباد الله فاثبتوا، وقال الله - جل ذكره: **﴿يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ العَالِينَ﴾** [ص:٧٥] ولم يكن بعيد من علا، وإنما أشار بذلك إلى من يأتي منهم.

وقال في فرعون: **﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ﴾** [القصص:٤] وقال فيه: **﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾** [يونس:٩٢] وإنما يكون آية على ما بعده، والمدلول عليه أكبر من الدليل، والآية على الشيء أصغر مما هو آية عليه، فافهم.

وقال فيه: **﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلى النَّارِ﴾** [القصص:٤١] قد هلكوا هلاك الأبد، وأراح الله منهم، فكيف يكونون أئمة يدعون إلى النار، وهم في دار البوار ليس إلا أنهم يحضرون من شاء الله إضلاله حين الموت، فيدعونه إلى ما يفضي بهم إلى النار وإلى بئس المصير.

يقول الله - عزَّ من قائل: **﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾** [المؤمنون:٩٧] أي: في هذه الحياة الدنيا، ثم قال: **﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾** [المؤمنون:٩٨] أي: عند الموت، يقيض للمحتضر آل فرعون، ومن قبله ومن مضى من الضالين وأئمتهم، وكل من دعا إلى ضلال فهو من أئمة ذلك، وكذلك يحضره من الشياطين مثالات من مضى منهم يدعونه إلى ذلك، وكل شياطين الإنس والجن، فاعلم ذلك، ونعوذ بالله من شر ما خلق.

وعند ذلك يتحقق قول رسول الله ﷺ: «**إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس حتى ما يكون بينه وبينها إلا شبر فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل**

=

ينفع القتل، وإن كان كاذبًا فلا معنى للقتل (إِنَّهُ كَانَ مِنَ المفسدين) في الأرض بالمعاصي والتجبر، وفيه بيان أن القتل من فعل أهل الإفساد. انظر [فتح القدير (٥ /٣٨٦)].

النار فيكون من أهل النار»[1].

كما أنه يقوي الرجاء بفحوى خطابه في قوله: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ [القصص:٥] قوله: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ﴾ [القصص:٦] وسياقه هذا الوعد من كلماته التامات على صيغة الاستقبال أن ينتظره أيضًا، ضعفاء المؤمنين من المن عليهم بجعلهم أئمة ووارثين، وأن يمكن لهم في الأرض، وإن كان النص في بني إسرائيل، فسياق الوعد بالكلمات التامات خصيصًا بذلك، ثم استاق ما بعد ذلك بلفظ الماضي، والله المستعان.

قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ﴾ إلى ﴿يَحْذَرُونَ﴾ [القصص:٥ - ٦] فجعل ﷻ يتلو قصص مولد موسى ﵇ وكيف كان بدأ بشأنه، وكيف نجاه من الذبح على يدي الآمر بالذبح، وكيف لطف له بأن أوصله إلى بيته، وألزمه الحفاية به وهو لا يشعر.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [القصص: ٧ - ٩].

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص:٧] الوحي: إعلام في خفية وعجلة؛ ولذلك سمي الإلهام: وحيًا، والإلهام قد يكون من الملك ويكون من النفس، فيكون من الله ﷻ بواسطة الملك، ويكون من الله بواسطة روح القدس نفثًا في الروع إلى ما هو يعلمه الله ويعلمه من اجتباه وبلغ به، فإن كان من الملك فهو أقرب الوحي وأصغره، وإن كان من النفس فهو فطرتها وهو من المعهود،

(١) أخرجه أحمد (٣٦٢٤)، والبخاري (٣٠٣٦)، ومسلم (٢٦٤٣)، وأبو داود (٤٧٠٨)، والترمذي (٢١٣٧) وابن ماجة (٧٦).

قال الشاعر:

وأوحى إلي الله أن قد تؤامروا على غدر فقمت على رجل

ثم يتسع وجود الوحي ويصعد إلى مشافهة الملك من أراده الله بذلك من عباده، ووحيه إلى أم موسى - عليها السلام - إمَّا أن يكون إلهامًا وإمَّا مشافهة، وإعلامًا بأي وجه كان يدل على رفعة ذلك الوحي، وعده إياها بغائب لم تعلمه ولم يكن لها ذلك لولاه، وهو قوله: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٧].

وكان قد حذر فرعون وأتباعه من بني إسرائيل أن يولد فيهم من يكون هلاكه وهلاك من تبعه على يديه، سرى إليهم ذلك على لسان نبوءة كانت قديمًا فيهم أو في غيرهم، وذكر أن كاهنًا لهم كان أخبرهم بذلك، والأول أصح - والله أعلم بما ينزل - ولما قرب ذلك وظهرت أشراطه أخذ يقتل ذكور المولودين من بني إسرائيل، ويستحيي نساءهم، ويستعبد نساءهم ورجالهم، يستسخرهم ليشغلهم عن التحدث بذلك والتمني به وليقل عددهم، فيكونوا مقهورين وهم لا يشعرون ﴿إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ [الطلاق:٣].

والعجب من حرمة إن كان المحدث عنده صادقًا، فما الذي كان يجدي عليه فعله ذلك من قتلهم وإشغالهم عنه وإن كان كاذبًا، فما الفائدة في قتل ذكورهم واستحياء إناثهم إلا لعبث وإمضاء الأمر الفَسْل، ولزوم سبيل الفساد في الأرض الذي حلاه العالم به؛ وليكون ذلك آية على ما وراءه، ودام ذلك البلاء بهم من قتل المولد إلى أن تمكن حب موسى ﷺ من قلب امرأة فرعون بالتبني، وسرى ذلك منها إلى فرعون فرفه عن بني إسرائيل بعض ذلك، وقطع عنهم الذبح وخففت السخرة أو بعضها إلى زمن الرسالة.

يقول الله - جل ذكره: ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف:١٢٧] فضرب عليهم حكمه الفاسد، وشكوا ذلك إلى موسى وقالوا له: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٢٩].

فصل

كان بدء تعرض الفتنة ليوسف ﷺ حب امرأة العزيز إياه، لولا عصمة الله له، وكان بدء نجاة موسى من الذبح وانبناء أمره لحب امرأة فرعون إياه، وقال الله، جلَّ من قائل: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ العِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة:٩٣] قيل: إن موسى حرقه وسحقه، وذراه في البحر، فذكر أن ماء البحر عذب لمتخذي العجل، يقول الله، جلَّ من قائل: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [يوسف:١١١].

فصل

قصَّ علينا - جل ذكره - قصص المولد، وكيف صدق وعده في رده إليها، قال الله ﷻ: ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ﴾ [القصص:١٣] أي: الذي أوحي إليها ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ المُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٧] ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه:٣٩].

عبر بذلك عن أنه كيف يحمل ويرضع ويشبع وينوم، فيذكر الله على ذلك كله منه، ولو كان مرضعًا في آل فرعون لم يكن ذلك كذلك، فجعل إلهامه أمه ووحيه إليها حتى أمرت أخته أن تقص أثره إلى أن وقعت عليه، وكان ذلك سبب إرجاعه إليها، مع أن الله - جل ذكره - بلطفه له في ذلك حرم المراضع عليه ليضطرهم ضرورة ما ألقى في قلوبهم من حبه والاهتمام بشأنه أن يبحثوا له عمن يرضعه[1] هكذا جعل تقليبه في نشئه وإقباله وإدباره، وقتله النفس وتوبته منها، وعودته إلى

---

(١) سقى الله روح سيدنا موسى ألبان المعرفة من ثدي الوصلة، حين أخرجنا من العدم بنور القدم، وحرم عليها مراضع الأكوان والحدثان، ومنعها من الاستئناس بغيره من العرش إلى الثرى؛ لذلك أشار في القصة ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ ولولا رضاعه الأول لاشتغل بإتيان غير مرضعته، فسقيه لبن المعرفة فطامه عن كل شيء سواه. قال بعضهم: إشارة إلى العارف؛ فإنه لا يصلح لبساط القربة من لم يكن مرضعًا برضاعة الأنس، فمن كان رضيع مخالفة، أو رضيع وحشة، فإنه لا يصلح لبساط القربة، ألا ترى الكليم لما كان فيه تدبير الخصوصية بالكلام كيف حرم عليه المراضع.

مفارقة العودة في غير تلك النفس، وخوفه من ذلك، وخروجه ولحاقه بمدين، وإنكاحه هناك، ومكثه فيها راعيًا على صالح تلك الأرض، ذكر أنه شعيب النبي عليه السلام فلم يخله - جل ذكره - حال رضاعه وتربيته وفتوته من صلاح ومصلح يذكره، ولطف منه به إليه يسدده إلى أن وافاه بالنبوة واصطنعه للرسالة والولاية الكبرى.

عبر عن ذلك كله بقوله الحق: ﴿جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى * وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه:٤٠ - ٤١] ثم أخذ يذكر رسالته وتبليغه عن ربه، وتحمل الإصر في مرضات ربه، وصبره على التبليغ وانتظار الفرج، إلى أن أتاه الله - سبحانه وله الحمد - نصره، فأغرق فرعون كما نجاه قبل من الغم؛ خشية فرعون وملائه، كما فرج الكرب عن قومه من السحرة والذبح والذلة، وتلك كلمة الله عز وجل في بني إسرائيل وموسى - صلوات الله عليه وسلامه.

قال الله عز وجل: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف:١٣٧] والكلمة المعنية.

قوله - عزَّ من قائل: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص:٥ - ٦] وقد تقدم مع تكرار قصصه من الكلام ما فيه إيماء إلى الاعتبار وبطريق إلى الإذكار، وأن ذلك كله لآية منبئة عما هو كائن، فالله المستعان.

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ
قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا
يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ
لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ
أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ
حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ
فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ

عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ
إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ
فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسۡتَنصَرَهُۥ
بِٱلۡأَمۡسِ يَسۡتَصۡرِخُهُۥۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيّٞ مُّبِينٞ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنۡ أَرَادَ أَن يَبۡطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوّٞ
لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارٗا فِي
ٱلۡأَرۡضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ
إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا
يَتَرَقَّبُۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلۡقَآءَ مَدۡيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن
يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ
وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ
وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ
خَيۡرٖ فَقِيرٞ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ
أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ﴿٢٦﴾
قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ
عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ
﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ
وَكِيلٞ ﴿٢٨﴾ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ
ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ

﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن
يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ
وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي
جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ
مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ
مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ
رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا
سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ
بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾
وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ
ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي
يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ
ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا
يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ
﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ
﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ
وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ
وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَمَا كُنتَ
ثَاوِيًا فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ

بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن
قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟
رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا
جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ
مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ
ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا
يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى
ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ
مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ
مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا
رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ
سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [القصص: ١٠ - ٥٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ القَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص:٥١] المعنيون في ضمير الخطاب هم العرب، وبآخرة من سواهم من الأمم، وموضع التذكار بهذا التوصيل في الخطاب أن يعلموا برسالة موسى عليه السلام بصحيح رسالة محمد، وكذلك يتذكرون بالأول من الأمر الآخر منه.

أتبع ذلك قوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [القصص: ٥٢] فسر بهذا ما أجمله قبله هم الذين آمنوا بأنبيائهم وكتابهم، وأدركوا محمد ﷺ وكتابه، فآمنوا به كعبد الله بن سلام وكعب الأحبار من أهل التوراة، وكنصارى نجران وصُهَيب من أهل الإنجيل وغيرهم يقول: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ القَوْلَ﴾ [القصص:٥١].

يعني - وهو أعلم: القول للغير عن سبيل الذكر في سبيل الفتنة، وعطف بالواو

نسقًا على قصصه نبأ موسى وفرعون، ومن سبيل الذكر الهداية إلى تصديق محمد ﷺ والقرآن لم يخلهم من مشافهة مشاهدة، كما لم يذرهم في غمة حيرة ولا تركهم في مهمة ضلالة، بل نصب الأعلام وأقام الشواهد وآثار النيرات، ونهج السبيل قاصده إليه، حتى لقد ألحق مرأى العقول بحقيقة المشاهدة.

قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين وذكر رجلاً آمن بنبيه، ثم آمن بما جاء به فله أجره مرتين**»(١).

واعلم أن هذه الأمة تعطى أجرها مرتين، دلَّ على ذلك ما ذكره في حديث الإجارة: «**وأن هذه الأمة تعطى قيراطين قيراطين ويعطى من كان قبلها قيراطًا قيراطًا**»(٢) وما ذكره رسول الله ﷺ إنما هو تضعيف بعد هذا التضعيف الذي هو الأمة فيه سواء.

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٥٦) وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (٥٨) وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ (٥٩)﴾ [القصص: ٥٦ - ٥٩].

قوله ﷻ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦] هذا منتظم بقوله: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ [القصص: ٥١] وذلك متصل بقوله في صدر السورة: ﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [القصص: ٣] ثم هو متصل بما انضاف إلى التوصيل من دلائل وكتاب ورسول وآيات الله في

---

(١) أخرجه أحمد (١٩٦٥١)، والبخاري (٢٨٤٩)، ومسلم (١٥٤)، والترمذي (١١١٦) والنسائي (٣٣٤٤)، وابن ماجة (١٩٥٦)، وعبد الرزاق (١٣١١٢)، وابن حبان (٢٢٧).

(٢) أخرجه بنحوه الطيالسي (١٨٢٠)، والبخاري (٥٣٢).

السماوات والأرض وما بين ذلك، وجملة ذلك الجامع له هو الحق المخلوق به السماوات والأرض.

يقول - عزَّ من قائل: قد أتيناهم من الآيات ما فيه أبين البيان، ووصلنا لهم القول المبين عن ذلك، لكنك ﴿لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص:٥٦].

أتبع ذلك قوله: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص:٥٦] والمهتدون يهتدون ومن ليس منهم، فلو آمن عمره كله لسبق عليه الكتاب فرده إلى الضلال، ولو أدخل النار فمكث فيها ألف عام واستغاث، وضمن الرجعة والإصلاح، فأرجع إلى الدنيا لسبق عليه الكتاب، فرده إلى الضلال، وكيف يهتدي من لا يعلمه الله من المهتدين، كما قال: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى﴾ [النجم:٣٠] سبق إليهم ذلك يوم قال: «**هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، وهؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون**»[١] فلو جاءت هؤلاء كل آية ما آمنوا إلا أن يشاء الله عبر هذا جهل من يعتقده.

وجاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**يعتذر الرب تبارك وتعالى إلى آدم يوم القيامة بثلاث معاذير، فيقول: يا آدم لولا أني لعنت الكذابين وأبغضت الكذب والخلف وأوعدت عليه لرحمت اليوم ذريتك أجمعين من شدة ما أعددت لهم من العذاب، لكن حق القول مني لئن كذبت رسلي وعصي أمري لأملأن جهنم منهم أجمعين**»[٢].

ويقول الله ﷻ: «**يا آدم اعلم أني لا أدخل النار من ذريتك إلا من قد علمت في علمي أني لو رددته إلى الدنيا لعاد إلى شر مما كان عليه ولم يرجع ولم يعتب**»[٣].

---

(١) أخرجه مالك (١٥٩٣)، وأحمد (٣١١)، والبخاري في التاريخ الكبير (٩٧/٨)، وأبو داود (٤٧٠٣)، والترمذي (٣٠٧٥) وقال: حسن. والنسائي في الكبرى (١١١٩٠)، وابن جرير في تفسيره (١١٣/٩)، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير (٢٦٣/٢)، وابن حبان (٦١٦٦)، والآجري (ص ١٧٠)، والبيهقي في الأسماء والصفات (ص ٣٢٥)، والحاكم (٧٤)، والضياء (٢٨٩) وقال: إسناده منقطع.

(٢) أخرجه ابن عساكر (٤٥٣/٧)، والطبراني في الصغير (٨٥٥).

(٣) انظر التخريج السابق.

ويقول: «يا آدم قد جعلتك حكمًا بيني وبين ذريتك فقم عند الميزان، فانظر ما يرفع إليك من أعمالهم، فمن رجح منهم خيره على شره مثقال ذرة فله الجنة حتى تعلم أني لا أدخل النار إلا كل ظالم»[1].

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ
(٦٠) أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ
ٱلْمُحْضَرِينَ (٦١) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢) قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ
عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ
(٦٣) وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ
(٦٤) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ (٦٥) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا
يَتَسَآءَلُونَ (٦٦) فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ (٦٧)
وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ
(٦٨) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٦٩) وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى
ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠)﴾ [القصص: ٦٠ - ٧٠].

قوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ الله خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [القصص:٦٠] قررهم على الحقيقة وفزعهم بقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وإنما يجيء هذا الخطاب في المخاطب عند تعامي المخاطب عن تحقق البيان وتبالهه عن الأمر الواضح والمشاهد التي لا أوضح من عظم الآخرة إلى جنب الدنيا، ومتى ذكر فضل الآخرة على الدنيا فزع وقرر، كقوله - جلَّ من قائل: ﴿وَمَا هَذِهِ الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٦٤] وقال: ﴿وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام:٣٢] وكفى بيانًا في معرفة فضل الآخرة على الدنيا.

---

(١) انظر التخريج السابق.

قول رسول الله ﷺ: «**ما الدنيا في الحياة الآخرة إلا كإصبع أدخلته في اليم فانظر بِمَ يخرج منها؟**»(١).

ولا أقل مما قلله الله ﷻ وقد قال: ﴿**فَمَا مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ**﴾ [التوبة:٣٨] وقال رسول الله : ﷺ «**لو كانت الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقي الكافر فيها جرعة ماء**»(٢) فالعديم العقل والعلم من عدم فهم هذه الشواهد والإيمان بها، وأعدم منه فهمًا وعقلاً من آمن بها، ثم جعل يتهافت عليها ويتهالك فيها، نسأل الله توبة صادقة وإنابة خالصة.

أتبع ذلك قوله: ﴿**أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ**﴾(٣) [القصص:٦١] يريد وعده أجر الآخرة، وأن يورثه إياها، وإنما يتصور وجود وعده هنا لمن آمن وعلم، ثم وفقه الله للعمل بما علمه وآمن به، فيجعل له حينئذٍ من حسن ظنه به ما يلاقيه به، كما قال: «**أنا عند حسن ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء**»(٤) ﴿**كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ [القصص:٦١] وأغفلنا قلبه عن ذكرنا وأنسيناه الدار الآخرة والعمل بها، ثم نأخذه على غرة، عبر عن ذلك بقوله: ﴿**ثُمَّ هُوَ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنَ المُحْضَرِينَ**﴾

---

(١) أخرجه ابن المبارك (٤٩٦)، وهناد (٥١٧)، وأحمد (١٨٠٤٣)، ومسلم (٢٨٥٨)، وابن ماجة (٤١٠٨)، والحميدي (٨٥٥)، وابن أبي شيبة (٣٤٣٠٦)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٨٣٥)، وابن حبان (٦١٥٩) ، والطبراني (٧١٣)، والقضاعي (١٣٨٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٤٥٩).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٩٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٠٧٥).

(٣) الوعد الحسن: هو الوعد بالجنة والوعد الأحسن هو الوعد بالرؤية والموعود له من المؤمن بالإيمان الرسمي، فهو لاقيه يوم القيامة؛ لأنها جنة غير معجَّلة والموعود له هو المؤمن بالإيمان الحقيقي فهو لاقيه في الدنيا؛ لأن قيامة العارفين دائمة، وهذا الوعد مطلقًا مما يقتضيه استعداد كل من الأبرار والمقرَّبين، فلا يتخطَّى أحدهم حدَّ الآخر بحكم اسم العدل دون الفضل؛ لكن فرق بين حالة وحالة، فإن الأبرار وإن كانوا يرون ربهم؛ لكن ذلك في الآخرة لا في الدنيا، وكذا في الأسبوع مرة لا في كل لحظة كما هو شأن المقربين؛ لأنه لا حجاب لهم أصلاً.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله (٢) والحكيم (٩٩/٣)، وابن حبان (٦٣٣)، وابن عدي (٣٢٦/٦، ترجمة ١٨٠٧معروف بن عبد الله الخياط) والطبراني (٢١٠) والحاكم (٧٦٠٣)، وقال: صحيح الإسناد. وأحمد (١٦٠٥٩)، والدارمي (٢٧٣١).

[القصص:٦١] حول جهنم جثيًا.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص:٦٢] هذا نداء المقصود به التابعون ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ [القصص:٦٣] هم المتبوعون، المتبوع الأكبر منهم إبليس - لعنه الله - وذريته من الشياطين، ومن بني آدم من دعا إلى نفسه، وتنبأ من ذاته وأعظم منه من دعا إلى نفسه وتأله.

قال الله - عزَّ من قائل: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا﴾ [الأنعام:١٢٨].

وقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أو كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ [الأنعام:٢١] وقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أو قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللهُ﴾ [الأنعام:٩٣].

فهؤلاء الذين يقع القول عليهم ألا تسمع إلى جوابهم المحكي عنهم في قوله ﷻ: ﴿رَبَّنَا هَؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص:٦٣] أي: تبرأنا إليك من عبادتهم ثم قال - عز من قائل: ﴿يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أي: لينصروهم أو يصرفوا عنهم ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ [الكهف:٥٢] ورأوا العذاب.

ثم قال: ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا﴾ أي: في الدنيا ﴿يَهْتَدُونَ﴾ [القصص:٦٤] لعبادة القريب المجيب القوي العزيز الجبار الرفيع الدرجات؛ لدفع عنهم وكفاهم ووقاهم ونصرهم وأدخلهم في رحمته.

ثم قال: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٦٥] هذه دعوة عامة هي في العموم كقوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي...﴾ [الأعراف:٣٥] وكقوله: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا...﴾ [الأنعام:١٣٠] ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [القصص:٦٦] ما عندهم سوى الشهادة على أنفسهم بأنهم كانوا كافرين.

ثم قال: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ [القصص:٦٧] عسى للمقاربة لخفاء حكم الخاتمة، وأمَّا من وافا على ذلك فالقطع عليه بالفلاح والنجاح، بقوله: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه:٨٢] ونحو هذا من الشواهد.

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص:٦٨] هنا الوقف بوجه، ويكون معنى الخطاب معنى قوله: ﴿اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج:٧٥] وكقوله: ﴿وَاللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس:٢٥].

دلَّ على هذا التأويل قوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ فتكون «ما» نافية ﴿سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص:٦٨] يقول: هو يختار لا هم، وبوجه آخر أن يكون الوقف في قوله: «ما كان لهم الخيرة» وتكون «ما» مفعوله، يقول - وهو أعلم بما ينزل: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ هذا عام ﴿وَيَخْتَارُ﴾ أي: يجتبي من يشاء ويختار ﴿لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ [القصص:٦٨].

فتكون معناها كمعنى قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب:٣٦] وكما قال رسول الله ﷺ: «عجبًا للمؤمن، إن الله لا يقضي له شيئًا إلا كان له خيرًا»[(١)] وليس ذلك إلا للمؤمن.

ثم قال: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [القصص:٦٩] المراد الأول بهذا المعنى المشركون ثم الجميع.

ثم قال وقوله الحق: ﴿وَهُوَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص:٧٠] كلمة جامعة للأسماء كلها والمدائح أجمعها، والقضاء كله في الدنيا والآخرة وفيما بينهما، وبخاصة ما تقدم ذكره من حسن اختياره للمجتبين من عباده.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم

(١) أخرجه أحمد (٢٠٢٩٨)، وأبو يعلى (٤٢٠٠).

بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [القصص: ٧١ - ٧٤].

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إلى يَوْمِ القِيَامَةِ﴾ إلى قوله: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ [القصص:٧١] ثم إلى قوله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص:٧٢] السرمد الدائم، وقد تقدم ذكر الليل - وهو أعلم - لأنه متقدم في الشهر على النهار، والقرآن نزل بلغة العرب وحسابها بالقمر، وأيضًا فإن وجود الدنيا على سنن الاعتبار ليل ويوم الآخرة نهار؛ فلذلك ابتدأ بإيجاد الليل في طريق الوجود وبحكمه فيها في طريق الحكم، وتذكرة في طريق الذكر، وذكر السمع في الآية التي قدم فيها ذكر وجود الليل والبصر في الآية الأخرى التي قدم فيها ذكر وجود النهار؛ إذ السمع تبين عن المخاطب في ظلام الليل، والبصر يبين عن الموجودات في ضياء النهار، فذكر لهذا ولهذا الأغلب فيه والمعتمد عليه.

وقد يتطرق من هذا - والله أعلم - إلى تعرف وجه الحكمة في جعل الله - جل ثناؤه - الجهر في قراءة صلاة الليل وقراءة النهار خصها بالسر:

والمراد الأول في هاتين الآيتين: تعداد النعم في جعله النهار ضياء للانتشار فيه وابتغاء الفضل، وفي جعله الليل سكنًا يسكن فيه بالنوم والتودع.

والمراد الثاني: التعريف بالوحدانية مع الإنعام؛ إذ لو جعل أحدهما اللازم لشق على أهل الدنيا؛ ولنقصهم سبيلاً سابلة من العبرة، ولم يعلموا لذلك عدد السنين والحساب؛ ولذلك حق لازم وجوده في الدار الآخرة، ويقع العلم بهذا أنه الإله الواحد الأحد لم يشركه في حكمه سواه، جعل الليل والنهار خلقة آيات لأولي الألباب، وأعقب هذا هذا وهذا هذا: ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أو أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان:٦٢].

وأمَّا تدبيره في الدار الآخرة وهي لا ليل فيها ولا نهار فتدبير غير هذا؛ وإنما ذلك لأن هذه الدار دار اختبار وبلوى، ثم أنعم وأفضل بأن نصب الآيات وأقام

الدلائل عليه والشواهد له بما هو له أهل، فهي وإن كانت دار إيمان بالغيب فقد رفعها بالبيان إلى مقام النص في الخطاب، والدار الآخرة دار جزاء ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩] فافهم.

جعل معنى الليل كله ضيقة وظلامة ووحشة ولبسة ونومة كالموت واجتماع الهم والحزن والأوصاف والأوجاع، وصير حقيقة ذلك كله ونهايته في النار، وجعل معنى النهار ضياءه وانشراحه وانفساحه وراحه وراحته والانتشار فيه، وشبهه بالحياة، وصير ذلك كله في الجنة، ثم على تقدير مقادير المريد بين الدنيا والآخرة.

أتبع ذلك ما هو في معناه قوله الحق: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ ثم حذف ذكر النهار أخيرًا بوصفه فقال: ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ أي: في النهار، وعطف بالواو خطابًا على خطاب لما في الليل أيضًا من معنى الفضل لطالبي الدنيا وطالبي الآخرة، ولما في النهار أيضًا من وجود السكن والسكون فيه والنوم والراحة، ثم عطف بالواو في قوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص:٧٣] أي: فيهما، كما تقدم في قوله: ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان:٦٢] وكقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ﴾ [الروم:٢٣].

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص:٦٢] ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ أي: احتججنا عليهم برسولهم، يقال: نزع الخصم بحجته، ونزع بآية كذا ودليل كذا؛ أي: احتج بها وأتى بها.

﴿ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [القصص: ٧٥ - ٧٧].

﴿فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ [القصص:٧٥] يقول: بيان وحجة علام خالفتم رسولي

لم كذبتم، وقد جاءكم بالحق من عندنا، فعلموا أن الحق لله هنا وقع القول عليهم في ذلك اليوم؛ أي: أخذتهم الحجة وانقطعوا عن الجواب، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا ظالمين.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾ [القصص:٧٦] كان قارون إسرائيليًا من قرابة موسى عليه السلام فاستعمله فرعون، فخان الله ورسوله وخان أمانته، وأعان فرعون على مراده في بني إسرائيل من استعباده إياهم وإذايته لهم، بالبغي عليهم وكشف العورات التي كانت تخفى عن فرعون وقومه منهم؛ تقربًا بذلك من فرعون؛ وإهلاكًا لنفسه ودينه، يقول الله - عزَّ من قائل: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُوْلِي القُوَّةِ﴾ [القصص:٧٦].

العصبة: الأربعون فصاعدًا، وكل مال لم يُزَكَّ ولا أنفق في سبيل الله فهو كنز، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ﴾ إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ أي: لا يزكونها، فهي لذلك كنز، ثم قال: ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ الله فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة:٣٤] إلى قوله: ﴿فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة:٣٥].

فصل

قال رسول الله ﷺ: «**في الذهب والرقة ربع العشر**»[١] وجعل النصاب من الرقة ما دون الأربعين، وفي الذهب ما دون العشرين» وفيه: «**وفي الركاز الخمس**»[٢] واختلفوا في الركاز ما هو؟ فاعتمد بعض العلماء على أنه الكنز الدفين للجاهلية، قال: والأركاز: الأثبات، فكأنه قال: الذي أثبته أهل الجاهلية من أموالهم، واتفق جل أهل العلم على أن المال الذي لم يزك هو كنز، فجاء من حقيقة خطاب القرآن وحديث رسول الله ﷺ: «**إن في أصل المال - أعني: قليله - بعد تحصيل القوت الذي حده النصاب الزكاة المفروضة، وأن حق الله في فضل المال إنفاقه في**

(١) أخرجه الشافعي في مسند (٣٧٢) الرقة: الفضة والدراهم المضروبة منها وأصلها الوَرِق حذفت منها الواو وعوض عنها التاء.

(٢) الرِّكزة: القطعه من جواهر الأرض المَرْكُوزَة فيها. والكنوز المدفونة في الأرض، وجمع الرِّكْزَة رِكَاز وركائز.

سبيل الله جهادًا كان أو عودًا به على ذوي القربى وأهل الغرامة والرقاب وذوي الحاجة من سائر المسلمين»[١].

ولعل القدر المندوب إلى إنفاقه من الفضل هو الخمس منه لقوله: «وفي الركاز الخمس» واجتمعوا على أنه الكنز، وقد سمى الله المال الذي لا ينفق في سبيل الله كنزًا، وكان ظاهر الخطاب الأمر بأن يخرج صاحبه من جميعه لله بإنفاقه في السبيل، فجاء قول رسول الله ﷺ محددًا الخمس فيه، وهو وجه من الفقه صحيح، ثم يجب عليه متى أخرج الخمس منه توجه عليه إخراج خمس الباقي؛ لقول رسول الله ﷺ: «**من كان له فضل ظهرهم فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل نفقة فليعد به على من لا نفقة له**»[٢].

ثم جعل يعدد صنوف المال، قالوا: حتى ظننا أن ليس لنا في الفضل حق، وقال: من كان له درهم فليعد به على نفسه، ومن كان له درهم زائدًا على ذلك فليعد به على أبويه، ثم ذكر الزوجة والولد ثم الخادم، ثم قال: ومن كان له فضل فليقل به هكذا وهكذا وهكذا، وأشار بيده إلى يمينه وإلى يساره وإلى أمامه وإلى خلفه، وما تركه بعد فللوارث.

وقال ﷺ لسعد بن أبي وقاص، وكان قد استشاره في أن يتصدق بماله كله، فحد له أن يتصدق منه بالثلث، وقال: «**إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس**»[٣] فهذا والله أعلم بعد أن أخرج الخمس من ذلك الفضل، ثم إلى مثلها هكذا، فإذا جاءه الموت وأراد الوصية توجه عليه ما حده لِسَعْدٍ ﴿**وَاللهُ**

---

(١) أخرجه مالك (١٥٦٠) وأحمد (٢/٢٣٩ ، رقم ٧٢٥٣) وعبد الرزاق (١٨٣٧٣) والبخاري (١٤٢٨) ومسلم (١٧١٠) وأبو داود (٤٥٩٣) والترمذى (٦٤٢) والنسائى (٢٤٩٥) وابن ماجة (٢٦٧٣) وابن أبي شيبة (٢٧٣٧٤) والدارمى (١٦٦٨) وأبو عوانة (٦٣٥٤).

(٢) أخرجه أحمد (١١٣١١) ومسلم (١٧٢٨) وأبو داود (١٦٦٣) وأبو يعلى (١٠٦٤) وابن حبان (٥٤١٩).

(٣) أخرجه مالك (١٤٥٦)، والطيالسي (١٩٥)، وابن أبي شيبة (٣٠٩١٣)، وأحمد (١٥٢٤)، والبخاري (٢٥٩٣)، ومسلم (١٦٢٨)، وأبو داود (٢٨٦٤)، والترمذي (٢١١٦) والنسائي (٣٦٢٦) وابن ماجة (٢٧٠٨)، وابن حبان (٧٢٦١)، والبيهقي (١٧٥٥٨).

يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

فصل

أخبر الله سبحانه أن أموال قارون كانت كنوزًا وعددها في ذنوبه التي أخذه بها؛ إذ لم يقدم فيها فضلاً ولا أدى منها فرضًا، وقوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الكُنُوزِ مَا إِنَّ﴾ «ما» ها هنا: اسم لمقادير تلك الكنوز ﴿مَفَاتِحَهُ﴾ ذكر بعض أهل العلم، إن المفاتح الخزائن، وقال: هي الأوعية هنا، قال: فكانت أوعية أمواله تثقل العصبة ﴿أُوْلِي القُوَّةِ﴾ [القصص:٧٦] وهم الأربعون رجلاً فصاعدًا.

وقوله صواب، والله أعلم بما ينزل؛ إذ المَفتح - بفتح الميم: هو المخزن، والمِفتح - بكسرها: هو الذي يفتح به الغلق، ويجمع المفتح بالفتح: مفاتح، ويجمع المفتح بالكسر: مفاتيح، بزيادة ياء، وهو مفتاح الغلق، وقد يجمع بغير ياء لقولهم: مفتح، فإن كان ذلك كذلك فالخزائن ها هنا خرائط الأموال الذي يوعيها فيها، فكانت هذه المفاتح إذا ودعها أربعون رجلاً كلهم موصوف بالقوة نأت بهم؛ أي: أثقلتهم فلم يستطيعوا النهوض بها إلا بشدة، كما تنوء بالمرأة عجيزتها؛ أي: تقعدها، يقال: ناء الجمل بحمله: إذا قام بشدة، قال الشاعر:

تنوء بأخراها فلا يا قيامها

ثم قال - عز من قائل: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ﴾ «إذ» منتظمة بما ذكره من بغيه عليهم ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الفَرِحِينَ﴾ [القصص:٧٦] في بعض الكتب المتقدمة يا ابن آدم خفني عند تتابع نعمتي عليك، فنبهه قومه على هذا المعنى، ومدحهم الله بذلك من فعلهم، وأن من أعظم الجهاد كلمة حق تقولها عند سلطان جائر، وقالوا: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ﴾ أي: اقرض ربك فيما أتاكه تجده يوم فقرك ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص:٧٧] نصيبه من الدنيا ما خلق له من العمل للقاء الله واليوم الآخر، هذا هو نصيب العبد من الدنيا، قال الله ﷻ: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ﴾ [الأنعام:١٦٥] إلى قوله: ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ [المائدة:٤٨].

﴿وَأَحْسِن﴾ إلي العباد ﴿كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الفَسَادَ فِي الأَرْضِ﴾

[القصص:٧٧] أي: لا تمال فرعون على مراده في بني إسرائيل وإقامة جاهه في أتباعه وتزيين مملكته.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [القصص: ٧٨ - ٨٠].

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص:٧٨] قيل: المراد به علم التوراة والعلم بما أوتيه موسى - صلوات الله وسلامه عليه - مما جاء به من الهدى وهذا فلم يكن ليتقرب به من فرعون، بل يكون سببًا لإبعاده وإقصائه عنه، وقيل: إن مراده بذلك أنه كان يصنع الكيمياء، والله أعلم وأيهما كان إن كان موجود ذلك حقًّا، والله آتاه إياه فعادت حجته لنفسه وبالاً وزيادة في بغيه وجرمه إن نسي نعمة الله عليه وادعاها لنفسه.

يقول الله - عزَّ من قائل: ﴿أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ الله قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ القُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ [القصص:٧٨] هذا كقوله: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [سبأ:٣٧].

ثم قال: ﴿وَلَا يُسأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ المُجْرِمُونَ﴾ [القصص:٧٨] المعني بهذا: هم الرعيل الأول والثاني والثالث من المجرمين، تأخذهم جهنم إلى نفسها من أهل المحشر، يقابلهم رعيل أول وثاني وثالث من المؤمنين، لا يسألون عن ذنوبهم، يدخلون الجنة بغير حساب - جعلنا الله في الرعيل الأول من المؤمنين برحمته ورأفته - وغير هؤلاء يسألون ويحاسبون، أمَّا المجرمون فيحاسبون سوء الحساب.

قال الله - عزَّ من قائل: ﴿لَنَسأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر:٩٢ - ٩٣] وقال: ﴿فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ المُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف:٦] وبالجملة: فهي مواطن.

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [القصص: ٨١ - ٨٤].

قوله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ...﴾ [القصص:٨١] قوله: «وبداره» يدل على أنه لم يخسف به وحده، بل به وبأتباعه وأعوانه، ومن نحا نحوه وكان على بغيه؛ إذ لفظ الدار معهوده عامروها والقاطنون فيها، من ذلك دار الدنيا ودار الآخرة، ومن ذلك قول السلف من العلماء - رحمهم الله - لا تقوم الدار إلا بالعلماء والمتعلمين والسلطان والأجناد والفلاحين وأصحاب الصناعات، ومن ذلك قول الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ [التوبة:١٢٢].

المعنى ودار الإسلام جميع أمة محمد ﷺ ثم البلد الذي يرجع إليه الأمر ويخرج عنه الرأي وتظهر منه الرايات، ثم يتفصل ذلك بالوجود في الكمال إلى دار الرجل في خاصته وذويه، فقال ﷻ: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ﴾ [القصص:٨١] فالظاهر أن الخسف أصاب من كان على رأيه ومراده، دلَّ على ذلك قول الذين كانوا تمنوا مكانه بالأمس ﴿لَوْلا أَن مَّنَّ اللهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾ [القصص:٨٢] فمفهوم كلامهم هذا أن الخسف أصاب سواه معه.

فصل

وإنه من تواضع لله رفعه ومن ترفع وضعه الله، قال الله ﷻ: ﴿فَكُلاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ﴾ [العنكبوت:٤٠] ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ:٣٣] ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام:١٦٠] ولما علا قارون

وفرعون في الأرض خسف الله بهذا وأغرق هذا ومن تبعهما، والذين ﴿لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ يرفعهم الله إلى جواره في الدرجات العلا والنعيم المقيم، لذلك قال، عز من قائل: ﴿وَالْعَاقِبَةُ﴾ أي: تبيانها وحقيقة ظهورها ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣].

وفي هذا تنبيه على أن العاقبة للمؤمنين بعد هذا إن شاء الله ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ﴾ أي: الذي كان فيه رسول الله والمؤمنون من ظهور أهل الكفر عليهم بمكة ﴿يُسْرًا﴾ [الشرح:٥] الذي كان فيه المؤمنون من النصر والفتح في أيام رسول الله بعد الهجرة وطول مدة الخلفاء ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ﴾ هذا الذي أصاب المسلمين بعد نبيهم وخلفائه ﴿يُسْرًا﴾ [الشرح:٦] ما يكون في العاقبة من النصر والفتح - إن شاء الله.

فصل

قوله تعالى فيما حكاه عن المتندمين قولهم: ﴿وَيْكَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [القصص:٨٢] قيل في معنى قولهم: «ويك» أن غير ما وجه، والأقرب إلى الصواب إن شاء الله أن «وَيْ» مفصولة هي إشارة إلى ويل، وأسقطا اللام والكاف للمخاطب، و«أن» مفتوحة الهمزة إخبار عما يريد المخبر الإخبار عنه، وفتحت «أن» لمحذوف مقدر هناك، وهو «ألم تعلم» أو ما يكون في معنى ذلك؛ والتقدير: ويك ألم تعلم أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، ويك ألم تعلم أنه لا يفلح الكافرون، وإنما القوم تندموا فانتبهوا، فتلاوموا على رأي قد وقاهم الله شره.

ومن ذلك قول رسول الله ﷺ في أبي نصير: «ويل أمه مسعر حرب لو كان له أنصار»[1] فقوله: «وي» إشارة إلى الويل، واللام جارة للام، وهي كلمة تقولها العرب تفجعًا من فوات مرغوب فيه قد أمكن مناله لمانع موجود حال دونه، وقد يكون «وي» زائدًا إلى ما تقدم للتنبيه والإعلام، والكاف للمخاطب، وأنشدوا شاهدًا على ذلك قول الشاعر:

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٢٧٣١)، وأحمد (١٩٤٤٢).

سـألتاني الطـلاق إن رأتـا مالـي قلـيلاً قـد جئتماني بنكـر

ويك أن من يكن له نسب يجيب ومـن يفتقـر يعـش عـيش ضـر

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [القصص: ٨٥ - ٨٨].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلى مَعَادٍ﴾ [القصص:٨٥] «فرض» هنا بمعنى: أنزل وأوجب حلاله وحرم حرامه، وخصك بفضيلة الرسالة والإنباء عنه، «لرادك إلى معاد» قالوا: مكة، وهذا وإن كان قد أدخله إياها وبلغه مأموله من ذلك، فمعهود المعاد أنه مأخوذ من العود بعد البدء، ومعناه - والله أعلم - إن الذي ذكرك في قديم أزله بالقرآن نزله عليك ويستعملك بما فيه، وذكرك يومئذٍ بالنبوة والرسالة والدرجة الرفيعة لرادك إلى معاد، ذلك بعثًا إليه.

وبوجه آخر أن يكون معنى قوله هذا: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلى مَعَادٍ﴾ [القصص:٨٥] أي: أن الذي أنزله عليك وافترضه عليك؛ والمراد به بهذا: هو وأمته، ثم يكون ما قد أنذر به ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى لا يبقى من القرآن إلا رسمه ومن الإسلام إلا اسمه**»(١) وقد جلى هذا الوجود بوعده بالإعادة، وأنه يحكم بالقرآن، ويهتدي بالهدى، ويسلك السبيل القويم - إن شاء الله - وقد تقدمت إشارة إلى هذا المعنى في قوله في قصة قارون: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣].

أتبع ذلك قوله الحق: ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [القصص:٨٥] فنظمه بما تقدم.

أتبع ذلك بما هو في معناه قوله الحق: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الكِتَابُ

(١) أخرجه بنحوه الديلمي (٣٤٤٨).

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص:٨٦] يقول: وما كنت ترجو، وعطف بالواو على ما تقدم ذكره أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك، معنى «إلا» ها هنا تحقيق ما سبق إليه من سابقة رحمته، كأنه قال: لكن رحمة من ربك، فمفهوم هذا أنها إشارة إلى تصحيح الإعادة بقول: فقد كانت البداية فأيقن إذًا بالإعادة، ثم قال على إثر هذا: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ * وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾ [القصص:٨٦ - ٨٧] وأخلص له العبادة والدعاء إليه ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [القصص:٨٧].

﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾(١) [القصص:٨٨] يقول: ما كان من سبيل الفتنة فهالك العامل به وعمله، إلا ما كان مما أخلص لوجه الله من عمل وذكر، والمراد به بحكم العموم سبيل الذكر كله، فهو باقٍ؛ لأنه متوجه به إلى الباقي الحق ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا البَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد:٣] ثم قال وقوله الحق: ﴿لَهُ الحُكْمُ﴾ في هذا وهذا ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص:٨٨] ثم بحكم العبرة، فافهم.

---

(١) قال المهائمي: أي: إلَّا ما أشرق عليه من نور وجهه من وجوه أسمائه التي توجهت إلى حقيقته وظهرت فيه وهو وإن ظهر فيه فلا حكم له. [التبصير ٣/١١١١].

تفسير سورة العنكبوت[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾ [العنكبوت: ١ - ٧].

قوله ﷻ: ﴿الم[2]* أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت:١ - ٢] قد تقدم أن موجودات دار الدنيا قسمها إلى قسمين: ذكر وفتنة، يجمعهما أمر الله وقدره، فظاهر الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر وتكاثر في الأموال والأولاد، هذا في الأحوال وفي الديانة إيمان وكفران، وباطنها تباعات وسؤال

---

(١) قال المهائمي (٣/١١١٢): سميت بها لاشتمالها على قوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ العَنكَبُوتِ﴾ المشير إلى أن من اعتمد على قوة الآلهة وحفظها عن العذاب كالعنكبوت اعتمدت على قوة بيتها التي لا تحتمل مس أدنى الحشرات والرياح وحفظها عن الحر والبرد، وهذا أتم في الدعوة إلى التوحيد الذي هو أعظم مقاصد القرآن.

(٢) أقسم الحق سبحانه بإشارة الألف إلى استواء فردانية أزليته على قلوب المفردين من أهل التفريد، وبإشارة اللام إلى كشف جماله للأرواح العاشقين الذين استقاموا مع الله بنعت التجريد وبإشارة الميم إلى محبة القدمية السابقة لسباق المحبين الذين استغرقوا في بحار التوحيد أنه تعالى لا يدفع من ادَّعى محبته ومعرفته في مقام وصاله وكشف جماله في الدنيا بوصف السرمدية إلا ويبتليهم بعد التجلي بالاستتار وبعد كشف الأنوار بتعذيب الأسرار؛ لاستيفاء حق الربوبية من العبودية وغيرة الأزلية على كون الحدث بالأسامي والنعوت في نعوته الأبدية.

وحساب وبلوى وفتنة واختبار وفناء وهلاك، وفي الأعمال طاعة أو عصيان، وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان، وعلى القول بالإجمال فما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور.

فالله - جل ثناؤه وتقدست أسماؤه - يدعو العباد من الدنيا إلى الآخرة، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن الغفلة إلى الذكر، ومن الفتنة إلى العصمة، ومن العصيان إلى الطاعة، ومن الشرك إلى الإخلاص، فأعلم ﷻ عباده الذين استجابوا له بالإيمان أنهم في الدنيا لم يخرجوا من حكمها بإيمانهم، وأشعرهم أنهم لما يتخلصوا بعد من شبائكها بإسلامهم، بل هم لبلواها معرضون، ولفتنها على إيمانهم خائفون، والدنيا على البلوى أسست، وعباده العابدين لله ﷻ للفتن عرضت، فلا بد من تجرع مرارة الصبر وحبس النفوس على جهد المجاهدة، واستشعار البلوى في الشر والخير، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

ألا ترى أنهم إن استجابوا لله وللرسول كما أمرهم به ودعاهم إليه ابتلاهم بالفتن اختبارًا؛ لينظر كيف ثباتهم على ذلك وصبرهم، وإن هم لم يستجيبوا له أخذهم بالبأساء والضراء لعلهم يرجعون، فمن أجل باطن هذا الحكم في ظاهر هذه الدنيا قال - عز من قائل: ﴿**الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ**﴾ [العنكبوت:١ - ٢] كما قال: ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ**﴾ [البقرة:٢١٤].

ينبئ بما كان فيما خلا من قبل، ويعرض بما هو آت، فالمؤمن مفتن مرزًا، مطالب بين شيطان يخاف إضلاله، وعدو من الإنس والجن يخشى تفتينه، ودنيا تغره وولد يشغله، وأهل وجيرة وأقران وسلطان، كل يروح عليه الخير والشر في معاريض البلوى والغرور، وبالإيمان والإسلام على التحقيق والمجاهدة للنفس والعدو الظاهر والباطن والاعتصام بالله والرغبة إليه والتوكل عليه وتعزيز العلم برتق الفتق ويقوم الوزن.

قال الله - جل ثناؤه: ﴿**وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ**﴾ [الأنبياء: ٣٥] وببلوغ التحقيق الشأن كله، وهو الصبر لله - جل ذكره - على الضراء والشكر له في

الرخاء، ويرتقي إلى ذلك بالتحقق في التحقيق، وذلك بأن يعزم على مجاهدة النفس والعدو على العمل بحقيقة العلم، فهما السببان الموصلان إلى الله ﷻ والوصول هو وجدان الحب له والرضا عنه في خالص سر القلب، وفي ذلك الدخول في حزب الله وحزب الله هم المفلحون.

فالإيمان بالله أولاً والإسلام له بالشهادة وعمل الجوارح درجة، ثم لا يتم ذلك إلا بالعمل بالعلم في سنن الاقتداء وما صد عن ذلك أو شغل عنه فهو فتنة، ثم تلك نعمة ولا تتم إلا بالإيثار لله ولرسوله، وللإيمان بما يجب الإيمان به والاستسلام له على ذلك؛ لذلك قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه من نفسه وأهله وولده وماله والناس أجمعين**»[١] وحتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وحتى يكره أن يعود إلى الكفر، كما يكره أن يقذف في النار.

وعلى هذه المرتبة من الإيمان بالله ورسوله جاءت هذه الآية ﴿**أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ**﴾ [العنكبوت:٢] أي: حتى يظهر منهم الإيثار، فيرفعون إليه أو لا، يظهر منهم الإيثار فيكون كما قال ﷻ: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ**﴾ [العنكبوت:١٠] وهو نزول إلى رتبة المنافقين، دلَّ على ذلك ما أتبعه إياها قوله: ﴿**وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ**﴾ [العنكبوت:١١] وهو أيضًا من الذين يعبدون الله على حرف؛ أي: على السراء دون الضراء.

أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿**وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الكَاذِبِينَ**﴾ [العنكبوت:٣] فالصدق هو الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد، والتصميم في الصبر على تقلب المحن عليه، حتى يرتفع بذلك إلى أعلى الدرجات، أمَّا قوله: ﴿**فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ**﴾ حيث وقع هكذا بلفظ الاستقبال، فإنه - تبارك وتعالى - لم يزل عالمًا بما يكون قبل كونه، وإنما معناه على هذا أن يعلمه كائنًا بعد وقوعه، وقد كان قبل يعلمه ولم يكن بعد، وعلى المعلوم تختلف الأحوال لا عليه،

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٣١٧٤).

وقرأ علي بن أبي طالب ﷺ والزهري والكلبي: «فليُعلِمن الله الذين صدقوا وليُعلِمن الكاذبين» بضم الياء وكسر اللام فيهما، فهو كقوله: ﴿إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم﴾ [المائدة:٤٨].

قوله ﷻ: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت:٤] هذا منتظم بقوله: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا...﴾ [العنكبوت:٢] ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا﴾ [العنكبوت:٤] أي: يعجزونا، فلا نقدر عليهم إعادة وجزاء.

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ الله فَإِنَّ أَجَلَ الله لآتٍ﴾ [العنكبوت:٥] قد يكون الرجاء بمعنى الخوف، وأن يكون على بابه أولى وأقرب إلى إصابة الصواب إن شاء الله تعالى، وما عهد الخير كله ظاهره وباطنه إلا من عند الله، وإنما وجود الشر هو من قبل من سواه، ولم يذكر الله لقاءه إلا بلفظ الرجاء، وذلك أنه لا يلقاه إلا من رضيه للقائه وأهله إليه.

وأمَّا من سواه فليس باللقاء، بل هو المقام والتوقيف ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٤٦] ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم:١٤] فوصف العموم في هذا المعنى بالمقام، ووصف المرضيين باللقاء؛ ولذلك - وهو أعلم - لم يذكره في كتابه إلا بلفظ الرجاء، وهو السميع لدعاء الداعين، العليم بمن أهله إلى ذلك منه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه.

وأمَّا قوله - جلَّ من قائل: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا العَذَابَ﴾ [الأنعام:٣٠] إلى قوله: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ الله﴾ [الأنعام:٣١] فإن وقوف هؤلاء على ربهم دون رؤية ولا لقاء.

قال الله، جل قوله: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥] الحق - والله أعلم بما ينزل - أنه كما لا بد من التعب بعد الموت، كذلك لا بد من لقاء الله، وهذا المعنى باللقاء يجدون له روحًا وراحةً وحالاً تقصر العبارة عن وصفها، فإذا هم وجدوا تلك الحالة وتعرفوها قطع بهم عنها، لكن يقال لذلك المعنى: بهذا وقوف وعرض ونحو هذا في حق المجرمين، ويقال له: في حق المؤمنين لقاء، فيكون ذلك أشد لأسفهم وأعظم لفجعتهم، وأبين لحقيقة خسارتهم،

وأن في جوابهم بقولهم: «بلى وربنا» لإشارة مذاق تدل على حالهم.

ألا ترى أن الميت يؤتى عندما يوضع في قبره فيسأل، وفي آخر ذلك يقال له: انظر إلى مقعدك من الجنة، أبدلك الله به مقعدًا من النار، وبالضد في المؤمن والموقن، فكذلك اللقاء يعرض عليه بما هو، ثم يطرد عنه، وأن للقاء الله - جل ذكره - بركة وأمر، ليس كمثله أمر كما أنه ليس كمثله شيء، وإذا تحققت المراد كله بالآخرة فمعظمه لقاء الله وهو الشأن كله، وما بعد ذلك من إكرام وملك وحباء تبع له كعلم معرفته في المعارف كل يعرفه وعلم تبع له.

لذلك - وهو أعلم - يقول الشقي في النار: ﴿يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ [الحاقة:٢٧] ويقول الكافر: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾ [النبأ:٤٠] والمشار بالتمني هنا حال أوجدوها عند الوقوف من معنى اللقاء، فيتمنى في النار أنه لم يكن ولم يجد ما وجده، وأن لو كانت قضية الموت تكون قاضية على البعث، فلا يبعث ولا يجد من حال اللقاء ما وجده عند الخلود في جهنم، يقول الله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ الله حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ [الأنعام:٣١] وهو - جل ذكره - ما ذكر اللقاء إلا بلفظ الرجاء لعظيم قدره وسني شأنه، فافهم، أسعدنا الله بلقائه، ورزقنا منه في ذلك البشر والبشرى برحمته.

فصل

الرجاء يكون عن سرور القلب بحسن الظن والعلم بصدق الوعد، فإنما يكون وجود الرجاء عن رفعة الإيمان، فتحصل الثقة بالجود من الجواد الودود، وأصل ذلك عن حسن الظن بالله ﷻ.

قال رسول الله ﷺ: «**لا يموتن أحدكم إلا وهو حسن الظن بالله**»[1] وحسن الظن أرفع من الرجاء؛ إذ الراجي لا يكون إلا خائفًا، فهو كما يرجو أن يصل إلى مأموله يخاف أن يفوته، ليس كذلك حسن الظن؛ لأنه ثمرة المعرفة بجميع أسماء الله ﷻ وصفاته، وأمَّا حسن الظن بالله هو أمل من حيث الله - جلَّ ذكره - لا

(١) أخرجه مسلم (٧٤١٠)، وأحمد (١٤٦٢٠).

من حيث العبد منبعث ذلك عن علمه به، إنه كريم محمل محسن، رحمن رحيم، حنان منان، قريب مجيب ودود، وهو عفو كريم.

يقول الله ﷻ: «**أنا عند حسن ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء**»[١] وأحط درجة الرجاء أن يكون قريبًا للخوف؛ إذ الخوف بلا رجاء قنوط، وأرفعه ما لحق بحسن الظن في بعض مواطنه، من ذلك قولهم: كن لما لا يرجو أرجى منك لما ترجو، إن موسى خرج يقتبس نارًا، فنودي بالنبوة والرسالة والتكليم والتقريب والأمان.

فصل

ولمجاورة الرجاء للخوف صح في هذا الكلام وصف الخوف للقلب، فيقال: كن لما لا يخاف أخوف منك مما تخاف، فقد مدح الله ﷻ من هذه صفته بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون:٦٠] وقال: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف:١٧٥] المعنى، فندبهم - جل ذكره - إلى الخوف في مقام الأمن وحذر من الأمن دون وعد بقوله: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩].

واعلم أن مدرجة الصعود إلى مرتبة الرجاء هي المعرفة بابتداء الله العبد بالنعم، قبل استحقاق منه لها من غير عمل عمله ولا قدم قدمه، بل ذلك في قدمه بمنه القديم وفضله العظيم، كما أن مدرجة الصعود إلى صفة الخوف المعرفة بأنه الفعال لما يريد لا راد لأمره ولا معقب لحكمه؛ ولأن له الملك كله وله المثل الأعلى، فكل فعاله حسن جميل، وجميع حكمه عدل، هو عدل الأحكام، لا يحكم على أحكامه، إنما القاضي على الأحكام أحكامه، فهذا النوع من العلم قطع قلوب العارفين.

ألا ترى إلى حكمه في الدنيا المقتضي لقوله الحق: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩] فهذا من حكمه في الدنيا، وكيف على هذا حكمه في الآخرة؟!.

---

(١) تقدم تخريجه.

فصل

ومعنى الخوف: رَدْعَة توجد بالقلب يدهش منها العقل، وقد يعتري ذلك من أجل قوة علم العبد لمجاري الحكم، ومن أجل مطالعة العبد سطوات الرب - جل ذكره - ونقمه، فيتولد على القلب الخوف، وهو الفرق خوفًا من الوعيد، وبدأة الخوف الوجل، فإذا قوي صار خوفًا، والفرق بين الخوف والرهبة: أن الخوف فزع تخف له الأعضاء، والرهبة: هول تثقل الأعضاء له، وربما كان إنما سمي الرهبان رهبانًا؛ لأنهم ثقلت أعضاؤهم عن الهرب، فحبسوا أنفسهم في الصوامع.

أتبع ذلك قوله - جل ذكره: ﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ [العنكبوت:٦] كقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت:٤٦] فالجهاد مأخوذ من بلوغ جهد النفس وإعطائها المجهود في ذلك.

وأعلم الله ﷻ أن درجات الإيمان لا تكون مجالاً للعبيد إلا بالمجاهدة، وإنما يجاهد من له قوة وبصيرة وعلم ومعرفة بقليل ما يبذله من نفسه إلى جنب عظيم ما يطالبه، فالدرجة الأولى من الإيمان والإسلام للمسلم المؤمن بمنزلة خلقه السمع والبصر والفؤاد للعبد، ثم كلفه بعد ذلك الإيمان به والتسليم له، وهداه النجدين، وأوقفه على الجادين، فمتى اختار الصعود إلى أعلى درجاته أجهد نفسه لينالها برحمة ربه، وإذا أجهدها حقت له المعونة بوعد ربه له بذلك، ومتى اختار الحلول بمحال الغافلين ولاه الله ما تولى، وكان بذلك في عمل المسلمين وعموم المؤمنين، وإن كان قد سبقت إليه من ربه سابقة في الأزل، حماه من عدوه وأصلح باله ورده إليه.

قوله - جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت:٧] من أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون، سبحانه وله الحمد، يوفيهم أجرهم بأوفى مكاييلهم، ويزن لهم بأرجح موازينهم، ويجري مجازاتهم على أرفع أعمالهم، ويحبوهم بأكرم نياتهم، أعمها علمًا وأتمها مشاهدة وأخلصها إيقانًا، وكذلك متى مرضوا أو تنافروا أو حبسهم عن عبادته أو قصر بهم عن ذروة اجتهادهم بعذر يعلم صحته، كتب لهم أحسن ما كانوا يعملون قبل حلول ذلك العذر بهم.

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [العنكبوت: ٨ - ١٥].

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ [العنكبوت:٨] انتظم معنى هذه الآية بمعنى ما افتتح به السورة، من ذكر الجهاد والأمر به وإعطاء المجهود في ذلك من النفس، وعلمنا ﷻ كيف تكون المجاهدة في الأبوين، مع توصيته بالإحسان إليهما، وخفض الجناح من الذل لهما، مع التزام المجاهدة في ذات الله بأن يتوسط المبتلي بذلك أمرًا بين أمرين، إحسانًا إليهما وطاعة لربه - جل ذكره - فإذا فعل ذلك جهاد في ذات الله وطاعة له.

فصل

برُّ الوالدين من شكر المنعم، وذلك مخرجه من اسمه الشكور - جل ذكره - فاجتمع البر لهما والشكر بالبر لله والشكر لله، وفي ذلك أيضًا إيجاب أداء الحق، وقضاء الديون، وتوقير الكبير، وجزاء الإحسان بالإحسان، والاعتراف بحق الأولية، وإعظام البدء، وهو منبعث من اسمه المبدئ، وهذه كلها آيات على وجوب حقوقه

ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، فإذا هو أوجب بر الوالدين وطاعتهما فبأن يوجب حقوق ربه ويفرض طاعته أولى وأحرى.

ثم إن كانا مؤمنين فقد أوجب الرجوع إلى قولهما والأخذ بنصيحتهما، فبر هذين أولى وأحق في عرفان العقول، والشرع قد توجه على العبد شكر زائد لله - جل ذكره - على شكره، إذا قد جعل أبويه مؤمنين، كما قال سليمان ﷺ: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ [الأحقاف:١٥] قرن الله شكرهما بشكره، ووصف رسوله ﷺ عقوق الوالدين بالكفر، وبساط خطاب ما يأتي بعد هذا يدل على ما ذكرنا ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

ثم أتبع ذلك بمعنى ما تقدم قبل هذه الآية قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت:٩] كما لا يدخل أحدًا الجنة عمله كذلك، لا يلحقه بالدخول في الصالحين، وإنما هو وعد من الله من عمل صالحًا، فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، وسنيسره لليسرى، وذلك إدخاله إياه في الصالحين.

قوله ﷻ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾ [العنكبوت:١٢] وما جاء هذا بلفظ الأمر؛ لأنهم ضمنوا للأتباع ولمن آمن أنهم اتبعوا سبيلهم أن يأمروا أنفسهم بتحمل أثقالهم وخطاياهم.

قال الله ﷻ: ﴿وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [العنكبوت:١٢] إنما على الأتباع حمل أثقال ما عملوه، وما أطاعوا المضلين لهم، وتركهم النظر في آيات الله المنصوبة في السماء والأرض، وإعراضهم عن أنبياء الله والرسل وأهل العلم من أممهم، وأمَّا المضلون فإنهم يحملون أثقال خطاياهم التي تقدم ذكرها، ويحملون إلى ذلك أثقال إضلالهم غيرهم، لا ينقص ذلك من أوزار غيرهم شيئًا.

قال الله ﷻ: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت:١٣] يقال لهم: من أين قلتم هذا؟ وعمن من الأنبياء والمرسلين حملتموه؟ وفي أي كتاب من عند الله وجدتموه؟.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت:١٤] المعنى إلى آخره، أنشأ ﷻ يقص علينا تبيان ما ابتدأ به السورة من ذكر المجاهدة، فذكر أئمة المجاهدين في سبيله نوحًا وإبراهيم ولوطًا وشعيبًا - صلوات الله وسلامه على جميعهم - ويصف في ذلك ما لقوه من الإذاية في الله والبلاء، وما لقى أتباعهم من الفتن، وما صابروه من الابتلاء، فذكر أن نوحًا لبث في قومه يجاهدهم بلسانه على التبليغ عن ربه ﷻ المدة التي ذكرها، ويدعو قومه إلى الله ﷻ يجاهدهم في الله، ويصبر على سبهم إياه وإذايتهم له، وتخلفهم وعصيانهم واستهزائهم وسخريتهم.

وذكر إبراهيم ﷺ ونصيحته ومحاجته في ذات الله وطرحه في النار، وذكر لوطًا واستضعافهم له واستحقارهم إياه، وشعيبًا - صلوات الله وسلامه على جميعهم - ثم ذكر أعقاب ذلك كيف أهلك المكذبين لهم، وأنه أحاق بهم ما كانوا به يستهزءون، وأنه أخذ كلاً بذنبه، وأهلكه بوصف كفره وجرمه، ودلنا بالنظر إلى مساكنهم على تحقيق ما قصه علينا من قصصهم، وندبنا إلى تساؤل ديارهم، والتوقف بجرائمهم، والاعتبار بهم بما استحقوا ذلك من ربهم، وما الذي من أجله هذا العذاب عراهم.

فصل

- الجهاد يكون باليد والسلاح وإظهار القوة ورباط الخيل: وذلك يكون بالقدرة والألفة في ذات الله واجتماع الكلمة.

- ويكون باللسان: وهو التبليغ عن الله والتبيين لأمر الله، والهداية إلى سبيل الله على سنة رسول الله.

- ويكون بالقلب: وهو الإنكار والمجانبة والفرار ما وجد إلى ذلك سبيل، وإلا فمجرد الإنكار بالقلب ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل.

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [العنكبوت:١٤] كل ما أطاف بالشيء وأحاط به فهو طوفان، وطوفان هؤلاء كان الغرق لما علوا في الأرض أغرقهم الله.

يقول الله - جلَّ من قائل: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت:١٥] بالإيمان بالرسل وبما جاءوا به نجاة الدنيا ثم نجاة الآخرة، وبالإيمان بالله - جل ذكره - نجاة الآخرة ثم نجاة الدنيا، الظاهر للظاهر والباطن للباطن، ثم يتداخل الأمر من حيث أن الدنيا والآخرة لله ﷻ فهذا من آياتها؛ لأنها كانت عبرةً لهم من حياة إلى حياة، والجري بالسفينة طول زمن الطوفان، فإن به برزخ بين الحياتين في حق المحمولين، وحكم الموت قد أطبق على أهل الأرض في غمرات الطوفان، تلك عاقبة من رد نصيحة ربه وكذلك رسله، وضيع الحزم لنفسه، وصم عن نداء الله تعالى ودعائه الرسل؛ يعني: رتبة الوجود، ومن أطاع رسل الله نجا معهم في الدنيا، ثم له النجاة في الآخرة، ومن أطاع الله نجاه في الآخرة، وربما أنجاه في الدنيا.

قال رسول الله: «**يردون موردًا واحدًا ويصدرون مصادر شتى**»[1].

قال الله - عزَّ من قائل: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال:٢٥].

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ [العنكبوت: ١٦ - ١٩].

قوله تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:١٦] ليس هذا الخطاب للمفاضلة بين عباد الله - جل ذكره -

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤٧٨٢)، ومسلم (٢٨٨٤) بلفظ: «يهلكون مهلكًا واحدًا ويصدرون مصادر شتى».

وعبادة الغير لا خير في عبادة غير الله، وإنما هو إعلام بأن الخير هو في عبادته وحده، وأن عبادة الله وحده له من وصفه في الدار الآخرة أنه لا يشبهه شيء، فافهم.

أظهر ذلك في قوله: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ الله الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ [العنكبوت:١٧] وقوله: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ الله أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ القِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت:٢٥] فأي خير أبقى في عبادة غير الله، وإنما ذلك كقوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف:١٠] إلى قوله: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف:١١].

وقوله: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الجُمُعَةِ﴾ إلى قوله: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الجمعة:٩] هو إعلام منه لنا أن الخير في عبادة الله - جل ذكره - وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: مآل ذلك وعائدة نفعه، ومتى وكيف ذلكم خير لكم فيما هنالك؛ أي: في الدار الآخرة، يشير إلى ما هنالك من الزيادة والعلية والعلم بذلك هو العلم العلي، وقد شرح هذا المعنى وأوضحه في سائر القرآن.

قوله تعالى: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ...﴾ [العنكبوت:١٨] يمكن أن يكون هذا الخطاب متوجهًا من الله - جل ذكره - إلى هذه الأمة العرب وسائر الأمم على لسان رسوله، ويمكن أن يكون قولاً لإبراهيم منتظمًا بمعنى ما تقدم من تبليغه وتبيين ما أرسل به يخاطب به قومه.

قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [العنكبوت:١٩] أظهر الله الخلق بالإحياء، ثم هو يبطنه بالإماتة والإعدام، ثم يعيده بالحياة الآخرة مظهرًا هذا بالحكم، وأمَّا معنى الكلام - والله أعلم: ألم يروا بأبصار رؤوسهم كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده، بأن نزل الماء من السماء فيخرج به زرعًا ونباتًا جمًا، ثم يجعله هشيمًا تذروه الرياح فيكون بذلك معدومًا، ثم يعيده ثانية مظهرًا.

فإن قالوا: إن هذا النبات المظهر في هذا العام غير ما قد أنبته في العام الأول والذي ينبته في المستقبل، فهذا من قائله هرب عن التحقيق، وهو لما اقتدر على إظهاره أولاً ثم على إعدامه، فإن إظهار مثله أيضًا ممكن جائز، وقد بينه الوجود أولاً،

ترى أن إظهار ذلك المظهر أولاً ثم إعدامه في قدرته سيان، وقد اقتدر على الأولى، فهو على الآخرة أقدر في قضايا العقول؛ إذ المعهود أن الاقتدار أيسر من الابتداع، فوجب أن يكون إظهاره بنفسه ثانية وألفًا جائز ممكن غير متعذر، بل هو على المعهود أهون، وفي العادة الجارية أيسر، وكلا الحالتين ملك يديه، سبحانه وله الحمد.

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [العنكبوت: ٢٠ - ٢٣].

فنبههم على ما يشاهدونه في الحاضر على الاعتبار إلى ما في الغائب، ثم بيَّن لهم كيف سلوك الطريق إلى طلب العلم واليقين بقوله الصدق: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الخَلْقَ﴾ ثم حذف أهلكهم أو أعدمهم أو ما يكون في معنى ذلك، ثم حكم بالنشأة الآخرة لصحة النشأة الأولى بقوله: ﴿ثُمَّ اللهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت:٢٠] كلام عام معبر عن صحيح الاقتدار على كل شيء معلوم أو مجهول في حسبتنا.

واعلم يقينًا أن النشأة الآخرة لا تنسب إليها النشأة الأولى، إلا كما تنسب موجودات الدنيا إلى موجودات الآخرة، فإن الله - جل ذكره - قد وصف موجودات الدنيا بما هي بأنها: ﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ﴾ وأنها: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾ [الحديد:٢٠].

وقال في موجودات الدار الآخرة أنها: ﴿لَهِيَ الحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت:٦٤] وقال في هذه: ﴿مَتَاعٌ﴾ [الحديد:٢٠] وفي تلك: ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى:١٧] فكذلك النشأة خير وأقوى وأبقى.

إن في قوله: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [العنكبوت:١٩]

فاستاق معنى الابتداء، وهو الإظهار، وفي سياقه بعد هذا معنى البداية في قوله: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الخَلْقَ﴾ [العنكبوت:٢٠] فأمَّا الإبداء بمعنى الإظهار: فهو بأبصار الرءوس مرئيًا والبداية مرئية بالبصائر.

فمعنى الخطاب - والله أعلم بما ينزل: ألم يروا بأبصارهم كيف أظهر الله الخلق بعضهم لبعض بإيجاده إياهم عن غيب علمه بهم وقدرته عليهم في مشيئته فيهم، كما أظهر عن آدم ﷺ ذريته، ولولا أنهم كانوا في وجوده لم يظهرهم عنه، فالله أكرم وجودًا وأعظم قدرًا، وقوله بعد ذكر الإبداء: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ إعلام بأنه سوف يعدمهم ثم يعيد إظهاره، أي: إظهار الخلق؛ يعني: يوم البعث متصلاً بيوم الخلود، ولذلك قال: ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ [العنكبوت:١٩].

ثم وصل بذلك قوله ﷻ: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الخَلْقَ﴾ أي: بالإنشاء لهم، ثم يميتهم ثم ينشئهم ﴿النَّشْأَةَ الآخِرَةَ﴾ [العنكبوت:٢٠] فهو الأول في إظهارهم عن كريم وجوده بعد، وهو الآخر بإنشائهم النشأة الآخرة، وهو الظاهر في ظهورهم مما أظهره منهم وبهم، فهو الباطن في أزل أزله، والباطن بما أبطن من كريم وجوده فيما أظهره من وجودهم؛ لذلك قال - وهو أعلم: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد:٤] ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ [يونس:٦١].

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [العنكبوت:٢٢] خاطب بهذا المنكرين للبعث الآخر.

يقول: «وما أنتم بمعجزين لنا في حال فنائكم وذهابكم في الأرض وإخراجكم من خزائن السماوات والأرض، كما لم تعجزونا أول مرة جمعهم أولاً بواسطة الرياح من السماء» فأنزلهم من السماء ماءً وأمرًا، ثم أنبتهم من الأرض إنباتًا في النبات، ثم جعل ذلك النبات خزائن للحيوان والإنسان، كما جعل السماء والأرض خزائن للنبات، وما طار من رطوبات أجسام الموتى بواسطة الهواء وما رسب منها من أرضيه إلى الأرض، فعادت ترابًا في التراب، ثم أخرجهم من الأنعام، ومن آدم منيًّا، ثم صيرهم في الأرحام بنقلهم في طبقات التكوين، ثم أخرجهم من الأرحام إلى الأرض، يرزقهم من السماء إلى الأرض على ما تقدم ذكره، ثم يميتهم ويعيد

أجسامهم إلى الأرض، وما بطن من ذواتهم إلى الهواء والسماء وإلى عاجل منازلهم من الجنة أو جهنم.

ثم كذلك إذا أذن الله - جل ثناؤه - بالنشأة الآخرة أمر كل شيء أخذ من شيء شيئًا، فرد ما اختزن فيه، ثم دعاهم دعوة من الأرض، إذا هم قيام ينظرون هذا، والله الحق لا الكذب، والجد الفصل لا الهزل ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران:٥٣].

أتبع ذلك قوله: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ الله مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [التوبة:١١٦] رجوعًا بالخطاب إلى معنى قوله: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ﴾ [العنكبوت:٢١].

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ الله وَلِقَائِهِ أُوْلَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [العنكبوت:٢٣] ذكر الرحمة مضاف إلى ذكر اللقاء، وذكر العذاب الأليم مضاف إلى الكفر بآيات الله، ما وعد الله - جل ذكره - بثواب على شيء، ولا أوعد بعقاب على شيء، ولا وصف نفسه بوصف، ولا أظهر اسمًا من أسمائه، ولا ذكر معنى يعبر به عن لقائه إلا وله على ذلك آيات مبينات لمن طلب ذلك بتدبر.

أيأس - جل ذكره - من رحمته من كفر بلقائه الكريم، وأوجب العذاب الأليم لمن كفر بآياته، نعوذ بالله من درك الشقاء في الدنيا والآخرة، بيان الأفعال دلالة على وجوده العلي، وقد تقدم ذلك، وهو العلم والمعرفة به، ورؤيته في الآية آية على لقائه ورؤيته فيما هنالك، والمواجهة في الصلاة هنا آية على اللقاء والتكليم والرؤية.

واختلاف الليل والنهار آيات عليه، فالنهار بما هو آية على لقائه وطلوع الشمس آية على لقائه ورؤيته، كذلك طلوع القمر ورؤيتهما دائمًا آية على رؤيته فيما هو الحق المبين في تلك الدار دائمًا، وظلام الليل ووحشته، وفقد الهداية، واجتماع أحزان الحزين، ووجد الواجد، وحنين الغريب، وحضور الهم دليل على البعد عنه في الظلمات السفلى - نعوذ بالله منها - كما الانتشار وفرح النفوس وراحة المريض وكشف الغم والهم على الأغلب بطلوع الفجر وإشراق الآفاق وضياء الأجواء بطلوع الشمس آية على الفرح باللقاء، ووجدان الفرح في ذلك لمن آمن بالله وعمل له، فابحث عن ذلك تصب البغية - إن شاء الله - وسماع كلامه بفهم وإيمان به آية

على تكليمه.

قال رسول الله ﷺ: «**ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه، ليس بينه وبينه ترجمان وإلا وهو يحاصره، حتى أنه ليقول له فيما يقول: عبدي أتذكر يوم كذا وكذا؛ إذ فعلت كذا وكذا، فيقول له العبد: رب أولم تغفر لي؟ فيقول: نعم، وقد رضيت عنك**»(١) فانظر وفقك الله، كما أن العبد إذا قرأ القرآن أو تذكر فضل الله ورحمته أو وقف بفهم وعلم على وعد منه سبق إلى تلك الحال بذكر الذنوب؛ ليستغفر ربه ويسأله فضله.

﴿**فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾**﴾ [العنكبوت: ٢٤ - ٢٦].

فكذلك فيما هنالك أرجع الخطاب إلى قصة إبراهيم ﷺ: ﴿**فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أو حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللهُ مِنَ النَّارِ**﴾ [العنكبوت:٢٤] هذا من معنى المجاهدة وتحمل الإذاية في الله - جل ذكره - وبدأ يذكر إبراهيم وقوله لقومه، وثنا عليه أنباء محمد - عليهما السلام - ثم أرجع وجه الخطاب إلى تتميم قصة إبراهيم.

أرى - والله أعلم - أنه لما كانت رسالة إبراهيم شبيهة برسالة محمد ﷺ وكونه به أولى الناس ومأمورًا بإتباع ملته، وهو أشبه ولده به تداخل خطاب إبراهيم وقومه وخطاب محمد وأمته، فانثنى بعض ذاك على بعض، وكانت تلك جاهلية أولى وجاهلية ما قبل المولد، والمبعث جاهلية أخرى، قال الله ﷻ: ﴿**وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ**

---

(١) أخرجه بنحوه أحمد (١٨٢٧٢)، والبخاري (٧٠٠٥)، ومسلم (١٠١٦)، والترمذي (٢٤١٥) وابن ماجة (١٨٥)، والطبراني (٢٢٥)، والبيهقي (٧٥٣٣)، وفي الشعب (٢٥٩)، وابن منده (٧٨٧).

الجَاهِلِيَّةِ الأُولَى﴾ [الأحزاب:٣٣] قيل: هي الجاهلية التي بعث عليها إبراهيم عليه السلام.

أتبع ذلك قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت:٢٤] الإيمان الحق هو القول والعقد، إنه لا يفعل فعل الله إلا الله - جل ذكره - وأنه ليس للفاعلين سواه فعل بأنفسهم، إنما يفعل ذلك الله - جل ذكره - ودلَّ على ذلك من جعله في النار ولم تحرقه؛ لقوله ﷻ لها: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩] إنها لا تحرق إذًا إلا بإذن يؤذن لها كما كفت عن الإحراق بإذن يؤذن لها فيه، وإنما يخلق الحرق فيها عند مباشرتها الأجسام، وكذلك السيف لا يقطع إلا بإذن، وكذلك الخبز لا يشبع إلا بأن يخلق الله الشبع لأكله والماء كذلك، والعقاقير لا ينفذ عنها المعهود منها إلا بإذن من الله لها في ذلك.

وإذا كان ذلك كذلك فليس على التحقيق يفعل الفاعلون ولا يشأ المريدون ولا يقدر القادرون إلا بإذن من الله في ذلك، وفي ذلك من الآيات أن الله يحمي من يشاء ويكرم من يشاء، ويظهر على يديه من المقدور والغائب ما شاء، وذلك لا يكون إلا لأهل الإيمان المحقق، وذلك شرط في وجود ذلك.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [العنكبوت: ٢٧ - ٣٠].

ثم أتبع ذلك ما أتاه في الدنيا من حسنة، وأنه آمن له لوط عليه السلام فهاجر إلى ربه، وأنه وهب له إسحاق ويعقوب إلى قوله: ﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت:٢٧] جزاءً لصبره على الجهاد، وثباته على محن الفتن، قال الله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا....﴾ [العنكبوت:٦٩].

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ

أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا
لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا
لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا
امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا
مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ
الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ
فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [العنكبوت: ٣١ - ٣٧].

قوله ﷻ: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت:٣٥] سبيل رؤية العقل هنا الآيات أن يحصل بالبحث لمن أصاب تلك القرى ما أصابهم، وإذا وقعت على السبب الموجب لذلك وهو التكذيب بآيات الله ورسله، فليجتنب فعل ذلك أن يصيبه ما أصابهم.

ثم أتبع ذلك قصة شعيب عليه السلام وهلاك قومه، وعطف على ذلك ذكر فعله بغيرهم من الأمم، وأنه أهلكهم بعذاب يطابق معاني ذنوبهم.

﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ
الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ
وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا
سَابِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ
الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ
لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ
اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ

ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ
وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا
ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ
﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ
ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [العنكبوت: ٣٨ - ٤٥].

قوله ﷻ: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ الله أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ العَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ [العنكبوت:٤١] المعنى إلى آخره، العنكبوت في التأويل عابد، فمثل الله به عابد الغير من دون الله، ولما كان المتخذون الأولياء من دون الله إنما اتخذوهم بأهوائهم، وما حدثتهم به أنفسهم وأكثرها من تحت أيديهم، وكان بيت العنكبوت من غزل يخرج على دبرها، فتصنع من ذلك بيتًا، لا يكنها من ريح ولا برد ولا حر، ولا يمتنع ممن أراد فساده وخرابه.

كذلك أيضًا أولياء أولئك لا يملكون لهم ضرًا ولا نفعًا ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان:٣] يدعون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم، واستبدلوا ما هذا وصفه ممن يملك الضر والنفع والرزق والحياة، ويملك السمع والأبصار والأفئدة، وله الدنيا والآخرة، وله الخلق والأمر، لا إله إلا هو رب العرش العظيم، هذا من فعلهم الضلال البعيد.

أتبع ذلك قوله الحق: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ البُيُوتِ لَبَيْتُ العَنكَبُوت﴾ [العنكبوت:٤١] أي: أنهم وإن كانوا يتولون تلك سموها آلة، يتولى بعضهم بعضًا عليها ويتواصلون فيها لمتاع الحياة الدنيا؛ كما تستمتع العنكبوت ببيتها الواهي الوهن، وعلى هذا وفي أثناء هذا ينالهم نصيبهم من الكتاب من رزق وأجل وعمل وأثر، لو كانوا يعلمون أنهم إذا كان الموت بما فيه وبما بعده لم يدفعوا عنهم بما يحيط بهم من الحق الحائق بهم، ويوم القيامة يكفرون بشركهم، ويتبرأ بعضهم من بعض ويقولون لهم: ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُون * فَكَفَى بِالله شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾

[يونس:٢٨ - ٢٩] وإلى هذا وما هو في معناه وما يتبعه الإشارة بقوله: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٤١].

أتبع ذلك قوله الحق: ﴿إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾ [العنكبوت:٤٢] وصف نفسه ﷻ بالعلم في مقابلة وصف أولئك بالوهن والموت وعدم الحياة والقدرة على جلب نفع أو دفع ضر.

ثم قال: ﴿وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ [العنكبوت: ٤٢] وصف نفسه - ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه - بالعزة والمنعة والقدرة والحكمة والأحكام، في مقابلة وصف أولئك بعدم ذلك كله، سبحانه وله الحمد، يقول - جل قوله وتعالى علاؤه: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا العَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣] جعلنا الله ممن علمه من علمه وأجزل حظه ومعرفته وأحسن عونه على ذكره وشكره وحسن عبادته.

قوله ﷻ: ﴿خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [العنكبوت:٤٤] لما شبه ما اتخذوه من دونه من أولياء بالعنكبوت، وشبه ما يتمتعون به في الدنيا من مواصلة وتناصر ليست إليهم عواقبها، ولا إتمام ما يريدون منها وبها، إنما حقيقتها من حيث هم كسب منهم حقيقة ذلك، وإتمامه إلى الله العلي الكبير، فشبه ما يتمتعون به من ذلك بصنع العنكبوت بيتها وبوهنه.

ذكر في مقابلة ذلك خلقه السماوات والأرض وما بينهما بالحق، لعظيم خطر ذلك وكريم خلقته وتحقيق حكمته، وأن يعرف ذلك برفع المؤمنين إلى أعلى درجاتهم، ويبوئنهم كريم مآبهم في الدار الآخرة، ليس كذلك بيت العنكبوت في وهنه، وسرعة خرابه وعجزه عن المنعة عن الخراب، ومصنوع العنكبوت شبيه بها في العجز والوهن، ليس كذلك خلق الله - جل ذكره - السماوات والأرض، فإنه الحق العزيز الحكيم، ذو الأسماء الحسنى والصفات الكاملة الفائقة العلا خلقها بالحق، إن في ذلك لآية للمؤمنين.

﴿هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ [لقمان:١١] ولما في وصف بيت العنكبوت من وصف حقيقته أنه يخرج غزلاً من دبرها، فتتخذ منه بيتًا تمتنع به، زعمت من محذورها وفي المتخذين آلهتهم بأهوائهم وصنع أيديهم، تنزه - جل ذكره - عن ذكر حقيقته، وأعرض عن تبيانه، وعبر عنه بقوله: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ

نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا العَالِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣] لما كان الهوى أبدًا ينسب إلى الشمال والوراء والتحت، سبحانه وله الحمد، ما أحكم آياته وأغرب أحكامه!.

معنى قوله هذا منتظم بما استاق من أجله المثل، لما ذكر ما اتخذوه من أولياء لا غنى عندهم ولا دفع ولا نفع ذكر خلقه السماوات والأرض، وأنه خلق ذلك بالحق الذي هو كلمته وقدرته ومشيئته وعلمه، وبما هو له من الأسماء الحسنى والصفات العلا، فعبر كلمه عن إرادته وقدرته وعلمه، وعبرت إثارته في مصنوعه عن أسمائه وصفاته، وعنونت إرادته عن مراده فيه ومنه كونًا وشرعًا، وعنون المصنوع عن أوصاف ما انتزع منه وهي الدار الآخرة، فدار الدنيا سماواتها وأرضيها وما بين ذلك تُنْبئ بما فيها عما كانت عنه وانتزعت منه، فتفهم هذه الجملة، وترفق في نظرك، وتلطف لإيمانك، ولتكن قاعدتك التي تؤسس عليها.

نبأك قوله الحق: **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾** [الشورى:١١] واجعل معقلك الذي تلوذ به وتحترز به قوله ﷻ: **﴿وَلَهُ المَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾** [الروم:٢٧] فهذا - وفقنا الله وإياك - وما أكثر من هذا من آيات الله ﷻ فيما خلقه للمؤمنين، فاستفتح الأبواب، وترق في الأسباب، عسى أن ينهضك إلى منزلة الممدوحين بالعلم بقوله: **﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا العَالِمُونَ﴾** [العنكبوت:٤٣].

قوله تعالى: **﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ﴾** إلى قوله: **﴿وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾** [العنكبوت:٤٥] لما ذكر الجهاد والمجاهدة بعد ذكر الابتلاء والمحنة، وذكر ما المجاهدين فيه، وما تحملوه في ذاته وتبليغ رسالاته، وذكر إنجاءه المستحبين من عباده واتباع رسله وإهلاكه المكذبين لهم، وبيَّن ضعف ما اتخذوه من دونه من أولياء ووهنهم، دلَّ رسوله ﷺ على ما ينجيه من الفتن، ويستنقذه من المحن، ويسعد به لديه ويحظى عنده.

فأمره بتلاوة الوحي واتباع الكتاب المنزل عليه، وإقام الصلاة، فإنها تنهي عن الفحشاء والمنكر، وذلك أن الصلاة بما هي من إقامتها بشروطها من خشوع وخضوع وإخلاص له، وعلم بمن يقصد المصلي ومن يناجي ومن المواجه له فيها، ومن مخاطبة ينفر الشيطان الآمر بالفحشاء والمنكر، وإذا تباعد الشيطان يوجد في قلبه الإيمان والخضوع لله والخشوع له، ثم إلى مثلها كذلك إلى مثلها هكذا، فهي

كذلك تنهى عن الفحشاء والمنكر لا بد ولا محالة، وقرأ الربيع بن أنس: «إن الصلاة تأمر بالمعروف وتنهى عن الفحشاء والمنكر».

فصل

اعلم - وفقك الله - أن الذكر عمود نور الإيمان والإسلام والعمل، عنه تنبعث الأعمال وبه تقوم، وهو معناها الذي لأجله جعلت، وإنما نوعت الأعمال لتنويع الذكر وتوزيعه على أذكار الأسماء والصفات والمدائح، وإظهار المحامد له والثناء، ألا ترى أن أصحاب الجنة إنما أبقى عليهم من العبادات الذكر، حسب فهم يلهمون التسبيح كما يلهمون النَفَس ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [يونس:١٠].

والذكر في القلب ثم ينبسط على اللسان المعنون عن القلب، ثم ينبسط الذكر على الجوارح أعمالاً وحركات على سنن الاقتداء، وذكر العبد الله بأسمائه ومحامده كلام للعبد، وإن كان الذكر كله مذموم في الكتاب معلوم في الوحي، فهو على ذلك كلام له، فإذا قرأ القرآن وإن كان كلامًا لله - جل ذكره - تلاوة للعبد؛ لأنه وحي، وتلاوته إياه إتباعه نفسه وإشهاده ذاته وإلقاءه إليه سمعه، فهو ذكر وتلاوة، والوحي كلام لله العلي الكبير، سبحانه وله الحمد.

وخطابه هذا لرسوله خطاب لعباده المؤمنين على أعلى الذكر وأقربه منه وأحبه إليه، وعلى أنه ما تلا أحد كتاب ربه وتوخى في ذلك مرضاة ربه ﷻ مستبصرًا مستصحبًا له إلا قام عنه بزيادة لا بد ولا محالة، ثم بحسب ذلك على المداومة يعلى به إلى علي العلم ورفيع الذكر، ويجعل له فرقان يفرق به بين المشتبهات، ونور يمشي به في الظلمات ما استصحب ذلك، فإن الله لا يمل حتى تملوا، ثم بإقام الصلاة يعمر قلبه ذكرًا ويشرح صدره نورًا وتملؤ جوارحه عبادة، فتخف جوارحه للعبادة وتأنس بها، وتنازعه نفسه إليها، كما كانت قبل تنازعه إلى شهواتها؛ لأن الذي كان يأمرها بالفحشاء والمنكر معزول عنها الآن مبعد عنها.

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر:٤٢] فيومئذٍ تكون راحته العبادة وأنسه بها وعيشه فيها، ويلحق بالمنزلة التي عبر عنها قوله - عزَّ من

قائل: «**إني لأطلع على قلب عبد، فأجد الغالب عليه ذكري إلا كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن دعاني لأستجيبن له، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استنصرني لأنصرنه، ولأتجرن له من وراء كل تاجر**»[1] فليكن - وفقنا الله وإياك - سؤالك منه يومئذٍ أن يحققك في الذاكرين له، وارغب إليه في الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد، فذكر الله في التلاوة والكتابة ابتغاء معرفته والعلم به، وذكره في العمل ابتغاء رضوانه وطلب الفوائد منه، والرغبة في مزيد الإيمان شغفًا به ولهجًا بذكره، تبلغ إلى الولاية العظمى والفوز الأكبر، فهذا وجه في قوله: ﴿وَلَذِكْرُ الله أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت:٤٥] وهو الأعلى والمراد الأول.

وأمَّا المراد الثاني: وهو المعهود عند الأكثر من عباد الله - رضي الله عنَّا وعنهم - فتلاوة الوحي طلبًا لكثير الأجر بتكثير إتباع بعض الأعمال بعضًا، وكذلك العمل بمرضاته؛ اشتغالاً بها عن الفحشاء والمنكر، ورغبة في تكثير الحسنات بتتابع الحركات، وتلك سبيل سائله وطريق قصد - إن شاء الله - والرعيل الأول المنتخبون من العباد لم تكن همتهم في تكثير العمل، إنما كانت همتهم في تحسينه لله وتحصينه من الآفات، فافهم، ألحقنا الله بهم وإياك، ولا جعل حظنا من صفاتهم وصفهم أنه حليم كريم.

وقد قيل في قوله ﷻ: ﴿وَلَذِكْرُ الله أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت:٤٥] أي: أكبر من انتهائكم عن الفحشاء والمنكر، وقيل: ذكر الله إياكم بالصلاة والتوجه بها إليه في أزله، وقيل: إيجادكم أكبر من ذكركم له الآن، وقيل: ذكر الله إياكم بذكركم له أكبر من ذكركم، وكل صواب وموجود حق - إن شاء الله تعالى.

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦﴾

---

(١) لم أقف عليه هكذا، ولعل المصنف ذكره بالمعنى، وأصل الحديث أخرجه البخاري (٦١٣٧).

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [العنكبوت: ٤٦ - ٤٩].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت:٤٦] نهى - جل ذكره - عن جدال أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن، وأهل الكتاب منقسمون إلى قسمين ونحن معهم على حالتين:

إمَّا أن يكونوا محاربين لنا: فهم الذين ظلموا منهم، فجدالهم يكون الجهاد لهم والقتال ﴿حَتَّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة:٢٩].

وإمَّا أن يكونوا لنا ذمة: فإن جاءونا مسترشدين أرشدناهم إلى الحق، وإن جاءونا معاندين مظهرين لدينهم منتقصين لدين الإسلام، فليس هؤلاء بأهل ذمة ولا عهد، فلهم القتل والسبي، وجدالهم لا يغني شيئًا، وإن كنا في حال ضعف عن مقاومتهم لفساد الولاة، وإيثارهم الدعة والنكوص عن الجهاد والتثبط عنه، فهذا موجود عندهم السبّ والأخذ من الرسول والمتبعين له، فإن جادلناهم أخذنا فيهم بمثل صنعهم وذلك حرام وكفر، فلنعدل لهم عن سبيل الجدال إلى حقيقة الإيمان، والتمسك بعروة الإسلام وكلمة السواء بيننا وبينهم بأن نقول لهم: ﴿آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٦].

قوله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الكَافِرُونَ﴾ [العنكبوت:٤٧] لما ذكر أهل الكتاب نظم بذكرهم قوله هذا؛ أي: كما أنزلنا على موسى وعيسى وغيرهما ﴿أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ﴾ فالذين أتيناهم الكتاب؛ يعني: معرفته والعلم به منهم ومن أمتك يؤمنون به، أخبر ﷻ عن علمهم به وإيمانهم، وهذا القرآن المهيمن على ما قبله كما قال في غير هذا الموضع، لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون؛ أي: من أمتك يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك، المعنى إلى آخره.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ

الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت:٤٨] من دلائل نبوته إن كان أميًا لا يقرأ ولا يكتب، ولم يعرف بمخالطة أهل الكتاب ولا بمدارسة أهل العلم، لو كان ذلك كذلك لارتاب المبطلون، وقد قالوا - أعني: قريشًا: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ [الفرقان:٤] يعنون: أهل الكتاب.

أتبع ذلك قوله الحق: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت:٤٩] لو كان مفترى كما زعموا لم يكن آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم، بل كان يكون في صدور الذين أوتوا العلم أنه مفترى؛ لأنهم أهل الشهادة، ولم يكن الله ليضلهم بعد إذ أتاهم العلم، وهي عطية الله لهم وشاهده فيهم، فشهادتهم له بأنه من عند الله حق، وكونه آيات من الله بينات في صدورهم يدل على أنه نور من عند الله، وإنما يكون آيات بينات، فيعمل التذكر وابتغاء ما أنزل الله فيه، وقد تقدَّم قبيل هذا في شرح قوله: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ [الكهف:٢٧] أولئك الذين أوتوا الكتاب ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [البقرة:١٢١] فبهداهم اقتد.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ
مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ
مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً
وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ
يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾
يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا
تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن
تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٦٠﴾ [العنكبوت: ٥٠ - ٦٠].

قوله ﷻ: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت:٥٦] أمر الله - جل ثناؤه - عباده بالهجرة من أرض الكفر والظلم حيث لا يتمكن للعبد إقامة الفرض إلى حيث يتمكن ذلك له، فمتى غلب على الخروج كان من المستضعفين، ومتى لم يعلم أرضًا إلا مثل أرضه توجه عليه، معنى قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إلى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [المائدة:١٠٥] فعليه بالعزلة والهرب من الناس حسب الاستطاعة.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ [العنكبوت:٥٨] وعد الله الذين آمنوا به وبرسله وهاجروا وجاهدوا في سبيله، أن يعوضهم من أرضهم التي تركوها أرض الجنة، ومن مساكن هجروها فيه مساكن طيبة ﴿غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ ومن راحة أضاعوها وتعوضوا منها العمل بطاعته، نعيمًا لا يبيد في خلد لا انقضاء له.

أتبع ذلك ما هو في معناه قوله الحق: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾[1] [العنكبوت:٦٠] وكلما دب أو درج فهو دابة لما كان مما يقدح في خاطر مريد الهجرة؛ خوف عدم الرزق أو خشية الفقر.

---

(١) قال البقلي في «العرائس»: حثَّ سبحانه العباد بالتوكل عليه والتيقن بلطيف صنعه والكرم العميم منه على جميع البرية وبأن يرضى العباد بما يجري عليهم من الأقدار السابقة في الأزل، ولا يكونوا مهتمين بما يستقبلون من الأيام الباقية والأعمار الماضية بجهة الرزق؛ لأنه تعالى قدَّر مقادير الخلق قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنةٍ، وما قدَّر في الخلق والرزق والأجل لا يتبدل بقصد القاصدين وجهد الجاهدين، ألا ترى إلى الوحوش والطيور لا تدَّخر شيئًا إلى الغد «**تغدو خماصًا وتروح بطانًا**» لاتكالهما على الله بما وصل إلى قلوبها من نور معرفة خالقها، كيف يكون الإنسان يهتم لأجل رزقه ويدَّخِر شيئًا لغده ولا يعرف حقيقة رزقه وأجله، فربما يأكل ذخيرته غيره ولا يصل إلى غده؛ لذلك كان ﷺ لا يدَّخر شيئًا لغدٍ؛ إذ الأرزاق مجددةٌ كالأنفاس المجددة في كل لمحة، ولذلك وصف الله سبحانه في أوائل الآية أهل التوكل والرضا.

أتبع هذه الآية ذكر الهجرة، فلا بد للمهاجر أن يضرب في التوكل بنصيب، وهو السميع لدعائه العليم بأعماله وما تكنه نفسه؛ لذلك قال قبيل هذا: ﴿نِعْمَ أَجْرُ العَامِلِينَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [العنكبوت:٥٨ - ٥٩].

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦١ - ٦٤].

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [العنكبوت:٦١] أرجع الخطاب إلى العرب وكفار الأمم المتخذين الأنداد من دون الله، فهم القائلون بأن الله هو خالق السماوات والأرض ومسخر الشمس والقمر، وعلى ذلك فهم يجعلون له أندادًا يعبدونهم من دونه.

يقول عزَّ من قائل: ﴿فَأَنَّى﴾ أي: كيف ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت:٦١] أي: يعلنون عن حقيقة ما هم قائلون به إلى باطل ما عدلوا إليه، أتبع ذلك قوله: ﴿اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ يصلح أن يكون هذا المعنى منتظمًا بذكر الرزق للمهاجر والمتوكل، ويصلح أيضًا أن يكون منتظمًا بما اتصل به من ذكر تأفيكهم عن حقيقة لازم عقدهم المتقدم ذكره، ويكون معنى الرزق على هذا رزق الآخرة وسبيل الهداية.

﴿إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [العنكبوت:٦٢] هو أعلم بمن يصلح على الفقر وبمن يصلح على الغنى، هذا على الأول، وعلى الثاني هو أعلم بمن اهتدى وبمن ضل، فإن الذي اهتدى لو صدَّه ما عسى أن يصده لم يخرجه ذلك عن هدايته، والذي ضلَّ لو رامه الجن والإنس، وأدخل النار في جهنم ثم أخرج منها لعاد إلى ضلاله، ألا تراهم عند اضطرارهم يؤمنون وعند العافية يكفرون؟!.

﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا

هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: ٦٥ - ٦٩].

أتبع ذلك ما هو في معناه قوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] إلى قوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٦٦] اللام: لام الأمر، وإن كانت صيغة هذا اللفظ الأمر فليس بالأمر، بل هو التهديد والوعيد.

يقول عز من قائل: ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ الله يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت:٦٧] كل ما كان من نعمة للعباد فهو من موجودات الآخرة في الجنة، فمن كفر بأنعم الله فقد كفر بالدار الآخرة وكفر بالمنعم بها، ومن شكر نعمة الله أو صبر عنها فقد عمل بما يرضي الله ﷻ، وآمن بما هو جزاء لما عمله من موجودات الدار الآخرة، ومن هنا اتصل البلاء بالعالم، يقال للمنافق والكافر: «**لا دريت ولا تليت**»[1] أي: إنك لم تعلم ولا اتبعت من علم.

قوله ﷻ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ ثم قال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت:٦٣] الذي أضرب عن ذكره بقوله، بل هو معنى قوله المتقدم: ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت:٦١] فأضرب عن هذا بقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت:٦٣] حقيقة ما فطروا عليه من إيمان وإسلام، صم عن ذلك بكم عمي في الظلمات، فهم لا يرجعون.

قوله تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ

(١) أخرجه أحمد (١١٠١٣) قال الهيثمي (٤٨/٣): رجاله رجال الصحيح. وابن أبي عاصم في السنة (٨٦٥).

﴿الحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٦٤] تكرر هذا المعنى في الكتاب العزيز؛ أعني: ذم الدنيا ورفع قدر الآخرة، فقال هنا ما تقدم ذكره، وقال في سورة القصص: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ ثم قال: ﴿وَمَا عِندَ الله خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [القصص:٦٠] فهذا الأظهر فيه أن ظاهر المفاضلة وقعت فيما بين موجودات هذه وهذه.

وقال في موضع آخر: ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ الله خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الشورى:٣٦] وقال في مكان غير هذا: ﴿أَنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ﴾ [الحديد:٢٠] إلى آخر المعنى، فهذه والآيتان قبلها ظاهر تفضيلها بين موجودات وموجودات.

وقال في سورة الأنعام: ﴿وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام:٣٢] هذه واللاتي قبلها ظاهر التفضيل فيهن بين موجودات وموجودات، لكن باطن معناهن ظاهر، والآية الأولى التي قال في تلك: إنها دار الحيوان، التفضيل فيهن كلهن في كون تلك دار الحيوان؛ أي: إنها لا لهو ولا تأثيم، ولا لغو ولا لعب، ولا غفلة ولا نسيان لأنعم الله وآلائه، ولا فاتن بها ولا مفتون ولا موت، قد انحصر جزاء الفاتن والمفتون كله إلى فتنة جهنم وجزائها، أعاذنا الله برحمته منها.

وانحصر معنى الحيوان إلى الحياة التي هي الإيمان والذكر والعلم والمعرفة، وانقطع عنهم كل ما يضاد الموت، موت الدين وموت الأجسام فيما هنالك، فهم أبدًا يذكرون الله جعل طيب عيشهم وكريم نعمتهم في ذلك، وكل شيء حي فيما هنالك لا يطرقه موت فهي دار الحيوان، دل على هذا التأويل ذكره اللعب واللهو والتفاخر والتكاثر، وكل هذا موت في عرفان الوحي ومعهود الهداية ومسلوك الصراط المستقيم.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى الله كَذِبًا أو كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾ [العنكبوت:٦٨] «الحق» ها هنا: هو الرسول وما جاء، فمن الأمر بالإيمان والإسلام والعمل بطاعة الله، و«الافتراء على الله الكذب» هو أن يقول: أوحي إلي ولم يوح

إليه شيء، وهو أيضًا أن يصف الله - جل ذكره - بما لم يجر له وجود في نعوت تعاليه، أو «كذب بالحق لما جاءه» هو: أن يكذب الرسول المرسل إليه وما جاء به.

وقد تقدم قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[1] [العنكبوت: ٦٩] «المجاهد» هنا: مَن جاهد العدو من الجن والإنس وهواه، وصبر نفسه على طاعة ربه وأجهدها، وصابر على ذلك حتى الممات، ضمن الله لهم الهداية والصحبة وهي الولاية، ووصفهم بالإحسان، و«السبل»: سبل الله يجمعها اسم الإحسان.

ذكر عن قتادة - رحمه الله - أنه قال: «العشر الآيات الأول من سورة العنكبوت مدنية وسائرها مكية» فإن كان قال هذا من طريق مقطوع بصحته تقوم به الحُجة، فذاك وإن كان إنما قالها من أجل ذكر الجهاد والحض عليه والجهاد اسم وعمل، يقع على مصابرة النفس في قتال العدو الظاهر، ويقع على المصابرة في العمل بالطاعة وترك الراحة والمهنى لأجل ذلك، ويقع على الصبر على البلوى والامتحان والفتن، وقد كان هذا القسم الأخير بمكة أكثر ما كان، وكان ﷺ يحدثهم عندما يشكون إليه ما يحل بهم من البلاء الذي كان المشركون يصيبونهم به، فيقول في بعض ذلك: «**قد كان من كان قبلكم يوضع على رأس أحدهم المنشار فيختلف عليه حتى يقع شقاه بالأرض، ثم لا يصده ذلك عن دينه**»[2] والله أعلم بما قاله قتادة، والظاهر أنها مكية.

---

(١) قال الإمام الجنيد: أي: لنهدينهم سبيل الإخلاص. قال ابن عطاء: المجاهدة صدق الافتقار إلى الله بالانقطاع عن كل ما سواه. وقال النهرجوري: والذين جاهدوا في خدمتنا لنفتحنَّ عليهم سبل المناجاة معنا والأنس بنا والمشاهدة لنا ومن لم يكن أوائل أحواله المجاهدة كانت أيامه وأوقاته موصولة بالتواني والأماني، ويكون حظه البعد من حيث يأمن القرب. وقال عبد الله بن مبارك: المجاهدة علم أدب الخدمة لا المداومة عليها، وأدب الخدمة أعزُّ من الخدمة.

(٢) أخرجه الطبراني (٣٦٤٨)، والحاكم (٥٦٤٣) وقال: صحيح الإسناد.

تفسير سورة الروم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ
۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ
۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ
وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ
۝٧﴾ [الروم: ١ - ٧].

قوله ﷻ: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ.....﴾ [(١)] [الروم:٢ - ٤] قرأه الجماعة برفع الغين وخفض اللام، وقرأ

(١) هذه السورة مكية، قال ابن عطية وغيره، بلا خلاف، وقال الزمخشري: إلا قوله: (فسبحان الله) وسبب نزولها أن كسرى بعث جيشًا إلى الروم، وأمر عليهم رجلاً، واختلف النقلة في اسمه؛ فسار إليهم بأهل فارس، وظفر وقتل وخرب وقطع زيتونهم، وكان التقاؤهم بأذرعات وبصرى، وكان قد بعث قيصر رجلاً أميرًا على الروم، وقال مجاهد: التقت بالجزيرة، وقال السدي: بأرض الأردن وفلسطين، فشق ذلك على المسلمين لكونهم مع الروم أهل الكتاب، وفرح بذلك المشركون لكونهم مع المجوس ليسوا بأهل كتاب، وأخبر رسول الله ﷺ أن الروم «سيغلبون في بضع سنين»، ونزلت أوائل الروم، فصاح أبو بكر بها في نواحي مكة: ﴿الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ فقال ناس من مشركي قريش: زعم صاحبك أن الروم ستغلب فارسًا في بضع سنين، أفلا نراهنك على ذلك؟ فقال: بلى، وذلك قبل تحريم الرهان. فاتفقوا أن جعلوا بضع سنين وثلاث قلائص، وأخبر أبو بكر رسول الله بذلك فقال: «هلا اختطبت؟ فارجع فزدهم في الأجل والرهان» فجعلوا القلائص مائة، والأجل تسعة أعوام. فظهرت الروم على فارس في السنة السابعة، وكان ممن راهن أُبيّ بن خلف. فلما أراد أبو بكر الهجرة، طلب منه أُبيّ كفيلاً بالخطر إن غلبت، فكفل به ابنه عبد الرحمن. فلما أراد أُبيّ الخروج إلى أحد، طلبه عبد الرحمن بالكفيل، فأعطاه كفيلاً ومات أُبيّ من جرح جرحه النبي ﷺ وظهر الروم على
=

عليٌّ وابن عمر - رضي الله عنهما - «غَلَبت» بفتح الغين وفتح اللام، وقرأ ابن عمر «غُلْبِهم» بإسكان اللام، وروي عنه فتحها كقراءة الجماعة، ومن قرأ «غُلبت» قرأ: «وهم من بعد غلبهم سيَغلبون» بفتح الياء، ومن قرأ «غَلبت» بفتح الغين قرأ «سيُغلبون» بفتح الياء.

حكمة الله - جل ذكره - في دوائر التقدير: أن يُرجع فيها أواخر الحِكَم على أوائلها من الدوائر مقدرة ومنها موسعة، وعلى مقدار مشيئة الله فيها وبها، ولما أخبر ﷺ عن الروم أنهم غلبوا في أدنى الأرض، وهو بلد الشام، كان إخبارًا منه عما يكون، والله أعلم.

وذلك على قراءة من قرأ: «غُلِبت» برفع الغين وخفض اللام، وبشارة بشر بها رسول الله ﷺ والمؤمنون أن ذلك سيكون، كما قاله رسول الله ﷺ وقد استيقظ ليلة، فقال: «**لا إله إلا الله، ويلٌ للعرب من شرٍّ قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه، وحَلَّق بإبهامه والمسبحة**»[1].

=

فارس يوم الحديبية. وقيل: كان النصر يوم بدر للفريقين، فأخذ أبو بكر الخطر من ذرية أبي، وجاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له: «تصدق به». وقرأ علي وأبو سعيد الخدري وابن عباس وابن عمر ومعاوية بن قرة والحسن: (غلبت الروم) مبنيًا للفاعل، (سيغلبون): مبنيًا للمفعول؛ والجمهور: مبنيًا للمفعول، سيغلبون: مبنيًا للفاعل، وتأويل ذلك على ما فسره ابن عمران: الروم غلبت على أدنى ريف الشأم، يعني: بالريف السواد. وجاء كذلك عن عثمان، وتأوله أبو حاتم على أن الروم غلبت يوم بدر، فعز ذلك على كفار قريش، وسر المؤمنون، وبشر الله عباده بأنهم سيغلبون في بضع سنين. انتهى. فيكون قد أخبر عن الروم بأنهم قد غلبوا، وبأنهم سيغلبون، فيكون غلبهم مرتين. قال ابن عطية: والقراءة بضم الغين أصح. وأجمع الناس على سيغلبون بفتح الياء، يراد به الروم. وروي عن ابن عمر أنه قرأ سيغلبون بضم الياء، وفي هذه القراءة قلب المعنى الذي تظاهرت به الروايات. انتهى. وقوله: وأجمعوا، ليس كذلك. ألا ترى أن الذين قرأوا غلبت بفتح الغين هم الذين قرأوا سيغلبون بضم الياء وفتح اللام، وليست هذه مخصوصة بابن عمر؟ وقرأ الجمهور: غلبهم، بفتح الغين واللام: وعلي، وابن عمر، ومعاوية بن قرة: بإسكانها؛ والقياس عن ابن عمر: وغلابهم، على وزن كتاب. والروم: طائفة من النصارى، وأدنى الأرض: أقربهما: فإن كانت الواقعة في أذرعات، فهي أدنى الأرض بالنظر إلى مكة. [تفسير البحر المحيط (٩ /٧٠)].

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٧٢١٤)، والبخاري (٣٤٠٣)، ومسلم (٢٨٨٠)، والنسائي في الكبرى

=

فكان ذلك إنباء من الله تعالى إياه عما يكون، وظهر ذلك بعد المائتين، بل من أول ظهور الدولة العباسية واستعمالهم الخُراسانيين والترك والديلم والأحباش القاطنة فيما هنالك، وأمَّا السر[1] نفسه فلا يثلم[2] إلا عند مجيء الوعد؛ ولذلك ما قال مقدار فتح ذلك الروم، وذكره بالفتح؛ لأن استعمالهم كان فتحًا بوجهٍ ما لما تولت العرب جاء الله بأولئك كما قال: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد:٣٨].

وكان قول رسول الله ﷺ: «**ويل للعرب من شر قد اقترب**»[3] إنذارًا لهم بتوليهم، ويصير الأمر والجهاد إلى سواهم، وإخبارًا منه أيضًا عن وقت التقدير، فإنه يتقدم الكون، وكان تقدير ذلك تلك الليلة لقوله فتح الليلة، والله أعلم بما ينزل، فكذلك قول الله جل ذكره: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ [الروم:٢] هو إخبار وبشارة منه عن التقدير المقدر[4] لظهور الكائن، فكان ذلك زمان عمر بن الخطاب ﷺ غلبهم على بلاد الشام واستخرج بيت المقدس عن أيديهم.

وقال: ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ والبضع من الثلاث إلى التسع، وكان نزول هذه السورة بمكة، فكان ذلك في داخل بضع أسابيع سنين على رأس عشرين إلى ثمان وعشرين سنة، ثم لم يزل الفتح بعد ذلك يتسع ويتصل إلى نهاية سبقت في التقدير.

ثم قال عز من قائل: ﴿وَهُم﴾ يعني: الروم ﴿مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم:٣] أي: أنهم غُلبوا ثم هم يغلبون ومن بعد غلبهم هذا سيغلبون؛ أي: أنهم إذا غُلبوا يُغلبون ثم يَغلبون، فأخبر عن حكم دوائر حكم التقدير أن لهم غلبتين ولنا غلبتان سوى الغلبة الأولى منهم لنا في تلك الأرض هي المقابلة لغلبة الصحابة

=

(١١٣٣٣)، وابن ماجة (٣٩٥٣)، وابن حبان (٣٢٧)، والطبراني (١٣٨)، وأحمد (٢٧٤٥٣)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٣٠٩٢).

(١) في (ف) السر.

(٢) الثُلْمَةُ: الخلل في الحائط وغيره. انظر: الصحاح في اللغة (٧٣/١).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) في (ف) المتقدم.

داخل تسعة وأربعين أو خمسين أسبوعًا، وهي سبع أسابيع في مثلها وفي ضمن سبع في تسع، ولم تبلغ هذه الغلبة إلا إلى ثغور أرض الشام.

ثم كانت للمسلمين كرة فانتزعوا عن أيديهم ما كانوا أخذوه واستولوا على جُلِّ بلاد «أرمينية» ثم أديلوا بغلبة ثانية عام تسعة وثمانين وأربعمائة، فغلبوا على أرض الشام كلها وعلى بيت المقدس؛ وذلك عند آخر السنة السادسة التي هي من ألف شهر من شهور العرب، تصديقًا لقوله: ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ التي سادس أيامها رأس الخمسمائة سنة، ثم إلى تمام الخمسمائة وثلاث ومائتين سنة، وثلاث[١] سنة تمام سبع سنينها[٢] ونحن في عام اثنتين وعشرين وخمسمائة.

ولما كانت القراءة الأخرى دليلاً آخر؛ إذ هي عند جميع العلماء بمثابة أخرى لكونهما[٣] سيان في وجوب الاستدلال بهما والتصديق لهما، كان قوله أيضًا ﴿غَلَبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيُغْلَبُونَ﴾ [الروم:٢ - ٣] بفتح الغين واللام إخبارًا منه عن غلبتهم المسلمين التي كانت داخل تسعة وأربعين أسبوعًا، ثم تجاوز بالذكر غلبتنا عليهم إثر ذلك، وقد تقدم ذكرها للمعهود من وجوب دوائر حكم التقدير.

ثم قال: ﴿وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ﴾ أي: غلبهم للمسلمين ﴿سَيُغْلَبُونَ﴾ [الروم:٣] أي: إن الدائرة ترجع عليهم بمثلما كانت لهم، فقد غُلبوا ثانية، وهي التي كانت سنة تسع وثمانين، وبقي الوعد الكريم بأنهم سيغلبون، فرجعت هذه الغلبة عليهم ثالثة ثلاثة، أولهن غلبة الصحابة إياهم، والغلبة التي لهم اليوم ثانية للغلبة التي كانت لهم، التي لم تبلغ مثل هذه، والحال التي كانت لهم وقت نزول القرآن ورسول الله ﷺ بمكة حال سادسة.

ومن تدبر دوائر التقدير في اختلاف الليل والنهار واختلاف الأزمان، وتقلب الكيان[٤] في ذلك في تغير الأحوال من الإدالات والزيادة والنقصان عساه أن يقف

---

(١) في (ف) وثلث.

(٢) في (ف) سنيها.

(٣) في (ف) لكونها.

(٤) في (ف) وتقليب الكتاب.

على بعض العلم بذلك وما يحصل من ذلك، هو[١] من أنفع فوائد اليقين بتمام الآماد، وكمال الآجال، ووجوب ظهور اليوم الآخر، وتحقق العلم بالبعث والوعد والوعيد إلى ما وراء ذلك.

وقد يمكن أن يكون معنى قوله على قراءة من قرأ بكسر اللام وفتح الياء: أنهم تكون لهم غلبة في بضع سنين كما تقدم في بضع أسابيع سنين[٢] ويكون معنى قراءة من قرأ برفع الياء وفتح اللام؛ أي: أنهم سيغلبون في بضع سنين.

قال رسول الله ﷺ: وذكر المهدي فقال: «**يملأ الأرض عدلاً وقسطًا كما ملئت جورًا وظلمًا، يعيش فيكم سبع سنين وفي أخرى تسع سنين**»[٣] فيكون ذلك إخبارًا عن غلبتنا لهم يومئذٍ؛ لأنها كرَّة نبأ[٤] عليهم، وفرة[٥] منهم ليست لهم كرَّة في تلك المدة إن شاء الله تعالى وما تقدم ذكره فصحيح، والحمد لله رب العالمين.

فيكون تقدير الكلام: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ﴾ [الروم:٢ - ٣] أي: في الثالثة ﴿سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ [الروم:٣ - ٤] إخبار عن غلبة المسلمين لهم بالإمام العدل - رضي الله عنا وعنه - وقد جاءت الأخبار بذلك - والله المستعان.

أتبع ذلك قوله: ﴿لله الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللهِ﴾ [الروم:٤ - ٥] أخبر - جل ذكره - بما يكون لهذه الأمة وعليها من وقائعها مع الروم، ثم أشار إلى اقتراب الانقراض من آخر وقائعها وهي غلبة المسلمين إياهم مع الإمام المبشر به وهي الملحمة بقوله: ﴿لله الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللهِ﴾ [الروم:٤ - ٥].

وإنما هو الدجال - لعنة الله عليه - ثم كلمة الله وعبده ورسوله عيسى ابن مريم - صلوات الله وسلامه عليه - ثم ذهاب الصالحين ثم الساعة، وقد كان له الأمر من

---

(١) في (ف) فهو.

(٢) في (ف) ستين.

(٣) أخرجه البزار في مسنده (٣٣٢٢).

(٤) في (ف) بنا.

(٥) في (ف) وفروا.

قبل نزول القرآن وبعد تمام هذه الآماد، بل قد كان له الأمر قبل إيجاد الخليقة ويكون له بعد الانقراض، كما قال: ﴿وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ للهِ﴾ [الانفطار:١٩] وقال: ﴿المُلْكُ يَوْمَئِذٍ الحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ [الفرقان:٢٦].

أتبع ذلك قوله: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللهِ﴾ [الروم:٤ - ٥] هذا الدليل الدال على أن ما تقدم ذكره هو المراد بهذا الخطاب لا ما قاله بعض المفسرين من غلبة فارس للروم وغلبة الروم فارس، وإن كان قد كان ذلك، فليس الغرض الإخبار عن أولئك ولا بنصر فارس على الروم، والروم على فارس.

يبشر الله - جل ذكره - به المؤمنين وينزل به كتابه العزيز ويعبر عنه بكلامه العظيم؛ إذ ليس بموضع عبرة ولا عظة ولا بشرى للمؤمنين، وإن كانوا قد تعللوا في تحقيق ذلك بزعمهم بميل المؤمنين إلى الروم من أجل أنهم أصحاب كتاب، ولا يبلغ ذلك إلى أن يَعِد الله به عباده بقوله: ﴿وَعْدَ اللهِ لَا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ....﴾ [الروم:٦] وليست الروم بعد إعراضهم عن الدعوة بمحمد ﷺ بمرحومين في قوله: ﴿وَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الروم:٥] وإن كانوا يدالون على غيرهم كما يدال غيرهم عليهم.

فلحكمة الله - جل ذكره - في ذلك بالغة، ولنولي بعض الظالمين بعضًا بما كانوا يكسبون، وإنما يعبّر أبدًا باسم «العزة» عن معنى انتقامه، وباسم «الرحمة» عن حكم رحمته منه بالمؤمنين، وهذا كله ينافي على التحقيق[1] ما ذكروه إنما البشرى والرحمة للمؤمنين، والوعيد والتقريع والتوبيخ في الخطاب لغيرهم، فافهم.

أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم:٧] لـمَّا نفى عنهم العلم ولصدق قِيله، أثبت لهم ظاهرًا من الحياة الدنيا، يقول: ولو نظروا بعقولهم إلى تدوار دوائر الأمر والآيات في السماوات والأرض لأيقنوا باليوم الآخر والحياة الآخرة، ولقاء الله في الدار الآخرة.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ

---

(١) في (ف) الحقيقة.

مُّسَمًّىۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الروم: ٨ - ١٠].

أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم﴾ [الروم:٨] فيرون الحواس الخمس تؤدي الأمر المجعول إليها من سمع وبصر وشم وذوق ولمس إلى حاس باطن يجمعها، ويتأدى الأمر من ذلك إلى العبد الباطن الموصوف بالصفات من العلم والقدرة والحياة والإرادة إلى غير ذلك، وهو المسمى بالأسماء الموصوف بالصفات من «عالم» و«قادر» و«حي» و«مريد» إلى غير ذلك من أسمائه.

أتبع ذلك قوله الحق: ﴿مَّا خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الروم:٨] فدوار دوائر التدبير تنبئ بأن الحكمة في الأمر إرجاع أواخره على أوائله والإقبال بأوائله إلى أواخره، وفي ذلك تحقق العلم باليوم الآخر عقيب يوم الدنيا والحياة الآخرة عقيب الحياة الدنيا، وأن لقاء الله - جل ذكره - عقيب البعد والغيبة عنه في سجن الدنيا، وأنه كما أن بَعد النهار الليل، وبعد الليل النهار.

كذلك وعد الله آتٍ لا بد ولا محالة، كذلك وعيده إلا ما عفا عنه، فاعمل على دلك، بل صنعه مفعوله قد حكم فيه المشيئة، وصدقه لا يخلفه، وهو لصدقه وتحقيق الحق منه لا يعد إلا بما قد شاء أمضاه لا بد ولا يجوز عليه غير ذلك، ويتحققون من أنفسهم العلم بتقلبهم(١) في طبقات الكيان؛ إذ هم أجنة في بطون أمهاتهم، ثم في إنشائهم خلقًا آخر من ضعفٍ إلى قوة إلى شيخٍ وشيبة، ثم إلى حال هي أرذل العمر يفقدون فيها العلم والقوة وأكثر الصفات والحواس التي يوجد بها طيب الحياة أشراط للموت كأشراط الساعة وعلاماتها؛ وذلك إرجاع أواخرها على

---

(١) في (ف) بتقليبهم.

أوائلها وأوائلها على أواخرها، وفي ذلك وجوب العود بعد البدء.

أتبع ذلك قوله عز من قائل: ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الروم: ٩] يقول - جل ذكره - لِمَ لم يعتبروا بما أصاب من كفر بالله وكذب المرسلين، وتغافل عن النظر في آيات الله وضيع حظه من الأخذ بالجزم والتدرع[١] من عذاب الله ﷻ وإهلاكه بالإيمان والتقى وحسن الاستجابة له ولرسله؟

لذلك قال عز من قائل: ﴿فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم: ٩] بترددهم في عمههم واستصحابهم الضلالات في ظلمات غفلاتهم.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الروم:١٠] أخبر - جل وعلا - أن ضلالهم عقوبة لإعراضهم وتغافلهم، وأن الختم بالكفر لهم عقوبة لإساءتهم وتحريمهم[٢] لضلالهم ورضاهم بكفرهم بدلاً من تولي الولي الحميد.

﴿ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الروم: ١١ - ١٦].

قوله تعالى: ﴿اللهُ يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الروم:١١] صرح - جل ذكره - بحكم ما نصب عليه من الدلائل، وما عبر به عن الحق المطلوب فيما عرض به فيما قيل إلى قوله: ﴿فَأُوْلَئِكَ فِي العَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ [الروم:١٦].

﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(١) في (ف) بالحزم والتذرع.

(٢) في (ف) وتحريهم.

وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم: ١٧ - ٢١].

قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ الله حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم:١٧ - ١٨] وقرأ عكرمة: «حينًا تمسون» و«وحينًا تصبحون» القراءة الأولى لصريح التعظيم والتنزيه، والثانية للتعجيب، ويتطرق التعظيم أبدًا إلى التعجيب، وتقدير الكلام: فسبحان الله وله الحمد في السماوات والأرض حين تمسون وحين تصبحون، وعشيًا وحين تظهرون، حين تمسون صلاة المغرب والعشاء، وحين تصبحون صلاة الصبح وعشيًا، وحين تظهرون العصر والظهر، وإنما عدد مواسم التسبيح والتحميد من المخلوقات، وإلا فله التسبيح والتحميد أبدًا على الولاء.

وفيها أيضًا يعرض بقوله: ﴿فَسُبْحَانَ الله حِينَ تُمْسُونَ...﴾ [الروم:١٧] إلى آخر المعنى بتمام يوم الدنيا من طلوع اليوم الآخر.

قوله ﷻ: ﴿يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَيُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الروم:١٩] ذكر المفسرون أن معنى هذا مخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن، ومع ذلك فإن المقصود الأول به والله أعلم، أنه يخرج الروح الحي من الجسم ويخرج الجسم من الروح؛ أي: يفرق بينهما بالموت، والروح أبدًا موصوف بالحياة، والجسم هو الموصوف بالموت، وهو أرض الحيوان.

ثم قال: ﴿وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: ينزل الماء من السماء إلى الأرض، فتهتز بالنبات وحدائق الجنات، ثم قال: ﴿وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الروم:١٩] يريد - وهو أعلم - كذلك ينزل الله عليها الماء من تحت العرش، ماء كمني الرجال، فينبت الأجسام كما ينبت البقل، ويرسل الأرواح الحية إلى الأجسام الميتة ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ

يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨].

فصل

هذه سبع مطالب مؤدية إلى سبعة[١] علوم بما تبعها، الآخرة المطلوب الأعظم، والحق المخلوق به السماوات والأرض، وأن كل شيء إلى أجل مسمى، والبداية والإعادة والإرجاع إلى الله - جل وعز - والساعة حق والجنة والنار، أتبع ذلك سبع آيات دالات على ما[٢] ذكره مبينات للحق الذي فرضه.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم:٢٠] أقام الدلالة بقوله الحق على تحقيق ما ذكره من قوله: ﴿يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَيُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الروم:١٩] يقول - عز من قائل: ومن آياتي على ذلك أن خلقتكم من تراب حيث لا حياة به، ثم إذا أنتم بشر تنشرون.

ثم قال وقوله الحق: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم:٢١] بيَّن بهذه مراده في قوله الحق: ﴿أَوَ لَمْ يَتفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم﴾ [الروم:٨] لذلك قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم:٢١] وفي هذا التفكر مطلع يشرف به متذكره على العلم العلي الرفيع.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الروم: ٢٢ - ٢٥].

---

(١) في (ف) سبع.

(٢) في (ف) سقطت (ما).

ثم قال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾ [الروم:٢٢] هذه دلالات على انقضاء الآجال وتمام الآماد، ووجوب كون الساعة وكل ما وعد به أو أوعد مما هو آت، كل ذلك على توبة ورجوع أواخره على أوائله وأوائله على أواخره، كما أن الليل بعد النهار والنهار بعد الليل، والسنة بعد السنة والأمر بعد الأمر، كذلك كون كل ما وعد به أو أوعده[1] ثم أرجع الخطاب إلى معنى ما ابتدأ به الآية، ثم على العموم واختلاف ألسنتكم وألوانكم، كما قال في الأولى التي هي نظيرتها: ﴿مَّا خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الروم:٨].

ولعموم ذلك قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ [الروم:٢٢] ثم قال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ﴾[2] [الروم:٢٣] هذه دلالات على الحياة بعد الموت والموت بعد هذه الحياة، وفي قوله: ﴿وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ﴾ إعلامٌ بالحياة الكبرى بعد هذا الموت المنتظر والبعث منه والنشور، وفيه أيضًا دلالة على الإنباء[3] والنبوة، وتعريض بما في الدار الآخرة من فضائل موجودات ما هنالك، ثم قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [الروم:٢٣] أي: يسمعون ما في الوحي من وصف فضل الأخرى بما فيها على الدنيا.

---

(١) في (ف) أوعد.

(٢) الظاهر أن (بالليل والنهار) متعلق (بمنامكم) فامتن تعالى بذلك، لأن النهار قد يقام فيه، وخصوص من كل مشتغلاً في حوائجه بالليل (وابتغاؤكم من فضله): أي فيهما، أي في الليل والنهار معًا، لأن بعض الناس قد يبتغي الفعل بالليل، كالمسافرين والحراس بالليل وغيرهم، وقال الزمخشري: هذا من باب اللف، وترتيبه: (ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم) ولأنه فصل بين الفريقين الأولين بالقرينين الآخرين لأنهما زمانان، والزمان والواقع فيه كشيء واحد مع إعانة اللف على ذلك، ويجوز أن يراد (منامكم) في الزمانين، (وابتغاؤكم من فضله) فيهما، والظاهر هو الأول لتكرره في القرآن، وأسد المعاني ما دل عليه القرآن، وقال ابن عطية: وقال بعض المفسرين: في الكلام تقديم وتأخير، وهذا ضعيف، وإنما أراد أن ترتب النوم في الليل والابتغاء للنهار، ولفظ الآية لا يعطي ذلك. انظر: [تفسير البحر المحيط (٩/٧٧)].

(٣) في (ف) الأنبياء.

ثم قال - عز من قائل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الروم:٢٤] إظهاره البرق آية على جهنم - أعاذنا الله برحمته منها - لأنها تفيح بنفسها والبرق من وجود نفسها الناري في أجواء الهواء فتصدمه؛ أي: النفس رحمة الله بالرياح اللواقح للسحاب والماء الكائن عن فتح رحمته، فيشتمل السحاب على ما في الجو[1] من إثارة ذلك المعنى الناري، فتخرجه الملائكة - بإذن الله - بروقًا وصواعق، وتخرج حقيقة نفسها رعودًا؛ لذلك قال خوفًا؛ أي: [2] من الصواعق ومما هي عنه لمن غفل[3] عن ذلك، وطمعًا في فتح رحمته.

ثم قال: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم:٢٤] عرض بذكر الجنة بما تخرجه من الأرض بالماء من نبات ﴿وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ [النبأ:١٦] زائدًا إلى ما تقدم ذكره من آياته بذلك من إحيائه الموتى إلى غير ذلك؛ لذلك قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم:٢٤].

ثم قال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم:٢٥] صرف وجه الدلالة - والله أعلم - بما ينزل إلى قوله: ﴿أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم﴾ [الروم:٨] به بماسك الملكوت معه، وقام كل شيء في السماوات والأرض وما علا وما سفل به، هو ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥] ولا يضل ولا ينسى، وله كل شيء، هو خالقه ومدبره ومقدره تقديرًا.

ومن أمره أنه ﴿إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم:٢٥] وكما أنه إذا دعاكم منكم إليه إذا أنتم خامدون، كذلك إذا دعاكم منه من أمره وعلمه وقدرته ومشيئته إليكم إذا أنتم تخرجون فطرًا وبدءا[4] وبداءً وخلقًا ﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾ [الروم:٣٠] فافهم.

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [التغابن:٣] كما قال: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً

---

(١) في (ف) الحق.

(٢) في (ف) زيادة (طمعًا).

(٣) في (ف) عقل.

(٤) في (ف) وبَرًا.

أُخْرَى﴾ [طه:٥٥] لا إله إلا هو إليه ترجعون، فوجب تحقيق القول بلقائه ﷻ في بدء الشأن فاعبده وتوكل عليه. شعر:

ألا إننا كلنا بآبد ... فأي بني آدم خالد
بدأهم كان من ربهم ... وكلٌّ إلى ربه عائد
فيا عجباه كيف يعصي الإله؟ ... أم كيف يجحده الجاحد؟
وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد

﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الروم: ٢٦ - ٢٩].

ثم قال وقوله الحق: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ * وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ المَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ﴾ عن مشابهة الأشباه ﴿الحَكِيمُ﴾ [الروم:٢٦ - ٢٧] أحكم كل شيء صنعه فشهد لصانعه ودلَّ على خالقه.

فصل

اعلم يقينًا أنه لم يأت عن الله ﷻ شيء من الأشياء بنبأٍ إلا وفى العالم آية أو آيات دالات عليه معلمات بذلك كالنبأ، وليس في العالم آية دالة على معرفة الله أو على اسمٍ من أسمائه، أو صفة من صفاته، أو على الدار الآخرة وجميع موجوداتها، أو على الملائكة والأنبياء والنبوة والرسالة والمرسلين وما جاءوا به، إلا والنبوة قد أنبأت عنه ونبهت عليه مجملاً أو مفصلاً؛ ليصادق البرهان ويتجلى اليقين.

قال الله عز من قائل: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨] واسم

الكتاب، نعم ذكر الكتاب المبين والكتاب المنزل والاعتبار بموجودات العالم تشهد للنبأ فتصدقه، والنبأ ينبه العقول على ما أوجده في العالم من علم وهدى ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [الرعد:١٩] فتطلب هذا وتدرسه جدًّا بلغ الله بنا وبك ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:١١٤].

فصل

لا يكون العالم عالمًا بالنبأ المنزل من عند الله - جل ذكره - حتى يستشهد بموجودات العالم على النبأ، وبالنباء على الوجود؛ لذلك قال أصدق القائلين بعد قوله: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [الرعد:١٩] فقيام السماء والأرض على ما هي عليه آية على أن لها ممسكًا يمسكها وموجدًا أوجدها، وكونها قائمة بأمره آية لمن تفكر.

وتابع التذكر على ما له من أسماء وصفات؛ وذلك أيضًا آية على ما هي عليه من فطره إياها على الدين القيم، وبمتابعة التذكر وتدأب التفكر في آية على مباني الإسلام الخمسة، ثم على ما أمر به وحضَّ عليه من مكارم الأخلاق وعلى مراتب الأعمال؛ وذلك أيضًا من آياته على اختزان البرايا في خزائن السماوات والأرض قبل بداية الخِلقة، ثم على إرجاعها إلى تلك الخزائن بعد الموت، وفي حال إبطانها بعد إظهارها، وفي كلتا الحالتين له بينة على إخراجها إلى حال الظهور.

ذلك قوله: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم:٢٥] إذا دعاهم من السماء أجابوه بمفارقة الأجسام التي أسكنوها، ثم يدعوهم دعوة من الأرض، وبخاصة من الأجسام عند الإعادة، أجابوه إليها سراعًا أطاعه كل شيء وعبده كل موجود، فهو الذي لا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض، القنوت: الإمساك، والقنوت: الصمت، والقنوت: القيام، والقنوت: الخضوع والعبادة.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧] الضميرالذي في قوله: ﴿عَلَيْهِ﴾ عائد على المخلوق، والله أعلم بما ينزل؛ لأن المعهود في بدايته أن يقلبه في طبقات

التكوين على سنن التقليب في طبقات الأكوان، كما يكون الغذاء منيًا ثم يقره في الأرحام، ثم علقة ثم مضغة ثم عظامًا، ثم يكسو العظام لحما، ثم يُنشؤه خلقًا آخر إلى حال الاستواء، ليس كذلك في حكم الإعادة إنما في ﴿زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات:١٣ - ١٤].

قال الله سبحانه: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨] لذلك - وهو أعلم - قال: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الروم:٢٧] أي: ليس شيء عليه أهون من شيء، كل شيء عليه يسير.

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ [الروم:٢٨] المعنى إلى آخره[1] في قوله: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى﴾ [الروم:٢٧] عودٌ إلى ما في هذه الآية من معنى، وفيه أيضًا تبيين تنزيه وسبحانه وتقدس عن المعنى الذي عبر عنه بقوله: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [الروم:٢٨] إلى آخر المعنى، لما تنزل جلَّ جلاله وتعالى علاؤه وشأنه إلى ضرب المثل له بأنفسهم يقول جلَّ ذكره: هل سخت أنفسكم بأن تجعلوا لكم من عبيدكم وما ملكت أيمانكم شركاء فيما رزقناكم من أهل وولدٍ ومال فتملكونهم شطر ما ملكناكموه؛ حتى تكونوا أنتم وهم في ذلك سواء، فتخرجون أنفسكم بذلك عن حدِّ الملك الذي لكم فيهم.

و﴿تَخَافُونَهُمْ﴾ في ذلك ﴿كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ إشارة بقوله: ﴿أَنْفُسَكُمْ﴾ إلى الأكفاء والأحرار المالكين ملكهم ملكًا مطلقًا، ثم قال عز من قائل: ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم:٢٨].

أتبع ذلك ما هو في معناه، قوله عز من قائل: ﴿بَلِ أتبع الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللهُ﴾ [الروم:٢٩] هذا قول مفلج بالحجة البالغة، قد أحاطت الحجة بخصمه، ووقع القول عليه، لكنهم أبوا إلا مضيًا في لجاجهم وعمهًا في ضلالهم، فمن يهدي من أضل الله اليوم ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [الروم:٢٩] من عذاب الله غدًا، من قد سبق القول عليهم والعلم فيهم بأنهم للنار وبعمل أهل النار

---

(١) في (ف) إلى آخر المعنى.

يعملون، كيف به وهذا كله إثبات له وتعجيب من تحقيق شأنه وعلى أمره؟ فافهم.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢) وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤) أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (٣٥) وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (٣٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣٧) فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٣٨) وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩)﴾ [الروم: ٣٠ - ٣٩].

أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ الله الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾(١) [الروم:٣٠] دلَّه سبحانه وله الحمد على المبتغى والسبيل المرتضى، وهو

(١) (فِطْرَةَ) منصوب على المصدر، كقوله: (صِبغةَ الله) وقيل: منصوب بإضمار فعل تقديره: التزم فطرة الله، وقال الزمخشري: الزموا فطرة الله، أو عليكم فطرة الله، وإنما أضمرت على خطاب الجماعة لقوله: (منيبين إليه)، ومنيبين حال من الضمير في الزموا، وقوله: (وأقيموا)، (ولا تكونوا)، معطوف على هذا المضمر، وقيل: (فأقم وجهك)، المراد به: فأقيموا وجوهكم، وليس مخصوصًا بالرسول وحده، وكأنه خطاب لمفرد أريد به الجمع، أي: فأقم أيها المخاطب، ثم جمع على المعنى، لأنه لا يراد به مخاطب واحد، فإذا كان هذا، فقوله: (منيبين)، (وأقيموا)، (ولا تكونوا) ملحوظ فيه معنى الجمع، وقول الزمخشري: أو عليكم فطرة الله لا يجوز، لأن فيه حذف كلمة الإغراء، ولا يجوز حذفها؛ لأنه قد حذف الفعل وعوض عليك منه، فلو جاء حذفه لكان إجحافًا، إذ فيه حذف العوض والمعوض منه، والفطرة قيل: دين الإسلام، والناس مخصوصون بالمؤمنين، وقيل: العهد الذي أخذه الله
=

الدين القيم، به قامت السماوات والأرض وهو دين الإسلام، لو نازعه شيء لقصمه هو السلام - جل ذكره - ودينه الإسلام وعباده المسلمون، وهو المؤمن وعباده المؤمنون، والفطرة هو ما لقاه الخليقة يوم إيجاده إياها أولاً فأول[1] وقد جاء أن الله ﷻ لما خلق العالم نظر إليه نظرة فتزلزل من قواعده، ثم نظر إليه أخرى فكاد أن يزول عن مكانه، ثم نظر إليه أخرى فكاد أن يهمد، فدخله يومئذٍ من الخوف خوف لا يخرجه عنه أبدًا، وعرفه يومئذٍ معرفة لا ينبغي له أن يجهله بعدها أبدًا، وأقرَّ له يومئذٍ بالعبودية إقرارًا لا ينبغي له أن ينكره أبدًا، ثم كان بعد ذلك في جملته وراثة كما يكون في النسل.

وجاء أن الله - تبارك وتعالى - لما فرغ من خلقه يوم الجمعة أقبل يوم السبت على الكلام، فمدح نفسه بما هو أهله، فذكر عظمته وجبروته وكبرياءه وجلاله وسلطانه وقدرته وملكه وربوبيته، فأنصت له كل شيء، وأطرق له كل شيء في كلام كثير من التمجيد والتحميد، فهذا لقاءه يوم أوجده وفطره عليه - والله أعلم - وقد سمى رسول الله ﷺ وجبريل - عليه السلام - اللبن فطرة؛ لأنه أول ما يدخل جوف المولود وعليه يفطر فطره الأول من صومه الأول.

قوله ﷻ: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [الروم: ٣٠ - ٣١] ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ نصبٌ على الحال من الناس، التقدير: فطرة الله التي فطر الناس عليها منيبين إليه، والكل يعبده وإياه يريد وإليه ينيب، وإنما كان البعد من أجل ضلال السبيل.

فصل

الذي فرقوه من الدين وغيروه وبدلوه ليس بفطرة الله لهم التي فطرهم عليها،

على ذرية آدم حين أخرجهم نسمًا من ظهره ورجح الحذاق، إنها القابلية التي في الطفل للنظر في مصنوعات الله، والاستدلال بها على موجده، فيؤمن به ويتبع شرائعه، لكن قد تعرض له عوارض تصرفه عن ذلك، كتهويد أبويه له، وتنصيرهما، إغواء شياطين الإنس والجن. انظر [تفسير البحر المحيط (٩ /٨٣)].

(١) في (ف) و(خ) فأولاً.

بل ذلك هو كما أخبر الله عنه بطريق الحق المفطور عليه الخليقة لا تبديل له، وهذا الحق الموجود في جميع الموجودات هو أن كل شيء إليه صامد، وله قانت عابد، حتى الأمم العاتية والقرون الطاغية في أول جبلتها، حال سيرتها[1] وجهت هممها[2] نحوه ونوت قصده، فرمت بسهام هممها شطر سبيله، واعترضها اللعين المبلس دون ذلك، فاختلفت مسالكها اختلاف سهام رماه[3] الغرض منها الصادف والهادف، والقاصر والعائر، والزاني والصائب، والمقرطس قليل.

يقول الله - جل قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص:٢٤] وقال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣] هذه حال مبعثهم[4] ثم هؤلاء كلما حلَّ لهم الاضطرار وتكشطت عنهم ملابس العوافي رجعوا إليه بالتضرع والجوار، فإذا كشف الضرَّ عنهم رجعوا إلى ما كتب عليهم من الكفر به والتكذيب.

يقول الله - جل من قائل: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ [العنكبوت:٦٦] أي: فعلنا بهم ذلك من تنبيههم باضطرارهم؛ لنوقظهم من نومهم ونذكرهم في غفلتهم، ثم أرجعناهم إلى ما هم به راضون وعليه عاملون ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ ولله الحكمة الناهية والحجة البالغة، وهو العزيز الحكيم.

وقد دلَّ على ذلك حديث رسول الله ﷺ فيما رواه عن ربه - عز جلاله: «**إني خلقت عبادي كلهم حنفاء فأتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا**»[5] اجتالتهم: من الجولان، اجتالت الشياطين أنفسهم ثم أمروهم بذلك فاجتالوا معهم[6] وهو كجولان الفرس حول أخيته.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم:٣٠] أي: الذي أقام به السماوات والأرض، والقيمة[7]: هم الملائكة والأنبياء والمرسلون والمؤمنون المسلمون، ثم

---

(١) في (ف) سيرتها.
(٢) في (ف) سيرتها، وهممها.
(٣) في (ف) رماة.
(٤) في (ف) منبعثهم.
(٥) أخرجه أحمد (١٧٥١٩)، ومسلم (٢٨٦٥)، والطبراني (٩٨٧).
(٦) في (ف) منه.
(٧) في (ف) والقيامة.

جميع ما خلق الله من شيء.

فصل

وعبد قوم الشمس والقمر والنيّران[1] وذلك موجود آياته في هذه الدار على رؤيته - ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه - فضَلوا بعبادة الدليل دون المدلول عليه أو بإشراكهم به.

وعبد قوم الملائكة - عليهم السلام - والملائكة عباده المصطفون المخلصون، زعموا أنهم يشفعون لهم عند ربهم ﷻ فضَلوا بذلك، وإنما يشفعون لمن ارتضى ربهم ولمن أذن في شفاعته.

وعبد قوم عيسى ابن مريم وعُزيزًا والأحبار والرهبان؛ طمعًا في شفاعتهم، وكل ذلك لم ينزل به سلطانًا ولا كتابًا، ولا أرسل به رسولاً، ولا أذن لهم به، فضَلوا بذلك وبعدوا عن الحق، فصوَّروا الأوثان ونصبوا الأصنام وشبهوا على أنفسهم وأتباعهم.

وعبد قوم المصنوعات كان أولهم في ذلك؛ لأنها مفعولات لله، فعبدوها لذلك، فكان أحدهم متى كان في سفر لم يأخذ فيه أهبة لمعبوده بجمع وصمة من حجارة، فإن لم يجد حجارة جمع ترابًا، فجلب على ذلك عنزًا، ثم قعد يعبده ويسجد له، فكل له قانتون، والاختلاف في الهداية وإصابة الإذن ومخالفة الرضا منه - عز جلاله - وإنما نحن عباد مملوكون لا نملك شيئًا ولا نستحقه ولا نعلم ما يرضيه منا، فلا بد من الإذن والعلم بما فيه رضاه، وذلك يوجب إرسال الرسالة بما شاء - عز جلاله - فما أعظم نعمته علينا بإرساله الرسل وإنزاله الكتب، معلمين لنا بما هو رضاه وبما هو الصراط المستقيم، والحمد لله رب العالمين.

أتبع الكلام بمعنى ما تقدم قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم:٣٣] إلى: ﴿يَقْنَطُونَ﴾ [الروم:٣٦].

---

(١) في (ف) والنيرات.

قوله ﷻ: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الروم:٣٧] آيات على أنه الخافض الرافع القابض الباسط المقدم المؤخر، وآية على أنه المريد المدبر يفعل ما يشاء، وآية على أنه يخص من يشاء بفضله ورزقِهِ في دينٍ ودنيا قرب أو بعد، إنباءٍ ورسالةٍ وولايةٍ؛ لذلك قال عز من قائل: ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: بما في الدار الآخرة من قبضٍ وبسطٍ وتقديمٍ وتأخيرٍ وإعطاءٍ ومنعٍ إلى غير ذلك.

قوله تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ﴾ [الروم:٤٠] أخبر الله - جل ذكره - أنه الرازق كما أنه الخالق، وكما هو المميت كذلك المحيي، وقرن بين هذه الأربع في قرنٍ واحد مع تركيب الحكمة والقدرة، كما قرن بين المبدئ والمعيد، فكيف يختلف حكم ذلك أو يتبعض حكمها لظهور الأسباب ووجود الأواسط؟

وكما يقبح أن تضيف إلى واحد أنه هو الذي خلقك أو هو الذي يحييك أو يميتك، فكذلك يقبح أن تضيف إلى أحد[1] أنه يرزقك، لا تقل: رزقني فلان، كما أنك لا تقول: خلقني وأحياني فلان، فإن ذلك يقبح عند المؤمنين والموقنين، وإن تساهل بعض الناس في ذلك، ألا ترى أن الله - جل ذكره - نفى الرزق عن سواه كما نفى الخلق عن سواه بقوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر:٣].

أراد - جل ذكره - أن يعلمنا بأحسن بيان اقتران الرزق بالخلق، وأنهما سببان[2] عن القدرة والمشيئة، وقد جاء أن الله - جل ذكره - قال: «**أأخلق خلقًا ولا أرزقه**»[3] وهذا معلوم ببداية العقول أن العاقل يعلم يقينًا أنه لم يكن له على الله أن يرزقه، فلما خلقه ضمن رزقه قال رسول الله ﷺ: «**لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد**»[4] وإنما الأسباب والأواسط من الأول -

---

(١) في (ف) واحد.

(٢) في (ف) يتبينان.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١٢٢٣٢).

(٤) أخرجه البخاري (٨٤٤)، ومسلم (١٣٦٦).

جل ذكره - مثل الآلة بيد الصانع.

ألا ترى أنه لا يقال: الشفرة حذب البغل، ولا السوط ضرب العبد، ولا القلم كتب الكتاب، وإنما يقال: الحذُّ أحذى البغل[١]، وفلان كتب الكتاب، وإن كانت اليد والشفرة المباشرة للمفعول، كذلك الخليقة يباشرون الأسباب في ظاهر العيان، والله من ورائهم محيط، هو الفاعل بلطائف القدرة وخفايا المشيئة.

فصل

ذكر تعالى الأسباب؛ لأن الأسماء متعلقة بها، والأحكام عائدة على الأسماء بالثواب والعقاب، وقد تيقن المتوكل أن ما هو له فهو إليه واصل، وأن رزقه عنه غير فائت لا محالة، لا يكون لغيره أبدًا، وكذلك ما يكون لغيره لا يكون له أبدًا، فقد نظر إلى حظه من ذلك بعين يقينه الذي تولاه وكيله العزيز الرحيم من أحد ثلاث مشاهدات:

- ينظر العبد إلى قسمه من العطاء وجميع ما يصيبه أو يفوته، فهو إذًا شاهد الصحيفة المثبتة له، عند تصوير خلقته رأى أن قد كتب فيها له رزقه وأجله وأثره وشقي أو سعيد.

- فإن ارتفعت مشاهدته نظر إلى اللوح المحفوظ، وأنه لا يزداد فيه ولا ينقص بحول ولا قوة، كذلك حظه من الآخرة من جنة أو نار لا بد له من مثال حظه من ذلك، وإن عمل أي عمل بعد أن يكون قد كتب في اللوح المحفوظ هو قوله للقلم: «**اكتب ما هو كائن**»[٢].

- ثم إن علت مشاهدته إلى العلي الأعلى لعلو المرتبة ونفاذ العلم وقوة اليقين وضياء النور في باطنه؛ إذ مشاهدة كل عبد عن مقامه من معبوده، ومن مكانه في دنوه أو علوه، وقوله - جل ذكره: «**اكتب علمي في خلقي**»[٣].

---

(١) الحذب لغة في الجذب للشيء.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٣٤٣٨).

فصل

فقد كُتبت الأرزاق والحظوظ والآثار من كل شيء كتابًا واحدًا في مواضع ثلاثة؛ توكيدًا للعلم، وتسكينًا للقلوب في القسم في الذكر، ثم في الزبر الأول وهي الصحف، ثم في حين خلقه، ثم أنزل ذلك في كتابنا هذا الذي عرفنا به ما سلف من ذلك، وقال لقمان لابنه: يا بني للإيمان أربعة أركان لا يصلح الإيمان إلا بهن كما لا يصلح الجسد إلا باليدين والرجلين: التوكل على الله ومبعثه(١) والتسليم لقضاء الله، والتفويض إلى الله، والرضا بقدر الله تعالى.

فصل

وأصل التوكل ومنبعثه: معرفة الله، ثم أخذ النفس بآداب التوكل.

قال الله ﷻ: ﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران:١٢٢].

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق:٣].

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال:٤٩] يعطي بعزه ويمنع بحكمه، فيعتز العبد بعزه، من توجه إليه وعوَّل بنيّته عليه ويرضى بحكمه.

فإذا شهد العبد الذليل الملك الجليل قائمًا بالملك والتدبير والتقدير عنده خزائن كل شيء ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد:٨] لا ينزله إلا بقدر معلوم، وشاهده قابضًا على نواصي المماليك، له خزائن السماوات من الأحكام والأقدار الغائبات، وله خزائن الأرض من الأيدي والقلوب والأسباب المشاهدات.

فمن خزائن السماوات: ما قسمه من الرزق ووزعه من الحظوظ، ومن خزائن الأرض: ما جعله على أيدي الخلق ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات:٢٢] ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات:٢٠] فأيقن العبد أن في يد وكيله ملكوت السماوات والأرض، وأنه يملك السمع والأبصار والأفئدة، يقلب القلوب والأيدي تقليب الليل والنهار، وأنه حسن التدبير والحكم لا سيما للموقنين، وأنه أحكم الحاكمين.

---

(١) في (خ) منبعثه.

هناك قوى العبد فنظر ربه وعز بقوته واستغنى بعزته وشرف بحضوره عنده، كما جاء في الخبر: «**كفى باليقين غنى**»[١] فنظر إليه في كل شيء، ووثق به في كل ما ينوب، واعتمد عليه دون ما سواه، وقنع منه بأدنى شيء، وصبر عليه ورضي عنه، لا يطمع في سواه ولا يرجو إلا إياه، ولا يشهد في العطاء كله إلا يده، ولا يرى في المنع إلا حكمته، ولا يعاين في القبض والبسط سوى قدرته، فيومئذٍ حقت عبادته وخلص توحيده، فعرف الخلق من معرفة خالقه، وطلب الرزق عند رازقه، وشهد بشهادة ربه جل من شاهد وقال.

يقول الله عز من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأعراف:١٩٤] ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت:١٧] ومن شأن هؤلاء أنهم لا يحمدون خلقًا ولا يمدحونه؛ لأنه أعطاهم، ولا يذمونه؛ لأنه منعهم، فمتى ذموا أو مدحوا فلموافقة الله - جل ذكره - من حيث أن الله مدح المنفقين والمحسنين نهاية في كرمه، وذم الباخلين والعاصين قدرة من حكمته وحكمًا من تقديره؛ لإظهار الأحكام وتفصيل الحلال من الحرام، وعود الثواب والعقاب على الأيام؛ لعلمه أن الله ﷻ أظهر الأمر واستأثر بسر القدر، فعمل العبد بما أمر، وسلم له ما استأثر به، أطلنا الكلام في هذا المعنى لمسيس الحاجة إلى التشبث[٢] بأوصافه؛ ولأن عمدته التوحيد.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ

(١) أخرجه أحمد في الزهد (ص ١٧٦)، والقضاعي (١٤١٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٥٥٦).

(٢) في (ف) التثبت.

عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَلِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الروم: ٤٠ - ٤٦].

قال الله - جل ذكره - معقبًا لما تقدم ذكره ﷺ عما يشركون قوله ﷻ: ﴿ظَهَرَ الفَسَادُ فِي البَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(١) [الروم:٤١] أخبر الله - جل ثناؤه - أن كل ما أصاب البر والبحر والمدن والقرى والقلوب والجوارح من فساد ومكروه، فإنما ذلك عقاب يعاقب به من شاء تنبيهه من عباده لعلهم يرجعون، والترجي هنا واقع في جنبة العباد، فرع ربكم كل شيء عنده بمقدار.

فصل

السورة مكية، ووقت نزولها كان الضلال قد ضرب رواقه على أقطار البلاد وعم جميع العباد إلا من شاء الله، وذلك الوقت أفضل من أمسه الماضي، فكيف يقول أصدق القائلين: ﴿ظَهَرَ الفَسَادُ فِي البَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم:٤١]؟ المعنى إلى آخره، وهو يقول: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء:٨٠] إلى قوله: ﴿وَقُلْ جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ إِنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء:٨١] أي: عند مجيء الحق، أرى - والله أعلم بما

(١) قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الفَسَادُ فِي البَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ كالجدب والموتان وكثرة الحرق والغرق وإخفاق الصيادين ومحق البركات من كل شيء وقلة المنافع في الجملة وكثرة المضار. عن ابن عباس قال: أجدبت الأرض وانقطعت مادة البحر، وقالوا: إذا انقطع القطر عميت دواب البحر، وقال مجاهد: ظهر الفساد في البر بقتل ابن آدم أخاه وفي البحر بأخذ السفن غصبًا، وقتل ابن آدم أخاه هي أول معصية ظهرت في البر. قال الضحاك: كانت الأرض خضرة مونقة لا يأتي ابن آدم شجرة إلا وجد عليها ثمرة، وكان ماء البحر عذبًا، وكان لا يفترس الأسد البقرة ولا الذئب الغنم، فلما قتل قابيل هابيل أقشعر ما في الأرض وشاكت الأشجار، وصار ماء البحر ملحًا زعافًا وقصد الحيوان بعضه بعضًا، وذكر أن أول معصية في البحر غصب جلندي كل سفينة تمر عليه، فكأن تخصيص الأمرين بالذكر لذلك، وأيًّا ما كان فالبر والبحر على ظاهرهما. [تفسير الألوسي (١٥/٣٧٧)].

ينزل - أن ذلك إخبار منه مما تقدم في الأمم الخالية والقرون الماضية، وأن تلك هي سنة فيهم؛ لذلك - وهو أعلم - أتبعها بقوله: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ [الروم:٤٢].

فكان في ذلك تعريض بما هو مصيب هذه الأمة من إحاطة الفتن، وأن ذلك بما كسبت أيدي الناس، وأن دواء ذلك الداء بالتوجه لله بالدين القيّم، فالبدار البدار - رحمنا الله وإياكم - بالتوبة النصوح والعمل الصالح، وحسن الاقتداء بالرسول ﷺ والهرب من الخوض في أباطيلهم وتخليطهم حتى يأتي الله بأمره، إن الله على كل شيء قدير.

ثم أتبع ذلك قوله - جل من قائل: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ أي: فهو الدواء لهذا الداء ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم:٤٣] المعنى لقوله ﷻ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الروم:٤٦].

قال ﷻ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ ثم عطف بالواو و«لام» كي في قوله: ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ﴾ معنى ذلك - والله أعلم بما ينزل: مبشرات بفتح رحمته، وبالخصب من الجدب ليرزقكم، ويحيي به الأرض بعد موتها، ويصرفه في طرقات تصريفه وتكوين خلقته، وليذيقكم من رحمته، فعطف على هذا المطلع من شرف هذا المعتبر على معالم الجنان ورياض جنة الرضوان، اعتبارًا من فتح رحمته إلى محل دار أمانه ومنال رضوانه، واستعلامًا بإحيائه بلدة الميت من دار الحيوان، حيث لا موت ولا زوال وبموجودات ما يوجده من رحمته هنا على موجودات ما هنالك.

ثم قال: ﴿وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ﴾ آيات على وحدانيته، وأن تدبيره كل شيء كتدبيره شيئًا ما، وآيات على ما يحملهم فيه فيما هنالك من فلك وغيرها من مثله ما يركبون، ثم أرجع الخطاب ظاهرًا على معنى ما أبطنه بقوله: ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ في الأسفار من أرباح متاع الدنيا ومدخور[1] دار الآخرة ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

(١) في (ف) مدخورات.

[الروم:٤٦] فتنالوا الموعود الذي هي هذه آيات عليه.

فصل

إرسال الرياح في الأجواء آية على الوحدانية، هو الواجد في السماء الواحد في الأرض، أمره في الأرض كأمره في السماء، والريح عن الروح تلقح بها السحاب في الهواء، ويوجد فيها الماء، ينزله إلى الأرض ثم يصرفه إلى ما يصرفه إليه، فله الخلق والأمر، وهو العلي الأعلى.

وإرساله الرياح أيضًا آية على إرساله الرسل يرسلها مبشرات برحمته وعقابه، ويوجد عنها ما يكون من موجودات الآخرة، فأشبهت الرسل في بشارتها ونذارتها ثم يصرف وحيه إليهم بعد إلى ما يشاء من أمرٍ ونهي ووعد ووعيد بتوابع ذلك، وكما يرسل الرياح ليذيق العباد من رحمته الدنيوية، ثم يؤولها في حق من يشاء من عباده إلى رحمته الأخروية، كذلك يرسل رسله إلى العباد؛ ليذيقهم من رحمته الأخروية، ثم يؤولها في حق من يشاء إلى رحمته الدنيوية، وربما جمع لمن شاء رحمته فيهما.

وكما قد يهلك بالرياح كما فعل بقوم هود وأصحاب الظلة وغيرهم، كذلك قد ينجي بالمرسلين من آمن به وصدق المرسلين، ويهلك من أبى وعتى، وكما يرسل الرياح لتجري الفلك في البحر بأمره كذلك يرسل رسله إلى عباده؛ ليجريهم في بحر الدنيا بهدايته إلى الآخرة التي هي موضع عبورهم، وكذلك يرسل رسله إلى عباده ليبتغي عباده من فضله في الآخرة، وكما يرجى لهم أن يشكروه كذلك يخشى عليهم أن يكفروه.

يقول الله عز من قائل: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [الشورى:٣٣].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ۖ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾

﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الروم: ٤٧ - ٥٣].

أتبع ذلك قوله ﷻ ما هو في معناه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧] يريد - وهو أعلم بما ينزل - المؤمنين الذين معهم رسلهم، فأولئك ضمن الله نصرهم، كما قال عز من قائل: ﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة:٢١] يحفظون برسلهم - عليهم السلام - كما قال: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ فإذا ذهب الرسول عنهم فخلفوه حفظهم الله بحفظهم عهده كما قال: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال:٣٣] وقال: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة:٤٠] فإذا كثر الخبث والفساد استحقوا جزاء ذلك إلا أن يعفو الله الكريم.

قال الله، جل من قائل: ﴿ظَهَرَ الفَسَادُ فِي البَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١] ثم تسأل الله تعالى معافاته ومغفرته من المرابعة؛ إن لم يتدارك الله برحمته وإصلاحه[١].

قال رسول الله ﷺ: «**يردون موردًا واحدًا ويصدرون مصادر شتى**»[٢].

وفي أخرى: «**يبعثون على نياتهم**»[٣].

قوله ﷻ: ﴿اللهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ﴾[٤] [الروم:٤٨] وقال في سورة النور:

---

(١) في (ف) صلاحه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري (٢٠١٢)، وابن حبان (٦٧٥٥).

(٤) «كِسَفًا» جمع كسفة وهي القطعة، وفي قراءة الحسن وأبي جعفر وعبد الرحمن الأعرج وابن عامر «كِسْفا» بإسكان السين، وهي أيضًا جمع كسفة، كما يقال: سدرة وسدر، وعلى هذه

=

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ﴾ [النور:٤٣] أعلم الله ﷻ بهذا مشابهة الرياح الرسل، وإرساله إياها إرساله إياهم، وعرض بذكر السماء إلى أن رحمته المنزل منها هي في السماء؛ لذلك أخرج ثمرات كل شيء وجنات معروشات وغير معروشات.

كما أن الوحي ينزله من السماء فيخلق من طاعة العباد موجودات في الجنة، منها ما يشابه هذه بعض الشبه، ومنها مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، لما كان فيما تجيء به الرسل - عليهم السلام - ما هو التعريف بالله ﷻ وبأسمائه وصفاته والإيمان بذلك، وفيما تجيء به أيضًا ذكر الدنيا والزهد فيها وذكر الآخرة والرغبة فيها، كان عن جزاء ذلك في الجنة من معهود الدنيا، وكان فيها أيضًا ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، هذا في مقابلة معرفة الله والإيمان به، وذلك في مقابلة معهود الدنيا وجزاء الزهد فيها، ومعرفة الآخرة والرغبة فيها، حكمة من حكيم عليم لا إله إلا هو.

ثم قال عز من قائل: ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الروم:٤٨] الاستبشار مشترك بين أهل الدنيا وبين أهل الإيمان، يستبشر أهل الدنيا بالماء لما يخرج الله به من خيرات الأرض ونباتها، ويستبشر أهل الإيمان بما يصيبهم الله به من الوحي من علم بالله، ومعرفة ويقين بجزاء في دار الآخرة ولقاء الله - جل ذكره.

كما قال، جل من قائل: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللهِ وَفَضْلٍ﴾ [آل عمران:١٧١].

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

وروي أن الصحابة ﭫ قالوا: «كنا نقعد بعد صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ فنتذاكر أمور الجاهلية، فنضحك ورسول الله ﷺ يتبسم».

=

القراءة يكون المضمر الذي بعده عائدًا عليه؛ أي: فترى الودق أي المطر يخرج من خلال الكسف؛ لأن كل جمع بينه وبين واحده الهاء لا غير فالتذكير فيه حسن، ومن قرأ: «كسفًا» فالمضمر عنده عائد على السحاب، وفي قراءة الضحاك وأبي العالية وابن عباس: (فترى الودق يخرج من خلله) ويجوز أن يكون خلل جمع خلال. [تفسير القرطبي (١٤ /٤٤)].

ثم قال، عز من قائل: ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾ [الروم:٤٩] جمع هذا بين ظاهر ما أبطنه وباطن ما أظهره بتكرار لفظ القبل، تقدير الكلام والله أعلم بما ينزل: ﴿وَإِن كَانُوا﴾ أي: المؤمنين ﴿مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم﴾ الوحي ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ أي: مبعدين لما جاءهم به الوحي من التوحيد والعلم بالله واليقين بالدار الآخرة وبلقاء الله، ويمكن أن يكون معناه زائدًا إلى هذا لمبلسين؛ أي: داخلين في الإبلاس واللعن، كما يقال: «منجد ومتهم» لداخل نجد وتهامة، كما قال: ﴿وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران:١٠٣].

وأمَّا قوله - جل ذكره - من قبله؛ أي: من قبل إنزال الله الماء من السماء رجوعًا إلى ظاهر المثل، ويكون قد أبطن وصفهم فيكون يقظين أو ناسين، فيكون الضمير في قبله راجعًا على الغياث بالماء.

قوله تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم:٥٠] هذا الماء وقوله: ﴿إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللهِ﴾ يصلح أن يكون وصفًا للوحي أيضًا، فيكون المراد بالأرض: الأجسام والجوارح، وإحياؤها بالعمل بالطاعات والإيمان والإسلام، ويصلح أن يكون المراد: الأرض وما يخرجه[(١)] منها بالماء، وحسب الناظر إلى رحمة الله ما أصلح به من العباد؛ لذلك قال عز من قائل: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي المَوْتَى﴾ أي: من هؤلاء وهؤلاء ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم:٥٠].

ثم قال عز من قائل: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ يعني: الزرع والجنات، ويصلح أن يكون ريحًا من الأمر تهيج فتنة وبدعة وضلالة ﴿لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ [الروم:٥١] أتبع ذلك قوله: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ المَوْتَى﴾[(٢)] [الروم:٥٢] إلى قوله: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم:٥٤] أخبر - جل ذكره - بتدوار دوائر التقليب في أحوال

---

(١) في (خ) نخرجه.

(٢) قال المصنف: أي: لتنذر من كان حيًّا، والحياة أصل لكل صفة موجودة، والحياة لا تكون إلا بالروح، فإذا أيدت الحياة الروح رضي بالله ورضي الله عنه، ووجد طعم الإيمان ومذاقه بالمناجاة والإنس والروح وطيب عرف القرب. [شرح الأسماء ٢/٣٢٤].

الخلقة على العبد، وانتظم معناه بمعنى ما تقدم في صدور السورة من معنى ذلك، وقوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم﴾ [الروم:٨].

ونبَّه بقوله، وهو العليم القدير: ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ﴾ [الأنعام:٩٦] يريد تقديره في تدوار الدوائر هو العليم بمقاديرها وما يكونه عنها، وهو القدير على ذلك خلقًا وأمرًا، متى نظر العبد في نفسه، وتفكر في تركيبه وبدئه وعوده من حيث هو عبد مخلوق اهتدى، ومتى نظر إلى نفسه بعين رعونته، فإنه يبصر تقليبه في تكوينه وأصله ومم خلق، وأنه يعود بعد الاستواء والقوة إلى الهرم المقيد والشيخ المقعد المكنى بأرذل العمر، ثم الموت لا بد ولا محيص له عنه؛ فهذا هو دواؤه لوصف رعونته، والله هو الحي الدائم الواقي الباقي العليم القدير، لم يزل على ذلك ولا يزال ﷻ عما به يعدلون.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الروم: ٥٤ - ٦٠].

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ المُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ [الروم:٥٥] جاء هذا المعنى هكذا كقولهم: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أو ضُحَاهَا﴾[النازعات:٤٦] وجاء هذا المعنى في القرآن هكذا مختلف اللفظ متفق المعنى، وإنما ذلك - وهو أعلم - لما كانوا في الدنيا أمواتًا

بالجهل والكفر لعدم روح الإيمان لم يعلموا من أجل ذلك بالتوحيد، وما يجوز لله - جل ذكره - من نعوت التعالي وما لا يجوز أن يوصف به مما سوى ذلك، وكذلك لم يعلموا بالدار الآخرة ولا بلقاء الله - جل ذكره - وغير ذلك؛ فلذلك لما ماتوا لم يعلموا أيضًا بما أصابهم حال كونهم في البرزخ من تعذيب وآلام وأهوال مفزعات وما هنالك، وإن كانوا يباشرونه ويحسونه كما يحسون في الدنيا بأمراضها وأوصابها من حيث المراد بذلك منهم.

وقد كانت جهنم تغدو عليهم وتروح بفيح نفسيها، وفتح رحمة الله بعلمهم بأنعمه ومنته، وإن كانوا يحسون ذلك ويجدونه وجدًا لكنهم لم يعلموا به، بل أفكوا عن حقيقة المراد، ولم يسمعوا قرع الخطاب أصماخ أسماعهم، بل صموا عن سماع نداء الداعي يهتف بالكتاب، كذلك لما حيوا في الآخرة لم يعلموا بما لقوه في أثناء المدتين وإن كانوا قد شقوا بذلك وألموا.

فصل

آية ذلك: تأفيكهم في دار الدنيا عن علم حقيقة ما فطرت عليه أنفسهم من جسومهم من العلم الفطري، والسجود بالكره لله، والقنوت له، والعمل بطاعة الله، ومراده كرهًا وكونًا لا قصدًا ولا انتواء، وأين هذا من معرفتهم بأن الله - جل ذكره - هو خالقهم وخالق السماوات والأرض، ومالك الملك ومدبر الملكوت، يملك سمعهم وأبصارهم وقواهم، ثم هم على ذلك يؤفكون عن هذه الحقائق إلى الإيمان بباطل لا حقيقة له، ويدينون بالإذعان لصنعة أيديهم والخضوع والسجود لما ينحتونه، والعبادة لما لا يملك لهم نفعًا ولا ضرًا؛ ذلك قوله ﷻ: ﴿**كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ**﴾ [الروم:٥٥] أي: في الدنيا عن حقيقة المراد بهم شرعًا كما يؤفكون في الدار الآخرة عن العلم بما أحسوه من آلامهم، وطول إبقائهم[1] في مدة البرزخ في عذابهم، فما أعجب هذا الملك لله، وله الحمد وهو على كل شيء قدير.

أتبع ذلك بما هو إتمام له وتبيان، قوله - عز من قائل: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا**

---

(١) في (ف) بقائهم.

العِلْمَ﴾ [الروم:٥٦] أي: في الدنيا كذلك أوتوه في البرزخ، كذلك أوتوه في الحياة الآخرة، والإيمان معنى الحياة في البرزخ، وهي حياة الإيمان وهم المعنيون - والله أعلم بما ينزل - في قوله فيما حكاه عنهم حين قالوا: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أو بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ العَادِّينَ﴾ [المؤمنون:١١٣] فأهل العلم هم العادون.

فيقول أهل العلم ﴿وَالإِيمَانَ﴾ يومئذٍ ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللهِ﴾ أي: في علم الله وقضائه وقدره المسطور في الكتاب المبين ﴿إِلَى يَوْمِ البَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ البَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم:٥٦] يقول على فحوى الخطاب: فأورثكم ذلك عدم العلم في دار البرزخ، وأمَّا ما في الدار الآخرة، فهم في موضع العلم يقولون: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ [السجدة:١٢] يقول الله جل من قائل: ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ يعني الدار الآخرة، ﴿لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ﴾ [الروم:٥٧] بأنهم كانوا لا يعلمون، وإنما لم ينفعهم يومئذٍ الجهل وعدم العلم؛ لأنهم كانوا في العلم لو طلبوه وجدوه، والعلم كان في قلوبهم وذوات أنفسهم، لو تأملوه علموه، بل ضيعوه فأضاعهم.

أتبع ذلك قوله الحق: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا القُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الروم:٥٨] أعرب الجليل ﷻ أن قصصه الحق مع ما هو قصص هو أمثال مضروبة وحقائق أكثرها جليَّة ومنها خفية، فاطلبوا ذلك إن كنتم صادقين، وفي المظهر الجلي من ذلك ما يقطع العذر وتظهر به الحجة، ويستبين السبيل، وهم مع هذه الآيات البينات[1] ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ [الروم:٥٨] كما قال عنهم في غير هذا الموضع: ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الزخرف:٣٠] إنما تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا، والساحر مبطل، والصادُّ عن الحقيقة مبطل.

وأتبع ذلك ما هو معبر عن حُكمه فيهم الصادر عن علمه وحكمته قوله - جل من قائل: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم:٥٩].

ثم قال - عز من قائل - يؤنسه عن استجابتهم: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾ أي:

---

(١) في (ف) المبينات.

بالفتح عليك والنصر لك، وإظهار دينه على الدين كله، وهو أيضًا حق ما وعد به في الدار الآخرة من جزيل ثواب وكريم مآب لمن استجاب، وبالضد[1] لأهل الصد ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾[2] [الروم:٦٠] أمره بالثبوت على ما أيقن به وآمن كما قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية:١٨].

وفي باطن هذا الخطاب أمر للمستجيبين من عباده بالصبر والمجاهدة، ووعيد لأهل العلم شديد، ألا ترى أنهم - أعني: الكفار - لما لم يطلبوا العلم في الدنيا ولا استعملوا ما في فطرهم منه ولا تنبهوا إليه ولا تذكروه بالمذكرين، أخذوا من تلك الجهة وعذبوا ولم تقبل منهم المعذرة، ليس من علمٍ كمن لم يعلم، ولا من آمن وأيقن كمن لم يوقن، واعتبر ذلك باللاهين والمعتوهين، ومن لا تمييز عنده ولا عقل له، والله المستعان.

---

(١) في (ف) وبالصد.

(٢) أي: لا يحملنك على الخفة، ويستفزنك عن دينك، وما أنت عليه، الذين لا يوقنون بالله، ولا يصدقون أنبياءه، ولا يؤمنون بكتبه، والخطاب للنبي ﷺ يقال: استخف فلان فلانًا؛ أي: استجهله حتى حمله على اتباعه في الغيّ، قرأ الجمهور: «يستخفنك» بالخاء المعجمة والفاء، وقرأ يعقوب وابن أبي إسحاق بحاء مهملة وقاف من الاستحقاق، والنهي في الآية من باب: لا أرينك ها هنا. [فتح القدير (٥ /٤٨٢)].

تفسير سورة لقمان(1)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾﴾ [لقمان: ١ - ٧].

قوله جل ثناؤه: ﴿الم * تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ الحَكِيمِ﴾ [لقمان: ١ - ٢] تلك إشارة إلى حاضر وإلى متباعد، والمشار إليه ما عبر عنه قوله: ﴿الم﴾ وعلى الحقيقة فليس يبعد عن الله شيء من حيث المسافة، وإنما نِسْبَةُ القرب والبُعد عنه من حيث الولاية والبراءة، فما والاه فهو القريب، وما تبرأ منه فهو البعيد، بلى قد يوصف بالقرب ما هو موصوف بأنه عنده أو من لدنه من ذلك، قوله في القرآن: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الكِتَابِ

(١) هذه السورة مكية، قال ابن عباس: إلا ثلاث آيات أولهنّ: ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الأَرْضِ....﴾ وقال قتادة: إلا آيتين أوّلهما: ﴿وَلَوْ أَنَّ...﴾ إلى آخر الآيتين، وسبب نزولها أن قريشًا سألت عن قصة لقمان مع ابنه وعن بر والديه فنزلت، وقيل: نزلت بالمدينة إلا الآيات الثلاثة: ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الأَرْضِ....﴾ إلى آخرهنّ، لما نزل: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِنَ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلاً﴾ وقول اليهود: إن الله أنزل التوراة على موسى وخلفها فينا ومعنا، فقال الرسول: «التوراة وما فيها من الأنباء قليل في علم الله» فنزل: ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الأرض مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ﴾ ومناسبتها لما قبلها أنه قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ فأشار إلى ذلك بقوله: ﴿الم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ وكان في آخر تلك: ﴿وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ﴾ وهنا: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا﴾ وتلك إشارة إلى البعيد، فاحتمل أن يكون ذلك لبعد غايته وعلو شأنه. انظر: [تفسير البحر المحيط (٩ /٩٧)].

لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف:٤].

وقال في الملائكة: ﴿وَجَعَلُوا المَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا﴾ [الزخرف:١٩] فوصفهم بالعندية للخصوصية التي فارقوا بها الجن والإنس، كما قد يوصف بالبعد ما هو موصوف بأنه من غيره أو عند غيره وإن كان ذلك المشار إليه موصوفًا بالولاية من ذلك.

قوله - جل ثناؤه: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ [طه:١٧] ذلك لأنها كانت بيمين موسى عليه السلام وقال: ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ﴾ [القصص:٣٢] لما أعطاهما إياه أشار إليهما إشارة بُعدٍ، وإن كانتا من عنده - جل ذكره - كذلك قوله: ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ﴾ [الأعراف:٢٦] ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الحَكِيمِ﴾ [آل عمران:٥٨] عبر عنها بلفظ البُعْد لما أظهرها إلى الوجود ولكونها موجودة في قلب الرسول وفي ذكره، وكذلك أشار إشارة بُعدٍ إلى هذه الحروف لما فصلها من اللوح المحفوظ، فكان واسطة بين ما هنالك وبين حروف القرآن، وكذلك ما عبرت عنه مما هو مخرج إلى الوجود فعبر عنهن بإشارة اليمين؛ لأنها منفصلة عنه؛ أعني: موجودات ما عبر عنه مكتوب اللوح.

قوله ﷻ: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ [لقمان:٣] من اهتدى بهداية موجودات اللوح المحفوظ فهو من الموقنين، ومن اهتدى بهداية القرآن المبين فهو من المؤمنين، ومن اهتدى بهداية الرسول ﷺ فهو من المسلمين، ومن اهتدى بهداية هذه السبيل وسلك مسالك هذه المناهج كان من الصديقين؛ لأنه كثر تصديقه وصدقه، فصدق الله والرسول والكتابين، ثم صدق في العمل، وأشرك الوجود، والقرآن في الدلالة والإرشاد، وانفرد ظاهر القرآن بالبشارة والنذارة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ
وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن
تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ
﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ

مُّبِينٍ ﴿١١﴾ ﴾ [لقمان: ٨ - ١١].

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا...﴾ [لقمان:١٠] هذه وما شابهها من الخلق والأمر من موجودات الكتاب الحكيم عمدها إمساكه إياها وقيامها على ما هي عليه، هو بأمره لذلك وصف العمد بأنها غير مرئية لنا لا يجوز غير هذا، وقد تقدم الكلام في أن الوجود كله هو المثبت في اللوح المحفوظ؛ لقول الله - جل ذكره - للقلم: «**اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة**»[(١)] فمن شاء أن يقرأ اللوح المحفوظ فلينظر في الوجود، ومن شاء أن يقرأ عن ظهر قلب فلينظر في القرآن والغيب، هو ما لم يخرج بعد إلى الوجود من ذلك المكتوب، ومن الغيب أيضًا ما غاب عنك فلم تشاهده.

أتبع ذلك قوله جل ذكره: ﴿هَذَا خَلْقُ الله فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ [لقمان:١١] لا خالق إلا الله، هذا إصفاق من المؤمنين، ولكن الكافرون عن الحق يؤفكون، عبر عن ذلك قوله: ﴿بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [لقمان:١١].

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ [لقمان: ١٢ - ١٥].

قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلهِ﴾ [لقمان:١٢] المعنى إلى آخره، بيّن الله - جل ذكره - أن معنى الحكمة وسبيلها الشكر لله، وكل مروءة أو علم أو سيرة أو إصابة أو فهم أو فطنة أو إتقان إلى جميع معاني الحكمة التي

(١) أخرجه أحمد (٢٢٧٥٧)، وابن أبي شيبة (٣٥٩٢٢)، وابن جرير في تفسيره (١٧/٢٩)، والضياء (٤٣١).

تركبت عنها إذا عري ذلك عن الشكر لله ولم يقصد به ذلك، فليست بحكمة، والحكمة هي: الإتقان في العمل والإصابة في القول والرأي، والفطنة والفهم والسيرة والهيبة والسمت، وجميع الأوصاف والحلي، وإصابة الصواب في ذلك كله والإلهام.

أتبع ذلك قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾(1) [لقمان:١٣] الظلم: هو وضع الشيء في غير موضعه وإخراجه عن طريقه الذي جعل له، ولما ذكر لقمان ووعظه ابنه أخذ في التوصية بالأبوين، وجعل شكرهما منفصلاً من الشكر له ﷻ متصلاً به، وعقوقهما متصلاً بالكفر به، وأكثر التوصية بهما جدًّا وإن كانا كافرين، فليصاحبهما في الدنيا معروفًا، ولا يطعهما فيما يأمرانه به من الكفر والشرك بالله، وليتبع سبيل المنيبين إليه.

وفي هذا فحوى خطاب، وذلك أنه وصاه بشكرهما والبر بهما كافرين، فما ظنك بتوصيته بهما إذا كانا مؤمنين طائعين لله تعالى، ثم إن كانا في مقام من الحكمة والعلم أوجب عليه الدعاء لهما والاستغفار ووجبت عليه وظيفة أخرى من الشكر سوى ما تقدم قال الله ﷻ: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ [الأحقاف:١٥].

﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٖ مِّنْ خَرْدَلٖ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٖ فَخُورٖ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان: ١٦ - ١٩].

---

(١) قال بعضهم: وعظ لقمان ابنه في ابتداء وعظه على مجانبة الشرك، وهو التفرد للحق بالكل نفسًا وقلبًا وروحًا، فلا تشتغل بالنفس إلا بخدمته، ولا تلاحظ بالقلب سواه، ولا تشاهد بالروح غيره، وهو مقام التفريد في التوحيد.

ثم أرجع الخطاب إلى وصف وعظ لقمان ابنه، وأنه أوصاه بالتوكل على الله وحسن الظن به، وتصديق وعده والثقة بضمانه، وبإقام الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر على العمل بطاعة الله، والصبر عن محارمه، والصبر على المصاب كله، ومدح الصبر وقال إنه: ﴿مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [القمان:١٧] ثم أمره باجتناب الكبر ولزوم التواضع، والقصد في الأمور كلها في الهيئة والسيرة والشأن كله كذلك إلى آخر القصة، وهذه هي الحكمة علمًا وعملاً.

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾ [لقمان: ٢٠ - ٢٨].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [القمان:٢٠] هذا مما شملته كلمة ﴿أَلَمْ﴾ وما عبرت عنه من خلق وأمر، وقرئ «وأصبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة» الظاهرة: هي نعم النفع، والباطنة: نعم الدفع، والظاهرة: نعم الدنيا، والباطنة: نعم الآخرة، يعلم العبد إذا عدد نعم ربه وحاسب نفسه كثيرًا منها صحّةً وفراغ ونفسٍ دِيْنًا ودنيا وغنىً وعملاً صالحًا وذكرًا، وما كان من ذلك ونحا نحوه، ولا يعلم الأكثر مما يدافع عنه من البلاء والآفات، وما من بلية تصيب العبد إلا والله ﷻ موصوف بالقدرة على

الإتيان بأضعافها وبالضد.

أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [الحج:٨] هذا منتظم بما في أول الخطاب من قوله: ﴿اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد:٢] ولما جاوره من أكثر النعم المعني.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ أتبعوا مَا أَنزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أو لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ﴾ يعني: آبائهم ﴿إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [لقمان:٢١] هنا محذوف تقديره: يتبعونهم على ذلك، كقوله: ﴿أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٧٠] يتبعونهم على ذلك، فما انتظم من الكلام بقوله: ﴿اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ﴾ [الرعد:٢] هو منتظم بهداية اللوح المحفوظ، كما ما انتظم بقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ أتبعوا مَا أَنزَلَ اللهُ﴾ [البقرة:١٧٠] هو منتظم بهداية القرآن المبين، فافهم.

أتبع ذلك قوله - جل وعز: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ من أسلم وجهه إلى الله - جل ذكره - ائتمامًا بما خلقه الله من شيء وما فطره عليه، وأحسن في ذلك اتباعًا لرسوله واقتداءً به، وائتمارًا بما أمره به الوحي القرآن والسنة ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الوُثْقَى﴾ [لقمان:٢٢] وجمع في يده جامعة الهدى والصراط المستقيم من الوجودين الوحي والعالم، هذا لا يقع فيه اختلاف ولا زمن عقدته ولا تبدل سنته؛ إذ سنة الله لا تبديل لها ولا تحويل.

قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ﴾ [لقمان:٢٣] إلى قوله: ﴿عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان:٢٤] يقول، جل ذكره: ومن كفر بما أوجد الله عليه السماوات والأرض وما بينهما من عبادته والقنوت له والقيام بمقتضى أمره، وكذب بما جاء به رسوله وكتابه يقول: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ﴾ وعيد منه - جل ذكره - شديد ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ [لقمان:٢٣] المعنى إلى آخره.

أتبع ذلك قوله جل من قائل: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الحَمْدُ لِلهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان:٢٥] يقول - جل من قائل: هذا معتقدهم المؤسس عليه جبلتهم وعلمهم المغروز في أصل خلقتهم، وعلى ذلك هم يؤفكون، ويعدل بهم عن سبيل قصدهم، تمدح ﷻ بعظيم اقتداره على

أشرف الذوات إلى مشيئته، وإن كان في ذلك عطبهم الأبدي؛ إذ في ذلك إمضاء مشيئته وتصديق كلمته.

قوله تعالى: ﴿لِلهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [لقمان:٢٦] انتظم معنى هذا الخطاب بمعنى تمدحه على اقتداره وقهره الذوات، وسوقه إياها بمرادها إلى مراده منها وبها، ثم قال - جل من قائل: ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ﴾ [لقمان:٢٦] في مقابلة قوله: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ﴾ [لقمان:٢٣] أي: فإن هذا مرادنا الكوني منه، فافهم.

أتبع ذلك قوله الحق: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ﴾ [لقمان:٢٧] أخبر - جل ذكره - وهو أعلم بما ينزل في صدر السورة ومفتتحها بما حواه اللوح المحفوظ من خلق وأمر، وأخبر في هذه بما أوجد ذلك وهو كلمة.

قال الله عز من قائل: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل:٤٠] واستشهد بما يظهر من ذلك على وحدانيته وقدرته وعلمه وحياته، وعلى وجوده وقيوميته، وأخبر في هذه عن كلمة، وكلمته صفته، وصفاته لا تفنى ولا تبيد، والبحر وما ضوعف إليه وإن بولغ في التضعيف على جميع وجوده إلى أبعد غاياته، وزيد إلى ذلك إلى أقصى عدد العادين من أهل السماوات والأرضين، كل ذلك يفنى ويبيد، وصفاته العليا لا توصف بفناء، ولا يتوهم لها غاية ولا انتهاء، كيف وإنما جميع ما حواه اللوح المحفوظ هو كلمة من كلماته، أوجد من مقتضياتها ما شاء كيف شاء، وأضرب عن إيجاد ما لم يشأ إيجاده لما شاء؛ إذ قال للقلم: «**اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة**»[١] فحد له حدًّا بلغه إليه، وقال له: «**اكتب المقدار**» فأنهى له نهاية لم يعدها، وقال له: «**اكتب علمي في خلقي**»[٢] فمتى يفنى علمه أو يتصور نفاذ كلمه سبحانه لم يجعل لعباده من معرفته أعظم من الإقرار بأنه لا نهاية لمعرفته.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

أتبع ذلك ما هو بيان له قوله الحق: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان:٢٨] يريد، وهو أعلم: ما خلق جميعكم وبعثكم إلا كخلق نفس واحدة وبعثها، ثم دلَّ من أسمائه بما هو الحق يقول: هو السميع لكلامكم، البصير بجميعكم، بسمع واحد وبصر واحد، فكما يعلمكم بعلم واحد، لا يشغله شيء عن شيء، ذلك بأن جميعكم عنده كمعلوم واحد ومقدور واحد، وهو بكل شيء محيط.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾ [لقمان: ٢٩ - ٣٢].

أتبع ذلك أيضًا ما هو في معناه تبيانًا له، قوله - عز من قائل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [لقمان:٢٩] يقول: فيدخل في ذلك جميع التدبير الذي يقوم به أمر الدنيا.

ثم قال: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ يعلم إنما هما - أعني: الشمس والقمر - آية على أمر الآخرة، وأنهما آيتان على تجليه لعباده في الوعد الحق، والشمس والقمر وهما ينبعثان بسريان من سلطتنه، يطلعان على العباد والبلاد، فيرى الجميع كل واحد منهما من موضعه دون تساؤم ولا تضايق كما يراها الواحد منهم، وذكر الأجل المسمى هنا تعريضًا بأجل الآخرة الذي به يُديل منهما تجليه الكريم العلي ﴿وَأَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [لقمان:٢٩] أي: يعلم ذلك كله بعلم واحد، فأين النفاذ فيما ها هنا أو النهاية؟!.

أتبع ذلك قوله الحق: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ﴾ إشارة إلى ما تقدم، ثم حكم بحكم الحق الواجب وجوده بما تتقدم من الشواهد فعلاً من له الحجة البالغة قد

أدحض حجة خصمه، وأفلج بصحيح الدليل ونير البرهان: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ البَاطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ﴾[١] [لقمان:٣٠].

أتبع ذلك قوله عز من قائل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الفُلْكَ تَجْرِي فِي البَحْرِ بِنِعْمَةِ اللهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ﴾ [لقمان:٣١] هذا من معنى ما تقدم من قوله: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان:٢٨] جريان كل ما في داخل الفلك بجريانها

(١) قال المصنف: فصل في الشهادة بقوله: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ لما أعْلَمَ هذا المعنى المسمى بالحق الموجود في سنخ العالم وجبلة العقول بأن الله هو الحق المبين؛ أي: إنه هو الحق والإله الحق، والرب الحق، والمالك الحق والعلي الحق هكذا إلى جميع الأسماء والصفات على ما سيأتي ذكره مع ما تقدم منه، فإذا كان هو الحق المبين من جميع الجهات كلها والمعاني أجمعها قطعًا جزمًا، فإذا كل ما يدعا من دونه من إله فهو باطل، أي: مستحيل وجوده معلوم هذا ببداية العقول وضرورتها دون تردد منها ولا طلب واسطة ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [هود:٣٢].

واعلم أن وجود الباطل إنما كان بإيجاد من الحق المبين إياه؛ لأنه - جل ذكره - قسَّم الموجودات إذ أوجدها بين فتنته وذكر، فالحق في الموجودات من قبيل الذكر، والباطل من قبيل الفتنة، ووجوده عن وجود الحق الموجود أولاً بإيجاد من الحق المبين، واحذر هذه المزلة فهي بيننا وبين من زعم أن الله ﷻ ليس هو الموجد لكل موجود، فنسب إليه إيجاد الخير، ونفى عنه غير ذلك، وبين من نسب إليه فعل الجور والظلم على الإطلاق، تبارك وتعالى عمّا يقول الظالمون علوًا كبيرًا. والحق المبين ﷻ يحقق الموجود بتوليه إياه أو يبطله بتركه إياه وتخليه عنه، فإن وليه إيجادًا وجد فكان وجوده حقًّا، وإن وليه وجودًا وصفات تحقق في الوجود وكان من قبيل الذكر، وإن تخلى عنه من أي وجه كان بطل في تلك الجهة هو ليس شيء سواه. **فنقول**: القرآن حق، أي: حق نزوله، وحق هو من عند الله ﷻ، وحق ما جاء به، وحق من كل وجه؛ لأنه وليه - جل وعلا - من كل وجه، ونقول: النبي ﷺ حق كذلك، فإذا قلنا: الكفر حق، فمعنى ذلك أنه حق وجوده لا غير، وكذلك إبليس - لعنه الله - حق، والسحر حق، والدجال حق، أي: حق وجود ذلك كله؛ لأنه - تبارك وتعالى - أوجد ذلك فحق وجوده، ولما تخلى ذكره عنهم بالتوفيق والولاية في صفاتهم وأعمالهم وأسمائهم بطلت، ونقول: خروج الكفار من النار في الدار الآخرة باطل، وكذلك خروج أهل الجنة منها؛ لأنه لم يقل ذلك إيجادًا ولا صفة فبطل وكان معدومًا. وهاتان الشهادتان أعني قوله جل قوله: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج:٦٢] عبرت عنها شهادة ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، فأغنى ذلك عن إعادة الكلام فيها إيثارًا للاختصار مع ما تقدم ذكرها في غير هذا الاسم من الأسماء. [شرح الأسماء ١٠/٢].

يجريها الله - جل ذكره - فيجري بجريانها جميع ما حملته، كذلك ما خلق جملة المخلوقات المسمى بالعالم الكلي والعبد الكلي إلا كخلق نفس واحدة من العالم الجزئي، وكذلك في التدبير والإمساك وغير ذلك، لا يؤده شيء ولا يشغله، لا إله إلا هو العلي العظيم، فهذا من آياته المشار إليها في هذا الموضع، ونعمة الله المذكورة هنا هو حفظه وتيسيره الريح الطيبة بأمر النجاة، وفي الفلك آيات سوى هذا، قد تقدم ذكر بعضها.

أتبع ذلك قوله - جل وعز: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ﴾ [لقمان:٣٢] أي: يكون الموج لهم من فوقهم كالظلل فوق رؤوسهم، ذلك أشد الهول وأقطعه، وأهلك من هذا وصفه في قوله: ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ [يونس:٢٢] أي: من جهات الفلك ﴿دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [لقمان:٣٢] على ذلك جُبل الخليقة يدعونه على التوحيد تضرعًا وخيفة حال الاضطرار، ويكفرون ويشركون به حال العافية.

يقول - جل من قائل: ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ [لقمان:٣٢] وأكثرهم على ما قال: ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت:٦٥] فإتيان الرياح والأمر بما لا يوافق الفلك والمحمولين فيه مثال الإتيان: الأقدار والأسباب، فمن القدر وأهوال الموج مثال لمكروهات الدنيا ومحنها لهذا وما هو أكثر من هذا، قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ أي: على مر الأقدار وشدتها ﴿شَكُورٍ﴾ [لقمان:٣١] على حلوها ومحبوبها وعلى هاتين الحالتين ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ﴾ [لقمان:٣٢] للعهد المأخوذ به عليه، ثم لما يعطيه في حال الاضطرار من عهود ومواثيق ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس:٢٢] فيكون بذلك ﴿كَفُورٍ﴾ [لقمان:٣٢] لإيمانه الممتزج بأمشاجه المركب عليه أركانه.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى

نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان: ٣٣ - ٣٤].

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿الغَرُورُ﴾ [لقمان:٣٣] قرئ بفتح الغين وضمها، والمراد بالفتح: اسم الشيطان كان من الجن أو من الإنس، فهو غَرُور، وبالضم: فهو فعل للغَرَر مِنْ غَرَّ يَغُرُّ غُرُوْرًا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لقمان:٣٤] إلى آخر السورة، رجع الكلام إلى معنى وصف الله بالوجود العلي في أثناء السورة، يقول - جل من قائل: ﴿إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي: على التوقيت والتحقيق ألا يعلم من خلق، وقد أعلمنا بأشراطها وأمارات اقترابها، لكنه قال: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف:١٨٧] ولما أعلمنا به من الأشراط والأمارات قال: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه:١٥] فمعنى المقاربة يحصل بين هذين المعنيين، لم يعلمنا بيوم وقوعها ولا ساعة يومئذٍ، ولولا ما أعلمنا به من الأمارات لم نعلم من شأنها شيئًا.

ثم قال: ﴿وَيُنَزِّلُ الغَيْثَ﴾[١] [لقمان:٣٤] أخبر عن قدرته ومشيئته، فإن أحدًا لا يقدر على ذلك ولا يعلم متى يشاؤه، وقد جعل على ذلك أيضًا أمارات وعلامات كأيام الشتاء دون أيام الصيف على الأكثر والأغلب، وكذلك مطالع الأنواء في مجرى العوائد لفتح الله برحمته على عباده عند ذلك على الأغلب، والله يفعل ما يشاء كقول رسول الله - صلوات الله عليه وسلامه: «**إِذَا أَنْشَأَتْ بَحْرِيَّةً ثُمَّ تَشَاءَمَتْ فَتِلْكَ عَيْنٌ غُدَيْقَة**»[٢] ولا يكون غيثًا إلا في أوانه وعند الحاجة إليه.

وكذلك قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ﴾ [لقمان:٣٤] أنبأ - جل ثناؤه - عن علمه وخبره بما في أرحام النساء وأرحام الأرض وغيابات الغيوب، وإن كان قد جعل على بعض ذلك علامات وأمارات تعرف بعد تجارب وامتحان، وإن كانت

---

(١) قرأ الجمهور: (وينزل الغيث) مشددًا، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي مخففًا، وقرأ الجمهور: (بأيّ أرض) وقرأ أبيّ بن كعب وموسى الأهوازي: «بأية» وجوّز ذلك الفراء وهي لغة ضعيفة، قال الأخفش: يجوز أن يقال: مررت بجارية أيّ جارية، قال الزجاج: من ادّعى أنه يعلم شيئًا من هذه الخمس فقد كفر بالقرآن لأنه خالفه. [فتح القدير (٤٩٨/٥)].

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٧٧٥٧)، ومالك (٤٥٢).

هذه تزيد في الاستغلاق على ما تقدم ذكره.

ثم قال عز من قائل: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان:٣٤] هاتان أكثر استغلاقًا مما تقدم، فحقيقة قول رسول الله ﷺ: «خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللهُ»(١) أي: لا يعلمها على الإحاطة بها والتحقيق لها وإن اختلفت في طرق العلم منا إليها في الخفاء والكشف.

(١) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (١٠٦).

تفسير سورة السجدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الم (١) تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٤) يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٥)﴾ [السجدة: ١ - ٥].

قد تقدم الكلام في معنى: ﴿تنزيل الكتاب﴾ [السجدة:٢] وأنه بمثابة التبيين والتيسير قربه ونزله مما هو كلامه العظيم إلى ما هو لنا تلاوة ومنا قراءة، ومما هو كتاب القلم الأعلى في اللوح المحفوظ إلى ما هو كتابة لنا والمكتوب والمتلقى المحفوظ هو كلام الله صفة من صفاته، غير مباينة له ولا مفارقة لذاته، والذي ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [السجدة:٢] هو الكتاب المحفوظ، وقد ارتاب في القرآن من لم يرد الله - جل ذكره - تيسيره للإيمان به، وإنما قال: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ ثم قال: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧] يسر له، ثم إن كان هذا المدكر إدكاره على التحقيق المراد منه بهذا القرآن، وعلمه حق لا شك ولا مرية فيه ولا ريب عنده في أنه ﴿مِن﴾ عند الله ﴿رَّبِّ العَالَمِينَ﴾ [السجدة:٢].

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ [السجدة:٣] قد يكون «أم» بمعنى «بل» تقدير الكلام: بل يقولون افتراه، ويكون بمعنى ألف الاستفهام كأنه قال: أيقولون افتراه؟ وهي لغة يمانية، أو يكون معنى الكلام: تنزيل الكتاب لا ريب فيه أيؤمنون به أيصدقونه؟ فإنه إنما جاء بما لا ريب فيه أم يقولون افتراه، ثم ردَّ عليهم قولهم بالافتراء فقال: ﴿بَلْ هُوَ الحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [السجدة:٣] هذا الترجي بالهداية لمن قد سبق له بذلك القول من الله -

جل ثناؤه.

فصل

جاء عن رسول الله ﷺ أنه كان يقرأ كل ليلة سورة السجدة وسورة الملك، وجاء عنه أنه كان كثيرًا ما يقرأ يوم الجمعة في صلاة الفجر سورة السجدة، ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ﴾ [الإنسان:١].

أمَّا قراءته سورة الملك فيما جعل الله - جل ذكره - فيها من كفاية عذاب القبر والليل آية على الموت على ما سيأتي ذكره، كما أن وقت صلاة الفجر آية على دار البرزخ، وربما أتى ذكر شأن ذلك في أولى المواضع به إن شاء الله؛ إذ وجود نعيم القبر وعذابه هو في حين مدة البرزخ.

وأمَّا سورة الإنسان والسجدة: فلما ذكر الله - جل وعز - فيها من الستة أيام، ومعنى ﴿الم﴾ [السجدة:١] وما اشتملت عليه من خلق وأمر، وقد تقدم ذكر الستة أيام في الباب الجامع من اسم «الشهيد» ولما فيهما أيضًا من البشارة وذكر الثواب على أعمال الطاعات؛ إذ يوم الجمعة هو سابع الأيام الستة الزمانية التي خلق الله السماوات والأرض وما بينهما في مثالها، والأجير إذا أتم عمله استحق أجره، ويوم الجمعة فيه تقوم الساعة هو آخر الأيام والدنيا موضع الإيمان بالغيب.

قال الله عز من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك:١٢].

﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ۝٩ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ۝١٠ ۞قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ۝١١﴾ [السجدة: ٦ - ١١].

قوله تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ * يُدَبِّرُ الأَمْرَ

مِنَ السَّمَاءِ إلى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ * ذَلِكَ عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ (١) [السجدة:٤ - ٦] إلى قوله: ﴿قَلِيلا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة:٩] من نظر إلى مبتدأ السورة انتظم له جميع ما ذكره بما هنالك، جاء عن رسول الله ﷺ: «**أن ما بين السماء الدنيا والأرض مسيرة خمسمائة عام**»(٢) فهذه ألف عام بين نزول وصعود لو كان ذلك على معهود يسيرها، لكن يعرج إليه الأمر في غير زمان.

قال رسول الله ﷺ:«**يرفع الله عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل**»(٣).

فصل

أخبر الصادق الحق أن الملائكة تعرج إليه بالأمر من الأرض إلى السماء، وتنزل من السماء إلى الأرض، والسماء المذكورة هنا هي سماء الدنيا دليل ذلك ما أخبر به من المقدار كما أخبر رسول الله ﷺ وانتهاء العروج والصعود العرش وإلى العرش؛ لقوله: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ استَوَى عَلَى العَرْشِ﴾ [السجدة:٤] ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ [السجدة:٥].

وكثير ما جاء في الكتب المتقدمة والعلم الأول أن حملة العرش أربعة أملاك:

أحدهم: كالإنسان.

والآخر كالثور.

والثالث: كالأسد.

والرابع: كالنسر.

---

(١) قال الكلبي ومقاتل في قوله تعالى ﴿استَوَى عَلَى العَرْشِ﴾: استقر. وقال أبو عبيدة: صعد. وأولت المعتزلة الاستواء بالاستيلاء، وأما أهل السنة فيقولون: الاستواء على العرش صفة لله تعالى، بلا كيف، يجب على الرجل الإيمان به، ويكل العلم فيه إلى الله ﷻ. [تفسير البغوي (٣/٢٣٥)].

(٢) أخرجه الحارث في مسنده (٢/٦٥٤)، وأبو الشيخ في العظمة (١/٢٠٧).

(٣) أخرجه مسلم (١٧٩) وابن ماجة (١٩٥) وأحمد (١٩٦٤٩) وأبو عوانة (٣٧٩) وابن حبان (٢٦٦)، والطبراني في الأوسط (٦٠٢٥).

وجاء من طريق عن العباس بن عبد المطلب أن رسول الله ﷺ كان جالسًا يومًا بالبطحاء، واستاق حديثًا معناه إخبار عما دون السماء الدنيا من سماوات: «**إِنَّ بُعْدَ مَا بين السماء والسماء إِمَّا وَاحِدَةٌ أَوْ اثْنَتَانِ أَوْ ثَلَاثٌ وَسَبْعُونَ سَنَةً**» هكذا جاء بما فيه من لفظه أو قال: «**وما بين السماء والأرض**» يعني: من هذه السماوات «**كَذَلِكَ حَتَّى عَدد سَبْعَ سَمَاوَاتٍ**» على ذلك، ثم قال: «**وما فَوْقَ السماء السَّابِعَةِ نحو أعلاه وأسفله كما بين السماء إلى السماء، وفوق ذلك ثمانية أو عال بين أظلافهن وركبهن كما بين سماء إلى سماء**» قال: «**وفوق ظهورهن العرش من أسفله إلى أعلاه كما بين سماء إلى سماء والله ﷻ فوق ذلك**»[1].

فالعرش العظيم فوق السبع السماوات العُلا والكرسي الكريم، ثم لكل سماء عرش، ولا ارتياب من قوله : ﷺ «ما بين أسفله وأعلاه كما بين سماء إلى سماء» فإنما هو أمر يضيفه إلى نفسه، ووصف نفسه بالاستواء عليه، كما أضاف البيت الحرام في الأرض إلى نفسه، والبيوت لا تسعه وإنما تسعه مشيئته، فهو لذلك حيث شاء يوجد لا يمتنع عليه شيء ولا يبعد لديه أمر شاءه، ولكل سماء عرش ينزل منه الأمر ويصعد إليه، ولكل عرش كرسي تنفصل عنه الأحكام، والانتهاء إلى العرش العلي العظيم والكرسي الكريم، ثم إلى ربك المنتهى.

ومن صفات العرش المنسوب إلى الله، جل ذكره: أنه بحيث لا حيث ولا أين، وإن كان فيما يقال: إنه حيث ومكان وأين، وكذلك الكرسي، فاعلم ذلك بل كل مكان وأين يسبحه ويقدسه عن الافتقار إلى الحيث والأين، وقد قال رسول الله ﷺ: «**ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا فيقول من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له...**»[2].

وقال أيضًا: «**إذا صلى العبد فإن الرحمن - وفي أخرى: فإن الله - قِبَل وجهه إذا صلى**»[3].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٢٣)، وابن ماجة (١٩٣)، وأحمد (١٧٧٠)، والضياء (٤٦٢).

(٢) أخرجه مالك (٤٩٨)، وأحمد (١٠٣١٨)، والبخاري (١٠٩٤)، ومسلم (٧٥٨)، وأبو داود (١٣١٥)، والترمذي (٣٤٩٨) وابن ماجة (١٣٦٦)، وعبد الله بن أحمد في السنة (١١٠٢).

(٣) أخرجه مالك (٤٥٧)، والبخاري (٣٩٨)، ومسلم (٥٤٧)، والنسائي (٧٢٤).

وقال الله - عز من قائل: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [السجدة:٤] خلق كل شيء وسواه على ما شاءه من أمر وخلق، فكل شيء مسوى بتسويته إياه، والموجودات بعد في أنفسها متفاضلة، فمنها متساوية ومنها غير متساوية، وهو المسوي المستوي على العرش، وباستوائه على العرش سوى كل شيء واستوى.

يقول الله جل من قائل: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد:٤].

وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة:٧].

وقال - عز من قائل: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس:٦١].

فتدبر - وفقنا الله وإياك - ما تلوناه بتحقق بأنه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه في كل مكان بما هو ومع كل موجود بما هو - جل ذكره - لا بما هو المكان ولا بما هو الموجود، وهو ﷻ لا يوجد إلا في سماء وإلا وهو مستوٍ على العرش، ولا يخلو عنه مكان، ولا يبعد عنه شهود، وهو لا يكون إلا على عرشه له المثل الأعلى، آية ذلك الشمس والقمر يكونان في محالهما من بروجهما علوًا والضياء والنور موجودان عنهما حيث حلَّ ذلك من كل واحد منهما ﴿وَللهِ المَثَلُ الأَعْلَى﴾ في السماوات والأرض﴿وهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ [النحل:٦٠] ومع هذا فلا ينزل الأمر عنه إلا من علو ولا يصعد إليه إلا من سفل حيثما كان، فهو العلا والعلو، ومن تدبر ما ذكرنا بإيمان وعقل صائب وجد الأمر على ما قدمناه ﴿وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

ولا يبعدن عليك - يسرك الله لليسرى - فهم هذه العبارة عما نحن بسبيله، فإنك بالضرورة أو بأيسر نظر تعلم ألَّا أين في حيث لا أين حق يقين، ثم لا أين في حيث الأين في حق من لا يجوز عليه الأين أجود أتم وجودًا من لا أين في حق من

لا يجوز عليه إلا الأين، فأين مكان الروح في الجسم؟ وكذلك العقل والفهم والعلم وغير ذلك.

فإن قلنا: إنه في الجسم، فأين مسكنه وموضع وجوده منه؟ فإن أشرت إلى عضو من أعضاء الجسم كالقلب أو الدماغ أو غيرهما لم تجد له فيما هنالك سوى منبعث أحكام تعرف به ويعرف بها، حتى لو عدمت تلك الأحكام والأفعال لم تجد سبيلاً إلى معرفة وجوده بعدها، وكذلك غيره من الصفات، وإلا فإذا فني الجسم وخرج هذا المشار إليه منه فأين هو؟ وإلى حيث يتحيز، وهذه آيات على المطلوب الأعلى.

قال الله - جل من قائل: ﴿أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم﴾ [الروم:٨].

وقال: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات:٢١].

وقال: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية:٤] فافهم، فهمنا الله وإياك عنه، فإن أطراف الكلام جمعت إليك وقربت لك حقائق التوحيد ببراهين الوحي.

أتبع ذلك ما هو في معناه قوله - جل قوله: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [السجدة:٦] لما كان الحي القيوم هو المستوي على العرش والعرش محيط بالجملة به، وبالاستواء كان في كل مكان بلا مكان يعلم الشهادة والغيب، ولا غيب في حقه، هو العزيز الذي لا يلحقه أحكام المخلوقات ولا تناله أوصاف المحدثات، الرحيم بعباده المؤمني.

فصل

فوجه الجمع بين ما قاله رسول الله ﷺ من ذكره أن: «**الثمانية الأوعال تحمل عرش السماء الدنيا**»[1] وما جاء من ذلك في الكتب الأول، وبين ما جاء في معهود كتابنا والوحي الذي أنزل إلينا، كقول الله ﷻ: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر:٧] المعنى إلى

---

(١) أخرجه بنحوه أحمد (١٧٧٠) والترمذي (٣٣٢٠) وقال: حسن غريب. وأبو يعلى (٦٧١٣) والحاكم (٣١٣٧) وابن ماجة (١٩٣) وابن عدي (٧/٢٠٠ ترجمة ٢١٠٤ يحيى بن العلاء الرازي).

آخره، وأن إسرافيل وميكائيل من حملة العرش، وقيل جبريل وعزرائيل - على جميعهم صلوات الله وسلامه - أو كما هو في علم الله تعالى ثم في علمهم - عليهم السلام - فإن ما هنالك دار الحيوان وحرمه الأفق المبين، وأن ما ها هنا دار الموت وما لا يوصف بما يوصف به ما هنالك.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السجدة:٧] أي: خلق كل شيء يمكن أن يكون المعني بقوله: ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ جملة المخلوقات كذلك.

قال وقوله الحق: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:٢] أي: خلق الجملة، وهو كل شيء وهو المقدر أحسن تقدير؛ أي: خلقه على صورة آدم عليه السلام كما خلق آدم على صورته - جل ذكره - ويمكن أن يكون المراد المعني بذلك كل شيء ينشأ نشئًا أي: خلق فأحسن ما خلقه.

والمعنيان مجتمعان في الصحة معًا على إرادته منه ومشيئته به، فخلق الملك والإنسان في أحسن تقويم، وخلق القرد والخنزير والحيات والعقارب والجندب والصرار والخنفساء وبنات وردان على ما أراد كلامه، أسلك ذلك كله مدرجته فاستن في سبل الحكمة سنن مرتبته منها، فرغ من ذلك في يوم الخميس من أيام الدهر، وكل شيء خلقه فقد سواه على مراده منه وبه.

ثم قال - عز من قائل: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة:٧] خلقه يوم الجمعة بعد العصر في آخر ساعة من النهار، ما بين العصر إلى الليل ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة:٨] النسل مأخوذ من النسول، وهو سير سهل، ومنه النسلان ضرب من المشي، شبه بذلك خروج المني من الصلب والترائب من الزوجين، وهو راجع إلى ما كان عنه أبوه وهو الطين؛ إذ الغذاء مخلوق عنه المني والغذاء عن النبات والأنعام، وذلك كله أصله الماء والتراب، وهما إذا امتزجا كان مجموعهما طينًا[1].

---

(١) أفاد المصنف بقوله: مثله في القرآن كثير شائع، فأعلمه تعالى أنه جعل أصله من التراب الذي جعله للأقدام مداسًا وللنعال موطئًا، ثم جعل خلقه بعد من ماء مهين لا حراك به ولا انتصار له، تقدره نفس الإنسان وتغسل منه الثياب، وأكد ذلك عنده بأن أوجب عليه غسل بدنه كله من ذلك لعلة خروجها منه؛ إعلامًا له بأصله وتنبيهًا بقدره. خطب رسول الله ﷺ =

﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ﴾ [السجدة:٩] هذا معطوف على قوله: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة:٧] لأنه موضع الخصوص، وإن كان كل حي فلا بد من نفخ الروح فيه، فربما كان ذلك بواسطة الملك، وهو الأكثر والأغلب، ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة:٩] هنا سبيل سابلة ودلالة واضحة للنظر في المسألة المتقدمة من خلقه السماوات والأرض وتسويتهن، ثم استوى على العرش، فما استوى آدم عليه السلام إلا بأن نفخ فيه من روحه، ولا استوى الاستواء العام من ذريته حتى ركب فيه الروح، ثم أتم استواءه حين تمام عقله وكمال حلمه وقوته وتمام ذلك في المحسن.

قال الله - جل وعز: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ ثم قال ﷻ: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص: ١٤] أتبع ذلك قوله: ﴿وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي

=

يومًا فقال في خطبته وبصق في كفه يقول الله ﷻ: «**أتعجزني يا ابن آدم وإنما خلقتك من مثل هذا**» ثم أبرزه بعد ذلك وأقره في قرار وجمعه في وعاء وغذاه بغذاء لو أبصره بعينه وشاهده بعقله لسخنت بذلك عينه وانزوت عند ذلك نفسه، ثم قدر خروجه عن مستقره ذلك من حيث يعلم لا يستطيع إنكار شيء من ذلك، ولا يمكنه جحده كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه كثيرًا ما كان يقول في خطبته: أيتكبر أحدكم وقد خرج من مخرج البول مرتين. ثم بعد هذا ألزمه ذلك ذل الفقر إليه فلا يقوم ولا يقعد ولا يتحرك ولا يسكن من ذات نفسه بل بمعونة من بارئه ﷻ، وهو مع ذلك تنقض عزائمه وترد إرادته وتنعقب أعماله وتترقب أحواله وتحصى أنفاسه، مزموم بزمام القدر مثقف بإلزام مقتضى الأمر والنهي، مملوك الأولية والآخرية، مصور الظاهر على غير اختياره، مجهول الباطن قد ألزمه الذل العتيد والفقر القعيد ذل الفقر إلى الطعام والشراب وذل إخراجه، ويكفى بذلك ذلاً مهينًا، ثم جعله يتنخم على فيه شيئًا إذا نظر إلى ما خرج من فيه قذارة وأشاح بوجهه عنه نزاهة منه وإبعادًا له، وإلى هذا جعل المخاط على فمه في وسط وجهه الذي هو أعز الأعضاء عليه، وجعل الوسخ في أظافره والوضوء على جلده، والقلح في أسنانه، والشعث في شعره، والسهك في بشرته ما لم ينظف، والقذى في عينيه إلى غير ذلك من أقذاره. وكذلك أذله بالخوف اللازم لا يكاد يخلو منه على حال ما كان معدودًا في أهل التمييز؛ لأنه إن لم يهتم بآخرته اهتم لدنياه ولا محالة، وأذله أيضًا بالمرض وبالموت وبالفقر فهو يتغلب ولا يأمن مخافته طرفة عين يتوقع أبدًا ميتة تفاجئه أو بَليّة تنزل به أو فتنة تضله ومحبوبًا يفقده أو مطلوبًا يفوته، وكل مكروه يتوقعه قد جعل لكل هذا عرضًا إلا ما دفع الله كل ذلك من الله عليه؛ ليعرفه قدره فينبه على رشده، وجعل هذا كله آيات على مكروهات تصيبه إن لم تحطه رعاية من ربه جَلَّ ذِكْرُهُ. [١٨٠/١].

الأَرْضِ﴾[السجدة: ١٠] وقرئ بفتح اللام وكسرها، وقرئ بالصاد مكان الضاد، بمعنى: أنتنا من صل يصل، إذا أنتن وتغير، ويروى عن علي بن أبي طالب «ضلِلنا» بكسر اللام؛ أي: صرنا ترابًا أعظموا أن يُعيْدَهم الله على ذلك من حالهم وأبعدوا ذلك.

يقول الله ﷻ: وعلى هذا التبيان الذي تقدم قالوا: ﴿أئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ﴾ المعنى: ولو تذكروا بالبداية الإعادة لأصابوا، يقول الله - جل من قائل: ﴿بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ «بل» للإضراب، وإنما أضرب عن [...][1] سوء فعالهم، يقول ﷻ: ﴿بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ [السجدة:١٠] فغطوا لذلك على الحق.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾﴾ [السجدة: ١٢ - ١٨].

أتبع ذلك قوله الحق: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة:١٣] يقول - جل من قائل: لم يعجزني هدايتهم ولا أفاتوني أنفسهم وأعمالهم ﴿وَلَكِنْ حَقَّ القَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة:١٣] وذلك يوم قال - جل من قائل - لإبليس، لعنه الله: اذهب فمن تبعك منهم ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص:٨٥].

وقال ذلك لما سبق من قوله الحق: «**هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون**»[2]

(١) غير واضحة في (خ)، وغير موجودة في (ف).

(٢) أخرجه مالك (١٥٩٣)، وأحمد (٣١١) والبخاري في التاريخ الكبير (٩٧/٨) وأبو داود =

وقال ذلك وفعله لحكمته البالغة وحجته القاهرة؛ ذلك لأنه الملك الحق الحكيم العليم، قدرهم يوم كانوا في علمه وقدرته ومشيئته على مقداراتهم، لو أدخلهم النار وعذبوا فيها ألف عام أو أكثر فاستغاثوا واستعتبوا وضمنوا من أنفسهم التوبة وحسن الاستجابة فأخرجهم منها لعادوا لما نهوا عنه، وليبين بذلك كذبهم في دعواهم، ووهنهم في غرضهم، وعجزهم عن مرادهم، ذلك وكما خلق السماوات والأرض وما بينهما بالحق، ومن الحق صدق كلماته ومضاء مشيئته وإحاطة قدرته وعلمه.

كذلك ما تقدم ذكره من إمضاء مشيئته في إضلالهم وتصييره إياهم إلى العذاب، هو من ذلك الحق المخلوق به السماوات والأرض، وكما شهدت له الموجودات بالوحدانية والألوهية وسائر الأسماء الحسنى والصفات العلا، كذلك قدر هذا وأوجبه وأظهر كونه؛ ليشهد له بالقدرة القاهرة والمشيئة الماضية وعزم الأمر العلي، وكما سجد له كل شيء، وقنت له كل شيء، وخضع له كل شيء، كذلك يسجد له الكفار بكفرهم وقنتوا له وخضعوا له بذواتهم رضيًا منهم بعطائه وتسليمًا لقضائه وهم لا يشعرون، بل يقاتلون عليه ويقتلون صبرًا لأجله وهم لا يعلمون.

يقول الله - جل من قائل - متى أظهر قهره لهم وقدرته عليهم فيما هذا سبيله: ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف:٨٧] ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلا﴾ [الإسراء:٤٨] إنما يعجب رسوله ﷺ وعلماء عباده من عظيم قهره وشأنه الذوات بسلطانه ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ﴾ [هود:١٢٣].

﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ﴾ فيهديهم، ولا ولي ينصرهم ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦] سبحانه وله الحمد، فافهم، فهمنا الله وإياك عنه.

قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ

=

(٤٧٠٣) والترمذي (٣٠٧٥) وقال: حسن. والنسائي في الكبرى (١١١٩٠) وابن جرير في تفسيره (١١٣/٩) وابن حبان (٦١٦٦) والآجري (ص ١٧٠) والبيهقي في الأسماء والصفات (ص ٣٢٥) والحاكم (٧٤) والضياء (٢٨٩).

الخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[١] [السجدة:١٤] دخولهم النار - أعاذنا الله منها برحمته - بكفرهم وتبعيتهم إبليس - لعنه الله - وذوقهم آلام العذاب لاستعذابهم المعاصي والكفران والجحد، وعصبيتهم في التبعية، وتولي بعضهم بعضًا على ذلك، ونسيان الله إياهم فيها؛ أي: تركهم على ذلك؛ لنسيانهم لقاء الله واليوم الآخر، وسمى الله ﷻ تركه إياهم فيما هنالك نسيانًا، وهو الذي لا يضل ولا ينسى جزاءً لنسيانهم ما ذكروا به في تذكير الله والرسل والوحي إياهم، ونسيانهم لفطرهم المغروزة في أصل أمشاجهم وتركيب أركانهم، يذكرونه عند اضطرارهم وينسونه عند العوافي والرجوع مع أنفسهم، إن ربكم لعليم حكيم، وخلودهم فيها مادامت السماوات والأرض لتركهم النظر والاعتبار بالحق المخلوق به السماوات والأرض، وكفرهم بربهم الدائم الباقي الذي لا حول يلحقه ولا زوال.

يقول الله - جل من قائل: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٤] أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [السجدة:١٥] أعرب ﷻ عما تقدم ذكره من التأويل، الإنسان لا بد ناسي، فإذا ذُكّر ذَكر، فهم إذا ذُكروا بآيات ربهم من سجود الموجودات وسجود الأئمة - عليهم السلام - كالملائكة والنبيين والمرسلين ذَكروا فسجدوا، وسارعوا إلى ذلك أو أمروا بالسجود أطاعوا ليس كالمبلس الملعون ﴿أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٣٤].

أتبع ذلك من نعتهم قوله - جل ذكره: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ المَضَاجِعِ﴾ التجافي: الترفع، جَفَا الزبَدُ: ارتفع، وجفاني فلان: ترفع عليَّ وهجرني فعلاً أو قولاً،

---

(١) الفاء في قوله: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هذا﴾ لترتيب الأمر بالذوق على ما قبله، والباء في «بما» للسببية، وفيه إشعار بأن تعذيبهم ليس لمجرد سبق القول المتقدّم، بل بذاك وهذا، واختلف في النسيان المذكور هنا؛ فقيل: هو النسيان الحقيقي وهو الذي يزول عنده الذكر، وقيل: هو الترك، والمعنى على الأوّل: إنهم لم يعملوا لذلك اليوم فكانوا كالناسين له الذين لا يذكرونه، وعلى الثاني: لا بدّ من تقدير مضاف قبل لقاء؛ أي: ذوقوا بسبب ترككم لما أمرتكم به عذاب لقاء يومكم هذا، ورجح الثاني المبرد ويحيى بن سلام [فتح القدير (٦/ ٦ - ٧)].

وهي ها هنا عبارة عن قيام الليل مجازة، يهجرون مضاجعهم لأجلي، ويستصحبون ذلك ويداومون عليه، و﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة:١٦] هذا في مقابلة الإباء والاستكبار والتجلي، وقيام الليل عمل يعم نفعه عامله، ومن أنفق مما رزقه الله فقد أفاض من نفعه على من سواه فهو كمال، فلذلك ما قرن الله الصلاة بالزكاة في غير ما موضع، فأكمل الله لهم ثوابه ورفع ما رزقهم فوق العلم، وأربى ما أتاهم على الأماني.

يقول الله - جل من قائل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧] كانت أعمالهم بالفرائض جهرًا صلاةً وزكاةً وصيامًا وحجًا وشهادةً، وكان قيام الليل وصدقات قدموها وأذكار التزموها وأعمال احتسبوها سرًا، فأثابهم على ذلك فيما هنالك مثالات ومسميات مما عهدوه خيرًا وأبقى، وأثابهم أيضًا ما لم يعهدوا له مثالاً، ولا سمعوا له باسم، ولا خطر لهم ببال، أسروا كما جهروا، فأسر لهم كما جهر ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾ [النبأ:٢٦] صدق الله وبلغت رسله، والحمد لله رب العالمين.

﴿ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾
وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ
ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ
ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ
ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَـٰهُ
هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا
يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾
[السجدة: ١٩ - ٢٥].

قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ﴾ [السجدة: ٢٣] هذا الضمير في ﴿لِّقَائِهِ﴾ يجوز أن يعود على موسى عليه السلام وقد رآه ليلة أسري به وسَيراه في الدار الآخرة، وهو يراه اليوم في الدار الوسطى التي هم اليوم فيها زائدًا على ذلك، والأوجه أن يكون عائدًا على الله - جل ذكره - فينتظم بقوله: ﴿بَلْ هُم بِلِقَاءِ

رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ [السجدة:١٠].

ثم جعل يظهر ذلك معنى ويبطنه إلى قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ [السجدة: ١٢] إلى قوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة: ١٣] إلى قوله: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [السجدة: ١٤] إلى قوله في صنف الأبرار - رضي الله عن جميعهم: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: ١٦] إلى قوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧] ثم من ذكره المؤمن والفاسق وما يلقى هذا وهذا يوم لقائه.

ثم قال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [السجدة:٢٢] وهو من معنى الإيمان بلقاء الله - جل ذكره - ثم قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ﴾ أي: من لقاء ربك - عز جلاله - كما فعل هؤلاء وبالمجاورة ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ﴾ [السجدة:٢٣] من لقاء موسى.

قال رسول الله ﷺ: «تحاج آدم وموسى عند ربهما...»[1].

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوٓا إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [السجدة: ٢٦ - ٣٠].

قوله ﷻ: ﴿أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ [السجدة:٢٦] انتظم معنى هذه الآية بمعنى ما تقدم ذكره من وصف الكافرين من قولهم: ﴿أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [السجدة:١٠] ثم كذلك من انثناء ذكرهم بذكر الأبرار، ثم قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ أَفَلا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة:٢٦] لما كان المعتبر به من مضى وسلف وبديار خربت وآثار

---

(١) أخرجه مسلم (٦٩١٣).

دثرت، ومن الناس من سار في الأرض ومشي، ورأى الآثار وأبصر الخراب فأخبر، قال يخاطب بذلك من لم يسر في الأرض: ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة:٢٦].

ثم قال: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ المَاءَ إلى الأَرْضِ الجُرُزِ﴾ [السجدة:٢٧] هي التي تهشم نبتها وماتت لبُعد عهدها بالماء، وقيل: لها جُرُز لكثرة استدعائها الماء من ذلك، الجرازة لفظ يعبر به عن لزوم الجوع وكثرة النهامة، فيستدعي لذلك الطعام والشراب ﴿فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ﴾[1] [السجدة:٢٧] إشارة إلى أنه خلقهم عن ذلك ولم تكن الأرض جرزًا إلا بعد تهشيم نبتها وتحطم زرعها، وفي ذلك دلالة على الموت.

ثم قوله: ﴿نَسُوقُ المَاءَ إلى الأَرْضِ الجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ﴾ [السجدة:٢٧] دلالة على الإحياء بعد الإماتة إلى غير ذلك من دلالاته بالماء والأرض والرياح المرسلة في الأجواء على اختزانهم في خزائن السماوات والأرض، وإنزالهم وإخراجهم بالماء والأمر، تبارك الله أحسن الخالقين، ولما كان أكثر هذا مدركًا بحواس الأبصار قال: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة:٢٧].

أتبع ذلك قولهم: ﴿مَتَى هَذَا الفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [السجدة:٢٨] الفتح: الحكم، ويقال للحاكم: الفتاح.

يقول الله جل من قائل: ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ﴾ [السجدة:٢٩] يوم الفتح، هو يوم موت أحدهم ويوم القيامة.

يقول الله - جل من قائل: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي: قد بلغت ما عليك إلا البلاغ ﴿وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ [السجدة:٣٠] انتظر ذلك اليوم إنهم منتظرون، قرئ بفتح الظاء وكسرها.

(١) قدَّم الأنعام على الأنفس في الأكل؛ لوجوه: **أحدها**: إن الزرع أول ما ينبت يصلح للدواب ولا يصلح للإنسان، **والثاني**: وهو أن الزرع غذاء الدواب وهو لا بد منه، وأما غذاء الإنسان فقد يحصل من الحيوان، فكأن الحيوان يأكل الزرع، ثم الإنسان يأكل من الحيوان. **الثالث**: إشارة إلى أن الأكل من ذوات الدواب والإنسان يأكل بحيوانيته أو بما فيه من القوة العقلية فكماله بالعبادة. [تفسير الرازي (١٢/٣٢٠)].

تفسير سورة الأحزاب

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا
﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ
وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى
تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ
وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ
فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ
قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ
أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ
وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ
مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾ [الأحزاب: ١ - ٦].

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ﴾[1] [الأحزاب:١] هذه الآيات إلى قوله:

---

(١) نزلت في أبي سفيان بن حرب، وعكرمة بن أبي جهل، وأبي الأعور وعمرو بن سفيان السُّلَمي؛ وذلك أنهم قدموا المدينة فنزلوا على عبد الله بن أُبي بن سلول رأس المنافقين بعد قتال أحد، وقد أعطاهم النبي ﷺ الأمان على أن يكلموه، فقام معهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وطعمة بن أبيرق، فقالوا للنبي ﷺ وعنده عمر بن الخطاب: ارفض ذكر آلهتنا اللات والعزى ومناة، وقل: إن لها شفاعة لمن عبدها وندعك وربك. فشقَّ على النبي ﷺ قولهم، فقال عمر: يا رسول الله ائذن لنا في قتلهم، فقال: إني قد أعطيتهم الأمان، فقال عمر: اخرجوا في لعنة الله وغضبه، فأمر النبي ﷺ عمر أن يخرجهم من المدينة فأنزل الله تعالى هذه الآية. [تفسير البغوي (٣١٢/٦)].

﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ [الأحزاب:٦] مضمن هذا منتظم بمعنى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا﴾ [الأحزاب:٣٦] إلى قوله: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ [الأحزاب:٣٧] إلى قوله: ﴿وَلَكِن رَّسُولَ الله وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب:٤٠].

ثم ذكر النساء من أزواجه وما أحله له منهن ومن شأنهن كله وحجابهن، وأمره بما أمره به من شأنهن من التخيير، والحجاب والتوصية لهن بما تضمنته متصل بذكر ما تقدم، ثم ذكره المنافقين والكافرين، وما كان منهم من قول وفعل مذكور في هذه السورة، وما عابهم به في ذلك كله، ثم مع ذلك ذكره المؤمنين ووصفه إياهم بما وصفهم به، ولأجل ذكره المنافقين والكافرين.

فصل

كانت زينب بنت جحش - رضي الله عنها - زوجًا لزيد بن حارثة، وكان زيد فيما ذكر في صحيح ما جاء قد أعتقه رسول الله ﷺ ثم تبناه على ما كانت العرب تفعله ينسب الدَعِي منهم إلى من تبناه، فكان يقال له: زيد بن محمد، وزيد ابن رسول الله، قبل أن ينزل الله - جل ذكره - في شأنه ما أنزله، وكانت هذه زينب بنت جحش ابنة عمة رسول الله ﷺ ورضي عنها، فلما أيمت من زوجها خطبها رسول الله ﷺ على زيد بن حارثة فكرهت ذاك، فقال لها رسول الله ﷺ: تزوجيه فإن في ذلك خيرًا، وفي علم الله - جل ذكره - أنه سيردها على رسوله لوجه من الحكمة صحيح، محكم عند حلول الأجل المقدر عنده، وذلك من ردها عليه بعد نزول الآية التي في سورة النساء الكبرى، قوله ﷻ: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ [النساء:٢٣] إلى قوله: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَلِكُمْ﴾ [النساء:٢٤].

ثم من خفي لطفه لما شاء من إنفاذه حكمته لما بلغ الأمد، نهض رسول الله ﷺ إلى منزل زيد بن حارثة يطلبه لبعض حاجاته، فأعلمته زينب - رضي الله عنها - أنه غائب، فأوقع الله في نفسه منها شيئًا، فكان من قوله على ما ذكر وهو منصرف: «**سبحان مقلب القلوب**» - وفي أخرى: «**يا مقلب القلوب**»[١] - ثم أوقع الله في نفس

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٨٦٤).

زيد فراقها، فأتى إلى رسول الله يشكو من زينب كبرًا وإذاية بلسانها وبذكر فراقها، وقال: لا حاجة لي بها، ورسول الله ﷺ يقول له: «**اتق الله وأمسك عليك زوجك**»(١).

يريد - والله أعلم - بقوله: «**اتق الله**» لا تغتبها بذكر إذاية وكبر ونحو هذا أو يكون معناه: اتقِ الله في نفسك، ربما احتجت إلى زوجك واحتاجت إليك، فأمسك عليك زوجك أو ما يكون معناه هذا، فكان في نكاح رسول الله ﷺ إياها من حكمة الله ورحمته أن بيّن به تحليل أزواج الأدعياء والعزم على إظهار التبرئة من بنوتهم وإلحاقهم بالإخوان في الدين والموالي.

قال رسول الله ﷺ: «**من انتسب إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فالجنة عليه حرام**»(٢).

وعزم الله لنبيه في نكاحها بعد تمام عدتها، فطفق ناس من المنافقين والمشركين والكفار من يهود وغيرهم يتحدثون بذلك ويخوضون في تعييبه، فأنزل الله - جل وعز - على رسوله هذه السورة: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ وَلَا تُطِعِ الكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ**﴾ يقول: امضِ لأمرك الذي أمرت به وأبيح لك، ولا تطع الكافرين والمنافقين فيما يعيبون من ذلك ويخوضون فيه ﴿**إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا**﴾ بما كان من نكاح زيد إياها، وما هو كائن من نكاحك إياها ﴿**حَكِيمًا**﴾ [الأحزاب:١] فيما أراده من ذلك لمن يستدرك أمرًا لم يعلمه قبل ولا وضع شيئًا إلا في موضعه من حكمته، إنما فعل ذلك لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرًا.

أتبع ذلك ما هو في معناه قوله: ﴿**وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ**﴾ [الأحزاب: ٢] يقول: أعرض عنهم ولا يصدنك عما أوحي إليك ﴿**إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا * وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً**﴾ [الأحزاب:٢ - ٣] أي: اسأله الكفاية فكفى به كافيًا وواقيًا.

---

(١) أخرجه ابن عدي في الكامل (٣/٣١٦).

(٢) أخرجه بنحوه ابن ماجة (٢٦٠٩).

أتبع ذلك قوله: ﴿مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾[١] قلب يخاف الله به ويطيعه، وقلب يخاف به الناس ويراعي شأنهم، ثم أنشأ - جل ذكره - برد الحقائق إلى أماكنها، ويبطل ما أصلوه بأقوالهم وأفعالهم بقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ يقول الله جل من قائل: ﴿ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ﴾ أي: ينبئ بالوجود على ما هو عليه وقول الألسنة لا يحيل الحقائق عن مواضعها ﴿وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤] اتصل هذا القول بإبطال كل باطل زعموه وضلال تكلموا به وانتحلوه.

أتبع ذلك قوله: ﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللهِ﴾ أي: أعدل وأقوم ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾ [الأحزاب:٥] المولى قد يكون الناصر ويكون ابن العم ويكون المعتق، ويقال له: المولى الأعلى، ويكون المعتق وهو الأسفل.

أتبع ذلك قوله - جل وعز: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب:٦] فانتظم بما تقدم ذكره من المحاجة عنه والنصرة له مما خاضوا فيه من أمره وعابوه عليه، فأعلم - جل ذكره - عباده المؤمنين أن النبي أولى بهم من أنفسهم، فكيف يجوز لهم اختيار مع قضائه وأمره منهم يخالف أمره، وقد قال - عز من قائل في مثل هذا: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥] وجعل ذلك منهم معصية، بل كفرًا وضلالاً عن القصد.

ثم قال: ﴿وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ [الأحزاب:٦] يقول - عز من قائل: ثم بعد ولاية الرسول إياهم ولاية أولي الأرحام أولى من ولاية سائر المؤمنين والمهاجرين، هذا في الوراثة والصلاة

---

(١) أخرج أحمد والترمذي وحسنه وغيرهما عن ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما - قال: قام النبي ﷺ يومًا يصلي فخطر خطرة، فقال المنافقون الذين يصلون معه: ألا ترى أن له قلبين قلبًا معكم وقلبًا معهم فنزلت، وفي رواية عنه ﷺ صلى رسول الله ﷺ صلاة فسها فيها فخطرت منه كلمة فسمعها المنافقون، فأكثروا فقالوا: إن له قلبين ألم تسمعوا إلى قوله وكلامه في الصلاة؟! إن له قلبًا معكم وقلبًا مع أصحابه فنزلت. [تفسير الألوسي (٣٢/١٦)].

عليه والإنكاح إلى غير ذلك، ثم ولاية المؤمنين بعد ذلك لمن عدم القريب وولي الرحم.

ثم قال - عز من قائل: ﴿إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا﴾ [الأحزاب:٦] يعني: من المؤمنين والمهاجرين ومن القرابة، المحجوبين عن الوراثة بغيرهم، وكذلك في النصرة والصدقة والهبة وغير ذلك من المعروف يقول ﷻ: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ [الأحزاب:٦] لهذا وجهان:

أحدهما: أن هذا المشار إليه من نكاح رسول الله ﷺ زينب والحكم فيه والأمر به والنصرة له في ذلك ممن عابه به وخاض في شأنه مسطورًا في اللوح المحفوظ مثبتًا، لا تبديل له ولا تغيير.

والثاني: أنه من فعل إلى وليه معروفًا أُثبت له في صحيفة حسناته وكتاب أعماله وكل ذلك في الكتاب الأول مسطور.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الأحزاب: ٧ - ١٢].

قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا * لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الأحزاب:٧ - ٨] هذا منتظم بذكر أخذ الميثاق والعهد حيث كان وبخاصة في هذه السورة ما يخص معنى ما أنزلت من أجله.

يقول - وهو أعلم بما ينزل: إنما أنت نبي من الأنبياء ورسول من الرسل، أخذنا عليك الميثاق والعهد كما أخذناه منهم، وكما أخذنا ميثاقهم أخذنا ميثاق

أممهم لهم؛ ليؤمنن بهم ولينصرنهم كل أمة مأخوذ عليها الميثاق لرسولها، ورسولها مأخوذ عليه الميثاق بالتبليغ والنصيحة، والميثاق المأخوذ على الجميع هو أن يقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه، والمقصود بهذا هو أن أحدًا لا اعتراض له على نبيه ولا خلاف ولا مؤاخذة على رسوله في حكم من الأحكام في خاصة نفسه أو في عامتهم، بل عليه ما حمل وعليهم ما حملوا، ومن أطاع رسوله فقد اهتدى.

أتبع ذلك قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾(1) [الأحزاب:٩] لما ذكر المنافقين والكافرين وصنيعهم وخوضهم مع الخائضين ذكر المؤمنين نعمة ربه قبلهم، يقول: ﴿إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ يعني: الأحزاب، وهي غزوة الخندق من غطفان وقريش وبني قريظة وأجناد غيرهم من سائر العرب بأوباشها وأحابيشها.

﴿مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ [الأحزاب:١٠] يريد، وهو أعلم: عيينة بن بدر في أهل نجد، وأبا سفيان بن حرب في أهل تهامة ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ﴾ يعني: عن

---

(١) ﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ وهم الملائكة - عليهم السلام - وكانوا على ما قيل ألفًا، روي أن الله تعالى بعث عليهم صبًّا باردة في ليلة باردة فأخصرتهم وسفت التراب في وجوههم، وأمر الملائكة - عليهم السلام - فقلعت الأوتاد وقطعت الأطناب وأطفأت النيران وأكفأت القدور وماجت الخيل بعضها في بعض وقذف في قلوبهم الرعب وكبرت الملائكة في جوانب عسكرهم، فقال طليحة بن خويلد الأسدي: أما محمد ﷺ فقد بدأكم بالسحر فالنجاء النجاء فانهزموا، وقال حذيفة ﷺ وقد ذهب ليأتي رسول الله ﷺ بخبر القوم: خرجت حتى إذا دنوت من عسكر القوم نظرت في ضوء نار لهم توقد وإذا رجل أدهم ضخم يقول بيده على النار ويمسح خاصرته ويقول: الرحيل الرحيل لا مقام لكم، وإذا الرجل في عسكرهم ما يجاوز عسكرهم شبرًا، فوالله إني لأسمع صوت الحجارة في رحالهم وفرشهم والريح تضربهم ثم خرجت نحو النبي ﷺ فلما صرت في نصف الطريق أو نحو ذلك إذا أنا بنحو عشرين فارسًا متعممين، فقالوا: أخبر صاحبك أن الله تعالى كفاه القوم.

وقرأ الحسن: «وَجَنُودًا» بفتح الجيم، وقرأ أبو عمرو في رواية وأبو بكر في رواية أيضًا «لَمْ يروها» بياء الغيبة ﴿وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ من حفر الخندق وترتيب مبادىء الحرب أعلاء لكلمة الله تعالى، وقيل: من التجائكم إليه تعالى ورجائكم من فضله ﷻ. وقرأ أبو عمرو: «يَعْمَلُونَ» بياء الغيبة؛ أي: بما يعمله الكفار من التحرز والمحاربة وإغراء بعضهم بعضًا عليها حرصًا على إبطال حقكم. [تفسير الألوسي (٥٠/١٦)].

وضع عظامها من شدة الجوع والهلع فلا يكاد يعرف ما تنظر إليه ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ سمي ما حول القلب وما جاوره باسم القلب، وهو إذا انتفخ السَّحْر[١] ارتفعت الرئة إلى موضع الحلقوم وبارتفاعها يرتفع القلب، وبالغ هذا هو الكظيم، شبه الكظيم بالبعير يكظم جرنه، فعدد بهذا نعمه على المؤمنين بنصره وبرسوله، مثبتًا بذلك أنه رسوله جاء من عنده بالهدى ودين الحق، يعظهم بذلك فيما جاء به المنافقون والكافرون، ثم صرف وجه الخطاب إلى المنافقين والذين في قلوبهم مرض بقوله: ﴿وَتَظُنُّونَ بِالله الظُّنُونَا﴾ [الأحزاب:١٠].

أثبتت الألف علامة لرأس الآية، وقد أسقطها بعض القراء في غير الوقف، كان من قول المنافقين يومئذٍ: ﴿مَّا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب:١٢] حتى قال بعضهم: قد كان يعدنا بملك فارس والروم، ونحن اليوم لا يجزى أحدنا أن ينهض إلى الخراءة، فعبَّر الله - جل ذكره - عن جملة ما خاضوا فيه في هذا المعنى بقوله: ﴿وَتَظُنُّونَ بِالله الظُّنُونَا﴾ [الأحزاب:١٠].

يقول الله - جل من قائل: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا﴾ [الأحزاب:١١] يجمع عليهم كثرة ضروب أقاويلهم وصنوف خوضهم مع ما لزمهم من الابتلاء، ذكر أن أحدهم كانت تحضر له غداؤه أو عشاؤه وما كان يجد شيئًا يجعله في بطنه سوى إهالة سنخة إذا رفعها إلى فيه سد على أنفه لنتنها وشدة زهمها، وعمَّ ذلك في جملتهم حتى هم رسول الله ﷺ بالمصالحة للعدو على شيء يعطيهم إياه، وكان ذلك رأيًا رآه لم يكن عن وحي من الله - جل ذكره - ثم استدار الرأي بينهم على ألَّا يكون ذلك، وهذا كله من الزلزال حتى جاء الله بنصره وبعث ملائكة من عنده في الرياح أجلتهم وقلقلتهم، والحمد لله رب العالمين.

﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا

(١) تسمي العرب الرئة: سحرًا. انظر: تفسير الطبري (١٧/٤٦٠).

يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ
ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ
بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ [الأحزاب: ١٣ - ١٧].

أتبع ذلك ما هو في معناه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ يعني: المنافقين ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ أي: لا صبر لكم ولا بقاء على هذا، فارجعوا عن الإسلام ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ يقول الله - جل من قائل: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ وهو أعلم، أرى أنه كان قد جعل عليها حراسًا من عنده ظهر ذلك من صدق قيله: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب:١٣] هذا كله من الزلزال والجزع وعظيم الخطر كانت العرب قد رمتهم عن قوس واحدة بيوت عورة؛ أي: غير محروسة من العدو، ولا هي ذات منعة، كانوا يقولون: بيوتنا عورة نذهب إليها نحرسها، وما بهم إلا الفرار عن رسول الله والمؤمنين.

أتبع ذلك قوله الحق: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ هنا محذوف يقول وهو أعلم: ولو دخلت عليهم البيوت من أقطار الأرض ما استأصلوا شأفتهم ولا استطاعوا رد أمر الله في نصرة دينه وإقامة أمره، هذا تقدير المحذوف والله أعلم، ثم أخذ في وصف حالهم بقوله: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا﴾ [الأحزاب:١٤] يعني: من الإيتاء وهو: الإعطاء ﴿لَآتَوْهَا﴾ من المجيء والفِتْنة هنا: هو الرجوع إلى الكفر والشرك، دخول الواو في قوله: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ﴾ عطف على محذوف تقديره - والله أعلم بما ينزل - في تفسير قوله: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ [الأحزاب:١٣] لحراستها ومنعتها بأمر الله - جل ذكره - فلا يدخل عليهم.

ثم عطف على هذا المعنى قوله: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ قال رسول الله ﷺ: «**دعوت الله لأمتي في ثلاث فأعطاني اثنتان ومنعني الثالثة: دعوته في ألا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها، فلا يزال الهرج إلى يوم القيامة، ودعوته ألا يسلط**

عليهم عدوًا من غيرهم فيستأصل شأفتهم فأعطانيها»(١) فلو اجتمع من أقطارها، وكان رسول الله ﷺ والمؤمنون يومئذٍ حملة الإسلام وعمدته، ولم يعط الله رسوله إلا ما قد سبق في تقديره أنه يكون؛ فلذلك قال - عز من قائل: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ [الأحزاب:١٣] لحراسته إياها لهذا التقدير السابق.

ثم عطف على هذا المعنى بقوله: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ ما استطاعوا استئصال المؤمنين ولا أن يردوا أمر الله، والله المتم نوره والغالب على أمره، وعطف معطوفًا آخر بقوله: ﴿ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ﴾ [الأحزاب:١٤] عطف الإخبار عن حالهم المعلومة عنده؛ لأنه العالم بما لم يكن كيف يكون وما لا يكون كيف كان يكون لو كان، وهؤلاء ممن تقدم ذكرهم أنهم لو جعلهم في جهنم ألف عام ثم أخرجهم منها قد ضمنوا عن أنفسهم العتبى والرجوع عما كانوا عليه في الدنيا من الكفر والتكذيب، لأكذبوا أنفسهم ولعادوا لما نهوا عنه.

يقول الله - جل قوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فكيف يكون صادقًا على حال من قال الله - جل ثناؤه - فيهم: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٨] فهذا المتلقي في هذه الآية مصداق لحديث رسول الله ﷺ.

ووجه آخر في معنى قوله: ﴿ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا﴾ أنهم لو شاهدوا حراسة الله وكفايته إياهم عدوهم ثم سئلوا الفتنة على ذلك لآتوها، يقول: لأعطوا الفتنة من أنفسهم، ولألقوا بأيديهم وكفروا بعد إيمانهم ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا﴾ بالفتنة ﴿إِلَّا يَسِيرًا﴾ [الأحزاب:١٤] يقول: ألا ريثما يأتونها أو يسلموها إلى العدو.

ووجه آخر: ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا﴾ في الفتنة التي آتوها ﴿إِلَّا يَسِيرًا﴾ [الأحزاب:١٤] أي: حتى يغلبوا على أمرهم بأمر الإسلام أو يموتوا، وكل ذلك قليل.

أتبع ذلك بما بيّن ما أنبأ به من علمه بشأنهم قوله: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ﴾ [الأحزاب:١٥] وهذا منهم تولي زائدًا إلى ما كان منهم في يوم أُحد ذكرهم - جل ذكره - بما كان منهم من المبايعة حتى بايعوا رسول الله على

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٩٥٠٩)، وأحمد (١٥١٦)، ومسلم (٢٨٩٠)، وابن خزيمة (١٢١٧)، وابن حبان (٧٢٣٧)، والبزار (١١٢٥).

النصرة والقتال.

ثم قال - جل من قائل - لنبيه ﷺ قل لهم يا محمد: ﴿لَّن يَنفَعَكُمُ الفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ المَوْتِ أَوِ القَتْلِ﴾ [الأحزاب:١٦] يقول :ﷻ الفرار لا يبعد أجلاً حضر، والثبات للقتال لا يقرب أجلاً لم يحضر، فهو إذًا لا ينفعكم ولا يعصمكم من موت لاحق أو قتل حاضر مجهز، ولو كان ينفعكم على ظنكم وليس بنافع إذًا لا تمتعون إلا قليلا بالعيش والبقاء، هذا قول صائب ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللهِ مَسْئُولا﴾ [الأحزاب:١٥] ومعتقد وثيق درج عليه معظم الأمة، رضي الله عن جميعهم.

تنبيه:

الله - جل ذكره - أصدق القائلين قيلاً وأثره المخبرين حديثًا فقال: ﴿لَّن يَنفَعَكُمُ الفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ المَوْتِ﴾ [الأحزاب:١٦] كما قال: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ المَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام:٦١] ﴿قُلْ إِنَّ المَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ﴾ [الجمعة:٨].

ثم قال ﴿أَوِ القَتْلِ﴾ ونظم به: ﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلا﴾ [الأحزاب:١٦] كما نظم بذكر الموت قوله: ﴿لَّن يَنفَعَكُمُ الفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ المَوْتِ﴾ [الأحزاب:١٦] وقد وعد على القتل في سبيل الله، وأوعد في قتل المؤمن بغير حق، ونهى عن القتل وأمر بالقتل، كل ذلك في مواطنه.

وهذا كله يدخله على استعمال الأمر به والنهي عنه أحكام «لو» و«لولا» كقوله: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الفتح:٢٢] أي: من القتل.

﴿وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح:٢٥].

وقال: ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء:٧١] وقال: خذوا أسلحتكم ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾ [النساء:١٠٢] و«لَوْ» تدل على امتناع الشيء لامتناع غيره، و«لَوْلا» تدل على امتناع الشيء لوجوب غيره، وعلى وجوب الشيء لامتناع غيره، وهذا من تدبيره الأمر؛ أي: يجعل هذا

دبيرًا لهذا أو هذا دبيرًا لهذا هو المقدم والمؤخر.

فلما في الفرار من نجاة من لم يبلغ أجله قال وهو الحق وقوله الحق: ﴿وَإِذًا﴾ أي: وإن نجوتم به لمشيئة الله في ذلك ﴿لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلا﴾ [الأحزاب:١٦] ولما في إنفاذ حكم الموت نظم به قوله: ﴿لَّن يَنفَعَكُمُ الفِرَارُ﴾ [الأحزاب:١٦].

﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب: ١٨ - ٢٢].

ولما في من بلغ أجله وحضرت منيته من الإنفاذ لا بد ولا محالة قوله: ﴿قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ الله إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَو أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ الله وَلِيًا وَلَا نَصِيرًا﴾(١) [الأحزاب:١٧] أي: من إنفاذ القدر المحتوم وليس ذلك بالتدبير، وإنما هو إنفاذ التدبير والحكم، فافهم.

وفي هذا قال عز من قائل: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف:٣٤] ولما في تدبير الأمر من تكليف فيكون عن ذلك أحكام الأمر والنهي، وأحكام «لو» و«لولا» و«هلا»، وأحكام المقاربة كقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ ثم قال: ﴿كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ

(١) استفهام في معنى النفي؛ أي: لا أحد يمنعكم من الله ﷻ وقدره ﷻ إن خيرًا وإن شرًّا فجعلت الرحمة قرينة السوء في العصمة مع أنه لا عصمة إلا من السوء لما في العصمة من معنى المنع، وجوز أن يكون في الكلام تقدير، والأصل: قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوء أو يصيبكم بسوء إن أراد بكم رحمة فاختصر. [تفسير الألوسي (٦١/١٦)].

﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل:٨١] من السلامة والمعنى على هذه القراءة أظهر والمقاربة أيضًا ظاهرة بحكم التدبير في قراءة من قرأ «**تسلمون**».

كذلك قوله: **﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾** [الإسراء:٨] وقوله: **﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾** [الأعراف:٦٣] **﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾** [الأعراف:٦٩] فيما بين هذين الحكمين في تدبير القضاء وتغليب الأمر على النهي والنهي على الأمر؛ لتباين دواعي العباد وإراداتهم، وهممهم الكائنة عن خذلانهم أو هدايتهم كان الثواب والعقاب والمدح والذم لامتثال حق مخلوق به السماوات والأرض سبق كتبه بالقلم العلي في الكتاب المبين؛ لتتميم كلماته ومقتضيات أسمائه **﴿وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾** [يوسف:٢١].

قال الله - جل من قائل - في المقاتلين الفارين عن القتال: **﴿وَإِذًا﴾** بواو العطف وهو عطف على محذوف تقديره، والله أعلم بما ينزل: إن نجوتم، كما تقدم، ثم قال: **﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾** [الأحزاب:١٦] والله أعلم بقليل كل واحد منهم ما هو، غير أن رسول الله ﷺ قال: «**والثلث كثير**»[١] وتقدير هذا بالإضافة إلى واحد واحد منهم، وعمره ما هو وما مضى منه، وتعجيل أجله أو تأخيره.

أتبع ذلك قوله - عز من قائل: **﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾** [الأحزاب:١٩] يريد بنصرتهم وبأنفسهم كما قال: **﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنفَضُّوا﴾** [المنافقون:٧] **﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ﴾** [الأحزاب:١٩] اضطروا إلى المعونة لهم بأنفسكم؛ لأنهم كما قال فيهم العليم الخبير: **﴿لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾** [النساء:١٤٣] فهم الخائفون لهؤلاء إن ظفروا ولهؤلاء متى ظهروا، يحسبون كل صيحة عليهم.

يقول الله تعالى: **﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾** [الأحزاب:١٩].

﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ [الأحزاب:١٩] يقول: إذا ذهبت

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٠٩١٤)، وأحمد (٢٠٧٦)، والبخاري (٢٥٩٢)، ومسلم (١٦٢٩)، والنسائي (٣٦٣٤)، وابن ماجة (٢٧١١).

ضرورتهم عادوا إلى الشح عليكم بولايتهم ومنافعهم ﴿سَلَقُوكُم﴾ أي: أسمعوكم ما تكرهون، المسلاق من الرجال الفصيح المعرب، واللسان المسلق الحديد الذرب، قال الله ﷻ: ﴿وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون:٤].

أتبع ذلك قوله: ﴿أَشِحَّةً عَلَى الخَيْرِ﴾ [الأحزاب:١٩] يريد، وهم أعلم: إذا حضرت الغنائم شحوا عليكم بها، وحاجوكم في استقصاء المقاسمة على جبنهم في القتال وشدة هلعهم.

أتبع ذلك قوله: ﴿يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾ [الأحزاب:٢٠] يقول لشدة خوفهم وعظيم جزعهم، وقد ذهب الأحزاب وهم يظنون أنهم لم يذهبوا ثم قال: ﴿وَإِن يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ﴾ [الأحزاب:٢٠] وإن كانوا معكم فقتالهم قليل كما قال - عز من قائل: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الفِتْنَةَ﴾ [التوبة:٤٧].

أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو الله وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ الله كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٢١] المقصود الأول بهذا ما أنزلت السورة من أجله، أنه وعظ لهم في خوضهم في نكاحه - صلوات الله وسلامه عليه - وقولهم في ذلك بقول: هلا تأسيتم به في فعله بما فرض الله وأتبعتموه واهتديتم واقتديتم به، ثم في شجاعته وتوكله على الله - جل ثناؤه - وجهده وجهاده وصبره ومصابرته، وهذا إنما هو لمن آمن بالله واليوم الآخر وذكر الله كثيرًا.

أتبع ذلك وصفه المؤمنين - رضي الله عنا وعنهم - يقول: ﴿وَلَمَّا رَأَى المُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا الله وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ الله وَرَسُولُهُ﴾ [الأحزاب:٢٢] هذا منتظم بالمقابلة بما تلاه قبل من قول ﴿المُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا الله وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب:١٢] إلى تمام المعنى من قولهم يقول: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٢٢] أي: بالله ورسوله وبالوعد منه بالعاقبة، وتسليمًا لأمره في الابتلاء، والذي وعدهم الله به ورسوله من فتح فارس والروم وجزيرة العرب والدجال ويأجوج ومأجوج، وجعل في قدمه ذلك الابتلاء لقوله - جل من قائل: ﴿الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ

لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت:١ - ٣].

واتخذوا مقدمة الابتلاء آية على كون العاقبة والفتوح والذي وعدوا بها، وهذا شأن من أتاه الله الثبات في الأمر، واعتمدوا في ذلك على قوله الحق: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [آل عمران:١٨٦] فما زادهم رؤية الابتلاء إلا إيمانًا بالله ورسوله وكتابه وتسليمًا لقضائه.

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا (٢٣) لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٢٤) وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (٢٥) وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢٧)﴾ [الأحزاب: ٢٣ - ٢٧].

قوله تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ [الأحزاب:٢٣] يعني: أجله من ذلك قولهم ناحيت؛ أي: حاكمته، فانقضى ما بيني وبينه وانقطع، والنحب أيضًا في وجه النذر، وكان قوم لم يشهدوا بدرًا فعاهدوا الله - جل ذكره - لئن التقوا بالمشركين أن يقاتلوا أو يظفروا أو يموتوا «أو» هنا بمعنى: إلى أن؛ أي: يقاتلوا إلى أن يظفروا بالمشركين، أو يموتوا؛ أي: أو إلى أن يموتوا، والله أعلم.

يقول الله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ﴾ أي: أجله ونذره ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا﴾ عن عهدهم وصدقهم ﴿تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب:٢٣] وهذا كلام منتظم بالمقابلة لوصفه المنافقين والذين في قلوبهم مرض.

أتبع ذلك قوله: ﴿لِيَجْزِيَ اللهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ «لام» كي هنا متعلقة بمحذوف تقديره: وفقناهم لذلك وهديناهم لنجزيهم بصدقهم، كما قدر على أولئك بإعطائهم العهد ثم الختن به ليعذبهم ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [الأحزاب:٢٤].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾ [الأحزاب: ٢٨ - ٣١].

قوله - جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلا﴾ [الأحزاب:٢٨] المعنى إلى آخره، لما أذن الله في نكاح زينب ربما وجدن من ذلك أدخلهن في معنى ما أنزل السورة من أجله، لكن ليس من أجل خوض في ذلك، ولا تعييب فيهن لفعله، فأمره بأن يخيرهن بين أن يردن الله ورسوله مع مفارقة الصبر على الرضا بما هن عليه أو يردن الحياة الدنيا وزينتها إلى آخر القصة، وهي: اتباع الشهوات وإعطاء النفوس مهنأها من الطعام والشراب والنوم والكلام والمراح، وملازمته الدعة والراحة ونحو هذا، مع ترك المثابرة على الصلاة والصيام والزكاة، والمحافظة على الحدود، والمصابرة على ما يرضي الله باطنًا وظاهرًا، وهذه علامة من أحب الله ورسوله، مع قراءة القرآن وملازمة تلاوته.

وأخبرهن أن لهن إن أحسن ضعفين من الأجر، كما عليهن إن أسأن ضعفين من الوزر، وأعلمهن أنهن لسن كسائر النساء في وجوب مراعاة ما تقدم ذكره، ووصاهن بلزوم الوقار والقرار في البيوت.

فقال - عز من قائل: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ بفتح القاف: من الاستقرار، وقِرن في بيوتكن بكسرها: من الوقار ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجَاهِلِيَّةِ الأُولَى﴾ قيل: هي

الجاهلية التي بعث الله عليها إبراهيم - صلوات الله وسلامه عليه - والأوجه أنها جاهليتهم التي كانت قبل المبعث وحين المولد.

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٣٢﴾ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴿٣٣﴾ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [الأحزاب: ٣٢ - ٣٤].

ثم قال - عز من قائل: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب:٣٣] أهل البيت هم على ما ذكره القرآن: الأزواج، وعلى الحديث: هم النبي وفاطمة وعلي والحسن والحسين - عليهم السلام - والرجس: العذاب بوجه، والرجس: النجس أيضًا، والرجس: عمل الشيطان وما يأمر به في غوايته ووسوسته وشأنه.

﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٣٥﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٥ - ٣٦].

قوله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾(١) [الأحزاب:٣٦] قد تقدم الكلام فيما ينتظم بهذا من صدر

(١) نزلت هذه الآية في زينب بنت جحش الأسدية وأخيها عبد الله بن جحش وأمهما أمية بنت =

السورة، وما اجتلب من أجله هنا وهناك.

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٧ - ٤٢].

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا...﴾ [الأحزاب:٤١] الذكر الكثير هو اللازم للقلب بالعلم، وأفضل الذكر ما نهى عن الفحشاء والمنكر، وقد جمع الله ذلك في الصلاة، جعلها لإقامة ذكره والتفرغ له، واعلم أن ذلك هو المراد بقوله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه:١٤] أي: أقمها لتذكرني، فمن صلى ليذكر ربه أتم ركوعه وسجوده، واغتنم الذكر في الصلاة لفضل ذلك، فإنه ذكر لله على أحب أحوال العبد إليه، وأنه إذا ذكره كذلك ذكره هو سبحانه في نفسه، وإذا

=

عبد المطلب عمة النبي ﷺ، فقد خطب رسول الله ﷺ لمولاه زيد بن حارثة وكان رسول الله ﷺ اشترى زيدًا في الجاهلية بعكاظ فأعتقه وتبناه، فلما خطب رسول الله ﷺ زينب رضيت وظنت أنه يخطبها لنفسه، فلما علمت أنه يخطبها لزيد أبت وقالت: أنا ابنة عمتك يا رسول الله فلا أرضاه لنفسي، وكانت بيضاء جميلة فيها حدة، وكذلك كره أخوها ذلك، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾ يعني: عبد الله بن جحش ﴿وَلا مُؤْمِنَةٍ﴾ يعني: أخته زينب ﴿إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا﴾ أي: إذا أراد الله ورسوله أمرًا وهو نكاح زينت لزيد ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ قرأ أهل الكوفة: «أن يكون» بالياء؛ للحائل بين التأنيث والفعل، وقرأ الآخرون بالتاء لتأنيث «الخيرة من أمرهم» والخيرة: الاختيار، والمعنى أن يريد غير ما أراد الله أو يمتنع مما أمر الله ورسوله به. [تفسير البغوي (٣٥٣/٦)].

ذكره جهرًا في القراءة والدعاء والآذان والتهليل وأنواع الذكر ذكره في ملأ خير من ملئه وأطيب، ولذكر الله إياه أفضل بكل وجه وبكل معنى، ولذكر العبد الله أفضل أعماله، ألا تسمعه يدل على أفضل أحوال العبد - أعني: الصلاة - بقوله: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب:٤٢].

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الأحزاب: ٤٣ - ٤٩].

أتبع ذلك ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الأحزاب:٤٣] الله يذكر عبده بأن يذكره فيذكره العبد فينبئ الله - جل ذكره - على ذكر عبده إياه، ويصلي العبد لله ﷻ فيصلي الله على عبده، وقد تقدم تبيانه في غير هذا الموضع بما فيه من الكفاية.

أتبع ذلك بما هو متصل به قوله - جل من قائل: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ﴾ [الأحزاب:٤٤] آية ذلك حكم الصلاة.

قال رسول الله : ﷺ «**تحريم الصلاة التكبير وتحليلها التسليم**»(١).

ودار الدنيا دار عبادة ونصب، ولقاؤه للمؤمنين للجزاء والثواب، فجعل انقضاء الصلاة التسليم، وذلك بمثابة خروج العبد من دار العبادة والنصب وما بعد ذلك إلا لقاؤه، وفي لقائه التحية والسلام ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٤] جزاءً لنصبهم وتعبدهم لذلك وهو أعلم.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١/٢٦٠)، والطبراني في الكبير (٩١٦٨).

أتبعها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٥ - ٤٦] شاهدًا على أمته، ولتحققه في هذه المرتبة كانت أمته شهداء على الناس، ومبشرًا للمؤمنين ونذيرًا للكافرين والمخالفين، وداعيًا إلى الله بإذنه - أي: بأمره - وسابقًا للعباد إلى الله بإذنه، وسراجًا منيرًا ينير على البعد والقرب، كالشمس أضاءت الآفاق، وهو - صلوات الله وسلامه عليه - أضاءت به الآفاق هدايةً وقربةً وولايةً وعلمًا ومعرفةً وإيمانًا وتسليمًا وعملاً وقولاً وشهادةً وذكرًا على بعد الأوقات، وطول مرور الأعصار، وتعاقب الأزمان قرنًا فقرنًا وجيْلاً فجيلاً، فهو السراج المنير حقًّا لا خفاء به.

يقول ﷺ: هكذا جعلناك وبهذا أرسلناك، ثم عطف بالواو على محذوف تقديره، والله أعلم بما ينزل: وبلغ وجاهد ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللهِ فَضْلاً كَبِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٧] وأنذر المنافقين والكافرين ولا تطعهم، ولا تعبأ بما يقولون من أذى.

﴿وَدَعْ﴾ مجازاتهم بالأذى ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾ في تبليغك ما أرسلت به، وامضِ لأمرك، ولا تحفل بما يعيبونك به ﴿وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلا﴾ [الأحزاب:٤٨] أي: كافيًا وواقيًا.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾ ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾[1]

---

(١) فيها مسائل: المسألة الأولى: في سبب نزولها، روى الترمذي، أن أم هانئ بنت أبي طالب، قالت: خطبني رسول الله ﷺ، فاعتذرت إليه بعذري، فنزلت الآية. قال القاضي: والحديث ضعيف. وقد اختلف في زوجاته، عليه الصلاة والسلام، هل هن كالسراري عنده، أو لهن =

أحكام الزوجية. قال إمام الحرمين: والصحيح أن لهن حكم الزوجات. المسألة الثانية: في أزواج النبي ﷺ عقد رسول الله ﷺ النكاح على عدة من النساء، وهن خديجة نبت خويلد، وعائشة بن أبي بكر، وحفصة بنت عمر، وسودة بنت زمعة، وأم سلمة بنت أبي أمية، وأم حبيبة بنت أبي سفيان، وكلهن من قريش. وزينب بنت خزيمة العامرية وزينب بنت جحش الأسدية، وميمونة بنت حارث الهلالية، وصفية بنت حيي بن أخطب الهارونية، وجوهرية بنت الحارث المصطلقية، ومات عن تسع. المسألة الثالثة: أحل الله تعالى له هذه الأزواج اللاتي كن تحته، قبل نزول هذه الآية. إما إحلال غيرهن فلقوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ ﴾. وقوله: ﴿اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾. أي أعطيت صداقهن، وقوله: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ السراري، وأحل لرسوله ما شاء من النساء. وأحل لأمته الأربع فدونها، وروي أن داود كان له مائة امرأة، وكان لسليمان ثلاثمائة حرة، وسبعمائة سرية، وفي الصحيح، أن رسول الله ﷺ قال: «إن سليمان قال: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة، تلد كل امرأة غلامًا، يقاتل في سبيل الله، ونسي أن يقول: إن شاء الله، فلم تلد منهن سوى امرأة واحدة. ولدت شق غلام». المسألة الرابعة: قوله تعالى: ﴿مِمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْكَ﴾. أي السبي المأخوذ غلبة وقهرًا، وقد كان رسول الله ﷺ يأكل من عمله، ويطأ بملك يمينه، وقال ﷺ: «جعل رزقي تحت ظل رمحي» وقوله: ﴿اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾. يحتمل المسلمات، لقوله ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه». وقيل: المراد من هاجر معه من مكة إلى المدينة، وهذه الآية نزلت في أم هانئ حين خطبها: لأنها لم تكن هاجرت فمنع منها لنقصانها بعدم الهجرة. واعلم أن الهجرة إذا أطلقت، فهي محمولة على الخروج من بلاد الكفر إلى دار الإيمان، والأسماء إنما تحمل على عرفها، والهجرة في الشرع معروفة. المسألة الخامسة: قوله ﴿هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾. المراد بالمعية: الموافقة في الهجرة، ولا يلزم أن تكون مقارنة لهجرته، فإن قيل: لم أفرد العم والخال وجميع نسائها. قلنا: العم والخال اسم جنس، كالشاعر والراجز، وليس العمة، والخالة، وهذا عرف لغوي دقيق جرت العادة عليه، وقوله تعالى: ﴿وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾. «جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فوقفت عليه، فقالت: يا رسول الله، إني وهبت نفسي لك». الحديث. قيل: إن المرأة ميمونة بنت الحارث، وقيل: هي أم شريك، وقيل: زينب بنت خزيمة أم المساكين، وقيل: غير ذلك. واعلم أن المراد أحللنا لك امرأة تهب نفسها دون صداق، ولا تحل لغيرك، وقوله تعالى: ﴿مِمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ يدل على أنه لا يحل له نكاح الكافرة لشرفه وكماله، وقرئ إن بكسر الهمزة على الشرط وبفتحها على أنه مفعول معه. المسألة السادسة: قوله تعالى: ﴿خَالِصَةً لَّكَ﴾. قال قتادة: المراد أن المرأة إذا وهبت نفسها لرسول الله ﷺ جاز أن ينكحها بغير صداق ولا ولي، وليس ذلك لغيره، وقد تزوج بنت جحش، ودون ولي وصداق، وقال الشافعي: المراد: أن نكاحه ينعقد بلفظ الهبة، وليس ذلك

كخديجة وعائشة وميمونة وحفصة وسودة وأم حبيبة وأم سلمة ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْكَ﴾ كصفية من الأزواج، ومارية من الإماء ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ﴾ كزينب ﴿وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ وخيره في نكاح هؤلاء ﴿وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب:٥٠] لم يبلغنا أنه أخذ من هذا الضرب أحدًا إلا ما قيل: إن ميمونة كانت وهبت نفسها له، والأصح في ذلك أن العباس أنكحها إياه وهي بمكة عام الحديبية، وأخرجها إليه انصرافه من الحديبية وبنى بها بسرف، والله أعلم أي ذلك كان وربما كان الوجهان معًا.

﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (٥١) لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا (٥٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا (٥٣)﴾ [الأحزاب: ٥١ - ٥٣].

قوله تعالى: ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ﴾ أي: من هؤلاء المخير فيهن والواهبات له أنفسهن، ثم قال: ﴿وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ يريد اللاتي هن في العصمة من شاء أمسك أو طلق ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ﴾ أي: ذلك

=

لغيره. المسألة السابعة: قوله: ﴿خَالِصَةً﴾. انتصب على الحال من الضمير المنصوب المتصل الذي في يستنكحها. والخلوص: اختصاصه ﷺ لما تزوج أم سلمة، قال لابنها عمر بن أبي سلمة: «قم يا غلام فزوج أمك».

من وحينا إليك في شأنهن وفعلك فيه ﴿أَدْنَى أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾ بخطبهن منك ﴿وَلَا يَحْزَنَّ﴾ أي: التي عزلتها ﴿وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ أي: إذا علموا أن ذلك بأمرنا ووحينا ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ تعريض بفعل العدل ﴿وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا﴾ بفعلكم ﴿حَلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥١] عن استقصاء حقه عندكم، وكان - صلوات الله وسلامه - يعدل جهده، ثم يقول: «**اللهم هذا فعلي فيما أملك ولا تؤاخذني بما لا أملك**»[١].

فصل

الإرجاء: التأخير، أرجأت الشيء: أخرته ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ [الأعراف:١١١] أخّره إلى يوم معلوم بيننا وبينه، والضمير الذي في قوله: ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ﴾ [الأحزاب:٥١] واقع على جملة ما شمله الخطاب من ضروب المحللات له من النساء، والإرجاء في اللواتي شملهن حكم العصمة مع محافظته على سنن العدل بينهن، وقوله: «**فلا تؤاخذني بما لا أملك**»[٢] غير واقع حكمه على هذا الضرب منهن، وكذلك حكم الإرجاء ولفظه في بنات العم وبنات العمات وبنات الأخوال والخالات والمهاجرات لفظ الترك أو ما كان يكون بدلاً منه أولى من لفظ الإيواء.

وأمَّا لفظ الإرجاء فيهن فما له من مدخل ولا مساغ؛ إذ هو التأخير والتأخير إلى متى إلا على معنى قول القائل: تأخر عني وأخِّر الشيء عني؛ أي: باعده عني، وذلك تسامح في النظر لغير ضرورة وتدبر؛ أي القرآن تذهب الفوائد منه مع التسامح.

قال الله عز من قائل: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [ص:٢٩] فما أرى الإرجاء واقعًا إلا على الواهبات له أنفسهن، وما أرى ذلك إلا أن تكون زوجة له في الآخرة، وذلك معنى التأخير.

وقراءة أبي والحسن وعيسى بن عمر ﴿وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب:٥٠] بفتح «إن» وتلك إشارة إلى مفعول ما من أجل هبتهن أنفسهن؛

---

(١) أخرجه ابن راهويه (٢/٢٣).
(٢) انظر السابق.

ولذلك - وهو أعلم بما ينزل - فخم شأنهن في قوله: ﴿إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ وعدل عن خطاب المواجهة إلى ذكر النبوة؛ تفخيمًا لعمل نيتها وحسن مقصدها وإلا فما ثوابها عند الله - جل ذكره - وعند رسوله ﷺ على أن جادت بنفسها لله ورسوله ﴿وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤] فمعنى ذلك: ترجي؛ أي: تؤخر من تشاء ولا تكون زوجة في الدنيا بل في الآخرة، وتؤوي؛ أي: تقرب بالنكاح منهن من تشاء، فتكون لك زوجة في الدنيا والآخرة.

قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ [الأحزاب:٥٠] الضمير في قوله: ﴿أَزْوَاجِهِمْ﴾ و﴿أَيْمَانُهُمْ﴾ راجع على المؤمنين الذين خصَّ رسوله منهم بقبول الواهبات أنفسهن له، يقول: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ [الأحزاب:٥٠] والمفروض علينا في الأزواج الصداق والولي والشهود والعدل والابتياع في الإماء أو الهبة أو السبي، وقد رفع عنه حرج هذا كله إلا العدل، فإنه كان يقول: «لا تؤاخذني بما لا أملك» وما يناقض العدل ليس من الله ورسوله في شيء، وفي قوله: «اللهم لا تؤاخذني» يخشى فرض العدل عليه.

أتبع هذا قوله - عز من قائل: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ﴾ [الأحزاب:٥٢] لما أباح الله له النكاح فيمن سماه من القرابات، واللاتي أتاهن أجورهن واللواتي يهبن أنفسهن للنبي من المؤمنات قصره - وهو أعلم - على ذلك، وحظر عليه ألَّا يتبدل بهن من أزواج غير أزواجه، ولا يزداد نساء سواهن، وخصَّ من ذلك ملك اليمين، لا إله إلا هو له الملك وله الحمد.

قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾[1] [الأحزاب:٥٣] يعني: وقت حضوره، أنيت الشيء: إذا

---

(١) فيها مسائل: **المسألة الأولى**: في الآية أحكام وسير، وتتضمن غزوة الخندق والأحزاب وبني قريظة.

قال مالك: أمر رسول الله ﷺ بالقتال من المدينة يوم الخندق حيث قال تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ﴾ جاءت قريش واليهود وغطفان. قال ابن القاسم: كانت وقعة الخندق بعد أربع سنين. وقال ابن إسحاق: كانت وقعة الخندق سنة خمس، وكانت غزوتا الخندق وبنو قريظة =

في يوم واحد. قال مالك: بلغني أن عبد الله بن أبي سلول قال لسعد بن معاذ في بني قريظة حين نزلوا على حكمه وجاء يحكم فيهم. قال له عبد الله بن أبي: أنشدك الله يا سعد في إخواني وأنصاري، فإنهم ثلاثمائة فارس وسبعمائة راجل، فقال له سعد: لا تأخذني في الله لومة لائم، فحكم سعد بقتل مقاتليهم، وسبي ذراريهم، فقال له رسول الله ﷺ: «لقد حكمت فيهم بحكم الله، من فوق سبعة أرقعة». ويروى أن ثابت بن قيس بن شماس أتى إلى ابن باطا، وكان له يد على ثابت فرغب رسول الله ﷺ فسرحه، ورد عليه أهله وولده وماله، فقال ابن باطا لثابت: «ما فعل ابن الحقيق؟ فقال له: قتلوه، فقال لثابت: ألحقني بهم، فأبى ثابت أن يقتله، وقتله غيره. واليد التي كانت له عند ثابت أنه كان أسره يوم بعاث فجز ناصيته وأطلقه، وكان سعد قد أصيب أكحله، وكان رسول الله ﷺ يتعاهده، ولما فرغ رسول الله ﷺ من الخندق آخر النهار واغتسل آتاه جبريل. فقال إن وضعت اللأمة فإني لم أضعها، وإن الله يأمرك أن تخرج إلى بني قريظة، وسمع رسول الله ﷺ الأنصار يرتجزون: فاغفر للأنصار والمهاجرة... لا خير إلا خير الآخرة. فقال رسول الله ﷺ: «لا خير إلا خير الآخرة فاغفر للمهاجرة والأنصار». فقال أبو بكر: أشهد أنك رسول الله. قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾. ويروى أن نوفل بن عبد الله بن المغيرة المخزومي كان قد اقتحم الخندق فتورط فيه، فقتله المسلمون، وجروا جسده إليهم، فأعطى أصحابه لرسول الله ﷺ عشرة آلاف درهم. فقال: لا حاجة لنا بجسده، ولا بثمنه. ثم خلى بينهم وبينه. ويروى أن عمرو بن عبد ود قتله علي في المبارزة، وأنشد على ذلك... قال مالك: وبعث رسول الله، ﷺ، محمد بن سلمة الأنصاري مع جماعة لقتل كعب بن الأشرف اليهودي، وقالوا لرسول الله، ﷺ: أتأذن أن ننال منك عند كعب، قال: نعم. فجاءوه، وكان عروسًا، فنالوا من رسول الله ﷺ. ثم لما أراد الخروج نهته امرأته، فأبى. ثم خرج فقتلوه. فقال رسول الله ﷺ: «إني لأجد ريح دم كافر». **المسألة الثانية**: روى أنس أن عمه أنس بن النضر لم يشهد بدرًا مع رسول الله ﷺ فكبر عليه، فقال: والله لئن شهدت مشهدًا لأرينه ما أصنع، فشهد معه يوم أحد من العام القابل، فاستقبله سعد بن معاذ، فقال له: إلى أين؟ فقال: لريح الجنة التي أجدها من دون أحد، فقاتل حتى قتل، فوجد في جسده بضع وثمانون ما بين طعنة ورمية وضربة. قال أنس: فقالت عمتي الربيع، ما عرفت ابني إلا ببنائه. فنزل قوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ﴾ الآية. **المسألة الثالثة**: قالت عائشة: ما رأيت أجمل من سعد بن معاذ حاشا رسول الله ﷺ ثم أنه أصيب في أكحله فقال: «اللهم إن كان حرب بني قريظة لم يبق منه شيء فاقبضني إليك، وإن كان قد بقيت منه بقية فأبقني أجاهد مع رسولك أعداءه». فلما حكم في بني قريظة توفي، ففرح الناس، وقالوا: نرجو أن يكون قد استجيبت دعوة سعد، قال يحيى بن سعيد: لقد نزل لموت سعد بن معاذ سبعون ألف ملك، ما نزلوا إلى الأرض قبل ذلك. [الأحكام الصغرى ٤٩٦].

أخرته، وهو الأناة:

وأكريت العشاء إلى سهيل أو الشعري فطال بي الأناء

﴿ إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ
ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا
مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ
وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ
يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا
﴿٥٨﴾ ﴾ [الأحزاب: ٥٤ - ٥٨].

ثم ذكر الحجاب وأحكامه، وذكر في ذلك من يحجب ممن لا يحجب، ووعظهن وقال: ﴿وَاتَّقِينَ اللهَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ [الأحزاب:٥٥].

قوله ﷻ: ﴿إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦] أخبر - جل ذكره - أنه وملائكته يصلون على رسوله ﷺ وأمرنا أن نأتم به وبملائكته في ذلك، وإذا صلى عليه فصلاته عليه غير مقطوعة؛ لأن ذلك من أمره وأمره مفعول ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً﴾ [الأحزاب:٣٧].

وقال: «**أكثروا علي من الصلاة، فإنه من صلى علي واحدة صلى الله عليه عشرًا**»[(١)] وعلم ﷺ أمته كيف الصلاة عليه ثم قال: «**والسلام كما قد علمتم**»[(٢)] وهو ما علمتم في التشهد قوله: «**السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته**»[(٣)] وقال:

---

(١) أخرجه بنحوه أحمد (٨٨٦٩)، ومسلم (٤٠٨)، وأبو داود (١٥٣٠)، والترمذي (٤٨٥) وقال: حسن صحيح.

(٢) أخرجه مسلم (٤٠٥)، والترمذي (٣٢٢٠)، والنسائي في الكبرى (١٢٠٨)، وابن حبان (١٩٦٥)، والبيهقي (٢٦٧١)، ومالك (٣٩٦)، وعبد الرزاق (٣١٠٨)، والدارمي (١٣٤٣).

(٣) أخرجه أحمد (٤٠٦٤)، والبخاري (٥٨٧٦)، ومسلم (٤٠٢)، وابن حبان (١٩٥٥)، وأبو يعلى (٥١٣٥).

ﷺ «ما من أحد يسلم علي إلا رد الله إلي روحي حتى أرد عليه»[١].

معنى ذلك: أنه يرد سلام المسلم ظاهرًا، فإن الميت وإن كان حيًا عند الله وعند الملائكة فليس بحي ظاهرًا للناس حياته، فهو يخبرنا أنه يرد علينا السلام وذلك فيما علمنا في التشهد أن يقول: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته» بمقتضى المواجهة، ثم يقول على تقدير رده: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» كأنه قال لأحدنا وقد سلم عليه: «وعليك السلام ورحمة الله وبركاته» فيقول أحدنا: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» وهو سلام حي، لكنه غيب نؤمن به كما آمنا بوجوده ورسالته وبما جاءت به، وقد سئل فقيل له: كيف نصلي عليك وقد أرمت فقال: «إن الله حرم الأرض أن تأكل لحوم الأنبياء»[٢].

فهو حي حاضر لم نفقد منه إلا شخصه الظاهر وكلامه الظاهر، ثم عند سلام أحدنا عليه يرد الله عليه روحه الظاهر وكلامه الظاهر، فيرد به السلام الظاهر على المسلم عليه وإن كان المسلم عليه لا يسمعه ولا يشعر له، كما قد يسلم الغائب ويذكر مذكوره على حال الغيبة ذكرًا ظاهرًا من ذاكر ظاهر، لكن بغيبته وبعد مكانه لا يسمع ولا يعلم بذلك، وأعلمنا هو ﷺ من ذلك بما يجب به الإيمان علينا بدلاً من سماع رد المسلم الظاهر.

ثم أرجع الخطاب إلى معنى ما ابتدأ به السورة من ذكر إذاية المنافقين، والذين في قلوبهم المرض رسول الله والمؤمنين بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ إلى قوله: ﴿مُهِينًا﴾ [الأحزاب:٥٧] إلى قوله: ﴿مُبِينًا﴾ [الأحزاب:٥٨].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى

---

(١) أخرجه أحمد (١٠٨٢٧)، والطبراني في الكبير (٦٠٨).

(٢) أخرجه أحمد (١٦٢٠٧)، وابن أبي شيبة (٨٦٩٧)، وأبو داود (١٠٤٧)، والنسائي (١٣٧٤)، وابن ماجة (١٦٣٦)، والدارمي (١٥٧٢) وابن خزيمة (١٧٣٣)، وابن حبان (٩١٠)، والحاكم (١٠٢٩) وقال: صحيح على شرط البخاري. والطبراني (٥٨٩)، والبيهقي (١٦٦٦).

قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا
﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن
قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا
يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾ [الأحزاب: ٥٩ - ٦٣].

ثم أتبع ذلك قوله إيعادًا وتهديدًا: ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ المُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي المَدِينَةِ﴾ أي: عن الإذاية للرسول والمؤمنين والأرجاف في المدينة ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ أي: لنسلطنك والمؤمنين عليهم ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلا قَلِيلاً﴾ [الأحزاب:٦٠].

﴿مَلْعُونِينَ﴾ يقول القليل الذين يجاورونك بالمدينة، والذين يجلون منها إلى غيرها يكونون في حال ذلة وصغار ولعن عن الله ودينه والمسلمين ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا تَقْتِيلاً﴾ [الأحزاب:٦١].

تلك ﴿سُنَّةَ الله﴾ جل ذكره ﴿فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ﴾ ممن فعل فعلهم ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تَبْدِيلا﴾ [الأحزاب:٦٢].

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ﴾ [الأحزاب:٦٣] قد تقدم ذكرها في سورة الأعراف.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا
﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ
أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا
كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ
وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ
لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٦٤ - ٧١].

أتبع ذلك ما انتظم به من جهة المعنى قوله: ﴿إِنَّ الله لَعَنَ الكَافِرِينَ﴾ أي: في الدنيا أبعدهم عن ولايته والعمل بطاعته ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿سَعِيرًا﴾

[الأحزاب:٦٤] وهو اللعن الأكبر ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب:٦٥].

ثم أتبع ذلك قوله: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ يسحبون على وجوههم، وقد جاء أن أحدهم تعقد ناصيته بمؤخره، ويسحب على وجهه وبطنه في النار، نعوذ بالله من ذلك وقصد الوجوه بالإخبار عنها؛ لحرمتها وعزتها، بالإضافة إلى سائر الأعضاء لما لم يوجهوها إلى الله ولم يسلموها له لم يجعل لها حرمة، ولا نورها بنور من بركة مواجهته الكريمة ﴿يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاْ﴾ [الأحزاب:٦٦] ندموا وتمنوا حيث لا ينفعهم الندم ولا يسعفون في تمنيهم ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ﴾ [الأحزاب:٦٧] من أطاع غير الله والرسول ضل لا محالة، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**أطيعوهم ما أطاعوا الله**»(١) يعني: الأمراء «**وأطيعوهم ما أقاموا الصلاة**»(٢) وقال: «**لو أن الناس اعتزلوهم**»(٣) وقال: «**أدوا الذي عليكم** - يعني: الطاعة - **واسألوا الله الذي لكم**»(٤).

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب:٦٩] انتظم هذا الخطاب بالمعنى الأول من معظم ما جاءت به السورة من التشديد والتهديد للمنافقين والوعظ للمؤمنين والزوجات؛ لخوض الكافرين والمنافقين في شأنه من نكاح زينب - رضي الله عنها - لأنه كان على زعمهم له ابنًا حتى أكذبهم الله، ورد كل ذي حق إلى حقيقته، وكانت بنو إسرائيل قد آذت موسى عليه السلام بأن قالوا له: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ [الأعراف:١٢٩] وقالوا له: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة:٥٥] وقالوا: ﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا

---

(١) أخرجه البيهقي في معرفة السنن والآثار (٣٨٩/١٣).

(٢) أخرجه بنحوه أحمد (١١٢٤٠).

(٣) أخرجه أحمد (٧٩٩٢) قال عبد الله بن أحمد: قال أبي: اضرب على هذا الحديث فإنه خلاف الأحاديث عن النبي ﷺ يعني قوله: «اسمعوا وأطيعوا واصبروا» والبخاري (٣٤٠٩)، ومسلم (٢٩١٧).

(٤) أخرجه البيهقي في الكبرى (١٥٧/٨).

ها هنا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤].

ولما اتخذوا العجل إلهًا من دون الله قال لهم السامري: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ [طه:٨٨] فأطاعه منهم من أطاعه واتبعوه، وكانوا يغتسلون عراة ينظر بعضهم إلى سوءة بعض، وكان موسى - صلوات الله وسلامه عليه - حييًا ستيرًا، يغتسل وحده بحيث لا يراه أحد، فقالوا: ما يمنع موسى من أن يغتسل معنا إلا أنه أدر، فذهب يومًا يغتسل ونزع عنه ثوبه، فجعله على حجر، ولما فرغ من غسله وأتى ثوبه ليلبسه فرَّ الحجر بثوبه، فجنح موسى في أثره يقول: ثوبي حجر ثوبي حجر حتى أتى ملأ بني إسرائيل فسكن الحجر، فنظروا إليه وقالوا: والله ما بموسى من بأس، إلى غير ذلك من اقتراحهم عليه وعتوهم ومخالفتهم أمره، وقلة تعزيرهم إياه وتوقيرهم له.

قال الله - عز من قائل: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ﴾ [الصف:٥] فوعظ الله - جل ذكره - الأمة في ذلك وحذرهم من الوقوع في مثل ما وقع فيه أولئك، فاستحقوا من الله تعالى ما استحقوه، ووصاها بالتعزير والتوقير لرسولهم، صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع أنبيائه ورسله وملائكته أجمعين.

ولما وعظهم في الإذاية له والخوض في شأنه بغير المرضي أمرهم بالتقوى والقول والفعل السديد بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب:٧٠] ثم ضمن على ذلك الإصلاح لأعمالهم وأحوالهم وغفران ذنوبهم، ثم بشر المؤمنين الذين استجابوا لله ولرسوله بقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧١].

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأحزاب: ٧٢ ، ٧٣].

نظم بهذه الجملة قوله الحق: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ

وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ﴾ [الأحزاب:٧٢] المشار إليه هنا، والأمانة: هو الحق المخلوق به السماوات والأرض، فمن وقف على معرفته بفهم وعلم وقف على حقيقة ما ائتمنه عليه ربه - عز جلاله - وعنوان ذلك في الإيمان والإسلام وشعبهما وخصالهما ويعم بالأمانة ذلك مباني الإسلام الخمسة: الشهادة والصلاة والزكاة والصيام والحج، وما يتبع ذلك من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وما تضمنه الوعد والوعيد وفنون البر كلها ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ الله يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران:٨٣].

﴿وَلِلهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ [الرعد:١٥].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾ [الحج:١٨].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ﴾ [النور: ٤١] إلى قوله: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النور: ٤٦].

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤].

فصل

وأنه لما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما بكلمته عنونت كلمته عن المتكلم العلي العظيم وجودًا وصفات وأسماء، ثم عبر مفعوله الكلي عن فاعله العلي العظيم وجودًا ودلالةً ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١] فألزم المفعول الاستسلام وترك المنازعة فها هي الأمانة.

وأما تحملها في حق السماوات والأرض والجبال وغير ذلك من المخلوقات سوى الإنسان، فإنه عرض عليها تحمل هذه الأمانة وأن تأتي بها، كما جعلها فيها وكإرادته ورضاه بها دون ضمان من الله بالعصمة والمعونة على أنها إن علمت حسنًا

فلأنفسها تجازى على الإحسان بالإحسان، وإن عملت في ذلك سيئًا فعلى أنفسها تجازى على الإساءة بالإساءة، فنظرت أولاً إلى العقاب فأشفقت منه وتبرأت من الحول والقوة، وأبت من تحملها على ذلك، فاستعملها ربها - جل ذكره - بالشهادة له والعمل بالتسبيح والتقديس والذكر والقنوت والعبادة له، ومباني الإسلام كلها وشعبه أجمعها، واستسخرها في ذلك كله لعباده تؤدي شهادتها لربها عندهم، وتنفق ما أتاها الله عليهم كل في مقامه وعلى مرتبته ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠] إلى غير ذلك من الشواهد.

ولما أن خلق الله الإنسان أنفس في وجهه نفس الحياة فصار حيًا بنفس حية، وأظهر له القدرة والعلم والإرادة والحياة، وأظهر فيه كثيرًا من الأسماء والصفات، ثم سواه بأن ركب فيه العقل هو خليفة الله في الإنسان، فتمت به الصفات واستوت، فظهر تعاطيه واستكباره وإباؤه وعجبه وأضداد ذلك، فعرض عليه الأمانة وكلفه بحملها على ألا ضمان بعصمة ولا بمعونة فتحملها لزعامته، ونظر إلى الثواب إن صدق ووفى قبل نظره إلى العقاب إن كذب وأخلف، ولتمام خلقته واستوائه وجد فيه الاختيار، فقابله موجده بالاختيار كما قابل زعامته بالامتحان، ثم الإنسان في درجته من الخلقة لم يكمل بعد، بل هو كما وصفه العالم به من قول الحق ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ [الأحزاب: ٧٢] ظلومًا لنفسه ولسواه، جهولاً بنفسه وبربه - جل ذكره.

ثم لما أدخل الله على الإنسان روح الإيمان حيى به فوجد الله وعبده على الوحدانية، وشهد له بالملك والحمد، وأنه على كل شيء قدير، استعمله له بأن رد منفعة عمله إليه، وأحياه به حياة طيبة، وأعده له نزلاً عنده في اليوم الآخر، ثم إن ارتقى في أسباب العلم وتبوأ بحبوحة الإيمان كتب في قلبه الإيمان، وأيده بروح منه، ولما إن كان هذا الروح منه منسوبًا إليه نالته بركته، وأشاع عليه من نوره فكشف له عن حقيقة كلمة «لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم» وفقهه في معنى قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] وأشهده عبادة المعبود وسؤال المسؤول على علم وفهم.

قال الله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي: شهدوا له بأنه الحق من ربهم ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢] فهذا هو الميسر لعبادة الله - جل ذكره - كما قد سخر السماوات والأرض وما بينهما لعبادته ومنافع عباده، وزاد العبد أن جعل له عمله نافلة له عيشًا في الدنيا ونزلاً وذخرًا في الآخرة، فهذا الفرق ما بين التسخير والتيسير.

وبالجملة: فحقيقة الأمانة هي أن العبد كما تقدم خلقه خالقه من تراب، ثم من نطفة إلى أقصى درجات خلقته، وخلقه أيضًا مع ذلك مما عبر عنه قوله الكريم: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر:٢٩] وما عبر عنه قوله: «**إني لأطلع على قلب عبد فأجد الغالب عليه ذكري إلا كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها**»[١] وكما قال: «**ابن آدم مرضت فلم تزرني وعريت فلم تكسني وكنت غريبًا فلم تؤوني وجيعانًا فلم تطعمني**»[٢].

فصورة الأمانة بين هاتين الخلقتين أن يلتزم العبودية التي هو أهلها، ويتبرأ من الربوبية التي أخذ عليها الميثاق ربه، فعلى قدر تحققه في ذلك والتزامه التواضع [وآلاءه][٣] ذبه ورفعه وأعلى قدره؛ ولذلك أخذ عليه الميثاق في البدء الأول في قوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ [الأعراف:١٧٢] فإذا هو لم ينازعه شاكلة الربوبية وألزم نفسه شاكلة العبودية فقد أدى الأمانة، وعلى قدر تعلقه في تحقيق ذلك يكون تحقيق الولاية فيه له، والله المستعان، فافهم فهمنا الله وإياك عنه.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٦٩)، وابن حبان (٢٦٩) بلفظ: «إِنَّ اللهَ ﷻ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا ابْنَ آدَمَ، مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي. قَالَ: يَا رَبِّ، كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟ يَا ابْنَ آدَمَ، اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي. قَالَ: يَا رَبِّ، وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي؟ يَا ابْنَ آدَمَ، اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي. قَالَ: يَا رَبِّ، كَيْفَ أَسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تَسْقِهِ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي؟».

(٣) هكذا في (خ) وهو غريب.

نظم بذلك قوله الحق: ﴿لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [الأحزاب:٧٣] تعلقت «لام» كي هنا بما في الجملة من الحكمة؛ المعنى: فعل الله ذلك أو قضى ذلك أو ما يكون عبارة عن هذا المعنى: ﴿لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ ... وَكَانَ اللهُ غَفُورًا﴾ لذنوب المؤمنين ﴿رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٣] بهم، وأرجع بذلك معنى آخر السورة على أولها.

تفسير سورة سبأ(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١) يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (٢) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٣) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤)﴾ [سبأ: ١ - ٤].

قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَهُ الحَمْدُ فِي الآخِرَةِ وَهُوَ الحَكِيمُ الخَبِيرُ﴾ [سبأ:١] اسمه الله - جل ذكره - والحمد لله: هو الحمد لآلائه، وقد يكون الحمد حمدًا لأجل أسمائه، كقوله: ﴿فَالْحُكْمُ للهِ العَلِيِّ الكَبِيرِ﴾ [غافر:١٢] ويكون الحمد حمدًا لأجل أفعاله، كقوله: ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام:١] ونحو هذا، وجمعت المحامد في أول هذه السورة إلى قوله الحق: ﴿ وَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الروم:٥] هذا عمود هذه السورة خاصة وجميع القرآن عامة، وقد تقدم ذكر هذا.

والحمد الذي في أول هذه السورة هو كقوله: ﴿الحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي المُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ﴾ [الإسراء:١١١] ونحو هذا.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾ [سبأ:٣] يقول: وعلى هذا

---

(١) قال رسول الله ﷺ في فضلها: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ سَبَإٍ لَمْ يَبْقَ نَبِيٌّ وَلَا رَسُولٌ إِلَّا كَانَ لَهُ رفيقًا وَمُصَافِحًا».

من أن الحمد كله له، وكل حمد فموجود عن الحمد الذي له، وأنه الإله لا إله سواه، وأن له الوجود أجمع، كل وجود فموجود عن وجوده العلي لا موجد سواه، وعلى ذلك من تيسيرنا الذكر وتبيان الآيات يقول: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾ وقد ذكرها عبارة عن الإعادة بعد البداية وأحكام ما بعد ذلك، ثم قال - عز من قائل: ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ:٣].

أعلم ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه بعظيم اقتداره وإحاطة علمه مضاء مشيته، وإن مآل الذوات إلى كتابه ومجيئها من كتابه، وما ينقص من أجسام الموجودات وما تخلف فيها، وما يعدم وما يوجد، كل ذلك مجيئه من كتابه ومآله إلى كتابه المنتسخ من عليّ علمه، وقد تقدم ذكر تبيان الكتاب المبين وأن وجود الموجودات في ذلك كالمشاهدة العليا، وأن وجود المعدوم لديه كالمشاهد الموجود.

ثم قال ﷻ: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [سبأ:٤] «لام» كي متعلقة بمحذوف تقديره: قضاء الله ذلك، أو ما يكون معناه هذا ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ إلى قوله: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ هُوَ الحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ العَزِيزِ الحَمِيدِ﴾ [سبأ:٦] يقول: لتأتين الساعة وما بعدها للجزاء، وليقف الذين أوتوا العلم على أن الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد، كما قال ﷻ: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق:١٢] وكقوله: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ [الرعد:١٩].

﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى
ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ
﴿٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ
جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ فِي ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ

ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ
بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾﴾
[سبأ: ٥ - ٩].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [سبأ:٧] مما تقدم منعه هو من فضل الآلهة، وهذا تكذيبهم بفضل النبوة، وإنكارهم البعث الآخر الذي هو بعث الذوات في أجسامها هو من قبيل إنكارهم كمال الصفات - تعالى الله عن وصفهم وافترائهم - وسياقه عنهم ذلك سياق التعجب والتهزيء، ثم قالوا: ﴿أَفْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ﴾ [سبأ:٨] إلى هنا انتهى قول الكافرين.

يقول الله - جل من قائل: ﴿بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي العَذَابِ وَالضَّلالِ البَعِيدِ﴾ [سبأ:٨] أي: في هذه الدنيا.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إلى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [سبأ:٩] أحالهم - عز جلاله - على الاعتبار، وقرعهم بقلة الفهم، يقول - جل ذكره: أفلم يروا أنا بثثناهم في خزائن السماوات والأرض فأنزلناهم في الماء إلى الأرض، وخلقناهم منها بأمرنا فكما خلقناهم من ذلك، كذلك نعيدهم عودًا بعد بدء، ثم قال: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أو نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ إهلاكًا لهم وتدميرًا لأجل كفرهم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [سبأ:٩] أناب إلى ربه: أحبه فعبده على الدين القيم الذي خلق عليه السماوات والأرض؛ فيكشف الله - جل ذكره - له اليقين عن الوجود العلي، ومن مشاهدة الخزائن في الدنيا والآخرة عبرة من هذه إلى ذلك.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ
ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ
ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ
بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن

مَحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ [سبأ: ١٠ - ١٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً﴾(١) [سبأ:١٠] الفضل: ما زاد على المقدار العدل، وما ذكر الله - جل ذكره - أهل الخصوص في الأغلب الأوصف ما أتاهم بأنه من فضله فتطلبه فإنه كثير وجوده في القرآن، وفي هذا دليل شافٍ أن أمر العالم ينشأ نشأ، فأعطى الله - جل ذكره - لكل طبق من الموجودات قدرًا ما، وانتهى جريان العوائد إلى الإنسان، وتلك منزلة العدل، لكنها بالإضافة إلى ما دونها من المراتب محسوبة في جنبة الفضل.

ثم ما وراء منزلة الإنسان التي هي دون خرق العوائد هو الفضل؛ أي: على مرتبة الإنسان، ثم لأهل خرق العوائد منزلة عدل تنتهي بهم إليها، ويكون ما وراء ذلك **فضلاً**، وكان الذي أوتيه داود عليه السلام وابنه سليمان فيما سبيله العبادة والملك، وكشف عن كثير من وصف الحق المخبأ في السماوات والأرض فضلاً عظيمًا.

قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الحَمْدُ للهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ﴾ [النمل:١٥] إلى قوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الفَضْلُ المُبِينُ﴾ [النمل:١٦].

قوله تعالى: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ [سبأ:١٠] قرأها الحسن: «يا جبال اوبي معه» بغير همز، ويروى أنه كان يقرأ: «يا جبال أُوْبِي معه» بضم الهمزة وسكون الواو؛ أي: سيري معه، وقيل: عودي معه، التأويب عند العرب: تباري الركاب،

(١) الفضل: النبوة، وقيل: الزبور، وقيل: حسن الصوت، وقيل: العلم، وقيل: غير ذلك، والمراد هنا: حسن الصوت، وكان داود ذا صوت حسن، وفي الحديث: «أن رسول الله ﷺ قال لأبي موسى الأشعري: لقد أوتيت مزمارًا من مزامير آل داود». **تنبيه**: قال عبد الله بن المغفل: «رأيت رسول الله ﷺ راكبًا على ناقته، وهو يقرأ سورة الفتح قراءة، وهو يرجع ويقول: ءآ ءآ». واستحسن كثير من الفقهاء القراءة بالألحان والترجيع، وكرهه مالك، وهذا جائز، لقول أبي موسى لرسول الله ﷺ: «لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحبيرًا». أراد لحنته بالترجيع. [الأحكام الصغرى ص٥١١].

وأكثر ما يكون ذلك مع ترجيع الحادي حدوه فتتسابق الركاب في حد السير[١].

فمعنى قوله - جل من قائل: ﴿أَوِّبِي مَعَهُ﴾ أي: سيري معه تسبيحًا لله وذكرًا، وقراءة: رجعي معه ما رجع، عودي إلى ذلك معه ما عاد؛ ولذلك قال، والله أعلم بما ينزل: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص:١٨ - ١٩] ونصب «الطير» قالوا: على تأويل وتأويب الطير، وقيل: إنه منصوب على معنى: مع الطير، كما تقول: قمت وزيدًا؛ أي: مع زيد، والأولى - والله أعلم - أن يكون منصوبًا على معنى سياق الآية التي في سورة ﴿ص وَالْقُرْآنِ﴾ [ص:١].

قوله: ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ﴾ فيكون معنى الكلام وتقديره: يا جبال أوبي معه؛ أي: رجعي كما تقدم، وأحضرنا له الطير محشورة كل له أواب.

قوله ﷻ: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ﴾ [سبأ:١٣] ربما كان معنى المحاريب: المساجد، وربما كان المراد بها هنا: المجالس والعلالي، وكل بناء مرتفع محراب، قال الشاعر:

ربة محراب إذا جئتها ... لم أدن حتى أرتقي سلمًا

والتماثيل: جماعة التمثال، وهو اسم لكل شيء مصور على صورة غيره، وقد كان من مضى يصورون الملائكة والأنبياء وصالحيهم في مساجدهم وفي مواضع نظرهم ليزدادوا بذلك زعموا عبادة، ولا أرى هذا إلا كان محظورًا غير مباح في شرع غيرنا كما هو في شرعنا، وإن كان كثيرًا ما ينقلبون إلى ذلك؛ لأنه تشبيه بالله ﷻ في الصنع والخلق؛ لذلك كان عذاب المصورين في جهنم غايته أن يطوقوا نفخ الروح فيما خلقوه.

قال رسول الله ﷺ: «وليسوا بنافخين الروح فيها أبدًا»[٢].

قال رسول الله ﷺ: «أولئك شرار الخلق عند الله»[٣].

---

(١) انظر: المحرر الوجيز (٥/٣٣٦)، وكتابنا: تفسير الحسن البصري (١/١٧٥).

(٢) أخرجه بنحوه البخاري (٢٢٢٥).

(٣) أخرجه البخاري (٤٢٧)، ومسلم (١٢٠٩).

وما كانت رؤية أولئك تزيدهم في العبادة، وإنما هي مشاهدة من لا مشاهدة له لا يعقلون ولا يبصرون.

وجه:

أرى - والله أعلم بما ينزل - أن التماثيل التي كانت الجن وحكماء الإنس يعملونها لأهل ذلك الزمان الذي كان فيه سليمان ﷺ، وكان يأمر بها فتعمل له تماثيل الهيئة، يصورون في ذلك مجاري الأفلاك ومواقع النجوم، ويقربون بالتمثيل كيف خلق الله السماوات والأرض الحق، ومسالك ذلك الحق بالأمر في التمثيل به؛ ليتأكد بذلك اليقين، ويقرب العلم ويسهل التذكر واعتبار الأفكار؛ لتقرأ العقول ذلك نظر التقريب صحة ذلك واتصاله بعلم النبوة وإشراق نورها.

والجَوْبَةُ: الحوض العظيم تشرب فيه الإبل والمواشي، وهي كالمواجل الممسكة للماء، شبه بذلك تلك الجفان المعمولة له يومئذٍ لعظمها، والقدور الراسيات؛ أي: المقيمات في موضع واحد لا تزول لعظمها ولا تنقل، توقد النيران تحتها فتطبخ فيها، وإنما يصف في هذا عظم الملك وفخامة الشأن.

واعلم أن ملك سليمان ﷺ من أعظم الدلائل على وجود ملك الآخرة لأجل وجود المشاهدة، وما وصفه الله - جل ذكره - من وجود موجوداتها فيما هنالك كان عمدة ملكه تسخير الرياح والسحاب والجن وحكماء الإنس والطير والجنة في الآخرة عمدة موجوداتها، على أن الله - جل ذكره - غرس أوائلها بيده واستعمل لها ملائكة عليين ورياح ما هنالك وسحاب ما هنالك وأرضه وموجوداته ﴿وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ﴾ [الرعد:٢٦] إلا قليل ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ القِطْرِ﴾ [سبأ:١٢] قيل: هو النحاس، وهو فيما هنالك سائل، كما ألان لأبيه داود - عليهما السلام - الحديد، وهو فيما هنالك لين منه، تفتل سلاسل جهنم، أعاذنا الله برحمته منها.

قال الله - جل من قائل: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [المسد:٥] أي: مفتول محكم الفتل.

قال الله - عز من قائل: ﴿وَأَنزَلْنَا الحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد:٢٥] فعدد من إنعامه أن أنزل الحديد في بأسه وشدته؛ ليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب؛ ولينتفع بتلك الشدة العباد، وكانت الجبال تسبح معه والطير، وكذلك موجودات

الجنة تهب رياح الرحمة على أشجارها ونباتها، ولها على ذلك تسبيح وتهليل وتحميد بأصوات لم يسمع السامعون مثلها، وكان عند داود ﷺ من ذلك علامة وهو على ذلك آيةُ ذلك عندنا ما يخلق الله عند هبوب الرياح فيما تمر عليه من أصوات مسموعة وتسبيح، وإن كان معجمًا في حقنا فكان عندهما مفهومًا، وكذلك جواب الصدى دليل على ترجيع الجبال وتأويبها معه وآية على ما هنالك، ثم صار ذلك كله إلى سليمان وداود - عليهما السلام - وزاده الله الملك المعجز وكل معجز، فهو باب فتح إلى الآخرة، فافهم.

قال الله - جل ثناؤه وتعالى علاؤه وشأنه: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الفَضْلُ المُبِينُ﴾ [النمل:١٦] فاستدل بهذه الدلالة وتفهم عن الله في الحق المثبوت في السماوات والأرض هذه الإشارة، ثم اصعد بإيمانك إلى تلك الحقيقة.

يقول الله - جل من قائل: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾ [سبأ:١٣] أخبر الله - جل ذكره - أن آل داود يعملون شكرًا، لا في كفارات الذنوب، ولعله لصحة توبته غفر له ولآله معه، فكانوا يعملون في الشكر، يقول تعالى: اشكروا لتصلوا إلى ما هذا آيات عليه، فذكر الشكر إثر هذا الخطاب تنبيه على صحة وجود الزيادة.

قال الله - جل وعز: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:٧] والشكر: عمل بطاعة الله جمع نطق اللسان وعمل الأبدان والقلوب، والحمد: نطق باللسان عبارة عما تعقده القلوب من صحة التوجه إلى الحميد المجيد، والحمد قد يكون شكرًا؛ لأنه قد خرج إلى اللسان المعبر عما في القلب منه؛ لأن حقيقته مدح اللسان مع اعتقاد الجنان وعلى قدر المعرفة والعلم، كما أن على قدر المعرفة والعلم مع صحة الاقتداء يكون الشكر.

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ

أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ [سبأ: ١٤ - ١٦].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ﴾ [سبأ:١٤] يقرأ بالهمز وبترك الهمز، فالهمز فيها إعلام بأنها مأخوذة من التأخير؛ لأن صاحبها ينسأ بها عن نفسه الأذى وعن طريقه أيضًا، وقد قالوا: إنها كلمة اتصلت بها «من» فيكون اسم العصا: سأة، فيكون معنى ذلك: دابة الأرض تأكل منسأته، «مِنْ» للتبعيض ظاهر عليه أثر الإغفال لو كان ذلك كذلك كانت تكون التاء مخفوضة؛ فيكون معنى ذلك: دابة الأرض تأكل من عصاه.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي العَذَابِ المُهِينِ﴾ [سبأ:١٤] قول الله الحق لا إله إلا هو، ذكر في تفسير هذا المعنى أنه كان عليه السلام متوكئًا على عصاه، وذكر بعضهم مدة أربعين سنة والجن في عملهم ينظرون إليه فيجدون على العادة، حتى بعث الله - جل ذكره - الأرضة أو السوس فأكلت العصا حتى انتهى منها إلى القدر الذي لا يحمل الاعتماد عليه انكسرتْ فخر، قال: فتفرقت الجن يومئذٍ، وهذا لو كان كما ذكروه لم يكن إلا عن عادة له قبل الموت من اعتماد على العصا طول مدته فأوقف على ذلك بعد الموت، أو مات على حاله تلك وبقي إلى أن خرَّ واقعًا على ما ذكروه، ولم يكن حاله في مدة حياته - صلوات الله وسلامه عليه - تلك، بل كان في غزواته والريح تحمله والطير تظله والجن والإنس حوله، يسير مبتكرًا شهرًا ورواحها شهرًا.

وكان يلزمه من حق الله - جل ذكره - والمسلمين وحق نفسه وأهله ووفوده ما يلزم مثله، وعلى هذا فليس يصح وجوده قائمًا على عصاه أبدًا حتى يكون ذلك المعهود منه، إلا أن يكون ذلك تمثالاً وضعه في حياته علمًا للمستسخرين، وأوعز إليهم بالجد والاجتهاد في عملهم ذلك ما رأوا التمثال، ولما توفي بقى الأمر على ذلك لبقاء ذلك التمثال المدة المقدرة حتى خرَّ وأخفى موته كما قد يخفي موت الملوك لا سيما مثله، ويقيم الأحكام من أهل المقامة بعده، فكيف هذا القيم لم يجدد منسأة غيرها ليدوم الجن في ذلك العذاب المهين؟ وإن كانت الجن قد عمى عليهم علم ذلك فلِمَ لم يفقدوا اجتماع الطير ومقاماتها في رتبها والريح المسخرة

والسحاب إلى غير ذلك؟!.

وما أرى ذلك إلا مثلاً ضربه الله ﷻ لا يفهم سر المراد منه إلا على صيغة هذا الخطاب أو لما شاءه من حكمته، والمنسأة عبارة عن النسيان، كما العصا عبارة عن العصيان، وأصل العصا لآدم ﵇، قيل: إنها أنزلت عليه من الجنة.

قال رسول الله ﷺ: «**كانت عصا آدم من شجرة الخلاف** - وهي شجرة الصفصاف - **في دار الدنيا**»(١).

قال الله - عز من قائل: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ﴾ [طه:١١٥].

وقال: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه:١٢١].

فوجه الحكمة في إمساكه العصا: أن يتذكر بها عصيانه؛ ولأنها منساة أن يتذكر بها نسيانه العهد، وقد قرأها حميد: مَنساة - بفتح الميم - وهي مَفْعَلَةٌ من النسيَان، وأمَّا مِنساة - بالكسر - فهو اسم، كمكيال من كيل، وميزان من وزن، ومرباع من ربع، وهو كثير، ومن قرأها «منسأة» بالهمز؛ ليؤخر بها عنه النسيان بالذكر، وليذكر متعمده الله، جل ذكره.

قال موسى ﵇ وقد سأله ربه: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ [طه:١٧] وهو أعلم ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ [طه:١٨] يعني، والله أعلم بذكره المآرب: ما تقدم ذكره من التذكار بها، فإن ذلك ليس يبعد على مثله في نبوته ورسالته ﵇ فعليها اعتماده، وهي إمامه وقائده وهاديه ومذكرته، وبها يبطش وبها استكفى الأذى، ويبعده عن نفسه بتذكر هذا كله من أسماء ربه فيها، ولذلك كان رسول الله ﷺ إذا خطب أمسك في يده عصا أو قوسًا وتركها سنة في أمته من بعده؛ إشعارًا بأن ظاهر ذلك الاعتماد لما فيها من معاني أسماء تقدم ذكر بعضها، وباطنه تذكر أنت عصيانك تذكر ربك، لا تعظ الناس وتنسى نفسك، لا تُذكِّر الناس ربهم وتنساه، لا تقدم سواك إلى الخيرات والذكر وتتأخر أنت.

وأمَّا إمساكه على بعض أحايينه القوس فهو عصا من حيث هو تكأة ومنسأة،

---

(١) لم أقف عليه.

وفي إمساكه استشعار جهاد النفس وجهاد العدو الباطن والظاهر، وكان الأنبياء والمرسلون والصالحون بعدهم خلف عن سلف يمسكون العصا، والعصا يعبر بها عن الأمر، فيعتبر بصحتها واجتماعها عن اجتماع الأمر وسلامته، ويعبر بانشقاقها عن تفرق الأمر، وبقيامها عن قيام الأمر، وبإلقائها عن استقراره، وبتزيالها عن التفرق والبين والثريان، ويعبر بدابة الأرض عن الدجال أو أي دجال كان من الدجاجلة.

ولما قضى الله، جل ذكره ﴿عَلَيْهِ المَوْتَ﴾ يعني: الأمر قائمًا على حاله قبل وفاته ﷺ ما شاء الله، إمَّا كما ذكروا أربعين سنة، أو كما هو في علم الله - جل ذكره - وقد روى قيس بن سعيد عن ابن عباس أنه قرأ هذه الآية: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الغَيْبَ مَا لَبِثُوا﴾ حولاً ﴿فِي العَذَابِ المُهِينِ﴾ [سبأ:١٤] فكان أمره على قيامه لا يستنكر الناس منه شيئًا، والقَيم الخَالف بعده يسير بهديه ويسوس الأمر، إلى أن أنتج له دجال يناقض الأمر ويستر مناقضته، فخر الأمر لما قام ذلك مقام الأرضة أو السوس تأكل العصا والمنسأة.

قوله - جل وعز: ﴿تَبَيَّنَتِ الجِنُّ﴾ وقرأها أُبي وابن عمر وابن عباس والضحاك بن مزاحم: «تبينت الإنس أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب»، ويُروى عن ابن عباس: «تبينت الإنس أن لو كانت الجن تعلم الغيب ما لبثوا حولاً في العذاب المهين» وقرأ يعقوب: «تُبَيِّنت الجن» بضم التاء والباء، وقرأ ابن عباس وغيره: «دابة الأَرَض» بفتح الراء، فعلى هذا يكون المفهوم أن إخبار الله - جل ذكره - عن فخامة الملك وعظم قدره، وأنه أمسكه عليه كما يمسك هدى الأنبياء بعدهم عليهم إلى أن يغير لأجل ذنوبهم.

قال رسول الله ﷺ: «**ما من نبي إلا كان له أصحاب من بعده وحواريون من أمته يهدون بهديه ويستنون بسنته إلى أن يخلف بعدهم خلوف...**»[1].

وقال ﷺ: «**ما من نبوة تكون إلا تناسخت إلى أن تكون ملكًا**»[2].

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٩٦٦٥)، والبيهقي في دلائل النبوة (٢٦١٦).

(٢) أخرجه الطبراني (٢٧٨)، ومسلم (٢٩٦٧)، وأحمد (١٨٠٤١، ٢١١٥١).

عبر عن مكث الأمر بعده حال الاستقامة بمعنى: القيام، وبالمنسأة: عن اجتماع الأمر، وبأنه خرَّ عن فساده وتفرقه وتغيره، وبذكر دابة الأرض عمن يكون ذلك على يديه.

قال رسول الله ﷺ: «**ما من نبي إلا كان له من أصحابه حواريون وأصحاب يأخذون بأمره ويهدون بهديه، ثم يخلف من بعدهم خلوف يهدون بغير هديه ويعملون بغير سنته، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل**»[1].

والمراد بما ضرب به المثل: أنه أبقى ملكه المعجز مصاحبًا لمن يخلفه بعده ما صلحوا، فلما عبروا عبرنا بهم حتى أنه كان من حسن استمراره لم يستدل الجن على موت النبي عليه السلام بشيء يخالف ما كان عليه من هدى وتسخير وأمر معجب، والشواهد على أن العصا يعبر بها عن الأمر كثيرة كقولهم:

فألقت عصاها واستقرت بها النوى ... كما قر عينا بالإياب المسافر

وقال الآخر:

فألق عصا اليسار عن عاتق النوى ... فليس بمعطيك النجائب والركب

وهو كثير.

قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ**﴾ [سبأ:١٥] جاء أن رسول الله ﷺ قال: «**سبأ اسم رجل ولد له عشرة من الولد**»[2] وقد تقدم ذكره في سورة النمل.

قوله تعالى: ﴿**فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ**﴾ [سبأ:١٦] «**العرم**» الشديد، قاله ابن عباس ﷺ وقيل: «العرم» الخُرَذ الذكر، وقيل: «العرم» اسم لذلك السيل، وكان ماء أحمر أرسله الله على السد فخرقه، وقيل: «العرم» المسناة بلسان أهل اليمن، وهو بناء من حجارة، جمعها: عرمات، الواحدة: عرمة، وهي الحجارة المجموعة.

﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى

---

(١) أخرجه أحمد (٤٣٧٩)، ومسلم (٥٠)، والبيهقي (١٩٩٦٥)، وابن منده (١٨٣).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣٥٤٤).

ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرٗى ظَٰهِرَةٗ وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾
فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ
فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴿١٩﴾ وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا
مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ
مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ﴿٢١﴾ ﴾ [سبأ: ١٧ - ٢١].

قوله تعالى: ﴿وَهَلْ نُجَازِي﴾ أي: بالعقوبة ﴿إِلَّا الكَفُورَ﴾ [سبأ:١٧] ومن الكفر ما هو أكبر ومنه ما هو أصغر، فالكفر الأكبر يعاقب عليه لا محالة بالخلود في جهنم - أعاذنا الله برحمته منها - والكفر الأصغر هو في [مسبته][(١)] وإن عاقب عاقب ضربًا ما من العقاب ثم أصاره إلى رحمته، هذا إن لم يغفر له فهو إذًا لا يعاقب إلا كفورًا ﴿مَا عَلَى المُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللهُ غَفُورٌ﴾ لأهل الإيمان ﴿رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:٩١] بالمؤمنين أهل الاستقامة، وأيضًا فإن المجازاة مأخوذ من المماثلة، يقال: هذا يجزي عن هذا، والكفور يجازى بالسيئة مثلها، وأمَّا المحسن فإنه تضاعف له الحسنة أضعافًا كثيرة، فلا تكون المجازاة على حقيقتها إلا للكفور.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾[(٢)] [سبأ:٢٠] المعنى إلى آخره رجع الخطاب منتظمًا بمعنى قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ﴾ [سبأ:٧] إلى قوله : ﴿بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي العَذَابِ وَالضَّلَالِ البَعِيدِ﴾ [سبأ:٨] وقرأ هلال بن أبي بردة وغيره ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسَ ظَنُّهُ﴾ [سبأ:٢٠] بتخفيف الدال، ونصب السين من إبليس، ورفع النون من ظنه، وقال: إنما صدق عليهم الظن، ظنه هو قوله - لعنه الله: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً﴾

---

(١) هكذا في (خ).

(٢) ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ قرأ الجمهور: «صَدَقَ» بالتخفيف ورفع إبليس ونصب ظنه. قال الزجاج: وهو على المصدر؛ أي: صدق عليهم ظنًّا ظنه، أو صدق في ظنه، أو على الظرف، والمعنى: إنه ظنّ بهم، ويجوز أن يكون منتصبًا على المفعولية أو بإسقاط الخافض، وقرأ حمزة والكسائي والأعمش وعاصم: «صدَّق» بالتشديد، وظنه بالنصب على أنه مفعول به. [فتح القدير (١٠٣/٦)].

[الإسراء:٦٢] ﴿وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ﴾ [النساء:١١٩] إلى غير ذلك من مراداته المضلة، وكأن لما لم يجد لآدم عزمًا علم أن بنيه أضعف منه فأقره الرب - جل ذكره - على ذلك من زعامته ولو أنكر عليه ما استطاع ولا قدر، ولولا أن الله - جل ثناؤه - عزله عن المخلصين من عباده لنفذ أمره بذلك الإقرار له، بل قال له: ولله الحمد من قبل ومن بعد ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتبعكَ مِنَ الغَاوِينَ﴾ [الحجر:٤٢].

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ (٢٢) وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٢٣) قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤) قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (٢٦) قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧)﴾ [سبأ: ٢٢ - ٢٧].

قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ [سبأ:٢٣] هذا الخطاب منتظم بما قبله من قوله: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ الله لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ...﴾ [سبأ:٢٢] قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية ثم قال: «**إن الله إذا قضى الأمر في السماء وسمعت الملائكة له كوقع سلسلة على صفوان، فتضع الملائكة أجنحتها خضعانًا للأمر، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحق**»[1] وإنما ذكر الله - جل ذكره - الشفاعة، ومن الذين ينفع الشفاعة منهم **عند الله**.

والظاهر أن أول مفتتح العلم والمعرفة: السجود والصلاة بما فيها من خضوع وخشوع، وأول مفتتح الوجود: الشفاعة لما أوجد حملة العرش - عليهم السلام -

(١) أخرجه البخاري (٤٤٢٤)، والترمذي (٣٢٢٣) وابن ماجة (١٩٤) والحميدي (١١٥١)، وابن حبان (٣٦)، وابن منده في الإيمان (٧٠٠).

يسرهم ليشفعوا لما يريد إيجاده عنده.

قال الله - عز من قائل: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ العَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ فهذه صلاة ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ ثم ذكر شفاعتهم بقوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ [غافر:٧] إلى قوله: ﴿العَظِيمُ﴾ [غافر:٩] فهذه شفاعتهم أذن لهم في ذلك، وعن هذه الشفاعة ينفصل أنواع الشفاعة؛ إذ الإيمان بالله - جل ذكره - وبما يجب الإيمان به هو المقصود من الجملة، وله أوجد الموجودات جمعاء.

وقد قال في غير هذا الموضع: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ﴾ [الشورى:٥] هذه شفاعة من موطن آخر في أهل الأرض في أن يغفر لأهل الأرض ويمهلهم إلى الأجل المسمى.

وقرأ أبو عبد الرحمن «حتى إذا فرغ عن قلوبهم» بالراء والغين معجمة مرفوعة الفاء؛ أي: فرغت قلوبهم من هيبته وفرغ أصابهم، أو فرغت قلوبهم لفهم كلام رب العالمين، وهم الذين ليس بينهم وبينه واسطة؛ وذلك لجلاله وعظمة شأنه، أعطاهم من الأيد بمقدار ما حملهم[1].

فصل

قد مضى فيما تقدم الكلام في معنى قوله: ﴿المر تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ * اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ [الرعد:١ - ٢] فالوجود كله انقسم إلى قسمين: خلق وأمر، والقرآن انقسم ما جاء به إلى علم التوحيد وما بيَّنه من أسماء وصفات، وإلى النبوة وما جاءت به من رسالة وأمر ونهي، وهذا مقام اتحد فيه ما تقدم ذكره.

---

(١) وقرأ ابن عامر ويعقوب بفتح الفاء والزاي، وقرأ الآخرون بضم الفاء وكسر الزاي؛ أي: كشف الفزع وأخرج عن قلوبهم، فالتفريغ إزالة الفزع كالتمريض والتفريد. [تفسير البغوي (٣٩٨/٦)].

قال رسول الله ﷺ: «**إذا قضى الله الأمر في السماء**» والسماء هنا عبارة عن علو الخليقة «**سمعت له الملائكة كوقع سلسلة على صفوان**»[١] هذا في حق الملائكة، فتضع أجنحتها خضعانًا للأمر، وفي أثناء ذلك يفرغ الله ﷻ عن قلوبهم ما بها من هيبة وخضوع وفزع مع انتظار منهم للفتح، فإذا فرغ ذلك عن قلوبهم فهموا عن ذلك القضاء والأمر النازل عليهم الحق.

وقد كان رسول الله ﷺ يأتيه الملك في مثل صلصلة الجرس هذا في حقه، فيفصم عنه وقد وعى عنه ما قاله، فالملائكة - على جميعهم صلوات الله وسلامه - مع ربهم في مثل ذلك، فالله الذي لا إله إلا هو بما هو له الأسماء الحسنى والصفات العلا، والعباد وهم الملائكة الذين هم حملة العرش ومن حوله إذا نزل الأمر خضعوا، وهو عنوان الخليقة كلها خضوعهم لعزته وتضاؤلهم لعظمته وتصاغرهم لكبريائه؛ لذلك ما سوى مخلوقًا كائنًا ما كان إلا سجد له.

وعنوان الإنباء والنبوة نزول الأمر وقضاء القضاء وإفهام الملائكة - عليهم السلام - إياه، وعنوان الرسالة قولهم إذا سألهم من دونهم: ماذا قال ربكم؟ الحق، بلغوا إليهم ما أفهمهم الله جل ذكره عنه، وكما أفهم هؤلاء - أعني: أصحاب عليين - ما شاء إفهامه كذلك يفهم الذين من دونهم من قول من فوقهم ما شاء إفهامه، ثم كذلك إلى [تقلبهم][٢] إلى منتهى المراد بالأمر، فهذا علم الألولهية والوحدانية والأسماء والصفات والمثل الأعلى مجملاً.

ثم يشفعون فيما أذن بالشفاعة فيه مما رضي، فهذه الشفاعة والمشفوع فيه والشافع الملك الحق، ثم تستدير الدوائر بالتدبير للأمر، ففي ذلك الوجود كله، ثم بعد هذا التفصيل ﴿يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد:٢] فهذا القرآن بما فيه والوجود كله بما فيه، ووسع كل شيءكلامه العظيم، وهو الحق ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الحَقَّ﴾ وهو عنوان الحق المخلوق به السماوات والأرض ثم قال: ﴿وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ﴾ [سبأ:٢٣].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) هكذا في (ف) وغير واضحة في (خ).

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [سبأ: ٢٨ - ٣٣].

قوله ﷻ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [سبأ:٣١] انتظم المراد بهذا الخطاب بمعنى ما تقدم يقول: ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ [النحل:١٠١] وعلى ما فى هذا من التبيان ونور الهداية والفرقان.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [سبأ:٣١] المعنى الأول ﴿بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ في جنبة الكفار التوراة والإنجيل والزبور وجميع ما أنزل الله من كتاب، وأمَّا في مفهوم القرآن ومعهود نظمه والظاهر من توصله فالذي بين يديه هو ما أنبأت به الآية قبل هذا ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ﴾ إلى قوله: ﴿العَلِيُّ الكَبِيرُ﴾ [سبأ:٢٣].

أتبع ذلك وصف حالهم بقوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [سبأ:٣١] عرضوا بلقاء الله ﷻ التوقيف؛ إذ يقال لهم: ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا العَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأحقاف:٣٤].

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ....﴾ [الأنعام:٣١].

﴿يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ:٣١] فيرد عليهم المستكبرون: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ [سبأ:٣٢] فيرد المستضعفون: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [سبأ:٣٣] وقرأ

ابن جبير: «بل مكرّ الليل والنهار»، وقرأ راشد: «بل مكرَ الليل والنهار»، أي: وقت مكر الليل والنهار، وقرأ قتادة: «بل مكر» بالتنوين والرفع «الليل والنهار» بالنصب[1].

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [سبأ: ٣٤ - ٤٢].

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [سبأ:٤٠] إلى قوله: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ:٤١] ظاهر قوله هذا: الاستفهام، ومعناه: التقرير، وإنما يستفهم من لا علم له ﴿الله لَا يَخْفَى عَلَيهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران:٥].

فصل

الملائكة مخلوقون من نور، ومن الملائكة أيضًا: الجن، وهم المخلوقون ﴿مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ قال عز من قائل: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ [الحجر:٢٧] ﴿خَلَقَ الإنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ * وَخَلَقَ الجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن:١٤ - ١٥] ومن هذا القبيل كان إبليس - لعنه الله - مع الملائكة ما شاء الله حتى واقع الخطب الجليل، فكفر وأبعده الله - جل ذكره - وأبلسه لعنًا

(١) قال النحاس: قرأ سعيد بن جبير «بل مكر الليل والنهار» من الكرور، وقرأ راشد وهو الذي كان ينظر في المصاحف وقت الحجاج «بل مكر الليل والنهار». معاني القرآن (٥/٤١٩).

وأهبطه حرًا.

قال الله - عز من قائل: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف:٥٠] ثم من ذريته مقتصد، ومنهم ظالم لنفسه، مبين كما كان من ذرية آدم.

ثم قد جاء من طرق لا تنحصر عددًا: أن قومًا عبدوا الملائكة وهم الصابئة، وجاء في القرآن مرددًا: أن شفاعتهم لا تنفع إلا ﴿أَن يَأْذَنَ اللهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم:٢٦] وأنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى، ولا يشفعون إلا بإذنه، وكان ذلك خطابًا عنى به المعبودين منهم، فقالوا - عليهم السلام: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ أي: تنزيهًا لك وتقديسًا عن أن نعبد أحدًا سواك أو ﴿أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الفرقان:١٨].

ثم قال: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ:٤١] أي: الجن ذرية إبليس إبليس أكثرهم، أي: الجن الكفار منهم بهم بالعابدين لهم يؤمنون.

قال الله - عز من قائل: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات:١٥٨] ﴿إِلَّا عِبَادَ الله المُخْلَصِينَ﴾ [الصافات:١٦٠] فالمفهوم من هذا: أن كل معبود لا ينفع ولا يضر ولا يعلم ولا يستجيب وإن كان يعلم إذا لم يرض، فليس بمعبود على الحقيقة لعابده.

قال الله ﷻ في مثل هذا: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ الله شُرَكَاءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يونس:٦٦] ذلك لأن شركاءهم الذين أشركوا بهم في غفلة عن عبادتهم لهم؛ لذلك قال في هذا الصنف من معبوداتهم الذين هم الجن الكافرون: ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ:٤١] أي: عالمون بعبادتهم راضون بما شهدوا بذلك عليهم عند ربهم.

وأما غير هؤلاء فهم المعنيون بقوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ إلى قوله: ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ * فَكَفَى بِالله شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ [يونس:٢٨ - ٢٩] فلغفلتهم عن عبادتهم قالوا لهم: ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ ولعلم الجن بعبادة من عبدهم ورضاهم بذلك منهم شهد الملائكة عليهم أنهم معبودون لهم وأنهم بعبادتهم مؤمنين، فتحصل من هذا أن المعبود الحق لا إله إلا هو عليم بعبادة العباد، قدير على نفعهم وضرهم، راضٍ بطاعتهم.

والعابدون المؤمنون من شروطهم: أن يكونوا عالمين بمعبودهم هكذا؛ ليصل سائر العابدين بمعبودهم وعلمهم به بعلمه بهم، وشهادتهم له بشهادته لهم، وليصل خضوعهم وخشوعهم بذلك إلى حضرة عظمته وكبريائه وعزته، فأولئك وصلوا ما أمر الله به أن يوصل، ولذلك قال: ﴿وَمَا دُعَاءُ الكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ﴾ [الرعد:١٤] ومن سوى هذا من معبود وعابد فليس بشيء لا يستجيبون لهم ﴿إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إلى المَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ﴾ [الرعد:١٤].

فصل

وإذا كان ذلك كذلك من عبادة المعبود لعابده، بأن يخرج كلامه وفعله ودعاءه ومناجاته من حقيقة ذاته بما يرضي المعبود المشاهد المصدق له، المجيب السميع منه، المؤمن به، يؤمن المعبود بعابده، والعابد بمعبوده، ليتصل بذلك حق الأول من العبد بحقيقة الرب الحق المبين، وهو وصول إيمان المؤمن الأدنى بإيمان المؤمن العلي الأعلى - تبارك ربنا وتعالى - وحينئذٍ تجب الإجابة بالوعد الحق، ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾ أي: عباد الخصوص ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُم يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة:١٨٦] أي: فيقصدون بحقيقة إيمانهم المتصل بحقيقة الآل من ذواتهم حقيقة الحق المبين، فيؤمن لهم بإيمانهم، ويذكرهم بما ذكروه، ويستجيب لهم دعاءهم، ولعدم هذه الصفات في تلك الموجودات كان يقول لهم: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلايَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء:٦٦ - ٦٧].

﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾ [الشعراء:٧٢].

﴿فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأعراف:١٩٤] ونحو هذا كثير.

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ

ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَمَا بَلَغُواْ مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ ﴿٤٦﴾ ﴾[سبأ: ٤٣ - ٤٦].

قوله ﷺ: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني: الأمم الماضية ﴿وَمَا بَلَغُوا﴾ يعني: هؤلاء الذين أدركتهم رسالتك ﴿مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ﴾ [سبأ:٤٥] كان أولئك أطول أعمارًا وأكثر أولادًا وأموالاً وأجنادًا وغاشيةً ﴿وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الروم:٩] هؤلاء، والمعشار: جزء من عشرة، يقال: منه عشر وعشير.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ﴾ يعني: موعظة واحدة أو نصيحة، أو ما يكون عبارة عن هذا ﴿أَن تَقُومُوا لله مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ [سبأ:٤٦] يحتمل أن يكون معنى هذا: تقوموا لله بالقسط في أنفسكم وفيمن وليتم أمره، مجتمعين على ذلك يدكم كيد واحدة، ومتفرقين منفردين، فالواحد في طاعة الله جماعة ويكون على هذا، ثم تتفكروا كلام مستأنف، فالتفكر في آيات الله واكتساب المعرفة بذلك أفضل العبادات؛ لأنه يقرب من الذكر في الذكر، ولا تكون المعرفة إلا بطول الفكرة وترداد الاعتبار في خلق الله وصنعه.

فالتفكر يبعث الاعتبار، وبالاعتبار يظهر ما بطن عن العيان، ويحتمل أن يكون معنى قوله: وهو الأوجه، ثم تتفكروا فتعلموا بذلك يقينًا أن صاحبكم ليس بذي ﴿جِنَّةٍ﴾ كما ظننتم فتعلموا بذلك أنه ﴿نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ:٤٦] وتعلموا بذلك أني لست أبغي على تبليغي رسالات ربي أجرًا، وبذلك تعلموا أني إنما أبتغي الأجر ممن أرسلني إليكم، وإذا تفكرتم فيما خلق الله من شيء، وأن الجملة قائمة بإقامة الحي القيوم، علمتم أنه ينزل الأمر من لدنه بالملائكة عليهم السلام، وأنه يقذف بالحق كما قال: «**إذا قضى الله الأمر في السماء سمعت الملائكة...**»[1] ففعله ذلك هو قذفه بالحق؛ لأنه لا يكون منه إلا بالحق، وإذا علمتم ذلك به تعلمون أنه أيضًا يقذف بالوحي إلى من شاء من عباده وتنزل عليه

---

(١) تقدم تخريجه.

﴿المَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾ [النحل:٢] من كتاب وحكمة، وكما تقدم في العبرة في قوله: «**سمعت الملائكة له كوقع سلسلة على صفوان**»[١].

واتخاذ الأمر المتلقى بالنبوة بالرسالة بخضوع العبودية بالتبليغ عنه منفصل، ذلك كله من صفات الإلهية إلى غير ذلك مما ينفصل عن هذا: من إنزاله الروح من أمره مع الملائكة عليهم السلام، ويدخل في ذلك: أنه يقذف بالحق الذي هو الإيجاد، أو الهداية على الباطل الذي هو العدم أو الإضلال، فيكون ما يريده من الإيجاد أو الهداية، كما قال: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى البَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء:١٨].

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾ [سبأ: ٤٧ - ٥٤].

وبالتجمع على طلب الحق والتفرع لذلك يعلمون أيضًا أن ما جئت به حق لا مرية فيه، وأن كل ما تدعونه من دون الله ما يبدئ وما يعيد؛ أي: لا يخلق ولا يحيي ولا يميت ولا يملك شيئًا، ولتعلموا أني ﴿إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سبأ:٥٠] هذه معلومات عدة أصول لغيرها لا يوصل إلى معرفتها إلا بالتعدد والنظر، وتكوير الذكر على الفكر، والفكر على الذكر، والقضاء بصحيح الاعتبار.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ﴾ يعني: وهو أعلم حين المعاينة عند الموت ويوم تقوم الساعة ﴿وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [سبأ:٥١] هذا - والله أعلم - يوم الحساب تأخذهم الملائكة بالنواصي والأقدام، وأخذه إياهم متى شاء هو من

---

(١) تقدم تخريجه.

قريب، وإنما عبر بلفظ القرب عن تأتي أخذ ما يريد أخذه، وعبر بلفظ البعد في خيبتهم لمكان ضعفهم، وعدم الناصر لهم، وبُعد النجاة منهم بما أضاعوه من الإيمان والاستجابة لله ولرسوله، فناوشوا ذلك بالإيمان منهم والندم حين لا ينفعهم الندم على ما فات ولا الإيمان، والتناوش: التناول على بعد وضعف وتعذر المراد هذا بغير همز، والتناؤش بالهمز: الأخذ والبطش، وربما كان الأخذ بالبطء ويتداخلان جميعًا أحدهما على صاحبه.

يقول عز من قائل: ﴿وَأَنَّى لَهُمُ﴾ [سبأ:٥٢] ودرك ما فاتهم، وتناوله حين الفوت، وتعذر المتناول، بيّن ذلك بقوله: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ﴾ أي: بالرسول أو بالقرآن وبالله، جل ذكره.

قوله تعالى: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [سبأ:٥٣] هذا - والله أعلم بما ينزل - منتظم بقوله الحق: ﴿إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الغُيُوبِ﴾ [سبأ:٤٨] فانتظامه، ويقذف هؤلاء بالغيب وهم لا يعلمونه؛ لبعدهم عنه، ويكون المفهوم من الجزاء: أنهم كانوا يكذبون في الدنيا بالآخرة، فيقطعون بظنونهم ويرجمون بها من بعدهم عن فهم الحق، وقد ضلوا عنه ضلالاً بعيدًا، ولما لم يؤمنوا بالآخرة لم يكن لهم فيها حظ ينفعهم، ولما لم يؤمنوا بالله لم يكن منهم بلقائه ولا بكلامه، بيّن ذلك ما تقدم قوله: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ من الرجعة والإقالة وقبول التوبة التي بها يتوصل لكل كرامة ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ [سبأ:٥٤] الشيع: الأتباع.

تفسير سورة الملائكة
«فاطر»

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾﴾ [فاطر: ١ - ٤].

قوله تبارك وتعالى: ﴿الْحَمْدُ لله فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ الفطر: الشق، والفطر: البدء، هو الذي ابتدأهن على الإسلام، وهو الذي شق عن وجودها ستر العدم بإيجاده إياها على ما فطرها عليه من الحق.

قوله تعالى: ﴿جَاعِلِ المَلائِكَةِ رُسُلاً أُوْلِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾(١) [فاطر:١] مثنى مثل موحد، ومثنى هنا - والله أعلم - بمعنى:

---

(١) قوله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي الخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ تقرير لما يقع في النفوس من التعجب والاستغراب من خبر الملائكة أولي أجنحة؛ أي: ليس هذا ببدع في قدرة الله، فإنه يزيد في خلقه ما يشاء، والظاهر عموم الخلق. وقال الفراء: هذا في الأجنحة التي للملائكة؛ أي: يزيد في خلق الملائكة الأجنحة. وقالوا: في هذه الزيادة الخلق الحسن، أو حسن الصوت، أو حسن الخط، أو لملاحة في العينين أو الأنف، أو خفة الروح، أو الحسن، أو جعودة الشعر، أو العقل أو العلم أو الصنعة، أو العفة في الفقراء والحلاوة في الفم، وهذه الأقوال على سبيل التمثيل لا الحصر، والآية مطلقة تتناول كل زيادة في الخلق، وقد شرحوا هذه الزيادة بالأشياء المستحسنة، وما يشاء عام لا يخص مستحسنًا دون غيره. وختم الآية بالقدرة على =

اثنان عن يمين واثنان شمال وثلاث ثلاثة وثلاثة ورباع أربعة وأربعة، أخبر - جل ذكره - أن زيادة الأجنحة في الملائكة من تمام خلقهم وكمال ما أوجدهم له.

وقال رسول الله ﷺ: «**رأيت جبريل** عليه السلام **هابطًا من السماء له ستمائة جناح سادًا عظم خلقه ما بين السماء والأرض**»(١).

وفي أخرى: «**أن رسول الله** ﷺ **وقع مغشيًا عليه، ولما أفاق قال له جبريل** عليه السلام: **كيف لو رأيت إسرافيل إن العرش لعلى كاهله وأن رجليه تحت التخوم السفلى**»(٢).

أتبع ذلك قوله عز جلاله: ﴿**مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ**﴾ [فاطر:٢].

هذا منتظم بمفتتح السورة من الحمد على أفعاله، وحال بين المعنيين بذكر الرسالة، ثم صرف وجة الخطاب إلى أوله، والمراد من ذلك: الإعلام منه بأنه لا يفعل فعل الله غير الله، وإن كان قد أوجد الوسائط ورتب الأسباب في مراتبها، فهو القائم على كل شيء حي كان أو غير حي، وعلى ذلك من وحدانيته في التقدير وإخراج الموجودات بحكم الوحدانية على حكمة السنة في توسيط الوسائط وتسبيب الأسباب أمر بالحد والانكماش إلى المرغوب فيه، وبالهرب من المحذور منه، تعبدًا واختيارًا، فإنه الأول في كل وجود والآخر، وهو الظاهر الذي أظهره، والباطن فيه عن علمه وقدره وقدرته ومشيئته، منه مبدأ كل شيء وإليه مآله وعليه تمامه، عبر عن تحقيق ذلك ما ختم به الآية من ذكر ﴿**العَزِيزُ الحَكِيمُ**﴾ [فاطر:٢].

﴿**العَزِيزُ**﴾ عن مشابهة المحدثين ونقائص المخلوقين ﴿**الحَكِيمُ**﴾ الذي أحسن كل شيء خلقه، وأحكم الخلقة بالحق وأظهرها بالآل، ثم قربه بالإيمان وأبعده بالكفران، بين هذا فيما أعقبه به إلى قوله: ﴿**فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ**﴾ [فاطر:٣] يقول: كيف

=

كل شيء يدل على ذلك، والفتح والإرسال استعارة للإطلاق. [تفسير البحر المحيط (٩/ ٢٢٩)].

(١) أخرجه البيهقي في الاعتقاد (٢٨٤).

(٢) أخرجه بنحوه ابن المبارك في الزهد (٢٢٠).

تقلبون عن حقيقة هي في جبلتكم؟.

أتبع ذلك ما هو في معناه قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [فاطر:٣] نظم تكليف العباد الشكر بما حمد نفسه من أجله من فعله الحكيم وإنعامه العميم، يقول - عز من قائل: ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر:٣] أي: فكيف تقلبون عن هذه الحقيقة وتصرفون عنها مع إيمانكم الموجود في فطركم؟!.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [فاطر: ٥ - ٨].

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [فاطر:٨] نظم هذا بما اتصل به من تأفيكهم عن حقيقة الفطرة المخبوءة في ذواتهم، يقول: زين لهم الشيطان سوء أعمالهم وحسنها لهم، وفي الكلام حذف تقديره ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ [فاطر:٨] وقد أضله الله فمن يهديه من بعد الله من أعرض عن الحق بعدما تبين له، استدرجه الله بنعمه وقرن به شيطانًا يصده عن سبيل الحق ويزين له ضلالته، فكلما أمعن في السير ازداد عن رشده بُعدًا.

أتبع ذلك قوله - عز من قائل: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [فاطر:٨] أي: إن هذا مرادنا منهم وأمرنا وحكمنا فيهم(١).

---

(١) قال ابن عباس: نزلت في أبي جهل ومشركي مكة. وقال سعيد بن جبير: نزلت في أصحاب الأهواء والبدع. وقال قتادة: منهم الخوارج الذين يستحلون دماء المسلمين وأموالهم، فأما أهل الكبائر فليسوا منهم؛ لأنهم لا يستحلون الكبائر. ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ﴾ شبه وموه عليه وحسن ﴿لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ أي: قبيح عمله ﴿فَرَآهُ حَسَنًا﴾ زين له الشيطان ذلك بالوسواس، وفي الآية حذف مجازه: أفمن زين له سوء عمله فرأى الباطل حقًّا كمن هداه الله فرأى الحق حقًّا والباطل باطلاً ﴿فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾. [تفسير البغوي (٦/٤١٣)].

﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ٩ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ١٠ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗاۚ وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ١١ ﴾ [فاطر: ٩ - ١١].

قوله تعالى: ﴿وَاللهُ الَّذي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إلى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ [فاطر:٩] أعلم - جل ذكره - أن إحياءه الموتى يوم يحشرهم يكون عن إرساله الرياح اللواقح، فينزل الماء من السماء إلى الأرض.

قال رسول الله ﷺ: «**ماء كمني الرجال ينبت الله به أجسام الموتى**»(١).

ثم أعلم أن هذا أيضًا آية على إحيائه الموتى «موتى القلوب» لكن بباطن من الأمر، ثم يرسل إليها روح الإيمان فييسرهم لأعمال الصالحات، ويبعثهم إلى طلب مرضاته والعمل بطاعته، ذكر ذلك معنى ومجاورة في سورة الأعراف.

قوله جل ذكره: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ العِزَّةَ فَللهِ العِزَّةُ جَمِيعًا﴾(٢) [فاطر:١٠] يقول، وهو أعلم بما ينزل: من أراد الاعتزاز بالكثرة والأولياء والأنصار والعدة فليطلبها في مظانها وعند حقيقة وجودها، وإنما ذلك عند الله، فإن العزة جميعًا لله ولرسوله وللمؤمنين، ومن ابتغاها عند سواه فحظه الخيبة والخسران، وما كان من ذلك

---

(١) أخرجه بنحوه الطبراني في الكبير (٩٦٤٥).

(٢) ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ قال الفراء: معنى الآية من كان يريد أن يعلم لمن العزة فلله العزة جميعًا. وقال قتادة: من كان يريد العزة فليتعزز بطاعة الله معناه الدعاء إلى طاعة من له العزة؛ أي: فليطلب العزة من عند الله بطاعته، كما يقال: من كان يريد المال فالمال لفلان؛ أي: فليطلبه من عنده، وذلك أن الكفار عبدوا الأصنام وطلبوا به التعزير كما قال الله: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ...﴾ [مريم:٨١ - ٨٢]. [تفسير البغوي (٦/٤١٤)].

فكلمع السراب للظمآن متى جاءه ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ أتبع ذلك ما هو في معناه: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر:١٠].

قال رسول الله ﷺ: «**لا إله إلا الله لا يحجبها عن الله شيء**»(١).

وجاء أن: «**كلمة لا إله إلا الله لو كانت في حلقة حديد لفصمتها حتى تخلص إلى الرب تبارك وتعالى**»(٢).

وقال رسول الله ﷺ: «**وسبحان الله والحمد لله تملأ ما بين السماوات والأرض**»(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر:١٠] معنى ذلك: والعمل الصالح يرفعه الله، أي: يخبؤه في الخزائن على الابتداء والخبر، فيكون الضمير عائدًا على الله - جل ذكره - ويمكن أن يكون أيضًا معنى: ﴿الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ شهادة الحق «لا إله إلا الله» والعمل الصالح يتمها، وإذا أتمها رفعها؛ لأنه من لم يشهد شهادة الحق لم يرفع له عمل ولم يفتح له أبواب السماء.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ [فاطر:١١] يريد، وهو أعلم: إنما يكتب من عمر لمعمر فيبلغه أو ينقص له من ذلك العمر، لأسباب معرضة وأواسط مقدرة، لتعجيل ما لم يشأ الله تأخيره إلى الأجل الأقصى لمشيئة سبقت له في ذلك، كل ذلك مكتوب في اللوح المحفوظ، أي: إن هذا يكون هكذا الأمر كذا وسبب كذا، لقدر كذا ومراد كذا، وهذا يكون هكذا لأمر كذا وسبب كذا لقدر كذا وأمر كذا، كل ذلك عليه يسير.

وهذا - وفقك الله - معلوم من اسمه «المحيط» ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق:١٢] وقدرةً ومشيئةً وإيجادًا، وكما الهوى قد عم متصرفات ساكني البر،

---

(١) ذكره بنحوه السيوطي في اللآلي المصنوعة (٢/٢٩٠).

(٢) أخرجه بنحوه أحمد (٦٧٥٠).

(٣) أخرجه أحمد (٢٢٩٥٣)، ومسلم (٢٢٣)، والترمذي (٣٥١٧) وقال: صحيح. والدارمي (٦٥٣)، وأبو عوانة (٦٠٠)، والطبراني (٣٤٢٣) وابن منده (٢١١) والبيهقي في شعب الإيمان (٢٧٠٩).

وكذلك الماء قد عم بتصرفات ساكني الماء، وسقف السماء قد عم وجود ما تحت أديمها على اختلاف تصاريف الوجود كله، والعرش العلي قد عم متصرفات ما شمله الكون تحت العرش، فكذلك الأمر العلي قد عم متصرفات ما شمله الكون، وكذلك العلم المحيط ومشيئته العالية وقدره الأعلى قد زم جميع المعلومات والمرادات والمقدرات، وكذلك العلم الأعظم واللوح قد وسع كتب الكائنات على وجودها وزم فيه جميع المقدرات، كتب ما شاء كتبه، وتأخير ما شاء تأخيره، وتعجيل ما شاء تعجيله، وتكوين ما شاء تكوينه، وترك ما شاء تركه، بأسباب ذلك وأواسطه وعوارضه وموانعه وموجباته، له الخلق وله الأمر تبارك الله رب العالمين.

و«إن» في قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر:١١] لكفاية لجمع ما تفرق على الفهم جمعه، وزم ما عسر على الوهم زمه؛ يعني: أن يسيرًا عليه أن ينقص من عمر معمر ما فيكون ذلك نقصًا من أجل أجله، ويزيد في عمر معمر ما فيكون زيادة على أجل قد أجله، وكل ذلك قد تقدم فيه تقديرًا وعملا وعلمًا وزمًا؛ لأنه قد أحاط علمًا بما هو كائن كيف هو كائن، وما ليس بكائن كيف كان يكون، لو كان علمه بذلك كله سواء؛ لأنه علم واحد أحاط بجميع المعلومات ﴿وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر: ١٢ - ١٤].

قوله ﷻ: ﴿وَمَا يَسْتَوِي البَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ

أُجَاجٌ...﴾[1] [فاطر:١٢] الفرات: أطيب الماء وأعذبه، وهو موجود عن فتح الله رحمته، والأجاج: الملح الزعاق الكريه، ومنبعث وجوده كذلك عن فيح جهنم، هذا مثل ضربه الله - جل ذكره - للإله الحق - جل ذكره - ولما يعتقدونه من إله باطل.

يقول: وما يستوي هذا ولا هذا وإن كانا معًا توجد عندهما المعايش وطلب الأرباح والحلي، وربما كانت الفوائد في الماء الملح الذي هو البحر أعم والمنافع أكثر، فإنما ذلك بفضل رحمته في الفتح، وهو المعنى المعبر عنه بقوله في كتابه العلي السابق الصادق: «**إن رحمتي تغلب غضبي**»[2] فذلك الموجود من منافع ما هنالك عن إثارة بركة قدمه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، وقد تقدم في «سورة البقرة» إلماع تقريب يكتفي به اللقن الثبت، وإلى هذا فإن المعايش والمنافع في هذه الدار حيث هو معظمها وعمدة وجودها، والبحار أعم وأكثر من الأنهار.

قال الله ﷻ: ﴿وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [البقرة:٣٦] ولما كانت الدنيا هي السجن للمذنبين، وكان ذلك عمدة لوجودها والموجود فيها فكان المتاع في جنبة ذلك أكثر وأعم.

قال الله ﷻ: ﴿وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ * وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:٣٣ - ٣٥] فأخبرك الصادق النصيح - جل ذكره - بسر المراد، وأنه لولا

---

(١) ذكر سبحانه نوعًا آخر من بديع صنعه وعجيب قدرته، فقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ فالمراد بـ«البحران» العذب والمالح، فالعذب الفرات الحلو، والأجاج المرّ، والمراد بـ﴿سَائِغٌ شَرَابُهُ﴾: الذي يسهل انحداره في الحلق لعذوبته. وقرأ عيسى بن عمر: «سيغ» بتشديد الياء، وروي تسكينها عنه. وقرأ طلحة وأبو نهيك: «مَلح» بفتح الميم. ﴿وَمِن كُلٍّ﴾ منهما ﴿تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ وهو ما يصاد منهما من حيواناتهما التي تؤكل ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ الظاهر أن المعنى: وتستخرجون منهما حلية تلبسونها. وقال المبرّد: إنما تستخرج الحلية من المالح، وروي عن الزجاج أنه قال: إنما تستخرج الحلية منهما إذا اختلطا، لا من كل واحد منهما على انفراده، ورجح النحاس قول المبرّد. [فتح القدير (٦/١٣٠)].

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٠٤)، ومسلم (٧١٤٥).

فضل رحمته لجمع خيرات هذه الدار في تلك الجنبة وأبقى جنبة التقوى في هذه الدار دون خلد ولا متاع؛ توفيرًا عليهم ذلك لدار خلودهم.

قال رسول الله ﷺ لعمر ﷺ قد ذكر ملك فارس والروم وقلة الشيء عند رسول الله ﷺ فقال له: «**يا عمر، أو لا ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟**»(١) إنما يوجد طعم الإيمان وبرد اليقين بروح الإيمان وروح الرضا، وحياة العمل وصفات تلك الحياة، والكفار لا يجدون أجاج الكفر وكربه [...](٢) لوجود موت الجهل وعدم صفات الحياة التي أوجدها المتقون بروح الإيمان.

أتبع ذلك ما هو في معناه قوله: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [الحديد:٦] مثل للكفر والإيمان وإتباع هذا هذا، وهو أيضًا مثل للإله الحق - جل وعز - ولما لا يعلمونه من إله باطل، يقول ﷻ إعلامًا لعباده بأنه أوجد الكفر والإيمان، وخلق ما هو مثل للحق والباطل، ونظم على ذلك معاني موجودات الدنيا وجزاء الآخرة، ليري حكمته وتظهر قدرته، ويجعل ذلك كله ثوابًا لعباده المؤمنين في الدار الآخرة لإيمانهم بذلك، وعملهم بطاعة بارئهم في ذلك.

قال الله عز من قائل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الفُلْكَ تَجْرِي فِي البَحْرِ بِنِعْمَةِ اللهِ﴾ فهذه إثارة رحمته فيها ودلالة على موجودها في الآخرة، لذلك قال: ﴿بِنِعْمَةِ اللهِ﴾ وقال: ﴿لِيُرِيَكُم مِنْ آيَاتِهِ﴾ [لقمان:٣١] لما قد يعتري البحر من اغتلام، والفلك من هول موج وريح عاصف وغرق مع ما تقدم ذكره وأشار إليه في جنبة الإنعام، ثم جمع ذلك بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [لقمان:٣١] وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَو أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان:٦٢].

وإيلاجه الليل في النهار والنهار في الليل هو ما ينقصه من هذا فيزيده في هذا، أجرى حكمته في ذلك على تدوار دوائر محكمة التدوار، وكذلك سخر الشمس والقمر لمنافع العباد، كل يجري لأجل مسمى، يعلم بذلك أن الدنيا لها أجل مسمى ينتهي إليه أمدها، ثم تخلفها الآخرة كما يخلف النهار الليل.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٢٩)، ومسلم (١٤٧٩)، وابن ماجة (٤١٥٣)، وأبو عوانة (٤٥٧٣).

(٢) غير واضحة في (خ)، وغير موجودة في (ف).

أتبع ذلك قوله الحق: ﴿ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ المُلْكُ﴾ [فاطر:١٣] كما قال: ﴿هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ﴾ [الروم:٤٠].

﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر:١٣] قالوا: هو القشر بين لحمة التمر والنواة كالسحاة بين قشر البيضة، وكذلك البصلة، والمراد: أنهم لا يملكون شيئًا ولا يستطيعون ولا يسمعون ولا يبصرون ﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ القِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ يقول الله عز من قائل: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر:١٤] ما أعذب خطابه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه وأبلغ نصائحه وأكرم مواجهته.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ
وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ
حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟
ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ
﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ
ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ
بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ
نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾ [فاطر: ١٥ - ٢٦].

أتبع ذلك ما هو في معناه قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الفُقَرَاءُ إِلى اللهِ وَاللهُ هُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥] هذا دعاؤه لمن فرَّ عنه وشرد عليه، فكيف تراه يدعو من أقبل إليه، ويكرم بذكره من قصده ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٦] أتبع ذلك قوله الحق: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر:١٦ - ١٧] ما قال قط: إن نشأ نفعل كذا، ولو نشأ فعلنا كذا إلا فعله، ولو على بعد كذلك أذهبهم وجاء بقوم يؤمنون بالله لا يشركون به شيئًا، والحمد لله رب العالمين، وقد يكون الإتيان بأمثالهم دلَّ على ذلك الوجود وقوله: ﴿بِخَلْقٍ

جَدِيدٍ﴾ ولم يشترط المؤمنين، لكن قضاءه لا يخليه من رحمته وفضله.

أتبع ذلك قوله - جل من قائل: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ [فاطر:١٨] يقول - جل ذكره - إن الذين يأتي بهم من بعدكم لا تلحقكم سيئاتهم، ولا يؤاخذون هم بسيئاتكم كل يحمل أوزاره ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ لا يؤاخذ الابن بما جناه الأب، ولا الأب بما جناه الابن، وكذلك قراباتهم، ثم صرف الخطاب إلى رسوله ﷺ بقوله: يا هذا ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ﴾ أي: لا تطمع نفسك في إقبال من لم يشاء الله إقباله ولا هدايته ﴿وَمَن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾ [فاطر:١٨] تعريض ببشارة هؤلاء، وإليه المصير تعريض بنذارة أولئك.

أتبع ذلك قوله الحق: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ [فاطر:١٩] الكافر والمؤمن، الضال والمهتدي، المقبل إلى ربه والمولي عنه، الجاهل والعالم ﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾ [فاطر:٢٠] ألا له الحق والباطل ﴿وَلَا الظِّلُّ وَلَا الحَرُورُ﴾ [فاطر:٢١] الجنة والنار ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلَا الأَمْوَاتُ﴾ المؤمنون والكافرون ﴿إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي القُبُورِ﴾ [فاطر:٢٢] الذين شاء أن يسمعهم هم المؤمنون الذين أوجد لهم صفات الإيمان من روحهم الذي أيدهم به ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي القُبُورِ﴾ [فاطر:٢٢] إثبات أن الكفار أموات، وإنما يجب الوصف بهذا للكفار الذين في علم الله، أنه لا يجيبهم بروح الإيمان أبدًا، نعوذ بالله من درك الشقاء، لذلك قال والله أعلم بما ينزل: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾ [هود:١٢] كما قال: ﴿فَإِنَّما عَلَيْكَ البَلاغُ وَعَلَيْنَا الحِسَابُ﴾ [الرعد:٤٠].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ

غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾﴾ [فاطر: ٢٧ - ٣١].

أتبع ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ [فاطر:٢٧] إلى قوله: ﴿عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر:٢٨] هذا مثل ضربه - جل شكره - ليعلم به أنه لم يرد أن يهدي العباد كلهم وهو الواحد الأحد الطاهر المطهر القدوس خلق كل شيء، جعل على ذلك الماء آية واحدًا في نفسه، طاهرًا مطهرًا، عذبًا فراتًا، أنزله إلى الأرض، ثم صرفه إلى ما صرفه إليه من نبات محمود ومذموم، وحيوان وأناسي، كذلك وخلق أيضًا - وهو الواحد الأحد - الأرض والجبال فيها القطع المختلفات، والجدد البيض والحمر والسود والغبر، والخبيث والطيب، ويعلم بذلك أن كل وجود فعن إيجاده، وكل كثرة فعن وحدته، أوجد ذلك بجوده، وأتقنه بحكمته لحكمة له في ذلك عن وجوده العلي ظاهرة بقدرته القاهرة.

يقول ﷻ لرسوله ولمن توجه إليه بخطابه من أولي الألباب من عباده: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ﴾ واحد أحد ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ موحدًا طاهرًا مطهرًا إلى الأرض فازدواجًا زائدًا إلى ما كان علق بذلك من معنى الفتح والفيح في هواء الأجواء، وأخرج عن ذلك ما شابه ما عنه وجد أزواجًا من نبات شتى، ومن ﴿ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ [فاطر:٢٧] ومن جنات معروشات وغير معروشات، ومن خبيث وطيب، وغاذٍ وقاتل، إلى غير ذلك مما في الأرض والجبال والحيوان والأناسي من مختلف الألوان والأشكال والأراييح والمنافع والمضار، والأخلاق والملل والنحل والأعمال، والجدد الخطوط في الجبال شبه الطريق بها، والغربيب: هو الأسود الحالك.

يقول الله - جل ذكره: ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: كذلك أديانهم وأذهانهم وأفهامهم ومذاهبهم ومقاصدهم مختلفة، و﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ الأحياء بروح الإيمان، الذين وجدوا طعمه بحياة اليقين والعلم والرضا والإسلام ﴿إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ﴾ أي: منيع لا ينال ما عنده إلا ببذل المحبوب ومفارقة المرغوب وبجشم الموت واقتحام المكروه في الله وعلى سنة رسوله ﴿غَفُورٌ﴾ [فاطر:٢٨] لما يكون في أثناء

ذلك من ذنوب بعمد أو خطأ أو نسيان.

أتبع ذلك قوله - عز من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ الله وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر:٢٩] إلى ﴿غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر:٣٠] هذا وصف لمن خلا من الصالحين الذين أتاهم الكتاب؛ يعني: التوراة والإنجيل وغيرهما الذين قال فيهم: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [البقرة:١٢١].

أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الكِتَابِ هُوَ الحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ الله بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [فاطر:٣١] أي: العباد الذين سبق عليهم علمه بهم من هداية أو ضلالة.

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ ﴾ [فاطر: ٣٢ - ٣٨].

أتبع ذلك: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر:٣٢] هذا المعنى معطوف بحرف «ثم» على ما تقدم من قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ الله﴾ [فاطر:٢٩] وهو وصف لصدر هذه الأمة وهم غررنا، ولكل أمة غرة.

يقول - جل قوله: ﴿أَوْرَثْنَا الكِتَابَ﴾ يعني: القرآن ﴿الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ على عمومهم من لدن الإقرار بالشهادة، وهم على ذلك ثلاثة أصناف ﴿ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ مسرف عليها بكثرة الذنوب وتضييع أكثر الواجبات مع تمسكه بالأصل

و﴿مُقْتَصِدٌ﴾ خلط عملاً صالحًا وآخر سيئًا يتوب ثم يعود، يعمل الخير ثم يقابله من ذنوبه بما يناقضه، وربما تقدم إلى مقصوده، وغلب خيره على شره، و﴿سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ وقرئ «سباق بالخيرات» بإذن الله قد احتوشته العصمة، وأيد بالروح وقصد بالرحمة ﴿ذَلِكَ هُوَ الفَضْلُ الكَبِيرُ﴾ [فاطر:٣٢][(١)].

هذا القسم منتظم بالمذكورين من قبل: ﴿الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ الله وَأَقَامُوا الصَّلاةَ﴾ [فاطر:٢٩] إلى قوله: ﴿غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر:٣٠].

ثم وصل به قوله: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الكِتَابِ هُوَ الحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [فاطر:٣١].

يقول - عز من قائل: جمعوا إلى تلاوة كتاب الله العلم بأنه ﴿الحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ وهؤلاء هم الذين يتلون الكتاب حق تلاوته، وهم السابقون بالخيرات، وهؤلاء - والله أعلم - في هذه الأمة إخوان رسول الله ﷺ الذين يشتاق إلى لقائهم سبعون ألفًا مع كل ألف سبعون ألفًا أو سبعمائة ألف مع كل ألف سبعمائة ألف، فالسبعون ألفًا هم السابقون للمذكورين بقوله: «مع كل ألف سبعون ألفًا» وهؤلاء أيضًا السابقون للمذكورين بقوله: مائة لمن بعدهم المذكورين بقوله: «مع كل ألف سبعمائة ألف» جعلنا الله من الأولين بمنه ورحمته، والقسمان في الفضل دونه ارتفع الأول منهما عن مرتبة الكفر بالله والإشراك به ولم يلحق الأوسط بالأعلى ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ الله وَالله بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران:١٦٣].

قال الله - جل من قائل: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ [فاطر:٣٣] تجمعهم دار الجنة كما جمعهم دين الإسلام والإقرار بشهادة الحق، ومن عدا هؤلاء فهم أهل الكفر بالله ﴿لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾ [فاطر:٣٦] المعنى إلى آخره،

---

(١) عن أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكتاب الذين اصطفينا﴾ إلى قوله: ﴿الفضل الكبير﴾ قال: قال رسول الله ﷺ: «هَؤُلاءِ كُلُّهُمْ فِي الْجَنَّةِ؛ أَمَّا السَّابِقُ بِالخَيْرَاتِ فَإِنَّهُ يَدْخُلُ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَأَمَّا المُقْتَصِدُ فَإِنَّهُ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيْرًا ثُمَّ يَدْخُلُ الجَنَّةَ، وَأَمَّا الظَّالِمُ لِنَفْسِهِ فَإِنَّهُ يُحَاسَبُ حِسَابًا شَدِيدًا وَيُحْبَسُ حَبْسًا طَوِيلاً ثُمَّ يَدْخُلُ الجَنَّةَ، فَإِذَا دَخَلُوا الجَنَّةَ قَالُوا: الحَمْدُ لله الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الحُزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ». [بحر العلوم للسمرقندي (٣/٤٥٥)].

النذير هنا: هو الرسول والكتاب، وقد قيل: الشيب وإن كان من النذر، والمقصود الأول ما ذكرناه، والشيب مذكر كما طول العمر مذكر.

قال الله ﷻ: ﴿أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ [فاطر:٣٧].

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ
رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن
دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ
مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن
تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ
أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا
﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا
سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا
كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا
جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾ [فاطر: ٣٩ - ٤٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾ [فاطر:٤٥] ذكر ﷻ أنه ﴿يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا﴾ [فاطر:٤١] وقد تقدم ذكر هذا[1] فهو لا يزيلها إلا إلى ميقات يوم معلوم عنده، وفي أثناء هذا لو يؤاخذهم بظلمهم لأهلك جميعهم أو لأزال السماوات والأرض وعجل يوم

(١) قال المصنف: فأخبر ﷻ أن زوال السماوات والأرض قد يكون لعظيم الافتراء من العباد، وعتوهم على ربهم وجحدهم الحق وعنادهم له، وإنه هو الذي يمسكها عن ذلك؛ لحلمه وسعة مغفرته. [٢/٢٤٤].

الانقراض، لكن يؤخرهم إلى الأجل المسمى عنده، فإذا كان ذلك وحان الحين والله أعلم بعباده من سبق له في الأزل الهداية والإيمان، ومن سبق له الكفر والضلال، ومن سبق له العفو والمغفرة، عبر عن هذا بقوله: ﴿فَإِنَّ اللهَ كَانَ﴾ أي: في الأزل ﴿بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ [فاطر:٤٥] ولذلك لا يعجله كثرة ظلمهم أنفسهم عن بلوغ الأجل المسمى، والله أعلم بما ينزل ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك:١].

تفسير سورة يس[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يس ﴿١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [يس: ١ - ٩].

قوله تعالى: ﴿يس * وَالْقُرْآنِ الحَكِيمِ﴾[2] [يس:١ - ٢] أقسم بحروف الكتاب

---

(١) في فضلها قال ﷺ: «اقْرَءُوا عَلَى مَوْتَاكُمْ يس» وقال ﷺ: «لِكُلِّ شَيْءٍ قَلْبٌ، وإنَّ قَلْبَ القُرآنِ سُورَةُ يس وَمنْ قَرَأ يس كَتَب اللهُ لَهُ بقراءَتِهَا قِرَاءَةَ القُرْآنِ عَشْرَ مَرَّات» وعن عائشة قالت: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إنَّ فِي القرآن سُورَةً تَشْفَعُ لقَارِئها ويُغْفَر لمُسْتَمِعِها أَلَا وهِيَ سُورَة يس» وعن أبي بكر الصديق ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يس تُدْعَى المُعِمَّة» قيل: يا رسول الله: وما المُعمَّة؟ قال: «تَعُمّ صاحبها خَيْرَ الدُّنْيَا والآخِرَة، وتُدْعَى الدافِعَة القَاضِيَة تَدْفَعُ عنه كُلَّ سُوءٍ وتَقْضِي له كُلَّ حَاجَةٍ، وَمَنْ قَرَأهَا عَدَلَتْ لَهُ عِشْرينَ حَجّةً، وَمَنْ سَمِعَهَا كَانَ لَهُ أَلْفُ دِينَارٍ في سَبِيل الله، وَمَنْ كَتَبَهَا وَشَرِبَهَا أدْخَلَتْ جَوْفَه ألفَ دَواء وألْفَ يَقين وألفَ رَأْفَةٍ ونُزِعَ منه كُلُّ دَاءٍ وغِلّ» وعن أبي أُمامَةَ عن أبيّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأ يس يُريدُ بها وَجْهَه ﷻ غَفَرَ اللهُ لَهُ وأُعْطِيَ مِنَ الأَجْر كَأَنَّما قَرَأَ القُرْآنَ اثْنَتي عَشْرَةَ مَرَّةً، وأَيُّما مَريض قُرِئَ عنده سورةُ يس نَزَلَ عَلَيْهِ بِقَدْر كُلِّ حَرْف عَشْرَة أمْلاك يَقُومُون بَيْنَ يَدَيْهِ صُفُوفًا فيصَلُّون عَلَيْهِ ويَسْتَغْفِرون عليه ويَشْهَدونَ قَبْضَهُ وغُسْلَهُ وَيتّبِعُونَ جَنَازَتَه ويُصلُّونَ عَلَيْهِ وَيَشْهَدُون دَفْنَهُ، وأَيُّما مَريض قَرَأَ سُورَةَ يس وَهُو فِي سَكَرَاتِ المَوْتِ لَمْ يَقْبضْ مَلَكُ الموتِ رُوحَه حَتَّى يَجِيئَهُ رَضْوَانُ خَازنُ الجِنَانِ بشَرْبَةٍ مِن الجَنَّة فَيَشْرَبُها وهُوَ عَلَى فِرَاشِه فَيموتُ وَهُو رَيَّانُ ويُبْعَثُ وَهُوَ رَيَّانُ وَيُحَاسَبُ وَهُو رَيَّانُ، وَلَا يَحْتَاج إلَى حَوْضٍ مِنْ حياض الأَنْبِيَاء حَتَّى يَدْخُلَ الجَنَّةَ وَهُوَ رَيَّان»... إلخ. [تفسير اللباب لابن عادل (٢٧٥/١٣ - ٢٧٦)].

(٢) اختلفوا في تأويل ﴿يس﴾ حسب اختلافهم في حروف التهجي؛ فقال ابن عباس: هو قسم، ويروى عنه أن معناه: يا إنسان بلغة طيء؛ يعني: محمدًا ﷺ، وهو قول الحسن وسعيد بن =

المبين وبالقرآن الحكيم أن محمدًا صلوات الله وسلامه عليه من المرسلين ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [يس:٤] «الياء» من الحروف المعبرة عن الإلهية وما عبر عنها وكان منها و«السين» فيما هنالك - والله أعلم بما ينزل - من الحروف المعبرة عن النبوة والرسالة ﴿وَالْقُرْآنِ الحَكِيمِ﴾ في معهود المفهوم من القرآن: هو ما قص عن الأنبياء والرسل والنبوة والرسالة، ويعبر عن ذلك أيضًا بالذكر.

وقد تقدم أن هذه الحروف المقطعة في فواتح السور هي واسطة بين حروف الكتاب المبين وبين حروف القرآن، ودخلت «اللام» في قوله: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ المُرْسَلِينَ﴾ [يس:٣] لتأكيد التحقيق ﴿لَمِنَ المُرْسَلِينَ﴾ الذين أرسلوا بالصراط المستقيم صراط الإسلام العظيم المفطور عليه الخليقة، فأقسم - جل ذكره - بما هو من الكتاب المبين، وكما أقسم بالقرآن كذلك قال: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص:١] ﴿ق وَالْقُرْآنِ المَجِيدِ﴾ [ق:١] ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم:١] ﴿حم * وَالْكِتَابِ المُبِينِ﴾ [الزخرف:١ - ٢].

أتبع ذلك قوله - جل من قائل: ﴿تَنزِيلَ العَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ [يس:٥] قرئ بالرفع من تنزيل والنصب والخفض:

أمَّا الرفع: فلأنه خبر الابتداء وهو مضمر، كأنه قال: ذلك أو هو تنزيل العزيز الرحيم.

وأمَّا النصب: فعلى الإغراء أو المدح أو المصدر، وأولى من هذا كله أن يكون منصوبًا على التعظيم لشأنه والمدح له.

وأمَّا الخفض: فعلى البدل من القرآن.

وقرأ الحسن وابن أبي إسحق ﴿يس﴾ **بالخفض** ﴿وَالْقُرْآنِ الحَكِيمِ﴾ ﴿تَنزِيلَ العَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ بالياء مفتوحة ورفع الاسمين وقوله: ﴿العَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ «العزيز» للنذارة من بأسه وأليم أخذه، و«الرحيم» للبشارة لمن آمن وأطاع.

= جبير وجماعة. وقال أبو العالية: يا رجل. وقال أبو بكر الوراق: يا سيد البشر. [تفسير البغوي (٧/٧)].

فصل

جاء عن رسول الله ﷺ في فضائل سورة «يس» ووصف ما أعد لقارئها بما يجب التسليم له والتصديق به ما يفوت الحصر ولا يتوهمه العقل، وقال: إن الله - جل ذكره - جزّأ القرآن ثلاثة أجزاء: فجعل ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١] جزء و﴿يس﴾ [يس:١] جزء، وسائر القرآن جزء.

وجاء عن عبد الله بن مسعود أنه قال: «لكل شيء قلب، وقلب القرآن سورة يس» وإنما كانت سورة «الإخلاص» تعدل ثلث القرآن؛ لأنها وصف لله - جل ذكره - ومذكور ما فيها ذكر صفاته وذكر الله لا يعدل به غيره، وهذا جزء من ثلاثة.

الثاني: ذكر السورة وما جاءت به من أمر ونهي.

الثالث: الاعتبار.

وكانت سورة «يس» تعدل ثلث القرآن أيضًا؛ لأجل أنها سردت على الاعتبار ولواحق الإيمان بالغيب وغيب الغيب على ما يأتي ذكره إن شاء الله والاعتبار، فاعلم لا يكون موجودًا إلا بالمصابرة، ومرابطة النفس، وملازمة التذكار، ومطاولة التفكر، حتى يعود ذلك للنفس عادة، ومن لا همة له فلا حراك به إلى طلب، ومن لا جد له فلن تغني عنه الهمة شيئًا، ثم التطهر بالتوبة النصوح ولزوم التواضع للحق وقبوله من حيث وجد، والتبرئ من الحول والقوة وانتظار الفتح من عند الفتاح العليم على هذا مدار هذا الشأن، والله ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد:٣].

وكان يُقال: لا يتم طلب العلم إلا بعد ست خصال: ذهن ثاقب، وشهوة باعثة، وزمان طويل، وجدة وأستاذ، ومعونة من الله، فمتى نقص من هذا شيء نقص من العلم بمقداره.

قوله ﷻ: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ﴾ [يس:٦] يجوز أن يكون ﴿مَّا﴾ هنا مفعوله، فيكون تقدير الكلام: لتنذر قومًا الذي أنذر آباؤهم، ويجوز أن تكون نافية، وهو الأوجه، دل على ذلك قوله: ﴿فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ [يس:٦] والوجهان صحيحان فقد كانت فيهم نذارة إبراهيم وإسماعيل صلوات الله وسلامه عليهما.

قال ﷻ: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف:٢٨] لكنهم

استولى عليهم النسيان، وحالفتهم الغفلة، واستحوذ عليهم الشيطان، فأنساهم ذكر الله فضلوا السبيل.

قال عز من قائل: ﴿مَتَّعْنَا هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ العُمُرُ﴾ [الأنبياء:٤٤] أتبع ذلك قوله الحق: ﴿لَقَدْ حَقَّ القَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ﴾ أي: قوله: «**هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون**»(١) دلَّ على ذلك قوله: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس:٧].

أتبع ذلك ما هو متمم له: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾(٢) [يس:٨] هذا من الغيب كإخباره عن حياة البرزخ وعما هنالك معهود، جعل الأغلال في الأيدي أن تشد إلى الأعناق فاجتزء بذكر الأعناق دون ذكر الأيدي والمضمر الذي في قوله: ﴿فَهِيَ إِلى الأَذْقَانِ﴾ هو الأيدي، يريد: أن أيديهم مشدودة إلى أعناقهم، فأيديهم مجموعة إلى الأذقان والأعناق، والأذقان: مجتمع اللحيين ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ القمح: رفع الرأس، فرؤوسهم مرفوعة، وهذه عبارة عن المنع إلى البطش والنظر في سبل الهدى، وعرض بذكر القمح دون النكوس إلى وصف الكبر، إنما النكوس وصف لهم في الدار الآخرة.

ثم قال - عز من قائل: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس:٩] فأخبر عن عدم البصر والمشي إلى الرب - تبارك وتعالى - كقوله ﷺ: «**وإذا أتاني عبدي يمشي أتيته مهرولاً**»(٣) فليس لهم تقدم إلى هداية ولا تأخر عن ضلالة عدموا العصمة، ولم يهدوا إلى رشاد، وهذا عقاب

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا في أَعْناقِهِمْ أَغْلَالاً﴾ نزلت في أبي جهل وصاحِبَيْهِ، وذلك أن أبا جهل كان قد حلف لئن رأى محمدًا يُصَلِّي لَيَرْضَخَنَّ رأسه بالحجارة، فأتاه وهو يصلي ومعه حجر ليدمَغَهُ به، فلما رفعه انثنت يده إلى عنقه ولزق الحجرُ بيده، فلما رَجَعَ إلى أصحابه وأخبرهم بما رأى سقط الحجر، فقال رجل من بين مخزوم: أنا أقتله بهذا الحجر، فأتاه وهو يصلِّي لِيَرْمِيَهُ بالحَجَر فأعمى الله بصره، فجعل يسمع صوته ولا يراه، فرجع إلى أصحابه فلم يَرَهُمْ حتى نادوه فقالوا له: ماذا صنعت؟ فقال: ما رأيته ولقد سمعت كلامه، وحال بيني وبينه كهيئة الفحْل يخطر بِذَنبِهِ لو دنوتُ منه لأَكَلَنِي، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا في أَعْناقِهِمْ أَغْلَالاً﴾. [اللباب لابن عادل (٢١٥/١٣)].

(٣) أخرجه بنحوه البخاري (٧٠٩٨)، والطيالسي (١٩٦٧)، وأحمد (١٢٢٥٥).

من تجاهل بعد العلم وأعرض بعد ورود البيان، فلا تنفعهم الموعظة، ولا تؤثر فيهم النصيحة، تركهم عقوبة الله على إعراضهم عن نصائحه صمًا بكمًا عميًا لا يرجعون ولا يهتدون سبيلاً، إنما تنفع النذارة في الأحياء الذين يسمعون، والموتى يبعثهم الله ثم يميتهم ندمًا وأسفًا، كما قال ﷺ: «**الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا**»[1] ثم إليه يحشرون على ذلك.

﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾ [يس: ١٠ - ١٧].

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي المَوْتَى﴾ هو يحيي الموتى، بمعنى: إمرار الإحياء لهم وتجديده، وهو يحيي أموات الأجسام، وهو يحيي الموتى حال مماتهم ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾ من قول ومن عمل وعقد ﴿وَآثَارَهُمْ﴾ [يس:١٢] يعني: وهو أعلم ما سنوه فخلفوه بعدهم من سنة حسنة أو سيئة، فلهم أجرها أو وزرها وأجر من عمل بها أو وزره إلى يوم القيامة، وهو يحيي الموتى موتى الأديان، والغرض الأول في هذا الخطاب: إحياء الموتى حال موتهم، ثم ما تنوع إليه الإحياء بعد ذلك بأخذه وببعثه وعلى هذا الغرض، تأسست السورة ولذلك كانت قلب القرآن، فافهم.

فضرب هذا المثل إعلامًا بذلك، ثم استاق كل ما استاقه بعد من الآيات على إثبات ذلك عند من له قلب ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧] وجملة ذلك: أن الحياة في موتتنا الأولى بعد الإقرار والإشهاد لنا وعلينا، قيل: في البدء كانت باطنة

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (٢/٣٨٨).

في تلك الموتة، ولما أحيانا هذه الحياة أبطن فيها الموت، ودل على ذلك بإيجاد النوم فيها والنسيان والغفلة والذهول ونحو هذا، ثم هو إذا أماتنا أبطن الحياة فيها أيضًا، فإذا هو أحيانًا أيضًا إن شاء الله الحياة الآخرة ذبح الموت، فلا موت يومئذٍ إنما هي حياة ظاهرة باطنة كل على درجته ذلك؛ لأنها دار الحيوان.

قوله ﷻ: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾(١) [يس:١٣] المراد إثباته في هذه السورة: الإعلام بالوحدانية وما جر إليها وأكثر إتيان هذا الفصل هنا تعريض وتذكير؛ لأنه من سائر القرآن كالروح للجسم، ثم الإعلام بالرسالة والمرسل، وبالقرآن أنه كلامًا منزل من لدنه، ثم إثبات البعث يوم القيامة وهو إحياء الأجسام، ثم إثبات موتى الدين، وجاء هذا فيها تعريضًا وعلى سبيل ضرب المثل، ثم إثبات حياة الموتى حال موتهم، وهو في الإغماض قريب من الفصل المذكور قبله، ثم ذكر إحيائه الأحياء حال حياتهم، وهو إمرار الحياة بتجديد الإحياء.

فصل

قال رسول الله ﷺ: «**بينما أنا نائم عند الكعبة إذا أنا برجل آدم كأحسن ما أنت راء من أُدم الرجال، له لمة كأحسن ما أنت راء من اللمم، يقطر رأسه ما يطوف بالكعبة متوكئًا على رجلين أو على عواتق رجلين، فقلت: من هذا؟ قيل لي: هذا المسيح ابن مريم، ثم رأيت رجلاً جعدًا قططًا أعور عين اليمنى، يطوف بالكعبة متوكئًا على رجلين أو على عواتق رجلين فقلت: من هذا؟ قيل لي: هذا الدجال**»(٢).

وقال رسول الله - صلوات الله عليه وسلامه - في حديثه المشهور: «**إن رجلاً**

---

(١) أخرج الفريابي عن ابن عباس في قوله: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ قال: هي أنطاكية. عن ابن عباس قال: كان بين موسى بن عمران وبين عيسى ابن مريم ألف سنة وتسعمائة سنة، ولم يكن بينهما فترة، وأنه أرسل بينهما ألف نبيّ من بني إسرائيل سوى من أرسل من غيرهم، وكان بين ميلاد عيسى والنبي ﷺ خمسمائة سنة وتسع وستون سنة، بعث في أوّلها ثلاثة أنبياء، وهو قوله: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثنين فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ والذي عزّز به شمعون وكان من الحواريين، وكانت الفترة التي لم يبعث الله فيها رسولاً أربعمائة سنة وأربع وثلاثون سنة. [فتح القدير (١٥٨/٦)].

(٢) أخرجه بنحوه البخاري (٣٢٥٦)، ومسلم (١٦٩).

يخرج إليه فيحاجه ويقول له: أنت المسيح الدجال الذي أعلمنا به رسول الله ﷺ قال: فيقتله ثم يحييه، فإذا حيي يقول: الآن والله ازددت فيك بصيرة، وينادي: أيها الناس، إنه لا يفعل هذا بأحد بعدي أبدًا، فيأخذه ليقتله فلا يسلط عليه»[١] وفي أخرى: «فيأخذ بيديه ورجليه فيجعله في النار التي يرى الناس أنها نار وإنما ألقاه في الجنة»[٢].

قال فيه ﷺ: «إنه يجيء ومعه نار وجنة، فناره ماء بارد وجنته نار تحرق»[٣].

قال الله - عز من قائل: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ * قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [يس: ١٤ - ١٥] إلى قوله: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ أتبعوا الْمُرْسَلِينَ * أتبعوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ * وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ * إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ [يس: ٢٠ - ٢٥] أي: اشهدوا لي بذلك عند ربي.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [يس: ١٨ - ٢٧].

أتبع ذلك قوله - عز من قائل: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [يس: ٢٦ - ٢٧] هذا إعلام منه - جل ذكره - بالإحياء حال الموت، وهو رجل قتله أهل الكفر؛ لأنه آمن بالله ورسله فهو

---

(١) أخرجه أحمد (١١٣٣٦)، والبخاري (١٧٨٣)، ومسلم (٢٩٣٨)، وابن حبان (٦٨٠١).

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٣٨)، وأبو يعلى (١٤١٠).

(٣) أخرجه البخاري (٧١٣٠)، ومسلم (٧٥٥٣)، وأحمد (٢٣٤٣١).

شهيد، فقيل له ثاني حال الموت وقد أحيى هناك: ﴿ادْخُلِ الجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي﴾ [يس:٢٦].

قال رسول الله ﷺ: «**واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف**»(١).

وقد تقدم ذكر هذا الإحياء وإثبات وجوده قبل هذا مقرونًا بدلائله من الكتاب والحديث والوجود، وقد قال: من احتج على خلاف هذا بقول رسول الله ﷺ: «**أنا أول من يستفتح باب الجنة**»(٢) وبما جاء: «**أن الجنة محرمة على الخلائق حتى يدخلها محمد وأمته**»(٣) إن أحدًا لا يدخل الجنة إلا بعد البعث الآخر، وهو محجوج بقول رسول الله ﷺ للأنصارية وقد قتل ابنها: «**إنها جنان كثيرة، وإن ابنك في الفردوس الأعلى منها**»(٤) وما ذكره من أن: «**الجنة محرمة على الخلائق حتى يدخلها محمد**»(٥) فصحيح، لكنها كما قال رسول الله ﷺ: «**إنها جنان كثيرة**»(٦).

وقد أسكن آدم عليه السلام الجنة، ثم أخرج منها للمقدور المقدر، ولسنا نقول: إنها الجنة التي يستفتحها رسول الله يومئذٍ تلك هي جنة الخلد وفي اليوم الموعود ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ [إبراهيم:٤٨] تسعى حقيقة جنة الخلد في الحق الموجود منها في السماوات والأرض، فتكون كلها جنة الخلد، فافهم علمنا الله وإياك من علمه، ولله ملك السماوات والأرض، ولله غيب السماوات والأرض.

وقال رسول الله ﷺ: «**للجنة أقرب إلى أحدكم من شسع نعله والنار كذلك**»(٧).

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٠٤)، ومسلم (١٧٤٢)، وأبو داود (٢٦٣١)، وأحمد (١٩١٣٧).

(٢) أخرجه مسلم (٥٠٧) بلفظ: «آتِي بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَسْتَفْتِحُ، فَيَقُولُ الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ. فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ لَا أَفْتَحُ لأَحَدٍ قَبْلَكَ».

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٣/٣٧٦).

(٤) أخرجه الطيالسي (٢٠٢٩)، وأحمد (١٢٢٧٤)، والبخاري (٢٦٥٤)، وابن حبان (٤٦٦٤)، وابن أبي شيبة (٣٦٧١٣)، والنسائي في الكبرى (٨٢٣٢)، والحاكم (٤٩٣٠) وقال: صحيح على شرط مسلم. وأبو يعلى (٣٥٠٠).

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) تقدم تخريجه.

(٧) أخرجه أحمد (٤٢١٦) بلفظ: «شراك» بدل «شسع».

وقال الله ﷻ وذكر المحتضر: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الحُلْقُومَ﴾ [الواقعة:٨٣] إلى قوله: ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ المُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة:٨٨ - ٨٩] إلى آخر السورة ثم قال: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ اليَقِينِ﴾ [الواقعة:٩٥] أي: حق ما في الموت وما بعده، وذكر ذلك في سورة «الحاقة» وأن الجزاء المذكور في أثناء السورة هو الحق؛ يعني: حق اليقين الذي أيقن به المؤمن والكافر: وهو الموت برهبة البهائم وما سواها، والكلام يطول وسيذكر من ينيب.

فصل

قال رسول الله ﷺ في الدجال: «**أنه يجيء ومعه ملكان يشبهان نبيين من الأنبياء...**»[١].

وقال الله - جل من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ الله كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ إلى قوله: ﴿فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف:١٤] ولم يأت هذا بعد، وكل مثل في القرآن مضروب فله حقيقة وجود في أنه المتقدم، وله ما يماثله في مستقبل الوجود إلا ما كان من الأمثال بمعنى التشبيه، كقوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة:٥] ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ الله أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ العَنكَبُوتِ﴾ [العنكبوت:٤١] ونحو هذا.

﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [يس: ٢٨ - ٣٥].

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٩٧٩)، والطبراني (٦٤٤٥)، وابن عساكر (٢/٢٢٩).

قوله ﷻ: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [يس:٣٠] وقرأها ابن عباس ومسلم بن جندب: «يا حسرة على العباد» بإسكان الهاء، وهي لغة عند بعض العرب يسكنون هاء التأنيث في وصل الكلام[١].

قال بعضهم:

لمــا رأى ألا دعــه ولا شــبع

يريد: ألا دعه، فسكن الهاء.

وروى عمرو بن دينار عن ابن عباس: «يا حسرةَ العبادِ» بالإضافة، وكذلك قرأها ابن أبي عبلة، وقال قتادة في بعض القراءة: «يا حسرةَ العبادِ على أنفسها» و«على أنفسهم» ومعنى ذلك والله أعلم: يا حسرة العباد أن يكونوا هكذا ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [يس:٣٠].

وكذلك جاء عن أبي ﷺ أنه قرأها: «بلى حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون» أي: إنهم استحقوا لكفرهم أن يقول القائل فيهم: يا حسرتهم على أنفسهم أن يكونوا هكذا، كما قال - جل من قائل: ﴿قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة:٣٠] والله لا يقاتل كما هو لا يتحسر، سبحانه وله الحمد.

ومعنى الكلام: أنهم استحقوا أن يقال لهم: ﴿قَاتَلَهُمُ اللهُ﴾ ومن قاتله الله قتله، وكما يقول القائل على المواجهة: قاتلك الله ما أكفرك؛ أي: إنك لكفرك تستحق أن يقال لك هذا.

أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [يس:٣١] يريد القرون المهلكة لأجل تكذيبهم المرسلين، كعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة وفرعون وقرونًا بين ذلك كثيرًا.

أتبع ذلك - عز جلاله - ما هو تبيان لما تقدم: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس:٣٢] وهذا منتظم بمعنى ما ضربه من أجله مثلا فيما تقدم من ذكر

---

(١) قوله تعالى: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ منصوب؛ لأنه نداء نكرة ولا يجوز فيه غير النصب عند البصريين، وفي حرف أبي «يا حسرة العباد» على الإضافة، وحقيقة الحسرة في اللغة أن يلحق الإنسان من الندم ما يصير به حسيرًا. [تفسير القرطبي (٢٢/١٥)].

السعيد - رضي الله عنا وعنه - قوله لما ﴿قِيلَ﴾ له ﴿ادْخُلِ الجَنَّةَ﴾ [يس:٢٦] ساعته تلك ﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ المُكْرَمِينَ﴾ [يس:٢٦ - ٢٧].

فأخبر أيضًا - عز جلاله - عن المهلكين الأشقياء أنهم الآن لديه ﴿مُحْضَرُونَ﴾ [يس:٣٢] أي: للعذاب، ثم جعل بعد هذا ينسق ذكر البراهين على وجود هذا ويبين الآيات، على أن الوجود كله متناسق على تصحيح هذا الشأن يظهر مظهرًا وقد أبطنه، ثم يظهر متى شاء ذلك المبطن ويبطن ما قد كان أظهره على هذا رتب اختلاف الليل والنهار، وجريان الشمس والقمر في صعودهما في البروج ونزولهما، والمحاق والزيادة وسجودهما حال جريهما وجريهما حال سجودهما إلى آخر ما أخبر عنه.

«اللام» في قوله: ﴿لَّمَّا﴾ للتأكيد، و«الميم» للنفي، وبعد هذا محذوف مقدر، تقدير الكلام: وإن كل لما هم لنا بمعجزين، بل هم جميع لدينا محضرون؛ أي: الآن، وقد قيل: إن معنى «لما»: إلا، فيكون تقدير الكلام: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ وكان ذلك يكون وجهًا لولا أن اجتماع لفظتي كل وجميع في جملة واحدة غير متوجه، لا سيما على هذه المقاربة، وليس هذا من معهود حسن العبارة وبخاصة براعة القرآن الحكيم وحسن سرده [وسراوة][1] نظمه، والمحذوف في القرآن غير منكر ولا هو قليل الوجود، وكيف لا؟! وهو مطلعه قال رسول الله ﷺ: «**أوتيت من الحكمة مثلما أوتيت من القرآن**»[2].

قوله ﷻ: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ المَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [يس:٣٣] هذه آية إحياء البعث، أنزل الله الماء من السماء فيحيي به الأرض بعد موتها بالنبات والجنات والأشجار والثمرات، استحقت وصف الحياة لما فيها من موجود دار الحيوان وبما هو من إيجاد الحي الحق، وكذلك كل شيء.

قال الله - عز من قائل: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا

---

(١) هكذا في (خ)، وهو غريب.

(٢) رواه أبو داود في المراسيل (٥٣٤)، بلفظ: «آتاني الله القرآن ومن الحكمة مثليه».

يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء:٣٠] أي: بالله - جل ذكره - وبالدار الآخرة، وسمى الماء: الحياة؛ للمعهود منه ذلك، وإحياء الله الأرض بالماء بعد موتها، وإخراجه منها به ما بينته عن ذلك لآية على إحيائه الموتى للبعث وإحيائه الموتى حال موتهم، ألَّا ترى أن من النبات ما يبقى على حاله ويثمر حين همود الأرض، كالنخيل والأعناب والرمان والزيتون، وأكثر أنواع الجنات والفواكه، فهذه دلالة على إحيائه الموتى حال موتهم، وكون هذه شجرات راسخة في الأرض إلى باطنها من ظاهرها عالية في السماء يدل على أن هؤلاء الأحياء هم أهل العلم والراسخون فيه، عرض الله - جل ذكره - إلى هذا في قوله: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ المَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [يس:٣٣] فهذه خاصة دلالة على إحياء البعث والنشور مع ما يعم بالدلالة الأخرى.

ثم قال - جل من قائل، وعطف بالواو معنى على معنى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ العُيُونِ.....﴾ [يس:٣٤] ويخلق في النبات الحب يابسًا يأكله العباد والأنعام فيكونون عنها، فيكون مأكولها حيوانًا في الكائنات عنها، فهذه حياة باطنة في موت ظاهر كان في الحب اليابس، وكونه أيضًا في حال نبته معدًا لأن يزرع، فيكون عنه نبات وحيوان كأوله، هاتان آيتان مخبرتان بكونهما حال موت وباطنهما الحياة، دلتا بذلك على أن الأموات أحياء حال موتهم حياة باطنة يظهر منها ما شاء جاعلها ﷻ ويبطن ما شاء، أخبر بذلك الصادق الحق، فوجب الحق وبطل ما كانوا من ذلك يعتقدون.

قوله تعالى: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ [يس:٣٥] يمكن أن يكون «ما» ها هنا اسمًا، فيكون المخبر بها عنه ما تقدم من كونه، وآية أنه كالبناء دلَّ على الباني، والكتابة دلت على الكاتب، وكالفعل كله دلَّ على فاعله، ثم من الأعمال ما يعملون بها وليس إليهم تمامها، كما قال - عز من قائل: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ [الواقعة:٦٣ - ٦٤] يريد: أأنتم تجعلونه زرعًا تامًا كامل الصفة ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الخَالِقُونَ﴾ [الواقعة:٥٨ - ٥٩].

﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ المُنشِئُونَ﴾ [الواقعة:٧١ - ٧٢].

وكثيرًا ما أخرج الله ﷻ أنواعًا من بديع الصنع ومحكم الفعل على أيدي بني

آدم، وقد يمكن أن تكون «ما» ها هنا حرفًا فتكون نافية، دلَّ على ذلك قوله: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس:٣٥] وغلب الوجه الأول ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ * لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ﴾ [يس:٣٤ - ٣٥].

وقد يكون منهم الغراس وتفجير العيون وإجراء الأنهار، وليس إليهم ما وراء ذلك، فلهذين الوجهين عدد ما عملوه في الآيات وفي النعم وطالبهم بالشكر، ويكون ذلك أيضًا من فعلنا ما ليس لنا إتمامه أنه على فعل الملائكة، وبملكهم الملكوت وتحسين تماسكه وليس لهم إتمامه وتصويره، بل الله ﴿هُوَ الأَوَّلُ﴾ فيه ﴿وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد:٣].

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [يس: ٣٦ - ٤٠].

قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس:٣٦] قالوا: الأزواج المتصلات من النبات والأحجار والحيوان، ومن القوى والصفات والألوان والصور والهيئات، وفي الأحوال والأعمال يدل على صحة ما وجهوا إليه قوله ﷻ: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات:٥٠] أي: فروا من معصيته إلى طاعته، ومن بعده إلى القرب منه، ومن أنفسكم إليه، وفروا منه إليه، جل ذكره وتعالى علاؤه وجده ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الروم:٢٧].

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١] بل الأصل في تسميتها أزواجًا كونها عن الفتح والفيح، ثم تنوع ذلك ويتسع.

ومن ذلك أيضًا: ما ازدوج أو كان من شأنه ذلك فيسكن بعضه إلى بعض.

قال الله ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ

إِلَيْهَا﴾ [الأعراف:١٨٩] فخلق الله تعالى آدم ﷺ وخلق له زوجه منه حواء كذلك ما سوى ذلك من الأجناس، وجعل في أحجار المعادن ونبات الأرض والحيوان ما يسكن بعضه إلى بعض، ويسرع من بين الأجناس إلى جنسه، وينفر عن غيره النفار كله وعلى التوسط من ذلك، فقال تبارك وتعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس:٣٦] كما قال: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٨].

وقد ذكر أصحاب التجارب أن في الأحجار والنبات وأنواع الموجودات الذكر والأنثى، ولذلك وجد السكن الذي تقدم ذكره، ومن الأزواج أيضًا المتقاربات قال الله - جل من قائل: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير:٧] فربما زوجت بشيطان يضله ويزين له، أو بملك ينفعه، أو يشفع فيه ويشهد له ونحو هذا، ومن الأزواج أيضًا: المثالات، وقد تقدم ذكرها في مواضع من الكتاب.

فصل

ومن آيات الله على إحيائه الموتى حال موتهم مما تنبته الأرض أن الأرض تموت زمن همودها وعدْمِهَا الماء، وقد جعل الله من نباتها ما يكون حيًا في ذلك الوقت، كما جعل منه ما ينحطم بموتها فيصير هشيمًا حين همودها، كالنخل وشجر البلوط والزيتون، وكثير من نبات الجبال والسعراء والأودية ومجاري المياه وأشجار ما هنالك، فحياة خيار ذلك آية على حياة خيار العباد كما حياة؛ أعني: مفصوله كالعليق والدفلى وغيرهما آية على حياة المفصولين، وما تؤتي منها أكله كل حين بإذن ربه؛ يعني: بما يرضاه حين أبان إطعامه.

قال الله - جل من قائل: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ [إبراهيم:٢٤] إلى قوله: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ [إبراهيم:٢٦].

وقال عيسى ﷺ: «إنما يعرف فضل الشجر بفضل طعمه».

وقال - صلوات الله وسلامه عليه - يخاطب المرائين: «إمَّا أن تجعلوا الشجرة

طيبة وطعمها طيبًا وإما أن تجعلوها خبيثة وطعمها خبيثًا»[1] بالطعم يميز الشجر.

وقد مثل ﷺ المؤمن والمنافق والكافر ومن يقرأ القرآن ومن لا يقرؤوه بأنواع ذلك من الشجر[2]. وقال ﷺ: «**إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها مثلها مثل المؤمن المسلم**»[3] فكان في فحوى كلامه ومفهوم خطابه: إن من الشجر الذي لا يسقط ورقه ما يكون مثله مثل الكافر وضرب الله - جل ذكره - لنوره مثلاً بشجرة الزيتون وسماها: مباركة، وعرض بما يكون من دهنها مثلاً بذكر النبوة؛ إذ عملها دهن ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ [النور:٣٥] أي: الإنباء والوحي، وبالحق المخلوق به السماوات والأرض الذي يكاد يبهر الأبصار ويذهل البصائر ولو لم تمسسه الأفكار بنيران الأذهان وهو يستخرج بعمل وتعب، كذلك لا يفهم معاني ما جاءت به النبوة ولا يقتبس أنوار الحق في خلق السماوات والأرض إلا بترداد الفكر واعتبار العبر واستعمال الذهن والتذكر.

وقال في موضع آخر: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:١٠ - ١١] أي: من استعمل ذهنه وصدق الله - جل ذكره - في اعتباره يجد كل شيء حي ونبات وحيوان وأناسي باطنًا في الماء، ثم في النبات، ثم في الحيوان، ثم في الأنعام الأناسي وغيرهم، ثم في الزيتون دهنًا باطنًا، وللأعناب والنخيل وغيرهما سكرًا ورزقًا حسنًا صفات باطنة في ظواهر ليست هي بوجه ما ولا هي بغيرها بوجه ما، كذلك الحياة في الموت

---

(١) لم أقف عليه هكذا.

(٢) نصه: «مَثل المُؤمِنِ الَّذي يقرأُ القُرآنَ مَثَلُ الأُتْرُجَّةِ، ريحُها طَيِّبٌ ، طَعْمُها طيِّبٌ، ومثلُ المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مَثَلُ التمرة، لا ريحَ لها وطعمها حلوٌ، ومَثَلُ المنافِقِ الَّذِي يقرأُ القرآنَ مَثلُ الرَّيْحانَةِ، ريحها طيب، وطعمها مُرٌّ، ومَثَلُ المنافِقِ الذي لا يقرأُ القرآن كمثَل الْحَنْظَلَةِ، لا ريحَ لها، وطعمها مُرٌّ». أخرجه أحمد (١٩٦٣٠) والبخارى (٥١١١) ومسلم (٧٩٧)، وأبو داود (٤٨٣٠) والترمذى (٢٨٦٥).

(٣) أخرجه أحمد (٦٤٦٨)، والبخاري (٦٢)، ومسلم (٢٨١١)، والترمذي (٢٨٦٧)، وعبد بن حميد (٧٩٢)، والنسائي في الكبرى (١١٢٦١)، وابن حبان (٢٤٦)، والطبراني في الأوسط (٤٥٧١).

باطنة كما الموت في الحياة باطن، ودلائل القرآن كثيرة على هذا معهوده.

فصل

من استنصح القرآن نصحه، ومن استرشد الحكمة في العالم أرشدته، ومن استشهد الشواهد أعلمته، وفصل الخطاب في هذا المطلوب إن شاء الله والله الموفق، وعليه قد مضى فيما تقدم أن جملة الدنيا نبذة من جملة الآخرة، وقد خلق الله الدار الآخرة مصورة على صورة أوجد الدنيا على شبهها، فالدار الآخرة بما فيها زوجان والحق المبين فردهما وشفعان، والله الوتر.

قال الله ﷻ: ﴿وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ هذا زوج ومغفرة من الله ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ﴾ [الحديد:٢٠] هذا زوج، وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الحَقَّ﴾ هؤلاء وهؤلاء ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ المُبِينُ﴾ [النور:٢٥].

كذلك دار الدنيا تأسست على موجود فيح جهنم - أعاذنا الله برحمته منها - المفصول منه العذاب في الدنيا وفي الآخرة، وعلى موجود فتح الله برحمته، كذلك أوجد الدنيا شقاء ونعيمًا، وصحة وسقمًا، وغنى وفقرًا، وسرورًا وحزنًا، وخيرًا وشرًا إلى غير ذلك من الأزواج الموجود فيها من هذه الجهة، كذلك أوجد نباتها وأحجارها في طعوم ذلك وروائحه وأعراضه ومنافعه ومضاره خبيثه وطيبه، انفصل ذلك كله من موجود الفيح والفتح، لذلك قال - عز من قائل: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات:٤٩] أي: تذكرون بذلك الدار الآخرة بما فيها وخالقها.

ثم قال: ﴿فَفِرُّوا إلى اللهِ﴾ أي: من عذابه إلى ثوابه الذين دل عليها الفيح والفتح ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات:٥٠] نذير من فوت ثوابه والوقوع في أليم عقابه ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات:٥١] وكما أن جهنم موجودها زوجان: سعير وزمهرير، كذلك الجنة موجودها زوجان منفصل هذا من الوجود العلي المعبر عن الصفات العلا.

قال الله ﷻ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٤٦] جنة لمن خاف سخط ربه واتقى غضبه، وجنة لمن أرضاه ورضا عنه جمع ذلك للمؤمن؛ إذ هو

المنتهي عن هواه الطائع لربه.

ثم قال - عز من قائل: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ [الرحمن:٥٠] لما كان في جهنم - أعاذنا الله برحمته منها - بحار الحميم والغسلين، كان في الجنة السلسبيل والزنجبيل والكافور والتسنيم، هذا إلى ما في هذه وهذه من موجودات ما لا تعلمه نفس ولا خطر على بال، فقد قال في الدنيا: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٨] والأمر في الآخرة أعظم وأعلى.

ثم قال وقوله الحق: ﴿فِيهِمَا﴾ يعني: في الجنتين ﴿مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن:٥٢] جمع وجود ذينك الزوجين في رحمته وأوجدهما عن رحمته فهي الجنة، كما جمع زوجي جهنم في مقتضى سخطه وموضع عذابه وعن غضبه فهي جهنم أعاذنا الله برحمته من ذلك، كما صرح زوجي الدار الدنيا من فيح عذابه وفتح رحمته من هذه فكانت الدنيا، لم تتم الآخرة إلا بأن جمعت زوجين مما هو إلى الإكرام كالجنة، وما هو إلى الإهانة كجهنم، ولا تمت الجنة إلا بأن جمعت الزوجين موجوداتهما لكن الإكرام والإنعام، ولا تمت جهنم إلا بأن جمعت موجودات الزوجين لكن للإهانة والعذاب، وصورت الدنيا من ممزوج هذا كله فافهم، وصورت تلك الحكمة صورة مائلة، وقرب ذلك الأمر فجمعت لسمعك أطراف الكلام في يسير الخطاب ﴿وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

قوله جل وعز: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾[1] نسلخ النهار عن الليل هو

(١) قوله تعالى: ﴿نَسْلَخُ مِنْهُ النهار﴾ استئناف لبيان كونه آية؛ أي: نكشف ونزيل الضوء من مكان الليل وموضع إلقاء ظله وظلمته، وهو الهواء النهار عبارة عن الضوء إما على التجوز أو على حذف المضاف، وقوله تعالى: ﴿مِنْهُ﴾ على حذف مضاف؛ وذلك لأن النهار والليل عبارتان عن زمان كون الشمس فوق الأفق وتحته، ولا معنى لكشف أحدهما عن الآخر، وأصل السلخ كشط الجلد نحو الشاة، فاستعير لكشف الضوء عن مكان الليل وملقى ظلمته، وظله استعارة تبعية مصرحة، والجامع ما يعقل من ترتب أمر على آخر فإنه يترتب ظهور اللحم على كشط الجلد، وظهور الظلمة على كشف الضوء عن مكان الليل، وجوز أن يكون في النهار استعارة مكنية، وفي السلخ استعارة تخييلية، والجمهور على ما ذكرنا، و«من» ابتدائية، وقيل: تبعيضية، وجعلها سببية ليس بشيء، وهذا التفسير محكي عن الفراء ونحوه تفسير السلخ بالنزع. [تفسير الألوسي (١٦/٤٦٨)].

من لدن غروب الشمس إلى ذهاب البياض الذي يكون عن بقية ضياء النهار ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ [يس:٣٧] أي: داخلون في الظلام.

وقال في موضع آخر: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ [الأعراف:٥٤] وإغشاؤه إياه من لدن أول تباشير الفجر إلى طلوع الشمس.

وقال في موضع آخر: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ [الزمر:٥] فهذا إتباعه أحدهما للآخر، وهذا هو ليل ما ها هنا ونهار ما ها هنا، ولله - جل ذكره - نهار على فوق هذا منفصل من الأفق المبين، كما له ليل أسفل من هذا منفصل من الظلمات السفلى حيث الزمهرير؛ إذ منبعثه من أسفل السافلين عن هذا وهذا يكون هذا الليل والنهار.

قال الله - عز من قائل: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا﴾ [الشمس:١ - ٢] ثم قال، عز من قائل: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾ [الشمس:٣] فذلك النهار: هو الذي تجلى للشمس ومنه كسوتها جاء أنها تسجد تحت العرش فتكسى نورًا، ويقال لها: ارتفعي، اطلعي من مطلعك، فنورها ذلك هو من الذي يجليها، وقد تقدم أنها ساجدة بما هي مستوية، جارية طالعة أو داحضة للغروب، وعلى العبرة فسموت من هي مسامتة له حين استوائها وطالعة أو غاربة في حقه، فهي على هذا الإنزال ساجدة جارية وجارية ساجدة تكسى لسجودها؛ لأنه شكر منها لمجريها ومنورها، وتجري بأمر مسخرها من أجل إنعامه عليها، كذلك يمسك السماوات والأرض أن تزولا، ويمسك كل شيء إيجادًا وإفناءً إبطانًا لأحد الأمرين وإظهارًا للآخر، وهذا كله إعلام منه بوجود الحياة حال الموت، ووجود الحياة حال الموت في هذه ﴿وَهُوَ العَلِيمُ الحَكِيمُ﴾ [التحريم:٢].

فقد أفصح لك الاعتبار المتصل بالوحي بالعلم من حيث منبعثهما، وأن النهار منفصل من نهار هو متصل بالأفق المبين، وأن الليل منفصل من ظلام متصل بأسفل السافلين، كما قال عيسى ابن مريم عليه السلام حيث يطول العويل وقلقلة الأضراس، وأنهما منفصلان معًا من الآخرة: هذا من الجنة وهذا من النار، فافهم ذلك.

قوله: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ [يس:٣٧].

ثم قال - عز من قائل: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ [يس:٣٨] وقرأ ابن

عباس وعكرمة وابن أبي عبلة «لا مستقر لها»[(١)] بالألف، وكذلك رواه ابن عباس عن النبي ﷺ، وقد تقدم الكلام على معنى القراءتين، وأنها ساجدة من حيث هي طالعة في سمت قوم مستوية في حق آخرين وغاربة عند قوم، وعلى التدريج بين ذلك.

وسبيل عبرتنا على ما نحن بصدده: أنها جارية على الظاهر منها، وهي ساجدة في باطن حالها؛ لأنها من حيث هي قائمة هي ساجدة، وما هي طالعة ودالكة هي جارية، وهي لا تزال أبدًا أن تكون في سمت ما فهي في حق أولئك قائمة أو داحضة أو طالعة أو غاربة فهي في حق أولئك جارية، فافهم.

قال رسول الله ﷺ: «**أتدرون أين تذهب هذه الشمس...**» وفيه: «**أنها تذهب حتى تأتي إلى مستقرها تحت العرش فتخر ساجدة فلا تزال كذلك حتى يقال لها: ارتفعي اصبحي طالعة من مطلعك**»[(٢)] فأخبر رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - عن جريها في الأيام من مطلعها إلى مغربها، وتولى القرآن العزيز الإخبار عن مطالعها ومغاربها وجريانها في ذلك، وتأخره يلحق الإخبار بالقرآن عن سيرها يومًا يومًا من مطلعها إلى مغربها، فتأويل قول الله ﷻ على العبرة بمطالعها ومغاربها في النجوم من أيام السنة، وهو أعلم بما ينزل.

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ [يس:٣٨] إن مستقرها آخر مطالعها من المطالع الشمالية والجنوبية، فأطول أيام شهور السنة أقصر لياليها في البروج الشمالية، وذلك منها عند خروجها من اليومان إلى السرطان، وهو آخر درجات الشمس في الشمال، كذلك إذا توسطت البروج الجنوبية عند حلولها بآخر القوس ورأس الجدي كان انتهاء قصر الأيام وانتهاء طول الليالي، ثم بحلولها في أول الشمالية - وهو الكبش - يستوي الليل والنهار ويعتدل الزمان لقطعها الجنوبية واستقبالها الشمالية، ثم إذا كانت الشمس في آخر الشمالية ورأس الجنوبية وذلك عند حلولها برأس الميزان كان الاعتدال الثاني، فعند الانتهائين في قصر الليالي

---

(١) انظر: تفسير البغوي (١٨/٧)، وفتح القدير (١٦٣/٦).

(٢) أخرجه مسلم (١٥٩)، وأبو عوانة (٣٢٠)، وابن حبان (٦١٥٣).

وطول الأيام وطول الليالي وقصر الأيام يختلف النفسان بالحر والبرد، ثم على قدر القرب من الاعتدال في الوسطين يكون التوسط من ذلك.

فقوله ﷻ: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ [يس:٣٨] معناه: وآية لهم الشمس تجري؛ أي: على مطالع الدنيا والآخرة، وهما نفسا جهنم، ومظان فتح الله برحمته.

﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ﴾ [يس:٣٨] قدر مسالك نفسيها على سنن تدبيره وكريم إتقانه، وسخر جهنم لعباده رحمة تعلهم ببردها من حرها، وتنعشهم بحرها بدلاً من بردها ذلك لمشيئة الله - جل ذكره - فيها وبها، ولما يجعله فيها من قدمه الذي قدمه بين يدي تقديره المشار إليه بقوله الحق: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ﴾ [يس:٣٨].

قال رسول الله ﷺ: «**لا تزال جهنم تمتلئ وتفور وتقول: هل من مزيد؟ حتى يضع الرحمن فيها قدمه، فتقول: حسبي حسبي حسبي، قط قط قط**»[(١)] وفي أخرى: «**حتى يضع رب العزة فيها قدمه**»[(٢)] فتكريره «**حسبي**» و«**قطي**» و«**قط**» على ما جاءت به الروايات كما أخبر به عن ربه إعلام بأن ذلك الانزواء بعضها إلى بعض الأمر بعد الأمر كما هو في الدنيا ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى * هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الأُولَى * أَزِفَتِ الآزِفَةُ﴾ [النجم:٥٥-٥٧] فافهم وتيقن واصبر ﴿إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم:٦٠].

ثم قال: وقوله الحق: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ [يس:٣٩] قرئ بالفتح لراء والرفع، فالرفع تقدير الكلام عليه: وآية لهم القمر، وعلى الفتح للراء: أن أعمل الفعل في قوله: «قدرنا» تقدير ذلك: وقدرنا القمر منازل، يمكن أن يكون معنى قو ﴿قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ نقصناه، ويكون أيضًا بمعنى التقدير بأن القمر يقطع البروج كلها في شهر زيادة ومحاقًا، ومسالكه في الصيف على مسالكه في ليل الشتاء وفي ليل الصيف على مسالكه في نهار الشتاء، وبالجملة: فإن الشمس منسوبة إلى الحرارة،

---

(١) أخرجه بنحوه الترمذي (٢٥٥٧) وقال: حسن صحيح.

(٢) أخرجه أحمد (١٢٤٠٣)، وعبد بن حميد (١١٨٢)، والبخاري (٦٩٤٩)، ومسلم (٢٨٤٨)، والنسائي في الكبرى (٧٧٢٥)، وأبو عوانة (٤٦٣)، وابن حبان (٢٦٨).

فهي إلى نفس السعير أقرب.

قال رسول الله ﷺ: «**إلى نار الله الحامية لولا ما نزعها من أمر الله لأهلكت ما على وجه الأرض**»(١).

وقال: «**ما ترتفع من قصبة إلا فتح لها باب إلى جهنم**»(٢).

والقمر منسوب إلى البرد، فهو إلى نفس الزمهرير أقرب، والليل آية على جهنم وموضع حرها في هذه الدار قد شغله كون الشمس وسقى له موضع البرد ظهور والزيادة فيه، والنشء منسوب إلى الرحمة والنقص منه، والمحاق منسوب إلى جهنم، ألا تراه يقطع البروج كلها في الشهر وكماله في الثلاث ليال من وسط الشهر، كالشمس إنما يكون اعتدال الزمان بها وذهاب الحر والبرد إذا كانت في الكبش أو في رأس الميزان؟ وعلى قدر المقاربة من ذلك فيما قيل وفيما بعد ثلاثة أشهر وثلاثة أشهر في هذا وهذا.

أتبع ذلك قوله - جل من قائل: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ [يس:٤٠] أتى لها تدركه وهو رقيبها طلوعها لغروبه، والشمس متى كانت في مسالكها في الشتاء ظاهرًا كانت على مسالكه باطنًا، وكان هو على مسالكها الظاهرة باطنًا وعلى مسالكها الباطنة ظاهرًا؛ أعني: أن طرقه في ليل الشتاء على طرقها في نهار الصيف، وطرقه في ليل الصيف على طرقها في نهار الشتاء، والمعتمد في هذا الكلام على كونه قمرًا وبدرًا، ذلك قوله - عز من قائل: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ ثم قال، وقوله الحق: ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ [يس:٤٠].

أمَّا نهار ما عندنا وليل ما عندنا فهما ماداما مكوران ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ [الزمر:٥] على ذلك سخرهما من هذه الجهة هذا يتبع هذا وهذا يتبع هذا، وأمَّا النهار الذي تقدم ذكره الذي يجلي الشمس وهو المنبعث عن الأفق المبين فهو الذي يغشى هذا النهار على الليل بإذن ربه، ويطلبه الطلب الحثيث فيدركه على الحين المقدر والوزن المقسط ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس:٣٨].

---

(١) أخرجه أحمد (٦٩٣٤).

(٢) أخرجه أبو يعلى (٤٩٧٧)، والطبراني (٩٢٨٠)، وقال الهيثمي (٣٠٧/١): إسناده حسن.

كذلك أوجد الله ﷻ الظلام نافرًا عن النور، فما الظلام مكور مع النهار أدركه ضياء النهار العلي وحكمه وبما هو الحاكم عليه؛ لأنه من علو والأعلى ينتظم الأسفل أبدًا لم يسبقه الليل، بل إدراكه لذلك عجب ﷻ من هذا بقوله: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس:٤٠] أي: إن حكم النهار العلي قد فات حكم الفلك وإن كان موكلاً به؛ إذ هو بحكم المشيئة وبحكم ما هنالك سبحانه وله الحمد ما أحسن ما دبر وأتقن ما صنع.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [يس: ٤١ - ٤٨].

قوله - عز من قائل: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الفُلْكِ المَشْحُونِ﴾(١) [يس:٤١] المطلوب الأول: إتيانه بترداد هذه الآيات هو إثبات وجود الغيب باطنًا في ظاهر الوجود، والمعتمد من ذلك على تبيان قوله الحق: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي

---

(١) قد اختلف في معنى ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ وإلى من يرجع الضمير؛ لأن الضمير الأوّل، وهو قوله: ﴿وَءايَةٌ لَّهُمْ﴾ لأهل مكة أو لكفار العرب، أو للكفار على الإطلاق الكائنين في عصر محمد ﷺ، فقيل: الضمير يرجع إلى القرون الماضية؛ والمعنى: إن الله حمل ذرّيّة القرون الماضية في الفلك المشحون، فالضميران مختلفان، وهذا حكاه النحاس عن عليّ بن سليمان الأخفش. وقيل: الضميران لكفار مكة ونحوهم؛ والمعنى: إن الله حمل ذرّيّاتهم من أولادهم وضعفائهم على الفلك، فامتنّ الله عليهم بذلك؛ أي: إنهم يحملونهم معهم في السفن إذا سافروا، أو يبعثون أولادهم للتجارة لهم فيها. وقيل: الذرّيّة: الآباء والأجداد، والفلك: سفينة نوح؛ أي: إن الله حمل آباء هؤلاء وأجدادهم في سفينة نوح. قال الواحدي: والذرّيّة تقع على الآباء كما تقع على الأولاد. قال أبو عثمان: وسمي الآباء ذرية؛ لأن منهم ذرء الأبناء. [فتح القدير (٦/١٦٧)].

﴿الْمَوْتَى﴾ [يس:١٢] كقوله إثر الاستشهاد بالشواهد وسرد سياق الدلائل: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ﴾ هذا هو المطلوب الأعلى ﴿وَأَنَّهُ يُحْيِي المَوْتَى﴾ هو المطلوب الأعم في هذه السورة وأكثر القرآن ﴿وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحج:٦] هذا مطلوب ثالث في تعرف الصفات العلا.

﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ هذا مطلوب رابع في تعرف اليوم الآخر والدار الآخرة وما في ذلك ﴿وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَن فِي القُبُورِ﴾ [الحج:٧] هذا مطلوب خامس.

كذلك قال: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الفُلْكِ المَشْحُونِ﴾ [يس:٤١] فهذه من آياته – جل ذكره – على إثبات حياة البرزخ، وهي الحياة حال الموت، وذلك أنه حملنا – جل ثناؤه – في سفينة نوح ﷺ في أصلاب الآباء قبل إيجاده إيَّانا، وأخبر عن ذلك بصدق قبله فبأن يحملنا بعد الإيجاد على ركوباتنا التي قطعنا عليها بحر الدنيا في مسافة العمر أولى وأحرى؛ إذ تأويل الطوفان: الموت، وتأويل مدته: مدة البرزخ، وتأويل الفلك المحمول فيه: الجسم ومحموله، وتأويل عبورهم بالفلك من موضع ركوبهم إياه إلى موضع نزولهم عنه في الأرض: كعبور المثالات بالثروات من الدنيا إلى الآخرة.

ولما عدموا الفلك – أعني: سفينتهم تلك – خلق لهم سفنًا من مثلها ما يركبون؛ إذ هو سيرهم في بحار الدنيا، وخلق لهم الأنعام حمولة في تسياره إياهم في البر، وكذلك خلق لهم من مثل هذه الأجسام ما يحملهم عليها مدة البرزخ حال عدم الأجسام يعبرون بها بحر الموت مدة البرزخ.

قال الله – جل من قائل: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا المَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١] خاطبنا بذلك ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ أي: على ما تقدم ذكره، وعلى أنه أنعم علينا، فلم يكن ممن أغرقه وأهلكه لعصيان الرسل والكفر به، نعوذ بالله من مواقع سخطه.

ثم قال: ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٢] فعجب لذلك إن هذا لهو العجب المعجب، إشارة إلى هذا الغيب المغيب وتنبيهًا عليه.

اعلم – وفقنا الله وإياك – أن الله ﷻ لم يزل ولا يزال يرى الكائنات ويسمعها كما هو يعلمها لم يزدد بعد إيجاده إياها علمًا بها، خلا أنها كائنة اليوم ظاهرة لأنفسها ولم

تكن قبل ظاهرة لأنفسها، والحوالات تحول على المحدث المرئي المعلوم.

يقول الله - جل من قائل: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان:١] وقد وصفه على ذلك بأنه قد أتى عليه فبأن يوجدنا حال الموت أولى وأحرى، كما أوجدنا حال العدم وكنا على ذلك نستحق الوصف بأنا محمولون، وقد أخبر بذلك الحق المبين فهو الحق لا مرية فيه ﴿وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤] وقد تقدم في سورة «النحل» من الكلام في مثل هذا وكذلك في سورة «المؤمنين» وفي سائر المواضع من هذا الكتاب ما يغني عن الإسهاب.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [يس:٤٥] يمكن أن يكون معنى قوله: ﴿اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ ما في الأرض من مُثْلَات الله - جل ذكره - في المهلكين، وعقوباته في القرون الخالية من المكذبين، وما بين أيديكم أهوال الآخرة وعقوباتها، ويمكن أن يكون معنى ذلك: ﴿اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ من السماء أن تسقط عليكم، أو يرسل عليكم منه عذاب يهلككم به، وما خلفكم من الأرض أن يخسف بكم، فإن ما علا ينسب إلى الأمام، وما سفل ينسب إلى الوراء، وكلامه العظيم - جل ذكره - يسع ذلك.

وما هو أعم من ذلك قوله: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [يس:٤٦].

﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (٥٠) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ (٥١) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢) إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٥٣) فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٤) إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ (٥٧)﴾ [يس: ٤٩ - ٥٧].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الجَنَّةِ اليَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ * هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي

ظِلالٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾ [يس:٥٥ - ٥٦].

يقول - عز من قائل: ﴿أَصْحَابَ الجَنَّةِ اليَوْمَ فِي شُغُلٍ﴾ أي: من نعيمهم وتفكههم؛ يعني: تنوعهم في التنعم وحسن مثواهم مع غبطتهم بما صاروا إليه في شغل عما هم أهل النار فيه من عذاب دائم وخزي لازم وعقاب سرمد - نسأل الله البر الرحيم رحمته ونعوذ به من عذابه - أتبع ذلك ما هو كمال لنعيمهم وإتمام لإكمال إكرامهم وحبورهم.

﴿ سَلَٰمٌ قَوۡلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٥٩﴾ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسۡتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلًّا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوۡ نَشَآءُ لَمَسَخۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمۡ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مُضِيًّا وَلَا يَرۡجِعُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [يس: ٥٨ - ٦٧].

قوله - جل ذكره: ﴿سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس:٥٨] وهو خطاب أشار به وهو أعلم بما ينزل إلى الزيادة واللقاء والرؤية والتحية العليَّة منه لهم والكلام الكريم، ثم في مقابلة ذلك من وصفهم.

قوله - عز من قائل: ﴿وَامْتَازُوا اليَوْمَ أَيُّهَا المُجْرِمُونَ﴾ [يس:٥٩] ميزهم بسواد الوجوه، وزرق العيون، وقبح التصوير، نعوذ بالله من درك الشقاء بمنه وكريم إحسانه.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يس:٦٠] ذكرهم بعهده إليهم أولاً.

قوله - جل من قائل: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الجَنَّةِ﴾ [الأعراف:٢٧] المعنى: وقوله لآدم عليه السلام: ﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ [طه:١١٧] فلما عصى آدم عليه السلام ربه أخرجه من

الجنة، ولما أطاع الكفار إبليس منعهم الله الجنة وعوضهم النار ﴿فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [المجادلة:٨].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ * وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ﴾ [يس:٦٦ - ٦٧] المعنى: هذا منتظم بقوله في صدر السورة ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالًا فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس:٨ - ٩] هذه عقوبة من الله - جل ذكره - لهم في بواطنهم، ثم نظم بهذا قوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ﴾ [يس:٦٦].

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ﴾ [يس:٦٧] أي: من الكفر.

يقول - جل من قائل: لو نشاء لأوصلنا مسخ بواطنهم بمسخ ظواهرهم وعمى بواطنهم بعمى ظواهرهم، كما قال في صدر سورة «البقرة» بعد قوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة:١٨] ثم قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ [البقرة:٢٠] أي: الظاهرة كما أذهب ذلك منهم في بواطنهم.

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [يس: ٦٨ - ٧٦].

قوله - جل ذكره: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الخَلْقِ﴾ هذا منتظم بذكر الإعادة بعد البداية في هذه السورة وفي سائرها من القرآن، حيث جاء لذلك قال: ﴿أَفَلا يَعْقِلُونَ﴾ [يس:٦٨] أتى الغائب بالحاضر، فتقضون للماثلات بأحكام ما يماثلها.

قوله ﷻ: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾[(١)] [يس:٦٩] هذا منتظم بالمعنى الذي أقسم ﴿يس * وَالْقُرْآنِ الحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ المُرْسَلِينَ * عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ *

---

(١) فيها مسائل:

المسألة الأولى: كلام العرب على أوضاع منها: الخطب والسجع والأراجيز، والأمثال، والأشعار. وكان رسول الله أفصح ولد آدم، ولكن حجب عنه الشعر استغناء بفصاحة القرآن الخارج عن أنواع كلام العرب الفصحاء، كما حجب عنه الشعر استغناء القرآن الخارج عن أنواع كلام العرب الفصحاء، كما حجب عنه الكتب إبقاء له على الأمية، لتقوم به الحجة، ويتبين علمه، وأن ذلك من الله.

المسألة الثانية: اعلم أن القرآن معجز خارج عن أوضاع الشعر، قال أخو أبي ذر لأبي ذر. لقد وضعت قوله تعالى على أجزاء الشعر، فلم يكن عليها ولا دخل تحت بحر من بحور العروض الخمسة عشرة، ولا انفك من دائرة من دوائر الخمس، ولقد اجتهد الناس في إدخال القرآن تحت دائرة من هذه الدوائر فلم يقدروا، وقد استوفيا الكلام في العروض في كتاب.

المسألة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾. اعترضه جماعة من الملحدة في نظم القرآن والسنة بأشياء أرادوا بها إيراد النقض على الآية، وقالوا، قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾. وهذا تأكيد على نفي الشعر عنه، ثم اعترضوا بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾. وقالوا: إن هذا من بحر المتقارب.... والجواب: إن هذا لا يلزم، فإن وزن البيت ينتهي إلى قوله: ﴿وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ﴾ فإذا وقفنا هنا لم يستقم الكلام، وإذا أتممنا الآية، لم يكن ذلك شعرًا، لأن المتقارب مثمن في التفعيل، والآية معشرة، فاندفع الاعتراض، وأيضًا، فاعترضوا، بقوله تعالى: ﴿وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾. وقالوا: إنه من الوافر.... والجواب: إن هذا فاسد، لأن الآية إنما تكون بوزن البيت، إذا زيدت ألف بعد نون المؤمنين، وزيادة الألف يخرجها عن القرآن ونقصانها يخرجها عن الشعر. وأيضًا، فقد اعترضوا بقوله، عليه الصلاة والسلام: أنا النبي لا كذب، أنا بن عبد المطلب، وقالوا: إنه من الرجز، والجواب، كما قال الأخفش: هذا ليس بشعر، وقد كان رسول الله ﷺ يتمثل بأبيات منها لطرفة.. وقال: كفى الإسلام والشيب للمرء ناهيا. فقدم وأخر امتثالا لقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ فقام أبو بكر، وقبل رأسه، وتلا الآية... إلخ.

المسألة الرابعة: سئل مالك عن إنشاد الشعر. قال: لا تكثر منه. فمن عيبه أن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾. قال مالك: وبلغني أن عمر بن الخطاب كتب إلى أبي موسى الأشعري أن اجمع الشعراء واسألهم عن الشعر، واسأل لبيدًا عنه قال: فجمعهم وسألهم: فقالوا: إنا لنعرف الشعر، ونقوله. فقال لبيد: ما قلت بيت شعر منذ سمعت الله يقول: ﴿الم ذَلِكَ الكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾. [الأحكام الصغرى ص٥١٦].

تَنزِيلَ العَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ [يس:١ - ٥] إلى آخر معنى الرسالة والمرسل به.

وقوله: ﴿إِنْ هُوَ﴾ يريد، وهو أعلم: النبي والقرآن الذي جاء به وأخرجه مخرج الواحد لا مخرج التثنية على معنى: أن هذا الأمر الذي كذبتم به وافتريتم عليه ﴿إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ [يس:٦٩] القرآن ذكر، والرسول ذكر، وكون القرآن مبين أي: مبين بإعجازه وعظيم مكانته أنه من عند الله.

ثم قال وقوله الحق: ﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ القَوْلُ عَلَى الكَافِرِينَ﴾ [يس:٧٠] لم ينزل الله - جل ذكره - كتبه ولا بعث رسله ليؤمن من لم يرد الله الإيمان منه، ولا خلق الشياطين والفتن والكفر والتكذيب ليكفر أو يضل من لم يرد الله ذلك منه، بل لم يفعل الله ذلك بحكمته إلا ليحق كلمته الحق: «**هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون، وهؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون**»[1] فيحيى بذلك الحي عنده، ويؤمن من كان عنده في الأزل مؤمنًا وحيًّا.

ألا تسمعه يقول - جل من قائل: ﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًا﴾ أي: من كان عندنا في الأزل حيًّا ﴿وَيَحِقَّ القَوْلُ﴾ منا في الأزل ﴿عَلَى الكَافِرِينَ﴾ [يس:٧٠] أي: في الأزل عندنا وفي علمنا.

قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ [يس:٧١] وتبيان القرآن أبدًا يعبر تارة بضمير الواحد وذلك خطاب القبض، وتارة بضمير الجمع، وذلك خطاب البسط، فنسب الأعمال إلى الأواسط، والأنساب لأجل نسبتهم وتوسطهم بما وهب لهم من الاستطاعة والكسب، وحقيقة الحق: هو عقد القلب إن الله فاعل الأفاعيل وخالق الكل، وهو خالق الأواسط والتوسط، والأسباب والسبب، وأعمالهم وقدرهم، لا إله إلا هو الواحد القهار.

قال رسول الله ﷺ وذكر النطفة: «**تقع في الرحم أنها تقع في كفِّ الملك، فيقول: أي رب نطفة؟ أي رب علقة؟ أي رب مضغة؟ فيقضي الله قضاءه ويكتب الملك، قال: ثم ينفخ فيه الروح**»[2] يعني: الملك، وكذلك سائر المخلوقات في

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه البخارى (٣١٢)، ومسلم (٢٦٤٦).

النبات والجماد والحيوان كله إلا ما جاء من الخصوص في قول الله ﷻ عن آدم عليه السلام: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥] وقال رسول الله ﷺ: «**خلق الله آدم بيده، وغرس شجرة طوبى بيده، وكتب التوراة بيده، وقال لكل شيء غير ذلك: كن، فكان**»(١).

قال الله ﷻ: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا * وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا * فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ [النازعات:١-٥].

﴿وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا * فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا﴾ [المرسلات:٣ - ٤] ونحو هذا.

وقال: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [المؤمنون:٨٨].

﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ﴾ [هود:١٢٣] وتصور ذلك صورة قائمة في قوله ﷺ: «**إذا قضى الله الأمر في السماء سمعت الملائكة له كوقع سلسلة على صفوان...**»(٢). حتى ينتهي التبليغ والتنفيذ إلى حيث منتهى الأمر المراد بذلك، تدور بذلك دوائر التدبير، والملائكة في مصافاتها يعملون له بأمره، لا يتقدمون في ذلك ولا يتأخرون عن مراده منهم وبهم، فما من ماء ينزل، ولا حب يفلق، ولا نبات يعلق ولا يورق ولا ينشأ، ولا موجود ينقص ولا يزيد ولا ينشأ ولا يضمحل، ولا من ورقة تسقط أو تنبت، أو حيوان كأين ما كان ينتقل في درجات كيانه أو يتغير، ولا شيء في الملك إلا والملكوت قد عمه جملة وتفصيلاً فاعلون في ذلك كله ما يؤمرون، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون، هو القائم على كل نفس بما كسبت على تحميل ذلك كله وتفصيله وتوصيله إلى تمامه ونهايته.

على هذا يتخرج قوله: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا﴾ [ق:٩] وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩] وقوله هذا: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ [يس:٧١ - ٧٢] فالملائكة تذللها، والشياطين تشرسها.

---

(١) أخرجه بنحوه أبو الشيخ في العظمة (٨٢/٢).

(٢) تقدم تخريجه.

قال رسول الله ﷺ: «**على ذروة كل بعير شيطان**»[(١)].

عرض بذكر المنافع هاهنا في قوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ﴾ [يس:٧٣] إشارة منه إلى منافع موجودة فيما هنالك لمن آمن بها، وهو تنبيه على نعمه عليهم ليشكروه فيلحقهم بزيادته إلى منافع ما هنالك، وفي ذكر المشارب تعريض بأنه يخلقنا عن ألبانها، وأنه يذرأنا في السماء، ثم في الماء، ثم في النبات، وربما في الحيوان، ويخلقنا عن هذا كله، وفيه تعريض أيضًا بذكر ما هنالك من ﴿أَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ [محمد:١٥] وتعريض بما أنعم به علينا هاهنا لشكره، فيبلغنا إن شاء الله منبعثه وينبوعه هناك، والحكم المطلوب العميم معرفة الفاعل المنعم المنان المتطول، ومعرفة أن الإعادة وجودها على سنن البداية غير أن الإعادة على حكم الكلمة كلمح البصر أو هو أقرب، وحكم البداية على حكم السنة، لذلك أعقب بقوله: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس:٧٣] فيبلغوا بهذه إلى منافع ما هنالك فيتصل لهم هذا بذلك.

أتبع ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [يس:٧٦] يعزي رسوله ﷺ بأن يعلمه بأنهم يصيرون عنده إلى جزاء ما يعلم من إسرارهم وإعلانهم في قولهم له وردهم عليه وتكذيبهم إياه.

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا
مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ
وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ
تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ
ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ
ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [يس: ٧٧ - ٨٣].

قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾

---

(١) أخرجه الحاكم (١٦٢٧).

[يس:٧٧] يقول - جل من قائل: أولم ينظر الإنسان إلى حاله نطفة أين هي من حاله يخصم خصمه، ويجادل في آيات ربه بغير سلطان أتاه، يثني عطفه وينأى بجانبه ويكذب رسله، ويمكر مكر السوء على عباد الله وأنبيائه، يسعى بالفساد ليهلك الحرث والنسل، ويصد عن سبيل الله سد الله أبواب السماءِ لشؤمه فتجدب من أجله الأرض وتقل بركاتها ويشمت به العدو إبليس، وتبتئس لفعله الملائكة والمؤمنون لقبائحه وعظيم جرائمه، بل يدعو إلى نفسه ويدَّعي النبوة فيكذب على الله تعالى وربما دعا إلى نفسه واستعبد العباد وادَّعى الربوبية من دون الله.

وبالضد أين كان حاله إذ كان نطفة من كونه خصيمًا لأعداء الله، مبينًا عن نفسه وما في قلبه من حقائق معرفة الله بأسمائه وصفاته، ينظر ويعتبر، ويرى بنور إيمانه الدار الآخرة بأهوالها، والصراط والحوض والميزان والجنة والنار ماثلاً كله بين عيني فؤاده، وربما مصر الأمصار وجند الجنود واقتاد الجيوش وعلم العلوم وعبر عن ربه من وحيه، وكان لسانًا من ألسنة الله بين عباده وعينًا من عيونه في أرضه.

هذا إلى قربه من ربه - جل ذكره - وولايته وتكليمه إياه ومحادثته وإلهامه، وكونه منه موضع النظر والسعي والبطش والسمع والبصر، يجيب دعاءه ويكرم صوته، ويرحم تضرعه ويحب أعماله، يكشف به البأساء، ويدفع لأجله عن أهل الأرض البلاء، ويفتح له أبواب السماء بالرحمة وينزل به البركات والنصر، بل أين حاله نطفة من كونه خليلاً للرحمن - عز جلاله وتعالى علاؤه وشأنه - ومصطفى ونبيًا ورسولاً يسأل بينه وبين عباده ويرشدهم إليه سبحانه وله الحمد، ما أكرم صنيعه وأتقن ما خلقه!.

أين كانت حاله هذه أو التي قبلها من حاله نطفة من ماء مهين أصلها الطين؟ أليس الذي بلغ النطفة إلى ما تقدم وصفه وأنهى الطين هذه النهاية وإلى أعلى من هذا وأفخم أن يعجل في النطفة ما أخره، ويظهر فيها ما أبطنه، ويبطن ما أظهره، وما هذا في القدرة بأعجب من فسح القبر سبعين ذراعًا وللغريب مقدار ما بينه وبين بلده، وأن يجعل القبر روضة من رياض الجنة، ومن تحقيق حال يقتضي قول الله - جل من قائل: ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة:٨٨ - ٨٩] إلى آخر السورة.

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس:٧٨] أحالهم - جل ذكره - أولاً على الاعتبار بالنشأة الأولى، ليعلموا بذلك صحة النشأة الآخرة، وبالبدأة على العودة، ثم ضرب مثلاً يدل به دلالة أخرى على مدلول آخر، يقول: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس:٨٠].

يقول - جل ذكره: النار حارة يابسة، والشجر الأخضر بارد رطب، والنار غيب في هذه الدار إلى أن يقدح فتقدح كالأحياء يظهر الله بها الحياة من حال عدمها فيحيي بها المحل، كذلك النار بما هي بحكم في الشجر الأخضر فيذهب حرارتها ويبسها رطوبة الشجر وبرودتها، فإذا هي نار تتوقد بإذن جاعلها وخالقها، كذلك الحياة حارة رطبة، والموت بارد يابس، فمتى أراد المميت - جل ذكره - إماتة محل حكم فيه الموت فأذهبت برودته ويبوسته رطوبة الحياة وحرارتها، فإذا المحل ميت، ومتى أراد المميت المحيي ﷻ إحياء ذلك المحل حكم فيه الحياة فأذهب حرارتها ورطوبتها برودة المحل ويبوسته، ثم قال له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة:١١٧] على وفق مشيئته، فإذا هو حي كما قال: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس:٥٣] و﴿قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨].

هذا تبيان لنا في المراد على معهود سنن السنة، وأمَّا على حكم الكلمة فهو الواحد القهار ما شاء الله لا قوة إلا بالله، كذلك أبطن الحياة على ما هي عليه من الحرارة والرطوبة في النبات على ما فيه من الرطوبة والبرودة، والنار على ما فيها من الحرارة واليبوسة، جمع ذلك كله في الشجر الأخضر على اختلاف الأوصاف وتباعد الصفات.

يقول: الذي فعل في الشجر هو فاعل هذا في الأجسام البالية ورميم العظام الفانية، وقد أنشأها أول مرة دون اعتياض ولا تعدد، فما بال الآخرة تعجزه والحياة إلى الموت أقرب وصفًا من النار إلى الشجر الأخضر لحصول الحرارة في الحياة وليس لها في الشجر من أوصافها وصف سوى وصف البرد، وإنما هو لضدها منها وهو زمهرير، فافهم وتثبت، والنار تكون في شجر الكلح والمرخ وغيرهما.

وبالجملة: فجهنم فيما هاهنا غيب على ما يبدو منها من فيح نفسها، وكذلك

الجنة غيب على ما يبدي الله عنها بفتح رحمته، هذا فعل الله - جل ذكره - وأمَّا ما عبر عنه رب العالمين من استخراجنا إياها باكتساب منا لذلك بقوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ [الواقعة:٧١] وبقوله: ﴿فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس:٨٠] فالزناد يقدح فتخرج النار عنه ظاهرة بعد غيبها، وكذلك ما هو معنى الجنة، نكتسبها باكتسابنا بالغراس كله والحرث والزراعة وأنواع العاجلات كلها تقوم، ولزمنا لإظهار ما هو آية على موجدات الجنان مقام قدح بالزناد والاقتباس لبعضها من بعض، عبر عن ذلك بقوله: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ [الواقعة:٦٣ - ٦٤] تفطن - وفقك الله - لفهم معاني كتاب ربك عز جلاله.

أتبع ذلك دليلاً آخر ضرب للمراد به مثلاً حقًّا، قوله - عز من قائل: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾(١) [يس:٨١] نظم معنى هذا المثل بما تقدم في صدر القصة قوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس:٧٩] ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس:٨١] والإبداع في معهود العوائد أعسر من الاقتداء، وخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس، فخالق السماوات والأرض كيف يعسر عليه خلق إنسان وأناسي كثير، فقد تحصلت معاني اليسر في الإعادة بكل وجه وهو ما تقدم ذكره من موجود الحرارة في جنبة الحياة والإحياء، وللمعلوم من أن خلق السماوات والأرض وما بين ذلك أكبر من خلق الناس، والناس شعبة يسيرة مما بينهما والمعهود من عسر الإبداع بالإضافة إلى الاقتداء.

ثم نبه على دليل غير ما تقدم وهو المشاهدة بقوله: ﴿بَلَى﴾ لا بد ولا محالة، ثم

---

(١) ذكر الله تعالى ما هو أعظم من خلق الإنسان، فقال: ﴿أَوَلَيْسَ الذي خَلَقَ السماوات والأرض بِقَادِرٍ على أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ هذه قراءة العامة، ودخلت الباء زائدة على اسم الفاعل، والجَحْدَرِيّ وابن أبي إسحاق والأعرج: «يَقْدر» فعلاً مضارعًا، والضمير لتضمنهم مَنْ يعقل، ثم قال: ﴿بَلَى﴾ أي: قل: بلى هو قادر على ذلك ﴿وَهُوَ الخلاق العليم﴾ يخلق خلقًا بعد خلق، العليم بجميع ما خلق و«بَلَى» جواب «لَيْسَ» وإن دخل عليها الاستفهام لتصيرها إيجابًا، والعامة على «الخَلَّاقُ» صيغة مبالغة، والجَحْدَرِيّ والحَسَن ومالكُ بن دينَارٍ «الخَالِقُ» اسم فاعل. [اللباب لابن عادل (١٣/٢٧٥)].

قال: ﴿وَهُوَ الخَلَّاقُ﴾ أي: على الولاء ما من موجود سماء أو أرض أو فلك أو ملك أو إنسان أو جان أو هواء أو ماء أو دنيا أو آخرة إلى غير ذلك إلا وهو يجدده إيجادًا بعد إعدام أبدًا على الولاء، إذا شاء إبقاء الشيء أخلف المثل، وإذا شاء تغيره أخلف الشيء الغير، وإذا شاء إعدامه أخلف الشيء ضده، فهو ﴿الخَلَّاقُ﴾ على هذا التأويل ﴿العَلِيمُ﴾ [يس:٨١] بما يأول إليه معدوم كل شيء ومن حيث يخترع بوجوده.

ثم جمع أطراف الكلام بقوله الحق: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢] إذا شاء تعجيله دون مهلة أخرجه مخرج الكن، وإذا شاءه على حكم السنة أخرجه بأسباب وأواسط قد وكلهم إلى ذلك ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ﴾ [هود:١٢٣] عبر عن ذلك بقوله: ﴿فَيَكُونُ﴾.

﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس:٨٣] الملكوت عبارة عن: أعمال الملائكة - عليهم السلام - في مصافاتها، وتصرفهم في تخليق المخلوقات، وهو معدول من ملك كرهبوت من رهب، وجبروت من جَبر، ورحموت من رحمة.

وقد تقدم من تفسير قوله: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾ [يس:٧١] ما يشرف باللقن اللبيب على سواء السبيل سبحانه وله الحمد، وعلى ملائكته الكرائم أتم السلام، هم بأمره يعملون وبأمره ورضاه، يشفعون له في إتمام ما قد شاء إتمامه على ما سبق في مشيئته وعلمه العلي، فهو الخالق الحق كما قال: ﴿خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦] وهم العاملون بأمره وإقداره إياهم ﴿وَهُوَ الخَلَّاقُ العَلِيمُ﴾ [يس:٨١] أبدًا على الدوام، وهو الذي لا حول ولا موجود سواه، ولا قوة إلا به، هو الحي القيوم، يمسك السماوات والأرض ويمسك كل شيء على وجوده الذي أراده به ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس:٧٩].

هو الأول في كل شيء والآخر، والظاهر فيه والباطن، وهو مسبب الأسباب وموسط الوسائط وموجدهم وموجد قدرهم وجميع صفاتهم ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ:٣] ما ينقصه من الموجودات في كتاب وما يخلفه في كتاب وما يمسكها عليه - أعني: الموجودات - من حد وحال وكيف ولم وعن وعلى كل وجه وبكل معنى

﴿فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢] ولا يلحقه نصب ولا لغوب ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج:٧٠].

فصل

قال رسول الله ﷺ: «**ناركم هذه التي توقدونها جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم**» قالوا: يا رسول الله، إن كانت لكافية قال:«**فإنها زادت عليها تسعة وستين جزءًا**»[١] فهذه تجزئتها من حيث هي، ثم استثنى بقوله: «**غير أنها ضربت بالماء مرتين**»[٢] فبيَّن بهذا الاستثناء أن هذه النار ضربت بالماء بعد التجزئة، وأنها نار الفيح ولا شك على هذا في برد الزمهرير أنه على تلك التجزئة من زمهريرها، ثم من بعد الفيح ضربت بماء الفتح مرتين، ومن أجل ذلك سرى إليها النفع، وعلى ذلك أنها لوثًا به.

قال رسول الله: «**وإن هذه النار عدو لكم فإذا رقدتم فأطفئوا المصابيح**»[٣].

يقول رسول الله ﷺ: «**لولا ذلك ما كان لابن آدم فيها نفع**»[٤] إذ جهنم لم يخلقها - جل ذكره - لنفع، فمزج هذه برحمته رحمة بعباده ومتاعًا لهم في هذه الدار، وضربها الأول بالماء كونها في الجو والهواء منصعدة ومنبسطة بواسطة دوائر الأفلاك بها، فيرسل الله - جل ذكره - لواقح الرياح فيلقح الماء فيما هنالك بإذن مرسلها وكيف شاء مسخرها، ويجتمع السحاب في الهواء بما فيها وبما في الهواء من إثارة ذلك الفيح، وتمخض الملائكة السحاب وتضرب بالفيح الفيح فيزفر بالرعد وتشهق بالصعق، وربما رمت منها بشرر وهو صواعق ما يبدو لنا منها يصيب بها مرسلها من يشاء ويصرفها عمن يشاء، ويخرج على ذلك بروقًا؛ أعني: النار، وشواهد القرآن على ذلك كثيرة، فهذه الضربة الأولى.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٦٥)، ومسلم (٧٣٤٤).

(٢) أخرجه ابن ماجة (٤٣١٨)، والحاكم (٨٧٥٣) وقال: صحيح الإسناد. وهناد في الزهد (٢٣٤).

(٣) أخرجه بنحوه أبو عوانة (٦٥٧٨).

(٤) لم أقف عليه.

ثم ينزل الله الماء إلى الأرض وقد أثبت فيه معنى النار باطنًا، كما يرسل الصواعق متى شاء وقد أثبت فيهن إثارة الماء باطنًا لضربه إياها بالماء ضربة واحدة، وينبت الله النبات عن ذلك، ومنه الشجر الأخضر، فالخضرة من منبعثها الذي هو الفتح برحمته من آيات الجنة وإثاراتها، وعلى ذلك ينفع الله بها العباد، ومعنى النار هو من منبعثه الموجود عن الفيح، فموضع الدلالة من هذا الخطاب قوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا﴾ [يس:٨٠] إن خضرة الشجر عائدة على معدن الخضرة، وكونها نارًا يستوقد فيها وبها فتحرق، وتعدو عائد على كونها نارًا، فكونها نافعة ومتاعًا عائد على معنى الفتح الذي خالطها، لذلك قال ﷺ عقب لقوله: «**لولا ذلك ما كان لابن آدم فيها نفع**»[١].

فأرى المعتبرين من عباده - جل ذكره - أنه كما أعاد النار بعد إطفائها أولاً بالماء إلى النار؛ يعني: كونها صواعق وبروقًا ورعودًا، ثم أنزلها في الماء وقد أطفأها فيه وأبطنها عنده، فأظهرها من الشجر والحجر والحديد بواسطة الحك أو القدح بعد ضربها الثانية وإطفائها فيه وبه، كذلك هو أحيانا من موتنا الأول هذه الحياة، ثم يميتنا بعد هذه فنقوم هذه الإماتة في المستقبل مقام إطفائه النار بالماء ثانية، ثم يحيينا إن شاء الله، والعاقبة للتقوى، جعلنا الله من أهلها، وبارك لنا في حظنا من رحمته إنه أقدر القادرين وخير الغافرين.

---

(١) كسابقه.

تفسير سورة الصافات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (٢) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (٣) إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ (٤)
رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ (٥) إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ
(٦) وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ (٧) لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ (٨)
دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (١٠)﴾
[الصافات: ١ - ١٠].

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾[1] [الصافات:١] الملائكة تصف للصلاة، وكذلك تصف لأعمالها بأمر الله، وجاء ذكر الملائكة بلفظ التأنيث على ضمير الجماعات، ويمكن أن يدخل في هذا الذكر الطير وكل ما أخرج فعله على السواء.

قال الله - عز من قائل: ﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور:٤١] ثم يلحق هذا كل الموجودات من حيث هي له قانتة مسبحة معلنة ساجدة حامدة، فهي صافات في باطن شأنها.

وحكى الله - جل ذكره - عن فرعون وموسى قوله: ﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ

---

(١) قرأ أبو عمرو وحمزة بإدغام التاء من الصافات في صاد صفًّا، وإدغام التاء من الزاجرات في زاي زجرًا، وإدغام التاء من التاليات في ذال ذكرًا، وهذه القراءة قد أنكرها أحمد بن حنبل لما سمعها. قال النحاس: وهي بعيدة في العربية من ثلاثة جهات: **الجهة الأولى**: إن التاء ليست من مخرج الصاد، ولا من مخرج الزاي، ولا من مخرج الدال، ولا من أخواتهن. **الجهة الثانية**: إن التاء في كلمة، وما بعدها في كلمة أخرى. **الثالثة**: إنك إذا أدغمت جمعت بين ساكنين من كلمتين، وإنما يجوز الجمع بين ساكنين في مثل هذا إذا كانا في كلمة واحدة. وقال الواحدي: إدغام التاء في الصاد حسن لمقاربة الحرفين، ألا ترى أنهما من طرف اللسان. وقرأ الباقون بإظهار جميع ذلك، والواو للقسم، والمقسم به: الملائكة، والصافات، والزاجرات، والتاليات. [فتح القدير (١٨٥/٦)].

مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى [طه:٥٨] إلى قوله: **﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا﴾** [طه:٦٤] أي: غير مختلفين.

قال رسول الله ﷺ وقد كان أصحابه يصلون عزين؛ أي: جماعات مفترقين: «**ألا تصفوا كما تصف الملائكة عند ربهم**»[١] وعددها صلوات الله وسلامه عليه فيما خص به هو وأمته من بين الأمم والأنبياء، فقال: «**وجعلت صفوفنا كصفوف الملائكة**»[٢]. وقال وقد رأى رجلاً من أصحابه قد ندر صدره عن الصف حين قامت الصلاة: «**سووا صفوفكم فإن اعتدال الصف من تمام الصلاة**»[٣]. و«**لا تختلفوا فتختلف قلوبكم**»[٤] فقوله هنا: **﴿وَالصَّافَّاتِ﴾** [الصافات:١] يؤول إلى جميع الموجودات؛ لأنها على السواء في عبادة الفطرة لله جل ذكره.

قال الله - عز من قائل: **﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾** [آل عمران:٨٣].

قوله تعالى: **﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾** [الصافات:٢] **الملائكة** تزجر السحاب فيكون عن ذلك الرعد والبرق والصواعق والبرد، وذلك كله عن إثارة فتح الله برحمته، وإيراده ذلك على فيح جهنم بالنفسين الخارجين على أقطار الأجواء، فتخرج الملائكة ما هنالك من حقيقة ذلك الفيح رعدًا وبرقًا أو بردًا أو صواعق، ويكون أيضًا كلما زجر عنه من أعمال الأمم السالفة والقرون المهلكة الخالية بزجرها أمرًا وبلاغًا، فإذا أراد إهلاكهم زجرهم زجرة العذاب **﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾** [يس:٢٩] قوله تعالى: **﴿صَفًّا﴾** [الصافات:١] و**﴿زَجْرًا﴾** [**الصافات**:٢] إعظامًا وإكبارًا لموجود

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (٢٤٣٢)، وابن أبي شيبة (٣٥٣٩)، وأحمد (٢١٠٠١)، ومسلم (٤٣٠)، وأبو داود (٦٦١) والنسائي (٨١٦)، وابن ماجة (٩٩٢)، وابن خزيمة (١٥٤٤) وابن حبان (٢١٥٤).

(٢) أخرجه الطيالسي (٤١٨)، ومسلم (٥٢٢)، والنسائي في الكبرى (٨٠٢٢)، وابن خزيمة (٢٦٣)، وابن حبان (١٦٩٧)، وأبو عوانة (٨٧٤)، والدارقطني (١/١٧٥)، والبزار (٢٨٤٥).

(٣) أخرجه بنحوه الطيالسي (١٩٨٢)، وأحمد (١٢٨٣٦)، والدارمي (١٢٦٣)، والبخاري (٦٩٠)، ومسلم (٤٣٣)، وأبو داود (٦٦٨)، وابن ماجة (٩٩٣)، وابن خزيمة (١٥٤٣)، وابن حبان (٢١٧٤)، وأبو يعلى (٢٩٩٧).

(٤) أخرجه مسلم (٤٣٢)، وابن أبي شيبة (٣٥٢٧)، وأحمد (١٧١٤٣)، وابن حبان (٢١٧٢).

الصف والزجر؛ إذ هو من غلبة رحمته عذابه.

ثم قال - عز من قائل: ﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ [الصافات:٣] ما تتابعه الملائكة - عليهم السلام - من ذكر أنهم ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء:٢٠] ثم قد يكون المعنى بذلك أيضًا: الأنفس المتابعة للأمر المقتدية بسنن الأنبياء - عليهم السلام - والألسن التاليات للقرآن والذكر والكتب، سمي القارئ: تاليًا؛ لأنه يتبع الكلام بعضه بعضًا، أقسم الله ﷻ بهذه الأقسام على أنه الإله الواحد الذي لا شريك له، وأنه هو رب السماوات والأرض وما بينهما ورب المشارق واجتزئ بذكر المشارق عن ذكر المغارب.

فصل

ولا تجد أبدًا إقسامه - جل ذكره - إلا مطابقة لمعنى المقسم من أجله من تدبر ذلك وجده على ما ذكرناه، غير أنه ربما عارض ذكر القسم في ذلك عظم الشأن وعموم الأمر، فيظن لذلك أن قسمه غير متناول للمعني به؛ ولذلك قصرنا على القسم بأسمائه وصفاته، ولما كان جميع الموجودات علوًّا وسفلاً قد أصفقت على الإجماع والقنوت له والتسبيح والسجود والصلاة له، وصفت له بذلك صفًّا وزجرت بأدائها شهاداتها ودلالتها على حقيقة الأمر، فتتابعت على ذلك باطنًا وتولاها على ذلك من أصابه الله - جل ذكره - بهدايته ظاهرًا أقسم بهذه الأقسام على أنه الإله الواحد رب كل شيء.

أتبع ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾ [الصافات:٦] ثم عطف بالواو قوله: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ [الصافات:٧] على المعنى، أي: جعلناها زينة للسماء الدنيا وحفظًا.

قوله تعالى: ﴿لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى﴾ [الصافات:٨] وقرأها ابن مسعود: «لا يَسْمَعُونَ إلى الملأ الأعلى»[1] فثبت من هذا الخطاب أنهم لم يجعل لهم السمع إلا إلى من دون السماء الدنيا، ولا يسمعون أيضًا لمن دون السماء الدنيا

---

(١) مخففة. فتح القدير (٤/٥٥٤).

إلا لمن دون الأفلاك كلها التي من لدن فلك القمر لا إلى ما علا، أعلم بذلك رسول الله ﷺ في حديثه حيث يقول: «**إن الملائكة تنزل في العنان** - وهو السحاب - **فتتسمع الشياطين لما يقولون خطفًا**»[١].

وهو أخذ في سرعة وهو تعريض منه بعدم التثبت وقلة الوعي، فيتبعه الشهاب الثاقب ناره الثاقب النير المضيء، وقيل ثاقب: من ثقبه يثقبه مبني على اسم الفاعل يثقبه: ينتظمه، فيخرج من ورائه [...][٢] الله - جل ذكره - فيه؛ لذلك جعله إهلاكًا له متى أصابه بأمر من عنده رجع الكلام، وإنما ينزل من الأمر من لدن ذي العرش ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه إلى حملة العرش، ثم ينزل إلى من دونهم، ثم إلى من دونهم، تدور به دوائر التدبير إلى أن ينزل إلى ما دون السماء الدنيا إلى العنان في دوائر ما هنالك.

وللشياطين درجات في مقاماتها بعضهم أعلى من بعض، ومثل ذلك رسول الله ﷺ بأصابع يده المباركة فحرفها وفرج بين أصابعه جعل الخنصر منها الأسفل والإبهام أعلاها كدرجات السلم.

قال الله ﷻ: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ [الطور:٣٨] فالسلم للشياطين، والمعراج للملائكة - على ملائكة الله السلام - فيستمع الجني الكلمة ويقذفه الشهاب، ويلقي الشيطان الكلمة إلى وليه ثم يلقيها ذلك إلى وليه دونه كذلك حتى تبلغ إلى الجني الذي يلقيها إلى الكاهن، قال: فيقرها في أذنه قر الدجاجة، وهذا تعريض منه بقلة الإفهام وتشويش التبليغ.

قال: فيضيف إليها الكاهن مائة كذبة، والأمر في إيجاد الكذب وقلة الإفهام وتشويش التبليغ سائر من لدن الجني المختطف إلى الكاهن، فهو طريق معتم وسبيل مظلمة، لذلك قال - جل من قائل: يعني الكفار ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ [الطور:٣٨] فأثبت لهم شيئًا ما وهو ما سمي الكاهن لأجله كاهنًا.

ثم أعلم بعدم الثقة في النقل بقوله الحق: ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٣٠٣٨).

(٢) غير واضحة في (خ)، وغير موجودة في (ف).

[الطور:٣٨] أي: بشاهد ودليل يشهد له ويدل على صحة ما يقوله، وقال رسول الله ﷺ: «**صدق الشيطان وهو كذوب**»[١] فهذه حال الكهانة وموجود استراق السمع الدحور الدفع والضرب والرجم واصب دائم.

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الصافات: ١١ - ٢١].

قوله - جل من قائل: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ يعني: سلهم واستخبرهم ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا﴾[٢] [الصافات:١١] والمعهود من حرف «من» أنها تقع على من يعقل، فعلى هذا فالمعني به: الملائكة والجن، ثم بآخره تعم جميع المخلوقات.

قال الله - عز من قائل: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر:٥٧] ثم قال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات:١١] هو أشد الطين رخاوة ولينًا، واللازب: اللازق اللازم لذلك، قيل للقحط المتتابع: اللزوب، والباء تبدل من الميم والميم من الباء، فيقال: لازم ولازب.

قوله ﷻ: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ [الصافات:١٢] يقول: وهو أعلم بما ينزل، أنت تعجب من عظم الشأن وعلا الأمر وجليل الخطر وهم يسخرون، ويلحق به أنت تعجب من تأفيكهم عن حقيقة ما فطروا عليه وخلقوا لأجله، وهم يسخرون منك، وقرئ «بل عجبت» برفع التاء، وهذا يتخرج على معنى قول رسول الله ﷺ:

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٢١٨٧).

(٢) أي: اسأل الكفار المنكرين للبعث أهم أشدّ خلقًا وأقوى أجسامًا، أم مَن خلقنا مِن السماوات والأرض والملائكة؟ قال الزجاج: فاسألهم سؤال تقرير أهم أشدّ خلقًا - أي: أحكم صنعة - أم من خلقنا قبلهم من الأمم السالفة؟ يريد أنهم ليسوا بأحكم خلقًا من غيرهم من الأمم، وقد أهلكناهم بالتكذيب فما الذي يؤمنهم من العذاب؟! [فتح القدير (١٨٨/٦)].

«**إن الله ليعجب للشاب ليست له صبوة**»(١).

فيعود العجب منه ﷻ للرسول والمؤمن لثبات النور في قلوبهم مع وجود ما يضاد ذلك، ويرجع حقيقة التعجب منه تبارك وتعالى لعظيم اقتداره على الهداية وعميم الكفاية لعبده وإسماعه عنه وإبصاره إياه وإحيائه وإيجاده جميع صفات الحياة، مع وجود ما يوجب الموت، ومن أنه الغالب على أمره، لا إله إلا هو العليم القدير، فعلى هذا يكون تعجبه منه عنده ﷻ وتعالى شأنه ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ﴾ [هود:١٢٣].

ومن تحقق في تدبر الوجودين العالم والوحي ألقاه على هذا، فاعلم ذلك واعمل عليه، ليس تعجبه ﷻ من شيء لم يره ولم يشاهد مثله كتعجب عبده هذا بعيد عن صفاته العلا، وقد يكون «بل عجبت» بمعنى: استعظمته ذنبًا وأكبرته مقتًا لهم وهم يسخرون؛ أي: يتهزءون ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ * وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾ [الصافات:١٣ - ١٤] ويضحكون من آيات الله، ويكذبون البعث وينكرون التوحيد، وقد أعظم الله ما هو دون هذا نكاح أزواج النبي ﷺ من بعده الداخر الصاغر.

قوله ﷻ: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الصافات:١٩] الزجرة الحق هي التي تكون للبعث، وهي صيحة تزجر كالذي يزجر الإبل، إنما قلنا: إنها صيحة بغضب؛ إذ هو يوم فيه ينتقم الله - جل ذكره - ممن خالف أمره وكذب بآياته، والأنبياء والرسل - عليهم السلام - يقولون يومئذٍ: «**إن ربنا غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله**»(٢).

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ [الصافات:٢٠] يلهمون لما كانوا ينذرونه من قبل في دار الدنيا فيجابون ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [الصافات:٢١].

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٤٠٩)، والطبراني (٨٥٣)، وأبو يعلى (١٧٤٩)، وابن أبي عاصم في السنة (٥٧١).

(٢) أخرجه أحمد (٩٦٢١)، والبخاري (٤٤٣٥)، ومسلم (١٩٤)، والترمذي (٢٤٣٤)، والنسائي في الكبرى (١١٢٨٦)، وابن أبي شيبة (٣١٦٧٤).

﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ
ٱلۡجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلۡ هُمُ ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقۡبَلَ
بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ
﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭۖ بَلۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيۡنَا قَوۡلُ رَبِّنَآۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ
﴿٣١﴾﴾[الصافات: ٢٢ - ٣١].

أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصافات:٢٢] قيل: أزواجهم هم الذين كانوا يعبدونهم من دون الله، وأزواجهم أيضًا نظراؤهم وأشباههم من أصحابهم، وهذا ممكن، وعندي - والله أعلم بما ينزل - قرناؤهم الذين قال الله ﷻ: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ دل على صحة هذا التأويل قوله: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ...﴾ [فصلت:٢٥] وقال أيضًا: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ...﴾ [الزخرف:٣٦ - ٣٧].

قوله - جل وعز: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ [الصافات:٢٤].

قال الله - عز من قائل: ﴿فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦] فإذا وقع عليهم القول بالسؤال والانقطاع عن الجواب، وأمر بهم إلى النار، يقال لهم: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ [الصافات: ٢٥] أي: كما كنتم في الدنيا يعتضد بعضكم ببعض، فيقال عند ذلك: ﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ [الصافات: ٢٦].

قوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الصافات: ٢٧] يعني: القرناء الذين زوجوا بهم في الدنيا، ثم حشروا معهم في الموقف وفي النار.

﴿قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾[1] [الصافات:٢٨] معنى ذلك: تأتوننا عن

---

(١) فيه وجوه: الأول: إنها استعارة عن الخيرات والسعادات، وذلك أن الجانب الأيمن أشرف من الأيسر شرعًا وعرفًا، وكان رسول الله ﷺ يحب التيامن في كل شيء، ولهذا أمرت الشريعة بمباشرة أفاضل الأمور باليمين والعكس، وجعلت اليمين لكاتب الحسنات والشمال لكاتب السيئات، ووعد المحسن أن يؤتى كتابه بيمينه والمسيء بالضد، وما جعلت يمنى إلا
=

موضع الحسنات تصدوننا عنها وتفسدونها بعد العمل، كما قال الرجيم - لعنه الله: ﴿ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ﴾ [الأعراف:١٧] ما بين أيديهم وما فوقهم وما عن أيمانهم موضع الحسنات، وخلفهم وشمائلهم ومن تحتهم موضع السيئات.

يقول الغواة لهم: ﴿بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات:٢٩] أي: إنكم لو كنتم مؤمنين كانت لكم حسنات، والكافرون لا أعمال لهم من هذه الجهة يقولون: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ فنضلكم عنوة ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ﴾ [الصافات:٣٠].

يقولون: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ﴾ [الصافات:٣١] أي: العذاب ﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ﴾ لذلك ﴿إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾ [الصافات:٣٢] كذلك قال إبليس - لعنه الله: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر:٣٩].

﴿ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ

=

للتيمن بها ولذلك تيمنوا بالسانح وتطيروا بالبارح. الثاني: أن يقال: فلان يمين فلان إذا كان عنده بمنزلة رفيعة، فكأنهم قالوا: إنكم كنتم تخدعوننا وتوهمون أننا عندكم بمحل رفيع فوثقنا بكم وقبلنا عنكم. الثالث: اليمين الحلف، كان الكفار قد حلفوا لهؤلاء الضعفة أن ما يدعونهم إليه هو الحق فوثقوا بأيمانهم وتمسكوا بعهودهم. الرابع: إن اليمين القوة والقهر فبها يقع البطش غالبًا؛ أي: كنتم تأتوننا عن القهر والغلبة حتى حملتمونا على الضلال. [تفسير النيسابوري (٦/٣٤٢)].

يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾[الصافات: ٣٢ - ٥٠].

يقول الله - عز من قائل: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الصافات:٣٣] وفي هؤلاء - والله أعلم - قال: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ الله ﴾ [الصافات:٢٢ - ٢٣].

يقول الله - جل من قائل: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ [الصافات:٣٤].

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات:٣٥] هؤلاء كذبوا المرسلين واستكبروا عن اتباعهم في التوحيد وعبادة الله، فمن شهد شهادتي الحق دخل في أول ولاية الله واصطفائه بقدر ما أوغل في دين الله، ثم يسمو في الاصطفاء بقدر سموه في طاعة الله وحسن الاقتداء بالرسول.

يقول الله - جل ثناؤه: ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات:٣٧] شهد الله لرسوله بهذه الشهادة وهو أكبر الشاهدين.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الأَلِيمِ * وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٣٨ - ٣٩] جاء بلفظ الذوق وذلك يتحصل بأقل العذاب مع ما جاء من وصف عذابهم أنه خلود، ولم يأت به في نعيم الجنة ذكر الذوق، بل جاء ذكر الخلود ومعناه بكل سبيل، ثم عطف بالواو على ذكر الذوق قوله: ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٣٩] وجاء في نعيم أهل الجنة: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:٣٥] وأمثلة هذا كثيرة، والله أعلم.

أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿إِلَّا عِبَادَ الله الْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات:٤٠] هؤلاء أصحاب العلية في الاستقامة، يقول الله - جل من قائل: ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات:٤١] أي: موسوم بهم مسمى لهم ﴿فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [الصافات:٤٢ - ٤٣].

﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ [الصافات:٤٥] أي: جار، كما قال: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ [الغاشية:١٢] أنهار الخمر واللبن والعسل والماء، وغير ذلك من الشراب ﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنهَا﴾ [الواقعة:١٩] أي: لا يخالف بعضهم بعضًا في الزوال عنها، بل يكون اجتماعهم واحد وافتراقهم عنها لمعان من النعيم سواها واحد أيضًا؛

إذ خمر الدنيا لنزفها عقولهم يختلف عنها قيامهم، كلما اغتالت عقل أحدهم قام عنها أو أقيم منزوف العقل فقيده يتخبط حمقًا أو يهمد سكرًا، كما قال بعضهم:

وما زالت الكأس تغتالنا وتذهب بالأول فالأول

فجمعهم عليها يتصدع، ورءوسهم تنجع، وخمرهم تنزف؛ أي: تنم وعقولهم تفقد، لذلك كان جزاء شرابها المعاودين لها أن يسقوا من طينة الخبال عصارة أهل النار.

وسميت خمر الدنيا: خمرًا؛ لأنها خامرت العقول، أي: غطتها وسدت عليها مسالك النور إليها، فمنعته اتصال نوره بالنور المبين المعد له من منبعثه بالسكر الذي جعلته له في مجرى ذلك النور من علو، ثم خالطته بصفاتها فأسفلت به لانطماس المزيد بالنور المتصل بالإيمان، فانفردت لذلك صفات الجهل بأفعالها، ولذلك لا يجتمع الخمر مع إيمان في جوف واحد.

سميت خمر الدنيا بأسماء كثيرة حتى لقد بلغوها تسعة وتسعين اسمًا، اسم مريدها ما سماها المسلمون به، فإنهم يسمونها بالإثم، قال شاعرهم:

شربت الإثم حتى زال عقلي كذاك الإثم يذهب بالعقول

فالإثم يذهب بعقل الإيمان، والخمر يذهب بعقل الإنسان، ثم يكر على عقل الإيمان فتذهب بهما معًا من حيث هي إثم.

قال رسول الله ﷺ: «**لا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن**»[(١)].

وقال عثمان: اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث، وإنه والله لا يجتمع الخمر والإيمان أبدًا إلا أوشك أحدهما أن يخرج صاحبه، وسميت خمر الجنة خمرًا وهي الأصل؛ لأنها خامرت العقل والصفات بضد ما خامرتها خمر الدنيا، بل أعلت بها علوًا، وسلكت بها سبيل اتصال النور بمنبعثه، وطارت بها إلى وليها بما هي تسنيم وسلسبيل، ولأوصاف لها وأسماء أرادها بها خالقها فهي تخالط حقًا، فتوجهه إلى

---

(١) أخرجه أحمد (٨١٨٧)، والبخاري (٢٣٤٣)، ومسلم (٥٧)، والنسائي (٤٨٧٠)، وابن ماجة (٣٩٣٦)، وعبد الرزاق (١٣٦٨٤).

الحق المبين يطير به روحًا وارتياحًا، تفعل ذلك بما هي راح، وتغطي على صفاتهم الدائمة بما هي الكافور، فيجدون أضعاف ما كانوا يجدونه سرورًا وحبورًا، ووجد نعيم وملك كبير، وقد تسرع هذه بشرابها إلى ذلك من حيث هي راح على ما هي عليه من صفات الحساسة ووصف التخلف، كما قال قائلهم:

ونـــشربها فتتـــركنا ملـــوكًا وأســـدًا مـــا ينهنهـــنا اللقـــاء

يتأكد ذلك فيما هنالك ويتحقق جدًّا في صفاتهم، وعند الزيارة يسقون شرابًا طهورًا بها يزورون ربهم - عز جلاله - يطهرهم من معاني الغيرية الموجودة بهم في الجنة، هو مشتمل على خاصة كل شراب تقدم لهم، وعلوها ومزيد فضلها على قدر ما بين الموطنين والشرابين، فتفعل هذه العليا بهم من أخذها إياهم عن معهودات الجنة ما فعلت خمر الجنة بهم عن معهودات ما عهدوه من أمور الدنيا التي صارت بها خمر الدنيا الآخذة بهم عن معهوداتها سفلاً، فترتفع صفاتهم توحيدًا وعلمًا ومعرفة وإفرادًا وإجلالاً وإكبارًا وحياءً وشوقًا وتوقًا إلى بارئهم - جل ذكره - لخاصة له جعلها لها، وسمى هذه: شرابًا، ولم يسمها: خمرًا، إلا بحكم العموم، والله أعلم بقدر ذلك، لا إله إلا هو العلي الكبير.

قوله ﷻ: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الصافات:٥٠] يعني: في مجالسهم من الجنة، كما قال: ﴿إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر:٤٧] فهم يتساءلون عن أسباب هداياتهم وعن أئمتهم في ذلك وقرنائهم.

﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ لَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الصافات: ٥١ - ٦١].

﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ [الصافات:٥١ - ٥٣] أي: لمجازون ذكر أهل التفسير

سببًا نزلت من أجله زعموه، وأنه رجل تصدق بجميع ماله ابتغاء وجه الله العظيم، ثم احتاج فاستجدى رجلاً من معارفه فسأله: ما فعل مالك؟ قال: وجهته لله تعالى، فقال له: أئنك لمن المصدقين بهذا لا أعطيك شيئًا أبدًا، وهذا ولو صحَّ فلا ينبغي أن يقصر على سببه، بل لكل مكلف قرين قيضه الله لمن يمتحنه به من الجن أو من الإنس أو منهما، فإن كان شقيًّا رضاه به وجعله سامعًا له مطيعًا، وإن كان سعيدًا لم يرضه به وعصاه فأبدله من ذلك بقرين خير يكون من الإنس أو من الملائكة - عليهم السلام - أو منهما، ومن عصمه الله فهو المعصوم، ومن خذله فهو المحروم، ويجمع الضال مع قرينه والمهتدي بقرينه الهادي.

فقيل لهذا المهتدي: اطلع، فكشف الله له ما بينه وبين النار ﴿فَرَآهُ﴾ مبعدًا عنه ﴿فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات:٥٥] ذلك لأنه عصاه وخالف أمره سواء كل شيء وسطه، يقال من ذلك: تعبت حتى انقطع سواي، أي: وسطي.

يقول له: ﴿تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾[1] [الصافات:٥٦] الردى: الهلاك ﴿وَلَوْلَا﴾ رحمة ﴿رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [الصافات:٥٧] المحضر هو: الذي أحضر للعذاب، ثم رجع إلى جلسائه وأصحابه الكلام وهم له سرورًا وفرحًا بما صار إليه وغبطة به.

يقولون: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[2] [الصافات:٥٨ - ٥٩] فرحوا بأن لا موت عليهم أبدًا في محلهم ذلك؛ إذ أهل النار يتمنون الموت فلا يعطونه، ويأتيهم الموت من كل مكان وما هم بميتين، خالدين

---

(١) قرأ نافع برواية ورش: «لترديني» بإثبات الياء في الوصل والباقون بحذفها. [تفسير الرازي (١٣/١٢٦)].

(٢) ما معنى قوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الأولى﴾؟ وما معنى ذكر الأولى كأنهم وعدوا موتة أخرى حتى نفوها وجحدوها وأثبتوا الأولى؟ قلت: معناه والله أعلم: أنه قيل لهم: إنكم تموتون موتة تتعقبها حياة كما تقدّمتكم موتة قد تعقبتها حياة، وذلك قوله ﷻ: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة:٢٨] فقالوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الأولى﴾ يريدون: ما الموتة التي من شأنها أن يتعقبها حياة إلا الموتة الأولى دون الموتة الثانية، وما هذه الصفة التي تصفون بها الموتة من تعقب الحياة لها إلا للموتة الأولى خاصة، فلا فرق إذًا بين هذا وبين قوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدنيا﴾ في المعنى. [الكشاف (٦/٢٦٧)].

في العذاب الأليم لا يموتون ولا يحيون - نعوذ بالله - من أحوال أهل النار في الدنيا والآخرة؛ ولأن قومًا من الموحدين يدخلون النار - نعوذ بالله - من ذلك بذنوب أصابوها، ثم يموتون فيها إماتة حتى يخرجون منها بالشفاعة لذلك، والله أعلم بما ينزل.

قالوا: أفما نحن بميتين وما نحن بمعذبين، فاستاقوا صفين وعددوا يومئذٍ هذه النعمة، والأشقياء أيضًا لا يموتون فيها ولا يحيون لهذا و﴿لِمِثْلِ هَذَا﴾ يقول: ﴿فَلْيَعْمَلِ العَامِلُونَ﴾ [الصافات:٦١] وقال حكاية عنهم: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوْتَتَنَا الأُولَى﴾ فاستثنى الموتة التي ماتوا في الدنيا من ذكر موت أمنوه في الجنة، وهذا فليس باستثناء منقطع ذلك؛ لأنهم كانوا في الدنيا مؤمنين بالله وبرسله وكتبه وبآياته عالمين بالله طائعين له، وهي جنة معجلة فحسن الاستثناء منها؛ لذلك قال رسول الله ﷺ:«**إذا رأيتم رياض الجنة فارتعوا**»[(١)] يريد مجالس الذكر، وقال:«**من قال: لا إله إلا الله مخلصًا من قلبه دخل الجنة**»[(٢)].

واستثناؤه الموتة التي أمنوها في الجنة من الموتة في الدنيا من هذا الباب، وعلى القول بالتحقيق بالموتة الأولى: هي الموتة التي أماتهم فيها بعد التقرير الأول، فهي الأولى لهذه التي ماتوا بها ثم أحياهم حال الموت، ولما أحياهم قالوا: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾ [الصافات:٥٨].

قال الله - عز من قائل: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا المَوْتَ إِلَّا المَوْتَةَ الأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الجَحِيمِ * فَضْلا مِّن رَّبِّكَ﴾ [الدخان:٥٦ - ٥٧] إذ اليوم الآخر تعمهم صفة الحياة يعبر عن حالهم بذلك الفضل مع حسن المآب.

يقول الله - جل ذكره: ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ العَامِلُونَ﴾ [الصافات:٦١] جل جلال ربنا وتعالى علاؤه وشأنه، وعظ ونصح وهو الرحيم الودود، هذا الخطاب معبر عن كونهم حال البرزخ وإعلام من الله - جل ذكره - أن المتقين أحياء عند

---

(١) أخرجه أحمد (١٢٥٤٥)، والترمذي (٣٥١٠)، وأبو يعلى (٣٤٣٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٩)، والطبراني في الدعاء (١٨٩٠)، وأبو نعيم في الحلية (٦/٢٦٨).

(٢) أخرجه بنحوه ابن حبان (٢٠٠).

ربهم ﷻ، وأن لهم تجمع بعضهم مع بعض وتذكر واغتباط بما هم فيه من حياة وكريم معال، ووقوف منهم على مصير المجرمين، وما لهم فيه من حرج وندامة ونكال، فيقولون - على جميعهم السلام - اغتباطًا بما هم فيه: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾ وقد كنا نعد ما نحن فيه في دار الدنيا موتًا فقد منَّ الله علينا وأحيانا ولم نكن أمواتًا إلا في موتتنا الأولى؛ أي: الموتة التي صيرهم بها صنعه في خزائن السماوات والأرض بعد التقدير الأول، ونظيرتها في سورة «الدخان» فليبشر المؤمن نفسه.

﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾[الصافات: ٦٢ - ٧٤].

قوله تعالى: ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾[1] [الصافات:٦٢] فأصل بين المصيرين والنزلين، وقد علم - جل ذكره - أنه قد حصر الفضل كله إلى عباده المؤمنين، ثم أعلم بما هي هذه الشجرة بقوله: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات:٦٤] يعني، وهو أعلم: في أسفل جهنم، وهو الدرك الأسفل من جهنم.

﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ [الصافات:٦٥] يعني: في القبح والضر والشوب الخلط من الحميم، يقول: يأكلها أهل النار ثم يشربون عليها من الحميم، وهي العين الآنية التي تناهى حرها.

وأرى - والله أعلم - أن شجرة الزقوم من شجر الزمهرير، قيل: إنها أيبس من

---

(١) الزقوم: ثمرة شجرة خبيثة مرة كريهة الطعم، يكره أهل النار على تناولها، فهم يتزقمونه على أشد كراهية، ومنه قولهم: تزقم الطعام إذا تناوله على كره ومشقة. [تفسير البغوي (٧/٤٢)].

الحجر وأمر من العلقم، وأصل الجحيم منبعث الزمهرير، ألا تسمع إلى قوله - جل قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لإِلَى الجَحِيمِ﴾ [الصافات:٦٨] أي: أنهم يكونون في الزمهرير ما شاء الله، ثم إلى الجحيم ذلك؛ لأنهم ﴿أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ * فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ [الصافات:٦٩ - ٧٠] أي: يسرعون.

﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٨٢﴾ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ [الصافات: ٧٥ - ٨٩].

قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ * سَلامٌ عَلَى نُوحٍ فِي العَالَمِينَ﴾ [الصافات:٧٨ - ٧٩] لا يسلم إلا على حي.

قال رسول الله ﷺ: «سلموا علي إن لله ملائكة يبلغوني السلام من أمتي»[١].

قال رجل: يا رسول الله، كيف نصلي عليك وقد أرمت؟ قال: «إن الله حرم على التراب أن يأكل لحوم الأنبياء»[٢].

ومن ذلك قوله: ﴿وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ اليَمِينِ * فَسَلامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ اليَمِينِ﴾ [الواقعة:٩٠ - ٩١] أي: حياة لك يا من هو من أصحاب اليمين، وكل من أبقى عليه في الآخرين سلامًا، فهو حي عنده يرزق، يقول ﷻ: ذلك نفعل

---

(١) أخرجه بنحوه عبد الرزاق (٣١١٦)، وأحمد (٤٢١٠)، والنسائي (١٢٨٢)، وابن حبان (٩١٤)، والطبراني (١٠٥٢٨)، وأبو الشيخ في العظمة (٥١٣)، وأبو نعيم في الحلية (١٣٠/٨)، والحاكم (٣٥٧٦) وقال: صحيح الإسناد. والبيهقي في شعب الإيمان (١٥٨٢).

(٢) أخرجه أحمد (١٦٢٠٧)، وابن أبي شيبة (٨٦٩٧)، وأبو داود (١٠٤٧)، والنسائي (١٣٧٤)، وابن ماجة (١٦٣٦)، والدارمي (١٥٧٢)، وابن خزيمة (١٧٣٣)، وابن حبان (٩١٠)، والحاكم (١٠٢٩) وقال: صحيح على شرط البخاري. والطبراني (٥٨٩)، والبيهقي (١٦٦٦).

بالمحسنين يكون حيًا عندنا ونجعل له في الآخرين التحية، يقال: سلام على إبراهيم، سلام على موسى وهارون، سلام على فلان، هكذا قال الله ﷻ وذكر يحيى بن زكريا وعيسى عليهما السلام ﴿وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وَلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًا﴾ [مريم:١٥] ﴿وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وَلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًا﴾ [مريم:٣٣].

أتبع ذلك قوله - جل ذكره: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ﴾ [الصافات:٨٣] أي: من شيعة نوح، ويمكن أن يكون المراد: من شيعة محمد صلوات الله وسلامه على جميعهم، وشيعتهم واحدة قد جمعتهم كلمة التوحيد ودعاية الإسلام والنبوة والرسالة، وإن اختلفت شعب ما في أثناء شرائعهم بحكمة الله - جل ذكره - في ذلك لما رآه من المصلحة لأمة أمة، أو لما يكون عقوبة من أجل عتو واعتداء أوتخفيف لضعف أو رضا عنهم.

أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات:٨٤] أي: من الشك والشرك والغل والحسد والبغضاء، وغير ذلك من آفات النفوس المردية.

﴿ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ [الصافات:٩٠ - ١٠١].

قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات:١٠١] وقال في موضع آخر: فبشرناه ﴿بِغُلامٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر:٥٣] العلم والحلم والعقل صفات للعالم، والحليم والعاقل بالعقل يميز ما بين المعلومات، وبالعلم يعلم، وبالحلم يتأنى، ويكون منه الصفح عن الجاني وتحمل الأذى والانتظار بأوائل الأمور حسن عواقبها، وبالحلم أيضًا توضع الأشياء على أحسن مواضعها، وذلك كله من الأناة وترك الطيش ونبذ العجلة واستعمال الروية.

قوله ﷻ: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾[1] [الصافات:٨٨ - ٨٩] كان النظر في النجوم من دينهم والمعهود من شأنهم ولما استنهضوه للسير إلى عيد كان لهم، وقد كان عقد في نفسه أن يخالفهم إلى آلهتهم حتى يكسرها، ونذر ذلك بقوله: ﴿وَتَاللهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ [الأنبياء:٥٧] ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ أي: على عاداتهم كانوا بذلك يدينون وعنها بزعمهم يأخذون علومهم، ثم قال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾.

قال رسول الله ﷺ: «**في المعاريض مندوحة عن الكذب**»[2].

قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ مكر بهم ليصل إلى مراده من التبليغ والتبيين عن الله - جل ذكره - أي: سأسقم، كما قال تعالى ذكره: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر:٣٠] يخبر بذلك عن المستقبل.

قوله: ﴿فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ﴾ [الصافات:٩١] يعني: عدل مستندًا في عجله.

قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على الآلهة ﴿ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ [الصافات:٩٣] أي: بأقصى قوته واستطاعته، ويمكن أن يكون معنى ذلك: ضربًا باليمين الذي حلف بها ليكيدن أصنامهم.

﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾ [الصافات:٩٤] الزفيف: إسراع كإسراع النعامة تدفع رجليها وتستعين بالجناحين حال عدوها.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ أي: العمل والعبادة، وذلك أتم له في نفس الأب وأجمع لمحبته، ابتليا - صلوات الله وسلامه عليهما - هذا بأن يجود بنفسه للذبح، وهذا بأن يذبح ابنه ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ رؤيا

---

(١) قال السّدّي: كان لهم في كل سنة عيد يجتمعون فيه، فكانوا إذا رجعوا من عيدهم دخلوا على الأصنام فسجدوا لها، ثم عادوا إلى منازلهم، فلما كان هذا الوقت قال آزر لإبراهيم: لو خرجت معنا، فخرج معهم، فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه وقال: إنّي سَقِيم أشتكي رِجْلي، فلمَّا مَضَوْا وبقي ضعفاء الناس، نادى وقال: ﴿تالله لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ﴾ أي: إلى عيدكم... إلخ. [تفسير اللباب لابن عادل (١١/٣٠٨)].

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٦٠٩٦)، وهناد في الزهد (١٣٧٨)، والبخاري في الأدب المفرد (٨٥٧).

الأنبياء وحي ﴿فَانظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ أي: ما تسخو به نفسك لله ﷻ أو تبخل فجاهدها في ذلك، لم يعلمه بأمر الله له بذلك ليخيره في الأمر، إنما أخبره بذلك ليطيب نفسًا، فكان ﵇ عند الظن به، وقد قرأت: ﴿فَانظُرْ مَاذَا تُرَى﴾[1] أي: ما يرى الله من نفسك أصبرًا ورضًا أم جزعًا وجبنًا.

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ ﴾ [الصافات: ١٠٢ - ١١٣].

---

(١) قال ابن العربي: فاختلف في الذبيح، هل هو إسماعيل أو إسحاق؟ واعلم أن رؤيا الأنبياء وحي، لأن الشيطان لا يتخيل لهم، ولا يخلط عليهم، ثم أنالرؤيا منها، ما تخرج بصفاتها، ومنها ما تخرج بتأويلها، فإن كانت الرؤيا خارجة بصفتها، كان المرئي واقعًا، وإن كانت خارجة بكنيتها، كانت خارجة في قريب المرئي، أو في صاحبه، أو فيمن تسمى باسمه، وقوله: ﴿إِنِّي أَرَى فِي المَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾. قال أهل السنة: إنه يجوز النسخ قبل الفعل تمسكًا بقصة الذبيح إن فيها الأمر بالذبح قبل وقوع الذبح، وقال المخالف: لا نسخ بل كان كلما قطع جزءًا التأم حذرًا من البداء. واعلم أن الرؤيا حق، ووحي لأنها إما أن تكون من غلبة الأخلاط كما تقوله الفلاسفة، والأنبياء مبرؤون من ذلك لصفاء قلوبهم، وإما أن تكون من اختلاطات، أو حديث نفس، وإبراهيم مبرء من ذلك، وإما أن تكون من تلاعب الشيطان. وإبراهيم معصوم منه. واعلم: أن الله جعل ذبح الولد عبارة عن ذبح الشاة شرعًا، فألزم إبراهيم ذبح ولده، وأخرجه عنه بذبح شاة، ويلزم الإنسان، لقوله تعالى: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾. فإن قيل: كيف أمر إبراهيم بذبح ولده، وذلك معصية، والأمر بالمعصية لا يجوز؟ قلنا هذا اعتراض على القرآن، إن الله تعالى يفعل ما يريد، لأن المعاصي والطاعات ليست أوصافًا ذاتية للأعيان، إنما الطاعة عبارة عن امتثال الأمر، والمعصية عبارة عن ارتكاب النهي ما كان الفعل فبأي شيء تعلق الأمر والنهي تعين امتثاله أو اجتنابه. [الأحكام الصغرى ٥١٦].

﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات:١٠٢] وهذا من حلمه الذي وصفه الله به، علم أن أباه لم يكن ليذبحه من ذات نفسه، وخرج رؤيا أبيه على أنها من أمر الله إياه بذلك، وقد ظهر حلمه جهارًا في جوده لله بنفسه وبيعها من الله أحسن بيع وتوجيهها له أحسن توجيه، وهذا كله لعلمه الذي وصفه الله - جل ذكره - به بأن مصيره على ذلك إلى لقاء ربه ﷻ وكرامته بمجال الشهداء.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا﴾ أي: أنفسهما لله هذا بابنه وهذا بنفسه، وعلم الله - جل ذكره - صحة ذلك منهما ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات:١٠٣] التل: ظاهر فيه العنف، وهو الذي يليق بتلك الحال من إظهار الشجاعة والسخاوة والرضا، ثم عطف بالواو على محذوف مقدر، تقديره والله أعلم: لما ظهر صدقهما وصحة عقدهما عفونا عن ذلك منهما أو خففنا عنهما.

أخبر ذلك هذا أو ما يكون معبرًا عن هذا المعنى، فعطف على ذلك بقوله: ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ ثم قال: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات:١٠٤ - ١٠٥] هذا كلام منتظم بالمحذوف المقدر أنا إذا علمنا صدق العبد وصحة عزمه على فعل المأمور به أكملنا له أجره واحترمنا منه بذلك، من ذلك قوله جل من قائل:«**إذا هم عبدي بحسنة فلم يعملها فأنا أكتبها له حسنة كاملة، فإن عملها فأنا أكتبها له عشرًا إلى سبعمائة ضعف...**»(١).

قوله تعالى: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات:١٠٧] قال رسول الله ﷺ: «**فداه بكبش أبيض كحيل**»(٢).

فصل

عظم الله قدر الذبح الذي هو الكبش وغيره أعظم جزمًا منه وأخصب ذبحًا والله أعلم، والكبش في التأويل: الرجل الشريف المهيب المعظم، وكبش القوم: عميدهم، وكبش الكتيبة: مقدمها، وقال رسول الله ﷺ:«**يؤتى بالموت يوم القيامة**

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٦٢)، ومسلم (١٢٨)، والترمذي (٣٠٧٣) وابن حبان (٣٨٠).

(٢) أخرجه بنحوه أحمد (٢٧٥٩).

على صورة كبش...»[١].

وهذه الشواهد المتظاهرات تدل على سر الله به أعلم، والأنعام الثمانية الأزواج كما هي فداء لنا جعلها لنا غذاء ألبانها ولحومها، وجعلها هديًا وفدية في أداء الحج وتصحيحه، والضحايا قال الله - عز من قائل: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ﴾ [الزمر:٦] كذلك قال، وقوله الحق: ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ [الشورى:١١] وإذا نحن أكلنا من لحومها وشربنا من ألبانها كنا عنها، فهذا نسب متقارب بيننا وبينهن وهبة بتلة[٢] منه لنا، ودل ذلك على أنها تنقل من هاهنا إلى ما هنالك من خير يكن لنا فراطًا إن شاء الله، وهو المنان العواد بالخيرات.

قوله - جل ذكره: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات:١١٢] مجيء ذكر البشارة بإسحاق عليه السلام بعد قصة الذبح إيماء إلى أن إسماعيل عليه السلام هو الذبيح، وإن كانت الواو ليست تعطي في أكثر أحوالها رتبة، لكن ذلك في كلام العرب ومعهود تخاطبها ليس القرآن كذلك، وقد قال رسول الله ﷺ وقد قصد السعي بين الصفا والمروة، فبدأ بالصفا، وقال: «**نبدأ بما بدأ الله به**»[٣] وأيضًا فإن إسماعيل كان بكره - صلى الله عليهما وسلم - وهو المقصود بهذا الشأن، وقد جاء هذا منصوصًا عليه في الكتاب الذي يذكر أنه التوراة؛ أعني: المحنة بفقد بكور الأبناء.

ومن الدليل على صحة ما ذهبنا إليه: قوله جل وعز في سورة «الذاريات»: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ * فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ﴾ أي: في جملة من النسوة ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [الذاريات:٢٨ - ٢٩] فهذه امرأته سارة، وأمَّا إسماعيل فهو من هاجر، ولم تكن له بزوجة وإنما كانت ملكًا.

وقال في هذه السورة: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات:١٠١] ولم يذكر

(١) أخرجه مسلم (٢٨٤٩)، والطبراني (١٣٣٤٦).

(٢) صدقة بتلة: انقطعت من صاحبها. انظر الصحاح في اللغة (٣٠/١).

(٣) أخرجه عبد بن حميد (١١٣٥)، ومسلم (١٢١٨)، وابن أبي شيبة (١٤٧٠٥)، وابن حبان (٣٩٤٤).

امرأته، وجاء في الكتاب الذي يذكر أنه التوراة، لما بشر بإسحاق - عليهما السلام - قال إبراهيم: «ليت إسماعيل يكبر بين يديك».

وجاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**أنا ابن الذبيحين**»[١] يعني: إسماعيل ﷺ وعبد الله بن عبد المطلب حين نذر عبد المطلب إن الله أعانه على وجدان بئر زمزم أن يذبح له أحب بنيه إليه، وكان أحبهم إليه عبد الله في قصة طويلة، ومن الدليل على صحة ما نحن بسبيله: قول الله - جل من قائل: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود:٧١] وكان هذا قبل أن تحمل سارة بإسحاق وإنما بشره بإسحاق، ثم من ورائه يعقوب - عليهم السلام - فلو كان المأمور به للذبح إسحاق لكان ذلك نقضًا لوعد الله إياه بهبته يعقوب عن إسحاق، وقطعًا بمقدور قد ثبت، كتبه وحصل به الوعد من ملي وفي ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ﴾ [التوبة:١١١].

وأيضًا فإن في قوله - جل ذكره: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًا﴾ [الصافات:١١٢] وإسحاق يومئذٍ لم يبلغ النبوة، وإنما بلغ أن يكون يسعى مع أبيه في عبادة أو ما يشبه ذلك، فلو كان الذبيح لكان قطعًا بالوعد الكريم، وكان يكون من إبراهيم ﷺ في ذلك من أجل هذه المقدمات من الوحي عنده توقفًا ما وحيرة، إلا أن يكون أعلم مع ذلك أنه غير منفذ الأمر فيه كما كانت العاقبة، فليس هذا من شأن التكليف؛ إذ عمدة وجوده على الإيمان بالغيب وإلا فعلام يقع المدح من الله لهما لو كان عندهما أن الذي ابتليا به غير واقع؟.

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَـٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُمَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَـٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الصافات: ١١٤ - ١٢٨].

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/٤٥٥).

وقد قال - عز من قائل: ﴿إِنَّ هَـذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ﴾ [الصافات:١٠٦] وعذاب الله وأمره وتكليفه ليس على هذا، فصح من مجموع هذا أن الذبيح هو إسماعيل، صلوات الله وسلامه عليه، وعلى محمد وعلى جميع الأنبياء والمرسلين.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ * أَتَدْعُونَ بَعْلاً﴾ [الصافات: ١٢٣-١٢٥] بعل: قيل: هو اسم لصنم بعينه، والبعل أيضًا: الصاحب، فعلى هذا معناه: أتدعون مع الله صاحبًا، وقيل: البعل: الرب، فمعنى: أتدعون مع الله ربًا آخر، لذلك قال ﷻ: ﴿اللهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾ [الصافات: ١٢٦] وقرئ: «الله ربكم ورب آبائكم الأولين» معنى ذلك: اتقوا الله ربكم ورب آبائكم.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٢٩) سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٣٢) وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٣٥) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٣٦) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٣٨) وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤)﴾ [الصافات:١٢٩ - ١٤٤].

قوله تعالى: ﴿سَلامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ﴾(١) [الصافات:١٣٠] وفي قراءة أخرى: «سلام على أدراسين» قيل: إلياس هو ياسين، ويقال: هو إدريس، وفي بعض القراءات: «وإن إدريس لمن المرسلين سلام على أدرياسين».

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [الصافات:١٣٩ - ١٤٠] لما ترك عمله وذهب مغاضبًا سماه آبقًا.

---

(١) «سلام على آل ياسين» قراءة الأعرج وشيبة ونافع. وقرأ عكرمة وأبو عمرو وابن كثير وحمزة والكسائي: «سلام على إلياسين». وقرأ الحسن: «سلام على الياسين» بوصل الألف كأنها ياسين دخلت عليها الألف واللام التي للتعريف. [تفسير القرطبي (١١٨/١٥)].

﴿فَسَاهَمَ﴾ [الصافات:١٤١] قارع: من القرعة، الدحض: الزلق لما دفع به من الفلك كان دحضًا.

﴿فَالْتَقَمَهُ الحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الصافات:١٤٢] أي: قد أتى في إباقه ذلك ما يلام عليه، انظر إلى كرم الله - جل ذكره - ذكره بالنبوة والمدحة عنه حاله هذه إن ربنا لحليم كريم.

﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ المُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات:١٤٣ - ١٤٤] أعلم - عز جلاله - أن العمل بطاعته في الرخاء ينفع في حال الشدة، وفيما جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال لابن عباس: «**يا بني، تعرف إليه في الرخاء يعرفك في الشدة**»[1].

﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾﴾ [الصافات:١٤٥ - ١٥٦].

قوله ﷻ: ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ [الصافات:١٤٥] العراء: الواسع البراح، نبذه الحوت ولما كان بأمره وبإذنه اتصف بأنه فاعل ذلك، وهذا يؤيد ما تقدم ذكره في فعلة الملكوت - عليهم السلام - وأنه يخبر عن كل ما تفعله الملائكة بإذنه وأمره وحوله وقوته بـ«أنزلنا وأنبتنا وأخرجنا» ونحو هذا.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إلى مِائَةِ أَلْفٍ أو يَزِيدُونَ﴾ [الصافات:١٤٧] «أو» هنا عاطفة، كقوله: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أو كَفُورًا﴾ [الإنسان:٢٤] معناه: ولا كفورًا، معنى ذلك: متى قال لك هذا أو هذا فلا تطع، وسياق الخطاب يعطي أن رسالته

(١) أخرجه الطبراني (١١٢٤٣)، وأحمد (٢٨٠٤)، والضياء (١٣).

كانت بعد المحنة.

﴿ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ [الصافات: ١٥٧ - ١٧٠].

قوله جل ذكره: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجِنَّةِ نَسَبًا﴾(١) [الصافات:١٥٨] كان قوم من العرب يقولون: إن الملائكة بنات الله ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ﴾ [الإسراء:٤٣] وكان ناس منهم يقولون: إن سروات الجن بنات الله تعالى الله، يقول الله - جل من قائل: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الجِنَّةُ إِنَّهُمْ﴾ يعني: الجنة ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات:١٥٨] يحضرون العذاب.

قوله - عز من قائل: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ * مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ * إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الجَحِيمِ﴾ [الصافات:١٦١-١٦٣] يريد من حقت عليه كلمة العذاب، أتبع ذلك قوله الملائكة، عليهم السلام: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ * وَإِنَّا لَنَحْنُ

---

(١) اختلفوا في المراد بالجنة على وجوه: الأول: قال مقاتل: أثبتوا نسبًا بين الله تعالى وبين الملائكة حين زعموا أنهم بنات الله، وعلى هذا القول فالجنة هم الملائكة سموا جنًّا؛ لاجتنانهم عن الأبصار أو لأنهم خزّان الجنة، وأقول هذا القول عندي مشكل؛ لأنه تعالى أبطل قولهم: الملائكة بنات الله، ثم عطف عليه قوله: ﴿وَجَعَلُواْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجنة نَسَبًا﴾ والعطف يقتضي كون المعطوف مغايرًا للمعطوف عليه، فوجب أن يكون المراد من هذه الآية غير ما تقدم. الثاني: قال مجاهد: قالت كفار قريش: الملائكة بنات الله، فقال لهم أبو بكرالصديق: فمن أمهاتهم؟ قالوا: سروات الجن، وهذا أيضًا عندي بعيد؛ لأن المصاهرة لا تسمى نسبًا. والثالث: روينا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لله شُرَكَاء الجن﴾ [الأنعام:١٠٠] أن قومًا من الزنادقة يقولون: الله وإبليس أخوان، فالله الخير الكريم وإبليس هو الأخ الشرير الخسيس، فقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجنة نَسَبًا﴾ المراد منه هذا المذهب، وعندي أن هذا القول أقرب الأقاويل. [تفسير الرازي (١٣/١٥٤)].

الصَّافُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات:١٦٤ - ١٦٦] معناه: وإن كلنا لما ﴿لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ أي: من التعبد له والتسبيح والخشية والخوف منه.

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ (١٧٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٤) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ (١٧٧) وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٨) وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩) سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٨٢) ﴾ [الصافات:١٧١ - ١٨٢].

ونحو هذا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغَالِبُونَ﴾ [الصافات:١٧١-١٧٣] وقرأ بعضهم: «ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا» معنى هذا - والله أعلم - كقوله: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف:١٢٨] منع من ظهور هذا الخطاب إلى تمام غايته ما ذكره من صفات له سواها وأسماء وأحكام قوله: ﴿ وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران:١٥٤] وقوله: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ﴾ ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران:١٤٠] والنصر من الله للمرسلين والمؤمنين، والتسليط والإدالة قد تكون منه للكافرين على المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ﴾ [الصافات:١٧٤] أي: اعرض عنهم حتى يأتي أمرنا بالنصر عليهم والغلبة، وقد أدال الله لرسوله والمؤمنين بالقتال والنصر، وقال رسول الله ﷺ: «**بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا**»[1] وهو ذا قد أدالهم على المسلمين لغربة الإسلام وعدم النصحاء لله ولرسوله وللمؤمنين، ونحن الآن ننتظر العاقبة، جعلنا الله من المتقين أتباع الرسول ﷺ.

أتبع ذلك قوله: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ [الصافات:١٧٦] يعني، والله أعلم: النصر الذي قد يُقضى بعد غربة الإسلام الأولى ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ

---

(١) أخرجه مسلم (٣٨٩).

الْمُنذَرِينَ﴾(1) [الصافات:١٧٧] وفي قراءة بعضهم: «فبئس صباح المنذرين».

ثم استأنف وعدًا آخر بقوله: ﴿**وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ**﴾ [الصافات:١٧٨] هذه هي الإدالة التي لهم الآن بعد غلبة المسلمين التي تقدمت، وهو خطاب لمعشر الأمة وأئمتها وعلمائها.

﴿**وَأَبْصِرْ**﴾ أي: من بعدك؛ أي: اجعل لهم بصرًا وعلمًا بالتبليغ إليهم حين النصرة للمؤمنين والإدالة عليهم، ثم لهم في آخر الأمر؛ أعني: في العاقبة ﴿**فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ**﴾ [الصافات:١٧٩] يعني: الكفار، أي: ما يحل بهم يومئذٍ، ثم تبسط صدق الحديث على الإعلام بما يكون منا ومنهم في دار الدنيا ثم في دار الآخرة.

قوله ﷻ: ﴿**سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾ [الصافات:١٨٠] هذا منتظم بما ابتدأ به السورة من القسم بما أقسم على تحقيق التوحيد وما أعقب به في أواخرها، وهو ما عبر عنه قولهم: ﴿**فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ**﴾ [الصافات:١٤٩] إلى آخر المعنى.

ثم أعقب ذلك بقوله: ﴿**وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الصافات:١٨١ - ١٨٢] هذه الآية من أمهات الكتاب، جمع في هذه مجملاً معنى السورة من أولها إلى آخرها، بل جميع ما جاء به القرآن من أوله إلى آخره؛ إذ القرآن إنما هو ما عبر عن أسماء الله وصفاته وأفعاله التي هي حكمته، استحق لأجلها من عباده الحمد في السماوات والأرض في الدنيا وفي الآخرة، ثم التسليم للمرسلين وتصديقهم، والصلاة والسلام على جميعهم.

ثم يبسط الصلاة والتسليم على الملائكة - عليهم السلام - يقول الله ﷻ: ﴿**اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ**﴾ [الحج:٧٥].

﴿**يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ**﴾ [النحل:٢].

---

(١) عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ حين خرج إلى خيبر أتاها ليلاً، وكان إذا جاء قومًا بليل لم يغز حتى يصبح، قال: فلما أصبح خرجت يهود خيبر بمساحيها ومكاتلها، فلما رأوا النبي ﷺ قالوا: محمد والله، محمد والخميس، فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين» وهو يبين معنى هذه الآية. [تفسير البغوي (٦٥/٧)].

واسم العزة يقع على ما هو لله صفة، والله وصفاته وأسماؤه رب غير مربوب وإله غير مألوه، معبود غير عابد، لا إله إلا هو العلي الكبير، وهو أيضًا واقع على صفة تكون للمحدثين المربوبين.

قال الله - جل من قائل: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ﴾ فهذه عزته جل ذكره، ثم قال: ﴿وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨] فهذه مخلوقة مربوبة، فمعنى قوله: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ [الصافات:١٨٠] أي: رب كل عزة معلومة لسواه منسوبة إلى غيره، وفي تنزيه الله تنزيه صفاته وما لا يجوز مفارقته له ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

تفسير سورة «ص»[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

هذه الحروف المفتتح بها أوائل السور على ما هي عليه عسير علمها، ومع ذلك فإن الله - جل ذكره - لم يويئس من البلوغ إلى معرفتها، ولا نهانا رسول الله ﷺ عن التعرض لمعرفتها والبحث عن فهم المراد بها، وإنما فرض الله تعالى عليه التبيين والتبليغ إلى الناس بما أنزل إليهم، وكانت هذه الحروف مما نزل إليهم، وكانت مع ذلك جوامع لما اشتمل القرآن عليه، فكان تبيينه غيرها من القرآن تبيينًا لها، فبلغ أمته وأشهدهم على تبليغه عن ربهم إليهم، فشهدوا وأشهد رسله على شهادتهم له بالتبليغ.

وقيل له: ﴿فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ [الذاريات: ٥٤] والمعهود المستصحب من خطاب القرآن الكريم الحض على التذكر به، وإلقاء السمع لخطابه مع شهادة القلب طلبًا لمعرفة معانيه، حرصًا على البلوغ إلى معرفة الحق الذي أراده به منزله، وهذه الحروف التي نحن بسبيل ذكرها فمن القرآن لا محالة، ومن الكتاب بلا مرية، ومن آيات الكتاب بأخبار منزلة العلي الكبير فالله المستعان وعليه التكلان.

وإنما هو الله وحده بأسمائه وصفاته وأفعاله، فمن يطلب معرفته فليطلب ذلك في الوجودين العالم، وفيه العلم كله الذي شاء أبدأه منه، والوحي وفيه الذكر كله، ثم العلم في الذكر والذكر في العلم؛ إذ هو المنبئ الأول ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه إنباء بأسمائه وصفاته وأفعاله، ثم بكتابه العلي الإمام المبين، ثم بمخلوقاته وبموجودات قدرته وصفاته وأسمائه وحكمته وعدله ودينه القيم ووعده ووعيده.

﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ

(١) عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة (ص) كان له بوزن كل جبل سخره الله لداود عشر حسنات، وعصمه الله أن يصر على ذنب صغير أو كبير». [تفسير البيضاوي (٥/١٠١)].

﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ
ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَـٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ
عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ
ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَـٰبِ ﴿١٠﴾
جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾ [ص:١ - ١١].

قوله: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص:١] «الصاد» في هذه الحروف مبينة من صفاته عن الصدق، ثم تنبسط بعد على كل صدق موجود في العالم، والكتاب فهو الصادق الحق اسمه، والصدق صفته، والصدق خبره، والصادق الرسول، والصدق وصف له، والصدق ما جاء به، والمصدقون والمصدقات المؤمنون، وهم الصادقون في شهادتهم له، وكذلك العالم صادق في شهادته له ودلالته عليه وعلى ما جعل دليلاً عليه وشاهدًا له.

قال الله - عز من قائل: ﴿فَاسْئَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٩] يعني: العالم وعباده الذين وصفهم إلى آخر السورة من لدن قوله الحق: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ [الفرقان:٦٣] فهم المخبرون، فأجملت ﴿ص﴾ معبرًا عن المعنى الذي شمل من ذلك على هذا وما هو أكبر من هذا، ثم أقسم على ذلك بالقرآن ذي الذكر، والذكر من الصدق الموجود في العالم والوحي.

أتبع ذلك قوله: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾[1] [ص:٢] كأنه أعرض

---

(١) إن قلت: قوله: ﴿ص والقرءان ذِى الذكر بَلِ الذين كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ كلام ظاهره متنافر غير منتظم، فما وجه انتظامه؟ قلت: فيه وجهان؛ أحدهما: أن يكون قد ذكر اسم هذا الحرف من حروف المعجم على سبيل التحدّي والتنبيه على الإعجاز كما مرّ في أوّل الكتاب، ثم أتبعه القسم محذوف الجواب لدلالة التحدّي عليه، كأنه قال: «والقرءان ذِي الذكر» إنه لكلام معجز. والثاني: أن يكون «ص» خبر مبتدأ محذوف على أنها اسم للسورة، كأنه قال: هذه ص؛ يعني: هذه السورة التي أعجزت العرب، والقرآن ذي الذكر كما تقول : هذا حاتم والله؛ تريد: هذا هو المشهور بالسخاء والله؛ وكذلك إذا أقسم بها كأنه قال: أقسمت بـ«ص» والقرآن ذي الذكر إنه لمعجز، ثم قال: بل الذين كفروا في عزة واستكبار عن الإذعان
=

عن ذكر لأجل ذكر آخر: وهو الإخبار عن إعراضهم وهو عتوهم وعدم الاقتداء منهم والتصديق للرسول ﷺ وما جاء به من عند الله، والشقاق البعيد والامتناع عن قبول الصدق من الصادقين، وترك اتباع المهتدين، ثم أخذ في نوع من الذكر فأخبر ﷻ عن إعراضهم عن تذكيره إياهم بالقرآن ذي الذكر إلى ما هم عليه من عزة في أنفسهم وبعد عن قبول الحق.

ووصل ذلك بقوله: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ أي: لما أخذوا مأخذ هؤلاء، ولما رأوا العذاب نادوا بالإيمان والتوبة ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص:٣] وهي كلمة مركبة من كلمتين يعبر بها عن عسر النجاة وتعذر الإقالة، والنوص يعبر به تارة عن التقدم، وتارة عن التأخر، وهو كالجماح والنفار من الفرس، ونوص حمار الوحش: رفعه رأسه كأنه نافر جامح ﴿وَلَاتَ﴾ للنفي، وقد تفصل التاء من حين وقد توصل بها، وأصل هذه التاء هاء، لكنها وقعت هكذا في المصحف، والمعنى: ولاه حين مناص.

﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ [ص:٤] أي: من البشر وبخاصة من العرب ومن قريش، يعيب تعجبهم من ذلك كيف عجبوا لهذا ولو نظروا في موجودات السماوات والأرض لتحققوا أن ذلك من واجبات الوجود ومعهود صفات الموجد.

قال الله ﷻ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١] المعنى إلى آخره، وإلى هذا ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ [ص: ٤] وهو لو علموا ذكر لهم وشرف، فكان تعجبهم من ذلك وإبعادهم له نفارًا عما كان يكون لهم ذكرًا وشرفًا في الدنيا والآخرة، فعرض بالإخبار بهذا المعنى عن عظيم قدرته ومضاء مشيته، كيف تساق الذوات إلى ما يسبق لهم عنده وإن كان في ذلك

= لذلك والاعتراف بالحق وشقاق لله ورسوله، وإذا جعلتها مقسمًا بها وعطفت عليها «والقرءان ذِى الذكر» جاز لك أن تريد بالقرآن التنزيل كله، وأن تريد السورة بعينها، ومعناه: أقسم بالسورة الشريفة والقرآن ذي الذكر، والذكر: الشرف والشهرة من قولك: فلان مذكور، والتنكير في ﴿عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ للدّلالة على شدّتهما وتفاقمهما. وقرىء: «في غرّة» أي: في غفلة عما يجب عليهم من النظر واتباع الحقّ. [الكشاف (٥/٤٩٨)].

لو كان يصلح في الدنيا والآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَانطَلَقَ المَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ﴾ [ص:٦] إلى قولهم: ﴿أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [ص:٨] ﴿المَلأُ﴾ أشراف القوم وسراتهم، وصفهم بذلك تعييبًا لهم، والمراد: إذا كان الملأ منهم على هذه السفاهة من الرأي وعدم العقول كيف يكون الأتباع منهم؟ وكان انطلاقهم من عند أبي طالب حين احتضر وكلفوه أن يأخذ لهم على يدي ابن أخيه، وأن يأخذ له منهم، وأن يتواطؤوا معه على أمر بين أمرين.

وقالوا: إنه قد سفه أحلامنا وعاب ديننا وسب آلهتنا وفرق جمعنا، قال لهم رسول الله ﷺ: «**كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم**» قال أبو جهل: نعم وأبيك، وعشر كلمات ما هي؟ قال: «**أن تقولوا: لا إله إلا الله، وتخلعوا الأنداد من دونه**»[١].

قال الله - جل من قائل: ﴿وَانطَلَقَ المَلأُ مِنْهُمْ﴾ وهم يقولون قولاً يعبر عنه بأن ﴿امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ [ص:٦] أي: يكاد ليذهب به.

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي المِلَّةِ الآخِرَةِ﴾ [ص:٧] قيل: ملة النصارى، وقيل: ملتهم تلك، وأرى أنهم عنوا بذلك نفي السماع أولاً وآخرًا كما قال غيرهم: ﴿مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ [يس:١٥].

يقول الله - جل من قائل: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي﴾ أي: الذكر الذي نصبته لأمثالهم من القرون الماضية والأمم المهلكة، ثم قال: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ [ص:٨] أي: عذابي الذي أذقته من كان قبلهم من المكذبين أمثالهم.

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ العَزِيزِ الوَهَّابِ﴾ [ص:٩] هذا في مقابلة قولهم: ﴿أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [ص:٨].

﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ فيخصون بالرحمة من شاءوا وبالهداية أو بالضلالة ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ﴾[٢] [ص:١٠] أي: إن كانت لهم قدرة

---

(١) أخرجه بنحوه أحمد (٢٠٠٨).

(٢) ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ﴾ أي: إن ادعوا شيئًا من ذلك فليصعدوا في الأسباب التي توصلهم
=

على ذلك أو لآلهتهم.

قوله تعالى: ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ﴾ يعني: أسباب السماوات، وهي ما موه به فرعون في قوله: ﴿يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ﴾ [غافر:٣٦] المعنى: وأسباب السماوات في معنى قول الله ﷻ: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ﴾ [الزخرف:٨٦] وقوله الصدق: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا﴾ أي: في السماوات والأرض ﴿مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ * وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الحَقَّ وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ﴾ [سبأ:٢٢ - ٢٣].

وقال رسول الله ﷺ: «**إذا قضى الله الأمر في السماء سمعت الملائكة له كوقع سلسلة على صفوان فتضع الملائكة أجنحتها خضعانًا للأمر، فإذا فزع عن قلوبهم فعلموا ما أمروا به**»[1].

وقال لهم الذين من دونهم: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ فينطقهم الله بالحق المراد منه بهم فيقولون ذلك، فيستدير دائر هؤلاء بذلك الأمر المراد منهم كما استدار دائر الذين من فوقهم بالمراد منهم، ويقول الثالث للثاني: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ فينطقهم الله بالحق عنه فيخبرونهم، فيفعلون ما أُمروا به، ثم كذلك من سماء إلى سماء ينزل الأمر إلى الأمر إلى الأمر كذلك، ثم إلى المنتهى بذلك الأمر، وكلهم عاملون بما به أمروا ومستعملون بأمره ومشيئته، مصرفون بقدرته وحوله وقوته من جميعهم.

كما قال - عز من قائل: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [سبأ: ٢٢] المعنى: فهذه أسباب السماوات، الأول سبب أول يسره الله لذلك وهو سبب للثاني، والثاني سبب للثالث، ثم كذلك إلى منتهى ذلك الأمر المراد، مثلاً أقول: قال الله سبحانه وله الحمد:

=

إلى السماء، وليأتوا منها بالوحي إلى من يختارون، قال مجاهد وقتادة: أراد بالأسباب: أبواب السماء وطرقها من سماء إلى سماء، وكل ما يوصلك إلى شيء من باب أو طريق فهو سببه، وهذا أمر توبيخ وتعجيز. [تفسير البغوي (٧٣/٧)].

(١) تقدم تخريجه.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ ثم أحال على ما علا من الأفلاك وجمع الكل من الأفلاك بقوله: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء:٣٣] وهذا الفلك هو الفلك الأعظم، جمع الله فيه أمره الخاص به وأمر ما دونه، فهو يستدير بأمره ويستدير ما دونه من الأفلاك باستدارته، كل بأمره الخاص به وبما عمه.

قال الله - عز من قائل: ﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت:١٢] فكل يعمل بخاصته وبما عم مما هو دونه من الأفلاك كلها حية بحياة الإيمان، تعبد ربها وتقنت له وتسلم مسخرة بأمره، والملائكة الموكلون بالأفلاك أحياء بحياة الخلقة وحياة الإيمان معًا على جميعهم السلام، هذا إن كان الأمر المقضي من الله - جل ذكره - في السماء، فإن كان من فوق العرش فعلى ذلك أيضًا الأول سبب أول لما حواه، والثاني كذلك لنفسه، وكل ما دونه هكذا إلى منتهى الأمر.

ولما كان الأمر كله لله ﷻ دون من سواه قرعهم بقوله الصدق: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ فيخصوا بالرحمة والإنباء والرسالة من شاءوا إن كان ذلك لهم كذلك ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ﴾ [ص:١٠] أي: إن ذلك ليس هو إلا لمن له الملك كله والأمر كله في السماوات والأرض، وفيما بين ذلك فإن الذين قد أجرى الملك الحق على أيديهم الأسباب لا يملكون شيئًا ولا يستطيعون سوى ما يأمرهم به ويقدرهم عليه.

﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم:٩٣-٩٥].

أتبع ذلك قوله: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الأَحْزَابِ﴾ [ص:١١] أخبر ﷻ عما هو كائن قبل كونه، وأنهم - أي: جند - هو فكان أول جند مهزوم منهم جند غزوة بدر، ثم انبسط صدق الحديث على جنود كثيرة في وقائع مختلفة وقوله: ﴿مِّنَ الأَحْزَابِ﴾ أي: ألحقهم بالأحزاب قوم نوح وعاد وثمود وقرون غيرها كثيرة.

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا

يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾﴾ [ص: ١٢ - ٢٣].

قوله تعالى: ﴿**كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ**﴾ [ص:١٢] إلى قوله: ﴿**أُوْلَئِكَ الأَحْزَابُ**﴾ [ص:١٣] أي: الذين هم أولئك حزب منهم.

ثم قال: ﴿**وَمَا يَنظُرُ هَؤُلاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ**﴾ [ص:١٥] يريد أنهم قد استحقوا ذلك إلا أن يكون من الله - جل ذكره - الكفاية من قراءة «فواق» بالفتح: فهو من الإفاقة والراحة، ومن قرأ بالضم فمعناه: الرجوع، وهو مأخوذ على ذلك من فواق الناقة، ويقال ذلك أيضًا بالضم والفتح، وفواقها ما بين الحلْبتين يفعل ذلك ليفضي اللبن، وكذلك بين رضعة الفصيل إياها ورضعته الأخرى، يُقال: من ذلك أفقت الناقة: إذ أنقصت حلْبها، ثم تنتظر حتى تجتمع درتها فتحلبها ثانية.

﴿**وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الحِسَابِ**﴾ [ص:١٦] القِط: الكتاب فيه حظ حامله أو المكتوب له، وجمعه: قطوط، هذا كله من الذكر الذي نزل به القرآن منبهًا عليه وأظهره الوجود، وقد كانوا قالوا: ﴿**اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ [الأنفال:٣٢].

قوله تعالى: ﴿**اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ**﴾ [ص:١٧] من قولهم: إن هذا إلا اختلاق وساحر وشاعر ومجنون وأساطير الأولين وكذاب ونحو هذا، يقول ﷻ: اصبر فإن العاقبة لك ولمن اتبعك في الدنيا والآخرة، ثم أتبع ما تقدم من الذكر نوعًا آخر منه إرساله الرسل وذكر ما أرسلوا به وصبرهم على المحن وكرامتهم على الله ﷻ يقول - جل من قائل: قد أبلغتهم فخذ في ذكر آخر واصبر وانتظر.

﴿**وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الأَيْدِ**﴾ [ص:١٧] يعني: القوة في العبادة وطاعة الله، يقال من ذلك: «أيدك الله» بمعنى: قواك الله وأعانك، وهو التأييد، وأياد كل شيء: ما يقوى به من جانبيه، والأواب: الرجاع بالتوبة وبالتسبيح والتقديس، كلما جاء العشي

والإشراق آب إلى التسبيح فيؤوب معه إلى ذلك الجبل، والطير تؤوب بتأويبه أي: ترجع بترجيعه، «آب» أي: رجع إلى أفضل ما كان عليه قبل الأوبة، ولكثرة العرف في ذلك قيل للمطيع: أوَّاب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ [ص:١٨ - ١٩] أخبر الصادق الحق أن للجمادات والبهائم تسبيح فوق الذي ظهر منها للمعتبرين، يظهر من ذلك ما شاء لأصحاب المعجزات والكرامات، يكون ذلك مستصحبًا لهم في الدار الآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الحِكْمَةَ وَفَصْلَ الخِطَابِ﴾(١) [ص:٢٠] الحكمة: هي

---

(١) قال ابن العربي: قوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾: أي قويناه بالهيبة، وقيل: بكثرة الجنود، ودلت الآية على أن النبي يسمى ملكًا، وجاء أن رسول الله ﷺ أمر العباس أن يحبس أبا سفيان عند خطم الجبل حتى يمر به المسلمون، حتى مرت به القبائل كتيبة كتيبة، فمرت به كتيبة عظيمة، فقال يا عباس: من هؤلاء؟ قال: الأنصار عليهم سعد بن عبادة، فقال أبو سفيان: لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما، فقال: إنه ليس بملك، ولكنها النبوة، ولم يرد العباس نفي الملك، وإنما أراد الرد على أبي سفيان حين نسب حال رسول الله إلى الملك، وفي الحديث: «إن جبريل قال لرسول الله: إن الله خيرك بين أن تكون نبيًا ملكًا أو نبيًا عبدًا، فاختار التواضع، وقال: أكون نبيًا عبدًا، أجوع يومًا وأشبع يومًا».

وقوله: ﴿فَصْلَ الخِطَابِ﴾. قيل: هو علم القضاء، وقيل: هو الإيجاز، وذلك أن يجعل المعنى الكثير في اللفظ القليل، وقيل: هو أما بعد: فإن داو هو أول من تكلم به. أما علم الفضاء، فعلم قائم بنفسه، وفي الحديث: «أقضاكم علي، وأعلمكم بالحلال والحرام معاذ بن جبل».

تنبيه: يروى أن عليًا قال: «لما بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن حفر قوم زيبة للأسد، فوقع فيها الأسد، وازدحم الناس على الزيبة، فوقع فيها رجل وتعلق بآخر، وتعلق الآخر بآخر، حتى صاروا أربعة، فجرحهم الأسد فيها فهلكوا، فحمل القوم السلاح، وكادوا يقتتلون، قال علي: فقلت لهم: أتقتلون مائتي رجل بأربعة؟ ولكن سأقضي بينكم بقضاء، فإن رضيتم فهو قضاء بينكم، وإلا رفعت ذلك إلى رسول الله ﷺ، فهو أحق بالقضاء، ثم جعل للأول ربع الدية، وللثاني ثلثها، وللثالث نصفها، وللرابع جميعها. وجعل الديات على من حفر الزيبة من قبائل الأربعة، فسخط بعض، ورضي آخرون، ثم قدموا على رسول الله ﷺ، فقصوا عليه ذلك، وأخبرون بقضاء علي، فقال: «القضاء ما قضى به علي»، وهذا من بديع الفهم وحضور الذهن، وكذلك يروى أن أبا حنيفة، جاء إليه رجل فقال: إن ابن أبي ليلى، قاضي الكوفة، جلد امرأة مجنونة حدين في المسجد، وهي قائمة، لأنها قالت لرجل يابن الزانيين، فقال: أخطأ من ستة أوجه. وهذا الذي قاله أبو حنيفة، لا يدركه بالروية إلا العلماء، وإنما قال ذلك =

حكمه بما أمر به وسن له ليمتثله، وفصل الخطاب والله أعلم: هو إصابة فصول الخطاب ووجوه الصواب في اتصال الخطاب وانفصاله وتداخله في أثناء قصصه، وجمع متفرق معاني كل خطاب إلى ما هو منه.

أتبع ذلك قوله - عز من قائل: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ العَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص:٣٠] أثنى عليه بالتوب من الذنب.

قوله ﷻ: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ [ص: ٣٥] طلب ﵇ ملكًا معجزًا يكون له آية على نبوته، فأعطاه سؤله وقد تقدم ذكره.

فصل

ذكر أهل التفسير وغيرهم في تأويل قول الله - جل قوله - في قصة داود ﵇ واحتكام الخصمين إليه، وضرْبِهما المثل له في ذلك: أن داود أتى ذنبًا ذكروه منعنا التحرج من حكاية أقوالهم وخلف في ذلك الخلف السلف إلا من شاء الله، وهذا فلم ينص القرآن على ذنبه ولا ذكره بعينه، وأخشى أن يكون ذلك مما تتلوه الشياطين على نبوته وذكره، كالذي تلته على ملك سليمان، وتلته أيضًا على ما أنزل على الملكين هاروت وماروت، على جميعهم صلوات الله وسلامه.

وإنما ذكر القرآن أن أحد الخصمين قال له: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الخِطَابِ﴾ [ص:٢٣] فأوَّلوا النعاج: نساء، وقوله: ﴿أَكْفِلْنِيهَا﴾ أن يجعل له سبيلاً إلى نكاحها، وأنه أرسله في

= أبو حنيفة، لأن المجنون لا حد عليه، إذ هو غير مكلف، ولأن قولها يابن الزانيين لا يلزمها، غلا حد واحد لتداخل الحدود عنده، ولأنه حدها دون مطالبة المقذوف بحقه، ولا تجوز إقامة الحد إجماعًا إلا بعد طلب المقذوف بحقه وبهذا استدل من رآه حقًا لآدمي لاحقًا لله تعالى. ولأنه حدها قائمة، ولا تحد المرأة قاعدة، واستحسن أن تجعل في قفة ولأنه أقام الحد في المسجد، وهو لا تقام فيه الحدود تشريفًا له، واعلم أن رسول الله ﷺ، كان يقول في خطبة: «أما بعد». ويروى أن أول من قال ذلك في الجاهلية سحبان، وهو أول من آمن بالبعث، وتوكأ على العصا وعمر مائة وثمانين سنة. وقوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ الحِكْمَةَ﴾. قال مال: هي المعرفة بالدين والفقه فيه والاتباع، وقال ابن زيد: ﴿فَصْلَ الخِطَابِ﴾. هو الفهم، وإصابة القضاء. [الأحكام الصغرى ٥١٩].

بعض غزواته وعرض به للقتل فقتل، وهذا كله خارج عن المعهود من توقيرهم وتعزيزهم المأمور به الواجب علينا امتثاله؛ إذ لم يصح ذلك من الكتاب ولا من حديث رسول الله ﷺ خلا ما ذكر في القرآن.

﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ (٢٥) يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ (٢٦) وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ (٢٨) كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ (٢٩) وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ (٣٠)﴾ [ص: ٢٤ - ٣٠].

﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّما فَتَنَّاهُ﴾[(١)] [ص:٢٤] والفتنة قد تكون على ضروب: منها أن يكون ذلك لغفلة ما، أو نزول عن عالي مقاماتهم، أو خطأ في بعض الحكومات، ولذلك كان يقول للقمان عليه السلام وكان يزوره ويحضر بعض مجالس حكوماته: يا لقمان، أوتيت الحكمة وعوفيت من البلية.

قوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ إلى قوله: ﴿أَمْ نَجْعَلُ المُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص:٢٨] قيل: إن «أَمْ» هنا بمنزلة ألف الاستفهام تقدير ذلك:

---

(١) قال المفسرون: إن الظن ههنا بمعنى العلم؛ لأن داودَ عليه السلام لما قضى بين الرجلين نظر أَحَدُهُمَا إلى صاحبه فضحك، ثم صَعَد إلى السماء قبل وجهه، فعلم داود أنَّ الله ابْتَلَاهُ بذلك، فثبت أن داود علم بذلك. وإنما جاز حمل لفظ الظن على العلم؛ لأن العلم الاستدلاليّ يشبه الظنّ مشابهةً عظيمة والمشابهة علة لجواز المجاز. قال ابن الخطيب: هذا الكلام إنما يلزم إذا قلنا: الخصمان كانا ملكين، أما إذا لم يُقَلْ ذلك لا يلزمنا حمل الظن على العمل بل لقائل أن يقول: إنه لمَّا غَلَب على ظنه حصول الابتلاء من الله تعالى اشتغل بالاستغفار والإنابة. [تفسير اللباب لابن عادل (١٣/٣٦١)].

أنجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض، أم نجعل المتقين كالفجار؟ وليس ذلك كذلك، والله أعلم بما ينزل.

وإنما انتظم الكلام بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص:٢٧] ثم حذف كلامًا دل عليه ما بعده تقديره: أفنجعل الناظرين في آياتنا المتدبرين لكتابنا كالمعرضين والمكذبين.

﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ * كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ أي: فيعلمون ﴿أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ﴾ [الرعد:١٩] ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ﴾ أي: بآيات السماوات والأرض ﴿أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [ص:٢٨ - ٢٩].

ثم ينتظم هذا بمفتتح سورة «الزمر» قوله: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الزمر:١] كذلك إلى ذكره ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ [الزمر:٣] إلى قوله: ﴿لَوْ أَرَادَ اللهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [الزمر:٤].

وانتظم هذا بما في السورة من ذكر الآلهة، وأنهم ينسبونها إلى وصف النبوة - تعالى الله عن قبيح افترائهم - وذلك منتظم بما في آخر سورة «الصافات» من ذكر ذلك قوله: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصافات:١٥٨] ونحو ذلك، ثم كذلك في صدر سورة «الزمر» يبين به مشكل ذلك، ويكسر باطل دعاويهم إلى قوله: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ﴾ [الزمر:٥٣].

﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي
حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (٣٣) وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ
وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي
إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ
(٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٣٨) هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا
لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ (٤٠) وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (٤١)
ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢) وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي

ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾
[ص:٣١ - ٤٤].

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ [ص:٤١] ثم ذكر نوعًا آخر من الذكر قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ * أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ * كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [ص:٢٧ - ٢٩].

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ [ص: ٤١] هذا نوع من الذكر كان داود خليفة ملكًا ذا أيد على العبادة وابتغاء مرضاة ربه، لم تشغله الدنيا عن ذلك ولا منعه الملك عن الحكم بالعدل، ثم ورثه سليمان في الخلافة والملك والعبادة والاشتغال بطاعة الله والشكر له، وكان أيوب ذا بلاء ومصيبات، فلم تخرجه شدة البلاء ولا أزعجته مضايق المصائب إلى خروج عن الصبر، إلى أن فتح الله عليه وفرج عنه ورد عليه أهله ﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ رحمة من عنده له ولمن تبعه ﴿وَذِكْرَى لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [ص: ٤٣].

يقول الله - جل من قائل: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ العَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص:٤٤] ثم أجمل ﷻ الذكرى بذكر أسماء عدة من أنبيائه وأوليائه صلوات الله وسلامه على جميعهم، تذكيرًا بهم في اصطفائه إياهم واختصاصه لهم بولايته والعمل بطاعته، ودوام ذكره وإخلاص العبادة له.

﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم
بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ
وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ
مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِندَهُمْ
قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ
﴿٥٤﴾ هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ

حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾﴾ [ص:٤٥ - ٥٩].

ثم قال - عز من قائل: ﴿هَذَا ذِكْرٌ﴾ ثم ذكر نوعًا آخر من الذكر بقوله: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ * جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الأَبْوَابُ﴾ [ص:٤٩ - ٥٠] إلى قوله: ﴿أَتْرَابٌ﴾(١) [ص:٥٢] إلى قوله: ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الحِسَابِ * إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ﴾ [ص:٥٣ - ٥٤].

ثم قال - عز من قائل: ﴿هَذَا﴾ أي: ذِكر، ثم ذَكر نوعًا آخر من الذكر بقوله: ﴿وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ المِهَادُ﴾ [ص:٥٥ - ٥٦].

ثم قال - عز من قائل: ﴿هَذَا﴾ أي: هذا عذابي، يعني قوله: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ [ص:٨] وهو ذِكر ﴿فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ﴾ أي: دولة السعير ﴿وَغَسَّاقٌ﴾ [ص:٥٧] في دولة الزمهرير.

ثم قال: ﴿وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ [ص:٥٨] يريد اختلاف موجودات ما هنالك من عذاب في طعام وشراب وحال.

﴿قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ

---

(١) أي: قاصرات طرفهنّ على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم، والأتراب: المتحدات في السنّ، أو المتساويات في الحسن. وقال مجاهد: معنى أتراب: إنهنّ متواخيات لا يتباغضن ولا يتغايرن. [فتح القدير (٦/٢٥٣)].

إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [ص:٦٠ - ٧٤].

ثم قال - عز من قائل: ﴿**هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ**﴾ أي: يقال لرؤسائهم المعجل بهم إليها: هذا فوج مقتحم معكم، فيقول هؤلاء المعجل بهم: للداخلين فيها عليهم ﴿**لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُواْ النَّارِ**﴾ [ص: ٥٩] سلط عليهم البغض والشحناء والعداوة لمن دخلها حتى أبغضوا أنفسهم وذلك أشد لعذابهم، فيقول الداخلون عليهم: ﴿**قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ**﴾ [ص: ٦٠] هو الذي بوأكم فِعْلَكم، ثم قالوا: ﴿**رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ**﴾ [ص:٦١].

يقول الله - جل ذكره: لكلٍ ضعف، أي: على قدره، فالأئمة تضعيف العذاب لهم تضعيف على تضعيف، والأتباع تضعيفهم لقرنائهم المقرونين بهم.

قال الله ﷻ: ﴿**الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ الله زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ**﴾ [النحل:٨٨].

قال الله ﷻ: ﴿**ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ**﴾ [العنكبوت:٢٥] نعوذ بالله من أحوال أهل النار في الدنيا وفي الآخرة.

ثم قال عز من قائل مُخبِرًا عنهم؛ يعني: وهو أعلم جميعهم ﴿**مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الأَشْرَارِ**﴾ [ص:٦٢] هؤلاء هم أهل طاعة الله من المؤمنين.

﴿**أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًا**﴾ [ص:٦٣] في دار الدنيا كما قال: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ**﴾ [المطففين:٢٩ - ٣٠].

﴿**أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ**﴾ [ص:٦٣] هنا محذوف تقديره، والله أعلم: أسعدوا فرفعوا أم زاغت عنهم الأبصار وهم فينا ومعنا، أو ما يكون من الكلام عنا غير هذا، ثم قال وقوله الحق: ﴿**إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ**﴾ [ص:٦٤] في هذا من الذكر إثبات لنبوة محمد ﷺ أن يخبرهم بهذا الغيب.

أتبع ذلك ما هو في معناه: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ * رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا العَزِيزُ الغَفَّارُ**﴾ [ص: ٦٥ - ٦٦] هذا منتظم من الذكر بإثبات نبوته ﷺ والإعلام بالوحدانية والألوهية والربوبية لكل شيء، وهو منتظم

بما تقدم من قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [ص: ٢٧] المعنى إلى آخره، فانتظم معنى هذا بمعنى ما يخبر به السماوات والأرض وما بينهما، وهو الحق الذي خلقهما به، انتظم هذا بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فافهم.

نظم بذلك معنى ما تقدم قوله الحق: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ [ص: ٦٧ - ٦٨] معنى النبأ: ما يشمل جميع الذكر في القرآن والوحي والوجود، وبه جاء ولأجله صنع المصنوعات وأقام الأرضين والسماوات وبخاصة الألوهية، وصفات الإله الحق وأسمائه وأحكامه وحكمته في الدنيا والآخرة، ما أعظم الغفلة عن هذا النبأ وأخطر السهو والذهول عنه إلى حيث مساس الضرورة إليه ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥].

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلإِ الأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [ص: ٦٩] روى ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أتاني ربي الليلة في أحسن صورة**» قال: أحسبه قال: «في المنام» «**قال: يا محمد، هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قال: فقلت: لا يا رب، قال: فوضع يده بين كتفي حتى وجدت بردها بين ثديي** - أو قال: مجرى - **فعلمت ما في السماوات وما في الأرض، قال: يا محمد، هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قال: قلت: نعم، في الكفارات، والكفارات: المكث في المساجد بعد الصلوات، والمشي على الأقدام إلى الجمعات، وإبلاغ الوضوء في المكاره، ومن فعل ذلك عاش بخير ومات بخير، وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه**» وقال: «**يا محمد، قل: اللهم إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون**» قال: «**والدرجات: إفشاء السلام، وإطعام الطعام، والصلاة بالليل والناس نيام**»[(١)].

وفي أخرى قال: «**فعلمت ما بين المشرق والمغرب**»[(٢)] مكان قوله: «**فعلمت ما**

---

(١) أخرجه أحمد (٣٤٨٤)، وعبد بن حميد (٦٨٢)، والترمذي (٣٢٣٤)، وقال: حسن غريب. والطبراني (٢١٦)، والبزار (٢٦٦٨).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٤٢).

بين السماوات والأرض».

وفي أخرى قال: «إني نعست فاستثقلت نومًا فرأيت ربي في أحسن صورة قال فيم يختصم الملأ الأعلى يا محمد»[1].

ورواه أيضًا قتادة عن أبي قلابة، فهذا تبيين عن رسول الله ﷺ بما جعل الله - جل ذكره - في قلبه من حكمته، وملأ منه صدره من نوره ونبوته وعلمه من علمه، وأمَّا القرآن فعرض من الإنباء عن اختصام الملأ الأعلى عرضًا من اختصامهم آخر، وهو ما وصل به قوله: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلأِ الأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [ص:٦٩].

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ...﴾ [ص:٧١] فذكر الأمر بالسجود ائتمامًا بآدم وطاعة لأمر الله - جل ذكره - ومسارعة الملائكة عليهم السلام إلى امتثال الأمر، وإباء إبليس لعنه الله، وكان إبليس يومئذٍ في جملة الملائكة قبل المحنة بالأمر بالسجود، ولم يكن بعد أبلسه ولا أبعده من ملكوت السماء ولا أهبط من العلو، فكان ذلك اختصام من الملأ الأعلى عرضه إليه القرآن، وهو أصل لما علمه - صلوات الله وسلامه عليه - المعبر عنه بقوله: «فعلمت ما بين المشرق والمغرب» أعني: إباءه عن السجود ومحاجته، واشتراطه لنفسه بعد الإغواء الذي حاق به، وسجود الملائكة - عليهم السلام - وطاعتهم في ذلك ومسارعتهم إليه، ولتعليمه آدم عليه السلام الأسماء كلها، ثم عرضهم على الملائكة، إلى قوله: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة:٣٣] أصل ومنبعث لما علمه إياه في السماوات والأرض.

وفي قوله: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص:١] منتظم لأنواع الذكر الذي في القرآن كله، وبخاصة ما في هذه السورة يدور علم ذلك في الإنباء على قوله: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلأِ الأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [ص:٦٩] وأن المراد به: إثبات النبوة لمحمد ﷺ وبذلك صح ما جاء به وبما جاء به صحت نبوته، فافهم.

﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ٧٥ ﴾

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٤٣).

قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ
عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ
﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ
ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ
﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ
بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾ [ص:٧٥ - ٨٨].

أتبع محاجة الغوي اللعين عن نفسه واشتراطه لها ما أهلكها به، وأجابه العلي الكبير بقوله الحق: ﴿فَالْحَقُّ﴾ [ص:٨٤] أي: الذي يكون منك من الإغواء والتزيين والجلب عليهم بالخيل منك والرجل، ومشاركتك إياهم في الأموال والأولاد، وإضلالك إياهم، أنا قضيته وأنا قدرته وأنا أمضي ما أشاء منه، وقولك هذا أنا قولتكه، والحق قولتك؛ أي: بأنه كائن ما شئت منه ﴿وَالْحَقَّ أَقُولُ * لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص:٨٤ - ٨٥].

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي: ما أسألكم على هذا الذكر من أجر ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص:٨٦] كل مُذَكِّر لم يؤمر بالتذكير يُذَكر قومًا زاهدين في تذكيره إياهم، فهو متكلف وقد عمت الدعوة، بلى يجب على من عنده علم أن يعرض به ويرغب في سماع التذكير، فإن وافق من القوم رغبة في ذلك فعل، وهو على ذلك ليس بمتكلف، ورسول الله مأمور من الملك الأكبر لذلك.

قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [ص:٨٧] كما قال: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص:١].

ثم استصحب الذكر والتذكير إلى آخرها ختم السورة بقوله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص:٨٨] نبأ هذا الذكر منه ما يظهره له في أيام الدنيا ومنه ما يكون في الآخرة، أمَّا ما كان منه في دار الدنيا فظهور رسالته وإعلاء كلمته وإتمام دينه إلى غير ذلك مما وعده به وأنجزه له في الماضي وما يستقبل من ذلك، وما يكون من ذلك في الدار الآخرة فمعلوم.

تفسير سورة الزمر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٥﴾﴾ [الزمر: ١ - ٥].

قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ﴾(١) [الزمر: ١] كقول القائل:

---

(١) اعلم أن في الآية مسائل: المسألة الأولى: ذكر الفراء والزجاج: في رفع (تَنزِيلَ) وجهين أحدهما: أن يكون قوله: (تَنزِيلَ) مبتدأ وقوله: (مِنَ الله العزيز الحكيم) خبر والثاني: أن يكون التقدير هذا تنزيل الكتاب، فيضمر المبتدأ كقوله: (سورة أنزلناها) أي هذه سورة، قال بعضهم: الوجه الأول لوجوه الأول: أن الإضمار خلاف الأصل، فلا يصار إليه إلا لضرورة، ولا ضرورة هاهنا الثاني: أنا إذا قلنا: (تَنزِيلُ الكتاب مِنَ الله) جملة تامة من المبتدأ والخبر أفاد فائدة شريفة، وهي أن تنزيل الكتاب يكون من الله، لا من غيره وهذا الحصر معنى معتبر، أما إذا أضمرنا المبتدأ لم تحصل هذه الفائدة الثالث: أنا إذا أضمرنا المبتدأ صار التقدير هذا تنزيل الكتاب من الله، وحينئذ يلزمنا مجاز آخر، لأن هذا إشارة إلى السورة، والسورة ليست نفس التنزيل، بل السورة منزلة، فحينئذ يحتاج إلى أن نقول المراد من المصدر المفعول وهو مجاز تحملناه لا لضرورة. المسألة الثانية: القائلون بخلق القرآن احتجوا بأن قالوا إنه تعالى وصف القرآن بكونه تنزيلاً ومنزلاً، وهذا الوصف لا يليق إلا بالمحدث المخلوق والجواب: إنا نحمل هذه اللفظة على الصيغ والحروف.
المسألة الثالثة: الآيات الكثيرة تدل على وصف القرآن بكونه تنزيلاً وآيات أُخر تدل على =

هذا تنزيل الكتاب من الله؛ أي: من عند الله أو من لدنه، كما قال: ﴿نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل:١٠٢] فروح القدس صفة من الصفات، ويمكن أن يكون قد أوجد خلقًا من عباده أقامه في ملكوته مقامًا شاءه، كما هو المؤمن أوجد الإيمان والمؤمنين، والسلام أوجد الإسلام والمسلمين، كذلك أوجد عن كل اسم وصفة عرف بها موصوفًا ومسمى ما، والقرآن كلامه فهو منه، وإن كان المراد بالعبارة: الكتاب، فهو من عنده.

قال الله - جل ذكره: ﴿وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد:٤٣] وقرأ ابن أبي عبلة: «تنزيلَ الكتاب» بفتح اللام من تنزيل، وقد تقدم أن معنى تنزيل: تيسير وتقريب، كما قال: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر:١٧] إذ كلام الله - جل

كونه منزلاً، **أما الأول**: فقوله تعالى: ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين﴾ وقال: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ وقال: ﴿حم * تَنزِيلٌ مِّنَ الرحمن الرحيم﴾، **وأما الثاني**: فقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر﴾ وقال: ﴿وبالحق أَنْزَلْنَاهُ وبالحق نَزَلَ﴾ وأنت تعلم أن كونه منزلاً أقرب إلى الحقيقة من كونه تنزيلاً، فكونه منزلاً مجاز أيضًا لأنه إن كان المراد من القرآن الصفة القائمة بذات الله فهو لا يقبل الإنفصال والنزول، وإن كان المراد منه الحروف والأصوات فهي أعراض لا تقبل الانتقال والنزول، بل المراد من النزول نزول الملك الذي بلغها إلى الرسول ﷺ. **المسألة الرابعة**: قالت المعتزلة العزيز هو القادر الذي لا يغلب فهذا اللفظ يدل على كونه تعالى قادرًا على ما لا نهاية له والحكيم هو الذي يفعل لداعية الحكمة لا لداعية الشهوة، وهذا إنما يتم إذا ثبت أنه تعالى عالم بجميع المعلومات، وأنه غني عن جميع الحاجات إذا ثبت هذا فنقول كونه تعالى: عزيزًا حكيمًا يدل على هذه الصفات الثلاثة، العلم بجميع المعلومات، والقدرة على كل الممكنات، والاستغناء عن كل الحاجات، فمن كان كذلك امتنع أن يفعل القبيح وأن يحكم بالقبيح، وإذا كان كذلك فكل ما يفعله يكون حكمة وصوابًا، إذا ثبت هذا فنقول الانتفاع بالقرآن يتوقف على أصلين أحدهما: أن يعلم أن القرآن كلام الله، والدليل عليه أنه ثبت بالمعجز كون الرسول صادقًا، وثبت بالتواتر أنه كان يقول القرآن كلام الله فيحصل من مجموع هاتين المقدمتين أن القرآن كلام الله والأصل الثاني: أن الله أراد بهذه الألفاظ المعاني التي هي موضوعة لها، أم بحسب اللغة أو بحسب القرينة العرفية أو الشرعية لأنه لو لم يرد بها ذلك لكان تلبيسًا، وذلك لا يليق بالحكيم فثبت بما ذكرنا أن الانتفاع بالقرآن لا يحصل إلا بعد تسليم هذين الأصلين، وثبت أنه لا سبيل إلى إثبات هذين الأصلين إلا بإثبات كونه تعالى حكيمًا، وثبت أن لا سبيل إلى إثبات كونه حكيمًا إلا بالبناء على كونه تعالى عزيزًا، فلهذا السبب قال: (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم). انظر: [تفسير الرازي (٢٢١/١٣)].

ذكره - لا يحتمله شيء، كما قال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾ [الحشر:٢١] كذلك لو أنزله على ما هو عليه من العظمة والجلال ما احتملته الأرض والسماوات لولا تنزيله إياه ورحمته في ذلك.

فصل

جاء أن قومًا من المشركين قالوا لرسول الله ﷺ : يا محمد، إنك قد سببت آلهتنا وسفهت أحلامنا، ونحن لا نصبر لك على ما أنت عليه، وإنك تدعو إلى شيء وإنا لنخاف عليك من آلهتنا أن تختبلك وأن تنالك منها بسوء، فتعال فلنتوسط معك أمرًا بين أمرين: وهو أن نعبد نحن إلهك الذي تدعو إليه، وتعبد أنت ما نعبده نحن، فأنزل الله - جل ثناؤه: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون: ١ - ٢] إلى آخرها.

وتأسس تنزيل هذه السورة على كسر مقالهم ذلك وإبطال مذهبهم إلى آخرها، واستاق الخطاب منتظمًا بما تقدم في سورة «ص» من أنه خلق السماوات والأرض بالحق، وقد تقدم قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ [الزمر:٢] يعرض بشركهم ويأمره بإخلاص العبادة لوجهه الكريم ﴿أَلَا للهِ الدِّينُ الخَالِصُ﴾ [الزمر:٣] كما قال: ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللهِ تَتَّقُونَ﴾ [النحل:٥٢] وهو ما فطر عليه السماوات والأرض وما بينهما من الموجودات دين الإسلام، فله أسلم من في السماوات والأرض، وله قنت كل شيء، وله سبَّح كل موجود، وإياه حمد وصلى وعبد بمباني الإسلام الخمسة، ذلك هو الدين القيم، وجميع ما أوجده من موجودات الجملة هي القيمة على الإخلاص المحض، لا يتطرق ما هنالك إثارة رياء ولا سمعة ولا رغبة في منزلة ولا شهوة ظاهرة ولا باطنة.

لذلك قال: ﴿أَلَا للهِ الدِّينُ الخَالِصُ﴾ [الزمر:٣] فأمرنا - عز جلاله - أن نعبده على ذلك دون شرك ولا كفر ولا نفاق ولا رياء ولا عجب ولا كبر؛ إذ ذلك كله عن حب الدنيا وتعظيم قدر النفس، وإرادة الجاه عند النظراء، والحظوة عندهم والحرمة فيهم، وذلك كله متولد عن حب البقاء في الدنيا ونسيان لقاء الله جل ذكره.

والنفاق هو: أن يقول باللسان ما ليس في القلب إلا خلافهن، والمداهنة من فعل النفاق، وهي: المخادعة، ومن ذلك ما يكون صغيرًا وكبيرًا، فذلك النفاق الأصغر والنفاق الأكبر.

قال الله ﷻ في وصف ما دعوه إليه: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم:٩] ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً * وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً....﴾ [الإسراء:٧٣ - ٧٤] والإعجاب: النظر إلى النفس عند العمل، وإضافة ذلك إليها واستكباره منها، ونسيان نعمة الله ﷻ عليه فيه بالتوفيق إليه والمعونة عليه والتأييد، وربما طلب المحمدة من الناس بما فعل وبما لم يفعله.

والشرك على وجوه:

أحدها: أن يجعل مع الله إلهًا آخر، فيعتقد معه شريكًا في ملكه وإعطائه ومنعه وتدبيره واختراع ما اخترعه وخلق ما خلقه، وذلك كفر المجوس والثنوية والمجسمة وشرك أصحاب الأوثان، ويضاهي ذلك غلط القدرية.

والوجه الثاني: هو الشرك في العبادة، كالرياء وإضافة العمل إلى النفس وادعاء الحول والقوة في ذلك، ويكون ذلك من إغباب ذكر المُنعم وإهمال السر، قال الله جل ذكره: ﴿نَسُوا اللهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ﴾ [الحشر:١٩] وإصلاح هذا في امتثال قوله - جل من قائل: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف:١١٠].

والوجه الثالث: يسمى: الشرك الخفي، ويسمى: الشهوة الخفية، وهو: أن يخفي العمل ويسره ويخاف عليه من إظهاره، وهو على ذلك يحب أن يذكر بأنه يخفي عمله ويريد أن يسمع به، وأن لو اطُّلع عليه وعُثر على ما أسره من ذلك ونحو هذا.

قال رسول الله ﷺ: «**الشرك في أمتي أخفى من دبيب النمل على الصفا في الليلة الظلماء**»[(١)].

---

(١) أخرجه الحاكم (٣١٤٨) وقال: صحيح الإسناد. وأبو نعيم في الحلية (٣٦٨/٨)، والديلمي (٣٦٧٤).

وللمنافقين علامات يُستدل بها على ما هم عليه، قال رسول الله ﷺ: «**من علامات النفاق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان**»[1].

وفي أخرى: «**وإذا خاصم فجر**»[2].

وروي أنه قال: «**للمنافقين علامات فادعوهم بها: تحيتهم لعنة، وطعمتهم تهمة، وغنيمتهم غلول، لا يأتون المساجد إلا هجرًا ولا يشهدون الصلاة إلا دبرًا ولا يألفون ولا يؤلفون جيف بالليل يطالون بالنهار**»[3].

وقال ﷺ: «**خمس لا تكون في منافق: الفقه في الدين، والورع في اللسان، والشحوب في الوجه، والنور في القلب، والمودة للمسلمين**»[4].

وقال الله - عز من قائل: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ﴾ [المنافقون: ٤].

فصل

وأمَّا الإخلاص: فهو خاص، لا يعطيه الله إلا لأهل صفوته وبالتفقه فيه، وتعرف معانيه وحدوده وأحكامه والجد في طلبه وإعمال القلوب بمقتضاه، ويشغل الأبرار عن الفقه في مسائل أحكام الدنيا، ومن حدوده: صفاء النفوس من كدر البشرية، وبقاء الأسرار عن دنس النفوسية، وإخلاص القلوب لله وحده، والمحافظة عليها من أن يكون فيها غير الله، بل يكون انقطاعها إليه وسرورها به.

ومن علاماته: خروج الخلق عن القلب في أثناء معاملته، وقصد العمل لله ﷻ، والنظر في ثواب الله - جل ذكره - لا لحب محمدة ولا كراهية مذمة.

واعلم أنه إنما سمي إخلاصًا؛ لأنه خلص من الآفات، فلما خلص من أن يمازج علمه رياء أو سمعة أو إعجاب أو حب محمدة أو كراهة مذمة خلص العمل،

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٣٣)، ومسلم (٢٢٠).

(٢) أخرجه أحمد (٦٧٦٨)، والبخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨)، وأبو داود (٤٦٨٨)، والترمذي (٢٦٣٢) والنسائي (٥٠٢٠).

(٣) أخرجه أحمد (٧٩١٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٩٦٣).

(٤) لم أقف عليه.

وكان عامله مخلصًا أخلصه الله لنفسه، فكان بذلك مخلصًا، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ * وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ﴾ [ص:٤٦ - ٤٧].

واعلم وفقنا الله وإياك أنه - أعني: الإخلاص - فرض الفرض، لا يقوم فرض ولا نفل إلا به، ومتى عرى عنه عمل بطل.

قال رسول الله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لامرئ ما نوى**»(١) وكما أن التوحيد يبطله أدنى شرك، كذلك الإخلاص يبطله أدنى الرياء.

قال الله - جل ذكره: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من أشرك في عمله غيري فهو له كله**»(٢) ومن أحسن العون على الإخلاص التقوى والمعرفة وطلب اليقين ولزوم المراقبة والحياء من الله ﷻ أن يراك تتزين لغيره بعمل ألهمك إليه وعلمك إياه وقواك عليه، دخلْت فيه زعمْت تطلب القرب به إليه، فإياك عدوه إبليس الذي عاداه فيك فتطيعه فيما يضرك ولا ينفعك، فإذا بك قد خبت من الظفر بمرغوبك وخسرت حظك عنده، واستعن على عبادتك بالكتمان والستر، وكما تستر سيئاتك فاستر حسناتك، فكلما أخفى العامل لله عمله كان ذلك زائدًا في صدقه.

جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «**عمل السر يزيد على عمل العلانية سبعين ضعفًا**»(٣) وكما أن الشجرة إذا ظهرت عروقها ضعف شربها وأضر بها حرارة الهواء وبرده، وتعرضت بذلك للآفات من قطع ويبس وغير ذلك، ولم تحسن بذلك فروعها، وحف ورقها فقلَّ نفعها، وهي إذا غاصت عروقها واستترت عن أعين الناظرين غلبت عن الآفات، وآمنت القطع من أيدي الرائين إليها، فكثر شربها وجرى ماؤها فيها، وتزايدت لذلك فروعها واخضر ورقها وكثر خيرها وطاب ثمرها لجانيها.

---

(١) أخرجه أحمد (١٦٨)، والبخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧)، والترمذي (١٦٤٧)، وأبو داود (٢٢٠١)، والنسائي (٣٤٣٧)، وابن ماجة (٤٢٢٧)، وابن المبارك (١٨٨)، والحميدي (٢٨)، وابن عساكر (١٦٦/٣٢)، وابن منده في الإيمان (٢٠١)، والدارقطني (٥٠/١) والديلمي (٤٠١).

(٢) أخرجه بنحوه مسلم (٢٩٨٥)، وابن ماجة (٤٢٠٢).

(٣) أخرجه الديلمي (٤٣٤٨).

وكذلك العمل إذا كانت له أصول في القلب مستورة عن الخلق زكى في نفسه وطهر من الأدناس، وكثر خيره وطاب ثوابه لعامله، وإذا بدا لم يؤمن عليه من أبصار الناظرين، وإذا أخفى المخلص عمله لم يبقَ عليه ما يخاف منه شيء سوى العجب إدخال الرياء غائب عنه إلا أن يستحسنه بقلبه ويحب إطلاع الخلق عليه، وهي الشهوة الخفية، ومن قولهم من عرف الله بعد الضلالة، وعرف الإخلاص بعد الرياء، وأنزل الموت حق منزلته لم يغفل عن الموت والاستعداد له بما أمكنه.

قوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ﴾[1] [الزمر:٤] هذا كقوله - جل من قائل: ﴿اللهُ يَصْطَفِي مِنَ المَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج:٧٥] ولو أنه اصطفى مما يخلق لم يكن

(١) قال تعالى: ﴿لَوْ أَرَادَ الله أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لاصطفى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاء سبحانه هُوَ الله الواحد القهار﴾ المراد من هذا الكلام: إقامة الدلائل القاهرة على كونه منزهًا عن الولد، وبيانه من وجوه: الأول: أنه لو اتخذ ولدًا لما رضي إلا بأكمل الأولاد وهو الابن فكيف نسبتم إليه البنت. الثاني: إنه سبحانه واحد حقيقي، والواحد الحقيقي يمتنع أن يكون له ولد، أما أنه واحد حقيقي، فلأنه لو كان مركبًا لاحتاج إلى كل واحد من أجزائه وجزؤه غيره، فكان يحتاج إلى غيره والمحتاج إلى الغير ممكن لذاته، والممكن لذاته لا يكون واجب الوجود لذاته، وأما أن الواحد لا يكون له ولد؛ فلوجوه: الأول: إن الولد عبارة عن جزء من أجزاء الشيء ينفصل عنه، ثم يحصل له صورة مساوية لصورة الوالد، وهذا إنما يعقل في الشيء الذي ينفصل منه جزء والفرد المطلق لا يقال ذلك فيه. الثاني: شرط الولد أن يكون مماثلاً في تمام الماهية للوالد، فتكون حقيقة ذلك الشيء حقيقة نوعية محمولة على شخصين، وذلك محال؛ لأن تعيين كل واحد منهما إن كان من لوازم تلك الماهية لزم ألا يحصل من تلك الماهية إلا الشخص الواحد، وإن لم يكن ذلك التعيين من لوازم تلك الماهية كان ذلك التعيين معلومًا بسبب منفصل، فلا يكون إلهًا واجب الوجود لذاته، فثبت أن كونه إلهًا واجب الوجود لذاته يوجب كونه واحدًا في حقيقته، وكونه واحدًا في حقيقته يمنع من ثبوت الولد له، فثبت أن كونه واحدًا يمنع من ثبوت الولد. الثالث: إن الولد لا يحصل إلا من الزوج والزوجة والزوجان لا بد وأن يكونا من جنس واحد، فلو كان له ولد لما كان واحدًا بل كانت زوجته من جنسه، وأما أن كونه قهارًا يمنع من ثبوت الولد له، فلأن المحتاج إلى الولد هو الذي يموت فيحتاج إلى ولد يقوم مقامه، فالمحتاج إلى الولد هو الذي يكون مقهورًا بالموت، أما الذي يكون قاهرًا ولا يقهره غيره كان الولد في حقه محالاً، فثبت أن قوله: ﴿هُوَ الله الواحد القهار﴾ ألفاظ مشتملة على دلائل قاطعة في نفي الولد عن الله تعالى. [تفسير الرازي (١٣/٢٢٦)].

ولدًا، بل يكون عبدًا مصطفى مكرمًا الولادة مباينة للعبودية جملة.

قال الله - جل ذكره - في عيسى عليه السلام: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ * وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ [الزخرف:٥٩ - ٦٠] فأخبر بصدق قيله جل جلاله أنه لو شاء لجعل منا ملائكة كما ألحق عبده ورسوله عيسى عليه السلام من درجة الاصطفاء إلى أن أحله فيه محلاً يحيي فيه الموتى بإذنه، ويخلق من الطير خلقًا وينفخ فيه فيُحيي ذلك المنفوخ فيه بإذن الله، ويبرئ الأكمه والأبرص.

وكذلك أحل الأنبياء والرسل محلاً يخرق لهم فيه مجاري العوائد، ويظهر بقدرته على أيديهم المقدور الغائب كالملائكة - عليهم السلام - إذ من الملائكة من يُميت بإذن الله، ومنهم من ينفخ الروح في نطف الأرحام فتكون عن ذلك الحياة بإذن الله، ومنهم من يخلق وينشئ وينمي حتى أنه ما من نماء ولا اضمحلال ولا حياة ولا موت ولا تقديم ولا تأخير ولا رفع ولا خفض إلا ولله - جل ذكره - ملائكة موكلون بذلك كل في مصافه ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٧].

وتحقيق العلم بهذا ومشاهدته باليقين هو مشاهدة الملكوت، قال الله عز وجل يخبر عن الملائكة: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات:١٦٥ - ١٦٦] وهو القائم على كل نفس بما كسبت أبدًا وأمدًا، ما تناهى تأخر أو تقدم كل بأمره وقدره ومشيئته وإقداره وعونه يعملون.

فصل

كان معهود الولد على وجهين: فولد منسوب إلى أبويه بنوة وولادة ورحمًا، فهذا ليس له في الوجود وجود، ولا في الإمكان تمكن، ولا له في العقل مساغ بوجه من الوجوه، وولد بمعنى التبني والاتخاذ، وقد كانت العرب وغيرها من الأمم يتبنون ويتخذون، كما قالت امرأة فرعون يوم التقطت موسى عليه السلام: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ [القصص:٩].

وكان رسول الله ﷺ قد تبنى زيد بن حارثة - رحمه الله - وأسامة ابنه، فكانوا

يدعونه ابن محمد وابن رسول الله حتى أنزل الله في ذلك قوله: ﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ الله فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾ [الأحزاب:٥] فقال رسول الله ﷺ لأسامة: «أنت أخونا ومولانا»(١).

وكان المؤمنون يقولون له: «حبُّ رسول الله» فلا يبعد أن تكون هذه العبارة جائزة في الكتب قبلنا، ولما أعضل بهم الداء وألحدوا بذلك عن سواء القصد الذي هو الاصطفاء إلى النبوة والولادة أضلهم الله وأصمهم وأعمى أبصارهم ولعنهم، وسد السبيل عن العبارة عن ذلك، وكشف معنى الاصطفاء، وأظهر لفظ الولاية ونسخ ذلك بهذا، وليس يبلغ الاصطفاء إلى شركه في إلهية، ولا يتلبس معنى الولاية بالنبوة ألبتة، سبحانه وله الحمد كله، أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة، وأنى تكون له صاحبة ولم يكن له كفوًا أحد، وأنى يكون له كفؤ ولم يكن له ند ولا مثل ولا شبيه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١] في فقد ولا وجود ولا في الوهم، لذلك ختم الآية بقوله: ﴿سُبْحَانَهُ هُوَ اللهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ﴾ [الزمر:٤].

قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا....﴾ فذكره خلق النفس الواحدة وخلقه منها زوجها خبر قائم بنفسه وإعلام يعلم ودلالة دالة على أنه الله الإله الواحد، أوجد الخلق الكثير والجم الغفير، ثم قوله: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء:١] إتمام للكلام وتعجيب من قهره وعظيم قدرته.

﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٩).

أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر:٦ - ٩].

أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ [الزمر:٦] زوجان من الضأن: الذكر والأنثى، ومن المعز ومن البقر والإبل، في هذا إعلام بأن كل زوج منها كان خلق الذكر منهما أولاً، ثم خلق من الذكر زوجه، ثم بث عنهما من ذلك ما شاء من الكثرة، كما قال: خُلق آدم ﷺ أولاً، ثم زوجه عنه، ثم ذريته عنهما، وفي ذلك أيضًا أن هذه الأنعام من الجنة وإليها عودها، وقد جاء عن رسول الله ﷺ نحو هذا؛ لأن الخطاب جاء بذكر الامتنان وتعداد النعم وأنزل لكم في هذه الآية، ويمكن أن يكون معنى الإنزال زائدًا إلى ما تقدم ذكره إنزاله إياها من التوحش إلى حالة التأنيس والتسخير لنا.

ثم قال - عز من قائل: ﴿يَخْلُقُكُمْ﴾ يعنى: أنتم والأنعام ﴿فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ ﴿خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ﴾ إيجادكم عن الوحدة ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ﴾ [الزمر:٦] ونظيرتها في سورة «الشورى» قال فيها : ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ أي: في ألبان الأنعام ولحومها، ثم تنزه عن الأشباه بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١] وقال في هذه: ﴿ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [الزمر:٦] ومفهوم هذا الخطاب ليس كالذين يدعونكم إلى عبادتهم لا يملكون نقيرًا.

ثم قال: ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ﴾ [الزمر:٦] قالوا: ظلمة البطن، وظلمة المشيمة، وظلمة الرحم، وأوجه من هذا زائدًا عليه الظلمة الأولى كون الجنين أولاً لا سمع له ولا بصر ولا تمييز.

قوله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾ خاطبهم خطاب تجهم واستغناء عنهم، ثم قال: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ كيف يرضى لهم الكفر وقد سبق لهم قدم الصدق عنده بقوله: «**هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون**»[1] وإن تشكروا يرضه لكم خطاب للمؤمنين ينتظم بما هو متصل به ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾

---

(١) تقدم تخريجه.

[الزمر:٧] أي: لا يحمل أحد وزر أحد ولا يؤاخذ إلا بما عمله.

قوله ﷻ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ [الزمر:٩] قرئت بالتشديد للميم من قوله: «أمّن» وبالتخفيف، فمن خفف قدر المحذوف مؤخرًا، ومن شدد قدره مقدمًا، والتقدير مقدر على ما يكون جوابًا لما كان سببًا لنزول السورة، ويمكن أن يكون المعنى في قراءة التخفيف النداء كأنه قال: أيَا من هو قانت آناء الليل ساجدًا وقائمًا يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه، فيكون تقدير المحذوف أبشر أو ما يكون عبارة عنها[1].

قوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ [الزمر:٩] منتظم بقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ﴾ [الزمر:٨] إلى ما وصفه به، ومجاز القول: أهو خير ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩] إلى آخر المعنى وتتخرج قراءة من قرأ بالتخفيف للميم في قوله: ﴿أَمَنْ هُوَ قَانِتٌ﴾ على النداء كما تقدم داخل الكتاب، وقد تتخرج على المفاضلة مجازًا، لقوله فيه: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ﴾ تحقق ليس كذلك إذا مسه الضر جاء إلى ربه ضرورة يجدها من نفسه، وإذا عراه الخير كفر ربه ونسي ما كان يدعو إليه، وأضاف النعمة إلى غير الله.

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٞۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٖ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٖ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ

---

(١) قرىء: «**أمن هو قانت**» بالتخفيف على إدخال همزة الاستفهام على من، وبالتشديد على إدخال «أم» عليه. ومن مبتدأ خبره محذوف، تقديره: أمن هو قانت كغيره، وإنما حذف لدلالة الكلام عليه، وهو جري ذكر الكافر قبله، وقوله بعده: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الذين يَعْلَمُونَ والذين لَا يَعْلَمُونَ﴾ وقيل: معناه أمن هو قانت أفضل أمن هو كافر. أو أهذا أفضل أمن هو قانت على الاستفهام المتصل. والقانت: القائم بما يجب عليه من الطاعة، ومنه قوله ﷺ: «**أفضل الصلاة طول القنوت**» وهو القيام فيها، ومنه القنوت في الوتر؛ لأنه دعاء المصلي قائمًا. «**ساجدًا**» حال. وقرىء: «ساجد وقائم» على أنه خبر بعد خبر، والواو للجمع بين الصفتين. [الكشاف (٦/٤٩)].

أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ قُلْ إِنَّ الْخَٰسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوٓا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ
يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ
يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ
الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰهُمُ اللَّهُ
وَأُولَٰٓئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾ [الزمر: ١٠ - ١٨].

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ الله وَاسِعَةٌ...﴾ [الزمر: ١٠] هذا منتظم بمعنى ما تقدم من ذكر عرضهم على رسول الله ﷺ بأن يداهنهم بعض المداهنة، ولعلمه ﷺ أن الصبر على لزوم الحق صعب كريه بين ظهراني أهل الفسوق، وكذلك الهجرة من أرض نشأ فيها شديد جدًّا، فوعد على الصبر على ذلك في الآخرة إسقاط الحساب عنهم في النعم المنعم بها عليهم أو ذنوب كانت منهم، وأنه يوفيهم أجورهم بغير حساب لا يظلمون فتيلاً، ولا يهضمون منها كثيرًا ولا قليلاً.

أتبع ذلك ما هو في معنى ما تقدم من قوله: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ الله مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾[1] [الزمر: ١١] إلى قوله: ﴿قُلِ الله أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي * فَاعْبُدُوا

(١) لا شبهة في أن المراد إني أول من تمسك بالعبادات التي أرسلت بها، وفي هذه الآية فوائد: الفائدة الأولى: كأنه يقول إني لست من الملوك الجبابرة الذين يأمرون الناس بأشياء وهم لا يفعلون ذلك، بل كل ما أمرتكم به فأنا أول الناس شروعًا فيه وأكثرهم مداومة عليه. الفائدة الثانية: أنه قال: ﴿إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ الله﴾ والعبادة لها ركنان عمل القلب وعمل الجوارح، وعمل القلب أشرف من عمل الجوارح، فقدم ذكر الجزء الأشرف وهو قوله: ﴿مُخْلِصًا لَّهُ الدين﴾ ثم ذكر عقيبه الأدون وهو عمل الجوارح وهو الإسلام، فإن النبي ﷺ فسر الإسلام في خبر جبريل ﵇ بالأعمال الظاهرة، وهو المراد بقوله في هذه الآية: ﴿وَأُمِرْتُ لأَن أَكُونَ أَوَّلَ المسلمين﴾ وليس لقائل أن يقول ما الفائدة في تكرير لفظ ﴿أُمِرْتُ﴾ لأنا نقول ذكر لفظ ﴿أُمِرْتُ﴾ أولاً في عمل القلب وثانيًا في عمل الجوارح ولا يكون هذا تكريرًا. الفائدة الثالثة: في قوله: ﴿وَأُمِرْتُ لأَن أَكُونَ أَوَّلَ المسلمين﴾ التنبيه على كونه رسولاً من عند الله واجب الطاعة، لأن أول المسلمين في شرائع الله لا يمكن أن يكون إلا رسول الله، لأن أول من يعرف تلك الشرائع والتكاليف هو الرسول المبلغ. انظر: [تفسير الرازي (١٣ /٢٣٨)].

مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ﴾ [الزمر:١٤ - ١٥].

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ﴾ [الزمر:١٥] قال رسول الله ﷺ: «كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته»[١] وذكر والرجل في أهل بيته راع وهو مسؤول عنهم، والرجل إن كان مصيره إلى العذاب وأهله إلى رحمة الله وثوابه فقد خسر نفسه وأهله، وإن كانوا معه في العذاب طلبوه بما ضيع من حقهم من الإرشاد إلى مرضاة ربهم والنصيحة، فلعنوه لذلك ولعنهم، فذلك ﴿الخُسْرَانُ المُبِينُ﴾ [الزمر:١٥] وقد يكون أهله المعنيون هنا هم أهله في منزله من الجنة الذي أبدله به منزلاً من النار وأورثه غيره، وكلا الوجهين خسران مبين، نسأل الله المعافاة والمغفرة.

أتبع ذلك قوله - عز من قائل: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر:١٦] ما فوقهم ظلل لهم وما تحتهم ظلل لغيرهم، ولأولئك أيضًا ظلل منها، وما تحتهم ظلل لمن تحتهم، كما أن ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾ [الزمر:٢٠] في غرف، بالإضافة إلى من دونهم ولمن فوقهم غرف، ومن فوقهم في غرف، ثم كذلك ما صعد بهم هم في غرف، وما فوقهم غرف لمن فوقهم مبنية كلها تجري من تحتها الأنهار.

قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة لمائة درجة كل درجة منها كما بين السماء والأرض أعدهن الله للمجاهدين في سبيله»[٢].

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ
غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَرَ
أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ
فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ

---

(١) أخرجه أحمد (٤٤٩٥)، والبخاري (٢٢٧٨)، ومسلم (١٨٢٩)، وأبو داود (٢٩٢٨)، والترمذي (١٧٠٥).

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٢٣).

صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر: ١٩ - ٢٣].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ﴾ [الزمر: ٢١] هذا منتظم بما قبله قوله في الخاسرين أنفسهم وأهليهم: لهم ظلل من النار ومن فوقهم ظلل، وهي الدركات وقوله في: ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ [الزمر: ٢٠].

يقول عز من قائل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ﴾ [الزمر: ٢١] انظروا إلى ما بين أيديكم من السماء والأرض، ألسنا ننزل الماء من السماء التي هي جنة حكمًا إلى الأرض التي أحييناها بالماء الذي أنزلناه من دار الحيوان، حكمًا لذلك أحيينا به الأرض بعد موتها وجعلنا منه كل شيء حي، فهي أيضًا جنة حكمًا بما جعلنا فيها من جنات من نخيل وأعناب وجنات معروشات وغير معروشات تجري من تحتها الأنهار.

قول عز من قائل: ثم سلكناه ينابيع في الأرض ﴿فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ [الحجر: ٢٢] بل نحن اخترناه لكم في الأرض جنة أيضًا تجري من تحتها أنهارها كما التي فوقكم تجري تحتها أنهارها، منها أنزلناه إليكم كذلك إلى ما على درجات بعضهن فوق بعض، كما جهنم فيها تحتكم دركات بعضهن تحت بعض، فوصف الجنات بأنها بعض فوق بعض، ووصف جهنم - أعاذنا الله منها - بأنها دركات بعضهن تحت بعض.

ثم أخذ بعد هذا في وصف الدنيا بقوله الحق: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ هذا من وصف الجنة، ثم قال: ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا﴾ [الزمر: ٢١] هذا من وصف جهنم، فهذه الأرض جنة تجري من تحتها أنهارها بما يعتورها من فتح الله برحمته من جنات هي فوقها، وهي أيضًا درك من أدراك جهنم - أعاذنا الله منها - بما يعتورها من تعاقب الفيحين سعيرًا وزمهريرًا، لذلك يكون

مدفن المؤمن في بطنها روضة من رياض الجنة، ويكون مدفن الكافر في بطنها حفرة من حفر النار، كما قاله ﷺ وأنبأ به: ﴿الحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ المُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران:٦٠].

﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [الزمر:٢١] هذه ثلاثة أمثال: مثل للعلم، ومثل للعمل، ومثل للدنيا في الآخرة، وكثير ما يضرب الله تعالى الأمثال بالوحي بالماء ينزله من السماء بواسطة الملائكة، وقد تقدم من ذلك إيماء يبعث الحريص على تطلبها إن شاء الله.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً...﴾ [الزمر:٢١] كذلك تنزيل الكتاب عما هو فيما هنالك، كما قال - عز من قائل: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف:٤] أي: علا عن أفهامكم ننزله إلى ما هو عندكم كتابًا تكتبونه وتقرءونه، وكذلك هو تنزيل عما هو كلام الله لا ينبغي لمخلوق احتماله لولا تنزيله إياه إلى ما هو تلاوة لكم قرآنًا عربيًا تتلونه قراءة وتعملون بمقتضاه، فشبه إنزاله الماء من السماء بواسطة الملائكة الموكلين بالرياح والسحاب، وتقسيم الماء إلى الأرض ثم تفصيله من ذرى إلى ندى، وإلى نبات على اختلافه، وجماد وحيوان وإنسان بصفات ذلك كله وإتباع وجوده، وبما في ذلك من لطيف الصنع وعجائب القدرة المفصلة المتممة لعجائب الملكوت بتنزيله كلامه العظيم وكتابه الحكيم، وإنزاله إياه بروح القدس إلى الروح من الأمر إلى روح المعارج إلى الروح الأمين إلى قلب الرسول - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - ثم إلى قلوب المؤمنين، ثم إلى ألسنتهم وجوارحهم بما يكون عن ذلك من تلاوة وقراءة وأعمال.

وقوله: ﴿فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ﴾ [الزمر: ٢١] هو مثل للعلم، معنى ذلك: كذلك نسلكه في قلوب المؤمنين ينابيع حِكَمٍ على ألسنتهم وجوارحهم، ونخلطه بلحومهم ودمائهم، ثم نخرجه إعمالاً بمقتضاه على جوارحهم، وكما أن من الزرع ما يهيج فيصفر قبل تمامه، كذلك من العلم ما يبطل بالذهول والنسيان قبل إيراده، ولدعوى النفوس قد لا تتم فائدته ولا تكثر عائدته.

ومن العمل ما يبطل حال؛ لفساد النيات وعدم تصحيح الإرادات، وقد يبطل

بعد خروجه بالمن والأذى وفي وجود الدعوى، وكما أن من الزرع ما تتم زريعته وتكمل ثمرته، ثم يهيج فيصير حطامًا، فكذلك من العلم والعمل بالكتاب ما يكمل وتتم فوائده وإن تحطمت الأجسام بالبلى إلى أن يبعث، وزريعته وفوائده تزدرع وتغرس بعد تحطيم الجسم الذي كان عنه إلى يوم البعث، وهو أيضًا مثل ضربه للدنيا مع الآخرة فناء الدنيا وتحطمها بعد إيناعها وإيجادها، ثم تأتي الآخرة بما فيها كما يجيء الحول الآخر بعد بما فيه.

قوله ﷻ: ﴿**اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ...**﴾ [الزمر:٢٣] يقول الله ﷻ وهو أعلم بما ينزل: الله نزل أحسن الحديث من الكتاب المبين نزله تنزيلاً حديثًا أحسن حديث وأصدقه وأحكمه كتابًا؛ يعني: القرآن، متشابهًا؛ يعني: معانيه بمعاني الكتاب المبين، وقد تقدم في المثل المتصل بهذا تشابه القرآن بالكتاب المبين مثاني تنشئ معانيه على معاني ذلك، والمشتبه المتشاكل تقاربت أشكاله فأشكل على من رام التمييز بينه وبين ما يشابهه.

مثال ذلك: الشجر المتميز الأصول المتداخل، وإن كان الشجر متباين الأجناس كشجر الأعناب والزيتون والنخيل قرب التمييز بين الفروع، وإذا كانت الشجر من جنس واحد عسر التمييز بين الفروع والأفنان، وإن تميزت الأصول لتداخل الأفنان واشتباكها، فكذلك معاني القرآن بمعاني موجودات الكتاب المبين إلا لأولي الألباب، وكذلك القرآن انقسم في نفسه إلى: محكم ومتشابه.

فمحكمه: كأصول الشجر في تمييز بعضه من بعض، وهو الأقرب إلى أم الكتاب.

قال الله - جل من قائل: ﴿**الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ**﴾ [هود: ١] ثم في هذا التفصيل محكم ومتشابه، ومن المتشابه مشتبه ومتميز غير مشكل، فحكمه ذكر الإلهية والوحدانية والأسماء والصفات وما عبر عن ذلك.

ومتشابهه: ما يفصل عن ذلك إلى ما يفصل منه كالماء أنزله منزلة ماء واحدًا إلى الأرض، ثم فصله بعد إلى ما فصله إليه، فيبعد وجوده عن حقيقة الماء، ويتصف بأوصاف هي غير الماء، فما انفصل إليه بحكم القرآن هو بمنزلة أفنان الشجر الملتف المتداخل الأفنان عسير تمييز كل فنن من صاحبه الذي يجاوره،

صعب معرفة رده إلى أصله، وعز المسلك إلى تصحيح كل فرع إلى خدمه، فمن أحب ذلك فليرجع إلى أصل الشجرة، ثم ليستصحب النظر في استقراء نسبة كل فنن من أصله إلى طرفه الملتف مع سواه.

يقول الله - جل من قائل - في الوجود: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾ إلى قوله: ﴿وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا﴾ أي: مشتبكًا ﴿وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾.

يقول - وهو أعلم بما ينزل: وهو على اشتباكه غير متشابه ﴿انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ أي: حسن ثمره وطيبه وحسن تكوينه وجمال تدويح شجره وخضرته وبهاء زهره ﴿إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:٩٩] هو كما تقدم ذكر بعضه وآيات لقوم يؤمنون بموجودات الآخرة، وآيات على أن الذي أنزل منه هذا الماء أصل ومنبعث لجنات ما هنا إلى سوى هذا مما هذا دلائل عليه وآيات له، فافهم.

وقد تصرف قوله الحق: ﴿انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ [الأنعام:٩٩] أي: إذا اشتبهت عليكم الأشباه عند اشتباك الأفنان رجعتم إلى تمسيتها بثمرها فعرفتم عند ذلك من أين منبعث ذلك الفنن، كذلك فافعلوا عند اشتباه المعاني في التنزيل، اقضوا لكل متشابه بحكم أصله تدركوا المطلوب.

يقول الله - جل من قائل: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [الزمر:٢٣] وبما نزل في بعض الخطاب عند بعض وصف الصفات أو الثواب والعقاب عن سياق المحكم إلى بعض المعهود عند المتخاطبين لحكمة بالغة له في ذلك، فيوهم لذلك ظاهر الخطاب خلافًا لما تقدم في المحكم أو نقصًا في بادئ الرأي، فتقشعر لذلك جلودهم وتفزع له قلوبهم، فإذا رجعوا إلى محكمه وتبينوه من أصله ميزوه من سواه لانت جلودهم واطمأنت إلى ذكر الله قلوبهم بما ينبغي أن يذكر به، وإنما يكون ذلك بهداية من الله - جل ذكره - إلى السبيل المرتضى، ويعصمه من لدنه عن الهوى في جهالات الردى.

﴿ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ﴾ من عباده ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر:٢٣] يجوز أن يعتقد مع ما تقدم ذكره في قوله: ﴿كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ

﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ﴾ [الزمر:٢٣] إن المواعظ والأحكام والقصص ينشئ متشابه بعضها لبعض، ومن المعهود أن المواعظ والنذارات والبشارات إذا تكررت على القلوب تمكنت منها فاقشعرت جلودهم وقلوبهم من خشية الله لمواعظه وزواجره، ثم تلين لبشاراته ومواعده بجزيل ثوابه وكريم مآبه.

أتبع ذلك قوله: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ العَذَابِ يَوْمَ القِيَامَةِ﴾ [الزمر:٢٤] انتظم معنى هذه بمعنى ما تقدم من قوله: ﴿قُلْ إِنَّ الخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [الزمر:١٥] إلى قوله: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾[1] [الزمر:١٦].

﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّـٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ
﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ
فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ
مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا
رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَـٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا
يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾
فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى
لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾[الزمر:٢٤ - ٣٢].

﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ العَذَابِ يَوْمَ القِيَامَةِ﴾ [الزمر:٢٤] ثم حذف ما قد دل عليه ما ذكره في قوله: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾ [الزمر:١٧] إلى قوله: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ [الزمر:٢٠].

يقول - جل من قائل: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ العَذَابِ يَوْمَ القِيَامَةِ﴾

---

(١) الظلل عبارة عن أطباق النار؛ أي: لهم من فوقهم أطباق من النار تلتهب عليهم ومن تحتهم، وسمي ما تحتهم ظللاً؛ لأنها تظلّ من تحتها من أهل النار؛ لأن طبقات النار صار في كلّ طبقة منها طائفة من طوائف الكفار. [فتح القدير (٦/٢٧٦)].

[الزمر:٢٤] كمن هو في الغرفات من الآمنين في النعيم المقيم، أو ما يكون من الكلام معبرًا عن هذا بيان معنى قوله: وهو أعلم يتقي بوجهه سوء العذاب، هو كما قال: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وَجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر:٤٨] وقد قيل، والله أعلم: إن الشقي - نعوذ بالله العظيم من سوء مصيره - تقرن ناصيته من ورائه إلى رجليه ويسحب في النار على ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر:٢٧] بالأمثال تفهم المعاني الغائبة ويتذكر المعالم بأشباهها، أشار بهذا الخطاب - وهو أعلم - إلى ما تقدم ذكره من الأمثال.

ثم ما يأتي به بعد هذا قوله: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلا رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾[1] أي: مخالفون يضاد بعضهم بعضًا في آرائهم وإراداتهم فيه وفيه ﴿وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ يقرأ: سَلَمًا وسِلْمًا وسَالـمًا، يعبر بذلك عن التوحيد والإشراك، يقول: هل يستوي حال هذا العبد المنقسم المشترك فيه، والعبد الموحد لسيد واحد، ثم حمد نفسه ﷻ لما امتن به على عباده المؤمنين من التوحيد والإسلام لله وحده ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩] قدر النعمة في ذلك والروح والراحة من حال الاختلاف والتضاد من آراء فيه وهمم وما يكون عن ذلك من فساد في الحال والمآل.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر:٣٠ - ٣١] هذا الخطاب منتظم معناه من هذه الجهة بمعنى النقض لما أرادوه عليه من اتباعهم على أمرهم، وروى الزبير بن العوام رحمة الله عليه: «**أن رسول الله ﷺ سئل عن هذه الآية أو سأله هو، فقال: يا رسول الله، أتجدد**

---

(١) قال الورتجبي الشيرازي: شبّه الله المتشتتين همومهم المائلين إلى غير الله بالرجل الذي يملكه الشركاء المتشاكسون المتخالفون، وشبّه المتفردين بنعت الإخلاص بالله ولله وفي الله بالرجل السالم لرجل الخالص له لا يملكه غيره بل عبدٌ قنٌّ له لا يدخل في صحة عبوديته خلل لأجل مدخل غيره، فالأول المحتجب بنفسه عن الحق، والثاني الشاهد بالحق على الحق، لا يحويه غبار العلل، ولا يدخل في قلبه قتام الخلل؛ إذ هو محفوظٌ برعايته القديمة وحراسته الأبدية، مثل هذا العبد لا يعرفه إلا عبدٌ مثله، ولذلك حمد الله نفسه حيث يجهله أكثر الخلق.

بيننا الخصومة بعد ما كان بيننا في الدنيا؟ قال له: نعم، فقال الزبير: إن الأمر إذن لشديد»[1].

قوله ﷻ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى الله وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ [الزمر:٣٢] الكاذب على الله ﷻ هو المتقول عليه ما لم يقله معنىً ولا نصًّا، والذي يقول: أوحى إلي ولم يوحَ إليه شيء، وهو المتنبي والدعي الكذاب، أو كذب بالحق لما جاء مثل قول بعضهم: ﴿وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ [يس:١٥] لو نشأ لقلنا مثل هذا ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام:٢٥] والمكذب بالصدق لما جاءه هو الذي يرى برهان الحق من قبل المعهود المتعارف جريانه أو من قبل خرق العوائد فيكذب به ويعرض عنه، والمكذب بالصدق إذ جاءه أيضًا هو الذي يبلغه كتاب الله وسنة رسول الله، فلا يحفل به ولا يرفع بذلك رأسًا.

﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الزمر:٣٣ - ٣٨].

أتبع ذلك قوله: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ هو محمد رسول الله وهو المصدق أولاً به، ثم المؤمنون هم المصدقون بالصدق المبلغ إليهم، و﴿هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر:٣٣] يجزيهم الله بأحسن أعمالهم وأرفعها درجة وأخلصها نية وأحضرها ذكرًا، انتظم هذا الكلام بما جاوره قبله قوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٤٤)، وأبو يعلى (٦٦٠).

الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر:٣٠ - ٣١] يعزيه بذلك ويقرب له الأمر، وإن خصومتهم هناك عند مرسله ومنزل الكتاب عليه، وحذف ذكر الجزاء حتى عرض به فيما بعده بقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ [الزمر:٣٢].

وفي ضمن هذا وعيد عليهم شديد، فكما لا أظلم من هؤلاء، كذلك لا عذاب كعذابهم، ولا إهانة كإهانة يلقونها، وكما أن هذا كهذا فكذلك لا جزاء بخير كجزاء يصير إليه المتقون الذين جاءوا بالصدق: وهم الرسول، والذين صدقوا به: وهم أتباع الرسل، وعلى هذا فإن الذين جاءوا من بعدهم لم يروا رسول الله ولا حدثهم، إنما كان مجيئهم في فترات الرسل أفضل إيمانًا وأعظم قدرًا ﴿وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة:١٠٥] جعلنا الله منهم وفيهم إنه ولي ذلك لا إله إلا هو.

قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ ويقرأ «عباده» على الجمع ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ [الزمر:٣٦] هذا منتظم بما تقدم ذكره من دعائهم إياه لمبايعة بعض أمرهم وقولهم: إنا نخاف أن تختلك آلهتنا وأن تنالك بسوء، كما قال قوم هود ﷺ: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ [هود:٥٤] ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة:١١٨].

يقول الله في مقابلة قولهم ذلك: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ [الزمر:٣٦] من أضله الله عن التوحيد لله - جل ذكره - ونسبة الكائنات إليه أجمع ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر:٢٣] ومن يهدي الله إلى التوحيد له والتوكل عليه وتفويض الأمور كلها إليه فما له من مضل، كذلك لا يخطئه إلا ما لم يرد الله أن يصيبه ولا يصيبه إلا ما لم يرد الله أن يخطئه.

ثم قال: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ﴾ [الزمر:٣٧] إذا كان الكفار يغترون بآلهتهم ويضيفون الانتقام ممن خالفها إليها، فالله العزيز ذو الانتقام على الحقيقة، ومن سواه لا يملكون نفعًا ولا دفعًا.

أتبع ذلك قوله - جل ذكره: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [الزمر:٣٨] يقول - عز من قائل: هم يعتقدون هذا ومع ذلك هم يضيفون العزة والانتقام إليها، وهي لا تسمع ولا تبصر ولا تغني شيئًا ﴿فَأَنَّى

يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت:٦١] عن هذه الحقيقة إلى الباطل المبين.

يقول - عز من قائل: **﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ الله إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾** [الزمر:٣٨] هل يغالبنه على أمره فيغلبنه أم هو الغالب؟ ولما تبين الحق من الضلال صرف وجه الخطاب مفلجًا بالحجة البالغة أمرًا لعبده بلزوم التوحيد المحض والتفويض إليه والتوكل عليه بقوله: **﴿قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾** [الزمر:٣٨] وفي هذه الآية سبيل صالحة إلى معرفة حقيقة التوكل والكشف عن حقيقة العلم به جعلنا الله منهم برحمته.

﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن
يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ
فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾
ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا
ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ
ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ
ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ
وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأٓخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ
يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾[الزمر: ٣٩ - ٤٥].

ثم أتبع ذلك قوله - عز جلاله - مثبتًا لرسوله على المنهاج القويم: **﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾** [الزمر:٤١] أي: رقيب مراصد، نظم هذا بما قابله مما تأسس عليه تنزيل السورة من قولهم الفاسد ومذهبهم الخبيث.

قوله تعالى: **﴿اللهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾** [الزمر: ٤٢] التوفي عند الموت هو ما يبديه ﷻ لها من علامات الآخرة، وما يواجه به حينئذٍ من بشارة بخير وشر، وتوفيه إياها في منامها هو ما يريها من الرؤيا ومعالم

الغيوب.

قال رسول الله ﷺ: «**الرؤيا الصالحة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة**»[١] وقال: «**الرؤيا من الله والحلم من الشيطان**»[٢] لذلك وهو أعلم قال: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [الزمر:٤٢] وانتظام هذه الآية بمعنى ما تقدم هو بما فيها من معنى الإنباء المذكور في التوفي، وتلك آية على وجود النبوة، وهي أيضًا آية على إحياء الله الموتى حال موتهم، كما النوم آية على موت الأحياء حال حياتهم، وأن التوفي هنا هو في حين الموت نفسه فذلك آية على البعث بعد الموت، وإنما ذلك لإنكارهم نبوته ورسالته.

قوله تعالى: ﴿**أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ شُفَعَاءَ**﴾ [الزمر:٤٣] هذا - والله أعلم - جواب الاستفهام في قوله: ﴿**أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ**﴾ [الزمر:٣٦].

﴿**أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ شُفَعَاءَ**﴾ يعني: عبادتهم إياهم وإضافتهم العزة والانتقام إليها، فقال - عز من قائل: ﴿**قُلْ**﴾ يا محمد لهم ﴿**أَوَ لَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ**﴾ [الزمر:٤٣] وهنا محذوف دل عليه المذكور تقديره: أو لو كانوا لا يملكون شيئًا ولا يعقلون يتبعونهم، ويدينون لهم ويعبدونهم من دون الله العزيز الحق، رب السماوات والأرض وما بينهما، رب كل شيء ومليكه، ينتظرون نصرتهم وشفاعتهم وهم لا يقدرون ولا يعقلون لذلك، وهو أعلم بما ينزل.

أعقب ذلك بقوله الحق: ﴿**قُل لِلهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ [الزمر:٤٤].

قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ**﴾ يعني: وهو أعلم تقبضت ونفرت ﴿**وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ**﴾ [الزمر:٤٥] هذا منتظم بمعنى ما تقدم من تدينهم لآلهتهم مع أنهم لا يملكون شيئًا ولا يعقلون، وهذا من أشد الحب وهو سبيل الضلالة.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٨٨)، وأحمد (١٦٢٢٧)، ومسلم (٢٢٦٥)، والنسائي في الكبرى (١٠٧٤٠).

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٤٧)، ومسلم (٦٠٣٤).

قال الله ﷻ: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ﴾ هذا ضلال وخسّة، يسوون الحب بين من ينفع وما لا ينفع ولا يضر، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًا للهِ﴾ [البقرة:١٦٥] ذلك لأنهم يجدون عنده من آمالهم ما لم يسألوه إياه، كما قال: ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ ثم قال: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم:٣٤] وجاء من فقه هذه الآية التي في سورة «البقرة» وما عرض به في هذه الآية: أن كل مؤمن لا يحب الله فليس بمؤمن، ولا أقل من الإيثار بالحب عند ذكر الله وذكر ما سواه، وأعلى الإيمان الحب الغالب على القلب، ثم الحب الخارج عن صدق القلب إلى ظاهر الجوارح.

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الزمر:٤٦ - ٥١].

أتبع ذلك قوله الحق إعظامًا له من أمر وتشيعًا له من شأن: ﴿قُلِ اللهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: إنك فطرتهم على معرفتك وعرفتهم نفسك وأقروا بربوبيتك وأشهدتهم على ذلك ﴿عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ شاهدت يومئذٍ ظواهرهم وعلمت غيبهم ﴿أَنْتَ تَحْكُمُ﴾ بينهم يوم القيامة ﴿فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر: ٤٦] في دار الدنيا بعد إجماعهم عندك على ما أجمعوا عليه واتفاقهم على الحق.

أتبع ذلك ما هو في معناه قوله الحق: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ العَذَابِ يَوْمَ القِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللهِ مَا لَمْ

يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾[1] [الزمر:٤٧] أخبر - جل ذكره - عن سوء مصيرهم وفظيع مآلهم يوم يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا في الدنيا فيه يختلفون، وقد كانوا في الدنيا يحسبون أن آلهتهم تشفع لهم وتنصرهم، فبدا لهم يومئذٍ من الله تعالى بأنه لم يجعل لهم شفعاء ولا أولياء من دونه، فخاب ظنهم الذي أرداهم بآلهتهم، ويريهم الحق الذي ذكرهم بآياته ورسله وكتبه فاستهزءوا بها ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الزمر:٤٨] من نذارتهم إياهم أن يصيبهم الله به في الدنيا والآخرة ﴿وَحَاقَ﴾ كلمة مأخوذة من حق، وفيها معنى الإحاطة، فعرفها بين هذين.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا...﴾ [الزمر: ٤٩] هذا منتظم بما تقدم ذكره من التعريض بمعنى الفطرة، فصرح هنا بما عرض به قبل من ذلك، وقد تقدم ذكر هذا في صدر السورة قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ [الزمر:٨] وأرى ذلك - والله أعلم - معني به الكافر، وهذا في المنافق العليم بقول الله جل من قائل: ﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الزمر:٥٠] يعني قوله: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ﴾

(١) هذه الآية خبرٌ من الله للذين فرحوا بما وجدوا في أوائل البدايات مما يغترّ به المغترون، وقاموا به، وظنوا ألا مقام فوق مقامهم، فلما رأوا ما بخلاف ظنونهم لأهل معارفه وأحبائه وعشاقه من درجات المعرفة وحقائق التوحيد ولطائف المكاشفات وغرائب المشاهدات ماتوا حسرة، وأيضًا سكن قوم إلى الأنوار وظهور بدائع صنيع الحق، واطمأنوا إليها، وظنوا أنها هو، وهم أهل الغلطات، فلما بدا لهم من الله جلال عزته وعزائم قدرته علموا أنهم ليسوا على شيء من معرفة الله، وظاهر الآية يتعلق بأهل الرياء والسمعة الذي يعجبون قبول الخلق واستحسانهم ظواهرهم من الزيّ والعبادة، واغترُّوا بمراعاتهم، وظنوا أنهم على شيء عند الله من ذلك، فإذا بدا لهم من الله بيانًا يوم القيامة أنهم مشركون بالرياء والسمعة افتضحوا هنالك عند العارفين والصديقين، وافهم أيها الناظر في هذا الكتاب أن لنا من العلوم المجهولة ذوقًا، وذلك الذوق لا يليق بفهم أهل الطيلسان والطرق، ومن ذلك أن الكفر والإيمان طريقان من القهر واللطف إلى عرفان وحدانيته، فبلغ المؤمن إليه بطريق الإيمان واللطف، ويبلغ الكافر إلى رؤية قهرياته بالحقيقة عند المعاينات، فإذا عرف أنه هالكٌ فيها واقتحم في ظلماتها يبدو له في أحايين من الله سبحانه كشوف جلاله وجماله وعلومه الأزلية وألطافه الأبدية ما يضمحل فيها نيران جميع جهلهم، وهو لا يحتسب ذلك منه، ومن أنت من العبد، والرب قوله صدقٌ، ووعده حقٌّ، وإشارته حقيقةٌ، فأول الآية واضحةٌ، وآخر الآية إشارةٌ. [العرائس].

[الزمر:٤٩] أي: بحول مني وقوة وعلم بمجاري الأمور ومضان الرزق والصحة ونحو هذا، فسوى الله - جل ذكره - في مثال جزاء قولهم وفعلهم بين الأولين منهم والآخرين بقوله: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [الزمر:٥١].

﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الزمر:٥٢ - ٥٨].

أتبع ذلك ما هو في معناه قوله: ﴿أَوَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الزمر:٥٢] لا من حول لأحد في ذلك ولا قوة ولا علم ينفع في ذلك ولا تجربة، وهذا من خطاب القبض والمعتقد فيه أنه خالق الكسب والكيس والعجز والحول والقوة، ومقدر ما شاء، وموصل من ذلك إلى من شاء ما قد سبق في علمه السابق لا زيادة فيه ولا نقصان منه.

قوله تعالى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ﴾ [الزمر:٥٣] إلى قوله: ﴿بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الكَافِرِينَ﴾ [الزمر:٥٩] لما كان الارتداد عن الإسلام من نحو ما دعوا المؤمنين إليه خاطب بهذا قومًا من المشركين، قيل: إنهم كانوا قد أسلموا ثم خرجوا إلى مكة وقتلوا وأكثروا وزنوا فأكثروا وفعلوا وفعلوا، فكاتبهم إخوانهم من المدينة يسترجعونهم إلى الله تعالى، فقالوا: لو علمنا أن لما عملنا توبة لتبنا، فأنزل الله هذه الآيات، فأرسل بها إخوانهم إليهم فأسلموا وهاجروا إلى المدينة، سبحانه وله الحمد يدعو المولين

عنه كرمًا ويقبل المقبلين إليه تفضلاً، لا إله إلا هو الحكيم الكريم.

إذا كان الشرك والكفر والتكذيب لرسله وكتبه ونسبة الصاحبة له والولد والافتراء العظيم عليه يغفره بالإسلام ويهدمه به، فالتوبة من الذنوب إذن وإن كثرت مع استصحاب الإسلام واعتقاد الإيمان إلى الموافاة أولى بذلك وأحرى، وقال الحليم الكريم في الذين قالوا: ﴿**إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ**﴾ [المائدة:٧٣] وأن ﴿**يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ**﴾ [المائدة:٦٤] وأن ﴿**عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ**﴾ و﴿**الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ**﴾ [التوبة:٣٠] تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا: ﴿**أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [المائدة:٧٤].

فالحذر الحذر من التقنيط والعقد عليه، بل الرجاء للقاء الله والرجاء في عفوه وكريم صفحه، فالله ﷻ يقول: «**يا ابن آدم، إنك إن لقيتني مسلمًا بقراب الأرض خطيئة لقيتك بقرابها مغفرة**»[1] وهذا وعد من الله - جل ذكره - خالص للذي يلقى الله على توبة ورجاء للمصير، والعفو والغفور من أسمائه، والكرم والرحمة من صفاته، وصفات العبيد تضمحل وتتلاشى عند حقائق صفات الله - جل ذكره - ومن البيان البين في ذلك اتصافه بأسماء الرحمة وحسن التجاوز والتوبة على من تاب، وأنه أسرع إلى العبد من العبد إليه، ومن الدليل على صدق ما ذكرناه مع ما يعضده من الدلائل أن العبد لا يتوب إلا أن يتوب الله عليه، فإذا رأيناه قد أناب إلى الله وتاب إليه رجونا له أن الله قد تاب عليه ولم يبقَ عليه إلا خوف الخاتمة، فإن مات على ذلك علمنا أن الله - جل ذكره - قد سبقه إلى نفسه بذلك منه، فهو الغالب على أمره و﴿**الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ**﴾ [يونس:٩٦ - ٩٧] كذلك ﴿**وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ**﴾ عنه وتاب عليهم ﴿**لَتَوَلَّوْا وَهُم مُّعْرِضُونَ**﴾ [الأنفال:٢٣].

فصل

والتوبة: النقلة عما نهى الله عنه إلى ما أمر به، ثم لا يتم ذلك إلا بالندم على ما

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٥١٠).

فرط منه، ثم العكوف على ما صفى، وكمال ذلك الإقبال على الحق والإدبار عن الخلق، ثم الكد والرجاء والخشية من المولى والتبرئ من الحول والقوة، ثم الالتجاء، ثم لا تصح التوبة إلا بالتوبة من ترك التوبة بإسقاط رؤية التوبة، ثم بعد هذه المنزلة في التوبة مراقبة الخطرات في الإسرار والوقوف على الطاعات بالأذكار، ولزوم باب الرقيب بالهم والأفكار، وأن يشغل كله بكل الكل عن الكل، ولا يتم ذلك إلا بصدق الإنابة في البداية والنهاية، وهي الرجوع إلى الله - جل ذكره - في كل خطرة وطرفة، ويجعل الرجوع منه إليه حذرًا ومن غيره رغبًا، ومن كل تعلق براحة سوى الاشتغال به رهبًا، ولا يتم ذلك إلا بالزهد، وحقيقة الزهد: ترك الفضول، ثم الإقبال على الله، وكف النفس عن هواها، وترك الراحة طلبًا للراحة عنده، ثم الزهد في الجاه وأخذ قوت النفس للضرورة.

وبالجملة: فالزهد ترك الدار بما فيها وإقبال النفس على بارئها، والخير كله موضوع في الزهد، وذلك على ثلاثة أركان: ترك العلائق، وسياسة البدن بالتضمر للخالق، والانقطاع عن الخلائق، فأما ترك العلائق: ففيه سقوط الهم فيما سبيله المعاش، وأما سياسة البدن: ففيها سقوط الشهوة، وأما الانقطاع عن الخلق: ففيه وجود الأنس بالله ﷻ، ولا يتم الزهد إلا بالورع، وهو الوقوف عن الشبهات والتنزه عما لا يعنى من المباحات والتخلص من الشهوات، وعليه أن يحفظ قلبه عند التأويل وأن يرد كل خطرة إلى التنزيل، وأن يعمل نفسه بسلامة الصدر مع معرفة القدر، وإن استطاع ألا يحيل قلبه إلا في تفكر في الملكوت وفيما خلق الله من شيء أو في آية من كتاب ربه - عز جلاله - وفي ذكر الموت وأنه لعله قد قرب الأجل مع أن السفر طويل والأمر جد، والورود مع حال الغفلة وقلة الزاد غرر، فهو طريق الاستقامة والسبيل القاصدة إلى محل الفوز ومنال السعادة، وليدع ما يريبه إلى ما لا يريبه.

وإذا تضايقت الأمور واستبهمت عليه الأشباه فليستفت قلبه، وليترك ما حاك في صدره، وعند هجوم الإرادات فعليه بالتوقف حتى يقع التفتيش عن الشبهة، وليتقص في قليل ذلك كله وكثيره وحتى عن مثاقيل الذر في الظاهر والباطن، والخوف يزيد في قدر الورع، وكذلك المعرفة بأيادي الله تعالى.

يقول الله - جل من قائل: ﴿فَاذْكُرُوا آلاءَ اللهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:٦٩].

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**يقول الله - جل من قائل: عبدي، أدِّ ما افترضت عليك تكن من أعبد الناس، وانتهِ عما نهيتك عنه تكن من أورع الناس، واقنع بما رزقتك تكن من أغنى الناس**»(١).

وأشد الورع: ورع اللسان، فإنه لا ورع كالكف، وكان يقال: أفضل الطاعة: الورع، وأصل الورع: التقى، وأصل التقى: محاسبة النفس، وأصل محاسبة النفس: الخوف، وأصل الخوف والرجاء: معرفة الوعد والوعيد وذكر عظيم الثواب وأليم العقاب، وأصل ذلك كله: الفكر والعبر، ولا يتم الورع إلا بالصدق.

والمؤمن مفتقر إلى صفة الصدق في مبتدأ أحواله ونهاياتها وفي جميع أحواله ظاهرها وباطنها، وأن المؤمن قد يطبع على البخل وعلى الجبل على كثير من الأخلاق النازلة عن الحق ولا يطبع على الكذب، فمتى طبع على الكذب في أقواله وأفعاله لم يكن مؤمنًا، فعلى من طلب الصدق في سيره إلى ربه أن يبذل المجهود على النهاية في بلوغ الغاية ويلتزم الوفاء، وأن يطالب نفسه بالصدق في جميع أحواله وأقواله وأعماله ويفتشها بالعلم مخافة تزيين العدو وتلبيسه، فقد حذر الله من ذلك بقوله: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [فاطر:٨].

والصدق في الأعمال: أن تكون موافقة للأقوال، والصدق في الأقوال: أن تكون موافقة للأحوال، والصدق في الأحوال: أن تكون موافقة للأسرار، والصدق في الأسرار: أن تكون موافقة لله العزيز الجبار ﷻ، وأيضًا فالصدق صدق القلب، ثم صدق اللسان، ثم صدق العمل.

فأما صدق القلب: فهو أنه في كل ما يريده ويقصده لا يريد به سوى الله تعالى.

وأما صدق اللسان: فهو أن يطلقه إذا قام له شاهد من كتاب أو سنة أو إجماع الأمة، فإن وجد ذلك وإلا أمسكه، وإن أطلقه على غير ذلك كان وهنًا في دينه.

---

(١) أخرجه ابن عدي (٥/٢٢٠ ترجمة ١٣٧٤ العلاء بن خالد الأسدى الكاهلي)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٠١).

وأما صدق العمل: فهو الهجوم على ما عزم عليه من العمل بالحرص والانكماش خشية أن يقطعه عنه قاطع.

ومنبعث الصدق ومخرجه من المعرفة بأن الله يسمعه ويراه، وحينئذٍ يشاهد عقابه وثوابه، وتبدو له معارف لا يعلم قدرها إلا المنان بها، وهذه المعرفة هي أصل كسائر الأعمال، وعلى قدر الصدق يزداد العبد في أعمال البر.

يقول الله ﷻ: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد:٢١] والفرض الدائم هو الصدق بالتوبة، ومن لم يؤدِ الفرض الدائم لم يقبل منه الفرض المؤقت.

ومدار الحكمة على ثلاثة أشياء: على الصدق وهو باللسان، والتصديق وهو بالقلب، والتحقيق وهو بالجوارح، وإذا وقر الصدق في القلب بمعرفة قرب الرب انسطع لذلك نور لأجل حرمة المراقبة فانتشر في سائر جسده وأخذت منه كل جارحة بقسطها، ومن صفات الورع: الصبر، فلا يتم إذن إلا به، والصبر وتحمل الآلام عند نزول الأحكام، وترك الشكوى والسكون، وكتمان المصائب وتجرع المرارات، وأرفع الصبر وأعلاه: رؤية المرارات بعين الحلاوات، وهذا مقام التنعيم.

والفرق بين الصبر والتصبر: هو أن يصعد الصبر إلى مقام الرضا فيعمل على الطيبة والسماحة ووجدان الحلاوة، والمتصبر همته تمحيص الجنايات وتكفير السيئات.

والصبر على ثلاثة منازل: الصبر في الله، والصبر لله، والصبر مع الله، وأشده الصبر مع الله.

قال رسول الله ﷺ: «**لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله**»[١] إنهم يكفرون به ويجعلون له الصاحبة والولد، وهو يعافيهم ويرزقهم، وقد قالوا: الصابر لله وفي الله لا يجزع ولا توجد منه الشكوى.

والمتصبر: هو الذي يصبر لله على المكاره، فمرة يصبر وتارة يعجز.

والصابر: من لا يشكو ولا يعجز.

والصبار: هو الذي لو وقع عليه جميع البلاء والمحن لم يتغير من جهة الحقيقة

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٤٨)، ومسلم (٢٨٠٤).

وإن تغير من حيث الرسم والخلقة والبشرية.

والصبور: هو الثابت على هذه المقامات.

ولا يتم الصبر إلا بالشكر والحمد والحمد أصل الشكر، والحمد له معنيان:

أحدهما: الشكر.

والثاني: الثناء على المحمود بما هو أهله، وصلاح الدنيا والدين بالشكر والأدب.

فالشكر هو ما بينك وبين الله تعالى، والأدب هو ما بينك وبين الخلق، والشكر هو أن تعلم أن النعمة لله - جل وعز - وحده، ولا نعمة على الخلق من أهل السماوات والأرض إلا وبدايتها من الله - جل ذكره - حتى يكون الشاكر لله سبحانه عن نفسك وعن غيرك بمعرفة نعم الله عليك وعلى غيرك، ثم تعمل جوارحك في ابتغاء مرضاة المشكور بالخوف في ذلك والوجل من مقت الله أن يكون لعلك لم تخلص لله من ذلك العمل لله شيء كما يجب لله من عبده.

وشكر الشكر: هو علمك بأن الله تعالى هو الموفق لك للعمل بمرضاته، والمعين لك في قلبك وجوارحك وحده لا شريك له، وهذا الشكر واجب على كل شاكر، ولا نهاية لهذا الشكر لاتصاله بالمعرفة ولكن غايته جهد الاستطاعة، وسبيله المسلوك عليه تعظيم صغير نعم المنعم مع تقليل كثير الشكر ﴿**لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا**﴾ [الطلاق:٧].

والشاكرون على ثلاث طبقات:

- **فمنهم**: من يشكر الله رغبة في ثوابه.
- **ومنهم**: من يشكره رهبة من عقابه.
- **ومنهم**: من يشكره تلذذًا بالثناء عليه.

ومن علامات الشكر: تعرف المريد، وحقيقة الشكر: الاعتراف بالعجز عن الشكر، وقد قيل: إن كل عمل لله فهو أداء لشكر نعمه.

قال رسول الله ﷺ: «**عجبًا للمؤمن إن أمره كله خير: إن أصابه ما يحب حمد الله فكان له خيرًا، وإن أصابه ما يكره حمد الله فكان له خيرًا، وليس أحد أمره**

كله له خير إلا المؤمن»[١] ولا يتم ما تقدم ذكره من المقامات إلا بالرضا وإن لم يعتمد الصابر على الرضا ولم يداخل الرضا صبره أوشك أن يسخط؛ إذ منبعث الصبر عن معرفة قدر الجزاء من ثواب مرتجيه أو صرف عقاب يتقيه أو صبر هو لله أو صبر هو بالله، وإذا لم يعتمد صبره من هذه المقامات على الرضا ذل صاحبه وخالطه الجزع.

وعلامة الرضا: سرور القلب بأمر القضاء، واستواء المحبوب عنده بالمكروه؛ لأنهما طريقان إلى الله، يحمد الله على هذا ويحمده على هذا، وأرفعه ما كان عن موافقة الله - جل ذكره - في تقديره الأول قبل نزول الحكم بالتدبير.

ومن أدب الراضي: ألَّا يريد إلا الله، ولا يريد حتى يريد الله ﷻ هو الأول والآخر، وأعلى الرضا: ترك المعارضة، والعمل في الموافقة، ويقع العمل للعبد بأن الله عنه راضٍ إذا وفقه لما يحب ويرضى، وعصمه من كل ما يكرهه ويسخطه، فيعلم حينئذٍ أنه إن وافى به أجله على ذلك فهو عنه راضٍ.

وأصل الرضا: العلم بالله والمعرفة، ومخرجه من حسن الظن بالله تعالى، وإذا علمت النفوس وأيقنت القلوب بما شهدت به العلوم إن الله تعالى أجرى بمشيئته ما هو خير لعباده المؤمنين من اختياره ومحبته أيقنت القلوب حينئذٍ أن العدل لواحد ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١] وخرست الألسن عن الاعتراض على من قد علمت أنه عدل في قضائه غير متهم في حكمه، ومن قولهم من لم يرضَ عن الله في المنع لم يسلم من المعصية في العطاء.

وعلامة رضا العبد عن الله ﷻ فإنه إذا رضي الله بعبده عبدًا رضي العبد به ربًا ولا يتم الرضا إلا بالمحبة، وقد تقدم الكلام فيها في غير هذا الموضع، وعلامته إذا أحب الله العبد حبب إليه نفسه فأحبه العبد، فعلامة حبه إياك حبك إياه، وعلامة حب محبة العبد الله ﷻ: التزام الموافقة له، واتباع سنة رسوله ﷺ، ودوام الأسهار بذكره، وحلاوة المناجاة له، ويتصل الرضا بالمحبة.

ومقام المحبة يداخل مقام الرضا؛ لقرب المقامين بعضهما من بعض، وإذا

---

(١) أخرجه بنحوه مسلم (٧٦٩٢).

حصل الصدق في المقامين جاء منهما مباعدة الشهوات ومجانبة اللذات، والقيام بخدمة من له الدنيا والآخرة، وهؤلاء هم بنو اللذات حقًّا عيشهم سليم وغناهم في قلوبهم مقيم، كأنهم نظروا بأبصارهم إلى حجب الغيوب فقطعوا لله كل مراد لهم ومحبوب، وكان الله ﷻ هو المنى والمطلوب ليست تلحقهم فترة في نية ولا وهن في عزم ولا ضعف عن حزم، ولا تأويل في رخصة ولا ميل إلى داعي غرة، فهذا هو المراد بوصف المحبة، فاعلم ذلك، ومن سلك هذا السبيل فقد اتبع أحسن ما أنزل إليه من ربه وأناب إلى ربه وأسلم له وخشيه بالغيب، وخاف عذابه ورجا موعوده، منَّ الله علينا بذلك إنه ولي ذلك والقادر عليه، لا إله غيره ولا مرجو سواه.

أتبع ذلك قوله - جل من قائل: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ الله وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ [الزمر:٥٦] هذا في مقابلة قوله: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ...﴾ [الزمر:٥٣].

يقول - جل من قائل: سارعوا بالتوبة والإقلاع ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:١٩٥] بالقنوط فتظنون أني يتعاظمني ذنب أغفره لمن أناب إلي فإني أنا الغفور الرحيم.

ثم قال - عز من قائل - حكاية عن العبد: ﴿لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [الزمر:٥٧] هذا في مقابلة قوله لهم: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [الزمر: ٥٤] فيقولون فيما هنالك حين يلومون أنفسهم ويلعنونها وتلعنهم، فيجعلون آخر دعواهم: لو أن الله هدانا لكنا من المتقين.

ثم قال ﷻ: ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾(١) [الزمر: ٥٨] هذا في مقابله قوله في دعائه إياهم: ﴿وَأتبعوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الزمر:٥٥].

﴿ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾

---

(١) حاصل الكلام أن هذا المقصر أتى بثلاثة أشياء؛ **أولها**: الحسرة على التفريط في الطاعة، **وثانيها**: التعلل بفقد الهداية، **وثالثها**: بتمني الرجعة، ثم أجاب الله تعالى عن كلامهم بأن قال بفقد الهداية باطل؛ لأن الهداية كانت حاضرة والأعذار زائلة. [تفسير الرازي (١٣/٢٧٦)].

وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الزمر:٥٩ - ٦٣].

قوله تعالى: ﴿وَيُنَجِّي اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ﴾ [الزمر:٦١] هذا منتظم بما قبله من ذكر الذين كذبوا على الله، وذلك منتظم بما تقدم أيضًا من ذكرهم في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى الله وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ [الزمر:٣٢] مفازة كل عبد في ما هنالك على المقدار الذي يسره الله له في هذه الدار من العمل بطاعته، ومجانبة ما يسخطه والعلم به، ورفعة إيمانه ونور يقينه، فكل يومئذٍ مفازته على الصراط على قدر مفازته اليوم من علو المناهي ومفاز من المناهي، والعمل بالطاعة على المقدار الذي سبق له يوم كتب المقادير والكائنات.

يقول الله - جل من قائل - في وصف بعضهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ [الأنبياء:١٠١ - ١٠٢].

قوله ﷻ: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ الله أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[١] [الزمر:٦٣] المقاليد: المفاتيح، واحدها: إقليد، له مفاتيح خزائن السماوات والأرض.

---

(١) المقاليد، واحدها مقليد، ومقلاد، أو لا واحد له من لفظه كأساطير، وهي: مفاتيح السماوات، والأرض، والرزق، والرحمة، قاله مقاتل، وقتادة، وغيرهما، وقال الليث: المقلاد الخزانة، ومعنى الآية: له خزائن السماوات، والأرض، وبه قال الضحاك، والسدّي، وقيل: خزائن السماوات المطر، وخزائن الأرض النبات، وقيل: هي عبارة عن قدرته سبحانه، وحفظه لها، والأوّل أولى، قال الجوهري: الإقليد المفتاح، ثم قال: والجمع المقاليد، وقيل: هي لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله وبحمده، وأستغفر الله، ولا حول ولا قوّة إلا بالله، وقيل غير ذلك. [فتح القدير (٦ /٣٠١)].

قال رسول الله ﷺ: «**لا إله إلا الله ليس بينها وبين الله حجاب**»(١).

وقال وقد سمع رجلاً يقول: ربنا ولك الحمد حمدًا طيبًا مباركًا فيه: «**عجبت لها فتحت لها أبواب السماء**»(٢) وفي أخرى: «**لقد رأيت بضعة وثلاثين ملكًا يبتدرونها أيهم يكتبها أولا**»(٣).

وقد روي عنه ﷺ أنه قال: «**هي لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله وبحمده، وأستغفر الله، لا قوة إلا بالله الأول والآخر والظاهر والباطن، بيده الخير يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير**»(٤).

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٦٤) وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٦) وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧)﴾ [الزمر: ٦٤ - ٦٧].

قوله تعالى: ﴿**قُلْ أَفَغَيْرَ الله تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الجَاهِلُونَ**﴾ [الزمر: ٦٤] انتظم هذا بما تقدم ذكره من دعائهم إياه إلى ما يعتقدونه أو متابعتهم على بعض أمرهم.

ويتابعونه قوله تعالى: ﴿**وَمَا قَدَرُوا الله حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ**﴾(٥) ما قدروه معناه: ما عرفوه حق المعرفة، ما

---

(١) ذكره بنحوه السيوطي في اللآلي المصنوعة (٢/٢٩٠).

(٢) أخرجه مسلم (١٣٨٦).

(٣) أخرجه أحمد (١٩٠١٨)، والبخاري (٧٦٦)، والنسائي (١٠٦٢).

(٤) أخرجه أبو يعلى كما في مجمع الزوائد (١٠/١١٥) قال الهيثمي: فيه الأغلب بن تميم وهو ضعيف. والعقيلي (٤/٢٣١، ترجمة ١٨٢٥ مخلد أبو الهذيل)، وقال: في إسناده نظر. والرافعي (٤/١٦٣) قال المنذري (١/٢٦٢): رواه ابن أبي عاصم وأبو يعلى وابن السني وهو أصلحهم إسنادًا وغيرهم وفيه نكارة، وقد قيل فيه: موضوع وليس ببعيد، والله أعلم.

(٥) القدر بمعنى التعظيم كما في القاموس فالمعنى ما عظموا الله حق تعظيمه حيث جعلوا له شريكا بما لا يليق بشأنه العظيم ويقال قدر الشيء قدره من التقدير كما في المختار. فالمعنى ما قدروا عظمته تعالى في أنفسهم حق عظمته، وقال الراغب في المفردات: ما عرفوا كنهه. =

عظموه كما يجب له، ما أجلوه؛ إذ وصفوه بما يستحيل أن يوصف به، ويشركون معه سواه ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر:٦٧] لما لم يصفوه بما ينبغي لعظمته ويحق لجلاله، وصف هو نفسه، وقوله الحق ووصفه الصدق بقوله: ﴿وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ فأضاف السماوات إلى اليمين والأرضين جميعًا إلى اليد الأخرى، وكلتا يديه يمين مباركة، وقد يعبر عن القبضة بأنه الملك، ومعرفة العباد تعجز عن كيفية ذلك ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنعام:١٠٠].

فصل

قال الله - جل من قائل: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ﴾ للكتاب و﴿لِلْكُتُبِ﴾ على الإفراد والجمع ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾ [الأنبياء:١٠٤] فأخبر بذكر الإعادة أن البداية كانت قبل كذلك، وأنه تعالى يوم بدأهن جعلهن في يمينه المباركة كذلك الأرضون، وفي اليد الأخرى، وكلتا يديه يمين مباركة كما أعلمنا به في بدء بني آدم وأخذه الميثاق عليهم في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ [الأعراف:١٧٢].

وبيّن ذلك رسول الله ﷺ بقوله: «**إن الله لما خلق آدم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية**» وفيه: «**ثم مسح ظهره بيده الأخرى وكلتا يديه يمين...**»[١] والحديث الآخر في ذلك من رواية أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «**خلق الله الخلق وقضى القضية وأخذ ميثاق النبيين وعرشه على الماء فأخذ أهل اليمين بيمينه**

=

يقول الفقير: هذا ليس في محله، فإن الله تعالى وإن كان لا يعرف حق المعرفة بحسب كنهه؛ ولكن تتعلق به تلك المعرفة بحسبنا فالمعنى هاهنا ما عرفوا الله حق معرفته بحسبهم لا بحسب الله إذ لو عرفوه بحسبهم ما أضافوا إليه الشريك ونحوه فافهم. تفسير حقي (١٢/ ٣٢٥).

(١) أخرجه ابن جرير (٩/١١٤).

وأهل الشمال بيده الأخرى وكلتا يدي الرحمن يمين...»[١] وذكر أخذ الميثاق.

وجاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لما خلق الله آدم** عليه السلام **نفخ فيه من روحه عطس فأذن له فحمده فقال:** «الحمد لله» **قال له: رحمك ربك، ثم قال: يا آدم اذهب إلى أولئك الملأ من الملائكة جلوس فقل:** «السلام عليكم» **فذهب فسلم عليهم، فقالوا:** «السلام عليك ورحمة الله وبركاته، ارجع إلى ربك» **فقال الله** ﷻ: **هذه تحيتك وتحية ذريتك، ثم قال له بيديه وهما مقبوضتان: خذ أيهما شئت، فقال: أخذت يمين ربي وكلتا يديه يمين مباركة، ثم بسطها فإذا فيها آدم وذريته كلهم...**»[٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ﴾ [الأحزاب:٧٢] ذلك قوله تعالى، والله أعلم بما ينزل: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ [الأعراف:١٧٢] وأبطن ميثاق النبوة والرسالة، وقال في سورة «آل عمران»: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران:٨١] فذكر هنا عهد النبوة وتحمل إصر ما تجيء به الرسالة، وأبطن عهد الربوبية، فقام التحمل بين هذين وثبت التزام الميثاق والعهد.

والسماوات والأرض لما أبين من تحمل الإصر وأشفقن من مكابدة الدعوى في [حسب][٣] الخزائن أصار السماوات إلى يمينه والأرضين إلى يده الأخرى لطهارتهن وورودها عليه يومئذٍ على فطرها عليه؛ لأنه يسر عليهن الأمر وكفاهن مؤنة الإصر، وسخرهن لمنافع العباد فأتته طائعة قانتة، ولما كان الإنسان متحملاً للعهد ومتضمنًا الوفاء بمكابدة الإصر لم يرده إلى يمينه، بل أصاره إلى الصور كما تقدم ذكره في غير هذا الموضع.

---

(١) أخرجه العقيلي (١/١٣٩، ترجمة ١٦٩ بشر بن نمير) وقال: ولا يتابع عليه. والطبراني (٧٩٤٣)، وفي الأوسط (٧٦٣٢) وأبو الشيخ في العظمة (٣٩)، والطيالسي (١١٣٠).

(٢) أخرجه البيهقي في الكبرى (٢٠٣٠٧).

(٣) هكذا في (خ).

فصل

إن الله ﷻ قبل أن يخلق خلقه لم يزل عالمًا بهم بصيرًا سميعًا لهم وكانوا عدمًا من حيث هم وإن كان لهم وجود من حيث هو عالمهم ومسببهم إذا شاء، ولما أوجدهم للميثاق وأخذ العهد عليهم وإشهادهم أنفسهم كان لهم وجود من حيث هم، ثم لما أعدمهم وأصارهم في خزائن السماوات والأرض ذواتًا وأرواحًا باتباع ذلك كانوا غيبًا عن أنفسهم ووجودًا ما في مستقرهم من الخزائن في غيب السماوات والأرض، ثم لما أوجدهم الآن ظهروا بذلك لأنفسهم وظهر بعضهم لبعض، وكمل في ذلك وجودهم المطابق للمراد بهم ومنهم وعلى قدر هذه الدار من الدار الآخرة، ثم هم إذا أماتهم كانوا غيبًا في حق من لم يلحق بهم بالموت، وكان لهم وجود لأنفسهم وظهور لها ولمن لحق بهم، ثم في الإحياء الآخر والإيجاد المستقبل يكمل الوجود والظهور للمراد بهم وفيهم، ووصف الله - تبارك وتعالى - ما غاب عنا أنه قد صار إليه.

قال الله - عز من قائل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ هذا حاله منذ ظهور الفجر إلى طلوع الشمس، يقول الله جل ذكره: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ يعني: وهو أعلم الظل المذكور، ثم قال - عز من قائل: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً﴾ [الفرقان:٤٥] لو كان الليل ساكنًا لكان المعهود، والمعهود لا يعرف له غير حال بقائه إلا بدليل يدل عليه وآية تعرف به، فاستاق ذكر إطلاعه الشمس دلالة على الظل أن لو كان ساكنًا كما فرضه عرض بذلك إلى الإعلام بفوائد الدلالات ومنافع التفصيل، ولما أطلع الشمس مد الظل مدًا آخر.

يقول - جل من قائل: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ [الفرقان:٤٦] فأخبر - جل ذكره - بصدق حديثه أن المعدوم ليس بمعدوم على الحقيقة، بل يصير إليه كذلك، أخبر عن الملائكة بأنهم عنده، وعن الشهداء أنهم عنده، ويقال في المؤمنين: إنهم صاروا إلى ربهم وإذا مات أحدنا قالوا: صار إلى الله وما فعل ذلك حتى لقي الله، ويقال في الكفار: إنهم أفضوا إلى ما قدموا، وقال الله - جل من قائل - في العموم: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ [الغاشية:٢٥ - ٢٦].

قول الله ﷻ: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزمر: ٤٤] وذكر الرجوع إلى الله كثير في

القرآن هو لما قد تقدم ذكره أنهم كانوا في وجوده علمًا وقدرة ومشيئة، فكانوا بذلك موجودين عنده وله، كما قال: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١] أي: لسوى الله وإلا فالله عالم به ذاكر له في أزله وبما يخرجه إليه وما يأوله إليه، فلما أظهرهم صاروا بذلك موجودين لأنفسهم، وظهر بعضهم لبعض، ثم أوجدهم لأخذ الميثاق عليهم، ثم أعدمهم عنهم وبثهم في الخزائن، ثم أظهر هذا الإظهار بهذه الحياة الدنيا، فإذا أماتهم أرجعهم إلى كونهم في الخزائن، وذلك إرجاع منه إياهم إليه - عز جلاله - منه كان بدؤهم وإليه عودهم، فهذا إرجاع حق.

كما قال فيما خلق من الأرض: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ فيها؛ أي: في إظهاره إيانا اليوم ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ أي: بعد الموت حال البلاء ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه:٥٥] فكذلك دائرة الإرجاع إليه منه كان البدء وإليه العود، وعلى هذا السبيل من النظر لا بد إذًا من لقاء الله - جل ذكره - كما لا بد من الموت، كما لا بد من الإحياء في الدار الآخرة ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ [الواقعة:٩٥].

آية ذلك: وجود علم الفطرة فينا ومعرفة الحياة، ذلك لأنا كنا فيما هو موصوف بالعلم والقدرة والمشيئة والأسماء والصفات، ألا ترى أن أحدًا لا يتعلم، بل يتذكر أو يتفكر بتذكر فيذكر ويتفكر فيبصر ما قد غاب عنه بالسهو والغفلة والنسيان، فلا بد من لقاء الله والرجوع إليه حق، نسأل الله أن يجعل لنا في ذلك كل يسر وخير وكرامة بمنه وفضله العظيم.

كأنما ابن آدم قد شاهد كل مذكور ومعلوم، ثم أنسيه لكونه مخبرنا في خزائن السماوات والأرض، ثم في إنشائه نباتًا، ثم نطفة في البطن، ثم في إخراجه طفلاً، فلما عقل تفكر، فإذا هو يتذكر كل ما عهده قبل، وعرف كل ما شاهده في البدء الأول، إن ربنا لعليم حكيم، ما أعجب هذا من شأن، فقوله جل ذكره: ﴿وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر:٦٧].

﴿وَالأَرْضُ جَمِيعًا﴾ أي: الأرضون كلها ﴿قَبْضَتُهُ﴾ [الزمر:٦٧] يوم القيامة؛ يعني وهو أعلم بما ينزل: أن ذلك حال كونهن معدومات، وقد بدلت الأرض غير الأرض والسماوات.

وقوله: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] أي: نطويها على ما قد جعل فيها يوم خلقها من أمر كل سماء الذي أوحى فيهن يوم سوَّاهن سبع سموات، والسماء السابعة تحتوي على ما سواها منهن، فقوله للكتاب يتوجه إلى الأمر المذكور، وقوله للكتب يتوجه إلى انطواء كل سماء في التي فوقها حتى تحتوي عليهن السابعة ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

ثم قال - عز من قائل: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] ذلك قول رسول الله ﷺ: «**يصيرها الله خبزة كالنقى**» يعني: الدرمك، وكالنقى يعني: الشحم «**يتكفؤها الجبار بيده كما يتكفأ أحدكم خبزته في السفر نزلاً لأهل الجنة**»[1].

وعلى ذلك: فالسماوات مطويات بيمينه، والأرضون كلهن قبضته، وقد صير الله موضع السماوات غيرهن وموضع الأرضين، كما أخبر ﷻ أنه: ﴿مَا يُعَمَّرُ مِن مُعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ وكذلك لا يكون من إيجاد لجميع المخلوقات حال إمساكه إياها ولا إعدام إلا هو عنده في كتاب ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: ١١] فافهم ﴿إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥].

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزمر: ٦٨ - ٧٢].

---

(١) أخرجه عبد بن حميد (٩٦٢)، والبخاري (٦١٥٥)، ومسلم (٢٧٩٢).

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللهُ﴾ [الزمر:٦٨] الصور جمع صورة وقد يعبر عنه بالقرن(١).

---

(١) قال المصنف: آية هذا الفصل غيب، ولكنه غيب شاهدته العقول ببصيرة الإيمان وجودًا قام لها اليقين به، فبهذا الوجه كان آية، وإلا فهو أصل وهو جمعه الذوات في الأزل في يمينه الكريمتين - جل جلال ربنا وتعالت عظمته - وكانت الذوات يومئذٍ لم تكن قد نست بعد بأنواع المعاصي والكفر، خلا ما كان في سابق علمه المحيط أن سيكون منهم الذي كان، ولأنه الطاهر القدوس لم يكن لها أن ترجع إلى يمينيه الكريمتين، وقد واقعت المحظور فعلاً وتدنست به فأوجد لهم الصور، وهو من عالم الأمر بدلاً من القبضتين يومئذٍ ليصورهن فيه، أي: ليضمهن ويجمعهن. كذلك قال الخليل ﷺ يوم علمه كيف يحيي الموتى: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ يريد الذوات، والله أعلم بما أراده، واجعل من الطوائر: ﴿عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ [البقرة:٢٦٠] وكنَّى عن أصول الطوائر بالجبال، فأمره أن يجعل على كل أصل منها جزءه الذي انتزع في أول الخلقة عنه؛ ليعاد فيه كالمعلوم من حكمته ﷻ فأقام الصور التي تصورهن فيه يوم الصعق مقام قبضته والصور من أمره؛ ولذلك عادت الأرواح التي هي أيضًا من أمره إليه حكمة بالغة، وأمر حتم رجوع كل شيء إلى حيث كان آية، ذلك آية فيما بيننا في هذه الدار المطبوعات والمجبولات على ما هي عليه، ولم تكن في البدء كذلك، ألا ترى أنها ليست تكون في البرزخ كذلك، بل يطلقها هنالك من ثقاف الطبع وأسر الجبلة ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء:٢١] وإنما فعل ذلك الابتلاء وما فيه من تعجيل الكلمة وتأجيل مقتضى السنة؛ لتشهد له الشواهد، وليصدق المتلقين عنه رسالاته، فهو لا يخرق - جل ذكره - العوائد، ولا يفك خاتم الطبع إلا ما يقوم مقام الشهادة منها له، فاعلم ذلك واحرص على منفعته ينفعك الله به إن شاء الله. ثم يرجع بنا الكلام إلى ما إليه قصدنا، فإذا أذن الله - جل ذكره - لإسرافيل ﷺ في نفخة الصعق، صعق لتلك النفخة كل روح في السماوات والأرض إلا من شاء الله، وفزع إلى الصور داخرًا صاغرًا ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٨] توحد بالبقاء وقهر العباد بالموت والفناء، ثم يموت إسرافيل ﷺ وملك الموت، فيومئذٍ تمت كلمته في رجوع الموت إلى الموت، ورجع التراب والطوائر إلى أصولها، والأجزاء إلى كلياتها، والأرواح إلى الأمر، ويبقى الملك الحق جل ذكره، الباقي الدائم الحي القيوم فينادي: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر:١٦] ثلاثًا، ولا داعي يومئذٍ ولا مجيب سواه - ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه - فيجيب نفسه ﷻ: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦] خاصة اسم القهار القدرة على الذوات والأرواح، كما خصّه اسم القادر والمقتدر على إخراج ذوات المقادير من العدم إلى الوجود، وجمع خلقها حتى إذا شاء ﷻ أن يتمم كلمته الحق في رجوع أواخر الحكمة على أوائلها، وانعطاف تناهيها على =

قال رسول الله ﷺ: «**كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر فينفخ**»[(١)] وربما كان خاصة معناه: قرن ولد آدم الله أعلم كيف هو، إليه يصور الأرواح؛ أي: يميلها، والصعق: الموت، والصعق: الغشية، والمستثنى بقوله: ﴿**إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ**﴾ [الزمر:٦٨] هم الأنبياء والرسل والشهداء، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿**وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا**﴾ يعني: أفواجًا، ويجوز أن يكون أممًا، والمعنى واحد، قوله تعالى في هؤلاء: ﴿**حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا**﴾ [الزمر:٧١] وقال في أهل الجنة: ﴿**حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا**﴾ بالواو، والمعنى والله أعلم: أنهم إذا جاءوها طهروا وهذبوا وفتحت أبوابها، فجعل غاية مجيئهم أن يطهروا ويهذبوا أولاً، ثم عطفه على ذلك بالواو فقال: ﴿**وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا**﴾ [الزمر:٧٣].

نبه على ذلك رسول الله ﷺ في حديثه المشهور، ويجوز أن يكون العطف بالواو على استفتاح رسول الله ﷺ إياها زائدًا على ما تقدم ذكره، فهذه من خاصة ما أعطيه ﷺ.

قال رسول الله ﷺ في حديث الشفاعة، وذكر أن الناس يستشفعون به إلى ربهم في فتح أبواب الجنة قال: «**فأجيء فأقعقع الباب، فيقول لي خازنها: من أنت؟ فأقول: محمد، فيقول: بك أمرت لا أفتح لأحد قبلك**»[(٢)] فيكون العطف أولاً على

= مبادئها أنزل جل ذكره من تحت العرش ماء كمني الرجال، وأمر كل شيء أخذ من شيء حبة خردل أو أدنى أن يأتي بما فيه، فيرجع كل شيء على طريقه الذي ذهب عليه، فينبت أجسام الخليقة كما ينبت النبات، ثم يحيى إسرافيل ﷺ فيأمره بالنفخ في الصور نفخة النشور، فينفخ وتخرج كل روح إلى جسده ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨] [شرح الأسماء ٢/٣٩].

(١) أخرجه أحمد (١١٧١٤)، وعبد بن حميد (٨٨٦)، وأبو يعلى (١٠٨٤)، والترمذي (٢٤٣١)، وابن حبان (٨٢٣)، والحاكم (٨٦٧٨)، والحميدى (٧٥٤)، وأبو نعيم (٥/١٠٥) وقال: غريب.

(٢) أخرجه بنحوه أحمد (١٢٤٢٠)، وعبد بن حميد (١٢٧١)، ومسلم (١٩٧)، وابن منده في الإيمان (٨٦٧)، وأبو عوانة (٤١٨).

المجيء والتطهير، ويكون أيضًا على استفتاح الباب وفتحه، هذا في الرعيل الأول - على جميعهم السلام، جعلنا الله منهم وفيهم في الدنيا وفي الآخرة وفيما بين ذلك - ويكون العطف في حق غيرهم تقدير: حتى إذا جاءوها وقد فتحت أبوابها يعرض بذلك إلى كرامة رسوله ﷺ.

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ (٧٣) وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ (٧٤) وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٧٥) ﴾ [الزمر: ٧٣ - ٧٥].

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى المَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ العَرْشِ﴾ ولا تستطيع الطواف به كما يطوفون بالبيت المعمور ويطوف المسلمون بالبيت الحرام، وقوله: ﴿وَتَرَى المَلائِكَةَ﴾ أي: يومئذٍ يرى رسول الله ﷺ الملائكة حول العرش من الجنة؛ أي: إن داره ﷺ أعلى دار هي في الجنة، ويمكن أن يكون ذلك مرئيًا لأهل الجنة كلهم، والعرش أعم عمومًا وأحق حيطة بالجنة من السماء بدار الدنيا، وقد اشتركوا في رؤية السماء، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ أي: بالعدل وبالفضل وعلى ما أخبر به القرآن وجاء به الوحي ﴿وَقِيلَ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥] حمده الجميع، وهو المحمود على كل حال، كما قال - عز من قائل: ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَهُ الحَمْدُ فِي الآخِرَةِ﴾ [سبأ: ١] حكمه حمد، وعدله حمد، وفضله حمد، له الحمد في الأولى والآخرة، وله الحكم المحكوم له بالعدل، والحق حامد لا محالة، والمحكوم عليه بذلك أيضًا حامد وإن عدلت نفسه عن الرضا.

فهرس المحتويات